



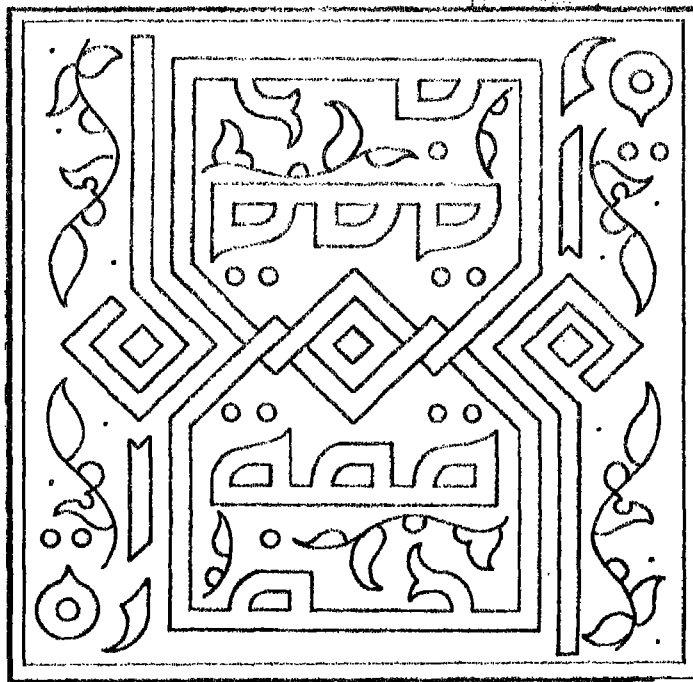
ویل ڈاؤن ویل دیوڑاٹ

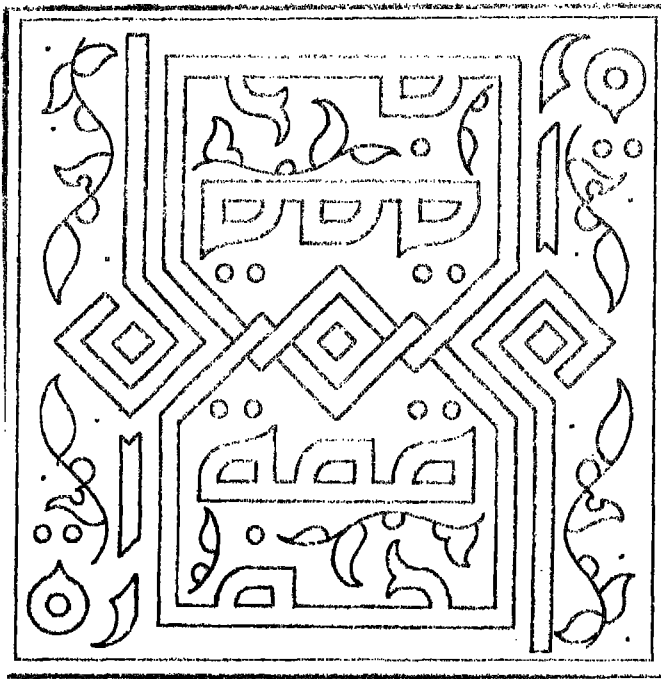
قصۃ الحضارة

عبدالمجید




 Bibliotheca Alexandrina

 0159784





قصة الحضارة

ول وايريل ديورانت

عصر قولتير

تاريخ الحضارة في أوروبا الغربية من ١٧١٥ إلى ١٧٥٦
مع التنويه الخاص بالصراع بين الدين والفلسفة

مراجعة
عالم أدهم

ترجمة
فؤاد أندراوس

الجزء الأول من المجلد السابع



تونس

٦٥



بيروت

حقوق الطبع محفوظة

فلا الجيت : ص.ب. ٨٧٣٧ - ت. ٢٦٦١٥٨ = ٢٦٠٤٦٥ - ت. ٢٣٤٢
العنوان البرقي : دار ميلاد - بيروت - لبنان

إلى حفيدنا المحبوب
جم

محتويات الكتاب

٥	كلمة اعتذار
٧	مقدمة
٩	الفصل الاول : فرنسا : الوصاية : ١٧١٥ - ٢٣
٩	١ - فولتير الشاب
١٢	٢ - الصراع على الوصاية
١٨	٣ - ازدهار ثم انهيار
٢٧	٤ - الوصي
٣٤	٥ - المجتمع فى عهد الوصاية
٣٨	٦ - فاتو والفنون
٤٤	٧ - المؤلفون
٤٨	٨ - الكردينال العجيب
٥١	٩ - فولتير والباستيل

الكتاب الاول

انجلترا ١٧١٤ - ٥٦

٦٥	الفصل الثانى . الشعب
٦٥	١ - التمهيد للثورة الصناعية
٦٥	أ (المؤيدون
٦٩	ب (الصناعة
٧٢	ج (الاختراع
٧٥	د (رأس المال والعمال
٧٨	هـ (النقل والتجارة
٨٠	و (المال

٨٥	٢ - مظاهر الحياة فى لندن
٨٩	٣ - المدارس
٩٢	٤ - الأخلاق
١٠٠	٥ - الجريمة والعقاب
١٠٨	٦ - آداب السلوك
١١٨	٧ - تشستر فيلد

الفصل الثالث . الحكام

١٢٩	١ - جورج الأول
١٣٦	٢ - جورج الثانى والملكة كارولين
١٣٨	٣ - روبرت ولبول
١٤٣	٤ - بولنبروك
١٤٦	٥ - كيف تنزلق الدول الى الحرب
١٤٩	٦ - ايرلندة
١٥٤	٧ - اسكتلنده
١٥٧	٨ - الامير تشارلى الجميل
١٦٣	٩ - صعود وليم بت

الفصل الرابع . الدين والفلسفة

١٦٧	١ - الموقف الدينى
١٧٢	٢ - التحدى الربوبى
١٧٧	٣ - المدفع الدينى
١٨٤	٤ - جون وسلى
١٩٨	٥ - فى النحل والبشر
٢٠١	٦ - ديفد هيوم
٢٠١	أ (الفيلسوف الشاب
٢٠٤	ب (الغض من شأن العقل
٢١٠	ج (الأخلاق والمعجزات
٢١٤	د (الداروينية والمسيحية
٢١٩	هـ (الشيوعية والديمقراطية
٢٢٣	و (التاريخ
٢٢٧	ز (الفيلسوف العجوز

٢٣٢	الفصل الخامس . الأدب والمسرح
٢٣٢	١ - دولة القلم
٢٣٥	٢ - الكسندر بوب
٢٥٥	٣ - أصوات الوجدان
٢٦٢	٤ - المسرح
٢٦٩	٥ - الرواية
٢٧٠	أ (صموئيل رتشردن
٢٧٧	ب (هنرى فيلدينج
٢٨٦	ج (طوبياس سمولت
٢٩٣	٦ - الليدى مارى
٣٠٧	الفصل السادس . التصوير والموسيقى
٣٠٧	١ - المصورون
٣١٢	٢ - وليم هوجارث
٣٢٢	٣ - الموسيقيون
٣٢٦	٤ - هندل
٣٢٦	أ - نشأته
٣٣٠	ب (غزو انجلترا
٣٣٨	ج (هزيمته
٣٤٢	د (الأوراتوريو
٣٤٧	هـ (بروميثيوس
٣٥٣	٥ - فولتير فى انجلترا

كلمة اعتذار

يجب أن يُلقى اللوم لطول هذا المجلد على المؤلفين اللذين أغراهما بالاسهاب الشديد افتتانهما بموضوعه المحسوري - ونعنى به الصراع الغالب ، المتصل ، بين الدين والعلم ، مضافا اليه الفلسفة ، ذلك الصراع الذى استحال الى مسرحية حية فى القرن الثامن عشر ، وتمخض عن علمانية عصرنا الممترة . فكيف حدث أن شطرا كبيرا من الطبقات المتعلمة فى أوربا وأمريكا فقد الايمان بلاهوت ظل خمسة عشر قرنا يقدم خوارق الدعائم والاسانيد للقانون الاخلاقى القلق ، المتنافر ، الذى أرسيت فوقه الحضارة الغربية ؟ وأى آثار - فى الاخلاق والادب ، والسياسة - سيسفر عنها هذا التغيير ، الأساسى رغم صمته ؟

لقد ازداد التفصيل فى كل مجلد بتكاثر أحداث الماضي وشخصياته التى لا تزال اليوم حية فى تأثيرها وتشويقها . ولعل هذا التكاثر ، بالإضافة الى تعدد الموضوعات - التى تنتظم جميع مناحى الحضارة فى أوربا الغربية من ١٧١٥ الى ١٧٥٦ - ينهض عذرا عن طول القصة وتشعبها . وهكذا فجر « عصر فولتير » ضفافه وفاض بجزء عاشر ننوى اصداره عن « روسو والثورة » يبلغ بالقصة عام ١٧٨٩ . وسيتناول هذا الجزء العاشر التغيير الذى أحدثته حرب السنوات السبع فى خريطة العالم ، والسنين الأخيرة التى اختتمت بها حياة لويس الخامس عشر ، ١٧٥٦ - ٧٤ ، وعصر جونسون ورينولدز فى إنجلترا ، وتطور الثورة الصناعية وازدهار الأدب الالمانى من لسنج الى جوته ، والفلسفة الالمانية من هردر الى كانط ، والموسيقى الالمانية من جلوك الى موتسارت ، وانهيار الاقطاع فى فرنسا لويس السادس عشر ، وتاريخ تلك الأمم المحيطة بالقارة - وهى السويد ، والدنمرك ، وبولنده ، وروسيا ، وتركيا ، وإيطاليا ، والبرتغال ، وأسبانيا - التى أرجأنا تناولها فى هذا المجلد قصدا فى المساحة من جهة ، ولعدم تورطها مباشرة فى الصراع العظيم بين العقل والايمان من جهة أخرى (الا عن طريق البابوية) . وسينظر هذا المجلد الختامى فى مراحل ذلك الصراع

اللاحقة ، متمثلة فى ثورة روسو على العقلانية ، وجهد ايمانويل كانط: البطولى لانقاذ اللاهوت المسيحى عن طريق الاخلاق المسيحية . وسوف تستكمل لوحة عصر فولتير فى ذلك الجزء العاشر من « قصة الحضارة » وتعرض خاتمة هذا المجلد التاسع الدفاع عن الدين ، أما خاتمة « روسو والثورة » التى تلقى نظرة محيطية على المجلدات العشرة كلها ، فستتصدى لسؤال يبلغ بموضوع الكتاب ذروته : ما هى عظات التاريخ وعبره ؟ .

ولقد حاولنا أن نصور الواقع بالمزج بين التاريخ والسير . وستتير هذه التجربة نقد الناقدين - ولا ضير فى هذا ، ولكنها تحقق هدف « التاريخ المتكامل » . ذلك أن الأحداث والاشخاص تسير جنباً الى جنب خلال الزمن دون اعتبار لايها كانت الاسباب وايها النتائج ، والتاريخ يتكلم فى الأحداث ، ولكن خلال الافراد . وليس هذا المجلد سيرة لفولتير ، انما هو يستخدم حياته الجواله الشائرة نسبجا يربط بين الامم والاجيال ، ويقبله بوصفه اعظم الاعلام دلالة وأكثرهم ايضاحاً فى الفترة بين موت لويس الرابع عشر وسقوط الباستيل . فمن من بين جميع الرجال والنساء الذين عاشوا فى تلك الحقبة المضطربة أنصع من فولتير صورة فى ذاكرة الناس ، وأحظى بقراءتهم الكثيرة لأعماله ، وأبقى تأثيراً فيهم اليوم ؟ يقول جيورج برانديس « ان فولتير خلاصة قرن من الزمان (١) » . ويقول فكتور كوزان « ان الملك الحقيقى للقرن الثامن عشر هو فولتير (٢) » . فلنسر اذن خلف ذلك اللهب المتوهج خلال القرن الذى عاش فيه .

مقدمة

الفصل الأول

فرنسا : للوصاية

١٧١٥ - ٢٣

١ - فولتير الشاب : ١٦٩٤ - ١٧١٥

لم يكن اسمه بعد فولتير ، بل كان حتى اطلاق سراحه من
الباستيل في ١٧١٨ يدعى فرانسوا ماري آرويه . وقد ولد ببباريس في
٢١ نوفمبر ١٦٩٤ ، وأصبح خلاصتها المصفاة حتى ١٧٧٨ . أما الرجل
الذي يفترض أنه أبوه ، واسمه فرانسوا آرويه ، فكان محاميا ميسور
الحال ، عرف الشاعر بوالو والغانية تينون دلانكلو ، وكتب وصيتهما ،
وعرف المسرحى ببير كورنيي ، ووصفه بأنه « أثقل من لقي من الناس
ظلا (١) » . وأما أمه ، ماري مارجريت دومار ، فكان يجرى في
عروقتها قدر طفيف من الدم النبيل ، وكانت ابنة موظف في « البرلمان »
وأخت المراقب العام للحرس الملكي ، ومن طريقهما استطاعت الوصول
الى بلاط لويس الرابع عشر . وقد جعلت حيويتها وذكاؤها المرحة من
بيتها صالونا صغيرا . وذهب فولتير الى أنها ملكت كل ما وهبت أسرته
من ذكاء ، كما ملك أبوه كل ما أوتيت من دراية مالية ، وقد استوعب
الابن الموهبتين جميعا فيما ورثه . وماتت أمه في الأربعين وهو لم
يجاوز السابعة . وكان أكبر أبنائها الخمسة أرمان ، الذي كان غيورا
على لاهوت الجانسنيين حريصا على ميراث الأسرة . أما أصغر الأبناء
فرانسوا ماري ، فكان معتلا في عامه الأول ، حتى أن أحدا لم يصدق
أن سنكتب له الحياة . وقد ظل حتى الرابعة والثمانين يتوقع موته
المبكر ويذيعه على الناس .

وكان من بين أصدقاء الأسرة عدة « آباء » abbés وهو لقب
كان يخلع على أى كنسي علماني ، سواء كان قسيسا مرسوما أو لم يكن .
وقد أصبح كثير من هؤلاء الآباء رجال دنيا لا دين ، لمعوا في المجتمع
رغم تمسكهم برداء الكهنوت ، ومنهم من ألفوا المشاركة للسافرة في

مجالس خلت من الوقار ، ومنهم من عاش كما يشتهى متسترا وان حافظ على مظهر لقبه . مثال ذلك الابيه دشاتو نوف ، آخر عشاق نينون دلانكلو وأول معلم لفولتير . وكان رجلا واسع الثقافة ، رحب الأفق ، وقد أشرب تلميذه وبنية نينون وارتياحية مونتيني . وفي رواية قديمة مشكوك فيها انه قدم للصبى ملحمة هازلة تدعى « الملحمة الموسوية » كانت تتداول في مخطوطات سرية ، وسؤداها ان الدين ، اذا استثنينا الايمان بكائن أعظم ، ليس الا ذريعة يتذرع بها الحكام لاختضاع المحكومين وارهابهم (٢) .

بدأ تعليم فولتير حين اصطحبه معلمه « الابيه » في زيارة لنينون ، وكانت الغانية الشهيرة يومها (١٧٠٤) في الرابعة والثمانين . ووجدها فرانسوا « يابسة كالمومياء » ولكنها مازالت فياضة برقة المرأة وعطفها . وقد تذكر في تاريخ لاحق صنيعها فقال « لقد طاب لها أن تذكرني في وصيتها ، فتركت لى ألفى فرنك لاشترى بها كتبا (١٣) » . وماتت بعد ذلك بقليل .

ورغبة في موازنة هذا الغذاء ألحق الصبى وهو فى العاشرة طالبا مقيما بكلية لوى - لجران اليسوعية على شاطئ باريس الأيسر ، التى اشتهرت بأنها أفضل مدرسة فى فرنسا . وكانت تضم بين تلاميذها الألفين من أبناء الأشراف كل من أطاق أن يتعلم ، وفى السنوات السبع التى أنفقها فولتير فى مدرسته صنع الكثير من الأصدقاء الأرستقراطيين الذين احتفظ طوال حياته بالآلفة الطبيعية معهم . وقد تلقى تدريبات حسنا فى الدراسات الكلاسيكية ، والأدب ، ولا سيما المسرحية ، ومثل فى مسرحيات عرضت هناك ، وكتب هو نفسه تمثيلية وهو بعد فى الثانية عشرة . وكان متقدما فى دراسته ، وظفر بجوائز كثيرة وأبهج معلميه وأفزعهم . فلقد أعرب عن عدم ايمانه بالبحيم ، وسمى السماء « عنبر نوم الدنيا الكبير (٤) » . وتنبا أحد معلميه فى حزن بأن هذا الفكر الصغير سيحمل لواء الربوبية الفرنسية - أى الدين الذى يرفض كل لاهوت تقريبا فيما عدا الايمان بالله . على أنهم احتملوه بما عهد فيهم من صبر وأناة ، وبإدلالهم هذا الصنيع باحتفاظه - طوال هرطقاته كلها - باحترام وعرفان بالبحيم

دافئتين لليسوعيين الذين راضوا عقله على الوضوح ودربوه على النظام
كتب وهو فى الثانية والخمسين يقول :

« تلقيت العلم سبع سنين على يد رجال بذلوا جهودا مضنية لم
ينالوا عليها جزاء ليربوا عقول الشباب وأخلاقهم ٠٠٠ ولقد أشربونى
ميلا الى الأدب ، وعواطف ستكون عزاء لى الى نهاية عمرى . وما من
شيء سمحوا من قلبى ذكرى الأب بوريه ، الذى هو عزيز بالمثل على
كل من أخفوا عنه العلم . فان احدا من المعلمين لم يحبب تلاميذه فى
للدروس والفضيلة كما فعل ذلك الأب ٠٠٠ وقد أسعدنى الحظ بتلقى
العلم على أكثر من أب يسوعى جملمته أخلاق الأب بوريه ٠٠ فما الذى
رأيتة خلال السنين السبع التى قضيتها مع اليسوعيين ؟ أكثر ضروب
للحياة جدا وقصدا وتنظيما ، أوقاتهم كلها قسمة بين رعاية يبذلونها
لنا وممارسات لمهنتهم الشاقة . وانى لأستشهد بالآلاف الذين علموهم
كما علمونى وليس بين هؤلاء فرد يكذبنى (٥) » .

ويعد أن تخرج قرانسون نوى أن يجعل الأدب مهنته ، ولكن أباه
أصر على أن يدرس القانون ، محذرا إياه من احتراف الأدب الذى هو
كلمة المرور السحرية الى الفقر والعوز . وظل فرانسوا ثلاث سنين
« يدرس قوانين تيودوسيوس وجستنيان سبيلا لمعرفة مهنة المحاماة
الباريسية » على حد قوله . وقد كره « كثرة الأشياء عديمة الجدوى
التي أرادوا أن يشحنوا بها ذهنى ؛ ان شعارى هو : التركيز على
صميم الموضوع (٦) » . وبدلا من أن يستغرق فى مجموعات القوانين
والسوابق القانونية ، سعى لصحبة جماعة من شكاك الأبيقوريين كانوا
يجتمعون فى التأميل - وهو بناء تخلف من دير قديم لفرسان الهيكل
(الداوية) فى باريس . وكان امامهم فيليب دفاندوم ، كبير رؤساء
إديار فرنسا ، صاحب الموارد الكنسية الضخمة والايمان الدينى الهزيل ،
ومعه الآباء سيرفيان ، ودبوسى ، ودشوليو ، ومركيز دلافار ، وأمير
كوفتى ، وغيرهم من الأعيان الذين يتمتعون بدخل ميسر وحياسة
مرحة ٠٠ . وكان الأب ديشوليو يجهر بأن الخمر والنساء أطيب النعم
التي جادت بها على الانسان طبيعة حكيمة خيرة (٧) . وقد لاعم
فولتير بين نفسه وبين هذا النظام دون عناء ، وصدم أباه بالمهر خارج

البيت مع أمثال هؤلاء للمسلم المعريدين حتى العاشرة مساء ، وكانت
تعد يومها ساعة متأخرة تأخيرا منكرا .

وعين فولتير ملحقا للسفير الفرنسي بلاهاى (١٧١٣) ، ربما
بناء على طلب الأب . ويعرف العالم كله كيف وقع الفتى البالغ الحساسة
فى غرام أوليمب دنواييه ، وكيف لاحقها بأشعاره ، وقطع لها العهد
بعبادتها الى الابد . كتب لها يقول : « لم يوجد حب يعدل حبنى ، لأنه
لم يوجد انسان أجدر بالحب منك (٨) » . وأبلغ السفير آرويه الأب
بان فرانسوا لم يخلق للدبلوماسية . فاستدعى ولده الى وطنه ، وحرمه
من ميراثه ، وهدد بنفيه على مركب الى جزر الهند الغربية . وكتب
فرانسوا من باريس الى « بامبيت » بأنه قاتل نفسه ان لم تبادل بالحضور
اليه . واذا كانت أعدل منه بسنتين اثنتين ، وبجنس واحد ، فقد ردت
عليه بأن من الخير له أن يصلح أباه ، ويصبح محاميا فالحا . وصفح
عنه أبوه شريطة أن يدخل مكتب محام ويقوم معه ، فوافق . اما بامبيت
فتزوجت كونتا . ويبدو أنها كانت آخر مغامرات فولتير الغرامية .
لقد كان انسانا مرهف الشعور كأي شاعر ، كله أعصاب وحساسية ، ولكنه
لم يكن عارم الشهوة ، وسوف يقع بعد ذلك فى غرام مشهور ، ولكنه
لن يكون تجاذبا بين جسدين بقدر ما هو تألف بين عقليين . لقد فاضت
طاقته من خلال قلمه . كتب الى المركيزة ديمور وهو لم يجاوز الخامسة
والعشرين يقول « ان الصداقة أئمن ألف مرة من الحب . ويخيل الى
أننى لم أخلق قط للغرام . فاننى أجد فى الحب شيئا سخيفا نوعا ما . .
وقد قررت أن أطلقه الى الابد (٩) » .

وفى أول سبتمبر ١٧١٥ مات لويس الرابع عشر ، فتنفست أوروبا
البروتستنتية وفرنسا الكاثوليكية الصعداء . لقد كان موته خاتمة ملك
ونهاية عصر : ملك اتصل اثنتين وسبعين سنة ، وعصر - عصر القرن
العظيم - بدأ بأمجاد الانتصارات الحربية ، وبهاء الروائع الأدبية ،
وفخامة فن الباروك ، وانتهى بانحلال الفنون والآداب ، وارهاق الشعب
واقفاره ، وهزيمة فرنسا واذلالها . وتطلع الجميع فى أمل وشك الى
الحكومة التى ستخلف الملك المهيب الذى راح غير مبكى عليه .

٢ - الصراع على الوصاية : ١٧١٥

كان هناك ملك جديد ، هو لويس الخامس عشر ، ابن حفيد

لويس الرابع عشر ، ولكنه لم يكن قد جاوز الخامسة . مات جده ،
وأبوه ، وأمه ، واخوته ، واخواته ، وأخيرا جد أبيه . فمن يكون وصيا
عليه ؟ .

لقد سبق وليان للعهد الملك الشمس الى الموت : ابنه لويس الذى
مات فى ١٧١١ ، وحفيده دوق برجنديا الذى مات فى ١٧١٢ . وقبل
حفيد آخر باسم فيليب الخامس ملكا على اسبانيا ، شريطة تنازله عن
جمع حقوقه فى عرش فرنسا ، وبقي على قيد الحياة بعد موت الملك
الشيخ ابنان غير شرعيين ، وكان قد اعترف ببنوتهما شرعا ، وأصدر
مرسوما بأن يرثا تاجه فى حالة عدم وجود أمراء يجرى فى عروقهم
الدم الملكى . أما أكبرهما وهو لوى أوجست ، دوق مين ، البالغ
آنئذ الخامسة والأربعين ، فكان رجلا هزيل الجسم لطيف المعشر زادت
قدمه المشوهة من حياته وجبته ، ولعله كان يقنع بما تتيح له ضيعته
الكائنة بضاحية سو (خارج باريس مباشرة) ، والتي بلغ ثمنها
٩٠٠٠٠٠ جنيه ، من ترف ودعة ، لولا أن زوجته الطموح كانت تحته
على أن ينافس غيره من الساعين للوصاية على العرش . ذلك أن دوقة
مين لم تنس قط أنها حفيدة كونديه الكبير ، فاحتفظت فى سو ببلاط
أشبه ببلاطات الملوك ، بسطت فيه رعايتها على الفنانين والشعراء
(ومنهم فولتير) ، وأحاطت نفسها بحاشية مرحة وفيه تمهدا للملك
وسبيلا للوثب اليه ، وكان لها مفاتنها ، امرأة لا عيب فى جسمها
ولا شائبة فى هندامها ، شديدة القصر والنحافة حتى ليخالها الناظر
صبية ، ذكية ماهرة ، تلقت تعليما كلاسيكيا طيبا ، وأوتيت بديهته
حاضرة وحيوية لا تعيا وان أعيت غيرها . وكانت واثقة أن زوجها سيكون
وصيا رائعا ما دام خاضعا لسلطانها . وبلغت بالحاحها من اقناع القوى
المحيطة بالملك المحتضر مبلغا كفى لاستخلاص وصية منه (١٢ أغسطس
١٧١٥) تركت لدوق مبن الاشراف على شخص الصبى لويس ، وتعليمه ،
وعلى جنود القصر ، ومنحته كرسيها فى مجلس الوصاية . ولكن ملحقا
للوصية (٢٥ أغسطس) عين فيليب الثانى ، دوق أورليان ، رئيسا
للمجلس .

وأما فيليب هذا فكان ابن فيليب الأول (المسيو) الاخ الخنثوى
للملك الشيخ من زوجة ثانية - هى شاررلوت اليزابث أميرة البالاتين

الخسنة الواقعية النزعة . وكان تعليم الفتى قد نبط بأب دينى تصفه « مذكرات » سان - سيمون ، كما تصفه « المذكرات السرية لفترة الوصاية » « لدكلو » بانه « بالوعة نتنة » من الرذائل . فلقد كان جيوم دبوا هذا ابنا لصيدلانى اقليمى ، بذل جهدا كثيرا فى الدرس ، وكسب قوته بالاشتغال مدرسا خصوصيا ، وتزوج ، ثم ترك زوجته برضاها ليلتحق بكلية سان - ميشيل بباريس ، حيث كان يدفع نفقات تعليمه بإداء الاعمال الحقيرة بهمة لا تفتر . فلما تخرج قبل وظيفة مساعد لسان - لوران ، ضابط بيت « المسيو » وجز شعر رأسه ليتربى ، ورسم كاهنا صغيرا ، ناسيا فيما يبدو زوجته . فلما مات سان - لوران عين دبوا مدرسا خصوصيا للوصي المستقبل . يقول دكلو - الذى قل أن توخى النزاهة وعدم التحامل « ان الابيه احس أن تلميذه سيحتقره عما قليل ما لم يفسد أخلاقه ، فلم يدخر وسعا فى تحقيق هذا الهدف ، وأفلح فى هذا فوق ما دبر لسوء الحظ (١٠) » . أما سان - سيمون الذى كان يكره الموهبة المجردة من عراقة الأصل ، فكان يجد متعة فى وصف دبوا ، قال فيه :

« رجل قصير القامة ، حقير الهيئة ، ذابل الوجه ، مخلوع القلب ، يلبس باروكة صفراء باهتة ، له وجه عرسة يضيئه بعض الذكاء . لقد كان - فى كلمتين مالوفتين - وغدا أصيلا . اضطرعت فى داخله دون هوادة كل الرذائل لتظفر بالسيادة ، حتى ملا ذهنه الضجيج المتصل - آلهته الحرص والفجور والطمع ، ووسائله الغدر والمسلق والتذلل ، ودينه الفسوق المطلق ، ورأيه الذى دان به كأنه المبدأ العظيم هو أن الاستقامة والأمانة من الأوهام التى يتجمل بها الناس دون أن يكون لها وجود . . . كان فيه ذكاء ، وعلم ودراية بشئون الدنيا ، ورغبة شديدة فى ارضاء الناس والتودد اليهم ، ولكن هذا كله أفسدته رائحة كذب وزيف انبعثت رغم ارادته من مسام جسده كلها . . . شرير . . . خائن ، عاق ، خبير بأخبث الخبائث ، صفيق أشد الصفاقة حين يكشف أمره . يشتهى كل شيء ، ويحسد كل شيء ، ويود أن يظفر بكل شيء (١١) » .

وكان سان - سيمون وثيق الصلة بأسرة فيليب ، وعلينا ألا نتعجل

فى تكذيبه ، ولكن لابد أن نضيف أن هذا الأبىه كان دارسا كفىا ،
ومساعدا قديرا ، ودبلوماسيا حكىما موفقا ، وأن فيليب لخبرته بالرجل
خبل وفيا له الى النهاية .

أما التلميذ ، الذى ربما كان نسبة من ناحية الاب قد أفسده ، فقد
تلقف تعليمات أستاذه وبزها عقلا ورذيلة . أبهج معلمه بذاكرته القوية ،
وفطنته العقلية ، وذكائه الثاقب ، وفهمه وتذوقه للأدب والفن . واتاه
دبوا بفوننتيل ليعلمه أصول العلوم ، وبهوميبرج ليعلمه أصول الكىمياء ،
وسىكون لفليب فيما بعد مختبره الخاص كما كان لتشارلز الثانى ملك
انجلترا ولفولتير فى سيريه ، وسيلتمس فى التجارب الكىمىائية بعض
الراحة من حياة الزنا والفجور . وكان يرسم صورا لا بأس بها ، ويعزف
على القيثارة ، ويحفر الرسوم للكتب ، ويجمع التحف جمع ذواقه
خبير ولم يتعمق واحدا من هذه الميادين ، فقد كانت اهتماماته شديدة
التنوع ، وملاهيه تستأثر بوقته . وكان بريئا كل البراءة من الايمان
الدينى ، وحتى أمام الناس « تظاهر باستهتار مخز بالدين (١٢) »
وفى هذا ، كما فى إباحته الجنسية ، كان رمزا وحافزا لبلده وللقرن
الذى عاش فيه .

لقد كان كاكثرنا خليطا مضطربا من الشخصيات . يكذب فى يسر
وفى ابتهاج خبيث عند الحاجة أو للنزوة الطسارئة ، وينفق ملايين
الفرنكات المنتزعة من شعب مملق على ملاهيه وهواياته الشخصية ؛ على
أنه كان جوادا عطوفا ، بشوشا متسامحا ، « بطبيعته طيب القلب
عطوف ، رموف (كما قال سان - سيمون (١٣)) أكثر وفاء لأصدقائه
منه لخليلاته . وكان يثمل بالشراب كان السكر شعيرة يؤديها كل ليلة
قبل أن يمضى الى فراشه (١٤) . فاذا وبخته أمه أجابها « من السادسة
صباحا حتى الليل يفرض على العمل الطويل المضنى ، ولولا أنى الهو
بعد ذلك لما أطقته ، ولت كمدا (١٥) » .

وربما كان له من اجهاض حبه الأول عذر فى اسرافه فى الجنس .
ذلك أنه شغف حبا بالأنسة سبرى ، وكانت وصيفة شرف لأمه ، عريقة
المولد . فراح ينظم لها القوافى ، ويغنى لها ، ويזורها مرتين فى

اليوم ، وأراد أن يتزوجها . ولكن لويس الرابع عشر عبس ، وزكى له ابنته غير الشرعية ، دوق بلوا ، تزكية قوية . وأطاع فيليب (١٦٩٢) ، ولكنه واصل تعلقه الشديد بالآنسة سيرى حتى ولدت له ابنا . فنفاها الملك الغاضب من باريس . وبعث لها فيليب بالمال الكثير ، ولكنه حاول أن يكون وفيًا لزوجته ، دون أن يوفق في ذلك طويلا . ومنحته ابنة ، هي دوق بيري المستقبلية ، التي أصبحت أعلى حب له . وأمر مأساة في حياته .

وبعد موت أبيه (١٧٠١) خلفه فيليب على لقب الدوقية وثروة الأسرة ، دون أن يلتزم بشيء ، الا أن يستمتع بحياته في السلم ويخاطر بها في الحرب . وكان قد قاتل قبل ذلك ببسالة ضد الحلف الأعظم (١٦٩٢ - ٩٧) ، وأصابته من جراء ذلك جراح كبيرة . ثم نال الآن مزيدا من الامتياز ببسالته المستهتره في حارب الوراثة الاسبانية (١٧٠٢ - ١٣) . فلما نجا من الموت كافا نفسه بوليمة من البغايا . وكان في آثامه كلها ، وفي غير استهتاره الديني ، يحتفظ بلطف في السلوك وتهذيب وأدب في الحديث يذكر الناس بشباب « الملك الشمس » الحالم .

ولم يخطر ببال فيليب أن من حقه أن يطالب بالوصاية على العرش الا بعد أن أزيح جميع الورثة المباشرين من الطريق ، اما بالموت واما بالمعاهدة . واتهمته الشائعات بأنه سمم أمراء البيت الملك ليخلو له الطريق الى الملك ، ولكن الأجيال التالية وافقت لويس الرابع عشر على رفضه هذه الفرية . وبدأت عدة جماعات ترى فيه شرا أهون من دوق مين ودوقتها . فالبروتستنت الفرنسيون الذين قبلوا اعتناق الكاثوليكية تحت الاكراه بالتهديد تمنوا ارتقاءه الى منصب الوصي لما توسموا فيه من ميل ملحوظ الى التسامح . كذلك الجانسونيون الذين قاسموا من الاضطهاد الملكي والمراسيم البابوية ، وكذلك اصحاب « العقول القوية » أو احرار الفكر الذين ابهجتهم فكرة حكم رجل حر الفكر لفرنسا ، وكذلك جمهور باريس الذي سئم صرامة الملك المتوفى وتزمتة الذي جاء متاخرا ، وكذلك جورج الأول ملك انجلترا ، الذي عرض على فيليب المعونة المالية فرفضها ، واهم من هؤلاء جميعا أن « نبلاء السيف » -

أى الأسر الذبيلة التي أنزلت عن سلطانها القديم بأمر ريشليو ولويس الرابع عشر ليصبح أفرادها طفيليات تعيش عائلة على البلاط - هذه الأسر راودها الأمل بأنها عن طريق فيليب ستثار لنفسها من الأهانة الملكية ، أهانة الخضوع للأبناء غير الشرعيين فى الحكم ، وللتجار فى الإدارة . وحث سان - سيمون فيليب على التخلّى عن تبطله وفجسوره ، وعلى الكفاح فى سبيل حقه فى الوصاية ، وكان هو نفسه واحداً من أكبر النبلاء مقاما .

وأما فيليب فكان يحب اللهو أكثر من السلطة ، ولعله كان يؤثر أن يترك شأنه . أما وقد راح أصحابه يحضونه ، فقد همز همته لتفور فورة قصيرة ، فاشترى هو - أو هم - تأييد جنود القصر الملكى (تحت بصر دوق مين) ، وكسبوا كبار السياسيين والعسكريين بوعدهم بالوظائف ، واسترضوا البرلمان بأمال رد امتيازاته السابقة . وفى ٢ سبتمبر ١٧١٥ - غداة موت لويس الرابع عشر - دعا فيليب برلمان باريس ، وقادة النبلاء ، وكبار موظفى الدولة ، للاجتماع فى قصر العدالة . وذهب دوق مين مؤملا الظفر بمنصب الوصي ، ولكن جسارة دوق أورليان ، وكذبه ، وفصاحته ، كلها غلبته فى هذه اللعبة . قال فيليب فى معرض بذل الوعود « لن يكون لى هدف غير التخفيف من آلام الشعب ، وتوطيد النظام الحسن من جديد فى مالىة الدولة ، والمحافظة على السلام فى الوطن وفى الخارج ، وإعادة الوحدة والهدوء الى الكنيسة ، وسيعيننى على هذا اعتراضات هذا المحفل الجليل الحكيمة ، وهانذا التمسها سلفا (١٦) » . أى أنه عرض أن يرد للبرلمان « حق الاعتراض » (على المراسيم الملكية) الذى أنكره الملك السابق وأغفله . وتحقق النصر لهذه الحركة البارعة ، وبإيعاز البرلمان فيليب بالاجماع تقريبا وصيا على العرش وأعطاه الاشراف الكامل على مجلس الوصاية . واحتج دوق مين بأن هذه الترتيبات تخالف وصية الملك الراحل ، وأنه والحالة هذه لا يمكن ان يظل بعد ذلك مسئولاً عن شخص الملك الصبى ، وأنه مضطر الى طلب اعفائه من ذلك الواجب . فأخذه فيليب والبرلمان عند كلمته ، وانكفا مين ساخطا عاجزا الى ضيعته فى سو ، والى تقريعات زوجته العنيفة . وأصبح فيليب أورليان وصيا على عرش فرنسا ثمانية أعوام ، وكان يومها فى الثانية والأربعين .

٣ - ازدهار ثم انهيار : ١٧١٦ - ٢٠

كانت مهمته الأولى إعادة النظام والاستقرار الماليين الى الدولة .
لقد ورث حكومة مفلسة ، بلغ دينها ٢٤٠٠.٠٠٠.٠٠٠ رطل ، أضيف
اليه دين قصير الأجل بلغ ٥٩٠ مليون جنيه على شكل « سندات على
الدولة » - وهى كمبيالات ملكية تتداولها الأمة ، ولم تكد تساوى آنثذ
ثلث قيمتها الاسمية . وكان صافى إيرادات الحكومة عام ١٧١٥
لا يتجاوز ٦٩ مليون جنيه ، ومصروفاتها ١٤٧ مليوناً . وكان أكثر
الدخل المنتظر فى ١٧١٦ قد أنفق مقدماً (١٧) .

وأشار سان - سيمون بأن تشهر الحكومة افلاسها . ولكن الدوق
أدريان موريس دنواى احتج . ووفق الوصي بين الرايين بأجراءات
اقتصاد واصلاح معتدلة . فخفض الجيش الى ٢٥.٠٠٠ مقاتل ، وأغفى
الجنود المسرحون من الضرائب ست سنوات ، وأغفى آباء الأطفسال
الثمانية اعفاء دائماً . وخفضت ضرائب « التاي » ، والجاييل ،
والرعوس ، وغيرها من الضرائب . وندد بالفساد الذى استشرى فى
جميعها ، وعولج بعض هذا الفساد ، ورفنت مئات من شاغلى الوظائف
الحكومية الزائدين عن الحاجة - ومنهم ٢٤.٠٠ فى باريس وحدها .
وانشئت « غرفة عدالة » (مارس ١٧١٦) دعى للمشول أمامها كل
الماليين ، والتجار ، وأصحاب مصانع الذخيرة ، وغيرهم ممن اشتبه
فى أنهم غشوا الحكومة . وهنا أقام نواى ، الذى ألف الاجراءات
العسكرية ، حكم ارهاب حقيقيا ، فوعد بالرافة كل من يكشف عن زملائه
من المذنبين ، ووعد المبلغون بخمس المبالغ التى تسترد بفضسل
مساعدتهم . وشرعت عقوبة الاعدام لكل من يعوق عمل المبلغين ،
وتقررت مصادرة الاملاك والحكم بالتشغيل على سفن الاسرى والعبيد
مدى الحياة عقابا لمن يدلون بشهادة زور عن وضعهم المالى . وشنق
بعض من حكم عليهم ، ووضع البعض الآخر فى المشهرات امام جمهور
مبتهج ، وانتحر بعض رجال المال بعد أن يئسوا من تبرئة أنفسهم . على
أن النتائج لم تكن متناسبة مع هذه الوسائل . ذلك أن أكثر المذنبين
اشتروا الاعفاء من الفحص او الادانة برشوة موظفى الغرفة ، او اصدقاء
الوصي ، أو خليلاته . وتفاقم الفساد حتى بلغ حدا كان أفراد الحاشية

بيسعون فيه الى الرشوة بدلا من أن يعرضها المذنبون عليهم ، من ذلك أن أحد رجال المال حكم عليه بغرامة قدرها ١٢٠٠٠٠٠٠ فرنك ، فوعده أحد رجال البلاط برفع الغرامة لقاء مبلغ ٣٠٠٠٠٠٠ جنيه . قال له رجل المال « سيدى الكونت العزيز ، لقد تاخرت كثيرا ، لانى أبرمت للتو اتفاقا مماثلا مع زوجتك لقاء نصف هذا المبلغ (١٨) » . وأعلن المرسوم الذى ألغى غرفة العدالة (مارس ١٧١٧) ، فى صراحة ندر أن تتحلّى بها الحكومات ، أن « الفساد استشرى حتى وصلت عدواه الى جميع الطبقات تقريبا ، بحيث لا يمكن توقيع العقوبات العادلة على مثل هذا العدد الغفير من المذنبين دون الاخلال الخطر بالتجارة والنظام العام والدولة » . وكان صافى ربح الحكومة حين انتهى التحقيق نحو سبعين مليون فرنك (١٩) .

فلما خاب أمل الوصي فى هذه النتائج ، استمع الى رجل اسكتلندى ممتاز اقترح عليه نظاما جديدا للمالية . واسم الرجل جون لو ، وقد ولد لمصرفى من أدنيره فى ١٦٧١ ، ودرس علم المصارف فى لندن ، وشهد افتتاح بنك انجلترا فى ١٦٩٤ ، واشتبك فى مبارزة بسبب الحب ، وقتل غريمه ، ثم فر الى القارة يحمل على رأسه حكما بالأعدام . وكان وسيما ، بشوشا ، مولعا بالعلوم الرياضية ، ضارب بنجاح فى سوق النقد الأجنبى ، وأعانتته قدرته على حساب ارتباطات أوراق اللعب وتذكرها على كسب قوته فى مختلف الاقطار . وقد راقب الطرق التى تعمل بها المصارف فى أمستردام ، وهامبورج ، والبندقية ، وجنوة . وفى أمستردام على الأخص أخذ بسحر نظام الائتمان ، الذى أتاح للمصرف أن يصدر أوراقا نقدية بأضعاف القيمة الذهبية لرصيده ، بحيث شغل عشرة جولدنات بغطاء جولدن واحد ، وبهذه الطريقة حفز الانشطة الصناعية والتجارية ، ويسرها ، وضاعفها . ورأى هناك كيف يمكن ، فى مصرف يثق به رجال الاعمال ، اجراء المعاملات بمجرد نقل الارصدة المصرفية ، دون عناء حمل الفضة أو الذهب أو مبادلتها . وساعل نفسه : لم لا يمكن انشاء مصرف قومى ونظام ائتمان كهذين فى فرنسا ؟ وراح يفكر فى وضع « نظامه » - وهو الاسم الذى أطلق عليه بعد ذلك .

وكان محور فكرته زيادة توظيف الناس والمواد باصدار أوراق النقد ، بضمان الحكومة ، لمثلئ قيمة الاحتياطيات القومية من الفضة والذهب

والارض ، ويخفض معدل الفائدة ، تشجيعا لرجال الاعمال على اقتراض المال للمشروعات والطرق الجديدة فى الصناعة والتجارة . وبهذه الطريقة تخلق النقود الأعمال ، وتزيد الاعمال من التوظيف والانتاج ، وتزداد الايرادات والاحتياطيات القومية ، ويتيسر اصدار المزيد من النقود ، ويتصاعد الخير والنفع . ولو أمكن اقناع الشعب - عن طريق المدفوعات من الفوائد - بايداع مدخراته فى مصرف قومى بدلا من اختزان المعدنين النفيسين ، لأضيفت هذه المدخرات الى الاحتياطيات ، وأصدر المزيد من العملة ، وهكذا يشغل المال العاطل ، ويزداد رخاء البلاد .

وفى عام ١٧٠٨ شرح لو أفكاره للحكومة الفرنسية ، فرفضها لويس الرابع عشر . فلما أصبح فيليب أورليان وصيا ، عرض لو أن ينقذ بنظامه هذا مالية فرنسا المفلسة . وتساعل : لم تنفرد فرنسا ، وأسبانيا ، والبرتغال ، دون سائر دول أوربا الكبرى بخلوها الى ذلك الحسين من المصارف القومية ؟ ولم تردت فرنسا فى مهاوى الركود الاقتصادى برغم ما تميزت به تربتها من خصب وأهلها من ذكاء ؟ ووافق فيليب على السماح له بأن يؤسس « مصرفا عاما » (١٧١٦) على أن يكون هذا مشروعاً أهلياً . وقبل المصرف الودائع ، ودفع الفوائد ، وأقرض المقروض ، وأصدر أوراق نقد - من فئات عشرة ومائة و ألف فرنك - سرعان ما أصبحت وسيطاً مفضلاً فى المبادلة بفضل قيمتها الثابتة ، المربوطة بوزن ثابت من الفضة . وكانت هذه الاوراق النقدية اول نقود ورقية قانونية ، وهكذا وضع مصرف لو ، وفروعه الاقليمية ، اول طرق الائتمان المنتظمة فى فرنسا . وفى أبريل ١٧١٧ تقرر قبول اوراق المصرف سداداً للضرائب .

وفى سبتمبر تقدم لو الى مرحلة من أفكاره اشد مغامرة . ذلك أنه حصل من الوصي على امتياز شركة جديدة سماها « شركة الغرب » لاستغلال حوض المسبى باكمه ، وكان يومها خاضعا لفرنسا . وباع للجمهور ٢٠٠.٠٠٠ سهم فى شركة الغرب هذه سعر السهم منها ٥٠٠ جنيه ، وكان الثمن عالياً ، ولكن يجوز دفع ثلاثة ارباعه سداداً حكومية بقيمتها الاسمية ، التى بلغت ثلاثة أمثال قيمتها الفعلية .

ويبادر الجمهور الى شراء الاسهم كلها مغتبطا بهذه الفرصة التي اتاحت له أن يستبدل بالأوراق المنخفضة القيمة أسهما في مشروع يرجى من ورائه الربح . وأصدر لو - في تفاؤل متزايد - تعليماته لمصرفه بأن يشتري الاحتكار الملكي للتبغ ، وجميع الشركات الفرنسية التي تشغل بالتجارة الخارجية ، ثم ضم هذه الشركات الى شركة الغرب فالف منها « شركة جزر الهند » التي ستحتكر كل التجارة الخارجية . وبدا لبعض رجال الأعمال ان الاشتراكية في التجارة الخارجية نذير بالاشتراكية في الانتاج والتوزيع الداخليين ، فبدأت تختمر حركة معارضة للو .

وفى ٤ ديسمبر ١٧١٨ أعيد تأسيس مصرف لو باسم « المصرف الملكي » ، واعترف بأوراقه أوراقا نقدية قانونية ، وأعطى الاشراف الكامل تقريبا على مالية الامة . وأصدر لو اصدارا جديدا من الاسهم في شركة الهند بسعر السهم منها ٥٥٠ جنيتها . وسرعان ما تم الاكتتاب . وزاد توقع الناس للارباح المرتفعة في تقديرهم لقيمة الاسهم ، فتبادلوها بأسعار مطردة الزيادة في موجة مضاربة ، حتى طلبت بسعر ٥٠٠ره جنيه ، أى بتسعة أو عشرة أمثال قيمتها الاسمية . وتصادف أن مرت بباريس في ١٧١٨ الليدى مارى ورتلى مونتاجيو ، فابتسمت لرؤية فرنسا تترك المصرف في حياتها الاقتصادية لرجل بريطانى . وسمح لو نفسه لخياله بأن يشطح متجاوزا صواب حكمه . فلم يكتف المصرف الملكى الجديد بتسلم دار سك النقود وكل جبايات الضرائب ، بل تلقى الدين القومى باعطائه حصة في شركة جزر الهند نظير كل قيمة اسمية قدرها ٥٠٠ره جنيه في تعهدات الحكومة ، وخيل اليه أن رأس المال العاطل سيصبح بهذه الطريقة عاملا تقي مشروعاته المنسوعة . ثم عرض قحرة المصرف على الوفاء بديونه لمزيد من الخطر باعطائه منحة للوصى قدرها ٢٤٠٠ سهم .

وظلت ثقة الناس به كاملة برغم هذه المغامرات الطائشة ، واشتدت حماستهم للشركة ، وزايد المشترون بأسعار أعلى وأعلى على أسهمها . وزاد المزيفون هذه الضجة بانزال شهادات أسهم مزيفة الى السوق . وظل نشارع كانكمبوا ، الضيق القذر ، الذى اختار « النظام » فيه مكانه ، سدى محامين المركز المالى الرئيسى لباريس (أشبه ببول مستريرت في

ذبيورك) . وتجمع فيه المشترون والبائعون من جميع الطبقات ، والدوقات والمومسات ، والباريسيون والريفيون والاجانب ، فى أعداد مطردة وانفعال اشد يوما بعد يوم . ومات البعض تحت الأقدام وسط الزحام ، أو داستهم مركبات النبلاء . وكان المريشال الشيخ « دفيلاىر » يمر بالمكان راكبا ، فتوقف ليحاضر الجمع المحتشد عن جسعه المفرط . وكانت الأكشاك الصغيرة المقامة فى هذا الزقاق تغل كل شهر ايجارا أكثر مما تغله البيوت فى عشرين عاما . وشكا السكان من شدة الضجيج الذى لا يحتمل . ومع ذلك لم يتوقف المشترون عن الزيادة بأصوات مرتفعة ، وكان سعر السهم يزداد كل يوم تقريبا ، بل أحيانا كل ساعة ، فبيع بعض الأسهم فى نهاية عام ١٧١٩ بمبلغ ١٢٠٠٠ جنيه ، وبلغت القيمة السوقية لكل الاسهم المعروضة آنئذ ثمانين ضعف قيمة كل الذهب والفضة المعروفين فى فرنسا (٢٠) . واذ كان المطلوب دفعه من ثمن السهم لا يتجاوز عشرة فى المائة من قيمته الاسمية ، فان نقل الاسهم من مالك لآخر كان سريعا ، وحقق البعض ثروات فى يوم واحد . فكسب مصرف ١٠٠ مليون جنيه ، وخادم فى فندق ثلاثين مليوناً (٢١) . وسمع الناس لأول مرة كلمة « المليونير (٢٢) » .

وكان لو رجل الساعة . ففى ١٧٢٠ عين مراقبا عاما للمالية . وكان اساطين النبلاء والنبيلات يذرعون حجرة انتظاره ملتسمين نصحه فى شئون المال أو تاييده فى دسائس البلاط . وقد كتب فولتير مستعيدا ذكرى ذلك العهد فقال « رأيتة يعينى يخترق أبهاء الباليه - رويال ومن ورائه الأدواق والاشراف - وماريشالات فرنسا ، وأساقفة الكنيسة (٢٣) » . وقبلت إحدى الدوقات يده فى تذلل .

بيد أنه لم يبد عليه أن انتصار أفكاره الظاهر أفسده ، أو ان استفحال سلطانه الشخصى أطغاه ، والواقع أنه ربح للقيمة المفرطة التى أوصل جشع الجمهور أسهم الشركة اليها (٢٤) . ولم يستغل مركزه ليثرى . وقد صرح سان - سيمون ، الذى كان يعارض هذا « النظام » بقوله :

« لم يكن فى طبيعه جشع ولا لؤم . فلقد كان رجلا رقيقا طبيعا »

محترما ، لم تفسده زيادة الثقة وكثرة المال ، ولم يكن فى مسلكه ، ولا فى بطانته ، ولا فى ملئدة طعامه ، ولا فى أثائه ، ما يصدم الناس . وقد احتمل بصبر وثبات عجيبين كل المضايقات التى سببتها عملياته ، حتى اذا قارب النهاية أصبح سريع الغضب حاد الطبع » .

ولكن بعض النبلاء لم يرضوا عنه لانه أجنبى وبروتستنتى ، ولاحظوا انه هو وزوجته الانجليزية لم يكونا متزوجين زواجا شرعيا رغم ما بدا من اخلاصهما الواحد لصاحبه . ورغبة منه فى التخفيف من هذا العداء ، قبل المواطنة الفرنسية والمذهب الكاثوليكي الرومانى .

واستعمل سلطانه مهمازا يحفز به رضاء وطنه الثانى ، فخفض الضرائب ، وأنهى النظام السقيم الفاسد الذى كانت الوكالات الاهلية تتبعه فى جمع الضرائب ، وأظهر نحو جماهير الشعب عطفًا لم يعهد فى رجال المال . وقسم ضياعا كبيرة ملكا للكنيسة أو النقابات ليزرعها الفلاحون ، لا بل اقترح عقب تعيينه مراقبا عاما الزام الكنيسة ببيع جميع الاملاك التى اقتنتها بعد عام ١٦٠٠ - أعنى نصف ممتلكاتها الفرنسية (٢٥) - وسبق طورجو بالغائه الرسوم المفروضة على نقل الاغذية والسلع داخل فرنسا ، ونظم بناء الطرق والكبارى والقنوات أو ترميمها ، واستقدم مهرة الصناع من الخارج ليؤسسوا صناعات جديدة ، وشجع التوسع الصناعى بتخفيضه نسبة الفائدة على القروض ، وزادت المشروعات الفرنسية ستين فى المائة فى مدى العامين (١٧١٩ - ٢٠) اللذين بلغ فيهما قمة سلطته ، وأحيا البحرية التجارية وضاعفها بالتوسع فى التجارة مع آسيا وأفريقيا ، وأمريكا ، وكانت السفن الفرنسية التى تحمل التجارة الخارجية ، تبلغ ست عشرة فى مارس ١٧١٩ ، فأصبحت ٣٠٠ فى يونيو ١٧٢٠ ، وعادت التجارة الخارجية الفرنسية فى عهد لو الى الأوج الذى أدركته تحت كولبير . وأقنع النبلاء الفرنسيين بتمويل انتاج البن والتبغ فى لوزيانا ، ومول هو نفسه تطوير منطقة نهر أركنساس . وفى ١٧١٨ أسست نيو أورليانز ، واتخذت لها اسما من اسم أسرة الوصي .

على أن المشروع الأمريكى لم يكتب له التوفيق رغم جهود لو

وفيليب المتعددة النواحي . فلقد كان شطر كبير من وادي المسبى لا يزال برية لم تفتح ، وعرض لو مهور العرائس و ٤٥٠ فدانا على الأسر المهاجرة الى الوادى . فلما تبين أن الهجرة أقل اغراء من المضاربة ، رحل المسجونون والمتشردون والبغايا الى لوزيانا ، ودفع الشبان والشابات (أمثال مانون ليسكو فى رواية بروست) الى هذه المغامرة بالحيلة أو القوة . وكان هؤلاء الضحايا يطعمون أسوأ الطعام حتى مات كثير منهم فى الطريق . وأوقفت مراسيم مايو ١٧٢٠ هذا الاكراه الهمجى . أما فى المستعمرة ذاتها فان التجهيز الرديء ، والادارة السيئة ، والتمرد كلها عوقت النهوض بالاقتصاد ، وجعلت ارباح « شركة المسبى » (كما سماها الناس) أقل كثيرا مما افترضه المضاربون . واتضح أن آمال استخراج الذهب أو الاحجار الكريمة من أرض المستعمرة وهم فى وهم ، رغم أن لو نفسه راوده هذا الحلم .

ولا بد أن نبا هذه الصعوبات قد وصل الى فرنسا . وحكم أذى المضاربين أن أسهم الشركة قد بلغت قيمتها ، أما غيرهم ممن لم يقلوا عن هؤلاء جشعا وان افتقروا الى المعلومات أو الحكم الصائب ، فقد حل بهم الخراب لأنهم تأخروا فى بيع أسهمهم . وفى ديسمبر ١٧١٩ أصبح التهافت والتنافس على البيع أكثر مما كان على الشراء . ففى بحر شهر واحد باع الدوق بوربون أسهما بعشرين مليون جنيه ، وأمير كوندية بأربعة عشر مليونا ، وتطلب الأمر تخصيص ثلاث عربات لحمل الذهب الذى لم يجرؤ لو على الامتناع عن دفعه ثمنا لأوراقه النقدية وأسهم الشركة (٢٦) . وافرغ مضارب بروسي ما يملكه منها ، ثم مضى بثلاثين مليونا من الجنيهات ذهبا . وصرف غير هؤلاء ثمن أسهمهم ليشتروا أرضا أو بيوتا أو حليا أو أشياء أخرى مما تستند قيمته على اساس مكين من حاجة البشر و غرورهم . أما المليون الذين عاقبتهم غرفة العدالة فقد انتقموا لانفسهم بصرف ثمن أوراقهم وارسال الذهب خارج فرنسا . وحاول لو أن يقف تدفق الذهب من الخزانة ، فحصل من الوصي على مراسيم تحرم على الشعب تملك المعساذن النفيسة أو الاتجار فيها أو تصديرها ، وتحتم تسليم كل الذهب والفضة مما تزيد قيمته على خمسمائة فرنك الى المصرف الملكى . وخول لندوبى المصرف أن يدخلوا البيوت ويفتشوا عن المعدن النفيس المخبوء ، ومثل هذا

العدوان على حرمة البيوت لم يجرؤ عليه أحد قط حتى لويس الرابع عشر . يقول سان - سيمون « لقد أخفى الكثيرون أموالهم فى تكتم شديد حتى أنهم - بعد أن ماتوا دون الافضاء بمكمن كنوزهم الصغيرة - ظلت هذه مدفونه وضاعت على ورثتهم (٢٧) » .

فلما واصل سعر الأسهم هبوطه حاول لو أن يدعمه بعرضه ٩٠٠٠ جنيهه (بأوراق النقد) ثمنا للسهم ، ولكن الزيادة المطردة فى أوراق النقد خفضت من قيمتها ورفعت من سعر البضائع . فلم يحل مايو ١٧٢٠ حتى كانت الاسعار قد ارنفعت مائة فى المائة ، والأجور خمسة وسبعين فى المائة بالمقارنة بسنة ١٧١٦ ، وفى يوليو كان زوج الجوارب الحريرية الطويلة يباع بأربعين جنيها . وبدأ الذعر من التضخم ، فاندفع الناس الى تغيير أوراق النقد وشهادات الأسهم بالبضائع ، فجمع دوق دلافورس المقادير الكبيرة من الشموع ، وكدس المريشال ديستري كميات ضخمة من البن والكاكاو . ولكى يحد لو من هذا الهروب من النقود الى السلع ، أعلن (٢١ مايو) تخفيض ٥٠ ٪ فى القيمة الرسمية لأوراق النقد وأسهم الشركة . وكان هذا خطأ كبيرا - ربما كان السبب فيه ضغط الوصي المرتاع على لو ، وكان هو ذاته يشعر بالضغط عليه من خصوم لو من النبلاء والكهنة (٢٨) ، وحاول فيليب تخفيف الأزمة برد كل أسهمه فى الشركة الى المصرف (٢٩) .

ومع ذلك استمرت موجة البيع . وفى يوليو اضطر المصرف الى وقف الدفع على أى ورقة نقدية تزيد على عشرة فرنكات وحاصر حملة الأوراق المصرف . وطالبوا فى صخب وضجيج برد قيمة أوراقهم ذهباً أو فضة . وفى باريس اشتد تزاحم القوم حتى ديست عشر نساء تحت الاقدام وسط الفوضى ، وحملت بعد ذلك ثلاث من جثثهن فى موكب غاضب تحت نوافذ الوصي . واعتبر الشعب لو مسئولاً عن جميع الصعوبات مع أن مضاربتهم المجنونة هى التى سببت انهيار « النظام » . وحاول بعضهم القبض عليه وقتله ، فلما فشلت المحاولات هشمته مركبته تهشيماً فى فناء الباليه - رويال - وأعربت حوادث الشغب المتكررة عن شعور الشعب بأنه كان ضحية الخدع المالية ، وبأن الطبقات العليا كسبت على حساب جمهرة الأمة . وشارك البرلمان فى الحملات

على لو ، فنفى فيليب البرلمان الى بونتواز (٢٠ يوليو) ، ودافع
الشعب عن البرلمان .

وفى اغسطس هبطت أسهم شركة المسبى الى ٢٠٠٠ جنيه بعد
أن بلغت فى أوج ارتفاعها ١٢٠٠٠ جنيه ، أما الأوراق النقدية فهبطت
الى عشرة فى المائة من قيمتها الأصلية . وفى أكتوبر تسرب نبأ - سرى
من فم الى فم - بأن الوصي سحب من المصرف الملكى ايان ازدهاره أورقا
بلغت قيمتها الاسمية ثلاثة بلايين من الفرنكات ، انفق أكثرها على
الهدايا السخية للأصدقاء والمحظيات وحوالى هذا التاريخ هرب احد
صيارفة المصرف الى بروسيا حاملا كمية ضخمة من الذهب . فهبطت
أسهم شركة المسبى الى ٢٠٠ جنيه . وفى ديسمبر الغى الوصي
المصرف ، وطرد لو ، وأعاد البرلمان . وفى الرابع عشر من أكتوبر غادر
لو فرنسا مع ابنه . وكان قد وظف ثروته فى شركة جزر الهند الخاسرة ،
وشارك مصير معظم حملة الأسهم ، ولم يكن قد أودع مالا فى الخارج ،
فلم يأخذ الآن معه سوى ألفى جنيه وبعض الجواهر غير القيمة . وفى
بروكسل تلقى من بطرس الأكبر دعوة بالحضور الى روسيا والاضطلاع
بشئون ماليتها ، فرفض ، واعتكف فى البندقية ، حيث لحقت به زهجتة
وابنته ، وعاش مغمورا فقيرا ، وهناك مات فى ١٧٢٩ .

لقد كانت المبادئ التى أقام عليها مصرفه سليمة نظريا ، ولولا
جشع المضاربين المفرط واسراف الوصي لجعلت فرنسا قادرة على الوفاء
بالتزاماتها ولحققت لها الرخاء . وحين فحصت حسابات لو الخاصة
وجدت سليمة لا غبار عليها . وترك الاقتصاد الفرنسى مؤقنا خربا فى
ظاهر الأمر ، فحملة الأسهم والأوراق النقدية يطالبون بدفع قيمتها
والدفع مستحيل ، وتداول النقود أصابه الشلل تقريبا ، والصناعة
محجمة ، والتجارة الخارجية أصابها الركود ، والاسعار فوق طاقة
الشعب . ودعا الوصي اخوان « باريس » ليشيعوا شيئا من النظام وسط
هذه الفوضى . فطلبوا جميع أوراق النقد وعوضوا فئاتها المنوعة
بحقوق على الدخل القومى ، بخسارة على أصحابها تفاوتت من ستة
عشر الى خمسة وتسعين فى المائة ، أما الجمهور الذى استنفد سورة
غضبه فقد أذعن لهذا الافلاس العملى فى صبر واحتمال .

على أن شيئا بقى بعد هذا الانهيار . فالزراعة أفادت من ارتفاع قيمة محاصيلها وهبوط العملة . وأفادت الصناعة سريعا لأنها وجدت حافزا من انخفاض الفائدة وارتفاع الأسعار ، وظهرت المشاريع الجديدة فى كل مكان . وانتفعت التجارة الداخلية من خفض الرسوم الداخلية ، واستأنفت التجارة الخارجية توسعها فيما وراء البحار بعد انحسار الفوضى . وخرجت الطبقات الوسطى سليمة كبيرة - وسعيها وراء الكسب كالعهد بها طبيعى وضرورى . وتضاعف عدد المائيين وازدادوا قوة على قوة . وكسب الذبلاء لأنهم دفعوا ديونهم بعملة أرخص ، ولكنهم ظهروا بمظهر مخز لأنهم أبدوا وسط حمى المضاربة شهوة ملحة للكسب لا تقل اقتضاحا عنها فى أى طبقة . وظلت الوصاية ملوثة بالنكول عن التزاماتها المالية وبترفها الموصول بوسط الخراب الشامل . وقال ناقد مجهول الاسم فى معرض الشكوى من الحال « لا بد من انقضاء قرون حتى يمكن استئصال الشر الذى يسأل عنه لو ، لأنه عود الناس الدعة والترف ، وجعلهم غير قانعين بحالهم ، ورفع ثمن الطعام والعمل اليدوى ، وجعل جميع طبقات التجار تتطلع الى أرباح باهظة (٣٠) » ولكن تلك الروح التجارية ذاتها حفزت اقتصاد فرنسا وفكرها ، رغم هبوطها بالجوّ الاخلاقى للمجتمع الفرنسى . فما حل عام ١٧٢٢ حتى انتعش الاقتصاد الفرنسى بقدر أتاح للوصي على العرش أن يعود ، باطمئنان ضمير الحاكم ، الى أساليبه المعهودة من الحكم العطوف ، والفجور الفاضح .

٤ - الوصي

لقد نهته أمه الالمانية الى ضرورة الحد من لطفه مع الناس ، فقالت له « ان العطف خير من القسوة ، ولكن العدالة تقوم بالعقاب كما تقوم بالثواب ، ومن المؤكد أن من لا يجبر الفرنسيين على خشيته سيخشاها بعد قليل ، لأنهم يحتفرون من لا يخيفونهم (٣١) » . أما فليب ، الذى شكله مونتيني ، فكان يعجب بالحرية الانجليزية ، ويتكلم بتفاؤل على حكمه رعية لا تطيعه طاعة عمياء ، بل تكون من الذكاء بحيث تدعه يشرح لها الدواعى التى تبرر قوانينه . ورمز لروح نظامه بتركة فرساي وسكنى البالييه - رويال ، فى قلب باريس ومعماها .

وكان يكره مراسم حياة البلاط والاعلان عنها ، فترك ذلك كله وراء ظهره . ورغبة في المزيد من التيسير والخلوة رتب الا يسكن الملك الصبي فرساي بل القصر الريفى فى ضاحية فانسين . وبدلا من أن يدس له فليب السم كما أرجفت الشائعات ، عامله أرق معاملة ، وأبدى نحوه كل الخضوع الواجب له ، واحتفظ لويس الخامس عشر طوال حياته بذكرى شاكرة للرعاية التى أعدها عليه الوصي (٣٢) .

بعد أن دفن لويس الرابع عشر بيومين أمر فيليب بالافراج عن جميع المسجونين فى الباستيل فيما عدا أولئك الذين عرف عنهم ارتكابهم جرائم خطيرة ضد المجتمع . وكان مئات من هؤلاء الرجال قد سجنوا بمقتضى اوامر القبض المختومة lettres de cachet التى أصدرها الملك الراحل ، وأكثرهم جانستيون لم تكن تهمتهم سوى الانشقاق الدينى ، ومنهم من طال العهد بهم فى السجن حتى لم يعرف أحد ، حتى ولا هم أنفسهم ، السبب فى سجنهم . مثال ذلك أن رجلا قبض عليه قبل خمسة وثلاثين عاما لم يحاكم قط . أو ينبا بسبب سجنه ، فلما أفرج عنه وهو شيخ وجد نفسه حائرا مذهولا ، فهو لا يعرف انسانا فى باريس ، ولا يملك فلسا واحدا ، وعليه فقد التمس أن يبقى فى الباستيل الى آخر عمره ، وأجيب الى ملتمة .

ونفى من باريس ميشيل لوتلييه ، كاهن الملك الذى تعقب الجانسنيين من قبل . ونصح الوصي على العرش الحزبين المتخاصمين فى الكنيسة بأن يهدئا من خلافاتهما . وأغضى عن البروتستنت المتسترين ، وعين عددا منهم فى وظائف ادارية . وأراد أن يجدد مرسوم نانت السماح ، ولكن اليسوعيين والجانسنيين اتحدا فى التنديد بمثل هذا التسامح ، كذلك فناه عن ذلك وزيره دويوا الذى كان يحتال للظفر بقبة الكردينالية (٣٣) . « ولم ينل البروتستنت الانصاف الذى أنكره عليهم الحزبان المتناهسان فى الكنيسة الا بفضل الفلسفة (٣٤) » فلقد كان الوصي فولتيريا قبل فولتير . ولم يكن له عقيدة دينية واضحة ، وكان على عهد لويس الرابع عشر القضى يقرأ رابليه فى الكنيسة (٣٥) ، أما الآن فقد سمح لفولتير ، وفونتنيل ، ومونتسكيو ، بنشر كتب لو صدرت قبل بضع سنوات لحرم تداولها فى فرنسا لما تنطوى عليه من تهديد للايمان المسيحى .

وكان فيليب - من الناحية السياسية - حاكما متحررا مستنيرا حتى حين زج بفولتير في السجن ، وكان يفسر قوانينه للشعب بعبارات بلغت من الاعتدال والاخلاص مبلغا حدا بميشليه الى أن يرى فيها ارهاصا بجمعية ١٧٨٩ التأسيسية (٣٦) . وامتلات مكاتب الحكومة بالرجال الأكفاء دون نظر الى عدائهم للوصي ذاته ، فعين رجل كان قد هدده بالاغتيال رئيسا لمجلس المالية (٣٧) ، أما فيليب ، الذى كان بطبيعته أبيقوريا - فكان يظل رواقيا حتى الخامسة مساء ، يقول سان - سيمون انه كان الى تلك الساعة « ينصرف بكليته الى أعمال الدولة ، واستقبال الوزراء والمجالس الخ . ولا يتناول طعامه أبدا خلال ذلك النهار ، بل يكتفى بتناول الكاكاو بين الثانية والثالثة ، حين يسمح للجميع بدخول غرفته . . . وقد أبهجت الناس جدا ألفته وسهولة الوصول اليه ، ولكنهم أساءوا استعمالهما (٣٨) » . وكان فليب أورليان ، دون سلائل هنرى الرابع جميعا ، أى جميع البوربون ، فى رأى فولتير « أشبههم بذلك الملك فى شجاعته ، وطيبة قلبه ، وصراحته ، ومرحه ، وبشاشته ، وسهولة الوصول اليه ، مع فهم أكثر تهذيبا وصقلا (٣٩) » . وكان يربك السفراء والمستشارين بمعارفه الواسعة ، وفكره الثاقب ، وحكمه الصائب (٤٠) . ولكنه شارك الفلاسفة ضعفهم - وهو القدرة والرغبة فى رؤية جوانب كثيرة جدا للموضوع الواحد ، بحيث يضيع الوقت فى النقاش ويؤجل العمل الحاسم .

ولم يكن على سماحته يطبق أى اختزال للسلطة الملكية التقليدية . فلما رفض البرلمان - الذى أراد استخدام حق الاعتراض الذى وعده به - أن يسجل بعض مراسيمه (أى أن يعتبرها ضمن قوانين البلاد المعترف بها) ، دعاه (٢٥ أغسطس ١٧١٨) الى « سرير عدالة » مشهور - وهى جلسة يمارس فيها الملك وهو جالس على « سرير » القضاء سلطته فى الالتزام بتسجيل مرسوم ملكى . ومضى القضاء البائع عددهم ١٥٣ ، وقورين مهيين فى عبااتهم القرمزية ، الى التويلرى سيرا على الاقدام . واتباعا لتعليمات فيليب ، أمرهم الملك الصبى بتسجيل مراسيم الوصي ، ففعلوا . وانتهاز فرصة مواصلة دوق ودوقة مين معارضته سواء فى المجلس الملكى أو بالتأمر عليه ، فحرم أبناء الملك وحفدته غير الشرعيين من وضعهم كامراء من الدم الملكى . ورد

للدواق الشرعيون الى سابق ترتيبهم وحقوقهم ، الأمر الذي أبهج الدوق سان - سيمون ، الذي رأس فى هذه الخطوة أعظم انجاز للوصاية ، وكانت أسمى اللحطات فى « مذكراته » .

على أن دوقه مين لم تقبل الهزيمة . فمولت بعض الطرفاء الذين راحوا يخنزون الوصي بأهاجيهم اللاذعة . واحتمل هذه السهام بصبر القديس سبستيان ، النهم الا « الفليبيات » وأهاجى « الأشياء التى شاهدها » المنسوبة لفولتير . وفى ديسمبر ١٧١٨ اشتركت الدوقة فى مؤامرة مع كيلامار ، السفير الأسباني ، والبيرونى رئيس الوزراء الاسباني ، والكردينال ملشيور دبولنيك ، للاطاحة بالوصي وتنصيب فليب الخامس الأسباني ملكا على فرنسا ، على أن يكون الدوق مين كبير وزراء . وكشف أمر المؤامرة ، وطرد السفير ، وزج بالدوق والدوقة فى سجنين منفصلين ، وأفرج عنهما فى ١٧٢١ . وادعى الدوق انه يجهل أمر المؤامرة . وعادت الدوقة الى بلاطها ومؤامراتها فى سو .

فى وسط هذه المضايقات ، وفى نطاق التقاليد وعلى قدر ما سمح به خُلقه الشخصي ، قام فليب ببعض الاصلاحات المعتدلة . فشق فى حكمه القصير من انطرق أكثر مما شق فى نصف القرن الذى حكمه لويس الرابع عشر . ووفر ملايين الفرنكات بتركه قصرى مارلى وفرساي ، واحتفاظه بحاشية متواضعة العدد . وقد بقى الكثير من ابتكارات « لو » ممثلا فى جباية للضرائب أشد قسرا وأكثر رحمة ، وفى طرد الجباة المتهمين بالفساد أو التبديد . وفكر فليب فى ضريبة دخل تصاعديّة : وجربها فى نورمنديه ، وفى باريس ، وفى لاروشيل ، ولكنها أبطلت بموته المبكر . وقد جاهد ليبقى فرنسا بنجوة من الحرب ، فسرح آلاف الجنود ، ووطنهم فى الأراضى غير المزروعة . وأسكن الباقين فى ثكنات بدلا من أن يسكنهم فى بيوت الشعب . وبنظرة سمحة فتح أبواب جامعة باريس والمكتبة لجميع الطلبة المؤهلين دون أجر ، ودفعت الدولة مصروفات تعليمهم (٤١) . وأعان بمال الدولة الاكاديمية الملكية للعلوم ، والاكاديمية الملكية للمثورات والآداب البحتة ، والاكاديمية الملكية للعمارة ، ومول نشر المؤلفات العلمية ، وأنشأ فى اللوفر اكاديمية للفنون الميكانيكية نهوضا بالاختراع والفنون الصناعية (٤٢) . وأجرى

المعاشات على الفنانين والعلماء والأدباء ، وهيا لهم غرفا فى القصور الملكية ، وكان يحب أن يتكلم مع هؤلاء الرجال على مهتهم المختلفة . ولم تؤت تدابيرها واصلاحاته ثمارها كاملة من جراء كابوس الدين وانهيار ثورة لو المالية من جهة ، وعيوب الوصي البدنية والخلقية من جهة أخرى .

ومن أفجع المآسى فى تاريخ فرنسا أن هذا الرجل الذى وهب الكثير من فضائل الذهن والقلب لوته وأضعفه فجور طبقته وفسق جيله . فهذا الابن الذى أنجبه أب منحرف جنسيا ، ورباه رجل فاجر من رجال الكنيسة ، شب وهو يكاد يكون عاجزا عن كبح جماح شهوة الجنس التى انغمس فيها . أقول دكلوا « كان يمكن أن تكون له فضائل اذا كانت الفضائل ميسورة لانسان بغير مبادئ (٤٣) » - واذ كان قد أكره على الزواج من ابنة غير شرعية للويس الرابع عشر ، وافترقت الحب أو السلوى فى زوجته ، فإنه أطلع بالسكر الكثير ، وبمعاشرة الخليلات فى اسراف لم يعدله فيه حاكم خارج حريم السلاطين . واختار اصدقاءه من بين المعبردين الذين كان يصفهم بكلمة noués (أى الفاسقين) ، والذين كانوا ينفقون الثروات على الفجور ، ويؤثثون بيوتهم بالفن الغالى ويزودونها بالمثيرات الجنسية (٤٤) . وكان فليب يلحق باصحابه فى الباليه - رويال ، أو فى فللته فى سان - كلو ، ومعظمهم من شباب الاشراف ، وفيهم أيضا بعض الانجليز المثقفين امثال اللوردين ستير وستانهوب - فى حفلات عشاء صغيرة تختلط فيها النساء المثقات كمدام دوديفان بالمثلثات ومغنيات الاوبرا ، والخليلات ، فى توفير اثاره الانثى لذكاء الرجل . يقول سان - سبمون ، ربما فى شيء من التلوين المنافق :

« فى هذه الحفلات كانت تعرض أخلاق كل انسان ، الوزراء وأصحاب الحظوة كغيرهم سواء بسواء ، بحرية هى الاباحية المطلقة : غزليات البلاط والمدينة فى الماضى والحاضر ، وكل قديم من القمص والخصومات والفكاهات والسخافات ينبش من مكانه ، ولم يعف من هذا النبش أحد ، وكان الدوق أورليان يدلى برأيه كالباقين . ولكن نادرا جدا ما كانت هذه الاحاديث تؤثر فيه أقل تأثير . وكان هؤلاء الاصحاب يسكرون ما شاء لهم السكر ، ويلهبون أنفسهم ، ويتكلمون ناقدرا الاشياء

دون تحرج ، ويتنافسون فى التفوه بأفحش العبارات ، حتى اذا فرغوا من احداث الكثير من الضجيج واملوا بالخمير ، مضوا الى فراشهم ، ليعاودوا اللعبة ذاتها فى الغد (٤٥) » .

وقد افصححت روح فليب القلقة المنزوعة الجذور عن نفسها فى قصر تسلط محظياته عليه ، فندر أن سيطرت عليه أحدهن أكثر من شهر ، ولكن المبعديات منهن كن يترقبن الفرصة حتى يعود دورهن مرة أخرى . وكان خدمه الخصوصيون ، وحتى أصدقاؤه ، يجلبون له العشيقات الجديديات فى غير توقف . فنساء الطبقة العليا ، كالكونتيسة بارابير ، والنساء المغامرات كمدام تنسان ، والمغنيات والراقصات من الاوبرا ، والموديلات البارعات الجمال كمدام سابران (التى أثار « سمتها الرائع » و « وجهها الذى لا يدانيه فى الحسن وجه فى العالم » حتى مشاعر رجل فاضل كسان - سيمون) - هؤلاء كلهن وهبن أنفسهن للوصي لقاء برهة من السلطان ، أو لقاء الرواتب أو الاعانات أو المجوهرات ، وكان يصدق العطايا عليهن من دخله الخاص أو من الخزانة التى على شفا الافلاس . على أنه برغم اهماله لم يسمح قط لهؤلاء النسوة بأن ينتزعن منه أسرار الدولة ، أو أن يناقشن شئونها ، فلما حاولت ذلك مدام سابران جعلها تنظر الى صورتها فى المرآة ثم سألها ، « أيمكن للانسان أن يتحدث حديثا جادا الى مثل هذا الوجه الجميل ؟ اننى لا أحب ذلك أبدا (٤٦) » . وما لبث سلطانها عليه أن زال .

هذا العرييد ذاته كان يحب أمه ، فيزورها مرتين كل يوم ، ويحتمل توبيخها الحزين فى حلم . ومع أنه لم يحب زوجته ، فانا بذل لها العناية والمجاملة ، ووجد الوقت لينجب منها خمسة أطفال . وكان يحب أبناءه ، وحزن حين لجأت صغرى بناته للدير ، ولم يمر به يوم دون أن يزور فى قصر اللكسمبورج كبرى بناته ، التى كانت حياتها فضيحة محزنة تكاد تعدل فضيحة حياته هو .

ذلك ان زواجها بشارل ، دوق بيرى ، سرعان ما غدا تارجحا بين الحرب والهدنة . فبعد ان أمسكته مثلبسا بين أحضان امرأة ، وافقت على أن ترضى عن خياناته شريطة أن يغضى عن خيانتها ، ويضيف تاريخ اخبارى معاصر أنهما « تعهدا » بأن يحمى الواحد صاحبه (٤٧)»-

هذه الحفيدة - حفيدة « المسيو » ، « اللوطى » - وسليمة امرأة بأفارية ورثت الجنون فى دماغها ، وجدت أن ثبات الذهن واستقرار الخلق أمر يفوق طاقتها ، وزاد وعيها بعيوبها وأخطائها من حدة طبع عات أربب كل من كان لهم صلة بحياتها . وقد استغلت نبالة أصلها استغلالا كاملا ، فكانت تركب عربتها مخترقة باريس كأنها ملكة ، وتحفظ فى اللكسمبورج بقصر مترف يخدمها فيه أحيانا ثمانمائة خادم (٤٨) . فلما مات زوجها (١٧١٤) راحت تستضيف سلسلة من العشاق . وصدمت كل انسان بسكرها وفجورها ، ولغتها النابية ، وعجبها وغطرستها ، وكانت تختلف عليها نوبات من التقوى ، ومن الهجمات الشكاكة على الدين .

ويبدو أنها لم تحب انسانا قط محبتها لأبيها ، وأنه لم يحب انسانا قط محبته لها . ولقد شاركته ذكاه ، ورهافة حسه وظرفه كما شاركته خلقه ، وكان حسنهما فى شبابها يضارع حسن أجمل خليلاته . واتهمتهما شائعات باريس - التى لا قلب لها ولا حرمة - بسفاح القربى ، لا بل زادت بانها اقترف هذه الخطيئة مع بناته الثلاث جميعا (٤٩) . وأغلب الظن ان بعض هذه الشائعات أطلقتها « شلة » مدام مين (٥٠) . وقد رفضها سان - سيمون ، وهو أقرب الناس الى الموقف ، لأنها افتراءات قاسية وضيقة . أما فليب ذاته فلم يعبا بنفيا . وخلوه التام من الغيرة من عشاق ابنته (١٥١) ، وعدم غيرتها من خليلاته (٥٢) ، لا يكادان يتفقان وطبيعة الحب المستأثرة (٥٣) .

ولم يقو على فصلها عن أبيها سوى رجل واحد - هو الكبتن ريون الضابط بحرس قصرها ، الذى سلبت فحولته لبها حتى خضعت له خضوع الاماء . ففى ١٧١٩ حبست نفسها فى اللكسمبورج مع بعض أتباعها ، وولدت ابنة للكبتن . ثم ما لبثت أن تزوجته سرا . وتوسلت الى أبيها أن يأذن لها باعلان هذا الزواج ، فرفض ، فانقلب حبها له غيظا مجنونا . ومرضت ، وأهملت نفسها ، فأصابتها حمى أنذرت بالخطر ، وماتت وهى فى الرابعة والعشرين اثر مسهل أعطها اياه طبييها (٢١ يوليو ١٧١٩) . وقد كشف تشريح جثتها عن تشوهات فى مخها . ولم يرض أى أسقف بالصلاة عليها فى جنازتها ، وكان فليب

شاكرا اعمق الشكر حين سمح رهبان سان - دنى بايداع جثمانها في المدافن الملكية فى كنيسة ديرهم . أما الام فقد اغتبطت بموت ابنتها ، وأما الأب فقد دفن نفسه فى فراغ السلطة .

ه - المجتمع فى عهد الوصاية

كان ازدياد الثروة فى فرنسا فى الفترة بين صدور مرسوم نانت (١٥٩٨) والغائه (١٦٨٥) ، وانتشار حياة الحضرة ، واضمحلال العقيدة الدينية عقب الحروب الدينية والخلافات الجانسية - كان هذا كله قد جر على طبقة الاشراف تحللا فى الأخلاق رمز له لويس الرابع عشر فى شباب حكمه . وكان زواج الملك من مدام دمانتينون (١٦٨٥) ، واهتداؤه الى القناعة بامرأة واحدة والى حياة الفضيلة ، وما أحدثته الكوارث الحربية من تأثير منبه ، كل أولئك أكره بلاطه على أن يغير على الأقل من سلوكه الخارجى ، وكانت اصلاحات الاكليروس الذاتية قد أوقفت ضعف الكنيسة جيلا ، وفرض أحرار الفكر الرقابة على مؤلفاتهم ، وستر الأبيقوريون لهوهم الصاخب عن أنظار الناس . ولكن حين جاء بعد الملك الصارم التائب هذا الوصي الشاك الاباحى المتسامح ، تداعت هذه الضوابط ، وتفجر غيظ الغرائز المكبوتة فى موجة من الزندقة والاستغراق فى اللذات شبيهة بالفورة الشهوانية التى أصابت المجتمع الانجليزى عند عودة الملكية عقب جيل من تسلط البيورتان (١٦٤٢ - ٦٠) . وأصبح التحلل من الاخلاق شارة التحرر ورقى الثقافة ، وغدا الفجور نوعا من « الاتيكيت (٥٤) » .

كانت المسيحية أخذة فى الاضمحلال قبل أن تهاجمها « الموسوعة » بزمان طويل ، لا بل قبل أن يصوب اليها فولتير أول سهام قلمه . وفى ١٧١٧ شكا دبوى من كثرة الماديين فى باريس (٥٥) ، وقال ماسيون فى ١٧١٨ « يكاد الكفر اليوم يضىء على أصحابه مظهر التميز والفخار ، انه فضيلة توصل الى العظمة . . . وتجلب للمغمورين شرف الألفسة بأمير الشعب (٥٦) » وقد كتبت أم ذلك الأمير قبيل موتها فى ١٧٢٢ تقول « لست أعتقد أن فى باريس ، سواء بين رجال الدين أو الدنيا ، مائة شخص يدينون بايمان مسبحى صادق ويؤمنون حقيقة بمخلصنا ، وهذا يجعلنى أرتعد فرقا (٥٧) » وقل من أفراد الجيل الأصغر من فكر

نفس التحول عن الكاثوليكية الى البروتستنتية ، فقد تحولوا الى اللاحد ،
 النبي كان أسلم لهم . وكان مقهى بروكوب ، ومقهى جرادو ، شائهما شأن
 التامبل ، ملتقيات للمفكرين الملحدين .

وإذا كان المروق عن الدين قد شارك في اطلاق الإستهتار الخلقى في
 الطبقة العليا ، فان الفقر تعاون مع جموح الناس الطبيعي على أحداث
 الفوضى الخلقية بين دهما باريس . وقد حسب العالم لأكرو ان « الاشخاص
 الخطرين ، والمتسولين ، والمتشردين ، واللصوص ، والنصابين من شتى
 الأنواع ، ربما الفوا سدس مجموع الشعب (٥٨) » . ولذا أن نفترض أن
 الزنا كان يلطف من عناء الكدح بين فقراء المدن ، شأنه بين أغنيائها .
 وأفرخت الجريمة في شتى أشكالها ، من النشالين في باريس الى قطاع
 الطريق العام . حقا كان لباريس شرطة منظمة ، ولكنها لم تستطع
 ملاحقة الجريمة ، وكان رجالها أحيانا يقنعون بشطر من الغنيمة (٥٩) .
 وفي ١٧٢١ نجحت وزارة الحرب على الأقل في القبض على كارتوتن ،
 قاطع الطريق الفرنسي الأشهر (قريع جاك شبرد الانجليزي) وحاصرت
 خمسمائة من رجال عصابته التي جعلت السفر خطرا حتى على الملوك .
 ولم يبق على الاستقرار الخلقى للحياة الفرنسية غير طبقة الفلاحين
 والطبقات الوسطى .

أما في طبقة الاشراف بباريس ، وبين أعيان المدن الطليقيين ،
 ومدمنى الادب أو الفن ، ورجال المال ورؤساء الدين ذوى الخليلات ،
 فقد بدأ أن المبادئ الاخلاقية باتت نسيا منسيا ، ولم تذكر المسيحية
 الا ساعة يلتقى فيها الناس في الكنائس أيام الاحاد . فاذنا وفدت الزوجات
 على باريس أو فرساي تركن وراء ظهورهن ذلك المعيار الخلقى المنافق ،
 الذى حاول أن يحمى ميراث الاملاك بجعل خيانة الزوجة لزوجها
 جريمة أخطر كثيرا من خيانة الزوج لزوجته ، هناك كانت الزوجة التى
 تقتصر وصلها على زوجها تعد من الطراز القديم ، وهناك ناقست النساء
 الرجال فى ربط الروابط وفكها . وكان الزواج يقبل للحفاظ على
 الأسرة ، وأملاكها ، واسمها ، اما بعد هذا فلا يطالب عرف العصر
 بالطبقة لا الزوج ولا الزوجة بالوفاء (٦٠) . لقد كان الزواج فى العصور
 الوسطى يعتمد عليه فى أن يقود الى الحب ، أما الآن فننادرا ما كان

الزواج. يقود إلى الحب أو الحب إلى الزواج ، وحتى في الأزمان لم يكن
هناك كبير ادعاء للحب . على أن العهد لم يخل من زوجين وفيين
يتالفان كأنهما استثناء جرى للقاعدة وسط هذا الحشد الفاسق ، مثال
ذلك دوق ودوقة سان - سيمون ، وكونت وكونتيسة تولوز ، ومسيو
ومدام لون ، ومسيو ومدام بونشارتران ، ومسيو ومدام بيل - ايل .
وتحولت الكثيرات من الزوجات المستهترات الى جدات هادئات مثاليات
وأنكفا بعضهن ، بعد ان بليت مفاتنهن من كثرة التداول ، الى أدبرة
مريحة حيث يفرغن لأعمال البر ويعلمن الحكمة للراهبات .

ومن أجراً نساء عصر الوصاية كلورين الكساندرين دتسان ، التي
أطلقت فجأة من الدير وهي في الثانية والثلاثين الى سلسلة متلاحقة
من العلاقات الغرامية . وكان لها أعضارها : فابوها زير نساء موفق
ورئيس برلمان جرينويل ، وامها لعوب طائشة ، وكلودين ذاتها كانت
واعية بجمالها الذي يتلف على أن يباع . وكانت أختها الأكبر منها ،
مدام دجروليه ، لا تقل عنها كثيرا في فوضى علاقاتها الغرامية ، وقد
قالت في اعترافها على فراش الموت حين بلغت السابعة والثمانين معللة
مسلكها « كنت شابة ، وكنت جميلة ، وكان الرجال يقولون لي ذلك
فاصدقهم ، وعليكم أن تحزروا الباقي بعد هذا (٦١) » . ورسم أخو
كلودين الأكبر منها قسيسا ، وشق طريقه الى قبة الكردينالية والى منصب
رئيس أساقفة ليون متوسلا الى هدفه بالعديد من النساء ، أما الأب
فادخل كلودين ديرا في منقلوري ليوفر مهرها . هنالك ظلت متبرمة
سنة عشر عاما في حياة تقوى فرضت عليها كرها . وفي ١٧١٣ ، حين
بلغت الثانية والثلاثين ، هربت واختبات في حجرة الشفالييه ديتوش ،
وهو ضابط في المدفعية ، أصبحت بمعونته (١٧١٧) أم الفيلسوف
دامبير . على أنها لم تتوقع انبعاث « الموسوعة » من هذا الوليد ،
فتركته على سلم كنيسة سان - جساك - لرون بباريس . وانتقلت الى
ماتيو برايور واللورد بولنبروك ومارك رينيه دفواييه دارجنسون ،
وبعد أن جلست الى مثال ينحت لها تمثالا عاريا (٦٢) فيما روى ارتمت
بين أحضان الوصي نفسه . وكان مقامها هناك قصيرا ، وقد حاولت أن
تحول قبلاتها الى وظيفة كهنوتية ذات إيراد لأخيها المحبوب ، وأجاب
فليب إنه لا يحب الغواني اللاتي يتحسذن في شئون العمل في

الفرائض (١٨٣٢) » وتلمر بأن توصل أبوابه في وجهها . ثم نهضت عن
كعبتها تلك وغزت قلب دبووا . وسنلتقى بها مرة أخرى .

وفي وسط هذا التقلب الأخلاقي السريع واصلت بعض نساء باريس
تلك الفضيلة الفرنسية المميزة ، فضيلة الجمع بين أصحاب الألقاب ،
والذكاء ، والجمال ، في الصالونات . وكان أكثر المجتمعات تهديبا في
العاصمة يلتئم شمله في مبنى الأوتيل دصلى الرائع العمارة ، هناك كان
يحضر المساة والماليون والشعراء - فونتنيل في ستيناته الصامتة ،
وفولتير في عشريناته المتدفعة . وكانت جماعة أكثر جدلا تجتمع في
الأوتيل دبوون ، الذي خلده لساج في لحظة غضب ، ذلك أنه دعى
هناك ليقرا مسرحيته « توكاريه » ، فوصل متأخرا ، فبوخته الدوقة في
خيلاء قائلة « لقد ضيعت علينا ساعة » ، فأجاب « ساجعلكم تكسون
ضعفى هذا الوقت » ثم غادر المنزل (٦٤) . وقد مر بنا من قبل صالون
مدام دمين في سو . وكانت مرجريت جان كوردييه دلونيه ، التى
ستصبح البارونة دستال فيما بعد ، تخدم الدوقة وصيفة شرف ، وقد
كتبت « مذكرات » بارعة (نشرت في ١٧٥٥) تصف المهازل ،
والنزوات ، والمهرجانات الليلية ، والحفلات التنكرية التى لم تترك
مكانا يذكر للاحاديث التى تخللت « ملاهى سو » .

ولكن الحديث كان يغلب على الصالون الذى إدارته آن تيريز
دكورسيل ، ماركيزة دلامبير ، فى الأوتيل دنفير (وتشغله اليوم المكتبة
الاهلية) . وقد واصلت هذه المرأة الغنية الصارمة ، خلال عصر الوصاية
الصاحب ، تلك العادات الرزينة الجليلة التى سادت سنوات لويس
الرابع عشر الاخيرة . فلم تشجع لعب الورق ، ولا الشطرنج ، ولا حتى
الموسيقى ، بل كانت بجملتها نصيرا للفكر . وقد أولعت ، كالمركيزة
دشاتليه ، بالعلم والفلسفة ، وكانت أحيانا (كما يقول فولتير) تتكلم
فوق ما يفقهه رأسها ، ولكن الرأس كان جميلا يحمل لقباً نبيلاً ، ويحرك
مشاعر أى ميتافيزيقى ، وكانت فى كل ثلاثاء تستضيف العلماء والنبلاء ،
وفى كل أربعا الكتاب والفناذين والأدباء ومنهم فونتنيل ومونتسكيو
وماريفو . وفى اجتماعاتها تلك كان العلماء يلقسون المحاضرات.
والمؤلفون يقرعون ما يزمعون إصداره من كتب ، والشهرة الأدبية.

تكتسب ، ومن « ندوة العقل » تلك ، قامت هذه المضيقة الكريمة الطموح بنحو عشرين حملة ناجحة لادخال من بسطت عليهم حمايتها فى عضوية الاكاديمية الفرنسية . لقد كانت واحدة من مئات النساء المهذبات ، المثقفات ، المتحضرات ، اللاتى يجعلن تاريخ فرنسا أكثر القصص فتنة فى العالم .

٦ - فاتو والفسون

عكست ثورة فى الفن ذلك التغيير الذى طرأ على السياسة والاخلاق . فبعد أن انهارت سياسة لويس الرابع عشر الامبريالية فى حرب الوراثة الاسبانية (١٧٠٢ - ١٣) ، تحولت روح فرنسا من دماء المجد الحربى الى مياهج السلام . فلم يجد مزاج العصر حاجة للكنايس الجديدة ، بل وجد الحاجة أكثر للقصور المدنية كالاوتيل ماتينيون وقصر بوربون (١٧٢١ - ٢٢) . واذا استثنينا هذه العمائر الضخمة ، وجدنا ان المساكن والحجرات أصبحت الآن أصغر حجما ، وحليتها أكثر رقة وصقلا . وبدأ الباروك يتحول الى الروكوكو* ، أى أن طراز الاشكال غير المنتظمة والحلية الكثيرة غلبت عليه أناقة تكاد تكون هشة ، تصل الى حد الخيال الجامح العابت الذى لا يمكن التنبؤ به . وأصبح الولع بالصقل البديع ، والألوان الزاهية ، وتطويرات التصميم المدهشة ، طابعا لطرز الوصاية . وتلاشت الطرز الكلاسيكية تحت فرحة الثنايا الانيقة ، وأخفيت الأركان ، ونقشت الحلى والقوالب المعمارية فى أسراف . وهجر النحت فخامه فرساي الأولبية الى صور أصغر ، صور الحركة الرشيقة والأغراء العاطفى . وتجنب الأثاث الزوايا القائمة والخطوط المستقيمة ، واستهدف الراحة أكثر من الوقار . فظهر الآن مقعد الشخصين ذو المسنين ، وهو المقعد المصمم للصديقين والحببيين اللذين يكرهان عاطف البعد . وأرسي شارل كرسان كبير نجارى الوصي ، طراز أثاث عصر الوصاية بما حوى من مقاعد ، وموائد ، ومكاتب وخزائن ذات ادراج ومرايا ، تسطع بتطعيم الصدف وتشرق بالجمال المتعمد .

* ربما كانت هذه الكلمة rococo أصلها rocaille وهو لفظ استعمل فى فرنسا فى القرن السابع عشر للدلالة على بناء المغارات أو تجميلها بالصخور والأصداف .

ولقد رمز فليب ذاته ، فى شخصه وعاداته وميوله ، الى الانتقال الى البروكوك . فحين نقل الحكومة من فرساي الى باريس أنزل الفن من وقار لويس الرابع عشر الكلاسيكى الى روح العاصمة الاكثر خفة ، ووجه ثروة الطبقة البورجوازية الى رعاية الفن . وكان راعيا للفن بحكم منصبه ويتفرد فى هذا المضمار ، فهو غنى بثروته أصلا ، سخرى فى البذل للفنانين . ولم يكن يسيغ الفخامة أو الضخامة ، ولا مواضيع التصوير التقليدية - مواضيع الدين أو الأساطير أو التاريخ ، بل الروائع الصغيرة ذات الصنعة المتقنة التى تغرى الأصابع وتفتح العيون ، أمثال علب الحلوى المرصعة بالجواهر ، والانىة الفضية ، والطاسات الذهبية ، والخزفيات البصينية الغريبة الأشكال ، ورسوم النساء الفاتنات اللاتى يلبسن روينز أو تتزيانوا رداء الطبيعة أو يرفلن فى أرواب فيرونيزى الفاخرة . وقد فتح أبواب مجموعته الخاصة فى الباليه - رويال على مصاربعها لجميع الزوار المسئولين ، ولولا خليلاته اللاتى يطلبن وينثن ما يطلبن منها لضارعت مجموعته أفضل نظائرها . ووفد الفنانون على قاعاته للدرس والنسخ ، وذهب فليب الى مراسمهم لينظر ويتعلم . تحدث الى كبير مصوريه ، شارل أنطوان كوابيل ، فى أدب وتواضع تميز بهما فقال : « اننى يا سيدى لسعيد وفخور بأن أتلقى نصيحتك وأنتفع بدروسك (٦٥) » . ولولا ما عانى من ظمأ للجمال وتذوق عات له لكان رجلا رفيع التحضر .

وأفصحت روح العصر عن نفسها بأجلى بيان فى التصوير . فقد نبذ الفنانون أمثال فاتو ، وباتير ، ولانكريه ، وليموان ، القواعد التى وضعها لبرون فى الاكاديمية الملكية للفنون الجميلة بعد أن حررهم الوصي ورعاتهم الجدد . واستجابوا عن طرب خاطر للطلب على الصور التى تعكس فهم الوصي للجمال والمتعة ، وحسن نساء عهد الوصاية الفياض بالحيوية والمرح ، والألوان الدافئة لاثاث الوصاية وسجفها ، والحفلات المرحة فى غاية بولونيا ، والالعاب والتنكريات فى قصر سو ، والاخلاق المتراخية التى اتسم بها المثلون والممثلات ومغنيات الاوبرا والراقصات . وحلت الأساطير الوثنية محل قصص القديسين . القاتمة المتجهمة ، وسمحت الأشكال العجيبة المستوردة من الصين ، أو تركيا ، أو فارس ، أو الهند ، للعقل الذى أطلق من عقاله بأن

يجوب فى حرية خلال احلام غريبة ودخيلة ، واخذت الرهويات الحاملة مكان « التواريخ » البطولية ، وحلت صور اشخاص المشترين محل صور مآثر الملوك وجلال اعمالهم .

وواصل بعض الرسامين الذين اشتهروا فى عصر لويس الرابع ازدهارهم فى عصر الوصاية ، ومنهم انطوان كوابيل ، فبعد ان زخرف فرساي بالطراز نفسه الذى زين به القصر القديم ، رسم فى الباليه - رويال نساء فى اثواب طويلة فضفاضة ساحرة . اما نيكولا دلارجليير ، الذى كان يبلغ التاسعة والخمسين عند موت الملك العظيم ، فقد واصل الرسم ثلاثين سنة اخرى ، وصورته معلقة فى اللوفر الذى لا تنضب صوره ، وهو يبدو فى خياله وفى باروكته ، بصحبة زوجته وابنته . وراح الكساندر فرانسوا ديپورت ، الذى مات عام ١٧٤٣ وهو فى الثامنة والثمانين ، يرسم الان مشاهد طبيعية عريضة ، كلوحة « منظر الايل دفرانس » المحفوظة بمتحف كومبيين . وزخرف فرانسوا لموان ، الذى انتحر فى التاسعة والاربعين (١٧٣٧) ، كنيسة سان - سوليبيس بروح الخشوع والورع ، ثم اشاع الكفاء فى صالون هرقول بفرساي باجساد شهوانية سيقلمها بوشيه من بعده . وادخل كلود جيو ، مصمم مناظر المسرح وملابسه ، ونقاش المناظر الطبيعية والملوحات المسرحية ، أسلوب « المهرجانات الريفية » الذى يرتبط عندنا بتلميذه انطوان فاتو .

وانطون هذا فلمنكى ، ولد لصانع بلاط فى فالنسيين (١٦٨٤) ، وشكلته اول الامر التأثيرات الفلمنكية - صور روبنز ، وأوستاد ، وتنييه ، وتعليم مصور محلى يدعى جاك جيران . فلما مات جيران (١٧٠٢) يمم فاتو شطر باريس وهو لا يملك شروى نقير . وكسب قوته بمساعدة رسام للمناظر ، ثم بالعمل فى مصنع ينتج بالجملة لوحات صغيرة وصورا دينية . وكان أجره ثلاثة فرنكات فى الاسبوع مضافا اليها من الطعام ما يملك رمله يفضي لاصابته بالسل . ولكن حمى اخرى كانت تعتمل فى صدره وتكويه كيا - وتلك هى الجوع للعظمة والشهرة . فكرس امسياته وعطلاته لرسم الاشخاص والاماكن من الطبيعة . واستهوى أحد هذه الرسوم التخطيطية جيو ، الذى كان يرسم لوحات لمسرح الكوميدي - ايتاليين ، فدعا فاتو للانضمام اليه . وجاء انطوان ، ووقع فى غرام الممثلين ، فرسم احداثا

من حياتهم البطولية ، وغرامياتهم المتقلبة الطائشة ، وألعابهم ونزهاتهم الخلوية ، وفزعهم الأكبر حين قصرتهم مدام دمانتون على البانتوميم (التمثيل الایمائی) بعد أن ساءها هجاؤهم . والتقط فاتهم ما فى قلقهم وعدم استقرارهم من أسى ، والتعبيرات المضحكة المرتسمة على وجوههم ، وطيات ثيابهم الغربية ، ثم أضفى على هذه الصور نسيجا ذا ومض لعله آثار بعض الغيرة فى نفس جيو . على أية حال تشاجر الأستاذ والتلميذ وافترقا ، وانتقل انطوان الى مرسوم كلود أودران فى اللكسمبورج . وهناك درس فى رهبة صور روبنز التى مجد بها مارى مديتشي ، ووجد فى الحدائق مناظر من الشجر والغيوم فتنت قلمه أو ريشته .

تلك كانت سنوات مرة يساق فيها الغلمان الفرنسيون على عجل الى المعركة تلو المعركة فى حرب الوراثة الاسبانية الطويلة . وكان يقدم لتضحيتهم على هذا النحو بما ينبغى من العروض الوطنية وحفلات الوداع المثيرة للأسى . وقد وصفها فاتهم فى لوحته « رحيل الجنود » برقة فى الشعور والأسلوب جعلت أودران هو الآخر يوجس من تفوق فاتهم عليه . ودخل انطوان مسابقة نظمها الأكاديمية الملكية للتصوير والنحت فى ١٧٠٩ أملا فى نيل « جائزة روما » . فلم ينل الجائزة الثانية ، ولكن الأكاديمية ألحقته عضوا بها فى ١٧١٢ . وبعد جهود صغيرة كثيرة بلغ قمة مجده بلوحته « الأبحار الى جزيرة سيتير (١٧١٧) » وهى اليوم من أروع كنوز اللوفر . وصفقت لها باريس كلها ، وعينه الوصي المغتبط مصورا رسميا للملك ، وكلفته الدوقة ببرى بزخرفة قصرها الريفى « لاموييت » . وراح يعمل كالمحموم ، وكأنه أدرك أن لن يفسح له فى الأجل سوى أربع سنين آخر . وقدم انطوان كروزا ، منافس فليب ذاته فى رعاية الفن ، الى فاتهم الماكل والمسكن فى قصره المترف . هناك درس انطوان المصور (أصغر الانطوانين سنا) أروع مجموعة جمعها مواطن الى ذلك الحين . ورسم لكروزا أربع لوحات زخرافية ، سماها « الفصول » . وسرعان ما ضاق ذرعا بالترف ، فراح يتنقل من مكان الى مكان ، حتى الى لندن (١٧١٩) ، ولكن غبار الفحم والضباب رداه الى باريس ، حيث سكن فترة مع تاجر التحف جرسان . ورسم له انطوان فى ثمانية أصباح جانبى لافتة ظهر فيها باريسيون عصريون يفحصون صوراً فى حانوت ، وفوق النزعة

الواقعية العرضية ألقت طيات رقيقة لثوب امرأة ذلك الضوم الواهن. الذى تميز به فاتو . وكان سعال سله يزداد سوءا يوما بعد يوم ، فاتخذنا بيتنا فى نوجن ، قرب فانسين ، معللا نفسه بأن هواء الريف سيعينه على البرء . وهناك ، بين أحضان جيرسان والكنيسة ، مات (١٨ يوليو ١٧٢١) غير متجاوز السابعة والثلاثين .

وقد سرت عدوى مرضه الطويل الى خلقه وفنه . وكان ، وهو الرجل النحيل الممرض العصبى الحى ، السريع الاعياء ، النادر الابتسام ، القليل المرح - يقصي حزنه عن فنه ، فصور الحياة كما رآتها أحلامه وأمانيه - مشهدا عريضا من الممثلين المرحين والنساء اللدنات ، وأغنية للفرح الملهوف . واذ كان أضعف من أن يجرى وراء شهوات الحس ، فانه احتفظ وسط اباحية عهد الوصاية بلياقة فى الخلق انعكست فى مزاج انتاجه . صحيح انه رسم بعض النسوة العاريات ، ولكنهن خلون من اغراء اللحم ، وفيما عدا هؤلاء كانت نساؤه يرتدين ثيابا مشرقة تخطر فى خفة وحذر خلال دهاليز الحب . وتنقلت فرشاته بين تقلبات الممثلين ، ومراسم الغزل ، ومشكال الجو . فأضفى على شخص « غير المكترث (٦٦) » أغلى وأشرف ما استطاع تخيله من ثياب . وصور « الكوميديين الفرنسيين (٦٧) » فى مشهد درامى ، والتقط صورة الممثل الايطالى جوزيبى باليتى فى دور المهرج جيل (٦٨) ، غارقا فى التفكير مرتديا سراويل بيضاء . وفاجأ « عازف جيتار (٦٩) » فى لحظة اكتئاب غرامى ، ورأى « حفلة موسيقية (٧٠) » مسحورة بعزف العود . وقد وضع شخصياته امام خلفيات حاملة ، من نوافير عابثة ، وأشجار متمائلة ، وغيوم سابحة ، يتخللها هنا وهناك تمثال وثنى يردد به صدى بوسان ، كما نلاحظ فى « مهرجان الحب (٧١) » أو « الفراديس السعيدة (٧١) » كان يحب النساء على بعد متهيّب ، بكل أشواق رجل أوهن من أن يلتمس ودهن ، وقد انفعّل بأعطافهن الدافئة أقل من انفعاله ببهاء شعورهن وانسياب أثوابهن المتمسوج . فالقى على ثيابهن كل سحر ألوانه ، وكأنه يعرف أن المرأة باتت بفضل هذا اللباس ذلك المر الغامض الذى بعث نصف ذكاء العالم ، وشعره ، وأعجابه الشديد ، فضلا عن انجابه النوع الانسانى .

ومن ثم سكب روحه فى أشهر صورة قاطبة ، وهى « الابحار الى جزيرة سيتير » وفيها نساء رشيقات استسلمن لاثارة الرجال فركبن السفينة مع عشاقهن الى جزيرة صغيرة قيل ان لفينوس فيها معبدا ، وانها طلعت هناك من البحر وهى تقطر جمالا . هنا يكاد الرجال يكسفون النساء فى بهاء ملبسهم ، ولكن الشيء الذى فتن الاكاديمية فى اللوحة هو جلال الاشجار المتدلى ، والقمة الثلجية للجزيرة البعيدة تصبغها الشمس والغيوم الملامسة لها . وقد أحب فاتو هذا الموضوع الدقيق حبا أغراه برسمه فى ثلاثة مناظر متنوعة - واستجابت باريس باختيارها فاتو ليحمل راية عصر الوصاية ، ويحيى مباحج الحياة فى نظام حكم سيموت حالما يسلم شبابه . وغدا بلقبه الرسمى « مصور الاعياد المرحة » ، رسام العشاق من أهل المدن يتنزهون نزهات حاملة فى ريفه هادىء مطمئن ، ويمزجون بين « ايروس » (اله الحب) و « بان » (اله المراعى والغابات) فى الدين الوحيد الذى دان به العهد . على ان نسمة اكتئاب تهب على هذه المشاهد التى توهم بخلو البال ، فهؤلاء الفتيات الناعمات الطيعات ما كان يمكن أن يصبحن بهذه الرقة لولا أنهن خبرن شيئا من الألم ، أو ربما لم يساورهن الظن فى قصر برهة الهيام بهن . تلك هى ميزة فاتو - الترجمة المرهفة للمحطات الكمال التى لا بد ان تنقضي .

وعاجله الموت قبل ان ينعم بشهرته . وبعد موته اكتشف الخبراء رسومه القلمية والطباشيرية ، وفضلها بعضهم على لوحاته الزيتية ، لان الطباشير أو القلم بلغ هنا دقة فى تفصيل الايدى والشعر ، ورهافة تمييز فى رسم العيون والوقف والمروحة المعابثة لم تكشف عنها قط ألوان الزيت كل الكشف (٧٣) . وأغرمت نساء باريس غراما شديدا بأنفسهن كما رأينها فى أشواق الفنان الميت . واليست « دنيا المجتمع الراقى » نفسها بأسلوب فاتو (ألا فاتو) ، ومشت واتكات بأسلوب فاتو ، وزينت مخادعها وصالوناتها كما زينت هذه فى أشكال خياله واللوانه . ودخل طراز فاتو فى تصميم الاثاث ، وفى وحدات الزخرفة الريفية و « ارابسك » الركوك الرشيقي . وتلقف الفنانون أمثال لانكويه وباتير تخصص فاتو ، وصورا المهرجانات الريفية ، وأحاديث الغزل ، وحفلات الموسيقى فى المنزهات وحفلات الرقص على الخضرة .

والمكاشفات بين العشاق بخلود الحب . ان نصف تصوير فرنسا خلال المائة
السنة التالية كان ذكرى لغاتو . وقد استمر تأثيره حتى بوشيه ، ثم
فراجونار ، ثم ديلاكروا ، ثم مينوار ، ووجد التاثيريون فى أسلوبه
ارهاصات موحية بنظرياتهم فى الضوء والظل والمزاج . لقد كان كما قال
جونكور المفتون به « الشاعر العظيم للقرن الثامن عشر (٧٤) » .

٧ - المؤلفون

زكا الادب فى ظل أخلاقيات عصر الوصاية الهيئة اللينة وما ساه
من تسامح ، ووجدت الهرطقة موطئا لقدمها لم تجل عنه قط بعدها .
وأفاقت المسارح والأوبرا من عبسات الملك الراحل ومدام دمانتون ،
وكان فليب ، أو بعض أهل بيته ، يختلفون كل مساء تقريبا الى الأوبرا ،
أو الأوبرا - الهزلية ، أو « المسرح الفرنسى ، أو مسرح الايطاليين .
واحتفظ المسرح الفرنسى بتمثيلات كورنىي ، وراسين ، وموليير ،
ولكنه فتح أبوابه لتمثيلات جديدة كمسرحية فولتير « أوديب » ، التى
سمع فيها صوت عصر جديد متمرد .

ونحن اذا استثنينا فولتير وجدنا اعظم كتاب هذا العصر محافظين
شكلوا فى ظل الملك العظيم . فكان ألان رينيه لساج المولود عام ١٦٦٨ ،
ينتمى روحا وأسلوبا للقرن السابع عشر وان عاش حتى ١٧٤٧ . وفد
على باريس بعد أن تلقى العلم على يد اليسسوعيين فى فان ، فدرس
فيها القانون - وكانت خليلته تدفع له نفقات تعليمه (٧٥) . وبعد أن
قضى فى خدمة جاب للضرائب فترة بغضته فى رجال المال ، تكفل باعالة
زوجته وأبنائه بتأليف الكتب ، ولعله كان يموت جوعا لولا أن رئيسا
دينيا عطوفا أجرى عليه معاشا قدره ستمائة جنيه فى السنة . وقد ترجم
بعض التمثيليات عن الاسبازية ، والتتمة التى كتبها أفيلانيدا لرواية
« دون كخوته » . ثم استوحى قصة « الشيطان الأعرج » لفيليت
دى جويغافرا ، فوفق كل التوفيق فى قصته « الشيطان الأعرج » (١٧٠٧)
التى صورت شيطانا مؤذيا يدعى اسمودوس ، يحط على قمة جبل فى
باريس ، ويرفع أسقف البيوت كما يشاء بعصاه السحرية ، ويكشف
لصاحبه عن الحياة الخاصة والغراميات المحرمة للقطنان الغافلين .
والحصيلة فضح مرح لكائد البشر القذرة ، ونفاقهم ، ورذائلهم ،

وحيلهم . فترى مثلا سيدة تفاجأ بزوجها فى الفراش مع خادمه الخاص فتحل الكثير من المشاكل جملة بصياحها بان الخادم يعتدى على عفافها ، ويقتل الزوج الخادم ، وتنقذ السيدة عرضها وحياتها ، والموتى لا يتكلمون . واندفع كل انسان تقريبا لشراء الكتاب أو استعارته ، وقد لبهجه أن يرى افتضاح غيره من الناس . كتبت مجلة فردان فى عدد ديسمبر ١٧٠٧ تقول « أن سيدين من رجال الحاشية اقتتلا بالسيف فى دكان باربان للحصول على آخر نسخة من الطبعة الثانية (٧٦) » . وقد وجد سانت - بوف شبه خلاصة للعهد فى ملاحظة قالها أسمودوس عن شيطان من اخوانه تشاجر معه « لقد تعانقنا ، ومن وقتها ونحن خصمان لدودان (٧٧) » .

وبعد عامين كاد لساج يسمو الى مستوى مولير بهزلية تهجو رجال المال . وقد نمى الى بعض هؤلاء نبا « توركاريه » هذه سلفا فحاولوا منع تمثيلها ، وقد صورتهم قصة - ولعلها أسطورة - وهم يعرضون على المؤلف ١٠٠.٠٠٠ فرنك ليسحب المسرحية (٧٨) ، وأمر الدوفان ، ابن لويس الرابع عشر ، باخراجها . وتوركاريه هذا مقاول وتاجر ومراب يحيى حياة الترف وسط الفاقة التى جرّتها الحرب . وهو لا يسخو الا على خليلته التى تبتز ماله بنفس المثابرة التى يبتز بها الناس . يقول الخادم فروذتان « عجبا لمسار حياة البشر . نحن نلتقط مغناجا ، والمغتاج تلتهم رجل أعمال ، ورجل الأعمال ينهب غيره ، وهذا كله يؤلف أمتع سلسلة من الخدع الدنيئة يمكن تخيلها (٧٩) » .

وربما كان الهجو هنا ظالما مرهقا بشهوة الانتقام . وقد وفق لساج ، فى أشهر روايات القرن الثامن عشر الفرنسية ، فى رسم شخصية أكثر تعقيدا ، وبموضوعية أكبر . وروايته هذه « مغامرات جيل بلاس دى سانتلانى » التى نسج فيها أيضا على منوال الروايات الاسبانية ، تتحرك - بأسلوب روايات التشرّد - خلال عالم من اللصوصية ، ونوبات السكر ، وخطف الناس ، واغواء النساء ، والسياسة - عالم الذكاء فيه هو الفضيلة العظمى ، والنجاح يغتفر كل شيء . و « جيل » هذا يستهل حياته فتى بريئا ، رقيقا ، مثاليا ، محبا للناس ، ولكنه ساذج ، ثرثار ، مغرور . يقبض عليه اللصوص ، فينضم الى عصابتهم ويتعلم حيلهم

وأماليبيهم ، ويشق طريقه الى البلاط الاسبانى ، ويخدم دوق ليرما مساعدا وقوادا . يقول « قبل أن التحق بالقصر كانت طبيعتى مترفة عطوفا ، ولكن رقة القلب ضعف يعدونه هناك صفة عتيقة ، لذلك أصبح قلبى أقسى من أى صخر . فهنا مدرسة ممتازة لتصحيح الاحاسيس الرومانسية للصدقة (٨٠) » . ويولى ظهره لابويه ويرفض أن يعينهما . ويتعثر حظه ، فيودع السجن ، ويعتزم اصلاح ذاته ، ثم يفرج عنه ، فينزوى فى الريف ، ويتزوج ، ويحاول أن يكون مواطنا صالحا . ولكنه يجد هذا عبئا لا يطاق ، فيعود الى القصر وناموسه ، ويخلع عليه لقب الفروسية ، ويتزوج ثانية ، ويدهش لفضيلة زوجته ولسعادته بأطفالها « الذين أومن مخلصا بأننى أبوهم (٨١) » .

وأصبحت « جيل بلاس » أحب الروايات للقراء الفرنسيين ، ألى أن تحدثت « بؤساء » هوجو (١٨٦٢) ضخامتها وتفوقها . وأحب لساج كتابه حبا جعله يواصل العمل فيه عشرين سنة فظهر المجلدان الأولان فى ١٧١٥ ، والثالث فى ١٧٢٤ ، والرابع فى ١٧٣٥ ، وكان آخر مجلداته لا يقل جودة عن أولها . وقد استعان على معاشه فى شبخوخته بكتابة هزليات صغيرة لمسرح شعبى يدعى « مسرح السوق » وفى ١٧٣٨ أصدر رواية أخرى تسمى « أعزب سلمنقة » ، وأطال الكتاب بسرقات صغيرة لم يعترف بها ، وهى عادة درج عليها كتاب ذلك العصر وكان قد أصبح أصم تقريبا فى الأربعين ، ولكن كان فى قدرته أن يسمع ببوق ، فىا له من رجل محظوظ . يستطيع أن يصم أذنيه حين يشاء كما نغمض أعيننا . وقرب نهاية حياته فقد القدرة على استعمال مواهبه العقلية « الا فى منتصف النهار » بحيث « بدأ أن ذهنه يشرق ويغرب مع الشمس (٨٢) » ، كما قال أصدقاؤه . ومات عام ١٧٤٧ شيخا فى الثمانين .

وقصة لساج « جيل بلاس » تجد اليوم قراء أقل مما تجسده « مذكرات » لوى دروفزوا ، دوق سان - سيمون . وما من انسان يحب هذا الدوق الآن ، لأنه يفتقد قدرة الرجل المتواضع على اخفاء غروره . فهو لم ينس قط أنه كان واحدا من « أدواق ونبلاء » فرنسا ، الذين لا يبزههم فخامة غير أعضاء الاسرة المالكة ذاتها ، ولم يفتقر قط للويس

الرابع عشر تفضيحه كفاية البورجوازيين على عجز الاشراف فى ادارة الحكومة ، ولا رفعه الابناء والحفدة الملكيين غير الشرعيين فسوق « الادواق والنبلاء » فى مراسم البلاط وولاية العرش . يقول لنا فى اول سبتمبر ١٧١٥ :

« نمت الى نبا موت الملك حين استيقظت . فذهبت من فوري لتقديم احترامى للملك الجديد . . ومن هناك ذهبت الى دوق اورليان ، وذكرته بوعده قطعه على نفسه ، وهو أن يسمح للادواق بأن يحتفظوا بقبعاتهم على رعوسهم حين يطلب اليهم التصويت (٨٣) » .

وقد اخلص فى حب الوصي ، وخدمه فى مجلس الدولة ، ونصحه بالاعتدال فى امر خيالاته ، وواساه فى احزانه وهزائمه . واذ كان على كعب من الاحداث مدى خمسين عاما ، فقد بدأ تسجيلها فى ١٦٩٤ - من زاوية طبقته - منذ مولده عام ١٦٧٥ الى وفاة الوصي عام ١٧٢٣ . اما هو فقد مد فى اجله الى عام ١٧٥٥ ، حتى أدرك عهدا لا يوافق طبيعته . وقد حكمت عليه المركيزة كريكى بأنه « غراب مريض هرم ، يحرقه الحسد وياكله الغرور (٨٤) » . ولكنها كانت تكتب مذكرات مثله ، ولم تطق تشبته بالحياة .

فاما الدوق الثرثار فكان دائما متحيزا ، وكثيرا ما كان ظالما فى احكامه ، ومرات مهملا فى التاريخ (٨٥) ، وأحيانا غير دقيق الرواية عن وعى (٨٦) ، كان يتجاهل كل شيء الا السياسة ، ويتوه بين الحين والحين فى ثرثرة لا غناء فيها عن الارستقراطية ، ولكن مجلداته العشرين سجل مفصل نفيس لكاتب ذى عين لمحة ثاقبة وقلم سيال ، فهى تمكننا من أن نرى مدام دمانتون ، وفنيلون ، وفليب اورليان ، وسان - سيمون ، رؤية ناصعة نابضة بالحياة ، وسان - سيمون يقرب فى هذا من بوريين اذ يتيح لنا رؤية نابليون . ورغبة فى اطلاق العنان لتحيزه ، حاول أن يخفى مذكرته ، ومنع نشرها قبل أن ينقضى قرن على موته ، ولم يصل منها شيء للمطبعة حتى عام ١٧٨١ ، وكثير منها لم يصلها قبل عام ١٨٣٠ . ومن بين جميع المذكرات التى تنير لنا تاريخ فرنسا تقف هذه المذكرات على القمة دون منازع .

٨ - الكريدينال العجيب

لو صدقنا سان - سيمون لكانت مسيرة جيووم دبوا النقيض لاعظم مبادئ شبابنا الهاما . فقد جمع كل رذيلة ، وحقق كل نجاح الا « نجاح الاحترام » . فلنستمع مرة اخرى الى سان - سيمون يقول فى زميله عضو المجلس :

« كان ذكاؤه من النوع العادى جدا ، ومعارفه من اكثر المعارف شيوعا ، وكفايته صفرا ، مظهره مظهر العرسة ، مظهر الرجل المتحذلق ، حديثه ثقيل ، متقطع ، غامض أبدا ، زيفه مكتوب على قسماات وجهه ، ... ما من شيء فى رأيه جدير بالتقديس ... يجهر باحتقاره للايمان ، والعهود ، والشرف ، والاستقامة ، والصدق ، ويلذذ أن يهزأ بهذه الأشياء كلها ، تستوى فيه الشهوة والطمع ... والى هذا كله كان ناعما ، ذليلا ، لينا ، منافقا ، كاذبا فى اعجابه ، يتخذ كل لبوس بيسر كثير ... حكمه معوج برغم ارادته ... ومن عجب أنه لم يستطع ، وفيه هذه النقائص ، أن يغوى من الناس انسانا الا دوق أورليان ، الذى أوتى نصيبا موفورا من الذكاء واتزان العقل ، ووهب الكثير من الادراك الواضح السريع لأخلاق الناس (٨٧) » .

وكان هذا خليقا بأن يؤدى بالمؤلف القاسى الى التشكك فى صواب غيرته . على أننا يحب أن نعترف بأن دكلو يتفق مع سان - سيمون (٨٨) .

كان دبوا فى عامه الستين حين قلده الوصاية السلطة ، متهدما بعض الشيء بعد أن أصيب بعدة أمراض تناسلية (٨٩) ، ولكنه كان قادرا على الترفيه عن مدام دتنسان حين وقعت من أحضان فليب . على أية حال لابد أنه أوتى شيئا من الغطنة العقلية ، لأنه أدار الشئون الخارجية ادارة لا بأس بها . وقد أخذ رشوة ضخمة من بريطانيا ليصنع ما ظنه خيرا لفرنسا . ذلك أن حزب الاحرار فى انجلترا ، والامبراطور شارل السادس فى النمسا ، كانا يتآمران للتنكر لمعاهدة أوترخت واستئناف الحرب ضد فرنسا . وكان فليب الخامس يتحرق شوقا لعرش فرنسا غير قانع بعرش أسبانيا ، وخيل اليه أن إبرام اتفاق مع انجلترا سيزيح العقبات عن طريقه . فلو أن انجلترا ، وأسبانيا ، والنمسا

والأراضي المنخفضة النمساوية (بلجيكا) اتحدت في حلق أعظم جديد ، لطوقت فرنسا بالأهداء من جديد ، ولا بطلت كل سياسات ريشليو ولويس الرابع عشر وانتصاراتهما . ومنعا لمثل هذا الاتحاد أبرم دبوا وفليب اتفاقا مع إنجلترا والأقاليم المتحدة (هولنده) في ٤ يناير ١٧١٣ . وكان هذا الاتفاق نعمة لفرنسا ، ولتوازن القوى الأوربي ، ولبريطانيا؛ فلو أن فرنسا وأسبانيا تملك عليهما ملك واحد لتحدى أسطولهما الموحد سيطرة إنجلترا على البحار . كذلك كان نعمة للملكية الهانوفرية الجديدة غير الآمنة في إنجلترا ، لأن فرنسا تعهدت الآن بالأمان تبذل مزيدا من العون للمطالبين الاستيوارتيين بالتاج الانجليزي

وغلبت الحكومة الأسبانية على أمرها ، ولم ترقها هذه الهزيمة فاشترك البيروني ، وزيرها الحاكم ، في مؤامرة كيلمار ودوقة مين للاطاحة بالوصي وجعل فليب الخامس ملكا على فرنسا . واكتشف دبوا المؤامرة ، واقنع الوصي على كره منه بأن يحذو حذو إنجلترا في اعلانها الحرب على أسبانيا (١٧١٨) . وأنهت معاهدة لاهاي (١٧٢٠) هذا الصراع . ورغبة في دعم السلام رتب دبوا زواج ابنة الملك فليب بلويس الخامس عشر ، وبنات الوصي بأبناء فليب . وعقدت الزيجات على جزيرة بيداسو الواقعة على الحدود (٩ يناير ١٧٢٢) واحتفل بها في حفل لاحراق المهرطقين (٩٠) . ولما كانت الأميرة الأسبانية ماريانا أنا فكتوريا لا تتجاوز الثالثة من عمرها ، فلا بد أن ينقضي زمن قبل أن ينجب منها لويس الخامس عشر وريثا للعرش ، فاذا حدث أن مات الملك الصبي خلال هذه الفترة ، فان الوصي يصبح ملكا على فرنسا ، ويصبح دبوا وزيره الدائم .

وتسلق بدهاء خطوة فخطوة . ففي ١٧٢٠ عيّن رئيس أساقفة على كمبرى ، وبمفارقة مضحكة من مفارقات التاريخ طلب ملك بروتستنتي هو جورج الأول ، الى الوصي الشاك ان يقنع البابا بان يخلع على دبوا هذا الكرسي الرياسي الشهير ، الذي شرفه قبيل ذلك فنيلون ، وشارك أساقفة فرنسا بما فيهم التقى الورع ماسيون في الاحتفالات التي أضفت هذا الشرف على رجل كان يرى فيه الكثير من قصة الحضارة .

الفرنسيين. جماع الرذائل - أما ديونا فلحسن بانه لم يكافأ بما يكفى جزاء على خدماته لفرنسا ، واستخدم المال الفرنسى ليُجْلِس على عرش الجابوية مرشحا تعهد بان يبعث اليه بقبعة حمراء (أى قبعة الكردينال) . وأوفى أنوسنت الثالث عشر بوعده وهو آسف ، وأصبح رئيس الاساقفة الكردينال دبوا (١٦ يوليو ١٧٢١) ، وبعد سنة عين وزيراً أول للملكة براتب قدره ١٠٠ر٠٠٠ جنيه . واذ كان يتقاضى ايراداً قدره ١٢٠ر٠٠٠ جنيه من منصبه رئيس الاساقفة ، و ٢٠٤ر٠٠٠ من سبعة أديرة ، و ١٠٠ر٠٠٠ من نظارته على البريد ، ومعاشاً انجليزيا قدره سيمون بمبلغ ٩٦٠ر٠٠٠ ، فقد بلغ ايراده السنوى الآن نحو ١ر٥٠٠ر٠٠٠ جنيه (٩١) . ولم يكن له من هم الا خوفه من أن ترفض زوجته - التى كانت لا تزال على قيد الحياة - ما يبعثه اليها من الرشا ، وتكشف عن وجودها ، وتبطل بذلك مناصبه الكنسية (٩٢) .

ولكن الزمن أدركه . ففى ٥ فبراير ١٧٢٣ بلغ لويس الخامس عشر سن الرشد وانتهى عهد الوصاية . وحين كان الملك لا يتجاوز الثالثة عشرة ، وكان ينعم بالعيش فى فرساي ، طلب الى فليب أن يواصل حكمه للمملكة ، وظل ديوا أكبر مساعدي فليب . ولكن حدث فى اول أغسطس أن انفجرت مثانة الكردينال ، ومات فجأة وهو مثقل بأمواله . واضطلع فليب بالادارة ، ولكن فسحة أجله هو أيضا انتهت . ذلك أنه بعد أن أتخم بالنساء ، وتخدّر بادمان السكر ، وكف بصره ، وفسد حتى عاداته المهذبة ، تقبل ، فى نصف وعى ، ازدراء الناس لذلك النظام الذى بدأ فى جو شامل من الود والارتياح ، وقارب نهايته فى انحدار رسمى واحتقار شعبى . وأنذره الأطباء بان أسلوب حياته سيقضي عليه ، ولكنه لم يكتثر ، فلقد أترع بخمر الحياة حتى الثمالة ، ومات بنوبة فالج فى ٢ ديسمبر ١٧٢٣ ، وتلقفته ذراعاً خليلته مؤقتاً . وكان يومها فى التاسعة والأربعين .

على ان فليب أورليان لا يقع من نفوسنا موقع الرجل الشرير برغم تعدد آثامه . فرذائله رذائل الجسد لا النفس : كان متلافاً سكيراً فاسقاً ، ولكنه لم يكن أنانياً ، ولا قاسياً ، ولا خسيساً ، بل كان رحيماً ، شجاعاً ، كطيفاً . كسب مملكة بمقامرة ، وتركها بقلب خلىّ ويد مبسوطة . وقد

أتاح له ثراؤه كل الفرص ، ولم تتح له سلطته أى انضباط . أنه لمنظر محزن حقا - منظر رجل لامع الذكاء ، سمح الرأى ، يكافح لاصلاح ما أفسده فى فرنسا تعصبَ الملك العظيم ، ثم يترك الاهداف السامية تغرق فى سكر لا معنى له ، ويضيعَ الحب فى دوامة من الفسق .

كانت فترة الوصاية ، من الناحية الاخلاقية ، أشد الفترات خزيا وعارا فى تاريخ فرنسا . فالدين الذى كان نافعا فى القرى جلب على نفسه العار فى القمة لأنه شرف رجالا من أمثال دبوا ووتسان ، فقد بذلك احترام الفكر الذى أطلق عقاله ، وقد حظى الذهن الفرنسى بحرية نسبية ، ولكنه لم يستخدمها لنشر الذكاء الرحيم المتسامح بقدر ما استخدمها لاطلاق الغرائز البشرية من ضوابط الهيمنة الاجتماعية التى تتطلبها الحضارة ، ونسيت الارتياحية فلسفة أبيقور ، وانصرفت الى اللذات الابيقورية (أى الحسية) . ولقد كانت الحكومة فاسدة ، ولكنها حفظت السلام فترة كفت للسماح لفرنسا بأن تفيق من عهد مدمر، عهد الفخامة والحرب . وقد انهار « نظام » لو وانتهى بالافلاس ، ولكنه أعطى الاقتصاد الفرنسى حافزا قويا . وشهدت تلك السنوات اللذان انتشار التعليم المجانى ، وتححرر الفن والأدب من الوصاية والسيطرة الملكيتين ؛ لقد كانت سنوات « الابحار الى سيتيرا » ، و « جيل بلاس » و « أوديب » و « رسائل موتسكيو الفارسية » . ولقد زجت الوصاية بفولتير فى السجن ، ولكنها أعطته من الحرية والتسامح ما لن يعرفه أبدا فى فرنسا حتى فى ساعة انتصاره وموته .

٩ - فولتير والباستيل : ١٥١٧ - ٢٦

فى مذاكرات سان - سيمون فقرة مميزة تصف شابا محدثا آثار ضجيجا كثيرا أيام الوصاية :

« نفى آرويه ، وهو ابن مونتق كنا نعامله أنا وأبى حتى توفى .. الى تل فى ذلك الحين (١٧١٦) لنظمه أبياتا من الشعر فيها هجو شديد ووقاحة بالغة . وما كنت لآلهو بتدوين هذا الحدث التافه لولا أن آرويه هذا ، الذى أصبح شاعرا وأكادميةا كبيرا باسم فولتير ، قد أصبح كذلك شخصية فى دولة الأدب ، لا بل بلغ شيئا من الأهمية بين بعض الناس (٩٣) » .

هذا الشاب المحدث ، الذي بلغ الآن الحادية والعشرين ، وصف نفسه بأنه « نحيل ، طويل ، للاحم فيه ولا أرداف (١٤) » ولعله بسبب هذا العيب كان يثب من مضيف (أو مضييفة) الى آخر ، ويجد الترحيب حتى فى الدوائر العليا ، بفضل شعره المتألق وذكائه الحاضر ، يتشرب الهرطقة وينشرها ، ويمثل دور زير النساء . وأذ لمع فى قصر سو على الأخص ، فإنه أثلج صدر دوقة مين بهجوه الوصي . وكان فليب قد اختزل الى النصف خيول المرابط الملكية ، فعلق آرويه على هذا بأنه كان خيرا له أن يطرد نصف الحمير الذين يزحمون بلاط سموه . وأسوأ من ذلك أنه فيما يبدو اذاع أبياتا عن أخلاق دوقة بيرى (ابنة الوصي) وانكر فولتير أنه كاتبها ، ولكن الأبيات نشرت بعد ذلك فى « أعماله » وقد واهل خطة الإنكار هذه الى قرب ختام حياته ، باعتبارها حماية مغتفرة من رقابة مصلته على أصحاب الأقلام . أما الوصي فكان فى وسعه أن يغتفر الهجائيات اللاذعة الموجهة لشخصه ، لأنها كثيرا ما كانت كاذبة ، ولكنه كان يجرح جرحا عميقا من السخریات الموجهة لابنته ، لأنها كانت صادقة فى أغلبها . وعليه ففى ٥ مايو ١٧١٦ أصدر أمرا « بارسال السيد آرويه الابن الى تل » - وهى مدينة على ثلاثمائة ميل جنوب باريس ، اشتهرت بمدايقها الكريهة الرائحة ، ولم تكن قد اشتهرت بعد بالنسيج الرقيق « التل » الذى نسب اليها فى تاريخ لاحق . واقنع الأب آرويه الوصي بأن يغير المنفى من تل الى صلى - سير - لووار ، على مائة ميل من العاصمة . وذهب اليها آرويه ، واستقبله هناك الدوق صاحب لقب صلى آنثذ ، سليل الوزير الأكبر لهنرى الرابع ، ضيفا فى بيته .

وقد استمتع هناك بكل شيء الا الحرية . وما لبث أن وجه شعرا « رسالة للدوق أورليان » يؤكد فيه براءته ويلتمس اطلاق سراحه . واستجاب الوصي ، وما وافى ختام العام حتى كان قد عاد الى باريس وراح يتنقل فى أرجائها تنقل الطائر وينظم الشعر ، فى بذاعة حيننا ، وفى سطحية فى كثير من الأحيان ، وفى ذكاء دائما - حتى نسب اليه كل هجو بارع يسرى على موائد المقاهى دون معرفة كاتبه . وفى مطلع عام ١٧١٧ ظهر هجاء لاذع جدا ، بدأت كل جملة فيه بكلمة « رأيت »

J'ai vu « مثال ذلك :

« رأيت الباستيل وألف سجن آخر مملوءة بمواطنين شجعان ورعايا أوفياء . رأيت الناس أشقياء يرسفون في عبودية قاسية . رأيت الجند يهلكون جوعا ، وعطشا . . . وسخطا ، رأيت شيطاننا في زى امرأة . . . يحكم المملكة . . . رأيت البور - رويال وقد هدم . . . رأيت - وهذا ينتظم كل ما رأيت - يسوعيا يعبد . . . رأيت كل هذه الشرور ، وأنا لم أجاوز العشرين بعد (٩٥) » .

وواضح أن هذه الابيات كانت تعرض بلويس الرابع عشر ومدام همانتون ، ولا بد أن كاتبها عدو جانسنى لليسوعيين لا شك مستهتر لا يزال يحتفظ ببعض الحب في قلبه لجماعة اليسوعيين . أما الكاتب الحقيقي فهو أ. ل. لبرون ، الذى التمس بعد ذلك الصفح من فولتير لأنه تركه يتحمل تبعه كتابتها (٩٦) . ولكن السن المتقولين امتدحت آرويه على القصيدة ، وألحت عليه الجماعات الأدبية فى القائها ، ولم يصدق أحد انكاره تاليفها (الا صاحبها) . واتهمته الشائعات التى نقلت الى الوصي بكتابة عبارة لاتينية - وبحق فيما يبدو - فضلا عن قصيدة « رأيت » المذكورة ، ومطلعها *Puero regnante* : يقول كاتبها ما ترجمته « صبى (لويس الخامس عشر) يملك ، ورجل مشهور بتسميم خصومه وغشيان المحارم يحكم ، . . . وثقة الشعب تنتهك (افلاس مصرف لو) . . . والبلاد يضحى بها طمعها فى تاج ، وميراث - يعجل ميقاته بخسه ، وفرنسا على شفا الدمار (٩٧) » . وفى ١٦ مايو ١٧١٧ أمر خطاب ملكى مختوم بأن « يقبض على السيد آرويه ويودع الباستيل » . وفوجيء الشاعر فى مسكنه ، ولم يسمح له بأن يأخذ غير الثياب التى يرتديها .

ولم يتسع وقته لوداع خليلته آنذاك ، واسمها سوزان دليفريه ، واتخذ صديقه لفيفر دجنونفيل مكانه على صدرها ، واغتفر لها آرويه غيانتها فى تفلسف - « علينا أن نحتمل هذه التواقه (٩٨) » وبعد سنوات مات لفيفر فنظم فولتير فى ذكراه أبياتا تبين موهبة الناثر الشاب فى قرص الشعر الجميل ، والعواطف الرقيقة التى كانت دائما أعمق فى نفسه من الشكوك : « انه يتذكرك ، أنت والجميلة ايجيرى (سوزان) فى أيام حياتنا الحلوة ، حين كنا ثلاثتنا يحب بعضنا بعضا . فالفكر

والطيش ، والحب ، وسحر الأخطاء الرقيقة ، كل أولئك ربط بين قلوبنا الثلاثة . الا ما كان أسعدنا ، اذ لم يقو على تكدير صفونا حتى الفقر ، رفيق السعادة الحزين . كنا شبابا ، مرحين ، قنوعين ، خالين من الهوم ، لا يشغلنا التفكير فى المستقبل ، وغباتنا كلها تحسدها مياهجنا الراهنة - فإى حاجة بنا بعد هذا لثراء لا غناء فيه ؟ لقد كنا نملك شيئا أفضل منه جدا ، كنا نملك السعادة (٩٩) » .

وتزوجت سوزان رجلا غنيا يدعى المركيز جوفرينه ، وأبت أن تدخل فولتير بيتها حين أتى لزيارتها . وعزى نفسه بهذه الفكرة ، وهى أن « كل الماسات واللالىء التى تزينها الان لا تعدل قبلة من قبالتها فى الايام الخالية (١٠٠) » - ولم يرها ثانية حتى عاد الى باريس بعد احدى وخمسين سنة ليموت ، عندها أصر وهو فى الثالثة والثمانين على زيارة المركيزة الأرملة ، وكانت قد بلغت الرابعة والثمانين . لقد كان يسكن فولتير هذا شيطان ، ولكن كان يسكنه أيضا أرق قلب فى الوجود .

على أنه لم يجد الباستيل سجننا لا يطاق . فقد سمح له بأن يرسل فى طلب الكتب ، والآثاث ، والثياب الداخلية ، وطاقيبة النوم ، والعطر ، وأن يدفع ثمن هذا كله ، وكثيرا ما كان يتناول طعامه مع مأمور السجن ويلعب البليارد والبولنج مع السجناء والحراس ، وقد كتب فيه ملحمة « الهنريادة » . لقد كانت الاياداة من الكتب التى أرسل فى طلبها ، وسأعل نفسه : لم لا يناقس هومر ؟ ولم تقصر الملاحم على الأساطير ؟ ان فى التاريخ الحى رجلا هو هنرى الرابع ، انسان مرح ، جسور ، بطل ، فاسق ، متسامح ، كريم ، فلم لا تصلح تلك الحياة المتغامرة الفاجعة لشعر الملاحم ؟ ولم يكن مسموحا للسجين بورق الكتابة لأنه قد يستحيل فى يده سلاحا فتاكا ، لذلك كتب النصف الاول من ملحمة بين سطور الكتب المطبوعة -

وأفرج عنه فى ١١ أبريل ١٧١٨ ، ولكنه منح من البقاء فى باريس ومن شاتنيه القريبة من سو كتب الى الوصى رسائل يلتمس فيها الصفح ، ولانبت قناة الوصى ثانية ، وفى ١٢ أكتوبر أصدر اذنا « للسيد آرويه دقولتير بالمجىء الى باريس حين يشاء (١٠١) » .

ولكن متى وكيف جاءه هذا الاسم الجديد ؟ الظاهر أن هذا كان حوالى فترة سجنه فى الباسقيل ، فنحن نلقاه أول مرة فى المرسوم الذى ذكرناه آنفا . وظن بعضهم (١٠٢) أنه جناس تصحيقي *anagram* أى تغيير فى ترتيب أحرف كلمة *(eune) J(e) Arovet L(e)* باعتبار الـ *U* هى حرف *V* والـ *I* هى حرف *J* - أما المركيزة دكريكى (١٠٣) فردته الى كلمة « فوتير » ، وهى مزرعة صغيرة على مقربة من باريس ورثها فولتير عن أحد أبناء عمومته ، ولم يرث معها أى حقوق سيادية ، ولكن أرويه ، كبلزك ، اتخذ الاضافة التى يلحقها السادة باسمائهم “de” بحق العبقرية ، ووقع - كما فى اهداء تمثيليته الاولى - بهذا الاسم « أرويه دفولتير » (ولكنه عما قليل لن يحتاج لغير اسم واحد للدلالة على نفسه فى أى بلد فى أوربا .

وكانت تلك التمثيلية - أوديب - حدثا فى تاريخ فرنسا الادبى . لقد كانت وقاحة صارخة من فتى فى الرابعة والعشرين الا يكتفى بتحدى كورنيس ، الذى أخرج تمثيلية « أوديب » فى ١٦٥٩ ، بل يتحدى سوفوكليس أيضا ، الذى ظهرت مسرحيته « أوديب ملكا » فى ٣٣٠ ق.م . أضف الى ذلك أن قصة فولتير كانت قصة سفاح للمحارم ، يمكن أن تحمل على محمل التعريض بالعلاقات بين الوصي وابنته - وهى بالضبط . التهمة التى سجن بسببها أرويه . وقد فسرتها هذا التفسير دوقه مين واغتبطت بها ، وكان الشاعر قد فكر فى تمثيلته أثناء وجوده فى قصرها . وطلب فولتير بجراته المألوفة الى الوصي أن يأذن له باهدائه التمثيلية ، وتردد الوصي ، ولكنه أذن باهدائها لأمه . وأعلن أن حفلة الافتتاح ستكون فى ١٨ نوفمبر ١٧١٨ . وتكون حزبان من رواد مسارح باريس - أنصار الوصي ، وأنصار دوقه مين ، وتوقع الناس أن مباراة الفريقين فى صيحات الاستهجان وهتاف الاستحسان ستجعل من التمثيل مهزلة صاحبة . ولكن المؤلف الذكى كان قد ضمن مسرحيته أبياتا تسر أحد الفريقين ، وأخرى تسر الفريق الآخر . فأرضت الفريق المناصر للوصي فقره تصف كيف طرد الملك لايوس حرس القصر الغالى النفقة (كما فعل فليب) ، وأرضى اليسوعيين أن يروا كيف أحسن تلميذهم الافادة من المسرحيات التى كانوا يخرجونها فى كلية لوى - لجران ؛ أما أحرار الفكر فقد صفقوا بحماسة لبينين من الشعر وردا فى المشهد

الأول من الفصل الرابع ، بيتين سيصبحان الأنشودة التي تتردد في حياة فولتير . « ليس كهنتنا ما يحسبه جمهور غافل ، فسذاجتنا هي التي تصنع علمهم كله » وصفق كل فريق بدوره ، وفي النهاية ظفرت المسرحية باستحسان الجميع . وتقول رواية قديمة أن والد فولتير ذهب وهو على وشك الموت ليشهد التمثيلية في أولى ليالي عرضها ، وكان لا يزال يتميز سخطا على ولده الحقير السيء السمعة ، ولكنه بكى اعتزازا بروعة الشعر وانتصار التمثيلية .

وحققت أوديب فترة عرض لم يسبق لها مثيل ، بلغت خمسة وأربعين يوما . وأطراها حتى فونتنيل المكتهل ، ابن أخت كورنيى ، وأن أبدى لفولتير أن بعض أبياتها « بالغة الشدة تضطرم نارا » . وأجاب الفتى المندفع بتورية فذلة : « لكى أهذب نفسي سأقرأ رعوياتك (١٠٤) » وأصرت باريس على أن ترى فى أوديب (المذنب بغشيان المحارم) شخص الوصي ، وفى جوكتا شخص ابنته . وتصدت دوقة برى (ابنة الوصي) للشائعات بشجاعة ، فحضرت التمثيلية عدة ليال . أما الوصي فأمر بإخراجها فى مسرح قصره ، ورحب بالمؤلف فى بلاطه .

وبعد بضعة أشهر نشر شاعر أفاك ، لم يعلن عن اسمه ، قصائد سماها « Les Philippiques الفليبيات » ، وهى هجائيات اتهمت فليب بأنه يبيت تسميم الملك الصبى واغتصاب العرش . واشتبه الكثيرون فى فولتير مؤلفا للقصاصد ، فأكد براءته ، ولكنه كان قد كذب فى حالات كهذه كذبا صارخا فلم يصدقه الان أحد الا المؤلف . وبراه فليب لعدم كفاية الأدلة على التهمة ، واكتفى بنصحه بأن يغيب حينسا عن نعيم باريس . فعاد الى شاتو صلى (مايو ١٧١٩) . وبعد سنة سمح له بالعودة الى العاصمة ، وهناك ظل فتى الارستقراطية المدلل فترة من الزمان .

وإذ كان مؤمنا بأن المال حجر الفلاسفة ، فقد استخدم ذكائه الحاد فى فهم مشكلات المالية وحيلها . وسعى لمصادقة المصرفيين ، وأجيز بمكافأة سخية للمعونة التي قدمها لأخوان باريس « للحصول على عقود

بتوريد مؤن وذخائر للجيش (١٠٥) « . وكان بطلنا من استغلالي الحرب . وظل بعيدا عن « نظام » لو ، واستثمر ثروته بحكمة ، وأقرض النقود بالربا . وفي ١٧٢٢ مات أبوه ، واحتكم فولتير الى القضاء فى امر الوراثة وثابر على دعواه بعزيمة ماضية ، ففاز بوراثة دخل سنوى قدره ٤٢٥٠ فرنكا . وفى تلك السنة ذاتها أجرى عليه الوصي معاشا قدره ٢٠٠٠ جنيه ، وغدا الآن رجلا موسرا . وعمما قليل سيصبح مليونيرا ، وعطينا ألا نفكر فيه ثائرا ، الا فيما يتصل بالدين .

وقد أعان على تربيته وتهذيبه سقوط مسرحيته الثانية - آرتمير - (١٥ فبراير ١٧٢٠) . فجرى من مقصورته الى خشية المسرح وناقش النظارة فى مزايا المسرحية ، وصفقوا لخطابه ولكنهم ظلوا على استنكارهم لها ، وبعد ان مثلت ثمانى مرات سحبها من المسرح ، وفى تاريخ لاحق من تلك السنة قرأ قسما من « الهنريادة » على نفر فى اجتماع ، ووجه اليها بعض النقد ، وبحركة فرجيلية القى بالمخطوطة فى النار ، وخطف اينو الأوراق من اللهب ، وشبه نفسه بأوغسطس وهو يستنقذ انيادة فرجيل ، وقال ان فولتير مدين له الآن بملحمة و « طوقى كم لطيفين (١٠٦) » . واستعاد الشاعر كبريائه فى غير مشقة حين استمع الوصي نفسه الى قراءة من القصيدة . وكان حينما ذهب يقرأ جزءا منها . وفى ١٧٢٣ زار اللورد بولنبروك وزوجته الفرنسية فى فلنتهما ، لاسورس قرب أورليان ، فاكدا له أن ملحمة تبرز « جميع الأعمال الشعرية التى صدرت فى فرنسا (١٠٧) » . وتظاهر بأنه يشك فى صدق هذا الزعم .

وتبادل خلال ذلك الفلاسفات مع ذلك الشاك النبيل ، وسمح بالريوبيين الذين يكدرون صفو المسيحية فى بريطانيا . وخامرته الظنون بأن انجلترا سبقت فرنسا فى العلم والفلسفة . ولكنه كان قد انتهى الى هرطقات بولنبروك قبل ان يلتقى به أو يقرأ للريوبيين الانجليز . وفى ١٧٢٢ قبل دعوة من الكونتيسة ماري درويلموند بأن يصحبها الى الارضي المنخفضة . وكانت أرملة فى الثامنة والثلاثين ، من نساء الفكر ، ولكنها جميلة ، وقد قبل دعوتها وهو فى الثامنة والعشرين . وفى بروكسل التقى بشاعر منافس يدعى جان باتيست روسو ، اثنى على « أوديب » ولكنه وبخ فولتير على استهتاره الدينى .

أما فولتير ، الذى قلما كان يطبق النقد ، فقد علق على قصيدة لروسو عنوانها « قصيدة غنائية للأجيال القادمة » بقوله « أتعلم يا سيدى أننى . لا أعتقد أن هذه القصيدة ستصل أبدا الى من وجهت اليهم ؟ (١٠٨) » وقد ظلا ينهش أحدهما الآخر حتى وفاة روسو . وبينما كان فولتير وكونتيسة يواصلان رحلتها الى هولندا كشفت له عن شكوكها الدينية ، وسألته عن آرائه . واذ كان فولتير جياشا بالشعر ، فقد رد بقصيدة شهيرة سماها « رسالة الى أورانى » لم تنشر الا سنة ١٧٣٢ ، ولم يعترف بها فولتير الا بعد أربعين سنة . وكل شاب مسيحي مرهف الحس سيتبين فيها مرحلة فى تطوره . يقول فولتير « اذن أنت تودين أيتها الجميلة أورانى (اسم لأفروديت) وقد بعثت بامرك فى هيئة لوكريتيوس جديد ، أن أمزق أمام عينيك بيد جريئة القناع عن الخرافات ، وأن أعرض عليك ذلك المشهد الخطر ، مشهد الأكاذيب المقدسة التى تزخر بها الأرض ، وأن تعلمك فلسفتى ازدرأ أهوال القبر ومخاوف الحياة الآخرة » .

ويسير الشاعر بـ « خطى ملؤها الاحترام » . فيقول « انى أريد أن أحب الله ، والتمس فيه أبى » ، ولكن أى نوع من الاله يقدمه لنا اللاهوت المسيحى ؟ « طاعية ينبغى أن نكرهه . خلق البشر » على صورته « ليجعلهم حقراء ، وأعطانا قلوبا آئمة ليكون له حق عقابنا . جعلنا نحب اللذة لكى يعذبنا بالام رهيبه . . . أبدية » . وما ان خلقنا حتى فكر فى اهلاكتنا . فأمر المياه بان تغرق الأرض . وأرسل ابنه ليكفر عن خطايانا ، لقد مات المسيح ، ولكنه مات عبثا فيما يبدو ، اذ يقال لذا اننا ما زلنا ملوثين بجريمة آدم وحواء ، وابن الله الذى يمتدح كثيرا على رحمته ، يمثل لنا وكأنه ينتظر بروح النار أن يقذف باكثرنا الى الجحيم ، بما فينا أناس لا حصر لهم لم يسمعوا به قط « لست أتبين فى هذه الصورة المخزية الاله الذى على أن أعبده ، وسأشينه بمثل هذه الاهانة والولاء » . ومع ذلك ترى الشاعر يحس النبل والالهام الحى فى الفكرة المسيحية عن المخلص :

« انظرى الى هذا المسيح ، القوى المجيد . . يدوس الموت تحت قدميه الظافرتين ، ويخرج منتصرا من ابواب الجحيم . ان مثله

مقدس ، وفضيلته الهية . ويعزى سرا تلك القلوب التي يضيئها بنوره ،
وفى أفدح الكوارث يهبها العون ، واذا كان قد أقام تعليمه على وهم
وخداع ، فان من النعم أن نخدع معه » .

وفى الختام يدعو الشاعر أورانى ان نستقر على رأى فى الدين
واثقة كل الثقة بأن الله « الذى وضع الدين الطبيعى فى قلبك ، لن
يسوءه العقل البسيط الصريح . ثقى أن نفس الانسان البار ثمينة أمام
عرشه ، فى كل زمان ومكان . ثقى أن الراهب الجوزى المتواضع ،
والولى المسلم العطوف ، يجدان نعمة فى عينيه أكثر مما يجده جانسنى
(قدرى) صارم ، أو بابا يلوث الطمغ روحه » .

ولما عاد فولتير الى باريس أقام فى الأوتيل دبيريير بشارع بون
وشرىق فولتير الحالى (١٧٢٣) . وفى نوفمبر ذهب الى اجتماع
للأعيان فى الشاتودمميزون (على تسعة أميال من باريس) ، حيث كانت
أعظم ممثلات العصر أدريين لكوفريير ستقراً تمثيلته الجديدة «ماريان»
ولكن قبل ان يحل موعد الحفل أصيب بالجدرى ، وكان فى تلك الايام
يفتك بنسبة عالية من ضحاياه . وكتب وصيته ، واعترف ، وراح ينتظر
الموت . وهرب الضيف الأخرى ، ولكن المريكز دمميزون «استدعى
الدكتور جريفيه من باريس » وبدلاً من المنبهات التى تعطى عادة فى
هذا المرض ، جعلنى أشرب مائتى باينت من عصير الليمون (١٠٩) «
ولعله كان لهذه الكرب المائتين الفضل فى « انقاذ حياتى » . ولم
يتمثل للشفاء الا بعد شهر كثيرة ، والواقع أنه بعد هذا كان يعالج
نفسه علاج عليل عاجز ، يمرض تلك الحياة المتقطعة التى يحيها ذلك
البدن الهش الذى فرض عليه أن يؤوى نار صاحبه الأكلة .

وفى ١٧٢٤ بدأ تداول ملحمة الهنريادة سرا بين الصفوة المثقفة .
لقد كانت اذاعة سياسية على مستوى ملحمةى . واتخذت الملحمة مذبة
القديس برتلميو نصاً لها ، وتتبع الجرائم الدينية خلال العصور ؛
الأمهات يقدمن أبناءهن محرقات على مذابح الآله ملخ ، وأغا ممنون
يتهباً لتقديم ابنته قرباناً للآلهة التماساً لقليل من الريح ، والمسيحيون
يضطهدهم الرومان ، والمهرطقون يضطهدهم المسيحيون ، والمتعصبون

« يدعون الرب وهم يذبحون اخوتهم » ؛ والاتقياء يوحى اليهم بقتل الملوك الفرنسيين . وأشادت القصيدة باليزابيث لتقديمها المعونة لهنرى خافار ، ووصفت معركة أفريه ، وشفقة هنرى ، وعشقه لجابرييل ديستريه ، وحصاره لباريس ، وامتدحت تحوله للكاثوليكية ، ولكنها انقذت البابوية لأنها « قوة لا ترحم المغلوبين ، ويلين جانبها للغالبين ، على استعداد للغفران أو الادانة حسبما تمليه المصلحة » .

وكان فولتير يأمل أن تقبل الهنريادة ملحمة قومية لفرنسا ، ولكن الكاثوليكية كانت أعز على مواطنيه من أن تجعلهم يستقبلون القصيدة . ملحمة لروحهم . ثم ان أخطاءها كانت تثب الى العين الدارسة . فالتقليدات الواضحة لهومر وفرجيل - فى مشاهد القتال ، وفى زيارة البطل للجحيم ، وفى ادخال التجريدات المجسدة فى الحركة على غرار الآلهة الهومرية - كل أولئك ضحى بمفاتيح الابتكار والأصالة ، ومع أن الأسلوب كان أسلوب النثر الجيد ، فقد افتقد أخيلة الشعر المنيرة . أما المؤلف ، الذى أسكره مداد المطبعة ، فلم يخامرته ظن فى هذا . فكتب الى تييريو يقول « ان شعر الملاحم موطن قوتى ، والا كنت واهما جدا (١١٠) » ولقد كان واهما جدا .

ومع ذلك بدأ أن المديح الذى ظفر به يبرر افتخاره بملحمته . فقد صرح ناقد فرنسي بأنها تسمو على الانيادة ، وذهب فرديريك الأكبر الى « أن أى انسان تحرر من الهوى سيفضل الهنريادة على قصيدة هومر (١١١) » . ونفدت الطبعة الأولى سريعا ، ونشرت طبعة منتحلة فى هولندا وصدرت الى فرنسا ، وحظر البوليس الكتاب ، ولكن جميع الناس اشتروه . وترجم الى سبع لغات ، وسنراه يحدث ضججة فى انجلترا . وقد لعب دورا فى احياء شعبية هنرى الرابع . وجعل فرنسا تخجل من حروبها الدينية ، وتنقد النظريات اللاهوتية التى اشعلت فى الناس نيران هذه القسوة الضارية .

واستمتع الآن فولتير حينما بالشهرة والمال دون أن يكدرهما مكدر . فقد اعترف به الناس اعظم شاعر حتى فى فرنسا ، واستقبل فى بلاط لويس الخامس عشر ، وبكت الملكة من تمثيلياته ، ونفحتسه بالف وخمسائة جنيه من جيبها الخاص (١٧٢٥) . وكتب أكثر من عشرة

خطابات يشكو حياته عضوا فى الحاشية ويغادر بهذه الحياة . وراح يتحدث فى ألفة طبيعية مع النبلاء ، سواء منهم الشريف والخسيس . ولا شك أنه أسرف فى الحديث ، وهذا أيسر شيء فى الوجود . وحدث ذات ليلة وهو فى الأوبرا (ديسمبر ١٧٢٥) أن الشفالييه دروهان - شابو سمعه يسترسل فى الحديث فى بهو الانتظار فسأله فى خيلاء شديدة « مسيو فولتير ، مسيو آرويه - ما اسمك ؟ » ولا علم لنا بم أجاب الشاعر . وبعد يومين التقيا فى الكوميدي - فرانسيز ، وأعاد روهان سؤاله . ويختلف الرواة فى الجواب الذى أجابه به فولتير ، قالت رواية انه أجاب « انسان لا يتجرجر وراء اسم عظيم ، بل يعرف أن يشرف الاسم الذى يحمله (١١٢) » ، وتقول رواية أخرى انه أجاب « ان اسمى يبدأ بى ، واسمك ينتهى بك (١١٣) » . ورفع السيد النبيل عصاه ليضربه ، وأتى الشاعر بحركة ليستل سيفه . وكانت آدريين لكوفيرير تشهد المعركة ، وكان لها من حضور البديهة ما جعلها تقع مغشيا عليها ، وتهادن الخصمان .

وفى ٤ فبراير كان فولتير يتعدى فى بيت الدوق صلى ، واذا رسالة تنبئه أن بباب القصر من يريد أن يراه ، فذهب ، واذا ستة فتاك ينقضون عليه ويضربونه فى شيء من الترفق . وحذرهم روهان الذى كان يدير العملية من مركبته قائلا « لا تضربوا رأسه ، فحسى أن يخرج منه شيء صالح (١١٤) » . واندفع فولتير عائدا الى البيت ، وطلب الى صلى أن يعينه على اتخاذ اجراء قانونى ضد روهان . ولكن صلى أبى . فاعتكف الشاعر فى ضاحية أخذ يتدرب فيها على المثاقفة . ثم ظهر فى فرساي ، مصمما على المطالبة بـ « ترضية » من الشفالييه . وكان القانون يعد المبارزة جريمة كبرى . وصدر أمر ملكى للمشرطة بأن تراقبه ، ورفض روهان لقاءه . فى تلك الليلة قبضت الشرطة على الشاعر ، مما أراح كل من له صلة بالأمر ، ووجد فولتير نفسه نزيل الباستيل ثانيا . وقال القائد العام لشرطة باريس فى تقريره « ان أسرة المسجين أثنت بالاجماع . . . على حكمة الأمر بمنع الشاب من ارتكاب حماقة جديدة (١١٥) » وكتب فولتير للسلطات يدافع عن مسلكه ، وعرض أن ينفى نفسه فى انجلترا مختارا اذا أفرج عنه . وقد عومل كما عومل من قبل ، فوفرت له كل أسباب الراحة والرعاية .

- ٦٢ -

وقبل اقتراحه ، وأفرج عنه بعد خمسة عشر يوما ، ولكن حارسا
أمر أن يوصله الى كاليه ، وأعطاه أعضاء الحكومة خطابات تعريف
وتوصية لبعض الانجليز البارزين ، وواصلت الملكة دفع معاشه . وفى
كاليه استضافه أصدقاؤه ريثما يقلع المركب التالى . وفى ١٠ مايو ركب
البحر ، مسلحا بالكتب لدراسة الانجليزية ، راغبا فى رؤية البلد الذى
سمع أن الناس والعقول فيه أحرار . فلنر ماذا وجد فيه .

الكتاب الأول

انجلترا

١٧١٤ - ٥٦

الفصل الثاني

الشعب

١٧١٤ - ٥٦

كانت انجلترا النى وجدها فولنبر أمة تتمتع بربع قرن من السلام النسبى عقب جيل من انتصاراتها الغالية على فرنسا ، أمة غدت الآن سيدة البحار ، واذن فسيده التجارة ، واذن فسيده المال ، ممسكة برافعة القوى وميزانها فوق حكومات القارة ، منتصرة فى كبرياء على أسرة من الاستيوارتيين حاولت أن تفرض عليها الكهلكة ، وعلى ملوك هانوفريين كانوا خداما لجيب البرلمان المننخ . تلك هى انجلترا التى احزرت قبل ذلك التفرق العالمى فى العلم بفضل نيوتن ، وانجبت لوك الثائر دون عمد منه ، والتى كانت نقوض المسيحية بالربوبية ، والتى ستحل الشاعر الكسندر « بوب » (= بابا) محل بابوات روما أجمعين ؛ والتى سنرقب بعد قليل فى فلق عمليات ديفد هيوم العقلية المدمرة . ادما انجلترا التى وجد فيها هندا وطنا وجمهورا مستمعا ، وحجب فيها ضوء كل موسيقار من آل باخ اذ غدا اعظم « مايسترو » أنجبه العصر . ثم هنا ، فى هذه « القلعة التى ابتنتها الطبيعة لنفسها ضد الغارات . . هذه البقعة المباركة . . فى انجلترا هذه (١) « - بدأت الثورة الصناعية تغير وتبدل كل شىء الا الانسان .

١ - التمهيد للثورة الصناعية

١ - المؤيدون

رسم ديفو ، بعد أن جاب أرجاء انجلترا فى ١٧٢٢ ، صورة مقعمة بمشاعر الوطنية لـ « أكثر بلاد الدنيا ازدهارا وثراء » ، صورة الحقول الخضراء والمحاصيل الوفيرة ، والمراعى تهيم فيها الخراف الذهبية الفراء ، والعشب النضر الغزير يتحول أبقارا سمانا ، والفلاحين يضحون فى العابهم الريفية ، وكبار الملاك فى الريف ينظمون شئون ٥ - قصة الحضارة

الفلاحين ، والنبلاء ينظمون شؤون الملاك ، وكبار حكام الأقاليم يتولون القضاء ويقرون النظام فى القرى ، ثم هى الى ذلك بلد يلوذ به بين الحين والحين الشعراء والفلاسفة (٢) . ان تجار الكلام ينزعون الى تصوير الريف بصورة مثالية اذا اعفوا من مضابقات هذا الريف ، وممله ، وحشراته ، وكده وكدحه .

لقد كانت الحياة الريفية فى انجلترا سنة ١٧١٥ شديدة الشبه بما كانته منذ ألف سنة . كل قرية - بل كل ببت تقريبا - وحدة مكتفية بذاتها ، تزرع طعامها ، وتصنع ثيابها . وتتطلع أنسابها للبناء والوقود من الغابات المجاورة . وكل أسرة تخبز خبزها ، وتصيد غزلانها ، وتملح لحومها ، وتصنع زبدها وهلامها وجبنها ، وتغزل وتنسج وتخطط وتدبغ الجلد وترقع الأثاثية ، وتنع أكثر أنبتها وأدواتها والاتها . وهكذا وجد الثوب والخبز والبناء والعمل والتعبير عن ذواتهم لا فى حقول الصيف فحسب ، بل فى أمسيات الشتاء الطمينة أيضا ، وكان الريف مركزا للصناعة والزراعة على السواء . فالزوجة هى الخبير المكرم بفنون كثيرة ، من تعريض الزوج وتربية نحو اثنى عشر طفلا ، الى حياكة الفساتين وصنع الجعة . وحى تحفظه وتصرف الأدوية المنزلية ، وتعنى بالحدبقة والخنازير والدجاج . والزواج هو اتحاد بين رفيقين متعاضدين والأسرة كائن حى اقتصادى كما أنها كائن حى اجتماعى ، وبهذا تهاجر لها مبرر قوى وأساس مكين لوحدتها وتكاثرها واستمرارها .

ولو قد ترك الفلاحون أحرارا فى الأبناء على سالبهم القديمة فى الحقول لقتوا بما فى بيوتهم من حيوية متنوعة . لقد تذكروا اياما كان مالك الأرض فيها يسمح لهم ، أو لاسلافهم ، بأن يطاقوا قدامه سنانهم لترعى فى حقول المنطقة المشاعة ، ربان بصطادوا السمك كما يشاءون فى غدرانها ، وأن يقطعوا الخشب فى غابتها ، أما الآن ، واثار عملية بدىء بها فى القرن السادس عشر ، فقد سرر المسالك معظم الاراضى المشاعة ، ووجد الفلاحون عناء فى العيش على قدر دخولهم . صحيح أنه لم يكن هناك أثر لرق الأرض ، ولا لضرائب اقطاع رسمية ، ولكن الملاك المغامرين وتجار المدن الذين استثمروا مالهم فى الأرض كانوا يزرعون على نطاق أوسع ، براسمال أكبر ، وبأدوات أفضل ، ومهارة

أعظم ، وأسواق أوسع مما أتيح لصغار الزراع الذين يزرعون مساحاتهم الضيقة . وقد قدر جريجورى كنج أنه كان بانجلترا فى ١٦٨٨ نحو ١٨٠.٠٠٠ من هؤلاء الملاك الأحرار . وذكر فولتير حوالى ١٧٣٠ أن « فى انجلترا عددا كبيرا من الفلاحين ممن تبلغ قيمة ملكية الواحد منهم ٢٠٠.٠٠٠ فرنك ، ولا يأنفون من أن يواصلوا فلاحا الأرض التى أغنتهم ، والتى يعيشون فيها أحرارا » ، ولكن ربما كان قوله هذا من قبيل الدعاية ، حفزا لهمم الفرنسيين ، أيا كان الأمر ، فإنه بحلول سنة ١٧٥٠ كان عدد الملاك الأحرار قد تناقص (٣) . فالملاك السمان يشترون المساحات العجاف ، والبيت الصغير وما حوله من ارض ، المقصود به اعالة الأسرة أو الاسواق المحلية ، يخلق مكانه لمزارع أكبر قادرة على الافادة من الوسائل والآلات المحسنة . والمزارع يصبح مساجرا أو « يدا » أجيرة ، أضف الى ذلك أن نظام الفلاحة الذى ساد انجلترا عام ١٧١٥ قسم ارض القرية الى مناطق مختلفة حسب خصوبتها وسهولة الوصول إليها ، وتسلم كل مزارع شريطا أو أكثر فى النواحي المنفصلة ، وكان التعاون ضروريا ، واحبطت المبادرة الفردية ، وتخلف الانتاج . وكانت حجة مسوى الأزامى أن التنشغل الواسع النطاق تحت ملكية موحدة من شأنه أن يزيد الانتاج الزراعى ، وييسر رعى الأغنام ، وينتج ناتجا مربحا من الصوف ، ولا ريب أنهم كانوا على حق . وأغمض التقدم الاقتصادى عينا واحدة على الأقل عما أصاب الناس من اضطراب شديد فى حياتهم نتيجة الارتحال والانتقال .

وتركز التقدم فى التكنولوجيا الزراعية على المزارع الموسعة . فاستلح حافز الكسب الأراضى البور وزرعها ، ودرب العمال على كفاية أعظم ، وشجع اختراع الآلات والوسائل الجديدة وحفز اجراء التجارب على تربية الحيوان ، ودعم الجهد المبذول فى صرف المستنقعات والحد من تعرية التربة وتطهير الغابات . واصيف بين عامى ١٦٩٦ و ١٧٩٥ نحو مليونى فدان الى المساحة المزروعة فى انجلترا وويلز . وفى ١٧٣٠ أدخل تشارلز تاونشند النظام الرباعى لدورة المحاصيل بدلا من الخطة المسرفة التى كان يترك بمقتضاها ثلث الأرض بورا كل سنة ؛ فزرع القمح أو الشوفان فى السنة الأولى ، والشعير أو الشوفان فى الثانية ، والبرسيم والجواردار والنباتات العلفية واللفت الأصفر والكرنب فى

الثالثة ، واللفت فى الرابعة . ثم جاء بالأغنام لتاكل اللفت أو تدوس عليه فتدفعه داخل الارض بينما يخصب روثها التربة ، وبذلك أعدت الارض لمحصول وفير من القمح فى السنة الثانية . وسخر منه جيرانه ، وأطلقوا عليه لقباً هو « تيرنب تاونشند » (أى تاونشند اللفت) ، الى أن حملهم على تقليده زيادة فى محاصيله بلغت ٣٠ ٪ . واذ كان تاونشند فيكونتا ، فقد حدا حذوه نفر آخر من الطبقة الأرستقراطية فى تحسين أرضهم ، وشاع بين أشرف الانجليز أن يهتم الواحد منهم اهتماماً شخصياً بالزراعة ، وانتقل حديث الضياع من الصيد والكلاب الى اللفت والسماذ (٤) .

وكان جثرو تل محاميا ، اعتلت صحته فعاد الى مزرعة أبيه ، واستهوت ذهنه المرهف معجزة النماء وأرباح الزرع ، ولكن صدمه ما رأى من طرق الفلاحة المرسفة ، - نالمزارعون يثرون تسعة او عشرة أرتال من البذار على الفدان باهمال شديد يترك « ثلثى الارض خالية من الزرع ، فى حين تكتظ البذار فى الباقي اكتظاظاً يمنع الزرع من أن يزكو (٥) » . ودرس أساليب الزراعة أثناء رحلاته فى فرنسا وإيطاليا ، فلما عاد الى وطنه اشترى مزرعة ، وأذهل جيرانه بمخترعات ضاعفت من الانتاج . وقد بدأ (حوالى ١٧٣٠) بصنع محراث ذى أربعة قواطع يقتلع الحشائش ويدفنها فى التربة بدلا من مجرد ازاحتها جانبا . ولكن أكثر مخترعاته حسما (حوالى ١٧٣٣) كان آلة حفر تجرها الخيل ، تنثر الحب خلال أنابيب مسننة على مسافات وأعماق معينة فى خطين متوازيين ، ثم تغطى الحب بمسحاة متصلة بالحفار . ووفرت الآلة الحب والعمال ، وأتاحت زرع التربة المحصورة بين الخطين المبدورين وتهويتها وريها وتنقيتها من الحشائش . وقد شارك هذا التغيير فى بذر الحب ، الذى يبدو تافها ، وتحسين المحراث ، فى احداث ما سمي بعد ذلك بالثورة الزراعية ، التى يمكن أن تقاس نتائجها (حتى مع أخذ التضخم فى حسابنا) بارتفاع قيمة الاراضي التى استخدمت فيها الوسائل الجديدة عشرة أضعاف خلال القرن الثامن عشر . ومكنت الزيادة فى إنتاجية التربة المزارع من أن تطعم المزيد من الصناع فى المدن ، وأتاحت ذلك العدد النامى من سكان المدن ، الذى لولاه لاستحالت الثورة الصناعية .

على أنه لا الفلاحون ولا عمال المدن كان لهم نصيب من الثروة
النامية . فالملاك الفلاحون أمكن ضغطهم والتخلص منهم بالمنافسة
المواسعة النطاق ، والعمال الفلاحون تقاضوا من الأجور البخسة القدر
الضئيل الذى أكرههم خوف التعطل على قبوله . فلنستمع الى ما يقوله
العلامة الرفيع المقام تريفلينان :

« كان الثمن الاجتماعى الذى دفع نظير الكسب الاقتصادى هو
تناقص عدد الزراع المستقلين ، وازدياد عدد العمال الذين لا يملكون
أرضا ، وكان هذا الى حد كبير شرا لا بد منه ، ولو وزع الربح الزائد
الذى حققته دنيا الزراعة توزيعا عادلا لخف الضرر . ولكن بينما ارتفع
ايجار المالك ، وعشور القسيس ، وأرباح المزارع المالك والوسيط ارتفاعا
سريعا ، فان فاعل الحقل ، الذى حرم حقوقه الصغيرة فى الأرض المشاع
وحقوق أسرته بتشغيلها فى الصناعة الى جانب الزراعة ، لم يجز الجزء
الواجب بأجر أعلى ، وكثيرا ما انحدر فى المقاطعات الجنوبية الى درك
التبعية والفاقة (٦) » .

ومما خفف الى حد ما من التركيز الطبيعى للثروة دفع الضرائب
والاحسان المنتظم . ذلك أن أغنياء الانجليز ، بعكس النبلاء الفرنسيين
كانوا يدفعون النصيب الاكبر من الضرائب التى أعالت الحكومة . فقد
ألزمت « قوانين اعانة الفقراء » التى بدأت فى ١٥٣٦ كل أبرشية بانقاذ
الأشخاص الذين فى خطر الموت جوعا . وكان المتعطلون من القادرين
صحيا يرسلون الى الاصلاحيات ، والعجزة الى الملاجىء ، والأطفال
يشغلون صبيانا لمن يرغبون فى ايوائهم واطعامهم لقاء خدماتهم . وكانت
نفقات هذا النظام تؤدى من ضريبة تفرض على أسر الأبرشية . وقد ذكرت
لجنة برلمانية فى تقرير لها أنه لم يبق على قيد الحياة من جميع الأطفال
المولودين فى الاصلاحيات ، أو الذين استقبلتهم فى حداثة سنهم ، فى
الأعوام ١٧٦٣ - ٦٥ ، الا سبعة فى المائة فى ١٧٦٦ (٧) . حقا لقد كان
قرنا قاسيا .

ب - الصناعة

عطل البيت الريفى المكتفى بذاته تخصص العمل والثورة الصناعية

سواء كان هذا التعطيل خيرا أو شرا . فلم يمؤل الرجل حديث العهد برأس المال مصنعا ما دام فى قدرته أن يجعل مائة أسرة تغزل وتنسج له تحت أسقفهم ووفق نظام المنافسة الأوتوماتى ؟ لقد أنتجت هذه الصناعة البيتية فى قسم « وست رايدنج » ببوركشير ١٠٠.٠٠٠ قطعة قماش للمسوق فى ١٧٤٠ ، و ١٤٠.٠٠٠ قطعة فى ١٧٥٠ ، وإلى عام ١٨٥٦ لم يرد من المصانع سوى نصف إنتاج الصوف ، أما النصف الثانى فحلل يرد من البيوت (٨) . على أن تلك البيوت الشاغية بالحركة كانت فى النواع مصانع وليدة ، فرب البيت يدعو الخدم والغرباء ليناركوا فى العمل ، والحجرات الاضافية تجهز بدواليب الغزل وأنوال النسيج . فلما ازداد حجم تلك العمليات البيتية واتسعت السوق بفضل الطرق المحسنة والسيطرة على البحار ، خلقت الصناعة البيتية ذاتها الطلب على آلات أفضل . وكانت الاختراعات الأولى أدوات أكثر منها مكنة . وكان فى الامكان تركيبها فى المنزل ، مثل مكوك « كى » الطائر ، ولم يحل نظام المصنع محل الصناعة المنزلية الا حين صنع المخترعون آلات تتطلب القوة الميكانيكية .

وكان الانتقال تدريجيا ، فقد اقتضى قرنا تقريبا (١٧٣٠ - ١٨٣٠) ، وربما كانت كلمة « ثورة » لفظا أعنف مما يحتمله تغيير بطيء كهذا . ولم يكن الانتفاض على الماضي جادا بالدرجة التى رُحبت بها فى الماضي النزعة الروائية فى كتابة التاريخ ، فالصناعة قد برز فى الحضارة ، وقد تقدم الاختراع بسرعة متزايدة منذ القرن الثالث عشر ، وكانت المصانع فى فلورنسة على عهد دانتي كثيرة كثيرة الشعرى ، والراسماليون فى هولنده أيام رمبرانت كثيرين كثيرة المصورين . ولكن التغيير الصناعى الذى طرا فى القرنين الأخيرين (١٧٦٠ - ١٩٦٠) اذا نظرنا اليه فى مراحل المتصاعدة ، من البخار الى الكهرباء الى النفط الى الالكترونيات والطاقة الذرية ، بالقياس الى معدل التغيير الاقتصادى فى أوربا قبل كولبس - هذا التغيير يشكل ثورة حقيقية لم تغير الزراعة والنقل والمواصلات والصناعة فحسب تغييرا أساسيا ، بل غيرت كذلك السياسة والعادات والأخلاق والدين والفلسفة والفن .

وقد تضافرت عوامل عديدة على فرض التغيير الصناعى . فالحروب التى أعقبت سقوط وزارة ولبسول (١٧٤٢) حثت على زيادة سرعة

الانتاج والتوزيع . ونمو السكان نتيجة لازدياد موارد الطعام أتاح سوقا داخلية متضخمة للزراعة والصناعة ، وشجع على صنع آلات أحسن وشق طرق أفضل . وقد تطلبت الآلات المهارات ، مما أفضى الى تخصص وتقسيم للعمل نهضا بالقوة الانتاجية . وقد جلب الهيجونوت وغيرهم من المهاجرين الى انجلترا ما استنقذوه من مدخراتهم كما جلبوا اليها حرفهم ، ومخترع أول آلة للنسيج (١٧٣٨) كان سليلا للمهيجونوت . وكان لتقرير البرلمان تعريفات جمركية حامية (كقانون الكاليكوت - أى الشيت - الصادر فى ١٧٢١ ، والذى حرم استعمال الشيت المطبوع المستورد) الفصل فى الحد من المنافسة الاجنبية ، واتاحة السيطرة الكاملة لصناعة النسيج الانجليزية على السوق الداخلية ، فى حين أعان نفوذ التجار المتزايد فى التشريع على توسيع الاقتصاد البريطانى . وشجعت التقاليد البيورثانية - التى ستمدعها بعد قليل حركة المثوديين - فضائل الجد والاقدام والاقتصاد فى الطبقات الوسطى والدنيا وتراكم رأس المال ، وأجيز الاثراء ، وبدا أن الله اختص البورجوازية بنعمته .

واتاح تطوير التعدين فى الوقت ذاته موارد متزايدة من الفحم وقودا للصناعة . وكان الخشب الى ذلك الحين هو الوقود الأهم للبيوت والمتاجر ، ولكن الغابات كانت تتضاقل حتى أوشكت على الانقراض ، فمن بين تسع وستين غابة كبيرة عرفتها انجلترا الوسيطة ، اختفت خمس وستون بحلول القرن الثامن عشر (٩) . واقتضى الحال استيراد الخشب من اسكندناوة أو أمريكا ، وكان يكلف أكثر فاكثرا ، وظهر الطلب على وقود أرخص . ولكن تعدين الفحم كان لايزال عملية بدائية ، وكانت المناجم ضحلة ، والتهوية رديئة ، والميثان وغاز الكربون يخنقسان المعدنين ، وظلت مشكلة ضخ المياه من المناجم بلا حل حتى جاءت آلات سافرى ونيوكومن البخارية . والواقع أن هذه المشكلة كانت أكبر حافز لتطوير هذه الآلات . على أن إنتاج الفحم تصاعد وانتشر رغم هذه الصعوبات ، فما وافى عام ١٧٥٠ حتى كان الفحم الذى يشعل فى البيوت والمصانع يحجب سماء لندن (١٠) .

كانت أهمية الفحم للثورة الصناعية تكمن بوجه خاص فى استعماله :

لتنقية خام الحديد ليصبح حديداً أصفى وأقوى وأطوع بفصل الفلز عن المواد المعدنية العالقة به . والتنقية استلزمت الصهر ، الذى استلزم درجة عالية من الحرارة ؛ وكانت هذه الحرارة منذ القرن الرابع عشر تنتج باسعال الفحم النباتى (وهو الخشب المتفحم) فى أفران عالية تسلط عليها تيارات قوية من الهواء ؛ ولكن الفحم النباتى أصبح الان أعلى ثمنا بسبب تناقص موارد الخشب . وفى ١٦١٢ أشار سيمون ستورتنفانت باستخدام الفحم الحجرى وقوداً صاهراً . وزعم « دد » ددلى (أى الفاشل) فى ١٦١٩ أنه خفض تكاليف صهر الحديد بهذه الوسائل الى النصف ، ولكن منافسيه الذين استخدموا الفحم النباتى تضافروا لاقصائه عن هذه الصناعة . وأخيراً (حوالى ١٧٠٩) وفق أبراهام داربى الاول ، الذى استوطن كولبروكديل حيث الفحم كثير ، فى صهر خام الحديد بنجاح وبتكاليف قليلة ، وذلك بتسخينه بفحم الكوك - أى الفحم المحرق بقدر يكفى لتخليصه من عناصره الطيارة . أما الكوك فكان معروفاً منذ عام ١٥٩٠ . وطور أبراهام داربى الثانى استعمال الفحم أو الكوك فى الصهر ، وحسن الأفران العالية بمنفاخ يشغله دولاب مائى ، وسرعان ما استطاع أن يفوق فى مبيعاته كل أصحاب مصانع الحديد فى انجلترا وفى ١٧٢٨ أنشئ أول مصنع انجليزى للحديد لتمرير الحديد بين سلسلة من الأسطوانات تضغطه لاجراخ الأشكال المطلوبة . وفى ١٧٤٠ اخترع بنيامين هنتمان طريقة البوتقة التى كان ينتج بها الصلب العالى الرتبة بتسخين المعدن وتنقيته فى قدور من الفخار . هذه التطورات فى المزوجة بين الفحم والحديد هى التى يسرت اختراع آلات الثورة الصناعية .

ج - الاختراع

لم يشهد النصف الاول من القرن الثامن عشر زيادة لافتة للانظار فى سرعة الاختراع بالقياس الى القرنين السابقين ، وقد نحتاج الى نصف مجلد لنعدهد الاختراعات التى ورثها هذا العصر من سابقه . مثال ذلك أن الساعة الكبيرة ، التى لا غنى عنها فى العلم والصناعة والملاحة ، ابلغت مرتبة الكمال تقريباً فى القرن السابع عشر ، وبحلول عام ١٧٥٨ وصلت الى درجة من الدقة (لا يعدو الانحراف فيها دقيقة كل ستمائة

يوم) لم تتجاوز الا فى ١٨٧٧ (١١) . وكان العمال أنفسهم يثبطون المخترعات ، وان كانوا فى كثير من الاحيان مصدرها ، خشية أن تهددهم بالتعطيل التكنولوجى ، وهكذا فرض عداء العمال هجر أول منشرة خشب انجليزية (١٦٦٣) ، ولم تجدد المحاولة بنجاح الا سنة ١٧٦٧ . وزادت الطرق الرديئة من تعطيل الاختراع الصناعى ، ولم يكن هناك كبير حافز على زيادة الانتاج ما دامت صعوبات النقل تفوق توسيع السوق . على أن النقل البحرى كان آخذاً فى التحسن ، وكانت المستعمرات ، التى غلبت عليها الزراعة ، تنهافت على طلب المنتجات المصنوعة ، هنا وجد حافز متزايد على الاختراع . وقد أعان عليه دافع الربح ، ومنح البرلمان حقوق امتياز تمتد أربع عشرة سنة . وجاء حافز آخر من المنافسة الأجنبية فى تجارة الصادر ، فحثت منسوجات الهند ، التى أنتجتها عمال مهرة منخفضو الاجور أصحاب المصانع الانجليز على الاقتصاد فى الانتاج باستعمال الأجهزة المكنية المحسنة . فصناعة النسيج اذن هى التى افتتح الاختراع فى ميدانها ذلك التغيير العظيم .

كان « المكوك الطائر » الذى ابتكره جسون كى (١٧٣٣) أول اختراع بارز فى انتاج المنسوجات ، ولنا أن نعتبر هذا التاريخ بداية للثورة الصناعية . فمن قبله كان عرض القماش المراد نسجه محدودا بطول ذراعى النساج باستثناءات صغيرة - اذ كان عليه أن يقذف بالمكوك (وهو الاداة التى تمرر خيوط اللحم خلال خيوط السدى) من أحد جانبي النول بيد ، ويلقفه باليد الأخرى فى الجانب المقابل . ورتب كى جهازا من العجلات ، والمطارق ، والعصي ، يتيح لدقة حادة باليد أن تجعل المكوك يمرق من أحد الجانبين الى وقفة أوتوماتيكية عند أى عرض محدد سلفا ، مما ينجم عنه وفر كبير فى الوقت . فلما حاول تركيب اختراعه فى مصنع بكونتشتستر اتهمه النساجون بأنه يحاول حرمانهم من قوتهم اليومى . ففر الى ليدز (١٧٣٨) وعرض اختراعه المسجل على أصحاب مصانع القماش لقاء رسم ، فآخذوا اختراعه ، ولكنهم قبضوا عنه اتاوته ، فرفع أمره الى القضاء ، واستنزفت مصاريف التقاضى كل ماله . فذهب الى وطنه فى برى ، ولكن الاهالى هاجبوا عليه هناك (١٧٥٣) ، ونهبوا بيته ، وهددوه بالقتل . غير أن امرأة رحبت بآلته فى حماسة وصاحت قائلة بلهجتها العامية « حسنا ، حسنا ،

ان أعمال الله عجيبة ، ولكن حيل الانسان تغلبه تعالى في النهاية (١٢) «
 ووجد كى قبولا أكثر في فرنسا ، التي تبذت حكومتها اختراعه وكافاته
 بمعاش . ولم يتغلب الكوك الطائر على كل معارضة ويعم استعماله
 الا عام ١٧٦٠ .

وعطل صناعة النسيج ان النساجين كانوا يستطيعون نسج الخيوط
 بأسرع مما يستطيع الغزالون غزلها وامدادهم بها . وكان الغزل الى
 سنة ١٧٣٨ غزلا يدويا ، على دواليب مازالت تجمل البيوت التي تمجد
 الماضي . في ذلك العام سجل لويس بول ، وهو ابن مهاجر هيجونوتي ،
 آلة غزل يبدو أنها مبنية على أسس اقترحها جون نيات ، وهي مجموعة
 من البكر تسحب للخارج حبال القطن أو الصوف المشدودة لتصبح خيوطا
 باى رفع مطلوب ، وتغزلها على مغازل ، وذلك كله بأقل جهد . وباع
 بول وفيات براءة الاختراع الى ادورد كيف ، صديق الدكتور جونسون ،
 واقام كيف خمس آلات بمصنع نورثامبتن في ١٧٤٢ - وهو الأول في
 سلسلة طويلة من مصانع الغزل في انجلترا القديمة والجديدة .

اما وقد تيسر الآن علاج الحديد لصنع الآلات القوية ، وتطلبت
 الاحوال الاقتصادية الانتاج الواسع النطاق ، فقد بقيت مشكلة العثور
 على قوة ميكانيكية يستعاض بها ، بثمن رخيص ، عن عضلات الرجال
 وصبر النساء . واقدم الحلول استخدم القوة المائية . ففي مائة قطر كان
 الدولاب المائى العنلييم ، الذي يدور على مهل مع جريان النهار ، يسير
 منذ زمن سحيق المضخات ، والمنافخ ، والبكر ، والمطارق ، لا بل
 الآلات الحديدية الثقيلة منذ عام ١٥٠٠ . وظل المصدر الأهم للطاقة
 الميكانيكية خلال القرن الثامن عشر . وقد عاش الى القرن العشرين ،
 وما التركيبات الهيدروليكية في زماننا سوى قوة مائية حولت الى كهرباء
 قابلة للنقل . ولا يمكن الركون الى القوة المحركة للرياح بهذا القدر ،
 ولم ينتفع بها الا انتفاعا قليلا نسبيا في بلاد الجنوب الهادئة الريح ،
 ولكن في العروض الشمالية سخرت التيارات الهوائية في ادارة طواحين
 هواء توجه « قلوبها » الى « عين الريح » بونش في أسفلها يدار
 باليد . وقد بلغت هذه الآلة الثقيلة ، التي لا يركن اليها ، أوجها في
 الأقاليم المتحدة في القرن الثامن عشر ، ثم بدأت اضمحلها الراح .

وكان المخترعون خلال ذلك يجاهدون ليبلغوا بالآلة البخارية درجة الكفاءة المجزية . وكانت قد قطعت قبل ذلك شوطا طويلا ، من أبواب ولعب « هيرو » التي يشغلها البخار في القرن الثالث الميلادي ، مروراً بجيروم كاردان (١٥٥٠) ، وجامباتستا ديللابورتا (١٦٠١) ، وسالمون دي كاوس (١٦١٥) ، وجوفاني برانكا (١٦٢٩) ، ومركيز ورستر (١٦٦٣) ، وصموئيل مورلاند (١٦٧٥) وكرستيان هويجنز (١٦٨٠) ، ودنى بابان (١٦٨١) ، وتوماس سافرى (١٦٩٨) ، الى آلة توماس نيوكومن البخارية في ١٧١٢ ؛ تلك قصة رويت ألف مرة . وهنا أيضا ، أى فى عام ١٧١٢ ، يمكن أن يبدأ تاريخ الثورة الصناعية ، لأن آلة نيوكومن « النارية » كانت مجهزة بمكبس ، وذراع متذبذب ، وصمام أمن ، واستخدمت بنجاح فى نرح الماء فى المناجم العميقة . وقد ظلت النموذج الاساسي للطمبات مدى ثلاثة أرباع القرن .

د - رأس المال والعمال

حين ازدادت الآلات حجما وتكلفة ، وتطلب تشغيلها القوة الميكانيكية ، وجد نفر من المغامرين أنه أربح لهم أن يستبدلوا بالصناعة فى البيوت مصانع تجمع الرجال النساء فى أبنية يحسن اختيار مواقعها قرب أنهار توفر الطاقة والنقل معا . والمصانع ، كما سلف ، لم تكن بدعا ، فقد كان منها مئات فى انجلترا اليزابيث وفرنسة كولبير . غير أن « نظام » المصانع - اذا عرفناه بأنه اقتصاد صناعى يتم فيه الانتاج بصفة رئيسية فى مصانع - لم يكد يوجد فى أى مكان قبل القرن التاسع عشر . ولكن بعد اختراعات كى وبول بدأت مصانع المنسوجات تقوم بالمزيد من الغزل والنسيج الذى كان يتم فى البيوت ، وفي ١٧١٧ أنشأ توماس لوم فى داربى مصنع نسيج طوله ٦٦٠ قدما ، يشغل ثلاثمائة عامل يقومون على ٢٦٠٠٠٠ دولار . وسرعان ما قامت منشآت مماثلة الضخامة فى ستوكبورت ، وليك ، وبرمنجهام ، وليومنستر ، ونورثامتن .

وشراء الآلات وايواؤها ، والحصول على الخامات ، واستئجار العمال والادارة ، ونقل الناتج وتسويقه ، كل هذا يتطلب رأس المال . كذلك كان الرأسمالى - مقدم رأس المال أو مديره - ظاهرة قديمة ، ولكن بزيادة الطلب على رأس المال ازدادت الأهمية الاقتصادية والقوة السياسية

للرجال الراغبين فى المخاطرة بتقديمه . وقاومت الطوائف الحرفية ، التى كانت من الناحية النظرية لا تزال تحكم معظم الصناعة الاوربية ، التنظيم الرأسمالى للانتاج والتوزيع . ولكن نظام الطوائف الحرفية بنى على الحرف اليدوية لا الآلات ، وقد هبىء لتلبية الحاجات المحلية لا السوق القومية فضلا عن السوق الدولية ، ولم يستطع تلبية المطالب المتزايدة للجيش ، والمدن ، والمستعمرات ، وقد عوقه الولاء للوسائل والقواعد التقليدية ، وأخذ ينحدر الى درك « الشلل » من معلمى الحرف الذين يستغلون الصبيان وعمال اليومية . وكان الرأسمالى أقدر على تنظيم الانتاج الكبير والتوزيع البعيد ؛ فلقد كان عليما بذلك الفن البالغ الرهافة ، فن جعل المال يلد المال ؛ وظاهره برلمان تواق لأن تمون الكفاية الصناعية التجارة المترامية والحروب .

وبانتشار المصانع والرأسمالية تغيرت علاقة العامل بعمله . فلم يعد يملك أدوات حرفية ، ولا يحدد ساعات كده وظروفه . ولم يكن له غير نصيب صغير فى تقرير معدل أجوره أو نوعية ناتجه . ولم يعد حائوته مدخلا الى بيته ، ولا صناعته جزءا من حياته الأسرية . ولم يعد عمله ذلك التشكيل الفخور لأداة فى جميع مراحلها ، بل أصبح بحكم تقسيم العمل - الذى سيعجب آدم سمث كثيرا - التكرار اللا شخصي ، الممل ، لجزء من عملية لم يعد ناتجها المصقول يعبر عن حذقه وتفننه ؛ انه لم يعد صانعا ماهرا ، بل « يدا » أجيرة . وقد حدد أجره جوع رجال ينافسون النساء والأطفال على العمالة . فإذا كان عاملا فى منجم فمتوسط أجره شلن وستة بنسات فى اليوم ، وإذا كان فاعلا فى البناء تقاضي شلنين ، وسمكريا ثلاثة شلنات ، وقد اختلفت هذه المعدلات اختلافا يسيرا بين عامى ١٧٠٠ و ١٧٧٠ (١٣) . وكان النسيج يتقاضي حوالى سنة ١٧٥٠ ستة شلنات فى الاسبوع ، والنساجة خمسة شلنات وستة بنسات ، والطفل شلنين وستة بنسات . أما النساء الغزالات فمن شلنين الى خمسة فى الاسبوع ، وأما البنات من السادسة الى الثانية عشرة فشلن الى شلن ونصف (١٤) . على أن الاسعار كانت منخفضة ، وظلت ثابتة حتى ١٧٦٠ (١٥) . وكان يضاف الى هذه الأجور أحيانا علاوة للخبز والجمعة أثناء العمل ، وكان معظم عمال المناجم يعطون الفحم مجانا .

وكانت حجة أصحاب العمل أن عمالهم لا يستحقون أكثر من هذه الأجر ، لأنهم أدمنوا الكسل والسكر والاستهتار والفجور . وزعم أحدهم (١٧٣٩) أن السبيل الوحيد لجعل العمال عيوفين مجدّين « أن تفرّض عليهم ضرورة الكد طوال الوقت الذي يستطيعون اقتطاعه من الراحة والنوم ليحصلوا على الضروريات العادية للحياة (١٦) » . وقال كاتب في ١٧١٤ « ليس للفقراء ما يحفزهم للخدمة النافعة سوى الحاجة ، وهذه حال من الحكمة تخفيفها ، ولكن من الحماسة شفاؤها (١٧) » أما يوم العمل العادي فيمتد من إحدى عشرة ساعة الى ثلاث عشرة ، ستة أيام في الأسبوع ، ويهوّن من طول هذه الفترة ساعة ونصف لنناول الوجبات ، ولكن المتباطئين بلا مبرر في تناولها يفقدون ربع اجر اليوم (١٨) . وشكا أصحاب العمل من أن عمالهم يتوقفون عن العمل ليختلفوا الى المهرجانات ، أو مباريات الملاكمة التكسبية ، أو مشاهد الشنق ، أو الاحتفالات بأعياد القديسين الشفعاء . ورغبة في حماية أنفسهم من هذه المخالفات وأشباهاها كان أصحاب العمل يحبون أن يكون لديهم رصيد من العمال المتعطلين في المنطقة ، يستطيعون أن يعتمدوا عليه في الطوارئ أو أوقات الطلب المتزايد (١٩) . فإذا كسدت الأحوال كان في الامكان تسريح العمال وتركهم ليعيشوا على قروض من التجار المحليين .

ونشأت في المدن ببطء برولتاريا تابعة . وكانت تجمعات الطبقة العاملة محظورة بمقتضى قانون قديم أصدره أدورد السادس ، فجدد البرلمان هذا الحظر في ١٧٢٠ . ولكن عمال اليومية مضوا في تنظيم انفسهم ، ولجأوا الى البرلمان لتحسين أجورهم ، وأصبحت اتحادات هؤلاء العمال - لا الطوائف الحرفية - هي الرائدة لحركة النقابات العمالية التي تشكلت في انجلترا في نهاية القرن الثامن عشر . وفي ١٧٥٦ ، بناء على التماس من عمال النسيج في جلومسترشير ، أمر مجلس العموم قضاة الصلح بالمحافظة على الحد الأدنى القانوني للأجر ، ويمنع تخفيض الأجر في الصناعة ، ولكن هذا الأمر سحب بعد عام ، واتخذ البرلمان سياسة ترك تحديد الأجر للعرض والطلب على العمل (٢٠) . لقد بدأ عهد « المشروع الحر » وسياسة « عدم

التدخل "Laissez - Faire

هـ - النقل والتجارة

توقف نمو الاقتصاد على التحسينات فى المواصلات والنقل . وكانت إنجلترا تتمتع بميزة ساحلها البحرى وأنهاها ، وكان نصف السكان يعيشون على أبعاد معقولة من البحر ، ويستطيعون استخدامه فى نقل السلع ؛ وتغلغلت الانهار مسافات بعيدة فى الداخل ، فاتاحت بذلك طرقا مائية طبيعية . ولكن حال الطرق الانجليزية كانت دائما قذى فى عين الحياة الانجليزية . فترية هذه الطرق لينة ، وإخاديدها صلبة يغمرها الماء ، وكثير منها حولته أمطار الربيع أو الصيف الى نهيرات أو بالوعات من الوحل كان المرور عليها عسيرا بحيث اقتضى اخراج المركبات من فوقها استخدام أعداد اضافية من الخيل أو الثيران ، وكان على المسافرين على الأقدام أن ينحولوا الى الحقول أو الغابات القريبة . ولم تتكفل الحكومة ، لأغراض حربية ، ببناء مجموعة من الطرق الرئيسية « صالحة لمرور الجنود والخيل والمركبات على مدار السنة (٢١) » (١٧٥١) الا بعد أن قاد « الأمير تشارلى الجميل » رجاله الاسكتلنديين الثائرين وأوغل جنوبا حتى داربى فى ١٧٤٥ ، لأن حالة الطرق عرقلت مسيرة القوات الملكية الموجهة ضده . ومع ذلك ظل اللصوص يعيشون فسادا فى الطرق ، وكانت تكاليف النقل غالية .

وكان الناس يسافرون على ظهور الخيل أو فى مركباتهم الخاصة إذا استطاعوا الى ذلك سبيلا . وكان فى امكانهم استئجار الخيل الجديدة فى نقط أو مواقع على الطريق Posts فى الرحلات الطويلة ، وانتشرت هذه البيوت Post - houses فى جميع أرجاء أوربا الغربية . ثم استخدمت كلمة « بوست » (البوسطة) للدلالة على نقل البريد ، لأنه فى مثل هذه النقط كان حاملو البريد يستطيعون تسليم البريد أو تسلمه وتغيير الخيل ؛ وبفضل هذا النظام أمكنهم أن يقطعوا ١٢٠ ميلا فى اليوم . ومع ذلك كتب تشستر فيلد (١٧٤٩) يشكو الحمال « أن رسائلنا على أحسن تقدير تنقل نقلا مضطربا ، وكثيرا ما تضيع تماما (٢٢) » . وذهب الى أن من « السرعة غير المألوفة » أن يستغرق خطاب مرسل من فيرونا ثمانية أيام ليصل الى لندن . وكان أكثر السفر بالمركبات العامة يجرها جوادان أو أربعة ولها سائق وحارس

مملح خارجها ، وبداخلها ستة ركاب يترنحون . وكانت المركبات تغادر
لمدن بجدول منتظم صباحين أو ثلاثة فى الاسبوع قاصدة كبريات مدن
جنوبى انجلترا ، ومعدل سرعتها سبعة أميال فى الساعة ، ورحلتها من
لندن الى نيوكاسل تستغرق ستة أيام .

وظلت التجارة الداخلية بهذه الطرق المعوفة بدائية على نحو
جدير بالتصوير . فكان تاجر الجملة يرافق عادة جياذ الحمل التى تنقل
بضاعته، من بند الى بلد ، والباعة الجوالون يسرحون بسلعهم من بيت
الى بيت . أما الحوانيت فتميز عن البيوت بعلامات أهمها اللافتات
الحافلة بالألوان ، وتحفظ السلع بداخلها ، وليس هناك عادة « أى
عرض فى الفترينات » . وكل متجر تقريبا متجر عام لمختلف السلع ،
مثال ذلك أن « الخردجى » كان يبيع الثياب ، والعقاقير ، والمصنوعات
الحديدية ، والبداىل سعى باسم grocer لأنه يبيع بالجملة . gross ؛
فالبداىل هنرى كوارد مثلا كان يبيع كل شىء من السكر الى المسامير .
وكان لكل مدينة يوم سوق يعرض فيه التجار - اذا سمح الجو - عينات
من بضائعهم . ولكن المراكز الكبرى للتجارة الداخلية كانت الاسواق
السنوية التى تنعقد فى لندن ، وولين ، وبوسطن ، وجينزيبورو ،
وبفرلى ، وأهم منها كلها ستوربردج . فى هذه الاسواق ، فى أغسطس
وسبتمبر من كل عام ، كانت تقوم مدينة حقيقية لها حكومتها وشرطتها
ومحاكمها ، تتوفر فيها كل منتجات الصناعة الانجليزية تقريبا ، ويلتقى
فيها رجال الصناعة من جميع أرجاء الجزيرة ليتبادلوا الحديث عن
الاسعار والنوعيات والكوارث .

وكانت التجارة الخارجية بسبيلها الى التوسع لأن بريطانيا تسلطت
على البحار . وزادت الصادرات الى أكثر من مثلها قيمة وكمية فى
النصف الأول من القرن ، وارتفعت حمولة السفن المبحرة من الثغور
الانجليزية من ٣١٧٠٠٠ طن فى عام ١٧٠٠ الى ٦٦١٠٠٠ فى عام
١٧٥١ الى ١٤٠٥٠٠ فى عام ١٧٨٧ (٢٣) . وضاعفت لفربول
حجمها وأرصفتها كل عشرين سنة . وأقبلت الواردات من عشرات
الاقطار لتداعب أحلام الأغنياء أو بطونهم ، أو تزين تسريحات كرائم
السيدات بالعبور ومساحيق التجميل التى تخلب الالباب . وبلغت

ارياح شركة الهند الشرقية من شراء السلع رخيصة فى الهند ، وبيعها غالية فى أوربا ، حدا أتاح لها أن تغرى بالانضمام الى مساهميتها خمسة عشر دوفا أو ايرلا ، واثنى عشرة كونتيسة ، واثنين وثمانين فارسا ، وستة وعشرين قسا وطبيبا (٢٤) . ولم تنظر الطبقة الأرستقراطية فى انجلترا الى التجارة نظرة ستعلاء والازدراء كما فعلت فى فرنسا ، ولكنها ساعدت على تمويلها وشاركت فى رخائها . وقد أبهج رجلا من الطبقة الوسطى كقولتير أن يجد نبلاء الانجليز يهتمون اهتماما نشيطا بالتجارة . قال موجها حديثه الى فرنسا فى ١٧٣٤ « ان لولع الانجليز بالتجارة وحده الفضل فى أن بزت لندن باريس حجما وسكانا ، وفى أن انجلترا استطاعت أن تملك مائتى بارجة وتعين بالمال الملوك من حلفائها (٢٥) » .

وأصبح كبار التجار ينافسون الأرستقراطية القديمة المالكة للأرض ثراء وسلطانا ، فيقررون العلاقات مع الدول الأجنبية ، ويثيرون ويمولون الحروب ، فى سبيل الاسواق والموارد والطرق التجارية . وسيطر القائمون على التجارة الانجليزية فى السكر ، والتبغ ، والعبيد ، على حياة برستول ، وحكم أصحاب السفن لغربول ، وساد أصحاب مناجم الفحم على نيوكاسل . وكانت ثروة السير جوسيا تشايلد التاجر صاحب ٥٠٠٠٠ سهم فى شركة الهند الشرقية ، تعدل ثروة الكثير من اللوردات وحدائقه فى وانستد من أشهر مشاهد انجلترا . كتب هيوم فى ١٧٤٨ يقول « فى معظم أقطار أوربا ترى أملاك الأسرة - أى الأملاك الوراثية - التى تميزها الألقاب والشارات التى يخلعها عليها الملك ، هى أهم أسباب التمايز . أما فى انجلترا فان الاعتبار الأكبر للشراء الراهن (٢٦) » . وحدث قدر كبير من التبادل والامتزاج بين الطبقتين العليا والوسطى ، فتزوجت بنات التجار الاغنياء بابناء النبلاء ملاك الأرض ، واشترى أبناء التجار ضياعا من الأرستقراطيين الذين افتقروا ودخل عليه القوم ميادين التجارة والقضاء والادارة . لقد كانت الأرستقراطية تتحول الى بلوتوقراطية (أى حكومة الاغنياء) ، والمال يحل محل النسب سبيلا شرعيا الى السلطان .

و - المسال

كان المصرفيون الأوربيون الآن يؤدون جميع الخدمات المالية

تقريبا ، يتسلمون الودائع ، ويحمونها من الحريق والسرقة ، ويرتبون المدفوعات بين المودعين بمجرد النقل من حساب الواحد الى حساب الاخر ، ويصدرون أوراق النقد التي يمكن أن يستبدل بها الذهب أو الفضة عند الطلب . واذ لم يكن من المتوقع أن يطلب جميع حملة هذه العملة الورقية هذا الاستبدال في وقت واحد ، نقد كان في استطاعة المصارف أن تصدر أوراقا بلغت من خمسة الى عشرة أضعاف قيمة احتياطياتها المشتركة . وأتاح تداول النقود المتكاثرة على هذا النحو رأس مال اضافيا للمشروعات التجارية ، وشارك في توسيع الاقتصاد الأوربي . وحفز المصرفيون الصناعة باقراض النقود بضمان الأرض أو المبنى أو المواد ، أو بمجرد التسليف على مسئولية شخص ما . ويسرت التجارة بخطابات تبادل أو ضمان مكنت رأس المال من الانتقال بمجرد نقل الوزن المصرفي حتى عبر حدود معادية .

وتألفت في انجلترا شركات محاصة كما حدث في هولنده وإيطاليا وفرنسا . ونظم مؤسسوها ، الذين كانوا وقتها يسمون « أصحاب المشروعات » الاتحادات الصناعية أو التجارية ، وأصدروا أسهما ، ووعدوا بدفع أرباحها ، وأمكن تحويل شهادات الأسهم أو السندات من شخص الى آخر ، ولهذا الغرض أسست في لندن سوق للأوراق المالية (بورصة) في ١٦٩٨ . وشهد مطلع القرن الثامن عشر نموا سريعا في المضاربة بأسهم الشركات ، وسماسة للأوراق المالية يتلاعبون في أسعار السوق رفعا وخفضا . وقد وصف ديفو في ١٧١٩ واحدا من هؤلاء المتلاعبين فقال :

« لو خطر للمسير جوسيا تشايلد أن يشتري ، فان أول ما يفعله هو أن يكلف سماسرته بأن يتكلفوا العبوس والتجهم ، ويهزوا رموسهم ، ويلمحوها بأن هناك أخبارا سيئة من الهند . . وربما باعوا فعلا بعشرة آلاف أو ربما بعشرين ألف جنيه . وللتو ترى السوق . . وقد امتلأت بالبائعين ، ولا أحد يشتري ولو بشلن ، حتى تهبط الأسهم ستة ، أو سبعة ، أو ثمانية ، أو عشرة في المائة ، وأحيانا أكثر . هنا يكون لدى السمسار الخبيث طاقم آخر منهم يستخدمه . . في الشراء ، ولكن في قصة الحضارة ٦ -

حكتم وتحوط ، حتى يشتري - بعد أن باع بعشرة آلاف جنيه بخسلة أربعة أو خمسة فى المائة - أسهما بمائة ألف جنيه ، بأقل من السعر بعشرة أو اثنتى عشرة فى المائة . وفى ظرف أسابيع ، بعكس هذه الطريقة لا أكثر ، يدفعهم جميعا للتهاافت على الشراء ، فيبيعهم أسهمهم ثانية بربح يبلغ عشرة أو اثنتى عشرة فى المائة (٢٧) « .

ولم تكذ تفتتح أسواق الاوراق المالية ، حتى كان حرص الجمهور على تحقيق كسب دون عرق يثير موجات من المضاربة والانكماش . وقد جاء تضخم « فقاعة » بحر الجنوب (أى مشروعه الوهمى) فى انجلترا ، ثم انهيار المشروع تاليا ، فى اتفاق غير عادى ، لظهور وسقوط « فقاعة المسبى » وصاحبها جون لو فى فرنسا . ذلك أن الحكومة الانجليزية ، التى تأثرت بشكاوى بولنبروك ، وسويقت ، وغيرهما من أن الدين القومى - البالغ ٥٢٠٠٠٠٠٠٠ جنيه فى عام ١٧١٤ - يفرض على الدولة عبئا سنويا مدمرا قدره ٣٠٠٠٠٠٠٠ جنيه من الفائدة - فكرت فى خطة لتحويل ٣١٠٠٠٠٠٠٠ جنيه من الدين الى شركة بحر الجنوب . وكانت الشركة قد أسست فى ١٧١١ بمنحها احتكارا للتجارة الانجليزية مع المستعمرات الأسبانية فى أمريكا وجزر المحيط الهادى . ودعى حملة الاوراق الحكومية ليستبدلوا بها أسهما فى الشركة . وأصبح الملك جورج الأول « محافظا » لها ، وبذلت كل الجهود لنشر الاعتقاد بان مرسوم احتكارها يعد بأرباح عالية . وسرت العدوى من النجاح الظاهرى لنظام لو فى فرنسا المعاصرة الى انجلترا ، فاعترتها حمى مضاربة مماثلة . وما مضت ستة أيام على عرض الشركة قبولهما الاوراق الحكومية لثنا لاسهمها حتى قبل الاقتراح لثلا حملة الاوراق واشترى كثيرون غيرهم أسهما ارتفعت فى ظرف شهر واحد من ٧٧ جنيها الى ١٢٣٥ (١٧١٩) . ولكى يضمن مديرو الشركة استمرار التعاون الحكومى قرروا تقديم هدايا سخية من الأسهم لأعضاء الوزارة ولانثنتين من خليلات الملك (٢٨) . وقد حذر روبرت ولبول ، ولم يكن قد تولى منصب الوزارة بعد ، مجلس العموم من المشروع لأنه « مضاربة . . . مؤذية » ، وقال ان المشروع يستهدف رفع قيمة الاسهم رفعا مفتعلا باثارة تهاافت الناس عليهما والابقاء عليه ، وبالوعد بأرباح من أموال لن تفى بالعرض ، وتنبأ ، فى دقة عجيبة ، بان المشروع سيفشل ، وأنه لو ترك

ليورط جماهير الشعب لجر فضله سخطا شاملا وخطرا (٢٩) . وقال انه ينبغي وضع حد ما على الأقل لارتفاع أسهم الشركة . ولكن مجلس العموم أبى الاستماع الى تحذيره . وفي ٧ أبريل ١٧٢٠ وافق كلا مجلسي البرلمان على اقتراحات الشركة .

وفي ١٢ أبريل أصدرت الشركة أسهما جديدة بسعر ٣٠٠ جنيه للمسهم ، فتم الاكتتاب فيها على الفور . وفي ٢١ أبريل أعلنت ، وهي منتعشة ناضرة بفضل دفع الحكومة فائدة على الاوراق الحكومية التي أصبحت الآن ملكا للشركة ، أنها ستدفع أرباحا صغيرة تبلغ عشرة في المائة ، واستغلت الحماسة التي أثارها هذا الاعلان لطرح اصدار آخر من الاسهم بسعر ٤٠٠ جنيه (٢٣ أبريل) . فلم تمض ساعات حتى تم الاكتتاب فيه . ورفع التهاافت على شراء الاسهم ثمنها الى ٥٥٠ جنيها في ٢٨ مايو ، والى ٨٩٠ جنيها في ٢ يونيو ، وفي يوليو بيع اصدار جديد بسعر ١٠٠٠ جنيه للمسهم . وتهاافت المجتمع الراقى كله على الاكتتاب . الادواق والقساوسة والسياسيون والموسيقون والشعراء ، فأصبح شارع البورصة مشهدا لمنافسة هائجة مائجة على الشراء لم ير لها نظير الا في شارع كانكمبوا بباريس في الفترة ذاتها تقريبا ؛ فلقد كشفت طبيعة البشر عن نفسها عبر الحدود . وكان الناس يعقدون صفقات الاسهم في الحانات ، ومشارب القهوة ، ودكاكين صانعات القبعات ، وفي كل ليلة يحسب الرجال والنساء أي ثراء أصابوا ، وما كان يمكن أن يصيبوا من مزيد لو أنهم اشترروا في تاريخ سابق ، أو قدرا أكبر من الاسهم .

وبلغت لهفة المال العام على المضاربة مبلغا أعزى الشركة بطرح اصدارات صغيرة بلغت ستة وثمانين اصدارا . وبيعت أسهم اصدارتها شركات انشئت لتحويل المعادن الى فضة ، ولتشديد المستشفيات للأطفال غير الشرعيين ، ولإستخراج الزيت من الفجل ، ولاحداث الحركة الدائمة ، ولإستيراد الحمير من إسبانيا . وأعلن مؤسس عن « شركة لمواصلة مشروع عظيم النفع ، ولكن أحدا لن يعرف كنهه » الا فيما بعد ، فتلقى ألف اكتتاب كل منها بجنيهن قبل أن ينتصف الثنهار ، ثم اختفى بعد الظهر (٣٠) .

وكان شطط بعض هذه « الفقاعات » الصغرى (وهو الوصف الذى وصفهم به ذلك العهد) بداية رد الفعل ضد مشروع بحر الجنوب . وجدد ولبول وغيره تحذيراتهم وباعوا أسهمهم . وفى ١١ يونيو حرم الملك جميع اصدارات الأسهم الا للشركات التى رخص لها البرلمان بذلك . وسرعان ما انهارت المشروعات الصغرى ، فهذا فشلها من حمى المضاربة . وانتشرت شائعة بأن الحكومة الاسبانية أخذت تضيق تجارة الشركة فى المستعمرات الامريكية تضيقا شديدا . وفى يوليو وصل نبأ بأن مشروع لو أو « فقاعة المسبى » قد انفجرت فى باريس . وباع السير جون بلاونت وغيره من مديرى شركة بحر الجنوب أسهمهم سرا بربح كبير . وخلال أغسطس كله توالى هبوط الأسهم حتى اذا جاء ٢ سبتمبر لم يتجاوز سعرها سبعمائة جنيه .

هنا استحال التهافت على البيع ضربا من الهلع والذعر الجماعى ، فازدحمت مداخل شارع البورصة ازدحاما خانقا . وهبطت الاسهم الى ٥٧٠ جنيتها ، ثم الى ٤٠٠ جنيهه ، ثم الى ١٥٠ جنيتها ، ثم الى ١٣٥ جنيتها (٢٩ سبتمبر) . وخسرت مئات الاسر الانجليزية مدخراتها فى هذا الانهيار . وسرت بين الناس قصص الافلاس والانتحار (٣١) . وأفلست المصارف التى كاذت قد أقرضت المال بضمان شهادات اسهم شركة بحر الجنوب . وطالبت الاجتماعات العامة فى جميع ارجاء انجلترا بعقاب المديرين ، ولكنها غفرت للجُمهور غروره وجشعه . وعجل الملك بالعودة من هانوفر ودعا البرلمان للانعقاد . وفر أمين صندوق الشركة الى فرنسا مصطحبا الكثير من السجلات التى كانت ستدين المديرين . وفى يناير ١٧٢١ وجدت لجنة برلمانية بعد فحصها دفاتر الشركة ، « صورة للظلم والفساد (٣٢) » مذهلة حتى بمقاييس ذلك العهد ، حين كان التشريع عن طريق افساد البرلمان كانه جزء من دستور انجلترا . والظاهر ان المديرين كانوا قد انفقوا ٥٧٤ر٠٠٠ جنيه فى رشوة كبار رجال الحكومة .

وطالب بعض أعضاء البرلمان بعقوبات عنيفة ، واقترح احدهم بان يخاطب المديرين المذنبون فى زكية ويلقوا احياء فى التيمز (٣٣) . وحمى وطيس الجدل حتى تحدى الأعضاء بعضهم بعضا للمبارزة ،

وأصيب عضو منهم بأزمة ضغط مرتفع ومات فى الغد . ودعى المديرو
وزراء الحكومة الى المحاكمة أمام المجلس . فحكّم على جون ايزلابى ،
وزير الخزانة ، بالسجن فى برج لندن ، وصودرت ممتلكات المديرين -
منهم ادورد جبون ، جد المورخ - فلم يترك لهم سوى عشرة فى المائة
من ثروتهم . ولوحظ أن السير جون بلاونت ، الذى كان من أوائل
منظمى الشركة ، ومن أول من بدأوا ببيع أسهمهم ، كان رجلا « ذا
مسلك غاية فى التقوى » وكان « دائما يهاجم ما يشين العصر من سرقة
وفساد » ويندد بجشع الأغنياء (٣٤) .

أما روبرت ولبول الذى برر الحدث تنبوءاته ، فقد أشار بالاعتدال
فى روح الثأر الذى اتسم به رد الفعل ، وخفف من انهيار الشركة باقناع
مصرف انجلترا وشركة الهند الشرقية بامتصاص نحو ١٨٠٠٠٠٠٠
جنيه من الأسهم الخاسرة . وقد وجد فى شركة بحر الجنوب من
الاحتياطات ما يسمح بدفع ثلاثة وثلاثين فى المائة لحملة أسهمها فى
وقت مبكر . وجردت الشركة من امتيازاتها وسحرها ، ولكنها كانت
تكسب من بيع العبيد ، فظلت على قيد الحياة ، فى حيوية هابطة
حتى عام ١٨٥٣ .

٢ - مظاهر الحياة فى لندن

يندر الاحصائيون التجرباء سكان أوروبا بنحو ١٠٠ مليون نسمة
على ١٦٥٠ ، و ١٤٠٠ فى ١٧٥٠ . وقد قدر فولتير فى ١٧٥٠ سكان
فرنسا بعشرين مليونا ، وألمانيا والنمسا باثنين وعشرين ، وبريطانيا
العظمى وأيرلنده بعشرة ، وروسيا الاوربية بعشرة ، وأسبانيا والبرتغال
بثمانية ، وبولنده بستة ، وخص كلا من تركيا أوروبا ، والسويد ،
والدنمرك (مضافا اليها النرويج) والاقاليم المتحدة ، بثلاثة
ملايين (٣٥) . وذهب قانونى ألمانى الى أن الزيادة فى سكان شمالى
أوروبا مردها الى حد كبير انتقال الرهبان والراهبات من حياة العزوبة
الى الأبوة والامومة نتيجة لحركة الاصلاح البروتستنتى ، وحض على
« اقامة تمثال للوثر بوصفه حافظ النوع الانسانى » (٣٦) . ولكن
علينا ألا نغالى فى عفة رهبان العصر الوسيط . وأغلب الظن أن زيادة

السكان مرجعها تحسينات الزراعة والنقل التي زادت من كميات الطعام وتوزيعه ، وخطوات النهوض بالصحة العامة والعلاج الطبي التي خفضت نسبة الوفيات في الاطفال والبالغين . ويبدو أن سكان انجلترا وويلز الذين نيفوا على ثلاثة ملايين في ١٥٠٠ ، بلغوا أربعة في ١٦٠٠ وستة في ١٧٠٠ ، وتسعة في ١٨٠٠ (٣٧) . وكل الزيادة تقريبا كانت من نصيب المدن التي غدت الصناعة والتجارة وتغذت منهما . وفي عام ١٧٤٠ فاخرت لندن بنحو ٧٢٥٠٠٠ من الاهالي ، فأصبحت الان أحفل مدن العالم بالسكان ، وندد بها ديفو في ١٧٢٢ لأنها « تضخمت » (٣٨) وتلتها باريس التي بلغ سكانها ٦٧٥٠٠٠ في ١٧٥٠ ، ثم امستردام وفينا ، ونابلي ، وبلرمو ، وروما . وبلغ سكان لندن عشرة أضعاف سكان برستول ، التي كانت ثانی أكبر المدن الانجليزية ، وثمانية عشر ضعف سكان نورثس ، ثالث أكبر المدن الانجليزية . وكانت مراكز العواصم تجمع في يدها خيوط الحياة الاقتصادية للأمة ، وتحول كدّ الحقول والمناجم والمتاجر ومنتجاتها الى أرباح المال اللطيفة الرقيقة .

وأعان لندن موقعها على النمو مع نمو التجارة والمستعمرات الانجليزية . فكان في استطاعة السفن عابرة المحيط أن تبحر مصعدة في التيمز ، ومع أن أرصفة الميناء (حتى ١٧٩٤) لم يكن في طاقتها أن تؤويها ، فان جيشا من عمال التفويغ والشحن الغلاظ ، يستخدم اسطولا من ثلاثمائة صندل ، كان مهيا لنقل البضائع من السفينة الى الساحل أو الى سفينة أخرى ، وهكذا غدت لندن مركز توزيع شاغيا بالحركة لاعادة تصدير الواردات من وراء البحار الى القارة . ولم يكن شاطئ النهر أنيقا كما نجده الآن ، فقد كان يزخر بعمال الشحن المفتولي العضل ، والملاحين المتعطشين للجنس ، والنساء المتحللات ملبسا وخلقًا ، القدرات مظهرًا ولفظًا ، الساكنات الاكواخ والحانات ، المنافسات للبحارة في السكر والعنف (٣٩) . أما النهر نفسه فكان عجيب المنظر ، فيه خليط من السفن التي تتفاوت من قوارب الصيد الشراعية الى البوارج الضخمة ، بينما تعبر المعديات الصغيرة النهر غسحوا ورواحا . وكان الملك ، وعمدة لندن ، ونفر من الاعيان ، يملكون « ذهبيات » أنيقة ، ويستخدمونها للرحلة صعدا الى ونزور أو غيرها من البلاد . وظل كوبري لندن حتى ١٧٥٠ الطريق الوحيد لاختراق المدينة على الاقدام

من شمالها الى جنوبها ، ولكن فى ذلك العام تم بناء كوبرى وستمنستر ، وفى ١٧٥٧ أزيل عن كوبرى لندن عبء البيوت والمتاجر الذى كان ينقله . وقد أعجب الرسام البندقى أنطونيو كاناليتو ، الذى زار لندن فى ١٧٤٦ و ١٧٥١ ، بمشاهد الحركة التى يعج بها الماء فخلف لنا بعض الصور الشهيرة التى تزيننا التيمز كما عرفه وأحبه بوب وجونسون .

ولعل جونسون أحب شوارع لندن أكثر حتى من حبه لنهرها ، مع أنها كانت لاتزال سيئة الاضاءة رديئة الرصف ، لا ينظفها فى الغالب سوى ماء المطر الهاطل عليها . وكان قد تقرر فى ١٦٨٤ نظام لاضاءة الشوارع يقام بمقتضاه مصباح مضاء بالشمع عند كل عاشر بيت ، ولكن المصابيح لم تضا الا فى الليالى التى يحتجب فيها القمر ، وحتى منتصف الليل فقط ، ومن عيد الملاك ميخائيل (٢٩ سبتمبر) الى عيد السيدة العذراء فقط (٢٥ مارس) . وفى ١٧٣٦ وافقت سلطات المدينة على اقامة خمسة عشر ألف مصباح زيتى فى أنحاء لندن كلها ، تظل مضيئة من غروب الشمس الى شروقها ، وكان هذا حدثا مشهودا فى حياة العاصمة . حسن كثيرا من أمن شوارعها فى الليل .

كان أكثر الشوارع منذ حريق ١٦٦٦ الكبير مرصوفا بالحجارة الصغيرة المدوّرة ، وظل الرصف بهذه الطريقة قاعدة متبعة الى القرن التاسع عشر . وكانت تجرى فى وسط كل شارع قناة تتلقى الكثير من النفاية . وتصرف المطر . ولم يكن هناك أفاريز بل صف من الشواخص حدد طريقا للمشاة عرضه ستة أقدام . وكانت الشوارع تعج بأصوات عربات النقل ، وخيول الجر ، والحناطير ، والمركبات الخاصة ، وكلها تجرّها الخيل التى تقعق حوافرها على أحجار الرصف ، كذلك كان هناك الباعة الجوالون - وكثير منهم نساء - يسرحون بعشرات الأطعمة أو الثياب ، والصناع المهرة المتنقلون يعرضون اصلاح ما فسد ، وسائقو العربات يتشاجرون والكلاب تنبح ، والمتسولون يستجدون ، ومغنىو الشوارع يصيحون بالأغانى الشعبية ، والأراغن تقفز بالحانها من جدار الى جدار . وكان الناس يشكون من هذه الضوضاء ولكنهم يحبونها ، فهى السبيل الذى لا غنى عنه الى معاشهم . ولم يعمل من الناس فى صمت سوى النشالين والمومسات .

وبدا تثبيت أرقام الشوارع على البيوت فى سنة ١٧٠٨ . وكان أكثرها فى سنة ١٧٥٠ مزودا بالمياه الجارية . واخذت وسائل النظافة تتحسن . وكان القانون يطالب رب كل أسرة بأن يحتفظ برصيف الشارع نظيفا أمام بيته ، ولكل حى زبال ينظم جمع القمامة . أما المراحيض فكانت عادة مراحيض خارجية توضع وتستر فى الحديقة أو الحوش . وكان لبعض المناطق مجار ، ولكن لم يتح للندن نظام مجار عام الا سنة ١٨٦٠ . أما المداخن فيطهرها منظفو المداخن ، الذين يتسلقونها بضغط كيغانهم وركبهم على جدرانها الداخلية المصنوعة من الطوب أو بالحجر ، واستمر هذا التشويه القاسى لأجسام الأطفال حتى عام ١٨١٧ .

وكان شطر كبير من السكان يحشرون فى أحياء فقيرة مزدحمة تلوثها القمامة والفضلات فتولد عشرات الأمراض (٤٠) . وفى حيين من أحياء لندن - هما واينج ولايمهاوس - كان واحد من كل اثنين من السكان تقريبا يعيش عيش الكفاف ، معتمدا على الاحسان ، أو السرقة ، أو البغاء ، فى الحصول على المسكن والطعام . أما الأطفال فيجرون حفاة قذرين شعنا فى الشوارع لا تسقرهم غير أسمال ولا يتعلمون غير الاجرام . فى هذه الشوارع الفقيرة ندر أن اهتم الرجال والنساء بالزواج فالعلاقات الجنسية حدث عابر ، وسلعة تسوق دون احتفال أو قانون . ولم يكد يوجد فى هذه الأحياء كنائس على الاطلاق ، أما دكاكين الجعة والحانات فكثيرة . وفيها أيضا كانت بؤر اللصوص ، والنشالين ، وقطاع الطرق ، والقتلة المحترفين . وكان كثير من المجرمين ينتظمون فى عصابات . فاذا تعرض لهم الحراس جدعوا أنوفهم . وألفت جماعة منهم يدعون « الموهوك » أن يخرجوا الى الشوارع سكارى ، ويخزوا المارة بالسيف ، ويكرهوا النساء على الوقوف على رموسهن ، ويسملوا عيون من يقاومونهم من ضحاياهم . أما لصوص العصابات الأقل ضراوة فكانوا يقنعون بكسر نوافذ الدكاكين والبيوت . ذكر سموليت فى ١٧٢٠ « أن اللصوص والسارقين أصبحوا الآن أشد استهتارا وضراوة مما كانوا فى أى عهد منذ عرف البشر الحضارة (٤١) » . وفى ١٧٤٤ حرر عمدة لندن وحاكمها خطابا للملك قررا فيه أن « عصابات شتى قوامها اعداد كبيرة من الأشخاص ذوى النزعة الشريرة ، المسلحين بالهسراوات ، والطبنجات ، والسيف ، وغيرها من الأسلحة الخطرة ، يعيثون فسادا

لا فى الازقة والممرات الخاصة فحسب ، بل فى الشوارع العامة وأماكن الاحتشاد العادية ، ويقترفون أخطر الاعتداءات على أشخاص رعايا جلالتكم (٤٢) « . وقال هوراس ولبول فى ١٧٥٢ : « ان المرء ليضطرب الى السفر ، حتى فى الظهيرة ، وكأنه ماض الى ساحة قتال (٤٣) » .

وكانت العاصمة الكبرى بالطبع شيئاً أكثر كثيراً من هذه الحصيلة المتكاثرة من الفقر والجريمة ، فلقد كانت الى ذلك بلد البرلمان والقصور الملكية ، ووطن ألف محام وتاجر وصحفى وشاعر وروائى وفنان وموسيقى ومعلم وكاهن ورجل بلاط . ويجب ونحن ماضون فى طريقنا أن نضيف الى رؤيتنا للندن القرن الثامن عشر بيوت الطبقات المتعلمة الفخمة وأخلاقها وعاداتها ، وجمهور المصلين فى الكنائس ، والشكاك ، والعلماء ، والفلاسفة ، وظرفاء « المجتمع الراقى » وحسانه وعشاقه ، وحدائق اللهو فى فوكسهول ورينلاج ، والمتنزهين فى الحدائق العامة وشارع بل مل ، وسباقات الزوارق والمهرجانات والذهبيات على نهر التيمز ، والأحاديث المتدولة فى مشارب القهوة والنوادي ، ودكاكين الحرزيين ، وتجار الملابس ، والجواهرية ، وأسباب الترويج فى البيت والرياضة فى الخلاء ، والجموع المحتشدة فى معارك الديكة ، ومباريات الملاكمة التكمسية ، وعروض الدمى ، والمسارح ، والأوبرا - عندها فقط تكون رؤيتنا للحياة اللندنية منصفة كاملة الى حد معقول ، نتيج لنا أن نحس التاريخ فى كل نواحيه ينساب خلال أجساد وأرواح جيلين و ٧٠٠,٠٠٠ نفس .

٣ - المدارس

كانت الحياة فى انجلترا كما فى غيرها من الأقطار فى هذه الحقبة تبدأ بنسبة عالية من وفيات الاطفال ، يموت ٥٩ ٪ من مجموع الاطفال المولودين بلندن قبل أن يبلغوا الخامسة ، و ٦٤ ٪ قبل العاشرة (٤٤) . وكان كثير من الاطفال يلغون خارجا عقب ولادتهم ، ومن بقى من هؤلاء اللقطاء على قيد الحياة يربون على نفقة الدولة ثم يوضعون فى اصلاحيات للأحداث . ونجم الكثير من التشوهات الجسمية عن افعال المولدات والأمهات .

فإذا كان الابوان فقيرين لم ينل الطفل حظا من التعليم فى المدرسة اطلاقا . وكان هناك « مدارس خيرية » تقدم التعليم الاولى للجنسين ولجميع الطبقات مجانا ، ولكن حملة الملتحقين بها لم يتجاوز ٢٨٠٠٠ فى ١٧٥٩ ، وكانت لا تقبل المنشقين على الكنيسة الانجليكانية ، ولا تصل الا لنسبة ضئيلة من الفلاحين ، ولا تكاد تصل الى فقراء المدن اطلاقا . يقول حجة انجليزى « ان الكثرة العظمى من الانجليز كانوا يمضون الى قبورهم دون تعليم » (٤٥) . أما فى طبقة الصناع فالتلمذة الصناعية تعد خير تعليم . وأما أطفال الطبقة الوسطى فيجدون مدارس يقوم عليها عادة « رجال محطمو الاعصاب ، أو مفلسون ، أو مطرودون من وظائف أخرى » (٤٦) والى ذلك « مدارس نسوية » تعلم فيها المعلمات المتواضعات مبادئ القراءة والكتابة والحساب والكثير من الدين للصبيان والبنات الذين يستطيع آباؤهم دفع مصروفاتهم . وفى جميع المدارس كان التركيز على تعليم الطلاب القناعة بمرتبتهم التى ولدوا فيها ، وابداء الخضوع الواجب للطبقات العليا .

وكانت قلة قليلة تدخل المدارس الثانوية حيث يستطيع الصبيان أن يضيفوا شيئا من اللاتينية واليونانية الى مبادئ القراءة والكتابة والحساب ، لقاء رسوم متواضعة تبصر المعلمين بمكانهم الوصيع فى السلم الاجتماعى . وكان النظام صارما ، وساعات الدرس طويلة تمتد من السادسة الى الحادية عشرة والنصف صباحا ، ومن الواحدة الى الخامسة والنصف مساء . وأجود من هذه المدارس المدارس الخاصة ، وأشهرها ابنون ، ووستمنسر ، وويشستر ، وشروزبرى ، وهارو ، ورجبى - حيث بسنطع الشباب من الصفوة التحضير للجامعة بظير ستة وعشرين جنيتها أو نحوها فى العام ، وادخار شارات كلاسيكية يتفخرون بها فى المستقبل . واذ كانت هذه المدارس الخاصة لا تقبل غير صبيان الكنيسة الانجليكانية ، فان المنشقين على هذه الكنيسة - من معمدانيين ، ومشيخين ، ومستقلين ، وتوحيديين ، وكويكريين ، ومجمعيين ، ومثوديين - هؤلاء انشأوا أكاديميات لشبابهم قل التركيز فيها على الكلاسيكيات القديمة ، وازداد على اللغات الحديثة ،

والرياضيات ، والتاريخ ، والجغرافيا ، والملاحة - وهو تعليم أنسب
للبناء الطبقة الوسطى .

وحرم المنشقون من دخول الجامعات . وكان أكثر طلابها ينتمون
الى أسر موسرة ، ولكن بعض الصبيان رقيقى الحال تلقوا منحا دراسية
من المحسنين أو المؤسسات الخيرية ، وبعض الطلاب الذين يقومون
بخدمات للجامعة لقاء مكافآت (ويسمون *servitors* أو *sizars*)
مثل نيوتن ، شقوا طريقهم خلال قاعات الدرس الواعية بالفوارق
الطبقية . وقد عانت أكسفورد وكمبردج من الركود فى هذه الفترة بسبب
النزعة المحافظة فى المناهج والطرق والافكار . وأبدت كمبردج استعدادا
اكبر للتوسع فى الدراسات العلمية على حساب الدراسات الكلاسيكية
واللاهوت ، ومع ذلك وصفها تشستر فيلد بأنها « غارقة فى أحلك
الظلمات » . أما أكسفورد فقد تشبثت باللاهوت القديم وبأسرة ستيوارت
الساقطة ، ولم تسمح لمالك أسرة هانوفر الغشم بزيارتها . وقال آدم
سمث ، الذى كان يطلب العلم بأكسفورد فى ١٧٤٥ ، انه لم يتعلم فيها
الا القليل ، أما جبون الذى درس فيها فى ١٧٥٢ ، فقد ندد بمدرسيها
لانهم سكيرون جهلة ، وندم على السنين التى ضيعها فى الجامعة .
وأثر الكثير من الأسر استخدام المدرسين الخصوصيين (٤٧) .

أما البنات فكن يتلقين تعليما أوليا فى مدارس القرية أو المدارس
الخيرية - فيتعلمن القراءة والكتابة ، والخياطة ، وأشغال الابرّة ،
والغزل ، وقليلًا من الحساب ، وكثيرًا من الدين . وتلقى بعضهن
التعليم على يد معلمين خصوصيين ، ومنهن من درس اللغات والآداب
الكلاسيكية خفية كما فعلت الليدى ماري ورتلى مونتاجيو . قالت الليدى
ماري « ان بنات جنسي تحظر عليهن عادة دراسات من هذا النوع ،
والجهل يعد مجالنا المناسب لنا ، بحيث أن أى اسراف فيه من جانبنا
يغتفر لنا أكثر مما يغتفر أقل تظاهر بمعرفة القراءة أو بالادراك السليم
... وليس فى الوجود مخلوق ... أشد تعرضا للسخرية العامة من
المرأة المثقفة » . وكانت تميل الى الظن بأن الرجال كانوا يبقون النساء
فى جهلن ليستطيعوا اغواهن بتكلفة أقل (٤٨) . وإذا كان لنا أن
نحكم من دخول محظيات الملك ، فان النساء وفقن كل التوفيق بغير

الدراسات الكلاسيكية ، ولم يكن بهن حاجة الى شاعر كاوفيد ليحلمهن
لعبة الحب .

٤ - الأخلاق

لعل العلاقات السابقة على الزواج كانت بين النساء اقل شيوعا في ذلك العهد مما هي اليوم (١٩٦٥) ، ولكن البغاء ازدهر الى حد لم يكده يعرف ثنائية حتى يومنا هذا . وقد قدر مراقب اجنبي عدد المومسات بخمسين ألف في لندن ، يوجدن في حانات المدينة ، وفي الفنادق الصغيرة على الطرق ، وفي حدائق المدينة ، وفي المراقص العامة ، وحفلات الموسيقى ، والمسارح ، وكن في شارع اكستر وحى ستراند يجلسن الى النوافذ تشجيجا للمتردددين من الزبائن . وفي « درورى لين » (شارع المسارح بلندن) - كما تخنى الشاعر جون جوى في تمثيليته « تريفييا » : هي التي تمشي في الليل بخطى وثيدة ، لا يضم جسدها اللدن مشد قاس ، وتحت المصباح تتوهج شرائطها المبهرجة ، والمعطف حديث التنظيف ، وسيماء المومس . . . وباصوات التملق تستميل الاذن الساذجة قائلة « يا فارسي الهمام ! يا فانتى ! يا حبيبى ! يا عزيزى ! » (٤٩) .

ولم تاخذ القانون بهن رحمة . فاذا أمسكت احدهن وهي تتحرش برجل ، زج بها في السجن وضربت بالسوط ووضعت في المشهرة (آلة التعذيب) . وقد وصفت « مجلة جرب ستريت » في عدد ٦ مايو ١٧٣١ مصير احدي هؤلاء « المدامات » فقالت « وقفت أمس الام نيدهام في المشهرة ببارك بليس قرب شارع سانت جيمس ، ونكل بها الجمهور تنكيلا شديدا . وقد اشتد بها الاعياء حتى استلقت بطول المشهرة ، ورغم ذلك ظلوا يحصبونها بقسوة ، ويظن انها ستموت بعد يوم او يومين (٥٠) .

ولكن لم يكن يصل الى المشهرة غير افقر البغايا . فقد كن يتفادين القانون عادة بانرشا ، او يخرجهن صاحبهن بكفالة ، واحسن بعض حفظة القانون - ربما لانهم تعرفوا فيهن على « مضيقات » سابقات لهم - بعض العطف على نساء عاقبتهن القوانين على فسق الرجال .

وإغلب الظن أنه لم يأت الى فراش الزوجية محتفظا بعفته عشرة من كل مائة ذكر من أهل لندن . لقد ندد القوم بالرذيلة علانية ، ولكنهم احتقروا الفضيلة سرا . . . وكتاب جون كلياند المسمى « مذكرات غانية » (١٧٤٩) ، والذي عرف فيما بعد باسم « فانى هل » ، وهو سلسلة من الاغواءات المفصلة ، كان (وما زال) من افحش كتب ذلك القرن وأكثرها شعبية .

وألّف بعض الرجال جماعات للاستمتاع المتبادل فيما بينهم . وروت جريدة لندن فى عددى ٢٣ و ٣٠ أبريل ١٧٢٥ نبأ القبض على سبعة لوطيين ، وفى ١٤ مايو سجلت نبأ شنق ثلاثة آخرين بتهمة اللواط ، ثم أضافت « نعى الينا أنهم (أى الشرطة) اكتشفوا عشرين بيتا أو ناديا يجتمع فيها اللوطيون ، وهم يراقبون أيضا منتديات ليلية يلتقى فيها هؤلاء الوحوش فى جمع كبير » . وفى ٧ يوليو روت الجريدة أدانة « روبرت هويل ويورك هورنر بفتحهما بيتوتا فى وستمنستر يستقبلان فيها هواة هذه الرذيلة المنكرة » . وفى ٢٣ يوليو أعلنت أن : « مرجريت كلاب ، التى أديننت بفتحها بيتا سرىا يستخدمه اللوطيون . . . حكم عليها بوضعها فى المشهرة ، ويدفع غرامة قدرها تسعون ماركا ، وبالسجن سنتين » (٥١) .

وينبئنا مصدر وثيق بان « نسبة كبيرة جدا من أهل لنسند كانوا يعاشرون النساء حراما دون زواج (٥٢) » . وكانت زيجات الحب فى ازدياد ، على الأقل فى روايات رتشرسن وفيلدننج ، ولكن معظم الزيجات كان يرتبها الآباء بعد الوزن الدقيق لمهر العروس بالقياس الى دخل العريس الفعلى أو المنتظر . وقد حرم قانون صدر فى ١٧٥٣ على الأشخاص دون الحادية والعشرين الزواج بغير موافقة والديهم أو الأوصياء عليهم . ولما كان هذا القانون لا ينطبق الا على انجلترا ، فان كثيرين من العشاق الفارين من آباءهم كانوا يعبرون الحدود الى اسكتلنده ، حيث يتبع القساوسة فى قرية جريتنا جرين قانونا أكثر يسرا . وكان هناك مزيد من التيسيرات على العاشقين المتلفين يوفرها رجال الدين الجشعون الذين يعقدون الزيجات السرية فى الحانات أو المواخير أو العليات أو غير ذلك من الأماكن فى شارع فليت أو على

مقربة منه (وفي الشارع سجن للمدينين) . وكان فى كل حانة تقريبا فى تلك المنطقة كاهن من هذا النوع على استعداد لتزويج أى انسان لقاء رسم ، دون أن توجه اليه أسئلة أو يطالب بترخيص . وشاع عن أحد هؤلاء المساوسة أنه كان يعقد ستة آلاف قران فى السنة . وكانت الزيجات تبرم فى عاطفة مشبوبة ، ثم تفسخ وقد ذابت حرارتها؛ وكان آلاف النساء يهجرن رجالهن ، وكان البحارة يتزوجون وهم يقضون يوما على البر ، ويحسنون ، ثم يرحلون . ورغبة فى القضاء على هذا المنكر اصدر البرلمان قانونا (١٧٥٣) بالا يعتبر أى زواج شرعيا ، باستثناء زيجات الكويكرز أو اليهود ، ما لم يعقده قسيس أنجليكانى فى كنيسة أبرشية ، بعد نشر اعلان بالزواج فى الكنيسة على مدى ثلاثة آحاد متعاقبة ؛ وكل مخالف لهذا القانون يعاقب بالنفى الى المستعمرات .

ولم يكن الطلاق مسموحا به فى انجلترا (قبل ١٨٥٧) دون الحصول على قانون خاص من البرلمان (٥٣) ، وكانت تكاليف هذا الاجراء تجعل منه ترفا مقتصر على الاغنياء . وفشا الفسق فى جميع الطبقات الا الوسطى ، وضرب جورج الأول والثانى مثلا فى ذلك - والناس على دين ملوكهم . ففى عام ١٧٠٠ كتب كونجرىف يقول « كل انسان فى هذا المجتمع ولد بقرون طالعة (٥٤) » . ولم تتغير الحال الا قليلا فى ١٧٢٨ ، حين جعل الكاتب المسرحى « جاي » السيدة بيتشم فى « اوبرا الشحاذ » تسال زوجها عن ابنتها « بالله لم يجب أن تشذ ابنتنا بوللى عن بنات جنسها فتقصر حبها على زوجها ؟ » . كل الرجال لصوص فى الحب ، ويزداد عشقهم للمرأة ان كانت ملك رجسلى اخر (٥٥) « . على أنه يمكن القول عموما بأن اخلاق النساء كانت فى انجلترا خيرا منها فى فرنسا ، وأنه فى الطبقات الوسطى ، التى ظلت التقاليد البيورتانية فيها قوية ، أوشكت العفة أن تكون افراطا فى الاحتشام ، وقد تجد من النساء زوجات من الطراز الذى يحلم به الرجال - صبورات ، مجدات ، وفيات . وكان المعيار ذو الوجهين مفروضا ومقبولا . فكانت النساء المهذبات يسمعن الكثير من الحديث النابى ويقران فيلدنج وسموليت ، ولكن كان ينتظر منهن أن تحمرن وجوههن خفرا مغريا ، وان يغشى عليهن فى لمح البصر .

وكان ينظر الى المرأة فى جميع الطبقات على أنها أدنى من الرجل بحكم الطبيعة وبقضاء لا سبيل الى رده . ولقد ارتضت هذه النظرة حتى المليدى مارى المتكبرة المتمردة ، ولو ساخرة كارهة :

« لست أحاول الآن المطالبة بمساواة الجنسين ، اذ لا شك فى أن الله والطبيعة قد ألقيا بنا فى مرنبة أخط ، فنحن جزء أدنى من الخليقة ، وعلينا اطاعة الجنس الأعلى والاذعان له ، وكل امرأة تسمح لغرورها وحمافتها أن ينكرا ذلك اذا ما تتمرد على ناموس الخالق ونظام الطبيعة الذى لا ينازع (٥٦) » .

وكانت فترة حكم البيورنان قد أنزلت المرأة عن مقامها الذى ارتقت اليه أيام اليزابيث . وحكم أحد الطلاب بأنه « حوالى عام ١٧٥٠ كانت النساء هى انجلترا قد نزلن الى مستوى منحط جديد لم يكد يفضل وضعهن فى القرن الثانى عشر (٥٧) » .

وتردب الفضائل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية الى الدرك الأسفل . فالقمار الذى قاومته الملكة آن من قبل رد الى الحظوة الملكية بفضل جورج الأول والثانى . وكان موظف خاص يسمى « الحاجب » منوطا بالاشراف على القمار فى البلاط الملكى . وكان لعب الورق التسلية المفضلة للأغنياء والفقراء ، ونذر أن برىء من المراهنة ، وكثيرا ما شابه الغش . ولم يكن من غير المألوف للمتبلل المتلاف من أبناء الطبقة العليا أن يكسب أو يخسر مائتى جنيه فى جلسة واحدة ، وقد خسر دوق ديفونشير ضيعته فى لعبة واحدة ؛ وكان اللورد نينسترفيلد بقامر باستهتار فيما بين المحاضرات التى يلقيها على ابنه ، وأصبح القمار شهوة سيطرت على الناس أجمعين فى عهد جورج الأول الى درجة لعلها لم تضارع بعده . وفتحت ملاعب القمار فى نادى هوانت ، وفى تشيرنج كروس ، وفى لستر فيلدز ، وفى جولدنز سكوير ، وفى باث . وفى محفورة للمصور هوجارت سماها « رحلة الفاجر » نرى رجلا ونساء يقامرون فى نادى هوايت ، ولا يعباون بانذار بنبتهم بأن المنى يحترق ، فلا بد من مواصلة معركة اللعبة الى نهايتها الحاسمة . وقد

★ احترق النادى الشهير عام ١٧٣٣ ، ولكنه رمم سريعا .

حظر جورج الثانى هذا القمار المنظم ، ولكنه اعتمد يانصيب الحكومة .
الذى كان قد تقرر فى ١٥٦٩ وعمر حتى ١٨٢٦ . وكانت تذاكر اليانصيب .
تباع للجمهور بكل وسيلة من وسائل الترويج ، واشتد الانفعال والتحمس
لها الى حد أغرى الخدم بسرقة سادتهم ، والكتابة بسرقة أرباب عملهم ،
طمعاً فى نصيب من الغنيمة (٥٨) .

ولعل السكر كان أكثر انتشاراً من القمار . وكانت الجعة بنوعيتها
(البيرة والمزر ale) هى الشراب الوطنى . وكان الرجل اللندنى
يستهلك مائة جالون منها فى السنة ، أو ربع جالون فى اليوم ،
باعتبارها أسلم وألطف مذاقاً من الماء . وخلق المناخ الرطب طلباً على
الروم ، والبنش ، والبرندى ، والجن ، والكوردبال ، والوسكى ،
وكان النبيذ دواء مفضلاً . وانتشرت الحانات ومخازن الخمر فى كل
مكان ، وكان ١٣٥٠ بيتاً من بين ٧٠٦٦ فى أبرشية هوبورن تباع
الخمر . وأغضى ملاك الأراضى - والبرلمان اذن - عن تجارة الوسكى ،
لأنها فتحت سوقاً اضافية لشعيرهم وقمحهم (٥٩) ، وكان ثلث الأرض
المنزعة فى انجلترا تقريباً يزرع شعيراً . وأخذ الوسكى يحل عند عذبة
القوم محل النبيذ لأن الحروب المتكررة مع فرنسا عاقت التجارة مع بوردو
وأوبورتو ، وأدخل الهولنديون والالمان الى البلاد تفضيل الخمر
القوية . وهنا ، كما فى القمار ، ضربت الحكومة المثل للشعب . فقد
روى عن هارلى ، رئيس وزراء المملكة آن ، انه كان يمثل بين يدى الملكة
مخموراً . وكان بولنبروك يسهر أحياناً الليل كله وهو يحتسى الخمر ،
أما روبرت ولبول فقد علمه السكر أبوه ، الذى عقد النية على الا يراه
مخموراً ابن له صاح (٦٠) .

وأزعج الحكومة ولع الجماهير بشراب الجن . فقد زادت الخمر
المقطرة فى بريطانيا من ٥٢٧٠٠٠ جالون فى ١٦٨٤ الى
٥٠٠٠٠٠ ٣٩٤ فى ١٧٣٥ ، دون ارتفاع مقابل فى عدد السكان ؛ لا بل
ان الأطباء أئذروا الحكومة بان شرب الجن قد زاد معدل الوفيات
بمرعة فى لندن ؛ وعزت هيئة المحلفين الكبرى فى مدلسكس الكثير من
فقر العاصمة وجرائمها الى ذلك المسكر . وعلق باعة الجن بالتجزئة
لافئات تعهدوا فيها لزيائهم بان يسكروهم نظير بنس ، وعرضوا عليهم
النوم على حصر من القش مجاناً فى قبو المؤونة .

وحاول الحكام المرتاعون حظر شرب الجن بفرض الضرائب .
 ففرض قانون أصدره البرلمان في ١٧٣٦ رسماً على الجن قدره
 عشرون شلناً للجالون ، واشترط دفع خمسين جنيهاً في العام نظير
 الترخيص ببيعه . وقام الفقراء الظالمون باضطرابات عنيفة . وأفضى
 الحظر ، كما تنبأ ولبول ، الى تهريبه وتقطيره خفية والانجاس به
 سرا . وارتفع عدد دكاكين بيع الجن الى سبعة عشر ألفاً ، وعدد
 الجالونات المقطرة الى نيف وسبعة ملايين ، واستشرت الجريمة .
 فتخلت الحكومة عن التجربة ، وخفض رسم الرخصة الى عشرين
 جنيهاً ، والضريبة الى بنس للجالون ؛ واعتبلاً التسعير وراح يشرب
 ما شاء . وفي ١٧٥١ أفضت سلسلة من التدابير المعتدلة الذكية (كجعل
 الديون الصغيرة لتجار الخمر غير قابلة للإلغاء أمام القضاء) الى
 تحسين خفيف (٦١) . وأثار الفيلسوف باركلي الموقف ببنديده بالطبقات
 العليا لما ضربوا لجماهير الشعب من مثل سيء ، وبانذاره اياهم بأن
 « أمة تشتعل عند طرفيها لا بد أن تحترق سريعاً (٦٢) » .

بذلك كان المسنوي الخلقى : حطاً في ميدان المال والأعمال ،
 فجنى بعضهم أموالاً طائلة من التهريب ، والقرصنة ، واقتناص العبيد
 أو بيعهم . وشكا الناس من تلوث مياه التيمز بالأقذار والنفايات
 التجارية والبشرية ، ومن غش النبيذ بعصير التفاح وأرواح الحبوب ،
 ومن خلط الخبز بالشبّ والجير ، ومن تنضير بشرة اللحوم الكبيرة
 السن بالكيمياء والخطرة على الصحة والحياة . فلما بذلت محاولات
 للحد من هذه الأعمال تصايح أبطال التجارة مطالبين بالحرية وبحق
 « كل انسان . . في العيش على طريقته دون قيد (٦٣) » .

وتدخلت الحكومة في الحريات ، ولكن تدخلها كان أكثره لاكره
 الرجال على الخدمات العسكرية . فلما أخفقت مختلف المرغبات المالية
 في تزويد البحرية بالرجال ، جردت الدولة (من ١٧٤٤ فصاعداً)
 « كتائب تجنيد » لاقتناص الرجال أو تخديرهم ، أو لاقناعهم
 بالانخراط في سفن صاحب الجلالة . وكان أيسر هذه الوسائل أسكار
 الضحية ، إذ كان في الأماكن وهو على هذه الحال أن يحمل على النزول

عن سنة أو أكثر من حياته . ذكر الأميرال فيرنون (١٧٤٦) أن هؤلاء الرجال ، بعد أن يؤتى بهم الى السفينة ، كانوا فى الواقع محكوما عليهم بالموت ، اذ لا يسمح لهم بتاتا بان تطأ أقدامهم البرّ ثانية ، ولكنهم ينقلون من سفينة الى أخرى . . دون أى اعتبار للمشاق التى يتكبدونها (٦٤) .

ويقول صموئيل جونسون « لا يرضي رجل بان يكون بحارا اذا كان له من الحيلة ما يكفى لأن يدخل نفسه السجن . . فالسجين يحظى بمكان وطعام أحسن وبرفقة أفضل عادة (٦٥) » . وكان أكثر البحارة الذين يجندون كرها ضعاف الاجسام والعقول ، ولكن النظام الصارم والانتقاء القاسي بامتحان النار والجلد (كما هو موصوف ومبالغ فيه بلا شك فى قصة سموليت « رودريك راندوم ») جعل الباقين منهم على قيد الحياة أصعب المقاتلين فى البحر مراسا وأشدهم اعتدادا بانفسهم .

وكانت القرصنة لا تزال تلقى الاغضاء عنها بوصفها ضربا من التجارة ، ولكنها أخذت تضمحل بازدياد قوة البحرية . أما تجارة العبيد فقد زكت ، وتنافست السفن الانجليزية والفرنسية والهولندية والبرتغالية على امتياز بيع الزوج الأفريقيين للمسيحيين الأمريكين . ويمقتضي معاهدة أوترخت (١٧١٣) نقلت أسبانيا عقد « الأزينتو » ، الذى تمد بمقتضاه المستعمرات الاسبانية سنويا بـ ٤٨٠٠٠ عبد ، من فرنسا الى إنجلترا . ومن بين ٧٤٠٠٠٠ عبد نقلوا الى أمريكا فى سنة واحدة (١٧٩٠) نقل الفرنسيون ٢٠٠٠٠٠ ، والهولنديون ٤٠٠٠٠ ، والدنمركيون ٢٠٠٠٠ ، والبرتغاليون ١٠٠٠٠٠ ، والبريطانيون ٣٨٠٠٠٠ - وهو أكثر من نصف المجموع (٦٦) . يقول مصدر انجليزى وثيق « ان الانجليز وحدهم ، على أقل تقدير ، حملوا أكثر من مليونى زنجى الى أمريكا فى الفترة بين ١٦٨٠ و ١٧٨٦ (٦٧) » . واقتنت بعض الأسر الانجليزية عبيدا من الزوج للخدمة فى البيوت . واشتملت الصحف على وعود بدفع مكافآت لمن يعيد العبيد الأبقين ، وعرض اعلان « صبيا زنجيا يناهز الثانية عشرة . . للبيع (٦٨) » ، وكان العبيد يباعون فى باريس حتى سنة ١٧٦٢ ، وحتى البابوات كانوا يقتنون عبيدا من سفن تشغيل العبيد التركية من القرن السادس عشر الى الثامن عشر (٦٩) . وفى ١٧٢٧ بدأ الكويكرز حركة لانهاة مشاركة بريطانيا فى تجارة العبيد . وناصرهم ستيل وبوب ، ودعم المثوديون هذه الحرب

الدينية ، ولكن الحملة لالغاء الرق لم تتقدم تقدما يذكر قبل ١٧٧٢ .

كانت الاخلاق فى دنيا السياسة تعكس انتصار النزعة التجارية المتحجرة . فلم يكد عمل ينجز دون رسوة ولكل موظف تقريبا ثمنه ، والمناصب تباع ، والأصوات فى البرلمان تشتري كالسلع سواء بسواء . وقد باع أعضاء البرلمان امتياز اعفاء رسائلهم من أجرة البريد ، وباع كبار النبلاء المناصب فى بيوتهم (٧٠) ، و « وضعوا العراقيل أمام محاولات الحد من شراء الترشيحات للبرلمان ، أو شراء أعضاء مجلس العموم (٧١) » . وأرسلت الدوائر الانتخابية الفاسدة أو العفنة rotten boroughs التى لا يسكنها غير حفنة من الأهالى الى البرلمان عددا من الممثلين بعدل العدد الذى أرسلته أقاليم تزخر بالسكان والصناعة وأرسلت « أولد سارم » التى لا يسكنها انسان واحد ، ممثلين لها ، وكانت أمثال هذه الدوائر يتحكم فيها بسهولة ذوو الحسب أو المال . وكان رجال الأعمال ، توسلا لنفوذ سياسي مكافئ لسلطانهم الاقتصادى ، يشتررون الترشيحات أو المرشحين للبرلمان بنحو ١٥٠٠ جنيه للمرشح (٧٢) . ويمكن القول على الجملة بأن نصف القرن الذى نحن بصدده كان أقسى العهود فى التاريخ الانجليزى ، ومن العسير على المؤرخ أن يفسر كيف استطاعت بريطانيا أن تنهض من فساد ذلك العصر - حتى بلغت ذلك الصيت الذائع بأمانة رجال أعمالها ونزاهة حكومتها .

على أنه كان هناك الكثير من لمسات العاطفة الرحيمة يتخلل انحطاط الاخلاق والسياسة . فهناك ملاجىء - وان كانت سيئة الادارة - للشيوخ والعجزة والفقراء ؛ وهناك طوائف حرفية كان المعلمون فيها آباء رحماء على صبيانهم ؛ وهناك أسر تؤوى الأيتام وتربيتهم ؛ وهناك جمعيات - تسمى « أندية الصندوق » - للمعونة المتبادلة فى أيام العسرة . وضربت انجلترا مثلا رائعا - هو الأول فى التاريخ الحديث - للبر الدولى حين اكتتبت بمائة ألف جنيه للبرتغال ، حلقتها الاقتصادية لاغاثة منكوبى زلزال لشبونة الذى وقع فى ١٧٥٥ (٧٣) ، وقد فتح فى الفترة بين ١٧٠٠ و ١٨٢٥ مائة وأربعة وخمسون مستشفى ومستوصف جدد فى بريطانيا ، منها أربعة فى لندن فى جيل واحد

(١٧٠٠ - ٤٥) . وكان أكثر هذه المؤسسات تموله التبرعات الخاصة .
 وخير ما أسس منها فى النصف الاول من القرن الثامن عشر مستشفى
 اللقطاء الذى نظمه الكبتن توماس كورام ، وقد صور هوجارث هذا
 الكبتن عام ١٧٤٠ صورة أهداها الى المستشفى ، رجلا ممتلىء البدن ،
 أبيض الشعر ، لطيفا ، يمسك بيمناه الرسوم الملكى ، وعند قدميه كرة
 أرضية ، ذلك أن كورام جمع ثروته ضابطا فى البحرية التجارية . فلما
 تقاعد هاله ارتفاع نسبة وفيات الأطفال فى لندن ، وكثرة الأطفال الذين
 يلقون فى العراء أو تهجرهم أمهاتهم دون مال للعناية بهم أو اسم
 أب يطلق عليهم ، وأقنع كورام بعض نساء الطبقة العليا بتوقيع ملتمس
 بإنشاء مستشفى للقططاء ، وحصل من جورج الثانى على مرسوم والفى
 جنيه ، ولقى النداء الذى ناشد فيه الناس التبرع للمستشفى سخاء غير
 متوقع ، وتبرع هندل العظيم بأرغن وبموسيقى لحنه « المسىء »
 التى عظمت قيمتها الآن ، وأدار حفلات موسيقية غلت عشرة آلاف
 جنيه . وفى ١٧٣٩ مهد للأوصياء الى تيودور جاكوبسن بتصميم مجموعة
 فسيحة من المباني والملاعب أصبحت من أروع مشاهد لندن .

٥ - الجريمة والعقاب

كان أهل انجلترا فى القرن الثامن عشر سلالة صلبة تمرست
 بالمشاق والفت العنف ، سلالة قادرة على مغالبة كل صععب عسير
 الا الموت . ومن الأمثلة على هذه الصفات أن عريفين اقتتلا بغير سلاح
 حتى مات كلاهما ؛ وأن رقيبين تبارزا حتى أصيب كلاهما بجراح
 مميتة ؛ وأن جنديا استأذن فى الزواج من احدى مومسات الجيش فعوقب
 بمائة جلدة . ثم مثل فى الغد وظهره كله مئخن بالجراح أمام الضابط
 نفسه وأعاد الطلب ، فأجيب اليه هذه المرة . وفاخر قارع طبل بأنه
 جلد ٢٦٠٠٠ جلدة فى الاعوام الاربعة عشر التى خدم فيها الجيش ،
 ثم جلد أربعة آلاف اخرى فى عام واحد (١٧٢٧) وأفاق منها وهو
 مبهتج . وقيل فى وصف حالته بعد قليل انه « صحيح معافى ، لا يكدره
 مكدر على الاطلاق (٧٤) » .

وكانت العقوبات الوحشية التى وقعت علنا مشجعا على انتشار

الوحشية بين الشعب . مثال ذلك أن قانونا ألغى فى ١٧٩٠ كان يقضى على المرأة التى تدان بخيانة وطنها أو يقتل زوجها بالحرق حية ، ولكن العرف كان يبيح خنقها قبل أن تحرق (٧٥) . أما الرجال المدانون بخيانة الوطن فيجذبون من على المشنقة وهم بعد أحياء ، وتخرج أمعاؤهم وتحرق أمام أعينهم ، ثم تفصل رؤوسهم ويقطعون أرباعا . وعلقت المشانق فى كل أحياء لندن ، وكانت الاجساد تترك على كثير منها لتتغذى عليها الطير . وقد يظل الرجل مشنوقا نصف ساعة قبل أن يموت . على أنه كان من المألوف أن تخدر بالبرندى حواس المحكوم بإعدامه ، واذا كان الجلاد عطوفا شد ساقيه المتدليتين ليحبل بموته .

وأضفت قسوة المتفرجين والمجرمين على مناظر الشنق طابع المهرجان ، فالناس يصطفون على جانبي الطريق ليشهدوا المحكوم عليهم يركبون العربات الى تيبيرن ، وتبيع الاكشاك والباعة المتجولون الجبن والخبز المخلوط بالزنجبيل والجوز والتفاح للجمهور المحتشد ؛ وينشد المغنون الجوالون الاغاني الشعبية دون أن يجيدوا اجادة الكبتن مكبث فى « أوبرا الشحاذ » . وكانت الجماهير ، التى لم تتحمس قط للقوانين أو الشرطة ، ترفع الى مقام البطولة المجرمين الذين حالفهم التوفيق فى مغامراتهم ، أو الذين حين أمسكوا واجهوا المحاكمة والموت بالازدراء أو الابتسامات . فجاك شبرد ، و « روب روى » (وهو روبرت ما كجريجور) ، ودك تيرين ، وجوناثان وايلد - هؤلاء كلهم ترعرعوا وازدهروا فى هذه الفترة . أما جاك فقد وشى به جوناثان وايلد للشرطة بعد أن كان يمارس السرقة فى لندن أو قريبا كل يوم تقريبا ، ففر ، وقبض عليه من جديد ، ثم فر ثانية ، وقبض عليه وهو يعاقر الخمر ، وشنق وهو بعد فى الثانية والعشرين على مرأى جمهور من آلاف مؤلفه يتوقعون منه أن يهرب حتى وحبل المشنقة يطوق عنقه . وقد روى ديفو واينزورث قصته فى روايات عادت عليهما بالريح ، ورسم السير جيمس ثورنهل صورته . أما تيرين فوزع النقود على المشيعين ليسيروا خلف عربته الى المشنقة فى موكب مهيب ، ولكن ما أذاع صيته هو الرواية الخيالية التى كتبها اينزورث عن رحلة دك تيرين الشديدة الخطر على جواده من لندن الى يورك . كذلك خلد كتاب فيلدنج « حياة مستر جوناثان وايلد العظيم » ذكرى هذا الوغد على مر القرون . ومعظم

ذلك الهجو الشديد مكتوب على صورة قصص خيالية ، ولكن الخيال هنا ليس أطرف من الواقع . فقد كان لجوناثان وجهان مثل جانوس ، ينظم اللصوص ويدير شئونهم ويستغلهم ، ويشترى بضائعهم المسروقة بالثمن الذى يفرضه ، ثم يشي بهم للقضاء اذا تمرد عليه شركاؤه . وفتح فى الوقت ذاته مكتبا لطيفا يستقبل فيه ضحايا السرقات ، وكان يعدهم لقاء مكافأة كبيرة بأن يرد لهم بضائعهم أو مالهم ، ومن حصيلة هذا كله يحتفظ بعدة خليات ويعيش فى ترف قرابة خمسة عشر عاما . ولكن ثراهه فاق حكمته ، فقبض عليه بتهمة الاتجار فى بضائع مسروقة ، وشنق ، فابتهج جمهور غفير بشنقه (١٧٢٥) . وربما كان هو المثال الذى نسج على منواله مستر بيتشم فى « أوبرا الشحاذ » .

وساد العبت بالقانون المجتمع كله علوا وسفلا ، من النشال المهذب الى التاجر المهرب الى المبارز حامل لقب النبالة . وكان هناك مؤسسات المبارزات ، جرى بعضها على قارعة الطريق ، وبعضها فى هايد بارك أو حدائق كنزنجتن ، ولكن أكثرها فى « حقل الأربعين خطوة » خلف قصر مونتايجو (المتحف البريطانى الآن) . وندر أن كانت المبارزات قتالة ، لأن المسدسات كانت رديئة الصنع ، وقل من الرجال من استطاع تصويبها بدقة على ثلاثين خطوة ، وأغلب الظن أن كثيرا من المقاتلين حرصوا على اطلاقها فوق رأس الغريم ؛ على أية حال كان الصلح يتم عادة بعد أول جرح . وكانت المبارزات غير مشروعة ، ولكن يغضى عنها بحجة أنها تشجع على التأدب فى الحديث . وندر أن اعتقل مبرز إلا فى الاصابات المميتة ، وإذا استطاع الخصم الحى أن يثبت أنه اتبع قواعد اللعبة كان يفرج عنه بعد قضائه فترة قصيرة فى السجن .

وفى سنة ١٧٥١ نشر فيلدنج ، وكان يومها قاضيا ، « تحقيقا فى أسباب الزيادة الاخيرة فى عدد اللصوص ، الخ ، مشفوعا ببعض المقترحات لعلاج هذا الشر المتفاقم » . ولم يعز الزيادة فى أكثرها الى الفقر بل الى ظهور « الترف » بين الطبقات الدنيا ؛ فعامة الشعب لديهم الآن من المال ما يتيح لهم ارتياد الحانات ، وحدائق اللهو ، والمسارح ، والمراقص التنكرية ، والأوبرات ، وهناك يلتقون بأشخاص خبروا الفجور وحذقوا

الجريمة . أما السبب الثانى فى رأى الروائى العظيم فهو الزيادة فى استهلاك الجن . يقول :

« ان شراب الجن هو القوت الرئيسي (ان جاز لنا ان نسميه كذلك) لاكثر من مائة ألف شخص فى هذه العاصمة . وكثير من هؤلاء التعساء يترعون عدة أكواب من هذا السم خلال أربع وعشرين ساعة ، ومن سوء حظى أننى أرى وأشم أيضا كل يوم ما يخلفه هذا من آثار رهيبة (٧٦) » .

وأما السبب الثالث فهو القمار ، والرابع قصور القانون ، فقد ترك مهمة القبض على المجرمين لحراس أو خفراء :

« يختارون من بين أناس فقراء ، شيوخ ، عجزة ... يطلب اليهم وهم لا يحملون من السلاح غير عمود لا يكاد يقوى بعضهم على رفعه ، ان يؤمنوا أشخاص رعايا صاحب الجلالة وبيوتهم من هجمات عصابات أوغاد صغار السن ، شجعان ، أشداء ، مستهترين ، مدججين بالسلاح (٧٧) » .

وحتى اذا لم يهرب الحارس عنف اللصوص ، فان فى الامكان رشوته ، وكذلك الضابط الذى يرفع اليه بلاغاته ، وكذلك القاضي الذى ياتيه الضابط بمجرم . وكانت واجبات الشرطة فى لندن موكولة الى ١٠٠٠ ضابط ، و ٤٧٤ معاونا ، و ٧٤٧ حارسا . وبين القبض والادانة قام ٢٢١٤ محاميا بلندن بعضهم ذوو ثقافة قانونية ونزاهة معقولة ، وبعضهم لم يبلغوا هذا المبلغ تماما . قال الدكتور جونسن فى رجل برج الغرفة لتوه ، انه « لا يحب ان يغتاب انسانا ، ولكنه يعتقد ان الرجل محام (٧٨) » .

ولم يوافق فيلدنج على رأى كوك الذى ذهب الى ان « حكمة جميع الحكماء فى العالم ، لو اجتمعوا معا فى وقت واحد ، ما كانت لتعدل » فضائل الدستور الانجليزى . ولعله كان يسلم بان ذلك الدستور

كما لاحظ فولتير ومونتسكيو قبيل ذلك ، دبر بطريقة تدعو الى الاعجاب حماية الفرد وممتلكاته من طغيان أى ملك ، ولعله كان يثنى على « الهابياس كوريس » ، ومحاكمة المتهمين على يد محلفين ، وعلى مدارس الحقوق العظيمة فى جميعات لندن القانونية . ولم يكن بالامر الهين حقا ان يحرم اعتقال أى شخص انجليزى دون اذن قانونى ، أو سجنه دون محاكمة ، أو عقابه دون ادانة من محلفين من نظرائه ، والا تفرض عليه ضرائب دون موافقة البرلمان ، وأن يكون فى استطاعته أن يجتمع مع زملائه شريطة ألا يخل بالنظام ، وأن من حقه أن يقول ما يشاء ، الا أن يكون ذلك تحريضا ، أو قذفا ، أو فحشا ، أو تجديفا . ولكن مشرعى انجلترا كانوا من الحرص الشديد على حماية الفرد من الدولة بحيث اخفقوا فى حماية المجتمع من الفرد . لذلك كان جهاز تنفيذ القانون ينهار أمام تفشي الجريمة وتنظيمها .

وكان يقوم على تنفيذ القانون العام قضاة صلح ، يمكن أن تستأنف قراراتهم أمام قضاة يقضون فى وستمنستر أو يسافرون ستة أشهر فى السنة ليعقدوا جلسات دورية فى مدن المقاطعات . وكان هؤلاء القضاة يتمتعون بمناصب مدى الحياة ، ويبدون مستوى معقولا من النزاهة . وبقيت المحاكم الكنسية على قيد الحياة وان اقتصر على نظر القضايا غير الجنائية التى يهتم فيها الكهنة فقط ، أو الفصل فى صحة الزيجات ، أو تنفيذ الوصايا . وكان لمحكمة الأيرالية اختصاص على القضايا البحرية دون غيرها . وفوق هذه المحاكم كانت تقوم المحكمة العليا التى يرأسها قاضي القضاة . أما المحكمة العليا للبلاد فهى البرلمان ذاته ، يحاكم مجلس العموم عامة الناس ومجلس اللوردات النبلاء . وكانت المساواة أمام القانون لا تزال ناقصة ، لأن النبلاء كانوا عادة ينجون من العقاب . فقد أعدم ايرل فررز الرابع عام ١٧٦٠ لقتله وكيله ، ولكن حين حوكت دوقية كنجزتن أمام مجلس اللوردات فى ١٧٧٦ وأدين بتهمة الزواج برجلين فى وقت واحد ، أطلق سراحها دون عقاب سوى تغريمها الرسوم . وظلت اللاتينية لغة المحاكم حتى سنة ١٧٣٠ حين حلت الانجليزية محلها ، الامر الذى تالم له بلاكستن أشد الألم .

وفى محاكمات الجنائيات الكبرى (ومعظم الجنائيات كانت كبرى)

كان يسمح للمتهم بان يوكل محاميا اذا كان ميسور الحال ، وللمحامى أن يستجوب شهود الادعاء ، ولكن لم يكن مسموحا له أن يوجه خطابه الى المحكمة ، فهذا متروك للسجين ، الذى كثيرا ما كان ضعف بدنه أو عقله يعجزه عن تقديم دفاعه . فاذا برىء رد الى السجن حتى يدفع كل « البقاشيش » التى يفرضها عليه الحراس لقاء خدماتهم ، وقبل أن يلغى هذا النظام فى ١٧٧٤ كانت هناك عدة حالات لرجال ماتوا فى السجن بعد أن برئت ساحتهم . أما اذا أدين السجين فانه يواجه قانون عقوبات من أقسى ما عرف فى تاريخ القضاء .

لقد كان هذا القانون يفضل ما سبقه ، كما يفضل الاجراءات المتبعة فى القارة الاوربية ، بتحريمه التعذيب والعقاب على الدولاب ، ولم يعد يجدد الانوف أو يصلم الاذان . ولكن فيما عدا ذلك كان يتسم بكل الوحشية التى كان الانجليز الشديديو المراس يرونها ضرورية للسيطرة على جموح الانسان الفطرى . فاذا كانت العقوبة هى الجلد فى ذيل عربة تجر فى الشوارع ، كان منفذها أحيانا يتلقى مبلغا اضافيا ، يجمع من المتفرجين ، لكى يضاعف من شدة ضربات سوطه (٧٩) . وكان السجين الذى يرفض الاجابة فى تهمة كبرى يطرح بحكم القانون على ظهره عاريا فى حجرة مظلمة ، وتوضع اثقال من الحجر أو الحديد على صدره الى أن يعصر عصرا أو تزهق روحه (٨٠) ، على أن هذا القانون لم ينفذ بعد ١٧٢١ ، ثم ألغى فى ١٧٧٢ .

وطوال القرن الثامن عشر أضافت قوانين أصدرها البرلمان الى عدد الجرائم التى يعاقب عليها القانون بالموت ، وفى ١٦٨٩ كان عددها خمسين ، وفى ١٨٢٠ ارتفع الى ١٦٠ . فالقتل ، والخيانة ، والتزيف ، وحرق الممتلكات عمدا ، وهتك العرض ، واللواط ، والقرصنة ، والتهريب المسلح ، والتزوير ، وتدمير السفن أو اشعال النار فيها ، والتفليس بالتدليس ، وقطع الطريق ، والسطو على المنازل ، وسرقة أكثر من أربعين شلنا ، وسرقة سلع من المتاجر تزيد قيمتها على خمسة شلنات ، وتشويه الماشية أو سرقتها ، واطلاق النار على موظف الضرائب ، وقطع الاشجار فى شارع أو متنزه ، واحراق غيط غلال ، وارسال خطابات التهديد ، واخفاء موت زوج أو طفل ، والاشترار فى

حدث شغب ، واطلاق النار على الأرانب ، وهدم بوابة طريق رئيسية والفرار من السجن ، وتدنيس المقدسات - هذه كلها ، وعشرات غيرها ، كانت تعد جرائم كبرى أيام جورج الأول والثاني والثالث . وقد عكست هذه القوانين تصميم البرلمان على حماية الملكية . وربما كانت الى حد ما النتيجة - والسبب - لما شاع بين الناس من تمرد على القانون ووحشية ولعلها أعانت على تكوين ما يتصف به الشعب البريطاني اليوم من عادات التزام القانون . وخفف من صرامة القانون رفض القضاة او المحلفين غير مرة أن يدينوا المتهمين ، أو ابطال الاتهام لخطأ فنى ، أو تحديد قيمة سلعة مسروقة تحديدا تعسفا بأقل من المبلغ الذى يجعل السرقة جنائية كبرى . وفى وقت الحرب قد يصدر عفو عن المذنبين شريطة أن ينخرطوا فى الجيش أو البحرية .

أما عقاب الجرائم الأقل خطرا فكان السجن ، أو المشهرة ، أو الجند ، أو الأشغال الشاقة فى الاصلاحيات ، أو النفى الى المستعمرات . وقضى قانون صادر فى ١٧١٨ ببيع المسجونين المحكوم عليهم الى متعهد يشحنهم بالمرائب على نفقته الى ميريلاند و فرجينيا عموما ، ويبيعهم بالمزاد عادة « الى زراع التبغ نظير قضائهم المدة المحكوم بها عليهم » وأسفر سوء حال السجناء وهم فى الطريق عن نسبة عالية من الوفيات ، وعن انهالك الباقين منهم انهاكا يعجزهم عن العمل حيناً . وقدر أحد مؤلاء المتعهدين بأنه يخسر سبع شحنته البشرية فى الرحلة المتوسطة (٨١) . ولم يقض على هذه التجارة غير حرب الاستقلال الامريكية .

وكثيرا ما كان ترحيل المذنب يفضل على سجنه ، لان السجون كانت سيئة السمعة بسبب قسوتها وقذارتها . فقد كان السجن الجديد يكبل بمجرد دخوله بالاغلال التى تتفاوت ثقلا بتفاوت ما يدفعه للحارس . أما فراشه فمن القش . وأما طعامه فرطل من الخبز فى اليوم ، الا اذا استطاع استكماله بالهدايا من الخارج . واذا استثنينا سجن نيوجيت ، وجدنا أنه لم تبذل محاولات تذكر لتنظيف السجون . فكانت الأوساخ والجراثيم تتراكم فيها فتعدى كل سجين تقريبا بما سمي « لحمى السجن » - وهى فى الغالب التيفوس أو الجدرى . وذهب جونسن الى أن ٢٥% من السجناء كانوا يموتون بـ « حميات عفنة » . وبلغ نتن العفونة والمرضى مبلغا كان يحمل القضاة

والمحلفين والشهود والمتفرجين على أن ينشقوا مرارا نشقات من الكافور أو الخل أو الاعشاب العطرية لتغلب على الرائحة الخبيثة . وفى مايو ١٧٥٠ جىء بمائة سجين من نيوجيت ليحاكموا فى «. للأولاد ببلى» وهى محكمة جنائيات لندن الكبرى . وبلغ من خبث الحمى التى أفسوها أن أربعة قضاة من الستة الذين نظروا القضية ماتوا ، ومات من المحلفين وصغار الموظفين أربعون ، وأمرت المحكمة بعد هذا الدرس بأن يغسل جميع السجناء القادمين للمحاكمة بالخل ، وأن توضع اعشاب زكية الرائحة فى قفص المتهمين (٨٢) .

وكان الرجل الذى يقاضى بسبب الدين ، ويدان ، ويعجز عن الوفاء بدينه أو لا يرغب فى الرفاء به ، يودع مثل هذا السجن حتى يوفى الدين أو حتى يسحب دأئنه الدعوى . وكان الدائن ملزما بحكم القانون بدفع أربعة بنسات فى اليوم مساهمة فى اعاشة سجينه ، ولكنه اذا لم يفعل لم يكن أمام المدين سبيل الا مقاضاته - وهذا يكلفه مالا . على أنه اذا استطاع الحصول على نقود من خارج السجن كان فى امكانه رشوة الحارس وغيره ليسمحوا له بالتمتع بفراش وطعام أفضل ، وبحريات أرحب ، وبالاتناس بزوجته ، لا بل بقضاء اجازة فى المدينة بين الحين والحين . أما المدين المفلس فقد يموت جوعا موتا بطيئا من ضالة جرائته من الخبز اذا عجز عن شراء الطعام . وقد قدر صموئيل جونسن أن خمسة آلاف سجين من كل عشرين ألف مفلس يسجنون فى السنة فى المتوسط ، يموتون من الحرمان (٨٣) . وهكذا لم تجد انجلترا وسيلة أكثر رفقا لحماية طبقة رجال الأعمال الصاعدة من الاقتراض المستهتر أو الافلاس بالتدليس .

وارتفعت بعض الاحتجاجات الخفيفة على صرامة قانون العقوبات . ولاحظ جونسن ، الذى لم يكن بالرجل العاطفى ، فى ١٧٥١ خطر اعتبار هذا العدد الغفير من الجرائم جرائم كبرى فقال : « ان تسوية السرقة بالقتل . . . معناها التحريض على اقتراض جريمة أكبر منعا لاكتشاف جريمة أحقر (٨٤) » . وظهرت أقوى الانتقادات لادارة السجون فى روايات فيلدنج وسموليت وفى رسوم هوجارت . وقد لطف من قسوة هذا النظام تلطيفا متواضعا جيمس أوجلثورب ، الذى تكشف حياته العملية المنوعة النشيطة عن الجانب الانبل لجون بول . وفى ١٧١٤ ترك الكتيبة وهو

فى الثامنة عشرة لينخرط فى جيش يوجين أمير سافوى ، وقاتل فى عدة معارك ضد الترك . فلما عاد الى انجلترا انتخب عضوا فى البرلمان . واذ كان له صديق سجن بسبب الدين ومات فى سجنه بالجدرى الذى أصابه فيه ، فقد أقنع مجلس العموم بتعيين لجنة - عين على رأسها - للتحقيق فى أحوال سجون لندن . وأفزع القذر والمرض والفساد والظلم الذى أماط التحقيق اللثام عنه ضمير انجلترا لحظة . فرفت بعض الحراس الذين وجه اليهم أكثر اللوم ، وخففت بعض اللوائح الجديدة من المفاسد القديمة ، ولكن معظم المساوىء بقى على حاله ، وكان على الاصلاح الحقيقى للسجون أن ينتظر مجيء جون هوارد . والربع الأخير من القرن الثامن عشر . واتجه أوغلثورب الى الهجرة وسيلة لتخفيف وطأة الفقر فى انجلترا . ففى ١٧٣٣ أسس مستعمرة جورجيا ، وعمل فترة واليا عليها ، فحظر استيراد العبيد ، ورحب بالمورافيين ، وجون ويسلى ، والملاجهين البروتستنت من النمسا . ولما عاد الى انجلترا والبرلمان ، حصل على قانون يعفى المورافيين الانجليز من حلف اليمين أو حمل السلاح . واصبح الصديق الحميم لجونسون ، وجولدسمث ، وبيرك ، وعمر الى التاسعة والثمانين . وتوج الشاعر بؤب هامته ببيتين قال فيهما « ان انسانا يدفعه حب الخير الشديد سيطير مثل أوغلثورب من قطب الى قطب (٨٥) » .

٦ - آداب السلوك

ظل الرجال الذين يتنزهون فى الحدائق العامة أو فى بل مل - كما كانوا أيام اليزابيث أو عودة الملكية - هم الجنس الأفخم هنادما . يرتدون - فى غير العمل أو البيت - قبعات مثلثة الأركان ممالة ، تزهو غالبا بالشراريب أو الأشرطة أو العقد ، ويعقصون غدائرهم بـ «فيونكات» جميلة خلف العنق ، أو يغطون رؤوسهم بباروكة مبدرة . وكانت ستراتهم الجميلة التى تحدث حفيقا حول ركبهم تزهو بأزرار قصد بها أن تبهر الناظر أكثر مما تربط السترة ، وكانت الأكمام المصنوعة من القماش المقصب . الفاخر تعلن عن ثراء لابسها أو طبقته . واجتذبت صداريهم المزوقة الانظار بالوانها الفاقعة - الصفراء أو البرتقالية أو القرمزية أو القرنفلية أو الزرقاء - وتدلّت منها دلالية ساعة من الذهب على سلسلة ذهبية .

وكانت قمصانهم المصنوعة من الكتان الرفيع تغطى حواشيها بأهداب تخفى ملابس داخلية من الفانلا ، وكانوا يطوقون أعناقهم فى تانق بالاربطة (الكرافتات) المصنوعة من شاش « اللون » (وهو قماش مستورد من لاون بفرنسا) ، ويثبتون بنطلونات الركوب القصيرة بمشابك عند ركبهم ويثلاثة أزرار فى الخصر ، وثلاثة مخفاة فى لسان يغطيها . أما جواربهم الطويلة فهى عادة حمراء اللون ، ولكنها قد تكون من الحرير الابيض فى المحافل الرسمية . واقتضى الزى فى ١٧٣٠ أن تكون أحذيتهم حمراء عند الاصابع والكعب . على أن فتى العصر كان برغم هذا الجهاز كله يحس أنه عريان اذا لم يتقلد سيفاً . فلما صعدت الطبقات الوسطى فى سلم المجتمع استبدلت بالسيوف العصي التى كانت تتوج عادة بمعدن نفيس وتنقش نقشا بديعا ، ولكن بما أن الشوارب كانت لا تزال محفوفة بالخطر ، فان العصا كثيرا ما احتوت سيفاً . وكانت المظلات قد دخلت الصبورة فى أواخر القرن السابع عشر ، ولكنها لم تعم حتى ختام الثامن عشر . واقتضى الركوب فى الحدائق العامة أو خلال الصيد بالكلاب ارتداء أزياء خاصة طبعا ، وقد حاول الشبان المغالون فى التانق (وكانوا يسمون المكرونى) جاهدين لفت الانظار بالاسراف فى الزينة أو التلون . وفريق آخر سمي « سلوفينز » غالوا فى الظهور بعادات رثة وثياب مهملة ، فنكشوا شعورهم بعناية متمردة وتركوا بنطلوناتهم دون ربطها بالمشابك ، وتباهوا بالوحل على أحذيتهم ، اعلنا لاستقلالهم ودليلا على أصالة التفكير .

أما النساء فكن اذا طلعن على الناس يلبسن كما نتخيلهن فى شبابنا الدهش ، حين كان جسد الانثى سرا غامضا مبهرا عزيز الرؤية . وكانت تنوراتهن الكثيرة الوبر تنفخها عادة أطواق ترفعها فى خفة من خطوة الى خطوة وتكشف كشفا خائفا عن كعوب متلألئة وأقدام رشيقة . وكانت الاطواق التى قد تمتد تسع ياردات حول الجسم سدودا ، والمشدات تروسا ، فتطلببت غزوات الحب كل حماسة الفارس ينفذ الى الدروع ويتسلق الاسوار ، وكان هذا الوضع أحفز لخيال الشعراء . وضاع بعض ما لشعر المرأة من بريق وبهاء فى الطبقات المقواة التى علت فوق رأسها علوا اقتضى حمايتها من أن تحرقها الثريات . وأخفيت وجوه النساء وراء الغسولات والطلاءات ولصوق التجميل والمساحيق والحواجب

المتحركة ؛ وجذدت كل جواهر الشرق لتزين شعورهن وآذانهن ونحوهن وأذرعتهن وثيابهن وأحذيتهن . وكانت المرأة العصرية ، من قبعتها الشامخة وغداثرها المعطرة حتى حذائها الحريري المرصع بالاحجار الكريمة ، تلبس لتطيح بأى تردد من جانب الذكور المحققين بها . وفى عام ١٧٧٠ كانت فنون التبرج قد بلغت من السحر حدا حمل البرلمان فى نوبة مرج على اقرار قانون قصد به حماية الجنس الطائش المتهور :

« كل النساء - أيا كان عمرهن أو مقامهن أو مهنتهن أو طبقتهن ، وسواء كن عذارى أو صبايا و أرامل ، اللاتى يخدعن أو يغوين أو يوقعن فى الزواج - ابتداء من هذا القانون وبعده - أى ذكر من رعايا صاحب الجلالة بالعطور أو الطلاء أو دهانات التجميل أو الاسنان الصناعية أو الشعر المستعار أو الصوف الاسبانى أو الكورسيهات الحديدية أو الأطواق أو الأحذية العالية الكعوب الخ ، يقعن تحت طائلة العقاب بمقتضى القانون الذى يطبق الآن على السحر وما أشبه من جنح ، ويصبح الزواج بمجرد ادانتهم باطلا (٨٦) » .

وحاولت القوانين المنظمة للانفاق جاهدة أن تحد من الغلو فى الانفاق على اللباس ، ولكن العرف قضى على جميع البريطانيين المخلصين بارتداء ثوب جديد فى عيد ميلاد الملكة كارولين ، التى لبست عند تتويجها ثوبا تكلف ٢٤٠٠٠٠٠ جنيه - أكثرها أحجار كريمة مستعارة .

وكان البيت مكانا يستطيع المرء فيه أن يخلق كل ملابس عسير يقتضيه الظهور ، فيرتدى فيه أى شيء أو أقل القليل من الثياب . ولم تكن النوافذ معينة على الفضول لأن عددها خفصه قانون الى خمس ، وفرض على المزيد ضريبة باهتباره ترفا . وكان داخل البيوت مظلما كتما لم يصمم ليساعد على التنفس . اما الاضاءة فبالشموع ، وهى عادة لا تزيد على شمعة فى وقت واحد لكل أسرة ؛ ولكن الأغنياء كانوا ينورون غرفهم بالثريات المتألقة وبالمشاعل الزيتية . وفى قصور الموسرين كانت الجدران تجلد بخشب القرو ، والسلالم تصنع من الخشب الضخم والدرايزينات المتينة ، والمدفات من الرخام الفاخر ، والكراسي تحشى بالشعر ، وتنجد بالجلد . اما الاثاث فمصمم بالطراز

« الجورجى » النقييل ، تنشابك فيه النقوش ويتلالا بالتغشية بالذهب .
 وحوالى ١٧٢٠ أدخل خشب « المجنة » من جزر الهند الغربية ، وكان
 أصلب من أن تنفذ فيه الأدوات المستعملة آنذاك ، فصنعت أدوات أحدّ ،
 وسرعان ما أبدع الخشب الجديد أروع قطع الاثاث فى البيوت
 الانجليزية .

وكانت البيوت ندفا بحرق الفحم فى المواقد و الافران المكشوفة أو
 حرق الخشب فى مدفات واسعة . وكان هواء لندن غائما بالدخان .
 وأصبح تنظيف البيوت مهمة عسيرة ولكن لا مناص منها بسبب ما يتهدهدها
 دائما من غبار وسناج . واعتبر الفرنسيون أعداءهم الانجليز أحفل
 الشعوب بنظافة بيوتهم بعد الهولنديين . كتب نيكولا دوسير فى ١٧٢٦
 بقول :

« لا يمضي اسبوع الا والبيوت المعنى بها تغسل مرتين فى الايام السبعة
 علوا وسفلا ، لا بل تدعك معظم المطابخ والسلالم والمداخل كل صباح .
 وينال الاثاث كله ، خصوصا آنية المطبخ جميعها ، أعظم قدر من النظافة .
 وحتى المطارق الكبيرة والاقفال التى على الابواب تدعك حتى تلمع (٨٧)»

وهذا برغم غلاء الصابون وقلة الماء . أما غرف الاستحمام فكانت ترفا
 لا يستمتع به غير الاقلين ، وكان أكثر الناس يستحمون بالوقوف فى حوض
 ورش الماء على أجسادهم .

وكان العامة ينفقون أكثر ساعات البيت وأوقات الصحو فى المطبخ
 يلودون فيه بالموقد الكبير ، فيأكلون ويتجاذبون الأحاديث وأحيانا ينامون
 فى المطابخ لأنها واسعة جدا . أما حجرات الطعام فللمناسبات الخاصة .
 والغداء عند جميع الطبقات يكون بعد الظهر ، فهو عند الطبقات الوسطى فى
 الساعة الثانية أو الثالثة ، وعند الاغنياء فى الخامسة أو السادسة ، فالحال
 يومها هى الحال اليوم ، كلما كثر مالك طال انتظارك للغداء . وكانت النساء
 فى البيوت العصرية يبرحن القاعة اذا فرغن من الطعام ، لأن الرجال يبدعون
 عندها الشراب والتدخين وشرب الانتخاب وقص الحكايات . وكان الغداء
 والفرا ، ولكنه كان أول ما يتناوله بريطانى المدينة من طعام بعد الفطور
 وتصبيرة فى الحادية عشرة صباحا . وقد أدهش الفرنسيين مقدار الطعام

الذى ياكله الانجليزى فى جلسة واحدة . وكان معظم الطعام فى الطبقتين العليا والوسطى من اللحم ، أما الخضر فزخرف لا يؤبه به ، والبودنج الدسم هو التحلية المفضلة والشاى شراب الجميع وان كان ثمن الرطل منه عشرة شلنات . وكان عشاء التاسعة مساء مسك الختسام لمجزات اليوم .

وكان أكثر الانجليز يلوذون بأمان ببيوتهم فى الليل ، ويتسلون بالحديث والشرب والشجار والقراءة والموسيقى والرقص والشطرنج والداما والبليارد والورق . قالت دوقة ملبره « بربك لا تحدثنى عن الكتب فكل ما أعرف من كتب هم الرجال والورق (٨٨) » . وكان الاساقفة والقساوسة ، وحتى الوعاظ المتزمتون من أتباع المذاهب المنشقة على الانجليكانية ، يلعبون الورق ، وكذلك الفلاسفة ، فنذر أن مضى هيوم الى فراشه دون أن يلعب دورا من الهويست (وهو البردج الآن) . وفى ١٧٤٢ نسق آدموند هويل قوانين الهويست فى « رسالة موجزة » وبعدها وجب أن تلعب اللعبة « وثق قوانين هويل » ، وذلك حتى عام ١٨٦٤ . وكانت الحيوانات البيئية الليفة ضرورة فى الأسرة ، ولا تقتصر على الكلاب والقطط ، بل قد تجد هنا وهناك سناسا أو اثنين (٨٩) . وكل امرأة تقريبا تربي الأزهار ، ولكل بيت تقريبا حديقة .

وجعلت انجلترا من تصميم الحدائق غراما قوميا ، وهى التى أغدقت عليها الطبيعة نعمة المطر حتى ضاقت به . ففى عهد تشارلز الثانى كانت الحدائق الانجليزية تنسج على منوال النماذج الفرنسية - لا سيما فرساي - ، فتصمم الحدائق « النظامية » على خطوط هندسية ، سواء المستقيمة أو المستطيلة أو نصف القطرية أو الدائرية ، وبوفر لها الأفق الجميل والمنظور الرائع (وقد دخلت هذه الألفاظ الثلاثة perspective, vista, picturesque اللغة الانجليزية فى القرن السابع عشر) ، والأشجار ومناهب الشجيرات ، والسيجات المقلمة فى خط منسق ، والتماثيل الكلاسيكية الموزعة توزيعا متناسقا . وكانت حدائق اللهو بفوكسهول ورينلاج نصمم على هذا النحو ، ونستطيع أن نجد عينة من هذا الطراز النظامى اليوم فى هامتن كورت . ومع أن الطراز كان منسجما مع أدب « العصر الاوغسطى » الكلاسيكى الجديد ، فان خير

ممثلى ذلك العصر من الأدباء ، وهما أديسون وبوب ، تمردا على الحديقة النظامية ، وألحا بأدب فى المطالبة بـ « حديقة طبيعية » ، تترك على الأقل جزءا من سخاء الطبيعة وخصبها دون تشذيب أو تهذيب ، وتولد المفاجآت البهيجة باحتفاظها بشذوذات الطبيعة غير المتوقعة . وشاركت التأثيرات الصينية فى هذا التمرد ، فحلت هياكل الباجودا محل التماثيل فى بعض الحدائق ، وبنى دوق كنت فى حدائقه بكيو بيتا لكونفوشيوس . وكامتت الحديقة الطبيعية انعكاسا لطومسن وكولنز العاطفيين أكثر من أديسون المحتشم وبوب المتأنق المرتب ؛ وشاركت هذه الحديقة « شعراء الوجدان » فى سوبرانو « رومانسي » لباص كلاسيكى . واتفق بوب وطومسن فى اطراء الحدائق التى صممت على ضيعة « ستو » التى يملكها رتشرد تمبل ، فىكونت كوبم . وكان تشارلز بردجمان قد بدأها على تصميم نظامى ، فأعاد وليم كنت ولانسلوت « كيباليتى » براون تشكيلها وفق نمط طبيعى ، فأصبحت حديث هواة فلاحه البساتين فى انجلترا وفرنسا ، وظفرت بثناء جان جاك روسو .

ومن وراء الحدائق انسابت النهيرات يجدف فيها ركاب الزوارق ويحلم عندها هواة الصيد الكسالى باقتناص السمك ، والغابات يطلق فيها الرجال رصاصهم على الديوك البرية أو القطا أو الحجل أو الدجاج البرى ، أو يتبع فيها الصيادون ذوو الأردية القرمزية كلابهم ليلحقوا بالثعلب المحاصر فى ركن أو الأرنب البرى المرهق . أما البريطانيون الأقل يسارا فيتسلون بالكريكيت والتنس والفايف (كرة اليد) والبولنج (الكرات الخشبية) وسباق الخيل ، وقتال الديكة ، وتحريش الكلاب بالدببة ، ومباريات الملاكمة – بين النساء أو بين الرجال على السواء . وكان المتكسبون بالملاكمة أمثال فچ وبايبر معبودى كل الطبقات ، يجتذبون الى الحلبة الحشود الكبيرة ، ويتلاكمون – الى عام ١٧٤٣ – بقبضاتهم عارية بغير قفازات ؛ ثم أدخل استعمال قفازات الملاكمة ، ولكن سنين كثيرة انقضت قبل أن يغير المتفرجون رأيهم فيها ، وهى أنها ليست سوى وسيلة مخنثة لا تليق بجون بول . وكان من الملاحى التى أعلن عنها فى لندن فى ١٧٢٩ – ٣٠

« ثور هائج ترشق فيه الصواريخ ويطلق حرا » فى حلبة ، و « كلب ترشق فيه الصواريخ من فوقه ، ودب يطلق فى الوقت ذاته ، وقط يربط الى ذيل الثور (٩٠) » . وفى لعبة سموها « قذف الديوك » كان ديك يربط الى عمود ، ثم يقذف بالعصي من بعيد حتى يموت . وكانت أحب مباريات الديكة الى الشعب تلك التى تطلق فيها مجموعة منها تصل الى ستة عشر ديكا على مجموعة أخرى معادلة حتى يقتل كل الديكة فى أحد الجانبين ، ثم تقسم الديكة المنتصرة الى معسكرين متقاتلين ، يقتتلان حتى يفنى جميع الديكة فى أحدهما ، وهكذا دواليك حتى يموت الجميع الا ديكا واحدا . وكانت الاقاليم والمدن والقرى تحرش ديوكها بعضها ببعض بوطنية رفيعة ، وقد أطرى كاتب لطيف هذه الرياضات باعتبارها معادلا أخلاقيا للحرب (٩١) . وكانت كل الرياضات تقريبا تشفع بالمراهنات .

أما الذين لم ترقهم هذه المناظر فكان فى وسعهم أن يلتصوا التسلية فى فوكسهول أو رينلاج ، وفى حدائقهما الظليلة يستطيعون لقاء شلن أن يستمتعوا بما تستشعره الجماهير من دعة وأمان شريطة أن يحرصوا على جيوبهم ، هناك يستطيعون أن يرقصوا أو يشاركوا فى الحفلات التثكورية ، ويجلسوا تحت أغصان مضاءة بالمصابيح ، أو يرشفوا الشاي ويرقبوا سيدات المجتمع وفتيان العصر ونجوم المسرح العسايرين بهم ، ويتطلعوا الى الصواريخ النارية أو الألعاب البهلوانية ، ويستمعوا الى الموسيقى الشعبية ، ويتناولوا الطعام فى أبهة رسمية ، أو يلتصوا المغامرات فى أزقة العشاق المتوارية عن الانظار فى شكر وعرفان . وفى رينلاج ، تحت سقف قاعة « الروتندا » الكبرى ، كانوا يستطيعون أن يرقوا بأنفسهم الى موسيقى أسمى فى وسط قوم من طبقة أوجه . كتب هوراس ولبول فى ١٧٤٤ يقول « فى كل ليلة أذهب الى رينلاج التى هزمت فوكسهول هزيمة ساحقة ، فما من انسان يذهب الى غيرها ، وكل الناس يذهبون هناك (٩٢) » . وكانت فوكسهول ورينلاج تغلقان أبوابهما شتاء ، ولكن الانهار قد تتجمد ، وهنا تزدهر رياضات الشتاء . وحدث فى عيد ميلاد ١٧٣٩ أن تجمدت الانهار حتى التيمز ، وأبدى اللندنيون روحهم العالية بتنظيم كرنفال من الرقص والأكل على الجليد ، واستمتع بعضهم بنشوة ركوب العربات على النهر من لامبث الى كوبرى لندن (٩٣) . وأخيرا كان هناك المهرجانات الكبيرة حيث يلتقى المرء

بكل العالم من غير أصحاب الالقباب ، ويستمتع بشتى المشاهد من صندوق الدنيا الى الرجال الطائرين .

أما آداب السلوك ، فاننا اذا استثنينا بعض النساء المثقفات ، وجدنا فيها الخشونة وفحش الكلام . وسيرينا المصور هوجارث حياة العامة ، ولكنه لن يرينا حديثهم . فالعاهرات ، والفساق ، وسائقو عربات الجر ، والمراكبية ، والجنود والبحارة ، كلهم كانوا اساتذة فى اللعن وفحش القول ، وقد خلد باعة السمك فى بلنجزجيت (واللفظ معناه لغة السوق) ذكرى سوقهم ببذاءتهم التى لا مثيل لها . وكان الحديث فى الفنادق والحانات أقل مرحا ولكنه متحرر الى حد البذاءة وكان الرجال حتى فى بيوتهم يروعون النساء بقصصهم وسبابهم وأنخابهم . ولم تكن السيدات أنفسهن يترفعن عن الشتيمة العنيفة أو يتورعن عن القباحة المرحة .

أما فى مشارب القهوة والأندية فاللغة أكثر تهذيبا . وقد كتب ستيل وسويغت وفيلدنج وكوبر وجونسن عن الحديث ، بوصفه فنا مهذبا . وفى وسعنا أن نتصور الرجال فى اجتماعاتهم التى يحرضون على اقضاء النساء عنها ، يرشفون قهوتهم أو جعتهم ، ويترعون خمرهم ، ويدخنون ببياتهم ، ويتجادلون حول المناقشات البرلمانية ، وحول شراء روبرت ولبول للأصوات ، والسياسة المنكرة التى ينتهجها

أولئك « الكلاب الفرنسيون » وراء المانش . وكان الضحك عميقا فى البطون ، عاليا فى الحناجر ، رغم مناشدات الأخلاقيين أمثال شافتسبرى وغيرهم ممن لا نزعة أخلاقية تميزهم مثل تشسترفيلد ، بوجوب ترك الضحك للوضعاء ، ويأن يخفف حتى يصل الى مجرد الابتسامة (٩٤) . أما تعاطى النشوق أو السعوط ، الذى ورد ذكره أول مرة فى ١٥٨٩ ، فكان قد بات شعيرة مرعية عند الجنسين ، وقد ظن القوم أن للنشوق (وهو التبغ المسحوق) قيمة دوائية كالكهوة ، فالعطس الذى يحدثه يظهر المسالك الأنفية ، ويشفى من الصداع ، والبرد ، والصمم ، والخمول ، ويهدئ الأعصاب ، ويصلح الدماغ . ولم ير شخص ، رجلا كان أو امرأة كامل الهدام بغير علبة النشوق ، وعلى تلك الحاشية الملحقه

بصاحبها (أى العلبة) أفرغ الصائغ والجواهرى ، وصانع المينا ،
ورسام المنمنمات ، أرق ما جاد به فنهم .

وكانت مشارب القهوة الثلاثمائة فى لندن مراكز للقراءة كما كانت
منتديات للسمر . فقد اشتركت فى الجرائد والمجلات ، وادارتها على
زيائنها ، ووفرت الأقلام والورق والحبر ، وتسلمت الخطابات لارسالها
بالبريد ، وقبلت أن تحفظ البريد المرسل الى عناوينها . وتطورت بعض
مشارب القهوة أو الكاكو ، مثل مشرب هوايت ، فى هذه الفترة الى
أندية خاصة يطمئن الرجال الى أن يجدوا فيها الصحة التى يؤثرتها
على غيرها ، ويستطيعون أن يلعبوا القمار بمنأى عن عيون الرقباء .
وما اختتم القرن الثامن عشر حتى كان عدد الأندية مماثلا لما كان عليه
عدد مشارب القهوة فى بدايته . ويبدو أن الماسون (البنائين الأحرار)
بدأوا تاريخهم الانجليزى على هيئة ناد سموه « المحفل الكبير » - نظم
بلندن فى ١٧١٧ . وشجعت الأندية الشرب والقمار والدس السياسى ،
ولكنها علمت الرجال على الأقل نصف فن الحديث . أما النصف الآخر
من هذا الفن فكان مفقودا ، لأن الأندية كانت خلوات للعزاب ، ولم يجد
الأدب الأرفع والفكاهة الأرق اللذان يتطلبهما وجود النساء ما يحفزهما
هناك . فلقد كانت انجلترا بلد الرجال ، أما النساء فلم يكن لهن فى
حياتها الثقافية الا حظ ضئيل ، ولم يكن بها صالونات ، فلما حاولت
الليدى مارى مونتاجيو أن تقيم صالونا نظر القوم اليها كأنها مخلوق غريب
الاطوار لا يعرف أين مكانه (٩٥) .

واستطاعت النساء فى الطبقات العليا أن يستخدمن مهارتهن فى
الاستقبالات ، والمراقص ، وحفلات الموسيقى فى البلاط أو فى بيوتهن .
وكانت نهاية الأسبوع فى بيوت الريف حدثا جميلا فى الحياة الانجليزية
لا يكدره بعض الشيء غير تلك « البقاشيش » الكبيرة التى ينتظر الخدم
أن ينفحوا بها ، وكان على الضيف وهو يغادر البيت أن يغامر بالمرور
وسط الاتباع ، والسقاة ، والخدم ، والقهرمانات ، والبسوابين ،
والخدمات ، والطباخين وغيرهم من الخدم والحشم يقفون فى صفين
فند الباب ، فى حين ينتظر سائق المركبة وسائس الخيل خارجا فى
عبوس وتجهم . وما ذاع عن ولاء الخدم البريطانيين لساداتهم لم يكن

له كبير سند من الواقع فى النصف الأول من القرن الثامن عشر ، فقد كانوا فى كثير من الحالات عديمى المبالاة ، وقحين ، متمردين ، لا يترددون فى التنقل من بيت الى بيت لقاء أجر أفضل . وكان كثير منهم يسرقون رب البيت وربته والضيوف اذا استطاعوا ، ويشربون خمر مولاهم ، وتلبس الخادما حلى سيداتهن أو ملبسهن .

وكانت قمة انتماء شخص ما الى المجتمع العصرى ، بعد أن يقبل فى البلاط الملكى ، أن يلم بمنتج للمياه المعدنية ، يشرب فيه المياه الطبية ، أو يستحم مع صفوة القوم بعيدا عن البحر المختلط . واشتهرت تنبردج بينابيعها ، ولكن روادها كانوا اخلاطا . أما عيون ابسوم فكانت تقدم لروادها الموسيقى ، ورقصات المريسة ، والكلاب المؤدية للالعاب ، والمياه المسهلة وان لم تجمع بعد معادنها فى « أملاح ابسوم » . ولم يكن الاستحمام فى البحر رياضة محببة ، وان لحظ تشسترفيلد شيئا منه فى سكاربرو ، ولكن فى ١٧٥٣ تدفقت الى البحر موجة بشرية بفضل كتاب الدكتور رتشرد رسل « فى سل الغدد وفائدة مياه البحر فى أمراض الغدد » ، وفتحت قرى ساحلية مثل برايتون لتزدهر منتجعات للاستحمام ، مع أنها لم تعرف من قبل غير أسر صيادى السمك المتواضعة .

أما الأرسقراطيون ففضلوا مدينة باث . فهناك ، وسط أرقى البريطانيين من ذوى الأقسام ، يشرب الرواد - ويستحمون فى مياه خبيثة الرائحة موصوفة لشفاء أوصاب من اتخموا بالغذاء الطيب . وكانت مدينة الينابيع الصغيرة قد فتحت أول غرفة ذات مضخة فى ١٧٠٤ ، وأول مسارحها فى ١٧٠٧ ، وبعد عام أول « غرف اجتماعاتها » التى نوهت بها قصص فيلدنج وسموليت . وفى ١٧٥٥ اكتشف الحمام الرومانى الكبير . وأعاد جون وود وابنه بناء المدينة بالطراز الكلاسيكى كما سنرى . وفى ١٧٠٥ ، أصبح ناش « الجميل » ، وكان محاميا ومقامرا ، دكتاتور حياتها الاجتماعية . فحظر السيوف فى ماكن اللهو العامة ، ووفق فى أن يجعل المبارزات - فى باث - عملا ضارا بالسمعة . وأقنع الرجال بان يلبسوا الأحذية المكشوفة بدلا من الطويلة . وكان ذو ذاته يلبس قبة بيضاء هائلة ، وسترة كثيرة الوشي

غنية التطريز ، ويركب عربة تجرها ستة خيول يتحتم أن تكون شهياً ،
ويعلن عن قدومه بنفير فرنسي مرح . وقد أصلح من شأن الطرق
والمباني ، وخطط الحدائق الجميلة ، ووفر الموسيقى ، وسحر الجميع
الا قلة منهم بلطفه وظرفه . وتوافد نبلاء الانجليز على مملكته ، لأنه
وفر لهم موائد القمار كما وفر الحمامات ، فلما سنت قوانين تحرم القمار
ابتكر ألعاب حظ جديدة تتفادى القوانين . وأخيراً وفد على باث جورج
الثاني ، والملكة كارولين ، والأمير فرديريك لويس ، وغدت باث حيناً
بلاطاً ثانياً . ولا ريب في أن إيرل تشستر فيلد الذي كان يعشق المدينة
كان مطبقاً على صفوتها ذلك الوصف الذي وصف به جميع البلاطات
بقوله أنها أماكن « يجب أن تتوقع أنك ستلتقى فيها بارتباطات دون
صداقة ، وعداوات دون ضغينة ، ونبالة دون فضيلة ، ومظاهر تنقذ
وحقائق تضحى ؛ آداب حسنة مشفوعة بأخلاق سيئة ، وكل الرذائل
والفضائل مقنعة ، حتى أن كل من كان يميز بينها بعقله فقط لن يتبين
الواحدة من الأخرى حين يلقاها أول مرة في البلاط. (٩٦) » .

٧ - تشستر فيلد

فلننطق نصف ساعة مع هذا النبيل المرفه الحس . فقد تمثلت فيه
خصائص ارسقراطية العصر الانجليزية ، اللهم الا تأليفه كتاباً حسناً .
ذلك أن هذا الكتاب « رسائل لولده » ، الذي درج الناس على الغض
من قدره ، هو خزانة من الحكمة في نثر مشرق ، ومرشد محكم لعادات
طبقتة ومثلها العليا ، وعلان جذاب عن ذكاء مرفه مهذب .

كان اسمه بالعماد (١٦٩٤) فليب دورمر ستانهوب ، بن فليب
ستانهوب ، إيرل تشستر فيلد الثالث ، والليدي اليزابث سافيل ، ابنة
جورج سافيل ، مركز هاليفاكس ، المسائر الماكر للعهود الملكية
السابقة . ماتت أمه في طفولته ، وأهمله أبوه ، فكفلته مركيزة
هاليفاكس . وحذق تعلم الكلاسيكيات واللغة الفرنسية على يد معلم
خاص ، فأصبحت ثقافة روما وفرنسا ابان نضجها جزءاً من عقله .
وأنفق سنة في كمبردج ، ثم انطلق في ١٧١٤ في الرحلة الكبرى . وفي
لاهاي قامر بمبالغ كبيرة ، وفي باريس جرب عينات من النساء تجرية

الفاسق الذواقة للنساء ، ومن باريس كتب (٧ ديسمبر ١٧١٤) يقول :
 « لن أبدى لك رأيي في الفرنسيين ، فكثيرا جدا ما يخالني الناس
 واحدا منهم ، وقد حياني العديدون منهم باسمي تحية يمكن - في
 اعتقادهم - أن يحيوا بها انسانا ، وهي : « سيدى ، انك على شاكلتنا
 تماما » حسبى أن أقول اننى وقع ، كثير الكلام ، على الصوت ،
 أمرناه ، أغنى وأرقص أثناء سيرى ، وأهم من هذا كله اننى انفق مبلغا
 باهظا على شعرى ، ومساحيقى ، وريشي ، وقفازى الأبيض (٩٧) » .

فلما عاد الى انجلترا عين وصيفا لمخدع أمير ويلز وقتها (الذى
 اصبح جورج الثانى) . وكان جيمس ستانهورب ، الوزير الاثير لدى
 جورج الاول ، قريبا لفليب . وعثر له على دائرة يمثلها فى البرلمان ،
 فظل أحد عشر عاما عضوا من أعضاء حزب الأحرار فى مجلس العموم .
 فلما أصبح إيرل تشستر فيلد الرابع بعد موت أبيه (١٧٢٦) نقل الى
 مجلس اللوردات ، الذى قال فى وصفه فيما بعد انه « مجلس ذوى
 الأمراض المستعصية » . وحين أوفد الى لاهاي سفيرا (١٧٢٨) قام
 بمهمته خير قيام ، فخلع عليه وسام ربطة ساق الفروسية وعين وكيل
 أكبر للبيت الملكى . وفى ١٧٣٢ أنجبت له خلية تدعى الانسة بوشيه
 ولدا هو فليب ستانهورب ، الذى وجهت اليه فيما بعد « الرسائل » التى
 كتبها أبوه . وبعد عام تزوج الكونتيسة ولزنجهام ، ابنة جورج الاول
 غير الشرعية من دوقه كندال . ولعله توقع أن تأتيه بمهر ملكى ،
 ولكنها لم تفعل ، فكان زواجا شقيا شقاء ارسقراطيا .

وكان من الجائز أن يرتقى الى منصب ارفع لولا معارضته مشروع
 قانون لولبول بفرض ضريبة انتاج على التبغ والنبذ . وقد اعوان على
 هزيمة القانون ، وما لبث أن طرد من الحكومة (١٧٣٣) . وكافح
 ليسقط ولبول ، وضيع صحته ، واعتكف فى القارة (١٧٤١) ، وزار
 فولتير فى بروكسل ، واختلط بفونتنيل ومونتسكيو فى باريس . فلما
 قفل الى انجلترا واصل سياسة المعارضة للحكومة . وقد أبهجت المقالات
 التى كتبها تحت اسم « جفرى برودبوتوم » لصحيفة جديدة تدعى
 « انجلترا القديمة » سارة ، دوقه ملبره ، فاوصت له بعشرين ألف جنيه .
 وفى ١٧٤٤ فاز حزبه ، حزب « البرود بوتوم » (الأحرار) . وانضم

الى بلام فى الوزارة ، واوفد الى لاهاي ليقنع الهولنديين بالانضمام الى انجلترا فى حرب الوراثة النمساوية . فادى المهمة بلباقة وحذق ، ورقى الى منصب نائب الملك فى ايرلنده (١٧٤٥) وكانت السنة الوحيدة التى قضها فى ايرلنده أنجح سنى حياته . فقد أنشأ المدارس والصناعات وطهر الحكومة من الفساد والرشوة ، وصرف شئون الحكم بكفاية ونزاهة . وأنهى اضطهاد الكاثوليك ، ورقى العديدين منهم الى مناصب الحكومة وبلغ من اكتسابه احترام السكان الكاثوليك له أنهم حين غزا المطالب الشاب بالعرش الانجليزى انجلترا من اسكتلنده ، وتوقعت انجلترا ثورة فى ايرلنده تنشب فى الوقت ذاته ، رفضوا أن يثوروا على تشترفيلد .

ورد الى انجلترا وزيرا (١٧٤٦) . ولكن أستاذ الرقة واللباقة اقتترف غلطة مدمرة . ذلك أنه تودد الى خليطة الملك لا الى الملكة ، فنجحت كارولين فى تدبير سقوطه . وفى ١٧٤٨ طلق الحياة العامة ، وانكفا كما قال الى « حصانى ، وكتبى ، وأصحابى (٩٨) » وعرض عليه جورج الثانى لقب الدوقية ، ولكنه رفضه . وفى ١٧٥١ قاد حركة تبنى التقويم الجويجورى ، وتحمل وطأة استياء الشعب من « السرقة البابوية » لأحد عشر يوما من الشعب الانجليزى . وفى ١٧٥٥ سلب عليه جونسن ناره بمناسبة اهداء المعجم الذى ألفه ، وسنلقى نظرة على هذه المعركة الصاخبة فى موضع لاحق .

وكان خلال ذلك يكتب الرسائل لولده منذ ١٧٣٧ . وينم حبه لهذه الثمرة الجاذبية لسفارته الأولى فى هولنده على الحنان الذى أخفاه عن الجماهير خلال أكثر حياته . قال للفتى : « منذ رأت عيناك نور الحياة أصبح شغلى الشاغل ، المحبب الى نفسى ، أن أجعلك أكمل ما يسمح به قصور الطبيعة البشرية (٩٩) » . وقد خطط تعليم فليب ، لا ليحمله مسيحيا مثاليا ، بل ليعده للسياسة والدبلوماسية . وبدأ والگلام فى الخامسة بخطابات عن الأساطير الكلاسيكية والتاريخ القديم . وبعد عامين راح يعزف النغمة التى لن يفتا يلح عليها فى رسائله . يقول :

« فى خطابى الأخير كتبت لك عن أدب المجتمع العصرى ،

كاولئك الذين ألفوا ارتياد القصور ، وهم القطاع الأنيق من النوع الانساني . وأدبهم عفوى طبيعى ، وعليك أن تميز بينه وبين تأدب الدهماء والريفيين ، وهو تأدب مقيّد أو مزعج دائما . فالرجل المهذب يبدي رغبة دائمة فى أن يسر من يتحدث اليه ، ويحرص على ألا تكون تحياته مزعجة . وقل من الانجليز من يتصفون بالأدب الكامل فهم اما خجلون واما وقحون ، فى حين تجد معظم الفرنسيين طبيعيين مؤدبين فى سلوكهم . وبما أنك بحكم النصف الأفضل فرنسي صغير ، فانى أرجو أن تكون على الأقل « نصف » مهذب . وستكون أميز وأبرز فى بلد ليس الأدب فيه فضيلة غالية (١٠٠) .

وعليه فحين بلغ فليب الرابعة عشرة أرسله أبوه الى باريس باعتبارها المدرسة التى تنهى صقل عاداته وان كان عليما بأنها ستنتهى فضائله أيضا . وكان على الفتى أن يتعلم أساليب الحياة أن أراد ان ينفع حكومته . والدراسة المناسبة لرجل الدولة هى دراسة الانسان ، فبعد أن علم الوالد ولده العلوم الكلاسيكية وفنون الأدب عن طريق المعلمين الخصوصيين والرسائل ، رده الايرل - الذى كان خبيرا بهذه العلوم والفنون - من الكتب الى البشر . قال :

« يا صديقى العزيز ، ان قلة قليلة من المفاوضين المشهورين هم الذين برزوا بفضل علمهم . . . فدوق ملبرة الراحل ، الذى كانت كفايته مفاوضا تعدل على الأقل كفايته قائدا حربيا ، كان جاهلا جهلا مطبقا بالكتب ، ولكنه كان خبيرا بالرجال ، فى حين ظهر ان جروتتيوس العلامة كان وزيرا خائبا غاية الخيبة ، سواء فى السويد أو فى فرنسا (١٠١) . »

فاذا شاء فليب أن يلتحق بالحكومة فينبغى له أولا أن يدرس الطبقات الحاكمة ، بيئتهم ، وأخلاقهم ، وعاداتهم ، وغاياتهم ، ووسائطهم ؛ والا يقرأ غير أجود الأدب ليكتسب أسلوبا حسنا فى الكتابة ، لأن هذا أيضا جزء من فن الحكم ؛ وأن يلم بالموسيقى والفنون ، ولكن ، حذار أن يتطلع لأن يكون مؤلفا أو موسيقيا (١٠٢) . وينبغى له أن يدرس بعناية تاريخ الدول الأوروبية الحديث ، ملوكها ووزرائها ، قوانينها ودساتيرها ، مائياتها ودبلوماسيتها ، وليقرأ ما كتبه لاروشفوكو ولابرويير

عن طبائع البشر ، انهما حقا « كلبيان » ، ولكنك لن تخطىء خطأ كبيرا ، فى السياسة على الأقل ، ان اذت توقعت من كل انسان أن يسعى لتحقيق مصلحته كما يراها ، ولنسئ الظن بأى سياسى يتظاهر بغير هذا . ولا نتوقع من الناس أن يكونوا معقولين ، بل خذ فى حسابك أهواءهم . « ان أهواءنا هى خيلاتنا ، أما العقل فهو الحيلة على أحسن تقدير ، يسمع كثيرا جدا بلا ريب ، ولكن نادرا ما يعبا به (١٠٣) » تعلم أن تتملق ، لأنه لا يمتنع على الملق سوى أحكم الحكماء وأقدس القديسين ، ولكن كلما سعدت وجب أن يكون تملقك أرفف وأحوط . وأدرس اسباب اهم الاسر ، لأن البشر أكثر افتخارا بأنسابهم منهم بفضائلهم (١٠٤) ، وتودد للنساء ، أولا لتحصل على معونتتهن ، فحتى الحكام الأقوياء يتاثرون بالنساء الضعيفات ، لا سيما اذا لم يكن أزواجهم .

أما فى مسائل الجنس ، فان نصيحة تشسترفيلد لولده أضحكت الفرنسيين وروعت الانجليز . فقد ذهب الى أن طرفا من العلاقات الغرامية الحرام اعداد ممتاز للزواج والنضج . واكتفى بالاصرار على أن تكون خليلات فليب نساء مهذبات ، حتى يصقلنه وهن يائمن معه . وزكى له مدام دويان لما كانت عليه من « حسن التربية ورقة الطبع (١٠٥) » ولقن ابنه فن الاغواء . فعليه ألا يقبل أى تمنع وهو مستسلم ، لأن :

« أكثر النساء فضيلة لن يسوعها أن يبوح لها رجل بحبه ، بل ان ذلك يشبع غرورها شريطة أن يكون بأسلوب مؤدب لطيف . فاذا استمعت اليك ، وسمحت لك أن تفصح ثانية عن حبك ، فثق أنك ان لم تغامر بالباقى كله سخرت منك . فاذا لم تلق منها أذنا مصغية فحاول ثانية ، وثالثة ، ورابعة . وثق ، اذا لم يكن المكان قد احتل من قبل ، أن فى الامكان غزوه (١٠٦) » .

ثم أفضي الايرل ، الذى لم يكن محظوظا فى الزواج ولا مولعا به ، الى ولده برأيه فى النساء ، وهو رأى لم يكن بالحسن جدا :

« فى هذا الموضوع سأفضي اليك ببعض الاسرار التى سيفيدك جدا أن تلم بها ، ولكن عليك أن تحرص أشد الحرص على اخفائها وعلى ألا تبدو

ملما بها . فأعلم اذن أن النساء ما هن الا اطفال كبار ، فيهن ثرثرة مسلية ، وأحيانا ذكاء ، أما من حيث التفكير الرصين والادراك السليم ، فما عرفت فى حياتى امرأة أتيح لها هذان ، أو فكرت أو تصرفت منطقيا ولو أربعا وعشرين ساعة كاملة . . والرجل الفطن انما يلهو بهن ، ويلعب معهن ، ويلطفهن ، ويتملقهن . . ولكنه لا يستشيرهن أبدا فى الخطير من الامور ولا ياتمنهن عليها وان موّه عليهن كثيرا بأنه يفعل الاثنين ، وهو أشد ما يفخرن به فى هذه الدنيا ، لانهن ولوعات بالتسلى بالتجارة (التى يفسدنها دائما) . . وليس هناك ملق يرينه فوق ما يستأهلن أو دونه ، انهن يبتلعن أبلغ الملق فى شراة ، ويقبلن أقله فى شكر وعرفان ، وفى وسعك أن تتملق أى امرأة مطمئنا ، بادئا بقوة ذكائها ومنتها بذوق مروحتها الرفيع . وخير ما تتملق به النساء الجميلات و القبيحات جمالا أو قبحا غير منازع هو الاشادة بذكائهن (١٠٧) .

وقال الايرل أن النساء فى فرنسا يجب تملقهن فى مثابة وكياسة لسببين : فان فى استطاعتهن أن يقررن مصير الرجل فى بلاط الملك ، وأن يتلمنه لطائف الحياة وفنونها . فالنساء يحتفظن بسحرهن برشاقة الحركة والسلوك والحديث لا بجمالهن ، فالجمال بغير الرشاقة لا يجتذب الرجل ، وأما الرشاقة بغير الجمال فما زالت لها القدرة على الفتنة . « ان النساء هن المهذب الأوحد لكفاية الرجال . صحيح انهن لا يستطعن اضافة وزن لها ، ولكنهن يصقلنها ويضيفن عليها بريقا (١٠٨) » . وحذر الايرل ولده من الكلام بسوء عن النساء ، فهذا أمر مبتذل ، سوقى ، أحقق ، ظالم ، لأن النساء اقترفن فى هذه الدنيا من الأذى أقل كثيرا مما اقترفه الرجال . ثم انه ليس من الحكمة أبدا مهاجمة « فئات بجمالها » أو طبقات أو جماعات ، « فقد يصفح الأفراد ، أما الهيئات والجماعات فلا (١٠٩) » .

ولم يمل تشسترفيلد من تلقين ولده أصول السلوك المهذب . « فالعادات المهذبة هى الوسيط الثابت المستقر للحياة الاقتصادية ، كما أن نوع السلعة هو الوسيط المقرر فى دنيا التجارة . والناس يتوقعون عائدا فى الحالين على السواء ، وهم لا يقدمون احترامهم لانسان فظ ، أكثر مما يقترضون مالهم لانسان مفلس (١١٠) » .

ومما يعين فى هذا المجال أستاذ رقص قدير ، فهو يعلمنا على الأقل كيف نقعد ، أو نقوم ، أو نمشي دون تبديد فى الجهد والطاقة .
 واذ كان الايرل أرسقراطيا ، فقد سمى السلوك المهذب « تربية طليية » ، فلقد تبين دون وعى منه ، وربما محقا ، كيف يصعب على انسان اكتساب العادات المهذبة دون أن يكون قد ربي فى أسرة وتحرك فى محيط لهما هذه العادات . « ان من سمات الرجل الطيب النشأة ان يتحدث الى من هم أدنى منه دون صلف ، والى من هم أعلى منه باحترام ويسر (١١١) » فعلى المرء الا يستغل علوا فى المقام جاء وليد الصدفة .

« لا تستطيع أن تحسب ، وأنا واثق أنك لا تحسب ، أنك أرقى بحكم الطبيعة من ذلك السافواوى الذى ينظف حجرتك ، أو الخادم الذى ينظف حذاءك ، ولكن لك أن تغتبط ، وبحق ، لما حبسك به الحظ دون غيرك . فاستمتع بتلك المزايا ، ولكن دون اهانة أولئك الذين قضي القدر بحرمانهم منها ، أو حتى الأتيان دون موجب بأى عمل قد يذكرهم بذلك الحرمان . وأقول لك عن نفسي اننى أشد حرصا على سلوكى نحو خدمى وغيرهم ممن يدعون أدنى منى ، منى نحو نظرائى ، مخافة ان أتهم بتلك العاطفة القبيحة الوضيعة ، وهى الرغبة فى اشعار غيرى بذلك الفارق الذى أوجده الحظ بيننا ، ربما دون استحقاق على الاطلاق (١١٢) » .

والسلوك المهذب يصدق على العقل كما يصدق على الجسم ، وكلا النوعين يتأثر بعشرائنا .

« هناك نوعان من الخلطاء المهذبين ، الأول وهو المسمى المجتمع الراقى "beau monde" ، وهم أصحاب الصدارة فى قصور الملوك وفى الجوانب المرحة من الحياة ، والثانى هم أولئك الذين يتميزون بكفاية خاصة ، أو يتفوقون فى فن أو علم خاص عظيم القدر . أما عن نفسي ففقصد الفت أن أرانى وأنا جالس الى (الكاتب) أديسون أو (الشاعر) بوب فى صحبة أشخاص يعلنون عنى علو جميع ملوك أوربا وأمرائها لو جلست اليهم (١١٣) » .

ومن الحكمة أن يسلك المرء فى كلتا الصحتين بشيء من التحفظ ،
فلا يسرف فى الكلام ولا يغالى فى الصراحة ، وأن يكون « من الحذق
بحيث يخفى حقيقة دون أن يكذب » ، وأن يبدو صريحا وهو
متحفظ :

« تظاهر بأنك مرتاب حتى حيث تكون على يقين من الأمر . . .
وان شئت أن تقنع غيرك فليبد عليك استعدادك للاقتناع . وأودع علمك
كما تودع ساعتك جييا خاصا فلا تبرزه . . . لمجرد الاعلان عن
نفسك (١١٤) . وهم من هذا كله ، احذر الحديث عن نفسك
ما استطعت (١١٥) .

« وأمسك عن الحديث فى الدين ، فلو أنك أطربته لابتسم أصحاب
الثقافة والحكمة ، ولو ذمته لحزن الشيوخ الناضجون . وسوف يفيدك
أن تقرأ تواريخ فولتير ، ولكن احترس من جماعة « الفلاسفة » الذين
يهاجمون الدين .

« لا يبد عليك أنك توافق على تلك الأفكار الاباحية التى تهاجم
الاديان على السواء ، أو أنك تشجعها أو تصفق لها ، والتى هى الحديث
الحقير المهلهل الذى يخوض فيه أنصاف العقلاء وصغار الفلاسفة .
وحتى أولئك الذين بهم من الحمق ما يجعلهم يضحكون على نكاتهم ،
لهم وزعم ذلك من الحكمة ما يشككهم ويبغضهم فى أخلاقهم ، ذلك أننا
حتى لو وضعنا الفضائل الخلقية فى اسمى مكان لها ، والدين فى أدناه ،
فلا بد رغم ذلك من أن نعترف للدين بأنه ضمان اضافى على الأقل
للفضيلة ، وكل انسان حصيف يؤثر الركون الى ضمانين خيرا من
ضمان واحد . لذلك فأينما اتفق وجودك فى صحبة أصحاب « العقول
القوية » المزعومة هذه ، أو فى صحبة اباحيين عديمى التروى ممن
يسخرون بالدين كله اعلنا عن ذكائهم وظرفهم ، فلا تدع كلمة أو نظرة
تبدر منك دليلا على أقل استحسان لما يقولون ، بل على العكس من هذا
فلتفصح رزانتك الصامته عن كرهك له ، ولكن لا تخض فى الموضوع
واجتنب مثل هذه المجادلات العقيمة النابية (١١٦) » .

وفى ١٧٥٢ تبين تشسترفيلد فى التهجم على الدين اول مراحل الثورة الاجتماعية ، « أتنبأ أنه قبل أن ينقضي هذا القرن لن تبلغ صناعة الملك والقسيس نصف ما بلغته من احترام الى الآن (١١٧) » . وفى ١٧٥٣ ، بعد ظهور « الموسوعة » المعادية لرجال الدين بعامين ، كتب الى ابنه يقول :

« ان احوال فرنسا . . . تزداد خطورة ، وفى ظنى انها ستمضي فى هذا قدما كل يوم . فالملك محتقر . . . والامة الفرنسية تفكر فى أمور الدين والحكم بغير قيود ، وهو ما لم تفعله قط من قبل ، وقد بدأت تصبح « محايدة » فى هذه الأمور ؛ كذلك يفعل الموظفون ، وباختصار توجد الآن فى فرنسا ، وتزداد كل يوم ، جميع الاعراض التى صادفتها دائما فى التاريخ قبل وقوع التغييرات والثورات الكبرى فى الحكم (١١٨) » .

وقد كون اثنان من قرائه ، بعد دراسة ممتعة لصفحات تشسترفيلد الثمانمائة ، رأيا ممتازا عن عقله ، ان لم يكن عن أخلاقياته . أما معاصروه الانجليز فكانوا لعدم قراءتهم رسائله أميل الى أن يسلكوه ، دون ترو ، فى زمرة الادباء الظرفاء لا الفلاسفة . وطابت لهم ملاحظته فى مجلس اللوردات حين قال « من حقنا يا سادتى اللوردات أن نشكر السماء لأن لدينا شيئا نركن اليه خيرا من أدمعتنا (١١٩) » . ورأوه يقامر مقامرة المستهترين ؛ و الحمقى ، وعرفوا أنه لم يكن مثالا يحتذى فى العفة (وهو ما اعترف به لولده) . وقد وصف جونسون الغضبوب « الرسائل » بأنها تغرس فى النفس « أخلاق عاهرة وسلوك معلم رقص (١٢٠) » . وفى هذا الحكم ، كما فى الكثير جدا من أحكام هذا « الخان الأكبر » بعض القصور والتحامل ، فلقد كان تشسترفيلد يعلم الفتى أخلاق جيله وطبقته ، وعادات المجتمع السياسي المتأدب ، وعلينا أن نتذكر أنه كان يهيبء ولده للدبلوماسية ، وما من دبلوماسي يجرؤ على تطبيق المسيحية وراء حدود بلاده .

غير أن الكثير من التعليم الخلقى الذى محضه فليب كان رغم هذا ممتازا . « لقد طالما أخبرتك فى رسائلنى الماضية (وهو حق بكل تأكيد)

أنه ما من شيء يكسبك احترام البشر وتقديرهم غير أشد ضروب الشرف والفضيلة صرامة وتدقيقا (١٢١) « . وأغلب الظن أن نصيحته له فى أمر الخليلات كانت محاولة لصرف الفتى عن الفوضى الجنسية . لاحظ هذا التحذير « أما عن الجرى وراء النساء ، فإن نتائج تلك الرذيلة إنما هى فقدان المرء أنفه ، والتدمير الشامل لصحته ، وطعنات السلاح تصيبه فى حالات غير قليلة (١٢٢) » . وقد ذهب جونسن نفسه ، فى لحظة غافرة ، الى أن « رسائل اللورد تشستر فيلد لولده قد يخرج منها كتاب لطيف جدا ، وإذا انتزعت منه الجانب اللا أخلاقى ، وجب أن يوضع فى يد كل شاب مهذب (١٢٣) » . وربما كان فى « الرسائل » قصور فى غرس مبادئ الشرف واللباقة والشجاعة والوفاء . ولكن ليس صحيحا أن تشستر فيلد حسب الثراء أو المنصب فضيلة أو حكمة . وقد أمتدح ملتن ، ونيوتن ، ولوك أكثر كثيرا مما أمتدح سياسى زمانه ، ورأيناه ينشد صداقة خيرة كتاب عصره . وقد أوتى تقديرا حارا للادب الجيد ، حتى ولو لم يفتنه معجم من معاجم اللغة . وقد كتب هو نفسه انجليزية لم يبرزها كاتب فى النثر المعاصر له ، لغة بسيطة ، قوية ، واضحة ، فيها من الخفة والمرح القدر الذى يكفى لتعويم الفكر الذى يثقله . وقد آثر الألفاظ الانجلى - سكسونية القصيرة المفعمة بالحيوية رغم احاطته بالكثير من اللغات ، وغزارة علمه بالكلاسيكيات . وفى رأى فولتير أن الرسائل « أفضل ما كتب اطلاقا فى التربية (١٢٤) » . ووصفها سانت - بوف بأنها « كتاب غنى ، لا تقرأ فيه صفحة دون أن تحملك قراءتها على أن تتذكر ملاحظة سعيدة (١٢٥) » .

ولو حكمنا على عمل ما بثمراته المباشرة لقلنا أن الرسائل فشلت . ذلك أن الفتى فليب ستانهورب لم يتغلب قط على روحه البليدة ، وعاداته الرثة ، وأسلوبه المتثاقل ، وحديثه المتردد ، فبعد كل هذا الحث والحض ، كما تقول فانى بيرنى ، « كان حظه من حسن التربية ضئيلا كأي رجل لقيته (١٢٦) » . ويبدو أن انحرافا سببه مولد الفتى أو ظروفه أبطل فعل خمسة أرتال من التعاليم . لقد كان فليب يعانى من معوق هو أن له أبا غنيا ومكانا مضمونا ومريحا ، فلا خوف الجوع ولا كره الخضوع حفزاه الى الطموح و المغامرة ؛ لقد افتقد الدفعة الحية للروح " vivide vis animi " كما قال له أبوه المغلوب على أمره

« تلك القوة التي تهمز الشباب وتثيرهم للارضاء ، والتسائق ، والتفوق (١٢٧) » . ومن المؤثر أن نرى الايرل المسن يغدق كل هذه النصائح الحكيمة والحب الابوى فلا يجنى غير هذه الثمرة الهزيلة . كتب لولده حين كان فى الرابعة عشرة « ثق أننى سأحبك حبا جما ما دمت تستاهله ، ولكن لن أحبك لحظة واحدة بعد هذا (١٢٨) » ، على أن رسالته الاخيرة لولده بعد اثنتين وعشرين عاما فيها حرارة المحبة والتوسل (١٢٩) . ولم يمض عليها شهر حتى مات فليب فى باريس (١٧٦٨) وهو فى السادسة والثلاثين تاركا أرملة وولدين . فلقد تزوج دون علم أبيه ، ولكن تشستر فيلد غفر له ، وراح الايرل الآن يكتب للزوجة الثكلى رسائل هى نماذج فى المجاملة والاحترام (١٣٠) .

أما هو فكان فى تلك الفترة كثير التردد على باث بعد أن أقعده النقرس وأصابه الصمم الى حد محزن . « اننى أزحف فى هذا المكان على أرجلى الثلاث ، ولكن يعزىنى عن محنتى هذه اخوانى الزاحفون معى ؛ ان نهاية لغز أبى الهول تقترب ، وسأختم حياتى بعد قليل كما بدأتها ، على أربع (١٣١) » . وقد اهتم بتربية حفيديه ، ولا غرو فالأمل لا يخبو أبدا فى الصدر العجوز . فلما عاد الى ضيعته فى بلاكهيث اتبع نصيحة فولتير وزرع حديقته فحسورا بشمامه وتفاحه ، وقال انه قانع بان « يحيا حياة راكدة فى صحبتهما (١٣٢) » . وكتب له فولتير رسائل معزية ، مذكرا اياه بان الهضم الجيد (الذى احتفظ به الايرل) اجلب للذة من الأذان السليمة . وقابل النهاية بمرح لم يفتر . قال عن نفسه وعن صديقه اللورد تيرولى ، وكان مثله شيخا مقعدا ، (وربما كان فى قوله هذا متذكرا فونتنيل) « لقد كنت وتيرولى ميتين فى السنتين الاخيرتين ، ولكننا لا نود أن يعرف عنا هذا (١٣٣) » . ومات فى ٢٤ مارس ١٩٧٣ بالغا التاسعة والسبعين ، غير عالم أن رسائله التى منع نشرها قد احتفظ بها ابنه وتركها فى وصيته ، وأنها بعد طبعها فى العام التالى ستسلكه فى عداد أساطين الحكمة الدنيوية وفحول النثر الانجليزى .

الفصل الثالث

الحكام

١ - جورج الأول : ١٧١٤ - ٢٧

كان الانجليز أكثر حذقا من الفرنسيين فى شئون الحكم ، كما سيطبتين ذلك عما قليل فولتير ومونتسيكو . فبعد أن قطعوا رأس ملك ، وأرسلوا آخر يهرول رعبا عبر المانش ، استوردوا الآن ملكا خلف قلبه وعقله وراهه فى المانيا ، ملكا يقضى الاجازات الطويلة فى وطنه هانوفر ، ولا يصعب أن يهيمن عليه برلمان لم يوفق هذا الملك قط فى فهم أساليبه ولغته .

كان بيت هانوفر يمد جذوره فى المانيا الوسيطة ، ويرجع بنسبه الملكى الى أدواق برنزويك - لونبورج ، ثم الى هنرى الاسد (١١٢٩ - ٩٥) ، ومن قبله الى أجداده الولف أو الجويلف . وقد أصبحت هانوفر نفسها امارة ناخبة للامبراطورية الرومانية المقدسة فى ١٦٩٢ . وتزوج ناخبها الأول ، ارنتست أوغسطس ، من صوفيا حفيدة جيمس الأول ملك انجلترا . وبعد موت ارنتست أصبحت أرملته وريثة للعرش. الانجليزى بقانون تسوية الوراثة الذى أصدره البرلمان فى ١٧٠١ .

ولكن ولدها جورج لويس ، ناخب هانوفر الثانى ، كدر هناة. هذا الميراث السعيد بزواج تعس . ذلك أن زوجته صوفيا دوروثيا قد استنكرت خياناته ، فدبرت أن تهرب مع الكونت فليب فون كوينجز مارك ، قائد الحرس الجميل . واكتشف جورج المؤامرة ، ولم يسمع بخبر للكونت بعدها قط ، وأغلب الظن أنه أعدم (١٦٩٤) . وقبض على صوفيا دوروثيا وحوكمت ، وأبطل زواجها ، وزج بها فى السجن طوال لاسعوام الاثنيين والثلاثين الباقية من عمرها فى قلعة آدن . وكانت قد ولدت لزوجها بنتا أصبحت أم فردريك الأكبر ، وولدا أصبح جورج الثانى ملك انجلترا .

٩ - قصة الحصار

وما تت صوفيا ، ناخبة هانوفر الارملة ، فى ١٧١٤ ، قبل أن تموت الملكة آن ، ففقدت بذلك منصب الملك ، ولكن ولدها نودى به على الفور ملكا لبريطانيا العظمى وارننده باسم جورج الأول . وفى سبتمبر وصل الى انجلترا ، بادئا عهدا جديدا فى التاريخ الانجليزى . وجلب معه ابنة وزوجة ابنه ، وعددا من المساعدين الالمان ، وخليتين ، شارلوت فون كيلمانزيجى ، التى خلع عليها لقب كونتيسة دارلنجن ، والكونتيسة ميلوزينا فون در شولبورج ، التى خلع عليه لقب كونتيسة كندال ، وربما تزوجها . ولعل انجلترا كانت متقبلة هذا الترتيب باعتباره متفقا وأخلافيات ذلك الزمان ، لولا أن كلتا السيدتين كانت فى عيون البريطانيين قبيحة غالية التكلفة ، فميلوزينا تباع نفوذها بأثمان باهظة ، حتى أن ولبول شكا منها وهو رب الساد والرشوة ، وكان جواب جورج أن سال ولبول : الا بتقاضي هو نفسه اتعابا لقاء نوصياته على طلاب المناصب (١) ؟

فى ١٧١٤ كان جورج الأول فى الحادية والخمسين من عمره ، فارح الطويل عسكري السميت ، « رجلا بسيطا فذلا » . لا يكثر مثقال ذرة للكتب ، ولكنه كان قد أثبت بسالته فى أكثر من ساحة قتال . وقد قالت الليدى مارى مونتاجيو فى وصفه انه « رجل انه أمين (٢) » ، ولكنه لم يكن بالغباء الذى يبدو عليه ، وقد اعترفت بأنه « كان طبيبا على نحو سلبى ، يود أن يستمتع الناس جميعا بالهدوء لو أنهم تركوه بفعل ذلك (٣) » . وما كان أحد يتوقع أن هذا الرجل سيحمر بالاطمئنان والبسر فى بيئة غريبة علبه كهذه البيئة ، ومنصب قلق كهذا المنصب . فلقد استأجرته اولجاركية بريطانية ليحول دون رجوع الملكية الاستيوارتية مرة اخرى ؛ ثم رأى أن هؤلاء الانجليز المسيطرين ، الذين هممنوا على البرلمان ، مصممون على الهيمنة عليه هو أيضا ؛ ولم يستطع أن يغتفر لهم تحدثهم بالانجليزية . واعتقد أنهم أدنى من عشرائه الهانوفرين . فاعتكف فى خلوات قصر سانت جيمس ، وهرب الى هانوفر كل سنة تقريبا ، وبذل ما وسعه من جهد ليوجه الاموال والسياسة الانجليزية لحماية امارته المحبوبة .

وضاعف من محننه كره ابنه له لأنه اعتبره قاتلا . ذلك أن جورج

أوغسطس ، الذى أصبح الآن أمير ويلز (ولى العهد) ، ندد بسجن أمه المتصل ، وتمرد على سطوة خليلات الملك وغطرستهن ، وتشاجر مع وزراء الملك ، وأصبح عن آرائه فى صراحة حملت أباه على إقصائه عن القصر . واعتزل الأمير وزوجته كارولين ، اللذان فصلهما أمر ملكى عن أبنائهما ، ليفتتحا بلاطا منافسا فى قصر لستر (١٧١٧) . ووفد عليهما نيوتن ، وتشبترفيلد ، وهرفى ، وسويفت ، وبوب ، وسيدات المجتمع المغرور الأكثر حيوية ومرحا ، فوجدوا الأمير أشد فظاظة وغباء حتى من الملك .

وكان هذا التصدع فى الأسرة المالكة منسجما فى عمومه مع انقسام الأقلية الحاكمة والبرلمان الى حزبي التورى (المحافظين) والهويجز (الأحرار) . وقد قدر فولتير أن نحو ثمانمائة رجل هيمنوا على الحكم فى المجالس البلدية ، والانتخابات البرلمانية ، والتشريع القومى ، والادارة والفضاء (٤) . وتوقف كل حديث مزعج عن الديمقراطية ، كذلك الذى أثاره « مستقلو » كرومويل « والمسوون » . وكان التصويت للبرلمان وقفا على أصحاب الملكيات - وهم لم يتجاوزوا ١٦٠٠٠ فى هذه الحقبة (٥) - وهؤلاء كانوا عادة يقبلون المرشح الذى يزيكه المالك الرئيسى للأرض أو اللورد (٦) المحلى . وانتمى السياسة لأحد الحزبين حسب تأييدهم أما للنبلأ أصحاب الألقاب ، وأما للأعيان وأصحاب المصالح التجارية . فأما « رجال الكنيسة الانجليكانية » فاتبعوا مذهب المحافظين ، وأما المنشقون على الكنيسة فأيّدوا الأحرار . وكان المحافظون قد عارضوا فى أن يخضع الملك للبرلمان ، وتشبثوا مع الكنيسة الرسمية بنظرية حق الملوك الالهى ، وفكروا قبيل وفاة الملكة آن فى رد الاستيوارتيين المنفيين الى السلطة ؛ أما وقد تربع بيت هانوفر الآن على العرش فقد كان طبيعيا أن يزيحهم الأحرار المعادون لأسرة أستيوارت ، وبينما كانت الوزارة الى ذلك الحين تضم عادة رجلا من كلا الحزبين ، نرى جورج الأول يقصر المناصب العليا على الأحرار ، وهكذا أرسى نظام الحكم بواسطة الحزب عن طريق مجلس للوزراء . فلما توقف الملك بعد قليل عن رئاسة اجتماعات الوزارة لعدم فهمه الانجليزية ، أصبح العضو المهيمن « وزيراً أول » أو رئيساً للوزارة ، وتقلد شيئا فشيئا المزيد من وظائف الملك وسلطاته .

ورأس الوزارة جيمس ستانهوب سبع سنين . ومن اول قوانينه وأكثرها شعبية رده جون تشرشل ، دوق ملبره - الذى اتهمه المحافظون من قبل - لجميع مناصبه السابقة ، خصوصا القيادة العامة للجيش ، وبعد عودة الدوق من منفاه اعتكف فى قصر بلنهم ، وهناك عانى الام المرض الطويل ، ومات فى ١٦ يونيو ١٧٢٢ ، أما الامة التى اغتفرت له مقتنياته وتذكرت انتصاراته المتعاقبة ، فقد قبلت هذا الحكم الذى أصدره عليه بولنبروك - « لقد كان رجلا عظيما الى حد لا أتذكر معه هل كانت له أخطاء أو لم تكن (٧) » . وأما أرملة ، وهى سارة تشرشل التى ظلت عشر سنوات تحكم حكم الملكات ، فقد أنفقت اثنتين وعشرين سنة تقديس ذكراه وتذود عنها . فلما طلب الدوق سمرست يدها أجابت « لو أننى عدت صبية وجميلة كما كنت ، لا عجوزا ذابلة كما أنا الآن ، ولو كان فى وسعك أن تطرح ملك الدنيا بأسرها تحت قدمى ، لما استطعت أبدا أن تقتسم قلبا ويذا كانا فى يوم من الأيام ملكا لجون تشرشل (٨) » . وفى ١٧٤٣ ، قبل وفاتها فى الرابعة والثمانين بعام ، فكرت فى احراق رسائلها الغرامية القديمة ، ولكنها حين أعادت قراءتها شعرت « بأننى لم أستطع أن أحرقها » ، فتركها لتعيش (٩) . ولا بد أنه كان هناك خير كثير فى امرأة استطاعت أن تحب بهذا القدر من الوفاء ، وفى رجل استطاع أن يظفر بمثل هذا الحب من امرأة عصرية الى هذا الحد .

وحل بولنبروك محل ملبره فى المنفى . ذلك أنه بعد أن طرده جورج الاول من الحكومة ، وهدد بتقديمه للمحاكمة بتهمة التفاوض سرا مع الأسرة المالكة التى سقطت ، وكرهه الأحرار والمنشقون على الكنيسة الذين وخزهم بسخريته وخزا موجعا ، واجتنبه رجال الكنيسة لأزدرائه اللاهوت المسيحى - بعد هذا كله فر الى فرنسا (مارس ١٧١٥) ؛ وانضم الى جيمس الثالث ، وأصبح وزير دولة لدولته التى لا وجود لها ، وعاون على تنظيم تمرد استيوارتى فى انجلترا ، واقترح غزوها من فرنسا . فاعلن البرلمان ادانته بالخيانة ، وصادر ثروته ، وحكم عليه بالاعدام .

وأوشكت حركة رد الاستيوارتيين أن تطيح بعرش جورج الاول

فالمحافظون الكارهون للمهانوفريين لأنهم أحلاف غاصبون ؛ وعامة الناس في إنجلترا ، الراسخون في الولاءات القديمة ، والتواقون سرا للأسرة المنفية ؛ وطبقات اسكتلنده العليا والدنيا ، الفخورة بأنها أعطت إنجلترا ملكا اسكتلنديا ، الضيقة أشد الضيق بقانون الاتحاد (١٧٠٧) الذى قضي على البرلمان الاسكتلندى - كل أولئك كانوا على استعداد للتحريض على غزوة يقودها الشاب الذى اعترف به لويس الرابع عشر ملكا شرعيا أوحد على إنجلترا .

وكان جيمس فرانسس ستيوارت قد بلغ الآن (١٧١٥) السابعة والعشرين ، وان عرفه التاريخ باسم « المطالب المسنّ بالعرش » . كان قد ربي في فرنسا ، وأشر به المذهب الكاثوليكي معلموه الرهبان ومعاناة أبيه جيمس الثانى اشرابا رفض معه حجة بولنبروك الذى زعم له أنه سيتوى الميل لأسرته في إنجلترا اذا هو وعد باعتناق البروتستنتية . قال له بولنبروك وهو يحاوره ، كيف يمكن حمل الاسكتلنديين المشيخين (أتباع كلفن) ، والانجليكان المحافظين ، على تأييد رجل يأتى الى عرشهم بالمذهب الذى قاتلوا للاطاحة به طوال قرن حافل بأشد الاضطراب؟ ولكن جيمس كان صلبا لايلين ، فصرح بأنه يؤثر أن يكون كاثوليكييا بغير عرش ، على أن يكون ملكا بروتستنتيا . أما بولنبروك ، البريء من الايمان والمبادئ ، فقد حكم على جيمس بأنه أصلح للرهبنة منه للملك (١٠) . وكان البرلمان خلال ذلك (أغسطس ١٧١٤) قد عرض دفع ١٠٠.٠٠٠ جنيه مكافأة لمن يقبض على جيمس الثالث اذا وطىء تراب بريطانيا .

ثم بدا أن عاملا شخصيا يحول الأحداث الى خدمة قضية المطالب بالعرش ، ذلك أن جون ايرسكين ، ايرل مار ، كان وزيرا لشئون اسكتلنده فى السنوات الأخيرة للملكة آن . فلما طرده جورج الأول ، وضع الخطط لثورة استيوارتية في إنجلترا ، ثم أبحر الى اسكتلنده واستتفر الاسكتلنديين لينضوا تحت لواء ثورته (٦ سبتمبر ١٧١٥) وظاهره نفر من النبلاء ، فارتفع عدد قواته الى ستة آلاف راجل وستمائة خيال ؛ ولكن أدنبره وجلاسجو والسهول الجنوبية ظلت موالية للملك الهانوفرى . وقررت الحكومة البريطانية الاعدام عقابا للخيانة

والمبادرة الملكية لجميع العصاة . وعبات ثلاثة عشر ألف رجل ، ودعت ستة آلاف آخرين للأسطول ، ثم أمرت دوق أرجيل قائد حاميتي ادنبره وستيرلنج بأن يخمد التمرد . فالتقى بقوات مار عند شريفموير (١٣ نوفمبر ١٧١٥) فى معركة لم يستطع أى الفريقين أن يدعى لنفسه فيها نصرا حاسما . وتقدمت قوة اسكتلندية أخرى فى تهور الى ثلاثين ميلا من ليفربول بدلا من أن تنضم الى مار ، مؤملة عبثا أن تثير ونحى حركات التمرد الاستيوارتية فى المدن الانجليزية . وفى برستون طوفها جيش حكومى وأكرهها على التسليم دون قيد أو شرط (١٤ نوفمبر) .

ولا بد أن جيمس الثالث كان على علم بهذه الأحداث قبل أن يتلع من دنكرك فى ٢٧ ديسمبر . وكان بولنبروك قد أنذره بان ثورة استيوارتية لن تذهب فى انجلترا . ولكن المطالب بالعرش دثبة للمضي فى هذه المغامرة ايمانه بالشرعية الالهية لقضيته ، مضافا اليه ١٠٠.٠٠٠ كراون من الحكومة الفرنسية وثلاثين الفا من الفاتيكان . فلما رسا على ارض اسكتلنده انضم الى جيش مار فى بيرث ، ووضع الخطط لحقل تتويج مهيب فى « سكون » . ولكن صمته واكتنابه ، وشكواه من أنه خدع فى مدى انتشار التمرد ، كل أولئك لم يضيف شيئا الى حماسة الاسكتلنديين ، فشكوا بدورهم من أنهم لم يروه قط يبنسم ، ونادرا ما سمعوه يتكلم (١١) . أضف الى ذلك أنه كان يرتعد من الملاريا ، ولم يحتمل شتاء الشمال . ورأى مار أن جنده لا يصلحون للمعركة ، فأمرهم بالتقهقر الى مونتروز ، وبحرق جميع المدن والتري والمحاصيل فى اثرهم لتعطيل أرجيل عن مطاردته . وأسف جيمس على هذا التدمير ، وترك نقودا ليعوض بعض ما خسر اولئك الذين تضررت املكهم . فلما اقترب جيش أرجيل الذى كان متفوقا جدا من مونتروز فر جيمس ، ومار ، وغيرهما من قادة الثورة مسرعين الى الساحل ، وأبحروا الى فرنسا (٤ فبراير ١٧١٦) . واستسلمت القوات الثائرة أو تفرقت فى كل مكان .

ورحل معظم الأسرى ليخدموا عبيدا فى المستعمرات ، وأعدم سبعة وخمسون ، وتقرر أعدام اثنى عشر نبيل اسكتلنديا التجاوا الى فرنسا ، لذا عادوا منها . وكان جيمس قد راوده الأمل فى أن يرسل فليب أورليان

جنودا يخفون لنجدته فى اسكتلنده ، ولكن فرنسا كانت الان تفكر فى .
التحالف مع انجلترا ، فحثت جيمس على أن يرحل عن أرض فرنسا .
ومن ثم أقام حيناً فى أفنيون البابوية ، ثم فى روما .

وبقى بولنبروك فى فرنسا حتى ١٧٢٣ ، واذ كان يجيد الفرنسية
فانه انطلق على سجيته فى الصالونات بين الفلاسفة . وكان يحذق كل
شيء الا السياسة ، فاشتري أسهما فى مشروع لو ، ثم باعها بربح كبير
قبل أن تنفجر « الفقاعة » . واذ كان قد ترك زوجته فى انجلترا ،
فانه اتصل اتصالاً كاد يكون شريفاً بمارى ديشان دمارسى ، وهى
مركيزة فيلييت الأرملة . وكانت فى الأربعين ، وهو فى الثامنة والثلاثين .
وكانت ككثيرات جدا من النساء الفرنسيات قد احتفظت بجاذبيتها مع
أنها فقدت بعض جمالها ، ولعل تهذيبها وحيويتها وذكاؤها هو ما جذب
اليها ، فعشقها ، ولما ماتت الليدى بولنبروك تزوج المركيزة ، وذهب
ليعيش معها فى لاسورس . وهناك زاره فولتير كما سبق الفول
(١٧٢١) . قال الفيلسوف الشاب « وجدت فى هذا الانجليزى الشهير
كل علم أمته ، وكل أدب أمتنا (١٣) » .

على أن قمع الثورة كان قد أطاح برعوس بعض النبلاء ، ولكنه
لم ينتقص من العطف على الاستيوارتيين فى بريطانيا . وقد قضت
القوانين الثلاثية الأعوام التى صدرت فى ١٦٤١ و ١٦٩٤ بالا يستمر أى
برلمان أكثر من ثلاث سنين . ومن ثم وأجه أول برلمان لجورج الأول فى
١٧١٧ احتمال انتخابات قد تعود فيها أغلبية للمحافظين والمتشيعين،
للاستيوارتيين . وتفاديا لهذا الخطر قرر البرلمان ، بمقتضى قانون
السبع السنين الذى أصدره فى ١٧١٦ ، أن يمد فى عمره أربع سنوات .
أخرى ، وقضى بأنه يجوز بعد ذلك لجميع البرلمانات أن تستمر سبع
سنين . قال ألمع حفدة ملبره « كان هذا أجراً وأكمل تأكيد لسيادة
البرلمان عرفته انجلترا الى ذلك الحين (١٣) » . وصدق جورج الأول
على القانون الجديد لخشيته هو أيضاً من فوز المحافظين ، وكان معنى
هذا فعلاً أن الهانوفرين اضطروا للتخلى عن سلطتهم لكى يملكو .

ورغبة فى المزيد من الحماية للأسرة المالكة الجديدة أبرم ستانهوب

مع فرنسا وهولنده (١٧١٧) حلفا ثلاثيا أنهى التأييد الفرنسي لمطالب اسرة ستيوارت ، والتأييد الانجليزي لأسبانيا ضد فرنسا . وفى ١٧٢٠ وقعت فرنسا صلحا ينطوى على الخضوع ، واستطاع جورج الاول أن يتربع على عرشه الأجنبى فى السنين السبع الباقية له من أجله بقدر أكبر من الاطمئنان . وفى ١٧٢٦ أرسلت اليه زوجته التى ما زالت حبيسة خطابا مرا ، وتحدثه أن يلقاها بعد عام أمام كرسي قضاء الله . وما لبثت أن ماتت بالحمى المخية . وتقول رواية أن عرافا تنبا بأن جورج الاول لن يعمر أكثر من عام بعد زوجته . وفى ١٧٢٧ بدأت صحة الملك تتدهور . وفى يونيو غادر انجلترا ليزور بلده الحبيب هانوفر . وقرب اوزنابروك ألقيت فى عربته ورقة مطوية ، وكانت تحوى لعنة قرحتها له زوجته وهى فى النزاع . فلما قرأها الملك اضطرب اضطرابا شديدا . ، وما لبث أن قضى نحبه فى ١١ يونيو (١٤) .

٢ - جورج الثانى والملكة كارولين

وتلقى ابنه وعدوه النبا كأنه القصاص العادل الذى أصدرته العناية الالهية وامهلت تنزيده امهالا غير معقول . وحين قدم رئيس اساقفة كنتربرى لجورج اوغسطس وصية الملك الراحل حشاها فى جيبه ولم يذعها قط . وقال بعضهم انه تكتم امرها لأنها اقترحت الفصل بين تاجى هانوفر وانجلترا ، وزعم آخرون انها تركت لحفيده فردريك لويس ، ولخليته أو زوجته دوقة كندال ، ولاذته ملكة بروسيا ، مبالغ كبيرة كانت كفيلة بالانتقاص من ثروة الملك (١٥) . ولكن التساريخ يجهل الحقيقة .

كان جورج الثانى كابيه جنديا باسلا ، وفى الخامسة والعشرين أبلى بلاء حسنا تحت قيادة يوجين وملبره فى معركة أودينارد (١٧٠٨) ؛ وفى الستين سيفود جنده الى النصر فى ديتنجن (١٧٤٣) . وكثيرا ما كان ينقل عادات المعسكر الى البلاد ؛ فيصبح غاضبا ، ويغدى على وزرائه نعوتا مثل « الأوغاد » و « الشديدي الغباء » و « المهرجين (١٦) » ولكنه جاهد ليتقن صناعة الملك ، وتكلم الانجليزية دون خطأ وان شابتها لكنه وستفالية ثقيلة (١٧) ، ولاحظ فى ضيق ولكن فى حذر تلك القيود

التي فرضها البرلمان على سلطاته ودخله ، وظل ثلاثة عشر عاما يساند ولبول في جهوده لتمكين جون بول من ايفاء ديونه ونشر السلام في ربوعه . وكان كأبيه كثير التردد على هانوفر ، الامر الذي ابهج كل من يعينهم الامر . ثم تشاجر كأبيه مع أمير ويلز (ولى العهد) لانه « كان من بعض تقاليد الاسرة الموروثة كراهية الابن البكر (١٨) » كما قال هوراس ولبول . وكان له كأبيه خليلات ، ولو لمجاراة المجتمع العصري ، ولكنه على عكس أبيه أحب زوجته حبا جما .

كانت كارولين ، ابنة الحاكم جون فردريك أمير برندنبورج - أنزباخ ، قد نشأت في بلاط شارلوتنبورج ، وهو بلاط أخت جورج الأول ، صوفيا سارلوت ، أول ملكة على بروسيا . وهناك التقت بليينتز واستمتعت بمناقشات الفلاسفة ، واليسوعيين ، واللاهوتيين البروتستانت ، وبلغت درجة فاضحة من التحرر والتسامح الدينيين . وقد عرض عليها شارل السادس ، الامبراطور « الروماني المقدس » يده وعقيده ، فرفضتها جميعا ، وتزوجت (١٧٠٥) من جورج أوغسطس ، أمير هانوفر الناخب « القصير القامة الأحمر الوجه (١٩) » ، وظلت وفيه مخلصه له الى النهاية رغم حدة طبعه وطبعها ، وخلال كل عثراته وخليلاته . وكان جورج يعنف في معاملتها ، ويكتب لها الرسائل الطويلة عن علاقاته الغرامية ، ولكنه كان يحترم عقلها وخلقها احتراماً كفى لتركها تحكم انجلترا (بمساعدة ولبول) خلال فترات غيابها الطويلة ، وتوجه سياساته حين يعود .

ولم يكن لها - فيما عدا شبابها البض النضر - من مفاتن الجسد النى تسيطر بها على زوجها غير يدين حلوتين ، ، وبعض لطائف في السلوك و الحديث ؛ ولكنه كان معجبا بتكوين صدرها ، وأمرها أن تعرضه عرضاً مقنعا (٢٠) . وازدادت بدانة مع كل حمل ، وترك الجدرى في وجهها ندوبا ، وكان صوتها عاليا صادرا من الحنجرة ، وكانت تحب الدس وتولع بالسلطة . ولكن الانجليز بدعوا شيئا فشيئا يحبون دعابتها الصادرة من القلب ، وأدركوا آخر الامر أى تضحية من هجتها وسعادتها كانت تبذل لتكون زوجة وملكة سالحة ؛ ورأى مفكرو انجلترا في دهشة أن هذه البرندنبورجية الجلفة كانت تملك ذهننا وأذنا يتذوقان

أدب العصر ، وعلمه ، وفلسفته ، وموسيقاه .

وكاد بلاطها يستحيل صالونا . فقد استقبلت فيه نيوتن ، وكلارك وباركلى ، وبطلر ، وبوب ، وتشسترفيلد ، وجاى ، والليدى مارى مونتاجيو . وأيدت المبادرة التى اتخذتها الليدى مارى فى التطعيم ضد الجدرى . وانتشلت ابنة الملتن من وهدة الفقر ، وناصرت هندل طولال ذرورات الجمهور والملك . وتبرعت من جيبها الخاص بالمال اللازم لتشجيع المواهب الشابة التى تفتقر الى المال (٢١) ، وأنقذت المهرطق هويستن بمعاش أجرته عليه . ووفرت الحرية الدينية لاسكتلنديين المتشيعين لأسرة ستيوارت ودبرت تعيين الاساقفة الأنجليكان على أساس علمهم لا سلامة عقيدتهم . وكانت هى نفسها من القائلين بالربوبية المتشككين فى الخلود (٢٢) ؛ ولكنها رأت ان الكنيسة الرسمية يجب ان تمولها الدولة باعتبارها معينا للشعب على الفضيلة والهدوء (٢٣) . قال فولتير « لا شك ان هذه الاميرة ولدت لتشجيع الفنون ولخير النوع الانسانى . . انها فيلسوفة لطيفة تتربع على عرش (٢٤) » .

وكان لها من الفلسفة حظ بصرها بالجانب الفكه فى مآسى الحياة ، حتى فى ساعة احتضارها . وكانت مصابة اصابة قاتلة بفتق أخفته طويلا عن الجميع الا الملك ، فنصحته وهو يومها فى الخمسين بان يتزوج ثانية بعد موتها . وكشف جوابه ، وهو مخلص فى حزنه ، عن طبيعة عصره « لا ، سأخذ خليلات » قالت « ربا ، هذا لا يمنعك من الزواج (٢٥) » وقد بكاهها بعاطفة لم تعهد فيه فقال « لم ار قط امرأة تستحق ان تربط حذاءها (٢٦) » . وبعد ثلاثة وعشرين عاما ، وتنفيذا لوصيته ، فتح نعشها فى كنيسة وستمنستر لترقد عظامه الى جوارها .

٣ - روبرت ولبول

لقد كان لانتصارها الباسل لولبول امام عصابة من الاعداء طلاب المناصب وتجار الحروب الفضل فى تمكينه من ان يعطى انجلترا عشرين عاما من الرخاء والسلام . ولم يكن ولبول « بالولى » او القديس ، ولعله كان أفسد وزير عرفته انجلترا فى تاريخها ، ولكنه كان ايضا من خيرة

وزرائها ففي ذلك العصر الفاسد ما كان للحكمة أن تحكم الا عن طريق الرشوة والفساد .

كان روبرت قد نذر للكنيسة باعتباره أصغر الأبناء في أسرة نورفوكية عريقة ، وفي اينن التي زامل فيها غريمه المستقبل بولنبروك كان هذا هدف دراسته . ولكن موت اخوته الكبار جعله الوريث لثروة الأسرة ؛ ولما كانت الأسرة تسيطر على ثلاث دوائر انتخابية ، فانه لم يجد عناء في التحول بنجاح من اللاهوت الى السياسة . وحين بلغ الخامسة والعشرين دخل مجلس العموم عضوا في حزب الأحرار (١٧٠١) ، وعين وزيرا للحرب (١٧٠٨) بفضل اتصالاته ، وماله ، وذكائه الحاضر ، وتمكنه من المالية الادارية . وفي ١٧١٢ عزله المحافظون الفائزون ، وزجوا به في برج لندن بتهمة الفساد ، ولكن رائحة الذهب كانت قد غدت من الثبات وقوة السلطان بحيث أحدثت تبليدا في الأنوف نتم يلبث أن أفرج عنه ، وأعيد انتخابه ، وعين وزيرا للخزانة (٧١٥) . وحملته تعقيدات السياسة على الاستقالة في ١٧١٧ . وفي ١٧٢٠ أقنع انهيار شركة بحر الجنوب وتبرير انذاراته الجميع حتى خصومه بأنه أصلح الرجال لرد انجلترا الى حالة الاستقرار المالي . فلما عاد الى منصب وزير الخزانة (١٧٢١) أوقف حالة الذعر كما سبق القول ، بوضعه مصرف انجلترا ظهيرا لالتزامات الشركة ، وسدد بالتدريج كل دين الشركة للشعب وقدره ٧ر٠٠٠ر٠٠٠ جنيه (٢٧) . وكافا المقامرون الشاكرون ولبول بائنين وعشرين عاما من السلطة .

وقطع اعتلاء جورج الثانى العرش سلطان ولبول برهة . ذلك أن الملك الجديد كان قد أقسم ليكون خصما لدودا لكل من خدموا أباه ؛ فعزل ولبول ، وطلب الى السير سبنسر كونتن أن يشكل وزارة جديدة . ولكن سرعان ما أظهر كونتن قصور مواهبه واعترف به . فنصحت كارولين زوجها بأن يرد ولبول الذى دعم حاجتها بوعده الملك والملكة يراتب أكبر . وقبل السير سبنسر لقب الايرل شاكرا ، واستعاد ولبول حكمه . وكان أول من أطلق عليه لقب « الوزير الأول » ، على سبيل التحقير (كما كانت الحال فى ألفاظ « المسيحى » ، و « البيورتانى »

و « المثودى ») . وكان أول رئيس للوزراء يتخذ داوننج ستريت مقصرا رسميا له .

ويلقى خلقه بعض الضوء على فن النجاح السياسي . فهو لم ينفق فى الجامعة غير سنة ، وكان ضعيفا من حيث الاعداد التعليمى المعهود فى روعساء الوزارات البريطانيين . ولم يكن فى سلوكه أو كلامه كبير تائق . يقول ماكولى انه « اذا كف عن حديث السياسة لم يستطع أن يتحدث الا عن النساء ، وكان يفيض فى موضوعه المحبب بحرية صدمت حتى ذلك الجيل الذى لم يتحرج فى الفاظه (٢٨) » . ولم ير ابنه هوراس أن فيه قصورا لأنه لم يقرأ من الكتب الا القليل ، « فلقد عرف البشر ، لا كتاباتهم ، واسترشد بمصالحهم لا بنظمهم (٢٩) » . وكان ملما بقدر من اللاتينية يكفى لاستعمالها وسيط تفاهم بينه وبين جورج الاول ، لأن ذلك الملك كان يجهل الانجليزية ، وولبول لم يعترف لا الالمانية ولا الفرنسية . وكانت له كل صفات جسون بول ، اللهم الا المشاكسة ، فهو بدين ، صريح ، مخلص ، ودود ، عملى ، يستمتع بالولائم والشراب ، ولكنه يكذب ويكدهج اذا دساه داعى العمل ؛ وربما كان فيه أيضا من أوجه الشبه بجون بول انه أثر خشخشة كيسه على صليل سيفه .

أما الأخلاق فلم يكذب يملك منها أى حظ . فقد عاش سنين فى زنا مفضوح دون أن يبدي كبير احترام للياقة المهذبة التى تراعيها الأرستقراطية فى رذيلتها . وكان يمزح مع الملكة كارولين عن خليلات زوجها ، فلما ماتت نصح بناتها بدعوة وصيفات الشرف ليسرين عن الملك المحزون . وكان يسخر من الدين ، وحين دنت منية كارولين أرسل فى طلب رئيس أساقفة كنتربرى قائلا « لا بأس بتمثيل هذه المهزلة ، وان رئيس الاساقفة لكفيل بحسن تمثيلها . ولكم ان تطلبوه بأسرع ما تريدون . فلن يضر الملكة ، ولن ينفعها ، وسيرضى هذا جمع المغفلين العقلاء الطبيين ، الذين سينعتوننا بالكفر اذا لم نتظاهر باننا مثلهم من كبار المغفلين (٣٠) » . ولم يكثرث للدوافع النبيلة أو ادعاءات التجرد من الانانية . وقد توسل بمنصب الدولة لجمع ثروة خاصة كما فعل ملبره . ووجد المناصب السياسية المجسزية لولده هوراس وغيره من ذوى قرباه . وانفسق

٢٠٠٠ ر.٢٠٠٠ جنيه ليشيد بيوتا فخمة فى ضيعته بهوتون ، وزينها بلوحات قدرها هوراس بمبلغ ٤٠٠٠٠٠ جنيه ، وكان بيته فيها مفتوحا لأهل نورفوك جميعا (٣١) . وكان فى سخاء جون بول لانه (اذا صدقنا خصومه) لم يستطع أن يفرق تفريقا واضحا بين مال جون بول وماله الخاص .

واستعمل المال ليشتري أعضاء البرلمان كما استعمله ريشليو ليشتري الجيوش ، وهنرى الرابع ليسكت الأعداء . وكان ولبول يستخدمه ملاذا أخيرا بعد أن تعييه الجحج الأكثر ليينا . ذلك أن الفساد البرلمانى الذى ظهر فى عهد تشارلز الثانى بلغ النقطة التى لم يمكن عندها التعامل مع البرلمان ، خيرا كان الهدف أم شرا ، الا « بالتشحييم » على نطاق واسع . واحتفظ ولبول باحتياضى سرى - وحتى بحجرة خاصة - لشراء الكراسى والأصوات ومحبرى الصحف ، وقيل انه أنفق ٥٠٠٠٠٠ جنيه كل عام لاعانة الدوريات لتشرح وجهة نظره (٣٢) . وفى ١٧٢٥ حث جورج الأول على انشاء « وسام الحمام الأسمى » الذى يتألف من الملك ، ورئيس أكبر ، وستة وثلاثين فارسا من الزملاء ، فقد رأى لولبول ، كما رأى نابليون من بعده ، أن حكم الرجال بالأوشحة أقل تكلفة من حكمهم بالمال .

وقد استخدم هذه الأساليب الفاسدة ليحفظ لانجلترا بالرخاء والهدوء . ولم تبرر غاياته وسائطه ، ولكنها كشفت عن الجانب الأفضل فى خلقه . فلقد كان رجلا حسن النية ، عقد العزم على أن يحفظ لبلده الاستقرار والثبات رغم كل زعازع السياسة الحزبية ، وأنواء المصالح الطبقيية ، وصيحات غلاة الوطنية المطالبين بالحرب . وقال ان شعاره ان يترك الشر نائما . واذا كان هذا المبدأ قد نرك حكمه غير متميز بفتوح او اصلاحات ، فانه اكتسب ثناء المنصفين . واضطر خصومه الى الاعتراف بانه لم يكن محبا للثأر ولا حقوقا ، وأنه كان أجدر بالثقة ، لا بل أكثر ايمانا ، فى صداقاته مما ينتظر من انسان خبر جوانب البشر الأكثر انحطاطا (٢٣) . ولم يكن لديه خطط بعيدة للمجد والعظمة ، ولكنه عالج كل مشكلة حين تعرض له بالكثير من الدهاء والتسامح واللياقة ، حتى اغتفرت له انجسره فى النهاية كل أخطائه الا حبه للسلام .

وقد وفق تشريعه الاقتصادى بين الاعيان ملاك الأرض وطبقة

رجال الأعمال . فحاول أن يخفض الضرائب على الأرض ، وأيد العقوبات البصارمة على العدوان على الملكية . ثم رحب في الوقت ذاته بظهور الرأسمالية . وخص التجار . ورجال الصناعة بمنح التصدير ورسوم الاستيراد ، وبدا غير مكترث لفقر العمال المحرومين من الأرض في القرى ، والبرولتاريا المتكاثرة في المدن ؛ والظاهر أنه أحس أن سوء توزيع الثروة نتيجة لا مفر منها لسوء توزيع الطبيعة للكفايات . وإذا استثنينا تلك المنح والرسوم فإنه نادى بسياسة حرية التجارة قبل الفزيوقراطيين الفرنسيين وأدم سمث بزمن طويل ؛ وقد خفض الضرائب على ١٠٦ سلعة تصدير في سنة واحدة ، وعلى ثمان وثلاثين سلعة استيراد ، وأزال الكثير من القيود على تجارة المستعمرات الأمريكية ، وكان رأيه أن الاقتصاد الانجليزي يزكو في ظل أقل القليل من التشريع الحكومي . وقد برر الزمن رأيه ، فنمت الثروة القومية بسرعة رغم ما شابها من سوء توزيع ، وزادت إيرادات الحكومة ، وبفضل التصرف فيها بقصد وكفاية كسب ولبول الثناء عليه باعتباره « خير وزير للتجارة أنجبتة البلاد (٣٤) » .

على أن مشروع قانونه الخاص بضريبة الانتاج منى بأفدح الهزائم (١٧٣٣) . ذلك أن مهربي التبغ والنبيد كانوا يحرمون الخزائنة من الرسوم الجمركية ، ويحملون الملكيات بأكثر من نصيبها في الضرائب . وتفاديا لهذا الضرب من المشروعات الحرة اقترح ولبول ضريبة انتاج (وهي شريحة « تجنب » للحكومة) تفرض على هذه السلع حيثما اختزنت أو بيعت في إنجلترا . وخول لموظفي الضرائب (« رجال الانتاج ») أن يفتشوا أى بيت في أى وقت ، وكان الأشخاص الذين يتضح أنهم اخفوا سلعا خاضعة للضريبة يعاقبون بالغرامة أو السجن . وهبّ الى الاحتجاج كل من له صلة باستيراد التبغ أو النبيذ أو تهريبهما أو بيعهما أو استهلاكهما . وندد خصوم ولبول في مجلس العموم بالضريبة ، وطريقة تنفيذها ، قائلين انها اجراء تعسفى من طاغية مستبد ، وعدوان فظيع على الحرية البريطانية . « لقد أخبر أعضاء البرلمان ولبول بانهم لا يرون ياسا في أن ينقدهم اجرا على شرورهم العادية ، أما هذا الاقتراح فهو يتجاوز حدود فسادهم (٣٥) » كما أوضح فردريك الأكبر - أو لعلمهم أملاوا أن يحطوا محله في الاشراف على

المال العام . وراحت النشرات من آلاف النسخ ، تسبب الوزير بلغسنة سوقية مفعمة بالحماسة . وتقاطرت الحشود حول وستمستر هول ، وأحرقوا دمي تصور ولبول في عشرات الحرائق ، وحاولوا تمزيقه اربابا وهو يغادر كنيسة القديس ستيفن ؛ لقد استثيرت الأمة الى شقا الثورة . وخافت الملكة كارولين على ولاء الجيش ، وارتعدت فرقا على سلامة الأسرة المالكة الجديدة . وسحب ولبول القانون مسلما بالهزيمة ، ومن هذه اللحظة أضمل سلطانه . وتكتل خصومه ليجهزوا عليه .

٤ - بولنبروك

وكانوا خصوما كثيرين متنوعين . فتآمرت جماعة منهم مازالت متشيعة لأسرة ستيوارت ، مع المطالب بالعرش ، وسنراها بعد قليل تنتشي بمغامرة « الأمير الجميل الشاب تشارلي Bonnie Prince Charlie » و « شلة » أخرى راحت ترقص حول فردريك لويس ، أمير ويلز (ولى العهد) ، عدو الملك ووريثه . وكان أعظم كتاب العصر الانجليز يناوئون الوزير - سويفت ، وبوب ، وفيلدنج ، وآريتنوت ، وطومسن ، واكينسايد ، وجاى ؛ تهكموا بسلوكه ، وفضحوا أخلاقه ، وعابوا سياساته ، ولاموه على قطع تلك المعونة السخية التى كانت تغدق على المؤلفين والتى تفردت بها الحكومة فى عهد وليم الثالث والملكة آن . أما المحافظون المتعطشون لرحيق المنصب فقد استعدوا عليه أصحاب السلطان سرا ، واستعانوا بالشعراء وأثاروا نائرة البرلمان فى عزمهم على أن يخلفوا هذا الوزير الشبيه بفولستاف على مزود الوزارة . وعبر وليم بلتنى ، وتشترفيلد ، وبت الصاعد ، بأصواتهم عن قضيتهم ، ودافع عنها بولنبروك فى غير هوادة بقلمه القتال .

وكان بولنبروك قد نال فى ١٧٢٣ عفوا ملكيا يسمح له بالعودة الى انجلترا واستعادة أملاكه ، ولكنه أبعد بنفوذ ولبول عن مناصب الدولة وعن عضوية البرلمان باعتباره رجلا تعددت خياناته وشك فى ولائه . على أن هذا لم ينتقص من سلطانه . ففى بيته بلندن التقت صفوة انجلترا ، مفتونة بوسامته والمعيته وعبير اسمه . هناك ، وفى بيته الريفى ، راج يتراشق بالسخريات مع سويفت ، وبالهرطقات مع

جوب ، وبالآغاني الشعبية مع جاي ؛ وهناك ناضل ليوحسد بين المحافظين الجياع وبين الاحرار الذين لم يظفروا بما يشبعهم من الرتسا ، فى معارضة متكثلة ضد ولبول ؛ وهناك نظم محررى وبرنامج مجلة - سميت اولاً (١٧٢٦) « السيد الريفى » ثم « الفنان » - راحت تكييل اللطمات ، اسبوعاً بعد اسبوع ، لكل شيء صنعه ولبول أو اراد أن يصنعه . وكتب بولنبروك بقلمه أشد المقالات أذى ، وهى أروع نثر سياسى شهده العصر بعد اضمحلال سويفت . وقد أهدى سلسلة من تسعة عشر خطاباً (١٧٣٣ - ٣٤) « رسالة فى الأحزاب » - الى ولبول تهكماً منه . كتب تشسترفيلد لابنه يقول « لم أكن أعرف مبلغ قوة اللغة الانجليزية حتى قرأتها (٣٦) » .

أما آفة بولنبروك فكانت خلقه . فلقد كان ادبه الجم (وهو ناموسه الخلقى الوحيد) يفارقه اذا أحببت مشيئته أو عورضت آراؤه . وفى يونيو ١٧٣٥ تشاجر مع بلنتى الزعيم الاسمى للمعارضة وعاد غاضباً الى فرنسا . وهناك استقر مع مركيزته قرب فونتنبلو وواسى جراحه بالفلسفة . وفى كتابه « رسائل فى دراسة التاريخ وقائده » (الذى ألفه فى ١٧٣٥) وصف التاريخ بأنه معمل هائل اجرت فيه الأحداث تجارب لا حصر لها على الرجال ، والاقتصاد ، والدول ، ومن ثم كان خير مرشد الى طبيعة البشر ، واذن فالى تفسير الحاضر والتنبؤ بالمستقبل . « ان التاريخ هو الفلسفة التى تعلم بالمثل . . . فنحن نرى الرجال بطولهم الكامل فى التاريخ (٣٧) » . وينبغى « أن نعكف عليه بروح فلسفية » وألا يقتصر همنا على فهم الأسباب والآثار والذاتج المتماثلة ، بل نجاوز هذا الى الطرق التى نبين الى الآن أنها معينة على تطور البشر وسعادتهم (٣٨) . والعقبة فى مثل هذه الدراسات هى « أن قلباً من كتب التاريخ يخلو من الأكاذيب ، وليس بينها كتاب يخلو من الأخطاء . . ولقد سرت روح الكذب من المؤرخين الكنسيين الى غيرهم (٣٩) » . ولكن قد يستطيع الطالب القوى العزم بمواجهة كاذب بأخر أن يشق طريقه بينهما الى الحقيقة . وفى ١٧٣٦ عاد بولنبروك الى حلبة السياسة بكتابه « رسائل فى الروح الوطنية » الذى هاجم فساد حكومة ولبول ودعا الى روح جسيديدة من الولاء المنكر للذات فى السياسة الانجليزية .

« لا مونتيني وهو يكتب « مقالاته » ، ولا ديكرت وهو يبنى عوالم جديدة ، ولا . . . نيوتن وهو يكتشف ويرسي القوانين الصحيحة للطبيعة على التجربة وعلى هندسة رقيقة ، لا أحد من هؤلاء شعر بابتهاج عقلى أكثر من الوطنى الصادق الذى يسخر كل قوة فهمه ، ويوجه كل أفكاره وأفعاله ، لخير وطنه (٤٠) » .

وتطلع أمله الى الجيل الأصغر . فلما زار انجلترا فى ١٧٣٨ سعى الى صداقة الأمير فردريك لويس ، ولى العهد ، الذى كان الآن يقود حركة المعارضة لولبول . ووجه بولنبروك الى سكرتير فردريك الخاص أشهر كتبه وهو « مفهوم الملك الوطنى » . وقد مات فردريك فى ١٧٥١ ، ولكن ابنه ، وهو الذى سيصبح جورج الثالث ، استقى من هذه الصفحات بعض مواد عقيدته السياسية (٤١) . وكان اقبال فى جوهره دعوة لنظام ملكى خير كذلك الذى سيحلم به فولتير و « الفلاسفة » فى الجيل التالى . فقد زعم بولنبروك أن انجلترا قد تردت فى هوة لا يقوى على انتشارها منها سوى ملك يرتفع فوق الشعب والأحزاب ، لا بل فوق البرلمان ، ملك يفيض على زمام السلطة ، ويعاقب الرشوة ، ويحكم كما يملك . ولكن الملك الوطنى سينظر الى سلطته لا على أنها حق الهى بل أمانة عامة ؛ لا مطلقة ، بل مقيدة بالقانون الطبيعى وحرىات رعاياه وحرية الصحافة وتقاليده المملكية ؛ وسيحكم على جميع المسائل حسب تأثيرها فى رخاء الشعب وسعادته (٤٢) . سيشرح التجارة باعتبارها أهم مصدر لثروة الأمة ؛ وسيقوى البحرية فى بريطانيا باعتبارها الحارس للاستقلال القومى ولتوازن القوى فى القارة .

كان « مفهوم الملك الوطنى » محاولة لبناء حزب جديد من المحافظين يلبس مبادئ الأحرار ويتألف من المحافظين الذين أقصوا عن الحكم والأحرار الساخطين ؛ حزب يرفض الولاء للاستيوارتيين ، يستهدف التوفيق بين الأرض والتجارة ، وبين الامبراطورية والحرية ، وبين الخدمة العامة والثروة الخاصة ★ . فلما نشر المقال (١٧٤٩) أصبح

★ قارن عبارة اللورد بيركنهد التى اجملت فكرة بولنبروك : « ذهب الأحرار للاستحمام ، فسرق بولنبروك ملابسهم (٤٣) » .

الصيحة التي احتشد حولها الشباب المتحمس الذين تطلّعوا الى الملكية بوصفهم « أصدقاء الملك » لتطهر حكومة انجلترا . وقد شكل الفلسفة السياسية لصموئيل جونسن وبت الاب والابن . واوحى بالمحافظة الليبرالية التي دان بها بنيامين دزرايلى ، الذى اشاد كتابه « دفاع عن الدستور الانجليزى » (١٨٣٥) ببولنبروك ابا للديمقراطية المحافظة ، والرجل الذى ارمي باعادة تنظيمه العقل العام تنظيما كاملا الاساس لعودة المحافظين الى الحكم (٤٤) . لقد كان تاثير بولنبروك ودزرايلى هو الذى صب من جديد حزب التورى المهزوم ليخرج منه حزب « المحافظين » التقدمى فى انجلترا اليوم .

٥ - كيف تنزلق الدول الى الحرب

وخلال ذلك تعاونت دعاية بولنبروك مع تلك الروح المقاتلة ، التي تتسم بها برلمان تسلط المال على تفكيره ، على انهاء حكم ولبول الطويل وكان الوزير الحذر ، الذى اقام سلطته على صون السلام ، ينفرد من التورط فى خصومات مع الدول الاجنبية ، فاتفق مع الكردينال فلورى - الذى كان يحكم فرنسا وفق مبادئ مماثلة - على الاحتفاظ اطول ما يستطيع بالسلام الذى ارسنه معاهدة اوترخت ، وترك فيما عدا ذلك ادارة العلاقات الخارجية لاختيه الكفء اوراثيو . ولكن احتفاظ انجلترا بجبل طارق ، وتنافس انجلترا واسبانيا على السيطرة على امريكا والبحار ، ولدا عنفا اشد بمضى الزمن . وكان جورج الاول ووزيره ستانهوب قد اكدا لفليب الخامس ملك اسبانيا فى يناير ويونيو ١٧٢١ أن انجلترا ستتخلى عن جبل طارق حالما تسمح بذلك مالية بريطانيا ويرتضيه مزاج البرلمان . ولكن الشعب البريطانى ابقى ان يرتضى هذا الاستسلام (٤٥) . فلنتابع الآن الرواية الانجليزية لكيفية انزلاق انجلترا الى الحرب ، فهي تبين غلو الجماهير فى وطنيتهم ونزاهة المؤرخين البريطانيين (٤٦) .

تقول الرواية ان شركة بحر الجنوب « استغلت استغلالا فاضحا » بذلك الامتياز الذى منحته اسبانيا لانجلترا ، وهو السماح لها بارسال سفينة تجارية واحدة فى السنة الى الممتلكات الاسبانية فى الدنيا

الجديدة ، وأن « تجارة كبيرة غير مشروعة قامت » ، تدير الشركة بعضها ، وتغضي عن بعضها الآخر . وكان رد أسبانيا على هذا تفتيش السفن الانجليزية المشتبه فى قيامها بالتهريب . وزعم روبرت جنكنز أنه فى أحد هذه التفتيش (٧٣١) فقد احدى أذنيه ، وقد احتفظ بها ، وعرضها على الناس فى بريطانيا ، وطالب عاليا بالانتقام . وصادر الأسبان بعض السفن الانجليزية المشتغلة بالتجارة المشروعة ، وأبقوا الأسرى الانجليز راسفين فى الأغلل ، وقبض القراصنة الانجليز على بعض الأسبان وباعوهم رقيقا فى المستعمرات البريطانية . واستمر التهريب ، واحتجت الحكومة الاسبانية ، وتباطا ولبول الذى كان يكره الانتقاص من دخل شركة بحر الجنوب المكافحة للبقاء ، رغم انه اشتد فى عقاب التهريب على السواحل الانجليزية . وحبذت طبقة التجار الانجليز الحرب ، واثقين من التفوق البحرى ، آمنين من الغزو ، متطلعين الى أسواق جديدة وتجارة متسعة . واثارت نائرة الشعب قصص الوحشية الاسبانية ، الصحيح منها والباطل . وكان الانجليز المطالبون باتخاذ اجراء فى الأمر يشاد بهم وطنيين بوسائل ، أما الذين نصحوا بالاعتدال فرموا بالجبن والخور . وعرض جنكنز على البرلمان أذنه فى زجاجة (مارس ١٧٣٨) ، فالقى بِلتنى ، وبت ، وغيرهما من المعارضين لولبول خطبا حماسية عن شرف انجلترا* . وفى لحن عسكرى معارض نددت جماهير الشعب الأسباني بالانجليز كلابا مهرطقين ، وانطلت عليها قصة زعمت أن ضابطا انجليزيا أكره أسبانيا نبيلاً على جدع أنفه وأكله .

أما الحكومتان فقد تصرفتا تصرفا معقولا - فنشر لاقوادرا ، كبير الوزراء الاسبان ، للاستهلاك الجماهيرى خطابا ماخنا وجهه الى ولبول ، ولكنه أخبره سرا بان أسبانيا ترحب بتسوية النزاع بعد المفاوضة . ثم وقعت الحكومة البريطانية - فى تحد لهذه المسورة

* يقول هوراس ولبول أنه حين مات جنكنز تبين أن له اثنين سليمين تماما . وتحدث بيريك عن « خرافة أذنى جنكنز (٤٧) » . ونسبت رواية أخرى سلم الأذن لقرصان عاقبته بعد ذلك الحكومة الاسبانية (٤٨) -

الجماهيرية الصاخبة - اتفاقية البارود مع أسبانيا (١٤ يناير ١٧٣٩)
 وفيها نزل كل من الجانبين عن أشياء ، وشكلت لجنة لتسوية كل الشكاوى
 المتعلقة . وقبل نصف الشعب الاسباني المعاهدة ، ولكن انجلترا باكملها
 تقريبا أعلنت سخطها عليها . وشكت شركة بحر الجنوب من أن المعاهدة
 ستنتقض من دخلها وأرباحها انتقاصا شديدا ، وكان السفير الانجليزي
 بمدير وكيل للشركة أيضا . يضاف الى هذا أن « الازينتسو » الذي
 سمحت أسبانيا بمقتضاه لانجلترا بامداد أمريكا الاسبانية بالعبيد
 الزنوج انتهى أجله في ٦ مايو ١٧٣٩ ، ورفض فليب الخامس تجديد
 العقد (٤٥) . ومع ذلك استدعى ولبول الأسطول الانجليزي من البحر
 المتوسط مواصلا سياسته السلمية ، ثم ألغى الامر بعد أن اشتبه خطأ
 في أن أسبانيا تبرم حلفا سريا مع فرنسا ، وأمر الأسطول بحماية جبل
 طارق . واحتج لاقوادرا ، وقطع ولبول المفاوضات مستسلما لنوبة الحرب،
 التي أصابت البرلمان والشعب ، وفي ١٩ أكتوبر ١٧٣٩ أعلنت انجلترا،
 الحرب على أسبانيا . واغتبط الشعب الذي كان لا يزال ينعن ولبول
 بالجبن ، وراحت أجراس الكنائس تقرع في انجلترا طولا وعرضا .
 وكتب الآن جيمس طومسن أغنيته الشعبية المثيرة « احكمى يا بريطانيا »
 التي أقسمت أن « البريطانيين لن يذلوا أبدا » .

وما من شيء يشد من أزر الحكومة عادة أكثر من اعلان الحرب ،
 فعندها تكتم المعارضة المخلصة للوطن مدافعها . بيد أن وزارة ولبول
 كانت استثناء للقاعدة . فلقد أحس خصومه بحق أن وزارته غير متحمسة
 للجيش الزاحفة أو للاساطيل التي تنفت النيران ؛ وحملوا سوء ادارة
 تبعة الهزائم العسكرية كلها ، وعزوا كل الفضل في انتصار بحرى عند
 بورتو بيللو (على برزخ بنما) لعبقرية الاميرال فيرنون الذي كان أحد
 أعضاء المعارضة . وفي فبراير ١٧٤١ أقترح صموئيل سسانديز على
 البرلمان أن ينصح الملك باقالة رئيس وزرائه . وهزم الاقتراح ، ولكنه
 لم يهزم إلا بفضل استجداء ولبول لأصوات الاستيوارتيين . وأفسح له في
 الوزارة عاما آخر ، غير أنه أدرك أن قد حان حينه ؛ وأن البلاد تريد
 تغييرا .

ثم أنه أرهق . كتب ابنه يقول. « هذا الذي كان في السنين الماضية

يستغرق فى النوم حالما يمس رأسه الوسادة . لا ينام الآن أبدا أكثر من ساعة دون أن يصحو ؛ والذي كان على المائدة ينسى دائما أنه وزير ، وكان أكثر مرحا وخلوا من الهموم من جميع رفاقه ، يجلس الآن دون كلام ، وعيناه جامدتان ، ساعة بطولها (٥٠) « . وجاءت الانتخابات الجديدة ببرلمان معاد له عداا ساحقا ، فهزمه فى أمر قليل الشأن ، وفى ١٣ فبراير ١٧٤٢ استقال . واذ كان أعجز من أن يواجه صخب مجلس العموم ، فانه لم يجد مشقة فى اقناع جورج الثانى بأن يمنحه لقب إيرل أكسفورد ، ويوصفه هذا هبط صعدا الى مجلس اللوردات . وكان قد جمع ثروة طائلة تحسبا ليوم سقوطه .

ومات فى ١٨ مارس ١٧٤٥ بالغا الثانية والستين ، بعد أن تجلد لمرض طويل مؤلم . وودعت انجلترا السلام ، وانطلقت لتتخزو العالم بزعامة « بت » بعد « بت » .

٦ - أرنلده : ١٧١٤ - ٥٦

لم يعرف التاريخ أمة ظلمت كما ظلم الارلنديون ، الا فيما ندر . فطوال الانتصارات المتكررة التى أحرزتها الجيوش الانجليزية على الثورات الوطنية ، شُرعت مجموعة من القوانين قيدت الارلنديين بالأغلال جسدا وروحا . فصودرت أرضهم حتى لم يبق غير حفنة من الملاك الكاثوليك ، وامتلكها كلها تقريبا بروتستنت عاملوا فلاحيههم معاملة العبيد . يقول تشسترفيلد « أن الفقراء فى أرنلده يلقون من الملاك والسادة معاملة أسوأ مما يلقاه الزنوج (٥١) » . ويقول ليكى « لم يكن من الغريب فى أرنلده أن يكون للكبار ملاك الأراضي سجون دائمة فى بيوتهم لعقاب الطبقات الدنيا عقابا عاجلا (٥٢) » . وكان كثير من الملاك يعيشون فى انجلترا ، وينفقون فيها (حسب تقدير سويفت) ثلث الايجارات التى يدفعها المستأجرون الارلنديون (٥٣) . أما المستأجرون - الذين طحنتهم الايجارات التى يؤدونها للمالك ، والعشور التى يؤدونها للكنيسة الرسمية التى يمتنونها ، والفروض التى يؤدونها لقساوستهم - فكانوا يسكنون أكواخا من الطين يرشح الماء من سقوفها ، ويمشون نصف عراة ، ويتضورون جوعا فى أكثر

الإحايين ، وذهب سويقت الى أن « المستاجرين الارلنديين يعيشون حياة أسوأ من حياة المتسولين الانجليز (٥٤) » . وأما الملاك الذين ظلوا يقطنون ارلندة ، ووكلاء الملاك الغائبين ، فكانوا يستعينون على همجية بيئتهم وعدائهم بحفلات الطعام والشراب الصاخبة المخمورة ، والضيافة المسرفة ، والشجار والمياوزة ، والمقامرة على رهانات كبيرة .

ولما كان للبرلمان البريطاني مطلق السلطان على ارلنده ، فإنه خنق أى صناعة تنافس انجلترا . وقد رأينا فى غير هذا الموضوع كيف قضى قانون صدر فى ١٦٩٩ على الصناعات الصوفية الوليدة بحظره تصدير الاصواف الارلندية الى أى بلد كائنا ما كان . وبالمثل خنقت القوانين الانجليزية بغير رحمة كل ما احتفظت به ارلنده من تجارة خارجية وسط زعازع السياسة وخراب الحروب . فاثقلت المصادرات الارلندية برسوم التصدير التى عزلتها عن جميع الأسواق تقريبا الا انجلترا (٥٥) ، وكان كثير من الارلنديين يعيشون على تربية الماشية وتصديرها لانجلترا ، ولكن قوانين ١٦٦٥ و ١٦٨٠ حظرت استيراد انجلترا لماشية ارلندة أو اغنامها أو خنازيرها ، أو لحم البقر أو الضأن أو الخنزير ، حتى الزبد أو الجبن . وكانت ارلندة تصدر حاصلاتها للمستعمرات الانجليزية ، فاشترط قانون صدر فى ١٦٦٣ الا تستورد سلع أوربيسة للمستعمرات الانجليزية ، باستثناءات قليلة ، الا من انجلترا ، فى مراكب انجليزية ، بحارتها انجليز . وماتت البحرية التجارية الارلندية . يقول سويقت « ان مزايا الموائىء والمراقىء التى سخت بها الطبيعة على هذه المملكة ، ليست أكثر فائدة لنا من حلم جميل يراود رجلا حبس فى زنرانة (٥٦) » .

وأرهقت القوانين التى شرعتها انجلترا لرعاياها الارلنديين البروتستنت كما أرهقت الكاثوليك ؛ وفى مناسبة مشهودة انضموا الى الكاثوليك فى التمرد على الحكم البريطانى . وكان تصدير مال الايجارات للملاك الغائبين عن ارلندة قد خلق عجزا فى العملة المعدنية بارلندة فى ١٧٢٢ . وعرض ولبول تخفيف هذا العجز بإصدار عملة نحاسية . وكانت الخطة معقولة ، ولكن لوثها الفساد المألوف ، فقد «هنيحت دوقه كندال امتياز سك النقود الجديدة ، فباعته لوليم وود صاحب مصانع الحديد نظير ١٠٠٠٠٠ جنيه ؛ ولكى يجمع ولوم هذا المبلغ مضافا اليه ربحه

اقترح أن يسك ١٠٠ر٨٠٠ جنيه أنصاف بنسات أو أرباعها . ولما كانته حملة عملة ارلندة المعدنية آنئذ لا تتجاوز ٤٠٠ر٠٠٠ جنيه ، فقد احتج الارلنديون بأنه سيكون ضروريا استعمال النقود النحاسية فى المدفوعات وفى الصرافة ، ودفع الحسابات الأجنبية بما فيها ايجارات الملاك الغائبين بالفضة أو العملة الورقية ، وأن العملات الأرخص ستحمل الناس على اختزان العملات الأفضل أو تصديرها ، وأنه لن يكون فى ارلندة عما قليل عملة غير النقود النحاسية المزعجة . ورغبة فى علاج هذه الشكاوى وافقت الحكومة البريطانية على خفض الاصدار الجديد الى ٤٠ر٠٠٠ جنيه وقدمت تقريراً من اسحاق نيوتن ، مدير دار سك النقود ، يقرر أن أنصاف بنسات وود وافية من حيث محتواها المعدنى بشروط الامتياز ، وأنها أفضل كثيراً من العملات الموروثة عن العهود السابقة .

عند هذا المنعطف دخل الجدل جوناثان سويفت ، الناظر الانجليكانى لكاتدرائية القديس باتريك بدبلن ، بنشره سلسلة من الرسائل تحت اسم مستعار هو م . ب . درابير ، هاجم فيها العملة الجديدة بكل ما فى روجه من عنف وما فى جعبته من هجو ، لأنها محاولة لغش الشعب الارلندى . وزعم أن العملة التى أرسلت الى نيوتن لاختبارها سكت خصيصاً لهذا الغرض ، وأن الكثرة الغالبة من أنصاف بنسات وود تساوى اقل كثيراً من قيمتها الاسمية ؛ والواقع أن بعض الاقتصاديين أيدوا دعواه بان قدروا أن ارلنده ستخسر ٦٠ر٤٨٠ جنيهها بالاصدار الذى اقترح اولاً (٥٧) . وفى الرسالة الرابعة انتقل سويفت الى اتهام قوى للحكم الانجليزى كله فى ارلنده ، ووضع هذا المبدأ « ان كل حكم بغير رضى المحكومين ما هو الا العبودية بعينها (٥٨) » . واستجاب الارلنديون ، بما فيهم أغلبية البروتستنت لهذه النعمة الجريفة فى لهفة ، وراح الناس يغنون فى الشوارع أغانى شعبية تحض على مقاومة انجلترا . ووجدت الحكومة الانجليزية نفسها تتقهقر أمام قلم واحد ، وهى التى تحدثت شعباً بأكمله قروناً طوالاً . وقدمت مكافأة من ثلاثمائة جنيهه للقبض على الكاتب ، ولكن أحدا لم يجرؤ على اتخاذ اجراء ضد الناظر العلبس وان هرفه المئات منهم . كذلك لم يجرؤ أى ارلندى على أن يواجه غضب الشعب بقبولته العملة الجديدة . ومطم ولبول بالهزيمة ، وألغى الاصدار ، ووض

بوود بمبلغ ٢٤٠٠٠ ر جنيه نظير مصروفاته التى أنفقها عبثا ومكاسبه التى تبخرت .

وقد استحالت كل مقاومة للسيطرة الانجليزية الا ان تكون من فعل الغوغاء أو عنف الأفراد ، وذلك بسبب بنیان السياسة الارلندية . ذلك أن البرلمان الارلندى بعد ١٦٩٢ كان كله من البروتستانت ، لأن شرط المنصب كان الولاء للكنيسة الانجليزية (٥٩) ، وكان الآن خاضعا كل الخضوع لانجلترا . وفى ١٧١٩ أكد البرلمان الانجليزى من جديد حقه الأعلى فى التشريع لارلنده . فالقوانين التى حمت الحرية البرلمانية أو الفردية فى انجلترا ، كقانون هابياس كوريس وقانون الحقوق ، لم تطبق على ارلنده ؛ أما الحرية النسبية للصحافة ، التى كانت تتمتع بها انجلترا ، فلم يكن لها وجود فى ارلنده . ولم يكن بين البرلمانين شبه الا فى فساد ناخبهما واعضائهما . وكان بينهما خلاف آخر فى غلبة نفوذ الاساقفة الانجليكان فى مجلس اللوردات الارلندى .

كانت الكنيسة الرسمية تضم نحو سبع السكان بين أتباعها ، ولكنها تعتمد على العشور التى تجنى من الفلاحين ، وكل هؤلاء تقريبا كاثوليك . واتبعت نسبة صغيرة من السكان المذهب المشيخى (الكلفنى) أو غيره من المذاهب المنشقة ، ونالت قسطا من التسامح ، الا حقها فى مناصب الدولة . ولم يقتصر حرمان الكاثوليك على مناصب الدولة فقط بل تجاوزه الى كل المهن الراقية الا الطب ، وكل سبيل تقريبا الى التعليم العالى ، أو الثروة ، أو النفوذ (٦٠) . وحظر عليهم شراء الأرض ، أو الاستثمار فى رهون على الأرض ، أو حيازة أى ايجار طويل الأجل أو ذى قيمة . وحظر عليهم أن يكونوا محلفين الا عند الافتقار الى محلفين بروتستانت . ولم يكن فى استطاعتهم التعليم فى المدارس ، ولا التصويت للمناصب البلدية أو القومية ، ولا الزواج زواجا شرعيا من بروتستانتية (٦١) . وكان شرط عبادتهم أن يقوم بها كاهن سجل اسمه فى الحكومة واقسم يمين التخلي التى تنبذ الولاء لاسرة ستيوارت . اما غير هؤلاء من الكهنة فعقابهم السجن . ولكن هذا القانون نادرا ما طبق بعد ١٧٢٥ ؛ وفى ١٧٣٢ فكرت لجنة فى البرلمان الارلندى فى تقرير لها أن فى ارلنده ١٦٤٥٠ كاهنا ، و ٢٢٩ كنيسة كاثوليكية ،

و ٥٤٩ مدرسة كاثوليكية . وبعد ١٧٥٣ خفف الانجليز من غلوائهم وتحسنت حال الكاثوليك فى ايرلندا .

وتضافر اضطراب الحياة الدينية ، وفقر الشعب ، والياس من التقدم الاجتماعى ، ليهبط كل أولئك بمعنويات الحياة الارلندية . فهاجر الى فرنسا أو اسبانيا أو أمريكا أكثر الكاثوليك كفاية وجرأة ، ممن كانوا قادرين على النهوض بمستوى الكفاية والذكاء والأخلاق الارلندية . وانحدر الكثير من الارلنديين الى درك التسول أو الجريمة اتقاء الموت جوعا . واختبأت عصابات اللصوص فى الريف ، واتخذ المهربون ولصوص السفن الغارقة من السواحل مكمنا ، واحتفظ بعض أصحاب الملكيات « ببلطجية » وصل عددهم أحيانا الى الثمانين لتنفيذ أوامرهم ، ضاربين بالقانون عرض الحائط . وذبحت العصابات الجوابة آلاف الماشية والاعنام ، انتقاما كاثوليكيا - على ما يبدو - من الملك البروتستنت . وكان عسيرا على شعب أن يحترم القوانين التى يصدرها برلمان ارلندى طالما تحدث عن الكاثوليك - وهم ثلاثة أرباع السكان - بوصفهم « العدو المشترك » .

على أن الحياة الارلندية لم تخل من عناصر أكثر اشراقا . فقد بقى للشعب مزاجه البشوش ، الهادىء ، الضحوك ، خلال شدائده كلها ، وأحاطت خرافاته وأساطيره بحياته بالسحر والشعر دون أن تفضي به الى عنف كذلك الذى اتسمت به اضطهادات السحرة والساحرات فى اسكتلندا وألمانيا . وكان بين الاكليروس الأنجليكاني فى ايرلندا علماء أفاض (كالأسقف آشرف ، أسقف أرما) ، وفيلسوف نابيه (هو جورج باركلى أسقف كلوين) ، وأعظم كتاب الانجليزية قاطبة فى الربع الأول من القرن الثامن عشر ، وهو جوناثان سويفت ، ناظر كتدرائية القديس باتريك . وجاهدت جمعية دبلن المؤسسة فى ١٧٣١ لتحسن التكنولوجيا فى الزراعة والصناعة ، وتحفز الاختراع ، وتشجع الفن . وكان هناك أمثلة كثيرة لأفراد من البروتستنت مدوا يد المعونة للكاثوليك الفقراء ، وقضاة لانوا فى تطبيق اللوائح الوحشية التى تضمنها قانون العقوبات .

ولكن صورة الحياة الارلندية كانت فى جملتها من اشد ما حواه التاريخ خزيا وعارا . فقر مذل ، وتمرد فوضى على القانون ، واملاق مترحل ، و ٣٤٠٠٠٠ متسول ، وعدد لا حصر له من اللصوص ، وطبقة عليا تعيش فى اسراف مخمور بين فلاحين يتضورون جوعا ، وكل اخفاق فى المحصول يجبر مجاعة واسعة الانتشار - « فالشيوخ والمرضى يموتون وينتفون من البرد والمجاعة والقذارة والحشرات (٦٢) » - على حد قول سويفت . هذه الصورة الرهيبة يجب أن تجد مكانا فى مفهومنا عن الانسان . وبعد الصقيع الطويل القاسى الذى اصاب ارلندة فى ١٧٣٩ جاءت مجاعة ١٧٤٠ - ٤١ القاسية ، التى هلك فيها حسب أحد التقديرات عشرون فى المائة من السكان ، مخلفين الكثير من القرى المهجورة . ففى مقاطعة كرى هبط عدد دافعى الضرائب من ١٤٣٤٦ فى عام ١٧٣٣ الى ٩٣٧٢ فى عام ١٧٤٤ . وقدر باركلى أن « الأمة فى أغلب الظن لن تعوض هذه الخسارة بعد قرن (٦٣) » ولكنه أخطأ التقدير . فما لبثت النساء أن ولدن الاطفال فى صبر ليعوضن من فقد من الموتى . وفترت الحماسة الدينية بين البروتستنت بانتشار التعليم ، واشتدت بين الكاثوليك كلما وحد الدين بينه وبين صراع الأمة فى سبيل الحرية . وسرعان ما عوضت النسبة العالية للمواليد ، التى حبذتها الكنيسة الكاثوليكية سلاحا سرىا لها ضد معارضة ، عما ساء به المجاعة والوباء والحرب ؛ فما حلت سنة ١٧٥٠ حتى ارتفع سكان ارلندة من قرابة ٢٠٠٠٠٠٠ فى ١٧٠٠ الى نحو ٢٣٧٠٠٠٠ وفى نهاية الشوط غلب ايمان المظلومين وخصوبتهم سلاح الغزاة وجشعهم .

٧ - اسكتلندة : ١٧١٤ - ٥٦

لم كان حظ اسكتلندة مختلفا اشد الاختلاف عن حظ ارلندة ؟ أولا لأن اسكتلندة لم تقهر قط ، بل انها على العكس من ذلك أعطت انجلترا ملكا اسكتلنديا . وكان لها فى شيوخ قبائل مرتفعاتها (الهايلاندز) الذين لم يذلوا بعد ، طبقة من المقاتلين قادت الاسكتلنديين المرة بعد المرة فى غزوات لانجلترا . وكان أهل سهلها سلالة أنجلو - سكسونية ، ينتمون أساسا الى الاصل الذى ينتمى اليه الانجليز . أما تربتها فظلت ،

في قبضة أهلها الشديدي المراس . وأما دينها ، شأنه شأن الانجليكانية . فكان نتاج حركة الاصلاح البروتستنتي ، لا تركة موروثة عن الكنيسة الوسيطة ، وقد وحد صفوف الأمة بدلا من أن يقسمها ، وبعد قانون الاتحاد (١٧٠٧) شاركت اسكتلندة بنسبة السكان في انتخاب البرلمان الذي أصبح الآن يسمى البرلمان البريطاني (أى الانجليزى - الويلزى - الاسكتلندى) ، وأذعنت لأن تحكم من لندن ، ولكن بعد أن انتزعت تنازلات تجارية اثرت الشعب الاسكتلندى . وحاولت كل أبرشية في اسكتلندة أن تنشئ مدرسة لأطفالها ، ووفرت أربع جامعات بها أفضل ما وجد في الجزر البريطانية آنئذ من تعليم عال . وقد ازدهر هذا النشاط التعليمى خلال القرن الثامن عشر فى حركة « تنوير اسكتلندى » دفعت الفكر الانجليزى دفعة قوية - أبطالها هيوم ، وهنتشن ، ورايد ، وروبرتسن ، وآدم سميث .

على أن هذا الانجاز الرائع اقتضى تحقيقه الكفاح الطويل ، وانقضت خمسون عاما قبل أن يؤتى الاتحاد اكمله . فقد كانت اسكتلندة فى ١٧١٤ لا تزال قطاعية النظام . كل اقليم فيها خارج المدن يحكمه نبيل كبير بوساطة أتباعه المقطعين ، والأرض تفلحها طبقة من المستأجرين الفلاحين ، موالين لسادتهم ، ولاحظ لهم من التعليم . ولكن الاتحاد السياسى مع انجلترا أخذ الآن يقوض ذلك البناء . كان النبلاء يسيطرون على البرلمان الاسكتلندى ، فلما اختتم عهد ذلك البرلمان وجد الممثلون الاسكتلنديون فى البرلمان البريطانى أنفسهم فى بيئة ينافس فيها نفوذ التجارة والصناعة نفوذ الأرض ؛ فتبنوا الأفكار والتكنولوجيا الانجليزية ، وما وافت سنة ١٧٥٠ حتى كان أصحاب صناعات اسكتلندة وتجارها يتحدون الزعامة القومية التى احتكرها الأرجيليون ، والأثوليون ، والهاملتونيون ، والماريون . وكانت مغامرة ١٧٤٥ الاستيوارتية آخر انتفاضة من انتفاضات السلطة القطاعية الاسكتلندية ، فلما أخفقت اندمجت حياة اسكتلندة الاقتصادية فى الاقتصاد الانجليزى ، وبدأ حكم الطبقات الوسطى . وفتح الاتحاد المستعمرات الانجليزية للتجارة الاسكتلندية ، وفى ١٧١٨ أطلقت جلاسجو أول سفينة اسكتلندية لتعبر الاطلنطى ، وما لبث التجار الاسكتلنديون أن انتشروا فى كل مكان . وتحسنت التكنولوجيا الزراعية

ووسائل النظافة الصحية فى المدن ، وهبطت نسبة الوفيات ، وزاد السكان من ١٠٠٠٠٠٠ فى ١٧٠٠ الى ١٠٠٠٠٠٠ فى ختام القرن وكانت ادنبره بسكانها البالغين خمسين ألفا فى ١٧٥١ ثلاثة أكبر المدن فى بريطانيا العظمى ، فلم يفقها غير لندن وبرستول .

وظلت الكنيسة المشيخية على ولائها للاهوت الكلفنى ولاء يقرب من التعصب . ففى كل أحد يمشي الناس - أحيانا مليونين أو ثلاثة - ليختلفوا الى كنائس عطلت من الزينة عطلا صارما ، ويستمعوا الساعات الى عذبات وصلوات تؤكد حتمية الجبر وأهوال الجحيم . وكان الكتاب المقدس الالهام اليومى لكل أسرة اسكتلندية . وفدّر هيووم ، حتى سنة ١٧٦٣ ، فى مبالغة مرة ، أن لكل رجل وامرأة وطفل فى اسكتلنذة كتابين مقدسين (٦٤) ؛ أما الرعاظ فقليلو الحظ من التعليم ولكن فيهم تقوى صادقة وورعا مؤثرا ، يعيشون فى بساطة متقشفة ، وتدعم قدوتهم وتعاليمهم من ثبات الخلق الاسكتلندى ونزاهته . وكان شيوخ كل كنيسة وراعيها يراقبون فى تشدد كثير سلوك الرعية وكلامهم ، يوزعون العقوبات على الحلف ، والنميمة ، والشجار ، والسحر ، والفسوق ، والزنا ، وأى كسر ليوم الرب (الأحد) ، وأى انحراف عن عقيدتهم الرهيبة . وأدان الرعاة الرقص ، وحفلات الزفاف ، والترفج على المسرح . واستمروا يعقدون المحاكمات بتهمة السحر وان أخذت احكام الاعدام بسببها تقل . ففى ١٧٢٧ أديننت أم وابنتها بهذه التهمة ، وفرت البنت ، ولكن الأم أحرقت حتى الموت فى برميل من القار (٦٥) . فلما ألغى البرلمان الانجليزى (١٧٣٦) القانون الذى يعاقب السحر بالموت ، ندد شيوخ الكنائس الاسكتلندية بالالغاء لأنه انتهاك لأمر صريح أصدره الكتاب المقدس (٦٦) .

وكانت مدارس الأبرشيات التى تتفق عليها الكنيسة الاسكتلندية ، ومدارس الحضر التى تعينها المدن ، تعد الطلاب للجامعات . فوفد على ادنبره وأبردين وسانت أندروز وجلاسجو شبان تواقون للمعلم من كل طبقة - من المزارع والمصانع ومن قصور الاقطاعيين وقاعات البارونات على السواء ، يدفعهم الشوق الى المعرفة ، ويتحملون فى سبيلها كل عناء ؛ يعيش كثير منهم فى حجرات باردة على السطوح ، ويصيبيون

أكثر غذائهم من زكيبية من الشوفان يحملونها دوريا من مزارع آبايهم . وكذلك كان الأساتذة قوما ذوى جلد وزهد ، ندر أن تقاضي أحدهم أكثر من ستين جنيها فى العام . وكاد اللاهوت فى الجامعات أن يكون لب المنهج - كما كان فى مدارس الأبرشيات . ولكن الآداب الكلاسيكية كانت تدرس ومعها قليل من العلوم ؛ وتأثر الذهن الاسكتلندى بفكر أوربا العلمانى . من ذلك أن فرانسس هتشن ، الذى شغل كرسي الفلسفة الأخلاقية فى جلاسجو (١٧٢٩ - ٤٦) ، نَحى الجدل الدجماطيقى ، وأرسي علم الأخلاق على أسس طبيعية . وشابت الهرطقة الأريوسية عقيدة الطلاب والأساتذة على السواء - وهى التى زعمت أن المسيح ، رغم الوهيته ، لم يكن معادلا لله الآب أو مساويا له فى أزليته . وذكر مؤلف اسكتلندى فى ١٧١٤ « الرواج الشديد بين شباب الأعيان والطلاب » لأفكار هوبز وسبينوزا (٦٧) . وكوَّنت جماعات صغيرة من الشبان الذين ثملوا بخمر التحرر أندية - مثل « الجمعية الكبريتية » و « نار الجحيم » و « الفرسان سيئى السمعة » - تبشر بالاحاد فى تفاخر ؛ ولعلمهم اختلطوا بالساخطين الاستيوارتيين . ذلك أن اسكتلندة - اذا استئنيا طبقات التجار التى ارتبطت بالاقتصاد الانجليزى - كانت لا تزال تنتشى بذكرى أسرة ستيوارت ، وتحلم باليوم الذى يقود فيه جيمس الثالث ، أو ابنه ، الاسكتلنديين مرة أخرى عبر الحدود ليرد أسرة اسكتلندية الى العرش البريطانى .

٧ - الأمير تشارلى الجميل : ١٧٤٥

كان جيمس الثالث قد أفنى نفسه فى محاولات عقيمة لقيادة حملة على انجلترا أو اسكتلندة . وفى ١٧١٩ تزوج ماريا كلمنتينا سوبيسكا ، حفيذة أشهر ملوك بولنده ، وكان الزواج تعسا ، ولكنه أعطى جيمس ولدا كان وجهه الحلو وطبعه المرح - اللذان ربما ارتدا الى ماري ملكة الاسكتلنديين - مفخرة ومشكلة لأبويه . وأطلقت انجلترا على تشارلز ادورد ستيوارت هذا لقب « المطالب الشاب » ، أما اسكتلندة فسمته « الأمير تشارلى الجميل » . وشب تشارلز دون أن ينال من التعليم حظا كبيرا لأنه نشأ فى بيت يسوده الشقاق ، وتعلم مذهبين متناقضين على يد مهذبيه الكاثوليك والبروتستنت ، ولكنه وُهب كل مفااتن الشباب.

الرياضي ، وكل حماسة الرأس الملهوف على تاج . وقد افتتن دون ليريا بما كان عليه الغلام من « جمال رائع » ، بعينيهِ العسليتين المرحتين ، وشعره البنى الفاتح ؛ فهو راكب جرىء ، وهداف ماهر ، ذو قوام فارح طوله ستة أقدام خلق للحرب ، و « لاعب جولف جبار » ، وموسيقي ماهر ، وراقص رشيق - وقال الدوق ان هذا « على الجملة أكمل أمير لقيته (٦٩) » وكان تشارلز عليما بفضائله ، وهو ما جعله صعب المراس أحيانا . وفي ١٧٣٤ ، حين كان غلاما بعد لا يجاوز الرابعة عشرة ، سمح له بان يذوق طعم الحرب في الجيش الاسباني في جاييتا ، فلما أيقظ روحه خوض أول معاركه ، راح يترقب الفرصة على أحر من الجمر للاستيلاء على انجلترا . وبدت الفرصة مواتية حين بدأ البراسان البريطاني ، رغم معارضة ولبول ، الاستباكات مع أسبانيا (١٧٣٩) . واستفحل هجوم فردريك الأكبر على سيليسيا (١٧٤٠) حتى أفضي الى حرب الوراثة النمساوية . وأرسلت انجلترا جيشها الرئيسي الى القارة ، فاي وقت أنسب من هذا ليضرب فيه الاستيوارتيون ضربة سريعة أخرى للظفر بالعرش الانجليزي ؟ ومن ثم كونوا في سكتلندة « الرابطة » (١٧٣٦) التي التزمت بتلك المغامرة ، وأوفدوا المبعوثين الى انجلترا ليحرضوا على قيام ثورة استيوارتية ، وأرسلوا النداءات الى فرنسا طالبين المال ، والسلاح ، والجنود . وأمر لويس الخامس عشر سبع سفن حربية وأحدى وعشرين ناقلة جنود بالتجمع في برست والاستعداد لنقل عشرة آلاف مقاتل نحت امرة المارشال دساكس من دنكرك الى انجلترا . وانتظر الأمير تشارلز في ايطاليا بفارغ الصبر دعوة من باريس لينضم الى الحملة . ولكن الدعوة لم تصل ، فغادر روما في ١٠ يناير ١٧٤٤ ، وركب ليل نهار الى فراسكاتي ، وليريتشي ، وجنوة واستقل سفينة الى أنتيب ، وركب كالمجنون الى باريس . أما ابوه المسن فظل في روما ، ولم تقع عليه عيناه بعد ذلك قط . واستقبل الملك تشارلز بالترحيب ، وأمدّه بمعونة مالية معتدلة . فمضي الى جرافلين ، وانتظر بصبر نافذ الأوامر بالابحار مع المارشال دساكس ، الذي انتظر الأسطول الفرنسي هو الآخر بصبر نافذ .

وحالفت الرياح والأمواج انجلترا كالعادة . فصادف الأسطول الفرنسي بعد اقلعه من برست (٦ فبراير) « بحرا رهيبا » و « ريحا

معاكسة كل يوم » . واصطدمت مراكبه ، وتحطمت صواريه ، وعمت الفوضى حين وصل نبا بان أسطولا انجليزيا من اثنتين وخمسين سفينة يقترب . وفر الفرنسيون رجوعا الى برست ، ولكن كثيرا من سفنهم فقد ، وأصيب الباقي بضرر بليغ من الأنواء . ومع هذا النبا المثبط وصل فرنسا نبا بان الاستيوارتيين الانجليز مختلو النظام خائرو العزيمة ، وأنه لا أمل فى معونة منهم اذا وصل الفرنسيون . وأخبر لويس ساكس بوجود الاقلاع عن مشروع الغزو . أما انجلترا ، التى لم تدخل بعد الحرب مع فرنسا رسميا ، فشكت من أن وجود تشارلز على أرض فرنسا انتهاك لالتزامات المعاهدة . وأما تشارلز فقد اختبأ فى باريس متنكرا ، واقسم لأصحابه أنه سيغزو انجلترا ولو اضطر الى الذهاب وحيدا فى زورق مكشوف . وأرسل له أبوه رجاء بان يحذر الاندفاع « الذى قد ينتهى بدمارك ودمار كل من يشاركوك فيه (٧٠) » . وفى أثناء ذلك كان مؤيدو تشارلز يدس بعضهم لبعض سعياء وراء النفوذ والمنح ، ويتهم بعضهم بعضا عنده ، حتى كتب يائسا « لقد ابتليت بلاء يزهدى فى الحياة » (١٦ نوفمبر ١٧٤٤) .

وأخيرا ، ورغم كل التحذيرات ، ودون استشارة البلاط الفرنسي ، قرر أن « يجرب حظّه » و « يغزو أو يموت » وأرسل عملاء الى اسكتلندة ليثير العشائر ، وبلغ عدم استعداد هؤلاء مبلغا جعلهم يفكرون فى منعه من المجرى ، وكان المتشيعون من الانجليز لأسرة ستيوارت ، يلتمسون التراضي مع جورج الثانى ، محتذيين فى ذلك حذو بولنبروك . ورغم ذلك اقترض تشارلز ١٨٠ر٠٠٠ جنيه ، وقبل عرضا بسفينتين مسلحتين ، وأبحر الى اسكتلندة (١٥ يوليو ١٧٤٥) . وعلى مقربة من « لاندز اند » التقت القافلة الصغيرة ببارجة بريطانية ، ولحق باحدى سفينتى تشارلز من العطب ما حملها على العودة الى برست . وانطلق هو فى الأخرى شمالا الى غربى انجلترا ، وفى ٣ أغسطس رسا على أرض اسكتلندة عند اريسكا ، فى جزر الهبريد الخارجة . ونصح زعيم عشيرة بان يعود الى وطنه . فاجاب الامير « اننى فى وطنى » . وأنذر بان الحكومة البريطانية قد أعلنت فى أول أغسطس عن مكافأة تبلغ ٣٠ر٠٠٠ جنيه لمن يأتى به أسيرا ، حيا أو ميتا . وكان جواب تشارلز أن صرف السفينة التى أقلته ، وهكذا قطع على نفسه خط

الرجعة . وفى ١٩ أغسطس رفع رايته فى جلينفينان باقليم المرتفعات ،
ودعا كل أنصار أسرته ليعينوه .

وظل معظم زعماء العشائر متحفظين ، وتآمر بعض من زعموا
انهم أتباع له ليشوا به ، وأعلن ستة أشراف انضمامهم اليه ، وكان ألف
ومائتان من بين رجاله الألفين من عشيرتى مكدونلد وكمرن . وقاد
تشارلز جماعته جنوبا متحاشيا قوات الحكومة التى يقودها السير جون
كوب . وفى ١٧ سبتمبر دخل أدنبره ، واستولى على المحرس
والبوابات ، وثبت رئيسهما فى قصر هوليرود ، الذى كان يوما ما القصر
الملكى الذى جادلت فيه مارى ستيوارت جون نوكس ، ونسي فيه جيمس
السادس والأول أمه . وكان مظهر الأمير البالغ من العمر آنئذ خمسة
وعشرين ربيعا يأخذ بالألباب فى بزة أهل المرتفعات ، بسرويله
المخملية الحمراء وقلنسوته المخملية الخضراء ، وعقدة شريطها
البيضاء . وركع كثير من الاسكتلنديين الذين ظنوا أن مجد أمتهم قد
عاد من جديد فى شخص ذلك الفتى المليح وقبلوا يده ، وصلت كل
النساء من أجله وهفت قلوبهن اليه . وما كاد يذوق حلاوة استقباله حتى
نمى اليه نبا اقتراب كوب من أدنبره فى ألفين من جنوده . وفى ٢١
سبتمبر قاد تشارلز رجاله الذين بلغوا الآن ثلاثة آلاف ، والتقى بجيش
كوب برستونبانز ، ودحره ، وأسر أسرى كثيرين ، وترفق بهم ، ثم
عاد الى هوليرود مكللا بالغار ، وبدأ أنه قد ظفر باسكتلنده .

وأمر تشارلز وهو مطمئن شهرا بعد المعركة بالطعام والثياب
لجنده ، ورحب بانضمام عشائر أخرى اليه . وبعث له لويس الخامس
عشر بالمال والسلاح من فرنسا . وفى ٨ نوفمبر عبر الأمير السعيد الحدود
راجلا الى انجلترا على رأس ٤٥٠٠ مقاتل ، وحاصر كرليل واستولى
عليها ، ولقى الترحيب فى مانشستر ، ثم سار حثيثا الى داربي ،
أملا بتقدمه المثير أن يحمل انجلترا على استقباله ملكا شرعيا لها .
وأذاع منشورا تعهد فيه بأنه لن يصيب الأنجليكان والمشيوخيين بعد اليوم
منه ، وهو الكاثوليكي الرومانى ، أذى أكثر مما أصابهم على يد جورج
الأول اللوثرى (٧٢) . غير أن انجلترا لم تصدقه ، وكرهت أن تعاود
من جديد ذلك الصراع المضمن الذى بخاصه المذهب الجديد ضد القديم .

ومع أن أحدا في إنجلترا لم يكذب يهيباً ليقاوم تشارلز ، فإن حفنة من الجند الانجليز فقط هي التي خفت لنجدته . واتخذ الانجليز المتشيعون لأسرة ستيوارت موقف الحذر والسلامة .

وكان جورج الثانى قد هرع عائدا من هانوفر ليحمى عرشه المههد وأمر ثلاثة جيوش انجليزية بالتجمع فى داربى . وكان رأى تشارلز أن يتجاهلها ويندفع فى طريقه الى لندن بألافه الستة ، ولكن زعماء عشائره الاسكتلنديين أبوا أن يتبعوه . ونبهوه الى أن كل جيش من جيوش الحكومة الثلاثة عدته عشرة آلاف مقاتل ، وأن هؤلاء اذا لحقوا بمؤخرة جيشه ضيقوا عليه الخناق وتكاثروا عليه بعد قليل ، وأن الانتفاضة الاستيوارتية التي وعدهم بها لا أثر لها ، وأصروا على العودة الى اسكتلندة حيث يتاح لهم أن يثيروا مزيدا من العشائر ويتلقوا الامداد من فرنسا . وأذعن تشارلز ، وقاد التقهقر الالىم من داربى الى جلاسجو . وعند فالكرك القريبة منها هزم بتسعة آلاف مقاتل قوة انجليزية عدتها عشرة آلاف بقيادة هولى (١٧ يناير ١٧٤٦) . ولكنه كان نصرا باهظ الثمن ، فقد أضعفت جيشه الخسائر وهروب الجنود منه ، وكانت امداده آخذة فى النضوب ، ورواتبه تدفع دقيقا ، وقواده يتشاجرون شجار العشائر . وعادوا ينصحونه بالتقهقر ، ودافع الأمير عن رأيه فى الصمود ، فهو لم ير فى المزيد من التقهقر غير التفكك والدمار ، فلم يهربون من عدو ليس أقوى من ذلك الذى هزموه من قبل ؟ ثم أذعن مرة أخرى ، ولكنه أيقن الآن أنه مغلوب . وعاد الجيش الاسكتلندى متجها الى اقليم المرتفعات . وسرى تشاؤم قواده بقوة فى صفوف الجند ، فبلغ الهاربون منهم الوفا ، وما بقى كان أقرب الى الحشد المختل اليائس منه الى الجيش .

وخلال ذلك دخلت القوة الانجليزية الرئيسية بقيادة دوق كمبرلاند اسكتلنده ، وسيطرت على الساحل الشرقى ، وتلقت عند ليث تعزيزا من خمسمائة هسي جلبهم جورج الثانى من النمسا . وزحف كمبرلاند بجيش عدته ٨٠٠٠ مقاتل شمالا مخترقا مقاطعة انفرنيس . وهناك التقى به تشارلز عند كلودن مور فى ٦ أبريل ١٧٤٦ ، بسبعة آلاف مقاتل

سيئى السلاح والغذاء والقيادة ، قاتلوا ببسالة اسكتلندية ، ولكن بطشت بهم مدفعية كمبرلانذ المتفوقة التى كذفت قنابل الشظايا (كما قال شاعر اسكتلندى) « أكياسا من الرصاص حصدتهم حصدا ، أجل بالعشرات ، كما يتساقط العشب أمام المنجل (٧٣) » . وركب تشارلز هائجا ، وحاول جمع شتات رجاله المتقهقرين ، ولكنهم لاذوا بالفرار منطلقين فرادى ، وأرغمه مساعدوه على الانسحاب من المعركة بالقبض على عنان جواده . ففر فى نفر من أصحابه وقد تحطمت روحه ، وهام على وجهه مختبئا من ملجأ الى آخر ، مكررا مأساة تشارلز الثانى ، بعد أن فارقه المجد . وأخيرا (٢٠ سبتمبر) وجد مركبا أقله لفرنسا .

وطارد كمبرلانذ أعداءه المدحورين وأصدر أوامره لجيشه « بالا تاخذه بهم رحمة » . غكل اسكتلندى ثائر يجب قتله فوراً . وفتشت البيوت ، وضرب بالنار على عجل كل الاسكتلنديين الذين عثر على سلاح معهم . وأطلقت العشائر الموالية لجورج الثانى على تلك التى انضمت الى الثورة ، وأحرقت مئات المنازل (٧٤) . وقال الدوق « ان الاجراءات المعتدلة لن تجدى ، وكل الخير الذى صنعناه ليس الا قصدا ضئيلا لم يشف من الجنون وان خففه (٧٥) » . والحق أن العشائر المتردة حاولت المرة بعد المرة أن تجدد النمرد . وظل دعابة الاستيوارتية الاسكتلنديون يتغنون ويحلمون بهزائم الماضي وانتصارات المستقبل ، الى أن تحطم ايمانهم بالانحلال الذى أصاب من كان يوما أميرهم الجميل نى روما .

ذلك معاهدة اكس - لا - شابل (١٧٤٨) المبرمة بين انجلترا وفرنسا اشترطت طرد تشارلز من الارض الفرنسية . ولكنه رفض الرجوع ، فأكرهته عليه الجنود الفرنسية ، وعاد متكررا الى باريس ، لا بل الى لندن فى ١٧٥٠ ، وعبثا حاول أن ينفخ روحا جديدة فى قضية الاستيوارتيين ، وأن يعد بالتخلي عن المذهب الكاثوليكي (٧٦) . وأخيرا ، وبعد أن سلم بالهزيمة ، تردى فى مهاوى السكر والفسق ترديا حمل كل القوى الكاثوليكية الكبرى على التنكر له . ومات فى روما عام ١٧٨٨ ، بالغا الثامنة والستين . وكان فولتير قبل ذلك

بثلاثين عاما قد كتب قبرية منصفة للثورة الاستيوارتية الثانية قال فيها:

« وهكذا ، (برجوع تشارلز الى فرنسا فى ١٧٤٦) انتهت مغامرة كان من الجائز أن توفق فى أيام الفروسية الجواله بحثا عن المغامرات ، ولكن ما كان يمكن أن تنجح فى عصر يقرر فيه الانضباط العسكرى ، والمدفعية ، وأهم من ذلك المال ، كل شيء فى نهاية الأمر (٧٧) » .

٩ - صعود وليم بت : ١٧٠٨ - ٥٦

أسلم سقوط وليول انجلترا الى سلسلة من الوزارات الصغيرة التى تخبطت فى فوضى سياسية وحروب غير حاسمة . فحكم اللورد ولنجتن بوصفه وزير الخزانة (١٧٤٢ - ٤٣) فى أرض الوطن بينما كان جورج الثانى يقاتل ببطولة مسرحية ، ولكنها حقيقية ، فى معركة ديتنجن (٢٧ يونيو ١٧٤٣) . كتب فرديريك الأكبر يقول « لزم ملك انجلترا مكانه على رأس كتيبته الهانوفرية طوال المعركة ، وقدمه اليسرى الى الخلف ، وسيفه فى يده وذراعه مبسوطة ، أشبه ما يكون بمعلم المثاقفة (٧٨) » ، ولكنه على أى حال ألهم رجاله بشجاعته ، فى حين أطاع فى تواضع أوامر قواده . وأعدت وزارة هنرى بلام (١٧٤٣ - ٥٤) انجلترا الى حظيرة السلام ، ولكنها واصلت طريقة الحكم بشراء الأصوات فى الدوائر والبرلمان . وحدّد أخوه دوق نيوكاسل تسعيرة لساسة انجلترا ، ضمّتها - لدواعى الموازنة - جدولا بسعر السوق الحالى لكل نفس (٧٩) وأبقى مائة لهاتين الوزارتين أنهما ضمّتا الرجل الذى صنع الامبراطورية البريطانية ، والذى برز فى زمانه المضطرب ذاك شخصية من أقوى شخصيات التاريخ .

ولد وليم بيت (١٧٠٨) ابنا للمال ، لأن جده توماس بت كان جمع ثروة طائلة فى الهند . وكان توماس نفسه رجلا يحسب له حساب . فقد عمل بحارا فى سفينة تجارية واستقر فى البنغال ، واشتغل بالتجارة فى منافسة مشروعة لشركة الهند الشرقية التى كان البرلمان قد منحها احتكارا . وقد غرم ١٠٠٠٠ جنيه ، وواصل منافسته للشركة ، وأكرهها على الصلح ، ثم انضم اليها ، وظل اثنتى عشرة سنة حاكما على

مدراس . فما حل . عام ١٧٠١ حتى كان قطبا ماليا بملك من المال ما مكّنه من شراء « ماسة بت » الشهيرة بعشرين ألفا من الجنيهات ، ومن الذكاء ما مكّنه من بيعها لفليب أورليان ، الوصي على عرش فرنسا ، بمبلغ ١٣٥٠٠٠ ر. جنيه ، وهي محفوظة الآن - بعد أن ارتفعت قيمتها الى ٤٨٠٠٠٠ ر. جنيه ، بين مجوهرات الدولة الفرنسية في متحف اللوفر شاهدا متالقا على هبوط العملات . واستثمر توماس مكاسبه في العقارات الانجليزية ، واشترى مقعدا في البرلمان ، ومثل فيه دائرة أولد ساروم « العفنة » من ١٧١٠ الى ١٧١٥ . وأوصي بممتلكاته لروبرت بت ، أكبر ابنائه الذي تزوج هاربيت فليبه ، التي أنجبت له سبعة أطفال ، كان وليم بت ثاني ولد فيهم .

واحتج وليم على النظام المفروض على الطلاب وهو في ابتن ، وذهب الى ن تسخير كبارهم لصغارهم يحطم روح الطلبة ؛ على أنه لم يحطم روحه . . وقد اشتهر في أكسفورد بمعاناته من النقرس وهو في الثامنة عشرة . واذ راوده الامل في البرء من هذا الداء اذا عاش في مناخ أدفا ، فانه ترك الجامعة دون أن يحصل على درجة منها وسافر الى فرنسا وايطاليا ، ولكن النقرس ظل صليبه الذي حملته طوال انتصاراته . ومع ذلك انخرط في الجيش ، وخدم فيه أربع سنين ، ولم يشهد معركة ، ولكنه خرج مقتنعا بان الحرب هي فيصل التاريخ وتقدر الدول . وفي ١٧٣٥ اشترت له أسرته اصوات دائرة أولد ساروم ، رغم نها تركته في فقر نسبي باعتباره ابنا أصغر ، وهكذا بدأ سيرته في البرلمان .

وسرعان ما أسمع الناس صوته هناك ، لانه كان أبلغ خطيب عرفه كهف الجدل والمناظرة ذاك اطلاقا . فلقد سكب في خطبه كل قوة خلقه العاطفي المشبوب ، وكل تصميمه على الوصول الى السلطة ، وعزمه على خلع ولبول ، وعلى السيطرة على البرلمان والملك ، وأخيرا اعادة تشكيل أوروبا على هواه . وتحقيقا لهذه الاهداف توسل بالمنطق ، والدراما ، والخيال ، والحماسة ، والشعر ، والعبارة الطنانة ، والقدرج والتهمك ، والهجو واستنفار الروح الوطنية ، واستثارة المصلحة والمجد الشخصيين والقوميين . وبمضي السنين طور براعته الخطابية حتى

استوعبت كل أفانين الخطباء المفوهين كديموستين أو شيشرون ؛ فكان فى وسعه أن يحطم خصما بعبارة واحدة . وقد اتبع قاعدة ديموستين فجعل الحركة حياة الخطاب ، فكان لكل سطر ايماعته ، وكانت كل عاطفه تشكل وجهه التسبيه بوجه الصقر وتتقد فى عينيه الغائرتين ، حنى لينفعل بدنه كله وكان الكلمة صارت جسدا . لقد كان اعظم ممثل أجنبى خشبة المسرح .

ولم يكن وليا ولا قديسا . فالطمع كان صارى خلفه والريح النى ندفع فى قلوبه . ولكن هذا الطمع كفر عن نفسه بانتظامه انجلترا بأسرها ، وأفنى نفسه بجيرة انجلترا ، رضيت أو كرهت ، فوق البحار الامبراطورية لبلوغ السيادة على العالم . واذا شعر وليم بأنه الصوت المعبر عن الدولة أكثر من أى صوت حلقى هانوفرى ، أو أى رشا ولبولية ، فقد اتخذ لنفسه مبدأ الحكومات الخلفى - وهو أن كل ماينفع الدولة فهو خير ؛ واذا كان فد توصل بالخدعية ، والافتراء ، والتخويف ، والديس ، ونكران الجميل ، والحنث باليمين ، والغدر ، فان تلك بضاعة رجل الدولة ، ولا يحكم عليها الوعاظ بل الملوك . وكان فى كل خطوة تقريبا فى صعوده يتنكر لموقف دافع عنه قبيل ذلك بكل سمو العاطفة الخلقية (٨٠) ، وندر أن توقف ليُفسر أو يعتذر ، بل كان يركب كل مركب يُبلِغه هدفه ، وقد أضفى نجاحه - الذى كان نجاحا لانجلترا - القداسة على ذنوبه وطوق رأسه بهالة المجد والفخار . وكان فى كبريائه شي جليل ؛ فند كان يحتقر شراء الترقى بالنذل ، واحتفظ بنظافة يده وسط الفساد والرشوة ، وحقق غاياته بقوة شخصية عاتية لا يقف فى طريقها عائق .

وقد طارد ولبول لأنه رأى بائعا يتجر بالسلام ، وانسانا جبانا لا يجرؤ على خوض حرب ضد اسبانيا ، شديد الخنوع للملك يبدى - فى رأى بت - « نحو هانوفر تحيزا سخيفا ناكرا للجميل غادرا » ، ملك « لا يعتبر انجلترا غير اقليم من أقاليم امارة حقيرة (٨١) » . ولقد واصل الخطيب الغيور سياسته الحربية فى قوة وحده حملت دوفة ملبره وهى على فراش الموت سنة ١٧٤٤ على أن توصي لبت بعشرة آلاف جنيه ، ولا غرو فقد ورثت سارة ولع زوجها الدوق الراحل بالحرب .

فلما تقلد بلام الوزارة طلب الى الملك تعيين بت وزيرا للحرب ؛ ورفض جورج الثانى وكان لا يزال محترقا بنار بت ، ولكن بلام الح ، ووصف بت بأنه « أكفا وأنفع رجل بيننا ، شريف حقا وأمين بكل ما فى الكلمة من معنى (٨٢) » ، وأذعن الملك ، وفى ١٧٤٦ دخل بت الوزارة ، أولا بوصفه مناويا لوزير الخزانة الارلندية ، ثم خازنا للقوات المسلحة . وكان هذا المنصب قد أصبح بحكم التقاليد منجم ثروة لمن يتقلده ، فالخازن يأخذ لنفسه نصفا فى المائة من جميع الاعانات التى يقررها البرلمان للأمراء الاجانب ، ويستثمر بالفائدة - التى يحتفظ بها لنفسه - الرصيد السائل الكبير المتروك لديه لدفع رواتب الجند . وأبى بت أن يأخذ غير راتبه الرسمى ، فلما ألح عليه ملك سردانيا فى أن يقبل هدية تعادل الاستقطاع العادى من اعانته رفض الهدية . وصفقت انجلترا لنزاهة بت الشاذة ، وهى التى طالما اعتبرت مثل هذه المنح اشباعا عاديا لطبيعة الانسان ، وأصبغت فى شوق الى مراقعته المطالبة ببريطانيا شامخة الرأس فوق العالم بأسره .

وفى يناير ١٧٥٥ ، ودون اعلان للحرب ، نشب القتال بين انجلترا وفرنسا فى أمريكا . وفى يناير ١٧٥٦ وقعت انجلترا معاهدة مع بروسيا . وفى مايو أبرمت فرنسا حلفا دفاعيا مع النمسا . وفى نوفمبر أصبح بت ، وزير الخارجية الآن ، صوت انجلترا وذراعها فى حرب السنوات السبع تلك التى ستقرر خريطة أوربا حتى الثورة الفرنسية .

الفصل الرابع

الدين والفلسفة

١ - الموقف الدينى

كان لقصة القرن الثامن عشر فى غرب أوربا موضوع ذو شقين ، انهيار النظام الاقطاعى القديم ، والانهيار الوشيك للدين المسيحى الذى أضفى على ذلك النظام سنده الروحى والاجتماعى . فقد كانت الدولة والدين مرتبطين برياطم المعونة المتبادلة ، وبدا أن سقوط الواحد يجبر الاخر الى مأساة مشتركة .

وقد لعبت انجلترا الفصل الأول فى كلتا ناحيتى هذا التغيير العظيم . ففى المسرح السياسى سبقت حربها الأهلية (١٦٤٢ - ٤٩) الثورة الفرنسية بمائة وسبعة وأربعين عاما فى خلع أرستقراطية اقطاعية وضرب عنق ملك . أما فى مجال الدين فان نقد الربوبيين للمسيحية سبق الحملة الفولتيرية فى فرنسا بنصف قرن ، وسبقت مادية هوبز مادية لامترى بقرن ، وسبقت رسالة هيوم « فى الطبيعة البشرية » (١٧٣٩) ومقاله « فى المعجزات » (١٧٤٨) هجوم « الفلاسفة » الفرنسيين على المسيحية فى « الموسوعة » (١٧٥١) . وكان فولتير قد تعلم شكوكيته فى فرنسا - وبعضها أخذها عن بولنبروك الانجليزى المبعد عن وطنه - قبل أن يحضر الى انجلترا ولكن السنوات الثلاث التى قضها فى انجلترا (١٧٢٦ - ٢٨) روعته بمشهد السنية وقد أصابها الانحلال والكاثوليكية وقد ذلت ، والبروتستنتية وقد تفرقت شيعا مستضعفة ، والربوبيين يتحدون كل شيء فى المسيحية الا الايمان بالله - وهو بالضبط التحدى الذى سيحمله فولتير الى فرنسا . يقول فولتير « فى فرنسا ينظر الناس الىّ على أنّى مقلّد فى الدين ، وفى انجلترا على أنّى مسرف فيه (١) » .

وقد كتب مونتسكيو بعد أن زار انجلترا فى ١٧٣١ يقول « ليس

فى انجلترا دين (٢) « . وهذا بالطبع تدريب على المبالغة اللافتة للأنظار، لأنه فى تلك الفترة بعينها كان جون وتشارلز وولى يؤسسان الحركة الميثودية فى اكسفورد . ولكن مونتسكيو ، وهو رجل ارستقراطى ، تنقل أكثر ما تنقل بين أقطاب النبالة أو العلم ، وهو يخبرنا أنه فى هذه الجماعات « اذا ذكر الدين ضحك الجميع (٣) » . وهذا أيضا يبدو غلوا فى القول ؛ ولكن لنستمع الى اللورد هرفى ، الذى كان يعرف تقريبا كل رجل وامرأة ومنحرف بين عليّة القوم :

« ان خرافة المسيحية هذه . . . قد نسفت الآن (١٧١٨) فى انجلترا ، حتى ليكاد أى رجل عصرى أو ذى مكانة يخجل من الاعتراف بمسيحيته خجله فى الماضي من الجهر بتجرده من أى دين . وحتى النساء اللائى كن يعخرن بذكائهن حرصن على أن يشهن الناس ان الميـسول المسيحية هى ما يحتقرن الالتزام به (٤) » .

فى تلك الطبقات أو العقول الرفيعة كان الدين يعنى اما نعاس صلاة القداس الانجليكانى أو « حماسة » المذاهب المنشقة ، وعمّا قليل سيرف الدكتور -جونسن الحماسة بأنها « ايمان مغرور بالالهام الخاص » - وبالمعنى الحرفى « إله فى باطن الانسان » . وكانت الكنيسة الرسمية قد فقدت كرامتها ونفوذها بمساندتها الاستيوارتيين ضد الهانوفريين وحزب الأحرار المنتصر ؛ وخضعت الان للدولة ، وغدا نساوستها أتباعا أذلاء للطبقة الحاكمة . وكان القسيس الريفى هو الهدف المفضل لهجو الأدباء أو سخيرية السوق ، وقد كرم فيلدنج من شدوا عن هذه القاعدة فى شخص الفس ادمز . وغلبت الفوارق الطبقيّة فى الكنائس ، فكان للأغنياء مقاعد خاصة قرب المنبر ، وجلس عامة الناس أو وقفوا فى المؤخره ، فاذا فضيت الصلاة لزم العامة أماكنهم ريثما يخرج صف الكبراء فى وقار بطيء (٥) . وهى بعض كنائس لندن ، حين يكثر عدد الفقراء القادمين للعبادة ، كان المصلون من أصحاب البواريك يهربون بعد أن يقفلوا مقاعدهم خلفهم (٦) ، ملتسبين هواء أكثر نقاء .

وكان بعض الاساقفة الانجليكان أمثال بطرر ، وباركلى ، ووربرتون ، رجالا متبحرين فى العلم ؛ وكان اثنان من هؤلاء على خلق عظيم ، ولكن

أكثر كبار الأكليريوس كانوا فى مناوراتهم للترقى يشاركون فى لعبسة السياسة شكاك البلاط ومحظياته ، ويفنون فى حياة الترف دخول كثير من الأبرشيات . وقد روى أن الأسقف تشاندلر دفع ٩٠٠٠٠ جنيه لترقيته من لتشفيلد الى درم ، أما ويليز أسقف ونشستر ، وبوتر رئيس أساقفة كنتربرى ، وجبسن وشرلوك أسقفا لندن ، هؤلاء جميعا ماتوا « أغنياة غنى مخزيا » وبلغت ثروة بعضهم ١٠٠٠٠٠٠ جنيه (٧) . ولم يكن شكرى يطيقهم ، فقال :

« قرأت أن الميديدى يارموث (خليفة جورج الثانى) باعت أسقفية لكاهن بمبلغ ٥٠٠٠٠ ره جنيه ٥٠٠٠ أكان هو الحبر الوحيد فى عصره الذى قادته أيد كهذه الى المحراب ؟ اننى اذ اختلس النظر الى داخل قصر سانت جيمس الذى يقطنه جورج الثانى ، أرى الثياب الكهنوتية الكثيرة تحدث حفيفا وهى تصعد السلم الخلفى لسيدات البلاط ؛ قساوسة مستترين يدسون أكياس النقود فى حجورهن ، وذلك الملك العجوز الفاجر يتنأب تحت مظلمته فى المصلى الملكى أثناء عظة القسيس ، الواقف أمامه ، (أو) يثرثر بالألمانية ٥٠٠ بصوت يبلغ من علوه أن القسيس ٥٠٠ انفجر صارخا فى منبره لأن حامى الايمان وموزع الاسقفيات لا يريد الاصفاء اليه ! (٨) » .

وكان من سمات العصر أن الكنيسة الرسمية أصبحت شديدة التسامح مع عقائد أعضائها وطقوسهم المختلفة . وقد وصفها بت بأنها « عقيدة كلفنية ، وطقوس بابوية ، وأكليريوس أرمنيوسى (٩) » أى أن العقيدة الرسمية كانت جبرية ، والطقوس شبيهة بطقوس روما الكاثوليكية ، ولكن روحا متحررة سمحت للقساوسة الأنجليكان برفض حتمية كلفن واعتناق تعليم المهترطق الهولندى أرمنيوس القائل بحرية الأرادة . لقد ازداد التسامح لأن الايمان اضمحل ، وآية ذلك أن هرطقات كهترطقة هيوم ، كانت ترووع انجلترا القرن السابع عشر لو جهر بها انسان ، لم تحدث غير موجة طفيقة على نهر الفكر البريطانى . وقد وصف هيوم نفسه انجلترا بأنها « استكانت الى حال من عدم الاكترات الهادىء بأمور الدين لا تجدها فى أى أمة أخرى من أمم الأرض (١٠) » .

وكان كل الانجليز ملزمين بالعبادة الانجليكانية حسب نص القانون . فكل متخلف عن صلوات الاحد عرضة لتغريمه شلنا عن كل تهرب ، وكل من يسمح لهذا المتخلف بمساكنته يعاقب بغرامة عشرين جنيهها فى الشهر (١١) ؛ على ن هذه القوانين ندر أن طبقت . وكانت العبادة الكاثوليكية محرمة ، قانونا أيضا لا تطبيقا . فالقس الكاثوليكي الذى يؤدى وظيفة كهنوتية عقابه الحبس المؤبد . ومثل هذه العقوبة فرضت لثنى أى كاثوليكي عن فتح مدرسة ؛ وحرم على الوالدين ارسال أبنائهم الى الخارج ليتعلموا تعليما كاثوليكيا والا غرموا ١٠٠ جنيه . ولا يحق شراء الارض أو ورثها الا للمواطنين الذين أقسموا يمينى الولاء والسيادة (اللتين تعترفان بملك انجلترا رأسا للكنيسة) وقرروا رفضهم لعقيدة التحول . وكل كاثوليكي يرفض أداء هاتين اليمينين يحرم من المناصب المدنية أو العسكرية ، ومن ممارسة المحاماة ، ومن اقامة أى دعوى أمام القضاء ، ومن العيش فى نطاق عشرة أميال من لندن ؛ يضاف الى هذا أن هذا الكاثوليكي يجوز فى أى وقت نفيه من انجلترا والحكم عليه بالاعدام اذا عاد اليها . على ان الذى حدث فعلا أيام جورج الاول والثانى هو أن الكاثوليك كانوا يورثون ثروتهم وعقيدتهم بانتظام لابنائهم ، ويستطيعون الاستماع الى القداس فى كنائسهم الصغيرة وبيوتهم دون معوق ، وأن الكثيرين منهم أدوا اليمينين المطلوبتين مع تحفظ بينهم وبين أنفسهم (١٢) .

وكان كل البروتستانت الانجليز الغيورين الآن يتبعون المذهب المنشقة على الكنيسة الرسمية . وقد ضحك فولتير واغتبط لكثرة عددهم : مستقلون (بيورتان) ، ومشيخيون ، ومعمدانيون ، ومجمعيون ، وكويكريون ، وتوحيديون . فاما المشيخيون (البرزيتيريون) فكانوا فى طريقهم الى التسامح بعد أن فقدوا سلطتهم السياسية ، ولم يأخذوا عقيدة الجبر مأخذ الجد الشديد ، وكان كثير منهم قانعسا فى صمت بمسيح بشرى (١٣) . وفى ١٧١٩ قرر مجمع للقساوسة المشيخين بأغلبية ٧٧ الى ٦٩ أن التعهد بالتزام عقيدة الثالوث التقليدية ينبغى الا يكون شرطا يفرض على المرشحين رعاة للكنيسة (١٤) . واما الكويكريون فكانوا فى نمو لا فى العدد بل فى الثراء ، وكلما ارتقوا فى مدارج المجتمع أصبحوا أكثر تقبلا لاساليب حياة البشر وذنوبهم . على أن ميلا الى الاكتئاب

أصاب كل المنشقين تقريبا حتى وهم ينعمون بالثراء ، وبينما كانت طبقات المجتمع العليا تجعل من يوم الاحد يوم جذل كانت الطبقة الوسطى الدنيا - حيث ينكاثر المنشقون - تواصل « الأحد العبوس » الذى ورثته عن البيورتان . فى ذلك اليوم كانت الأسرة عقب صلوات الصباح فى البيت تمضي الى قاعة الاجتماع لحضور خدمة دينية تمتد ساعتين ، فاذا عادت الى البيت قرأ الأب الكتاب المقدس أو الكتب التقوية على زوجته وأبنائه الذين قد يجلسون على وسائل فوق أرض عطلت من الأبسطة . وكانوا عادة يذهبون ثانياة الى خدمات دينية تقام عصرا ومساء ، ويصرون جماعة ، ويسمعون عذبة أخرى ، ويجدون بعض اللذة فى ترتيل الترانيم الجَهْورية . ولم يكن مسموحا بأى غناء فى ذلك اليوم المقدس ، ولا بلعب الورق ، ولا بأى تسلية من أى نوع كانت بصفة عامة . ويجتنب السفر فى يوم الرب ، فيعطى قطاع الطرق بهذه الطريقة يوم راحة .

ووجد فولنير فى معرض وصفه للمشهد الدينى فى انجلترا الكثير مما به لبح درسا لفرنسا التى مازال التعصب يحكمها . قال :

« انظر الى بورصة الأوراق المالية الملكية بلندن . . . هناك يجرى اليهودى والمسلم والمسيحى معاملاتهم معا وكأنهم من دين واحد ، ولا ينعنون بالكفر غير الفيلسين . هناك يثق المشيخى بالقائل بعماد الكبار ، ويعتمد الانجليكانى على كلمة الكويكرى . فاذا انفض هذا الجمع الحر مضي بعضه الى مجمع اليهود ، وبعضه ليشرب كأسا من الخمر . هذا الرجل يذهب ويعمد فى حوض هائل باسم الأب والابن والروح القدس ؛ وذلك يأمر بختان ولده ويتمتمة طائفة من الكلمات العبرية التى يجهل كل الجهل معناها فوق الطفل ؛ وآخرون (الكويكرىون) يمشون الى كنائسهم - حيث ينتظرون الوحي وقبعاتهم على رموسهم ؛ والكل راضون .

« ولو أن انجلترا لم تسمح بغير دين واحد ، لأصبحت الحكومة فى أغلب الظن مستبدة ؛ ولو كان هناك دينان شتط لذبح الناس بعضهم بعضا ؛ أما والأديان بهذه الكثرة ، فانهم جميعا يعيشون فى سعادة وسلام (١٥) » .

٢ - التحدى الربوبى

تضافرت عوامل كثيرة على تقويض صرح العقيدة المسيحية فى انجلترا : ارتباط الكنيسة بصعود الاحزاب السياسية وسقوطها ؛ وازدياد الثروة ومطالب اللذة فى طبقات المجتمع العليا ، ودولية الافكار بفضل التجارة والسفر ، والالمام المتزايد بالاديان والشعوب غير المسيحية ، وتكاثر المثل وتبادل النقد فيما بينها ، وتطور العلم ، وازدياد الايمان بالاسباب الطبيعية والقوانين الثابتة ، والدراسة التاريخية والنقدية للكتاب المقدس ، واستيراد أو ترجمة كتب خطيرة مثل « معجم » بيل و « الرسالة اللاهوتية السياسية لسبينوزا » ، والكف عن رفاة الدولة على المطبوعات (١٦٩٤) ، ومكانة العقل الصاعدة ، والمحاولات الجديدة للفلسفة ، فى أعمال بيكون ، وهوبز ، ولوك ، لتفسير العالم والانسان تفسيرات طبيعية و - تلخيصا لكثير من هذه العوامل - حملة الربوبيين (المؤلهة) Deists لاختزال المسيحية الى مجرد الايمان بالله والخلود .

وكانت تلك الحركة قد بدأت بكتاب « الحقيقة » لهيربرت لورد تشيربرى فى ١٦٢٤ ، ونمت خلال القرن السابع عشر ومطلع الثامن عشر بتشارلز بلاونت ، وجون تولاند ، وأنتونى كولنز ، وواصلت الان سيرها باثر متراكم فى أعمال هويستن ، وولستن ، وتندال ، ومدلتن ، وتشب ، وأنت ، وبولنبروك . وقد طرد وليم هويستن الذى خلف نيوتن استاذا « لوكازيا » للرياضة فى كمبردج من منصبه ذاك (١٧١٠) لأعراجه عن بعض الشكوك فى الثالوث ، فدافع عن أريوسيته فى كتاب « احياء المسيحية البدائية » (١٧١٢) ، وأجهد نفسه ليثبت أن تنبؤات العهد القديم لا تشير الى المسيح . فلما ألق المدافعون عن المسيحية عن اتخاذ الحجج من التنبؤات ، وبنوا الوهيسة المسيح على المعجزات المروية فى العهد الجديد ، أطلق توماس وولستن مورته التى خلقت من التوقير للمسيحية فى « ستة أحاديث عن معجزات مخلصنا » (١٧٢٧ - ٣٠) . يقول فولتير « لم يهاجم المسيحية قط مسيحى بمثل هذه الجراءة (١٦) » . وقد زعم وولستن أن بعض المعجزات لا تصدق ، وبعضها غير معقول . ووجد أن مما لا يصدقه

العقل أن يلعن المسيح شجرة تين لأنها لم تثمر تينا فى وقت مبكر من العام كوقت الفصح . وتساءل ماذا كان مربو الأغنام لصوفها فاعلين بيسوع لو أنه دفع أغنامهم الى الموت كما فعل بخنازير الجديين ؛ انهم كانوا « يستصرون حكما باعدامه سنقا » ، لان القانون الانجليزى يعتبر هذا العمل جنائية كبرى (١٧) . وذهب وولستن الى ان قصة قيامة المسيح خدعة مفتعلة خدع بها الرسل سامعيهم . وغطى هذا كله بتأكيدات زعم فيها انه ما زال مسيحيا « قويا كالصخرة » . ومع ذلك اهدى كل حديت الى أسقف مختلف ، مع التنديد بكبرهم وجشعهم تنديدا حملهم على رفع دعوى القذف والتجديف عليه (١٧٢٩) . وحكمت عليه المحكمة بدفع غرامة قدرها مائة جنيه ، وبتقديم ضمان لسلوكه سلوكا حميدا فى المستقبل . فلما عجز عن جمع المبالغ المطلوبة زج به فى السجن . وفدم فولتير نلث المبلغ ، وجمع الباقي ، وأفرج عن وولستن . ولا شك أن المحاكمة كانت اعلانا عن « الاحاديث » ، فبيع منها ستون ألف نسخة فى بضع سنوات (١٨) . روت « سيره لولستن » بقلم كاتب مجهول (١٧٣٣) كيف أنه وهو سائر فى سانت جورجز فيلدز ، « لقيته شابة وسيمة وخاطبته بهذه الكلمات . . . أيها الوغد العجوز ، ألم تشنق بعد ؟ » فأجابها وولستن « أيتها المرأة الطيبة ، أنا لا اعرفك . ففولى لى من فضلك بم أسأت اليك » ؛ فأجابت المرأة « لقد هاجمت مخلصي ، فما الذى يحدث لنفسي الخاطئة المسكينة ، لولا مخلصي الحبيب ؟ - مخلصي الذى مات من أجل الخطاة الأشرار امثالى (١٩) » .

وبلغت الدعوى الربوبية ذروتها فى ماتيو تندال ، زميل كلية جميع النفوس باكسفورد . فبعد حياة هادئة محترمة كان اهم ما ميزها اعتناقه الكاثوليكية ثم تحوله عنها ، نشر وهو فى الثالثة والسعين أول مجلد من كتابه « المسيحية قديمة قدم الخليقة » (١٧٣٠) . وخلف عند موته بعد ثلاث سنوات مخطوطة مجلد ثان وقع فى يد أسقف فأتلفه . وفى وسعنا أن نقدر وقع المجلد الأول من الردود التى حاولت مناقضته وعددها ١٥٠ ، وهذا الكتاب هو الذى ابتعث كتاب الأسقف بطر « أوجه الشبه بين الدين والطبيعة » وكتاب الأسقف باركلي « السيفرون » (أو الفيلسوف الصغير) .

وقد طوفتندال فى غير ترفق بكل أوهام اللاهوت . فتساعلم لم أعطى الله وحيه لشعب صغير واحد هم اليهود ، وجعله حكرا عليهم أربعة آلاف سنة ، ثم أرسل اليهم ابنه بوحي آخر مازال بعد ألف وسبعمائة سنة مقتصرأ على أقلية من الجنس البشرى . فأى نوع من الآلهة يمكن أن يكون هذا الآلة الذى استعمل هذه الطرق السقيمة بمثل هذه النتائج البطيئة الناقصة ؛ وأى اله رهيب هذا الذى عاقب آدم وحواء على طلب المعرفة ، ثم عاقب كل ذراريهم لمجرد أنهم ولدوا ؟ يقال لنا ان السخافات التى يتضمنها الكتاب المقدس سببها أن الله وفق كلامه للغة سامعية وأفكارهم . فياله من هراء ! لم لم يستطع أن يحدثهم بالحقيقة البسيطة بصورة مفهومة ؟ ولم استخدم الكهنة وسطاء له بدلا من أى يتحدث مباشرة الى نفس كل انسان ؟ ولم سمح بأن يصبح دينه الموحى لشعب بعينه أداة اضطهاد ، وارهاب ، وحرب ، لا يخرج منه البشر بعد قرون من هذا التدبير الالهى أكثر فضيلة منهم عن ذى قبل ؟ - بل جعلهم فى الواقع اشد ضراوة وقسوة عما كانوا فى ظل العبادات الوثنية ! اليس فى كونفوشيوس أو شيشرون فضيلة أرفع مما فى مسيحية التاريخ ؟ ان الوحي الحقيقى موجود فى الطبيعة ذاتها ، وفى عقل الانسان الممنوح من الله ؛ والاله الحقيقى هو الاله الذى كشف عنه نيوتن ، المهندس لعالم عجيب يعمل بعظمة وجلال وفق قانون ثابت ؛ والفضيلة الحققة هى حياه العدل فى انسجام مع الدابئمة ، « نكل من ينظم ميوله الفطرية بحيث تؤدى الى أقصى حد لاستخدام عقله ، وصحة جسده ، ولذات حواسه ، مجتمعة كلها معا (لان فى هذا سعائه) - له أن يثق بأنه لا يمكن أن يغضب خالقه الذى اذ يحكم كل الانسياء حسب طبائعها فهو لابد يتوئع من مخلوقاته العاقلة أن تسلك وفسق هذه الطبائع (٢٠) » . تلك هى الفضائل الحققة ، تلك هى المسبحة الحققة « القديمة قدم الخليقة » .

وواصل كونيرز مدلتن الهجوم من الزاوية التاريخية . فبعد أن تخرج فى كلية ترنتى بكمبردج رسم قسيسا ، وبينما كان يكيل الضربة تلو الضربة للإيمان السننى ، واصل الممارسات الخارججية للعبادة المسيحية . وقد كتب طرفا من أفضل النثر فى عصره ، وكتابه « سيرة شيشرون » (١٧٤١) ما زال الى اليوم سيرة رائعة رغم كثرة

ما استعارة من سير شيشرون التي سبقته . وقد أبهج زملاءه القساوسة حين أرسل الى انجلترا « رسائل من روما » (١٧٣٩) ، التي بين فيها بتفصيل ينم على علم ودراية رواسب الطقوس الوثنية المتخلفة فى مجموعة الطقوس الكاثوليكية - البخور ، والماء المقدس ، وآثار القديسين ، والمعجزات ، والقرايين المنذورة والأنوار القائمة أمام المزارات المقدسة ، و « كبير الاحبار Pontifex Maximus القديم الذى أصبح كبير احبار روما Pontiff . وصفقت انجلترا البروتستنتية للرسائل ، ولكنها سرعان ما تبينت أن ولع مدلتن بالتاريخ يمكن أن يكدر صفو اللاهوت البروتستنتى كالكاثوليكي سواء بسواء . فلما دافع دانيال ووترلاند عن حرفية صدق الكتاب المقدس ووحيه ردا على تندال ، أنذر مدلتن فى « رسالة الدكتور ووترلاند » (١٧٣١) اللاهوتيين البروتستنت بأن تشبههم بكل أساطير الكتاب المقدس باعتبارها تاريخا فعليا ليس الا عملا انتحاريا ، لأن تقدم المعرفة سوف ينبذ ان عاجلا أو آجلا مثل هذه الخرافات ويكره المدافعين المسيحيين على التقهقر فى خجل الى موقف أكثر تواضعا . ثم لجأ مدلتن الى حجة فضحت ما كان لدراسته للتاريخ من اثر فى ايمانه الدينى فقال : « حتى ولو كان اللاهوت المسيحى لا يصدق ، فان المواطن الصالح سيساند المسيحية والكنيسة المسيحية باعتبارهما درعا للنظام الاجتماعى يوفر روادع ممتازة للمهجية الكامنة فى طبيعة البشر (٢١) » .

وأخيرا أصدر مدلتن أهم أعماله ، « تحقيق حر فى القوى الاعجازية المزعوم أنها وجدت فى الكنيسة المسيحية خلال العصور المتعاقبة » (١٧٤٨) - وهو كتاب عدّه هيوم بعد ذلك أسمى من مقاله المعاصر « فى المعجزات » (١٧٤٨) . وقد بدأ بالتسليم بحجية المعجزات المنسوبة فى الاسفار القانونية من العهد الجديد الى المسيح أو رسله ، وأراد أن يظهر فقط أن المعجزات المنسوبة الى آباء الكنيسة وقديسيها وشهادتها بعد القرن الميلادى الاول غير جديدة بالتصديق ، ومجرد سرد تلك القصص يكفى للكشف عن سخفها . وقد أمّن بعض آباء الكنيسة على مثل هذه القصص وهم يعلمون زيفها ؛ ونقل مدلتن عن موزهايم ، المؤرخ الكنسي العلامة ، تصريحه بالخوف من أن « الذين ييحثون بشيء من العناية كتابات أعظم وأقدس لاهوتى القرن الرابع

سجدونهم كلهم وبلا استثناء ميالين الى الخداع والكذب كلما اقتضت ذلك مصلحة الدين (٢٢) » .

وفى كتاب مدلتن عيوب كثيرة . ففد فاته انه هو ايضا زكى الخداع بالجملة دعما للمسيحية ، وغفل عن أن من التجارب الغربية ، كاخراج « المس الشيطانى » ، او كسماع الفديس انطونيوس للشيطان واقفا ببابه ، ما يمكن أن ينشا عن قوة الايحاء او الخيال ، وربما بدت هذه التجارب من قبيل المعجزات لمن رووها بامانة . على اى حال كان من أثر هذا « التحقيق الحر » أنه سلتط على معجزات العهد القديم ثم على معجزات العهد الجديد ، طرقت النقد ذاتها التى طبستها مدلتن على عصر آباء الكنيسة ، وكان خصومه الكاثوليك محقدين تماما حين زعموا أن حججه من شأنها اضعاف كل الاساس الاعجازى للانسان المسيحى . ولعل مدلتن قد قصد الى هذا . ولكنّه احتفظ بترقيسته الكنسية الى النهاية .

كان اعتناق بولنبروك للربوبية سرا مخفى وعموى متفشية فى الطبقة الارستقراطية . ففى كتاباته التى حسبا عن النشر فى حياته صوّب قدحه المفعم بالازدراء الى جميع الفلاسفة تقريبا فيما عدا بيكون ولوك . فلقب افلاطون بأبى الكذب اللاهونى ، وسمى الفديس بولس « حالما متعصبا » وليبنتر « مشعوذا كيميائيا (٢٣) » والميتافيزيقيين « مجانين منقفين » ووصف كل القائلين بتميز النسر عن الجسد بانهم (٢٤) « معتوهون روحيون » وسحر من العهد القديه لأنه خليط من الهراء والاكاذيب (٢٥) . ولقد صرح بايمانه بالله ، ولكنه رفض ما بقى من العقيدة المسيحية . فكل المعرفة عنده نسبية وغير يقينية . يقول : « ينبغى لنا دائما أن نكون غير مؤمنين . . . ففى الدين ، والحكم ، والفلسفة ، ينبغى أن نتشكك فى كل شيء مقرر (٢٦) » والقى وراء ظهره بأخر تعزيات الشكاك وهى الايمان بالتقدم ؛ فكل المجتمعات تمر بدورات « من النشوء الى الفساد ، ومن الفساد الى النشوء (٢٧) » .

وفى ١٧٤٤ ورث بولنبروك ضيعة الأسرة فى باترسى ، وغادر

فرنسا لينفق هناك آخر سنى صراعه مع المرض واليأس . وهجره أصحابه القدامى لانهييار نفوذه السياسي وحدة طبيعه . وأنهى موت زوجته الثانية (١٧٥٠) اهتمامه بشئون البشر ، « فى كل سنة أزداد عزلة فى هذه الدنيا (٢٨) » وهذا عقاب الأنانية . وفى ١٧٥١ ابتلى بالسرطان الذى انتشر من وجهه فأملى وصية تتسم بالتتوى ، ولكنه رفض أن يسمح لآى قميس بالاهتمام بروحه (٢٩) . ومات فى ١٢ ديسمبر بعد ستة شهور من العذاب ، بغير أمل لا لنفسه ولا للشر . لقد أخذ اضمحلال الايمان الدينى يولد ذلك التشاؤم الذى سيصبح العلة الخفية التى تبتلى بها النفس العصرية .

٣ - الدفح الدينى

أما المدافعون عن المسيحية فلم يقابلوا الهجسرم الربوبى بأى استسلام أو هزيمة ، بل انهم على العكس من ذلك ردوا الهجوم بكل ما أوتى تئدال أو مدلتن أو بولنبروك من فوة عارمة ، وعلم واسع ، واسلوب مقذع . واعتمد المدافعون الأضعف شانا ، مثل تشاندلر أسقف لتشفيلد ، ونيوتن أسقف لندن ، على الحجج البالية ، وهى أن اليهود كانوا ينتنزلرون فى حرارة وشوق مجيء « المسيا » حين أتى المسيح ، وأن كثيرا من النبؤات اليهودية تحققت على يديه ؛ أو رجعوا - كما فعل شملوك أسقف لندن وبيرس أسقف روتشستر - الى الشواهد الكثيرة على قيامه المسيح . وركز شملوك وغيره على أن الأدلة على معجزات المسيح غامرة ساحقة ، وفيها الكفاية لدعم الوهية المسيح والمسيحية . وقال شملوك ان رفض حدث توافرت الأدلة على صدقة لأنه يناقض تجربتنا عمل شديد الخطر ، فعلى الأساس نفسه رفض سكان المدارس أن يؤمنوا بحقيقة الثلج . فاذا زعمنا أن الأشياء لا يمكن أن تكون غير ما عرفناها ، « تجاوزنا اعلام حواسنا ، وقامت النتيجة على الهوى لا على العقل (٣٠) » . وليس فى امكاننا التأكد من أن الانسان لن يقوم من الأموات برغم تجربتنا الواسعة ، الضيقة فى حقيقتها . فانظر كم من العجائب التى نقبلها الآن على أنها أحداث عادية فى حياتنا كنا من قبل نظننا بعيدة التصور !

أما جورج باركلي ، الذى ترك بصمته على الفلسفة فى السنوات ١٧٠٩ - ١٣ ، فقد أدلى بدلوه فى الجدل من جزيرة رود بكتابه « السيفرون » أو الفيلسوف الصغير (١٧٣٣) ، وهو حوار يتالق بالتفكير الجريء والأسلوب المرح . والسيفرون هذا يصف نفسه بأنه رجل حر التفكير ، تقدم من التسامح الدينى الى الربوبية الى الالحاد ، وهو الآن يرفض الدين كله باعتباره خداعا يموه به الكهان والحكام على الناس ؛ وهو يابى الايمان بأى شىء غير الحواس ، والعواطف ، والميول الفطرية ؛ وينذر بوفرانور (لسان حال باركلي) الربوبيين بأن عقيدتهم مفضية الى الالحاد ، وأن الالحاد سيفضي الى انهيار الفضيلة . قد يكون هناك بعض الملحدین الأفاضل ، ولكن ألا تولد عقيدتهم ، اذا ما قبلتها الجماهير ، الاباحية والتمرد على القانون ؟ وهؤلاء المتشككون فى الدين ينبغى أن يتشككوا فى العلم أيضا ، لأن كثيرا من دعاوى العلماء - كما هى الحال فى الرياضة العليا - تتجاوز تماما شهادة حواسنا أو تناول فهمنا . وما من شك فى أن عقيدة التثليث ليست أعصي على الفهم من الجذر التربيعى لناقص واحد .

وأما وليم وربرتن فلم يكن بالرجل الذى يرسى ايمانه أو موارده الكنسية على أساس واه كجذور باركلي الصماء . فبعد أن درّب لممارسة المحاماة ، ورسم قسا انجليكانيا ، شق طريقة وسط غابة اللاهوت بكل ما أوتى الذهن القانونى من براعة يقظة ، ولعله كان أصلح للجيش منه للمحاماة أو لرداء الكهنوت ، فعد كان يستطيب العراك ، وما كان يستطيع النوم فى الليل الا اذا أُردي خصما فى النهار . وقد وصف حياته بأنها « حرب على الأرض ، أى على المتعصبين والمنحلين ، الذين أعلنت عليهم الحرب الأبدية كما فعل هانيبال أمام المذبح (٣١) » . واتسع مرمى سهامه وبعد ، فاذا أخطأت الخصوم قتلت الأصدقاء . وقد وصف معاصريه بأوصاف محكمة . فجونسن « بلطجى » خبيث وقح ، وجاريك « اذا انحرف مرة وتكلم كلاما له معنى كان أقرب الى الهراء » ، وسموليت « اسكتلندى متشرد » يكتب « لغوا مضروبا فى عشرة آلاف » ، وفولتير « وغد » يتمرغ فى « أقذر هالوعات التفكير الحر (٣٢) » .

وقد ظهرت رائعته الضخمة ذات المجلدين في ١٧٣٧ - ٤١ بعنوان « رسالة موسى الالهية مفسرة طبقا لمبادئ ريبوى دينى » وكانت حجتها مبتكرة وفذة . فالايمان بحالة مستقبله من الثواب والعقاب لا غنى عنه للنظام الاجتماعى (وهو ما وافق عليه الكثير من الربوبيين) ، ولكن موسى وفق فى تنظيم الحياة اليهودية وأبلاغها حالة من الرخاء والفضيلة بغير ذلك الايمان ، ولا تفسير لهذه المعجزة الا بالارشاد الالهى لموسى واليهود ، ومن ثم فرسالة موسى ونواميسه الهية ، والكتاب المقدس كلمة الله . وأحس وبرتن أن هذا الايضاح « قريب كل القرب من اليقين الرياضى (٣٣) » ولم يكن زملاؤه اللاهوتيون سعداء كل السعادة برأيه فى أن الله أرشد اليهود خلال ٦١٣ قانون وأربعة آلاف سنة دون أن يعلمهم أن نفوسهم خالدة . ولكن المؤلف القوى ملا صفحاته ببحوث علمية - عن طبيعة الفضيلة ، وعن التحالف الضرورى بين الكنيسة والدولة ، وعن ديانات الاسرار والشعائر فى العصور القديمة ، وعن أصل الكتابة ، وعن معنى الرموز الهيروغليفية ، وعن التاريخ المصرى ، وعن تاريخ سفر أيوب ، وعن أخطاء أحرار الفكر ، والآثريين ، والعلماء ، والمؤرخين ، والتوحيديين ، والأتراك ، واليهود - حتى لقد ذهلت انجلترا بأسرها لثقل علمه واتساع مداه . وتقدم وبرتن من معركة الى معركة - ضد كروساز ، وثيوبولد ، وبولنبروك ، ومدلتن ، ووسلى ، وهيوم - حتى بلغ أسقفية جلوستر المريحة المجزية .

وأما جوزف بطر فكان ألين عودا ولكنه أكثر رهافة وتهذبا ، رجلا بالغ الرقة والتواضع والاحسان ، حَزَّ فى نفسه كثيرا أن يرى الدين الذى أعان على فطم الحضارة الأوربية من الهمجية ، يواجه امتحانا من أجل حياته . وقد صدمه الاقبال الذق لقيته مادية هوبز فى الطبقات العليا . فلما عرضت عليه (١٧٤٧) رأسه أسقفية كنتربرى - وهى أعلى منصب كنسى فى انجلترا - رفضها معتذرا بان قد « فات وقت محاولة دعم كنيسة متداعية (٣٤) » . وفى ١٧٥١ أعرب عن فزعه « لما أصاب الدين من انحلال شامل فى هذه الامة . . . فتأثيره يبنى أكثر فأكثر فى أذهان الناس . . . وعدد الذين يجهرون بالكفر فى ازدياد ، وتحمسهم للكفر يزداد بتزايد عددهم (٣٥) » . وقد أدهش

صديقه « دين تکر » بسؤاله : ألا يجوز أن تصاب الأمة كما يصاب الفرد بالجنون ؟ وكأنه شعر أن شعبا من الشعوب قد يصاب بفقد الذاكرة المروحي اذا تخلى عن تراثه الدينى والخلقى .

ومع ذلك كرس حياته فى محاولة لرد اعتبار عقلى للايمان المسيحى . فنشر وهو ما زال تسيسا شابا فى الرابعة والثلاثين « خمس عشرة عظه » (١٧٢٦) لطف فيها من تحليل هوبز المتشائم للطبيعة البشرية ، فزعم أن الانسان وان كان فى نواح كثيرة شريرا بطبيعته ، الا أنه بطبيعته أيضا كائن اجتماعى أخلاقى ، فيه احساس فطرى بالحق والباطل . وقال ان العناصر الأسمى فى كيان الانسان تدين بأصلها لله ، الذى هى صوته ، وعلى هذا الاساس اقام نظرية عامة تقول بان هناك قصدا الهيا يتخلل العالم . وأعجبت كارولين بحجته ، وفى ١٧٣٦ عين بطلر كاهنا خاصا للملكة .

فى ذلك العام نشر كتابا ظل طوال قرن أهم حصن لحجج المسيحية ضد الالحاد ، واسمه « وجه الشبه بين الدين الطبيعى والموحى ، وبين تكوين الطبيعة ومسلكتها » وقد كشفت مقدمة الكتاب عن مزاج العصر :

« لقد انتهينا - ولا أدرى كيف انتهينا - الى حال أصبح فيها من القضايا المسلمة عند الكثيرين ، أن المسيحية ليست موضوعا يكتر فيه البحث والتحقيق الا لانه قد تبين آخر الأمر أنها ديانة زائفة . ومن ثم يتناولونها وكان هذا بات الا ان نقطة يجمع عليها كل أصحاب الفطنة والتمييز ، فلم يبقَ الا أن يجعلوا منها هدفا رئيسيا للهزء والسخرية ، وكانهم يعاقبونها لأنها قطعت على الناس لذات الدنيا هذا الزمان الطويل (٣٦) »

واذ قدم بالكتاب أن يكون ردا على الربوبيين ، فانه افترض وجود الله . رتب الدين الطبيعى « الذى يدين به الربوبيون يقبل » اله الطبيعة « ، مخطط العالم وصانعه الأعظم ، ولكنه يرفض الاله الذى صوره الكتاب المقدس ، وهو اله ظالم ظلما بينا ، لانه لا يتفق أبدا وهذا المفهوم السامى . وأراد بطلر أن يبين أن فى الطبيعة من علامات الظلم

والقسوة ما لا يقل عما فى « يهوه » كما صورته العهد القديم ؛ وأنه لا تناقض بين اله الطبيعية واله الوحي ؛ وأن الذين قبلوا أحدهما ينبغى منطقياً أن يقبلوا الآخر . ويبدو أن كاهن الملكة الخاص ، الطبيب ، لم يدر بخلده قط أن بعض الشكاك الوقحين قد يخلصون من هذه الحجة (كما خلس جيمس مل) الى أنه لا هذا الاله ولا ذاك جدير بأن يعبده المتحضرون .

وأقام بطزر حجته فى وجود الالهين ، وفى أنهما واحد ، على الترجيح والاحتمال . فقال ان عقولنا ناقصة ، وأنها عرضة لكل ضروب الخطأ ، فليس فى امكاننا أن نصل الى اليقينية لا فى مر الله ولا فى أمر الطبيعة ؛ وحسبنا الترجيح ، والترجيح يؤيد الايمان بالله والايمان بالخلود . وواضح أن النفس أسمى من الجسد ، لأن أعضاء الجسد أدوات النفس وخدامها . والنفس ، التى من الواضح أنها جوهر الانسان ، لا داعى لفنائها مع الجسد ، وأغلب الظن أنها عند الموت تبحث عن أدوات جديدة فى مرحلة أعلى . وليس من المريح للطبيعة أن يتغير كائن من صورة أدنى الى صورة أعلى - كتغير الكائنات الزاحفة ، مثلاً الى كائنات مجنحة ، أو تغير الخادرة الى فراشة ؛ وقياس آخر يرجح أنه سيكون فى حياة النفس بعد موت الجسد الوان من الثواب والعقاب - مع الافتراض دائماً بأن الله موجود . فكما أننا نعاقب المجرمين على جرائمهم ضد المجتمع ، كذلك تعاقب الطبيعة فى معظم الحالات الناس على ما اقترفوا من آثام ؛ ولكن بما أن هناك أمثلة كثيرة لا تلقى فيها الرذيلة عقاباً واضحاً ، ولا الفضيلة ثواباً واضحاً ، فى هذه الحياة ، لذلك كان مما لا يصدق أن الله لن يعيد ، فى حياة أخرى ، علاقة أكثر انصافاً بين السلوك والمصير . وضميرنا ، حسنا الخلقى ، لا يمكن أن يكون قد جاعنا الا من لدن اله عادل .

وأكثر ما لحجج بطزر من أهمية فى عصرنا هذا مرجعه أنها توضح مرحلة فى تطور العقل العصرى . ونحن إذا نظرنا اليها باعتبارها موجية أصلاً ضد الريبوبيين وجدنا فيها فكرة لا يستهان بها ؛ فالذين قبلوا شهادة القصد الالهى فى الطبيعة ، لا مبرر لهم فى رفض الكتاب المقدس بسبب لاله القابى المعلن عنه فى العهد القديم ، لأن اله الطبيعية

لا يقل عنه قسوة . لقد كانت طريقة غاية فى الأصالة فى الدفاع عن المسيحية . والظاهر أن بطر لم يتوجس من أن هذه الحججة قد لا تفضي الى المسيحية ، بل الى شيء أشد دفعا الى اليأس من الكفر - الى النتيجة التى خلص اليها توماس هنرى هكسلى ، وهى أن القوى المطلقة فى الكون أو وراءه غير أخلاقية ، تتناقض أشد التناقض مع ذلك الاحساس بالحق والباطل الذى بنى عليه بطر ، كما بنى عليه كانط ، الكثير من لاهوته . على أية حال كان كتاب « وجه الشبه » خطوة الى الامام ولو فى هدوئه ولطفه ، فهنا لا تجد كراهية لاهوتية ، ولا قدحا دينيا ، بل محاولة جادة من الكاتب للتأدب حتى مع أولئك الذين بدوا أنهم يدمرون أعز آمال البشر . ورحبت الملكة كارولين بالكتاب لأنها رأت فيه أفضل دفاع ظهر الى ذلك الحين عن العقيدة المسيحية . وأوصت وهى على فراش الموت بترقية بطر ، فعينه جورج الثانى أسقفا على برستل ، ثم ناظرا على كتدرائية القديس بولس ، وأخيرا أسقفا على درم . وهناك ضرب بطر المثل لزملائه بالعيشة البسيطة والتصدق على الفقراء بجانب كبير من دخله .

وقد ترك كتابه للكفر منافذ كثيرة حتى ان كثيرا من رجال الكنيسة أشاروا بالكف عن هذا الجدل ، وأثروا أن يرسوا ايمانهم على الحاجات والعواطف الدينية بعيدا عن سهام العقل . مثال ذلك أن كتاب هنرى دودويل « المسيحية دون أساس من الجدل » (١٧٤٢) يرفض الجدل العقلى فى المسائل الروحية ، لأنه لا يهدى الى الحقيقة ، وأقل من ذلك الى السعادة ، انما هو رقصة موهنة ترمى فيها الحجج المؤيدة والمعارضة ، وما من انسان يقيم ايمانه على مثل هذه الأسس المائعة . وذهب دودويل الى أن حجج كلارك ، ووربرتن ، وبيطر ، وغيرهم من المدافعين المسيحيين ، قد هزت من الايمان الدينى أكثر مما قوت ، وربما لم يكن هناك الحاد لولا أن المحاضرين فى محاضرات بويل التذكارية دأبوا كل عام على تنفيذ الالحاد . ان المسيح لم يجادل ، بل علم كمن له سلطان . فانظر الى أى شخص متدين حقا ، تجد فيه اقتناعا باطنيا ، لا استنتاجا عقليا ؛ فالايمان للنفس البسيطة يجب أن يكون تقليدا مقبولا ، وللروح الناضجة يجب أن يكون شعورا مباشرا بواقع فوق الطبيعة .

أما وليم لو ، فبعد أن ترك بصمته على الجدل مع الربوبيين ، دفعته قراءة يعقوب بومى الى التحول من الجدل الى الصوفية ؛ وفي نصف القرن الذى نحن بصدده ، والمتسم بالمادية والكليبية الظافرتين ، كتب عن الوجود الباطن للمسيح ومحبهه الفادية بحرارة وثقة كأنه توماس أكببىس مولودا من جديد دون أن يطرأ عليه تغيير . وقد ضحى بكل المطامح الدنيوية برفضه حلف اليمين التى تعترف بجورج الأول رأسا للكنيسة لانجليزية ؛ فحرم زمالته بكمبردج ، واستتردت درجاته الجامعية . ثم أصبح معلما خاصا لأبى ادورد جيبون ، ومكث مع تلك الأسرة ردحا كفى لأن يذكره المؤرخ (جيبون) . قال هذا الشاك « لقد ترك فى أسرتنا سمعة الرجل الفاضل التقى الذى يؤمن بكل ما يصرح به ، ويمارس كل ما يأمر به (٣٧) » وقد أثنى جونسن على كتاب لو « دعوة جادة الى حياة تقيّة مقدسة » (١٧٢٩) وقال انه « أروع قطعة من اللاهوت الوعظى فى أى لغة (٣٨) » فمن المؤكد أن صوفية الكتاب أصبح من تلك التى تتوه فى روعى خارقة ، سماوية كانت أو جهنمية . كتب لو يقول : ليس هناك شيء خارق للطبيعة فى نظام فدائنا كله ، فكل جزء فيه له اساس فى أعمال الطبيعة وقواها ، وكل فدائنا انما هو الطبيعة مصححة . « وليست الجحيم مكانا ، بل هى حالة النفس المضطربة ، ولا الجنة مكانا ، ولا « حالة غريبة ، منفصلة ، مفروضة » ، بل هى سعادة نفس فى نظام وسلام (٣٩) . ومع أن لو كان عضوا مخلصا فى الكنيسة لانجليزية ، فانه كان يحلم برهبة مجددة بروتستنتية . يقول :

« اذن لو أن أشخاصا من الجنسين . . . تواقين الى الكمال ، تجمعوا فى جماعات صغيرة ، تنذر الفقر الاختيارى ، والنبتل ، والعزلة ، والعبادة ، حتى تخفف صدقاتهم حاجة البعض ، ويتبارك الجميع بصلواتهم وينتفعوا بقدوتهم . . . هؤلاء لا يتعرضون للاتهام بأى ميل للخرافة أو تعبد أعمى . . . بل يمكن أن يقال حقا وصدقا أنهم يستعيدون تلك التقوى التى كانت فخر الكنيسة ومجدها على حياة قدسيها العظام (٤٠) » .

وقد أثرت مثل لو العليا ونثره الرائع فى عمّة جيبون

هستر جيبون ، تأثيرا حملها هي وأرملة غنية على الذهب للعيش بقربه فى مسقط رأسه كنجزكليف بنورثمتونشير ، وكستا أكثر دخلهما لأعمال البر تحت إشرافه . وقد وجد هذا الرجل سعادته فى توزيع الطعام والثياب والعظاى على الفقراء والمرضى والمحرومين ، وهو الذى كان فى يوم ما طالب علم شغوفاً بالبحث ، محباً للصحة المثقفة المهذبة . وغالى فى تقشفه ، فأنكر جميع لذات الدنيا تقريباً ، ووجد الحملة البيورتانية على المسرح باعتباره « بيت الشيطان » أو على الأقل « شرفة الجحيم (٤١) » . ولم يكن الخلق الانجليزى ، ولا مزاج العصر ، حفيين بصوفية لو ، وبدا أنه مختتم حياته فى خمول ذكر عقيم ، وإذا جون وسلى يأتى ليجلس عند قدميه .

٤ - جون وسلى : ١٧٠٣ - ٩١

إذا أردنا أن نفهم مكانه من التاريخ رجب أن نذكر أنفسنا ثانية بأنه حين أسس هو وأخوه تشارلز الحركة المئودية Methodism فى أكسفورد (١٧٢٩) كان الدين فى انجلترا أخط منزلة مما كان فى أى فترة من فترات التاريخ الحديث . فلم يكن يختلف الى الكنيسة من أعضاء مجلس العموم أكثر من خمسة أو ستة (٤٢) . وكان رجال اللاكليروس الانجليكانى قد غالوا فى قبولهم العقلانية علوا جعلهم يبنون كل كتاباتهم تقريباً على الجدل العقلى . وندر أن ذكروا الجنة أو النار ، وكانوا يؤكدون على الفضائل الاجتماعية دون الغيبيات . والعظمة الانجليزية كما وصفها فولتير كانت « رسالة جدية ولكنها جافة أحياناً ، يقرؤها رجل على الشعب دون ايماء ودون أن يرفع صوته رفعا ملحوظا (٤٣) » . ولم يكن الدين نشيطا حارا الا فى المذاهب المنشقة التى تتبعها الطبقة الوسطى . وكان عمال المدن مهملين اهمالا كلياً تقريباً من اللاكليروس الانجليكانى ، « كان هناك فرقة ضخمة تتألف من أدنى الطبقات ، أفرادها بعيدون عن تناول التعليم أو الدين ، لا دين لهم ، ولم يعلموا ديناً على الإطلاق (٤٤) » ، وقد أسلموا الى فقر لا يضيئه نور الأمل الدينى الا قليلاً . فى هذه الخلفية أحياء جون وسلى وجورج هوايتفيلد العقائد والآداب البيورتانية أحياء قويا وأسسا الكنيسة المئودية .

كان اللاهوت والثورة يجريان فى عروق آباء وسلى • فجدده الأكبر يرتلميو وستلى طرد من وظائف القسوسية فى دورست لأنه وأصل العبادة المنشقة بعد أن "رد" الاحتكار الكنسي فى انجلترا للكنيسة الانجليكانية. وأصبح جد جون ، جون وستلى ، قسيسا فى دورسيت ، وسجن لرفضه أن يستعمل كتاب الصلاة العامة ، وطرد من القسوسية ، وأصبح راعيا منشقا فى بول • وأسقط والد جون ، واسمه صموئيل وسلى ، حرف التاء من اسمه ، وشق طريقه الى أكسفورد ، وهجر المنشقين ، ورسم قسيسا انجليكانيا ، وتزوج سوزانا آنزلى (وكانت بنت واعظ) وأصبح قسيس ايبورث فى لنكولنشير ، ومات من أبنائه التسعة عشر ثمانينة فى طفولتهم - وفى هذا بيان لشقاء النساء ، وفحولة القساوسة المستهتره ، ونوعية الطب فى انجلترا القرن الثامن عشر • وكان الاب مؤدبًا صارما فى البيت وعلى المنبر ، نشأ أبناءه على الخوف من اله منتقم ، وأدان احدى رعايا أبرشيته بالزنا ، وأجبرها على السير فى الشارع فى مسوح التوبة (٤٥) • وكانت زوجته ضريبا له فى الصرامة والتقوى • فلما بلغ ابنا الشهر التاسعة والعشرين شرحت له فلسفتها فى التربية الخلقية فقالت :

« اننى أصر على قهر ارادة الأطفال فى وقت مبكر ، لأن هذا هو الأساس القوى والمعقول الوحيد للتربية الدينية ، الذى بدونه لا يكون للتعالم ولا للقدوة جدوى • ولكن متى قهرت هذه الارادة قهرا تاما أصبح فى الامكان أن يحكم الطفل بعقل أبويه وتقواهما ، الى أن يبلغ فهمه درجة النضج ••• فاذا بلغ الطفل عاما كانوا (أى أطفالها) يعلمون أن يخافوا العصا ويبكوا بصوت خافت ، وبهذه الطريقة وفروا على أنفسهم الكثير من العقاب الذى كان يصيبهم ان لم يفعلوا (٤٦) » •

وأصبح أكبر أبنائها ، صموئيل وسلى الثانى ، شاعرا وعالما وقسيسا انجليكانيا أنكر على أخويه مذهبهما الموثودى • وكان الطفل الثامن عشر هو تشارلز وسلى ، الذى دعم مواعظ أخيه جون دعما قويا بترانيم بلغ

عددها ٦٥٠٠ . أما جون فكان الخامس عشر ، وهو مولود بايبورث فى ١٧٠٣ . فلما بلغ السادسة احترق بيت القسيس ، وتركته الأسرة وسط النيران ظنا منها أنها قضت عليه ، ولكنه أطل من شبك فى الطابق الثانى ، فأنقذه جار وقف على كتفى آخر ، وسمى نفسه بعد ذلك « جمرة اختطفت من بين المحترقين » ولم يتغلب قط على خوفه الشديد من اللججيم . وفى بيت أبيه كانت أى ضوضاء غير واضحة السبب ، تفسر على أنها وجود خارق للطبيعة ، شيطانى أو الهى .

وحين بلغ جون الحادية عشرة أرسل الى مدرسة تشارتر هاوس الحرة ، وفى السابعة عشرة الى كرايست تشيرش باكسفورد . وقد تغلب على ضعف صحته بادمان المشي والركوب والسباحة ، فعمّر حتى بلغ الثامنة والثمانين . وقرأ كثيرا ، واحتفظ بمذكرات ومقتطفات من قراءته توخى فيها التدقيق والعناية . وكان أحب الكتب اليه كتاب جيريمى تيلر « الحياة المقدسة والموت المقدس » ، وكتاب توماس أكمبس « محاكاة المسيح » . وبدأ - حتى فى أيام دراسته بالكلية - تلك اليومية التى هى احدى آيات الأدب الانجليزى والتقوى البروتستنتية . وقد كتب بعضها بالشفرة والاختزال . وفى ١٧٢٦ عين زميلا بكلية لنكولن ، وفى ١٧٢٨ رسم قسيسا انجليكانيا .

وأخوه تشارلز هو الذى بدأ بجمع فى اكسفورد جماعة صغيرة من نحو خمسة عشر طالبا ومعلما اعتزموا ممارسة المسيحية بدقة منهجية . وأعداؤهم هم الذين خلعوا عليهم تهكما وازدراء اسمى « النادى المقدس » و « المثوديين » . وكانوا يقرءون معا العهد الجديد اليونانى والاداب القديمة ، ويصومون كل اربعاء وجمعة ، ويتناولون العشاء الربانى كل اسبوع ، ويتفقدون المسجونين والمرضى ليقدموا لهم العزاء والامل الدينى ، ويرافقون المحكوم باعدامهم الى المشنقة . ووصل جون وسلى الى تزعم الجماعة بفضل شدة حماسه وتقواه ، فكان يستيقظ كل يوم فى الرابعة - وهى عادة احتفظ بها حتى وهو طاعن فى السن ،

ويخطط منهجيا فى كل صباح الاعمال التى تؤدى فى كل ساعة من ساعات اليوم . وكان يعيش على ثمانية وعشرين جنيها فى العام ، ويوزع باقى دخله على أعمال البر . وقد أكثر من الصوم حتى بدأ مرة أنه قد دمر صحته تدميرا لا برب منه . وكان يحج راجلا الى وليم لو يلتمس منه النصيحة ، وأصبح كتاب لو « دعوة جادة الى حياة تقية مقدسة » مرشده الروحى . تقول يومياته أنه من هذا الكتاب « فاض النور على نفسى بقوة حتى ظهر كل شيء فى صورة جديدة (٤٧) » .

وفى ١٧٣٥ دعا الجنرال أوغلثورب جون وتشارلز ليرافقاه مبعوثين دينيين الى جورجيا . واذا كان أبوهما قد مات فانهما التمسنا مشورة أمهما . فقالت لهما « لو كان لى عشرون ولدا لأبهجنى أن يندعوا الى مثل هذا ، حتى ولو لم أرهم بعد ذلك أبدا (٤٨) » . فليت شجرى انى لنا نحن المجريين من التقوى أن نفهم هذه التقوى ؟ وأرجمت جلسات « النادى المقدس » الى أجل غير مسمى ، وفى ١٤ أكتوبر أبحر جون وتشارلز و « مثوديان » آخران على السفينة « سيموندر » قاصدين سافانا . وفى السفينة أثرت فيهم التقوى المرحة التى أنسوها فى بعض « الأخوة المورافيين » الذين قدموا من ألمانيا ليستوطنوا أمريكا ، فلما هاجمت عاصفة هوجاء المركب الصغير لم يبد على المورافيين أثر لخوف ، وقارعوا رياح العاصفة بترانيمهم القوية ، وأحس الوسليان أن هذا ايمان يفوق ايمانها قوة .

فلما بلغا جورجيا (٥ فبراير ١٧٣٦) اتخذوا منصبين مختلفين ، فأصبح تشارلز سكرتيرا للحاكم أوغلثورب ، وجون راعيا للجاليسة الجديدة ، ومرسلا بين الحين والحين للهنود الحمر المجاورين . واثنى أول الأمر على الهنود لشوقهم الى تقبل الانجيل ، ولكنه وصفهم بعد عامين بانهم « شرون ، لصوص ، مراعون ، كذابون ، قتلة لابائهم ، قتلة لامهاتهم ، قتلة لابنائهم » ، وقيل انه « لم يوفق مع الهنود (٤٩) » . أما السكان البيض ، الذين كانوا يضمون مئات من

المجرمين المنفيين ، فقد أنكروا لهجته الأيسفوردية وروحه الأمرة النهائية وأصراره على أدق قواعد الطقوس والنظام . ففي العماد اشترط للتغيّطس الكامل ثلاث مرات ، فإذا اعترض والد رفض أن يعمد الطفل . وإذا كان لا يزال « كنسيا طقسيا من النوع الشديد التزمّت (٥٠) » . فإنه أقصي عن تناول القربان رجلا كريما اعترف بأنه من المنشقين ، وأبى أن يقرأ صلاة الجنازة على مسّتعمر لم ينكر مذهبه المنشق قبل موته ، وحرّم على النساء من رعيته أن يلبسن الملابس الغالية أو الحلّى الذهبية ، وأقنع الحاكم أن يحرم صيد السمك وقنص الحيوان فى يوم الأحد - وهو اليوم الوحيد الذى كان يتاح فيه لرعيته فراغ من الوقت للصيد أو القنص . وقد افتتن بصوفيا هوبكى ، ابنة أخت كبير قضاة سافانا البالغة من العمر ثمانية عشر ربيعا . ولكن أصحابه المورافيين لم يرضوا عنها . فلما سئمت تردده تزوجت رجلا يدعى ولكنسون . وحين تقدمت لتناول القربان أبى أن يناولها السر بحجة أنها لم تتناول سوى ثلاث مرات فى الشهور الثلاثة الأخيرة ، وأنها أهملت أن تطلب الى راعيها اذاعة اعلان زواجها . فرفع زوجها عليه الدعوى لتشهيره بخلق زوجته ، وأدانت المحكمة سلوكه وسلى خطيبيا وخدماته كاهنا ، فرفض الاعتراف بحقها فى محاكمته ، وتفاقم عدااء الشعب له ، ففر الى تشارلزتن واستقل سفينة الى انجلترا (٢٢ ديسمبر ١٧٣٧) .

وفى لندن استأنف تقشفاته أملا فى أن ترد اليه ثقته بنفسه ، ولكن بيتر بولر ، وكان واعظا مورافيا فى طريقه الى أمريكا ، أكد له أن ايمانه مازال ناقصا ، وأنه مهما كانت فضائله كاملة وتقواه وطقسيته حاريتين ، فسيظل فى حالة الهلاك الأبدى ، حتى يدرك - بومضة الهية من الاشراق واليقين ، مختلفة كل الاختلاف عن أى عملية استدلال عقلى - أن المسيح قد مات لأجله هو ، وأنه كفر عن خطايا هو ؛ فبعد هذا التغير دون سواه يكون الانسان فى مأمن من ارتكاب الخطايا وعلى ثقة من الخلاص . وقد خلد وسلى فى يوميته ذلك « اليوم المشهود » ٢٤ مايو ١٧٣٨ الذى وافته فيه هدايته النهائية ، قال :

« ذهبت فى المساء على مضض شديد الى جمعية فى شارع أولدرزجيت ، حيث كان أحدهم يقرأ مقدمة لوثر لرسالة بولس الى أهل رومية . وفى نحو التاسعة الا ربعا ، بينما كان يصف التغيير الذى يحدثه الله فى القلب بالايمان بالمسيح ، شعرت بقلبي يدفا على نحو عجيب . شعرت بأننى فعلا أثق بالمسيح ، والمسيح وحده ، للخلاص ، واعطيت تأكيدا بأنه نزع خطاياى ، خطاياى أنا ، وخلصنى من ناموس الخطية والموت . وبدأت أصلى بكل ما أوتيت من قوة لأجل أولئك الذين أساءوا الى واضطهدونى أشد من غيرهم . ثم شهدت علانية لجميع الحاضرين بما شعرت به الآن فى قلبى لأول مرة (٥١) » .

ويمكن القول بايجاز أنه لخص تطور المسيحية من الخلاص بالايمان والاعمال ، الى الخلاص بالايمان وحده (لوثر) ، الى الخلاص باشراق شخصي والهى (الكويكرز) . وعبر ولسلى البحر الى المانيا فى صيف ١٧٣٨ وهو عارف بصنيع بولر ، وأنفق عدة أسابيع فى هرنوت ، القرية السكسونية التى أنشئت فيها مستعمرة للاخوة المورافيين على ضياع كونت زنزندورف .

وكان تشارلز ولسلى خلال ذلك قد جاز بتغير مماثل عند عودته الى انجلترا ، وبدأ بطريقته الأكثر رقة فى وعظ المسجونين فى نيوجيت والوعظ من كل منبر يسمح له بارتقائه ، وأهم حتى من هذا أن شخصية لا يبيزها قوة غير شخصية جون ولسلى كانت فى طريقها الى الصدارة فى الحركة الميثودية ، وهى شخصية جورج هوايتفيلد . وقد ولد لصاحب نزل بجلوستر فى ١٧١٤ . وعمل سنة أو أكثر ساقى خمر لضيوف ابيه . ثم شق طريقه الى كلية بمبروك باكسفورد ، وكان من الرعيلى الأول فى « النادى المقدس » . وتبع الوسليين الى جورجيا فى ١٧٣٨ ولكنه عاد الى انجلترا فى خريف ذلك العام ليرسم قسيسا أنجليكانيا . واذ كان غير قانع بالفرص المتاحة له فى المناير ، تواقا لأن يبيث ألهام ايمانه فى جماهير الشعب ، فقد بدأ فى فبراير ١٧٣٩ ، فى الخلاص

قرب برستل ، وعظ عمال مناجم الفحم الذين ندر أن جرءوا على دخول كنيسة أو اهتموا بدخولها . وكان فى صوته من الوضوح والقوة ما مكّنه من الوصول الى أسماع عشرين ألف مستمع ، وأثرت مقدّته الخطابية المنسوبة فى هؤلاء الرجال المتحجرين ، المرهقين ، تأثيرا جعله يرى (كما قال) « المسارب البيضاء التى أحدثتها دموعهم التى هطلت بغزارة على خدودهم السوداء (٥٢) » وأتارت خيال إنجلترا سمعة الواعظ الجديد ، وأخبار عظاته فى الهواء الطلق . فكانت الحشود الهائلة تتجمع أبنا ذهاب لتستمع اليه .

ولم يكن وعظه بالشئ الذى ينسى . فهو لم يدع لنفسه تبحرا فى العلم ، ولكنه ادعى أنه يتكلم كلاما حميما مع الله (٥٣) . ويقول ولى ان لغته كانت تميل الى « الحلاوة والحب » وانه يستعمل فيها بعض الأخيلة المذهلة ؛ من ذلك أنه كان يقول عن المسيح أنه « كالشوى بغضب الآب ، ومن ثم يوصف بحق بأنه حمل الله (٥٤) » . وكما فعلت فى البرلمان كذلك فعل هو ايتفيلد فى الحقول ، إذ استعان فى خطبه بفنون التمثيل ، فكان فى قدرته أن يبكى فى التو والساعة بكاء من الواضح أنه اقترن بعاطفة صادقة ؛ وكان فى قدرته أن يشعر سامعيه بالاحساس بالخطيئة ، ورهبة الجحيم ، ومحبة المسيح ، احساسا قويا فوريا . وقد اعترف بقوته الخطابية أمثال بولنبروك وتشسترفيلد ، والشكاك أمثال فرانكلين وهيوم ، والممثلون أمثال جاريك . واذ كان يلقي الترحيب أينما حل ، فانه جعل إنجلترا ، وويلز ، واسكتلندا ، واربندة ، وأمريكا ، أبرشيته . فتعبّر المحيط ائى أمريكا ثلاث عشرة مرة ، واخترق اسكتلندا اثنتى عشرة مرة . ولم يكن غريبا عليه أن يعظ أربعين ساعة فى الاسبوع . فما بلغ الخمسين حتى حل به الارهاق ، وخفض برنامجه بعد فوات الوقت الى « الحد الدقيق المسموح به » - أى أنه اكتفى بالوعظ مرة واحدة كل يوم من أيام الاسبوع ، وثلاث مرات فقط يوم الأحد . وفى ١٧٦٩ قام بزيارته السابعة للمستعمرات ، ومات فى نيويورك بولاية ماساتشوستس فى العام التالى .

وحين عاد جون وسلى من هيرنوت ، لم يستطع أن يوافق تماما على طريقة هويتفيلد الخطابية ، وتردد فى الاقتداء به فى الخطابة فى الخلاء . قال : « اذ كنت طوال حياتى (الى عهد قريب جدا) شديد التمسك بكل قواعد اللياقة والنظام ، . . . فقد كان المفروض. أن أرى فى تخليص النفوس شيئا يكاد يبلغ مبلغ الخطيئة اذا لم يتم فى الكنيسة (٥٥) » . على أنه تغلب على نفوره هذا ، وحمل رسالتنا الى الحقول والشوارع ، « وسلمت بأن أكون أكثر نزولا الى العامة فى الخلاء » (ابريل ١٧٣٩) . وكانت خطابته أقل حرارة من خطابة هويتفيلد ، ولغته لغة العالم والجنّلمان ، ولكنه هو أيضا خاطب عواطف سامعيه ، وجعل الحياه اليومية لسطاء الناس تبدو كأنها جزء من مسرحية هائلة ، نبيله ، نفوسهم فيها ساحة معركة بين الشيطان واسيح ، فتحركوا معه فى عالم من العجائب والمعجزات ، وسمعوا فيه (أى فى وسلى) - كما زعم - صوت الله . وبينما ألف هويتفيلد أن يعظ الجمع ثم ينصرف عنه ، راح وسلى ينظم أتباعه فى « جماعات صغيرة » فى المدينة تلو المدينة ، ويرشدهم الى الثبات والاستمرار . وكانت اجتماعاتهم احياء للقاءات المحبة التى استنباها المسحيون الأولون - اعياد من الفرحة الدينية ومحبة الجماعة ، يعترف بعضهم لبعض بخطاياهم ، ويخضعون لفحص حياتهم الخلقية ، ويشتركون فى الصلاة وترتيل الترانيل الورعة . وكان جون قد ألف أو ترجم بعض الترانيم المؤثرة ، وكان تشارلز قد بدأ مجموعة ترانيله الضخمة . وفى ١٧٤٠ كتب تشارلز أشهر ترانيمه الرائعة الكثيرة « يسوع يا حبيب روحى » .

فى هذه الجماعات المتحمسة درب جون وسلى وعاظا علمانيين حملوا البشارة الجديدة الى حيث لا يستطيع القادة البقاء . فقد انتشر هؤلاء « المساعدون » - دون رسامة ، ودون أى أبرشيات محددة ، بمنبر أو بغير منبر - فى أرجاء إنجلترا ، واسكتلندا ، وويلز ، وأوصلوا مخاوف وآمال اللاهوت البروتستنتى للطبقات العاملة ، وحضروا للزيارات الانعاشية التى سيقوم بها وسلى وهويتفيلد . وكان

وسلى نفسه يسافر - الى اقصى اركان انجلترا راكبا جواها او مركبة او
 راجلا - وكثيرا ما كان يقطع ستين ميلا فى اليوم ، وبلغ متوسط ما قطعه
 اربعة آلاف ميل فى السنة على مدى اربعين عاما . وكان يعظ فى كل
 فرصة . فى المسجون للمسجونين ، وفى المركبات لرفاقه الركاب ، وفى
 الفنادق للمسافرين ، وفى السفن العابرة البحر الى ايرلندا او من ثغر
 الى ثغر . وفى ايبويرت ، حين منح من الموقوف على منبر ابيه ،
 وعظ فى فناء الكنيسة واقفا فوق قبر ابيه .

فماذا كان يعظ ؟ العقيدة البيورثانية اساسا ، تلك التى خيل للناس
 ان الفوضى الخلقية التى صاحبت عودة الملكية الاستيوارتية عصفت بها
 عصفا مميتا . لقد رفض الجبرية (التى قبلها هوايتفليد) ، واصر على
 ما دان به الجناح الارمنيوسى من الكنيسة الرسمية ، وهو ان للانسان من
 حرية الارادة ما يكفيه لتقرير ما يختاره او يرفضه من النعمة الالهية .
 ورفض كل لجوء الى العقل ، واحس ان الدين يصل الى ابعد مما يصل
 اليه المنطق الذى صنعه الانسان ، وأنه يعتمد على الوحي الالهى والاقناع
 الباطن ، ولكنه ابتعد عن الصوفية بحجة أنها تترك كل شيء لله ولا تحفز
 الانسان الى التقوى النشيطة . وشارك طبقته وزمانه معظم خرافاتهما :
 فكان يؤمن بالاشباح ، وبالاصل الشيطانى للأصوات الغريبة ، وبحقيقة
 السحر واجرامه ؛ وقال ان التخلّى عن الايمان بوجود السحر معناه
 التخلّى عن الايمان بالكتاب المقدس . ولم يساوره شك فى المعجزات ،
 وذهب الى أنها تحدث كل يوم بين أتباعه . فكان الصداغ ، أو الورم
 المؤلم ، أو الفتق الشديد ، أو الساق المكسورة ، تشفى بصلواته أو صلوات
 الجماعة الموثودية ؛ وحكى عن فتاة كاثوليكية كانت تفقد بصرها كلما
 قرأت كتاب القدامس الكاثوليكي ، ولكنها تستعيده دائما حين تقرأ العهد
 الجديد . وقد قبل روايات النساء اللاتى زعن أنهن رأين الملائكة أو
 المسيح أو الجنة أو النار ، وسجل فى يوميته عددا من الحالات التى
 صوّقت فيها خصوم الموثودية بعقوبات خارقة (٥٦) .

وقد بلغ وعظه من الحيوية مبلغا أفضى بالكثيرين من جمهوره الى الهستريا والتشنجات . وتنبئنا اليومية عن خطاة غلبهم الألم البدنى بعد سماعه فراحوا يتقلبون على الارض من فرط العذاب ، بينما ركع مؤمنون آخرون الى جوارهم وصلوا لخلصهم من مس الشيطان (٥٧) .
وبصف وسلّى اجتماعا فى شارع بلدوين بلندن فى ١٧٣٩ فنقول :

« لم يكد صوتى يسمع وسط أنيس البعض وصراخ الآخرين . .
وساء كويكريا واقفا يتفرج . . . أن يسقط هو نفسه على الأرض كأنه المصعوق . وكان الكرب الذى يعانيه رهيبا حتى لمن يشهده . وقد تضرعنا الى الله ألا يؤاخذة بالحماقة والجهل ، وسرعان ما رفع رأسه وصاح « الآن أعرف أنك نبي من أنبياء الرب (٥٨) » .

وبصف شاهد عيان نقل عنه وسلّى اجتماعا للمثوديين بافرتن فى ١٧٥٩ كما يلى :

« كان بعضهم يصرخون ، وبعضهم يجارون . . . وأكثر ما سمع كان شهيفا عاليا كذلك الذى يصدر عن قوم نصف مخنوقين يلهثون طلبا للحياة ؛ أن الصيحات كلها تقريبا كانت كصيحات مخلوقات آدمية تعالج سكرات الموت الأليم . وكان الكثيرون يبكون دون ضجيج ، وغيرهم سقطوا كالأموات . . . ووقفت على مقعد كما فعل شاب فى المقعد المقابل ، وكان ريفيا قويا نضرا صحيح البدن ، ولكن حين بدا أنه لم يخطر له شيء آخر خر على الارض فى عنف لا يتصوره الانسان . . . وسمعت خبط أقدامه يكاد يحطم الألواح الخشبية وهو راقد يتشنج تشنجات شديدة فى أسفل المقعد . . . وأكثر الذين وضع الله عليهم يده احمرت وجوههم احمرارا شديدا أو كادت تسود . . . وسقط وراءه على الجدار رجل غريب حسن الهندام كان يقف أمامى ، ثم خر على ركبتيه وهو يعصر يديه ويهدر كالثور . . . ثم قام وراح يخبط الحائط حتى أمسك به مستر كبلنج ورجل آخر . وصرخ قائلا « أواه ماذا أصنع ، ماذا أصنع ؟ أواه ، ليت لى قطرة واحدة من دم المسيح ! » وبينما كان يتكلم حرر الله روحه ، فعلم أن خطاياها مَحِيَت ، وبدا أن نشوة الفرحة التى غمرته أعظم من أن تحتملها الطبيعة البشرية (٥٩) » .

ولعل هذه التفجرات الهستيرية سببتها أحوال أثرت فى الضحايا قبل الاجتماع المئودى ، فجاءت كعظة عن نار الجحيم وكانت مجرد تقويج لذروة لا يمكن السيطرة عليها . أما وسلى فقد فسر هذه التشنجات بأنها مس شيطانى أعقبه شفاء الهى . وذهب الى أنها أحيانا لم تأت بإصلاح دائم للسلوك أو الخلق ، ولكنه أحس بأنها فى كثير من الحالات طهرت النفس من الخطيئة وافتتحت حياة جديدة .

وقد حققت المئودية أعظم نجاح لها بين الفقراء . فقد كان الوعاظ أنفسهم رجالا ذوى ثقافة متواضعة ، بسطاء فى مشاعرهم وحديثهم ، ولم يقم حاجز طبقى أو ثقافى بينهم وبين جمهورهم . وقد حملوا رسالتهم ، رسالة الخطيئة والتوبة ، الى الفلاحين وعمال المناجم والمجرمين ؛ ومع أنهم بشروا بإيمان قام على الخوف أكثر مما قام على المحبة ، فانهم أعطوا غير المتعلمين ناموسا أخلاقيا شارك بنصيب فى رد اعتبار الأخلاق الى انجلترا فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر . هذه الأخلاق البيورتانية هى التى انتقض عليها عصرنا انتقاضا متطرفا . لقد كان وسلى عدوا لكل الوان الترفيه تقريبا . صحيح انه سمح بلعب الورق ، ولكنه رأى أن من الاثم الذهاب الى المهرجانات ، ولبس الحلى أو الملابس الغالية ، والاختلاف الى المسرح أو المرقص . ولم يخصص أى وقت للعب فى المدرسة التى انتسها فى كنجروود ، لان « من يلعب وهو طفل سوف يلعب وهو رجل (٦٠) » . ولكن الأخلاق البيورتانية انسجمت مع الخلق الانجليزى ، واستطاع أن يتحملها الرجال الأشداء والنساء الصبوريات ، وقد منحت الطبقات العاملة الانجليزية احساسا هخورا بالاختيار سندها فى الفقر وجعلها عدوا لأى ثورة تتشكك فى المسيحية . وأحس المحافظون بعد حين بعرفان الجميل لوسلى لأنه انقذ الفقراء البريطانيين من الربوبية والالحاد ، وحوّل تطلعاتهم من الثورة الاجتماعية الى الخلاص الفردى ، ومن عالم مثالى على هذه الارص الى فردوس بعد الممات (٦١) .

وكان وسلى نفسه يميل الى المحافظة فى السياسة . وقد تقدم طبقته فى المطالبة ببعض الاصلاحات التى طال تأخرها : فندد بنظام « الدوائر العفنة » ، وبتفاوت التمثيل النيابى فى البرلمان ، وبفساد

السياسة الانجليزية الصارخ ، وبوحشية الرق ، وبأهوال السجون البريطانية . ولكنه تقبل الهيكل الطبقي للمجتمع باعتباره طبيعيا وعادلا ، وعارض أى انفراج فى القوانين الموجهة ضد الكاثوليك ، وكانت ميوله كلها مع جورج الثالث فى ثورة المستعمرات الأمريكية .

وقد ظل أنجليكانيا بالعقيدة ، ولكنه رفض الرأى الانجليكانى القائل بأن رسامة القسيس لا تكون قانونية الا على يد أسقف فى سلسلة الاساقفة الرسولييين ؛ ورسم هو بنفسه قساوسة لاسكتلندة وأمريكا . وحين قال « ان العالم أبرشيتى (٦٢) » كان يقصد أنه سيعظ حيثما شاء ، دون اذن أو تعيين أسقفى ، والى هذا الحد كان انشقاقه على الكنيسة الرسمية . ولكنه حض أتباعه على حضور الخدمات الانجليكانية ، وتجنب الاجتماعات والعقائد المنشقة على هذه الكنيسة ، والامتناع عن مخاصمة الاكليروس الانجليكانى . وفتحت أول الأمر بعض المنابر الانجليكانية للقساوسة المثوديين ، ولكن حين اتخذ وعاظ ولسى العلمانيون لانفسهم حق مناولة القربان ، وارتدت العقيدة المثودية الى توكيد العصر الوسيط على الجحيم والانشغال البيورتانى بالخطيئة ، سحب الكهنة الانجليكانيون تأييدهم ، تماما كما انسحب ارزم من لوثر ، وآنروا تطورا منظما ، وقصوا المثوديين عن المنابر الانجليكانية .

وكان الاضطهاد الذى ابتلى به المذهب الجديد على يد الكنيسة الرسمية أقل كثيرا من ذلك الذى جاءه من العامة البسطاء الذين لم يطبقوا الطرق الجديدة فى التبشير بالافكار القديمة . ففى المدينة بعد المدينة هوجم وعاظ الهواء الطلق - كما سيهاجم نظرائهم اللاحقون الذين سيبشرون بانجيل اجتماعى جديد - من غوغاء أسعدهم أن يكونوا قساة دون خوف ولا لوم . ففى مونموث ضرب واعظ علمانى على رأسه بصخرة فمات من الضربة . وفى ودنزبرى حطم جمع بيوت المثوديين ، وأذى نساءهم ، وضرب رجالهم . فلما ظهر ولسى طالب الجميع بدمه ، وصفق للذين ضربوه بالهراوات ، وصلى هو بصوت عال ، فأطلق الجمع سراحه . وفى بولتن أغار جمع غاضب على البيت الذى كان يعظ فيه ، وواصل هو عظته الى النهاية وسط وابل من الحجارة والبلاط والبيض . وفى ديفيزيه صوبت طلمبة مائية على مسكن تشارلز ولسى ، وأطلقت الكلاب البولودوج على

أتباعه . وفى أكستر رُجم هوأيتفيلد حتى كاد يلقى حتفه . وفى هوكستن دَفِع ثور بمهماز الى محفل مثودى ، وفى بنسفورد سَيق عجل هاجه تحريش الكلاب به الى المائدة التى كان جون ولسى يعظ عندها . وراقت شجاعة الوعاظ الخلق الانجليزى ، وأكسبتهم التسامح والتأييد .

كان ولسى رجلا قصير القامة ، طوله خمسة أقدام وثلاث بوصات ، ووزنه ١٢٨ رطلا . وكان فى شيخوخته يقع من نفوس ناظريه وقعا طيبا بشعره الأبيض ، ولكنه كان من قبل فى كهولته يسترعى الاهتمام بقسماته الدقيقة المتقشفة وعينييه المسيطرتين . وكان من القضايا المسلمة عنده أنه خلق لِيَحْكَم ؛ ووضعه نشاطه العصبى وقوته الذهنية فى مكان الزعامة بحكم الطبيعة ، واشتطت به أحيانا ثقته بنفسه ثقة لا ينشكك فيها الى اعتداد بالنفس ، رأى فيه أسقف مثودى « غطرسة » شديدة (٦٣) . ولم يكن بالرجل الذى يسهل الانسجام معه ، لأنه كان يفكر ويتحرك بسرعة لا يستطيع الآخرون أن يجاروه فيها . وتزوج فى ١٧٥١ ، بعد أن أحب كما نحب كلنا الممرضة التى اعتنت به فى مرضه . وسافرت معه زوجته فى جولاته المحمومة طوال عامين ، ثم انهارت صحتها وأعصابها فتركته كما يقفز انسان من فوق ظهر حصان جموح . وكان يعزو الفضل فى صحته وحيويته لرحلاته المتصلة راكبا أو راجلا ، وقد نضيف أن الخطابة رياضة تهوَّى الرئتين . وفى ١٧٣٥ أصبح نباتيا ، وبعد عام قرر هو وصديق له أن يعيشا على الخبز القفار دون غيره ، وأن « يجربا امكان الحياة بلون واحد من الطعام كما هى ممكنة بمختلف ألوانه . . . ولم نكن أشد قوة وعافية منا حين لم نذق طعاما آخر (٦٤) » ، ولكنهما سرعان ما انتكسا الى التنويع فى الطعام .

ماذا كانت نتائج الوعظ المثودى ؟ فى جيل واحد أصبح الدين ، الذى لاح من قبل أنه يموت من أثر الوقار الأنجليكاني والشكوك الربوبية عنصرًا مدوِّيا فى الحياة الانجليزية ، لا يعلو عليه الا السياسة والحرب . فلما مات ولسى (١٧٩١) كان أتباعه يعدون ٧٩.٠٠٠ فى انجلترا ، ٤٠.٠٠٠ فى أمريكا الشمالية ، وفى ١٩٥٧ كان هناك ٢.٢٥٠.٠٠٠ مَثودى فى بريطانيا العظمى ، و ١٢.٠٠٠.٠٠٠ فى الولايات المتحدة و ٤٠.٠٠٠.٠٠٠ فى العالم (٦٥) . فضلا عن تكاثر أتباع المذهب كان

له تأثير فى المذاهب الأخرى ؛ مثال ذلك ما حدث فى الكنيسة الانجليكانية التى رفضت المثودية ، اذ بعثت المثل المثودية العليا الحركة « الانجيلية » فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، ولعلها دخلت فى حركة اكسفورد فى القرن التاسع عشر . أما من الناحية السياسية فان النتائج كانت استسلاما محافظا بين الطبقات العاملة حتى ١٨٤٨ . وأما من الناحية الخلقية فان المثودية حسنت السلوك الشخصى والحياة العائلية بين الفقراء وشاركت فى تقليل الفساد الانتخابى والرسمى ، وأخذت الكثيرين من طبقة السادة فأقلعوا عن الطيش والرذيلة ، وهيات لثفور الانجليز من تجارة الرقيق . وأما من الناحية الثقافية فان الحركة كانت سلبية . لقد أعطت الشعب ترانيم مقدسة ، ولكنها واصلت العداء البيورتنانى للفن . واما من الناحية الفكرية فانها كانت خطوة الى الوراء فقد أرسى عقيدتها على الخوف ، وشعائرها على العاطفة ، وأدانت العقل بوصفه فخا للانسان . وفى الصراع الكبير بين الايمان والعقل علفت كل آمالها على الايمان ، ولم تضع أى ثقة فى تقدم المعرفة والعلم ، وتجاهلت أو احتقرت « التنوير » الذى أخذ يشعل النار فى فرنسا . وشعرت أن هدف الحياة ومعناها الوحيد هو الهروب من الهلاك الأبدى ، وأن الشيء الوحيد المطلوب لهذه الغاية هو لايمان بالموت الفادى الذى ماته المسيح .

وفى يناير ١٧٩٠ ، حين بلغ وسلى السادسة والثمانين ، كتب فى يومياته يقول « بتّ الآن شيخا متهدما من رأسى الى قدمى . عينائى معتمتان ، ويمنائى تهتز بشدة ، وفمى ساخن جاف كل صباح ، وتنتابنى حمى طويلة كل يوم تقريبا . ولكنى بفضل الله لا أخفق من جهدى . ففى استطاعتى أن أعظ . وأكتب الى الآن (٦٦) » . وبعد شهرين بدأ جولة خطابية اتصلت خمسة أشهر وجابت به أرجاء انجلترا واسكتلندا . وقضى نحبه فى العام التالى (٢ مارس ١٧٩١) . ولو حكمنا على عظمة الافراد بمدى تأثيرهم لقلنا انه - باستثناء بت - كان أعظم الانجليز فى زمانه .

٥ - فى النحل والبشر

هناك شخصيتان أقل شأنًا توقفاننا فى طريقنا الى ديفد هيوم . أولهما برنارد ماندفيل ، وكان طبيبًا لندنيا من أصل فرنسي ومولد هولندي ، نشر فى ١٧٠٥ كراسة فى عشر صفحات تباع بست بنسات ، مكتوبة بشعر مرصع عنوانها « الخلية المتدمرة » . وموضوعها مفارقة مؤدها أن رخاء الخلية راجع الى رذائل أفرادها من النحل - الى جشعها الأنانى ونشوتها التناسلية ومشاكستها الجماعية . وبتطبيق هذا التناقض على الخلية الانسانية ، ذهب الطبيب الخبير الى أن ثروة الدولة وقوتها لا تعتمدان على فضائل مواطنيها بل على الرذائل التى يندد بها الأخلاقيون المتدمرون بحماقة . فلنتصور ما يحدث لو كفت فجأة كل ضروب حب التملك والغرور والخيانة والمشغبة - لو لم يأكل الرجال والنساء من الطعام الا بقدر ما يحتاجون اليه ، ولم يلبسوا من الثياب الا ما يقيههم القر والحر ، ولم يغشوا أو يؤذوا بعضهم بعضا ، ولم يتشاجروا ، وأدوا ديونهم دائما ، واحتقروا أسباب الترف ، وكانوا أوفياء لأزواجهم . لو حدث هذا لتوقف المجتمع كله فجأة ، فترى المحامين يتضورون جوعا ، والقضاة يتركون بغير قضايا أو رشا ، والأطباء يذوون لانعدام المرضى ، وزراع الكروم يفلسون ، والحانات تغلق أبوابها لانعدام شاربى الخمر ، وملايين الصناع المهرة الذين ينتجون الغريب من الأطلعمة أو الحلى أو الملابس أو البيوت يتعطلون ؛ ولن يرغب أحد فى أن يكون جنديا ؛ وما يلبث المجتمع أن يقهر ويستعبد .

وعطل تأثير الخلية المتدمرة صياغتها فى شعر هزلى محطم الوزن ، وغاظ هذا الطبيب المغرور ، الجشع ، المشاغب ، فأعاد إصدارها ثانية فى ١٧١٤ ، وثالثة فى ١٧٢٣ ، باسم « خرافة النحل » موسعا أياها المرة بعد المرة بالمقدمات ، والملاحظات ، والتعليقات التى بلغت بالصفحات العشر مجلدين . وأصغت انجلترا وفرنسا هذه المرة ، لأن هذه الملاحق كانت من أقدم ما كتب من تحليلات للطبيعة البشرية .

واتخذ ماندفيل من ايرل شافتسبرى الثالث هدفا رئيسيا لكتابه بكل معنى الهدف . ذلك أن الأيرل كان قد فسر الطبيعة البشرية ببلاغة

متفائلة ، فافترض فى الانسان « احساسا باطنيا بالصواب والخطا . . . فطريا فينا كالمحبة الفطرية ، وهو مبدأ أول فى كياننا » . ورد ماندفيل على هذا بأنه هراء بديع ؛ فالطبيعة البشرية قبل التربية والتدريب الخلقى لا تميز بين الفضيلة والرذيلة ، انما تحكمها المصالح الذاتية دون غيرها . وقد وافق اللاهوتيين على أن الانسان بطبيعته « شير » (متمرّد على القانون) ، ولكنه بدلا من أن يهدد الناس بالجحيم ، هناهم على الملازمة البارعة بين رذيلة الفرد وخير المجتمع . فالبقاء السرى مثلا يحمى العفة العامة ، والنهم للانتاج والخدمات يحفز الاختراع ، ويدعم الصناعة والتجارة ؛ والثروات الكبيرة تتيح البر بالناس والفن الضخم . وبينما بشر اللاهوتيون بالتقشف ، دافع ماندفيل عن الترف ، وحجته أن الرغبة فى الكماليات (وهى أى شيء خلاف الضروريات المجردة للحياة) هى أصل الصناعة والحضارة ؛ فلو أزلنا الترف كله عدنا همجا . وبينما يفترض فى الأخلاقيين أن يدينوا الحرب قال ماندفيل ان الأمم عاشت بفضل قدرتها على شن الحرب ، لأن معظم الدول وحوش ضارية .

ولم ير فى الطبيعة أى فضيلة . فالخير والشر كلمتان تصدقان على الأفعال الاجتماعية أو المعادية لمصلحة المجتمع فى الانسان ، أما الطبيعة نفسها فلا تأبه بكلماتنا أو عطاتنا ، وهى تحدد الفضيلة بأنها أى صفة تعين على البقاء ؛ وعالم الطبيعة فى عباراتنا المتحيزة مسرح للجشع والشهوة والقسوة والقتل والتبديد الذى لا معنى له . ومع ذلك فمن ذلك الصراع الرهيب ، كما يقول ماندفيل ، طور الانسان اللغة والنظام الاجتماعى والنواميس الاخلاقية أدوات للتماسك الاجتماعى وبقاء المجتمع . والثناء واللوم لا تبررهما الطبيعة ، ولكنهما مبرران باعتبارهما وسائل نستعين بها - لأنها تروق غرور الانسان وخوفه وكبرياءه ، - على أن نشجع فى غيرنا ألوانا من العمل مفيدة لنا أو للجماعة .

ومعظم الذين سمعوا بماندفيل رموه بالنزعة المادية الكلبية ، ولكن فولتير اتفق معه على نفع الكماليات ، وصفق فزيوقراطيو فرنسا القائلون بسياسة « عدم التدخل » لرايه فى أن عدم التدخل فى طمع الانسان

كفيل بأن يجعل عجلات الصناعة تدور . وأغلب الظن أن الطبيب الكثير النزوات كان مسلما بأن مفارقتة هذه ، « الرذائل الخاصة هي فضائل عامة » كانت الى حد كبير لعبا بألفاظ فضفاضة التعريف . ان « الرذائل » كحب الاقتناء ، والعشق الجنسي ، والمشغبة ، والكبرياء ، كانت يوما ما « فضائل » فى الصراع البدائى للبقاء . ولم تصبح رذائل الا حين مورست فى المجتمع ممارسة تجاوزت الخير الاجتماعى ؛ وقد أصبحت منافع عامة بفضل التحكم فيها بالتعليم ، والرأى العام ، والدين ، والقانون .

وشتان بين فرانسس هتشنس وبين هذا الطبيب المفترى . وقد ولد هتشنس فى ايرلندا لقس مشيخى ، ثم انحرف عن جادة أبيه وفتح معهدا خاصا فى دبلن . واذ كان شديد الوعى بالتزامه بأن يجعل من المتوحشين الصغار مواطنين ، فقد كتب من معهده « تحقيقا فى الخير والشر الاخلاقيين » (١٧٢٥) عرّف فيه المواطن الصالح بأنه ذلك الذى يعزّز الخير العام ، ووصف فيه الخير العام (بعبارة سبقت بحذافيرها صيغة بنتام فى مذهب المنفعة) فقال انه « اعظم سعادة لاكبر عدد من الناس (٦٩) » فلما رقى الى كرسي الفلسفة الاخلاقية فى جامعة جلاسجو ، أزعج المشيخيين بدفاعه عن حق الفرد فى اصدار حكمه على الاشياء ، وعن مشروعية اللذة ، وعن « الفنون الابداعية كالموسيقى والنحت والتصوير ، وحتى الملهى الرجولية » (٧٠) ، ولم يشارك ماندفيل فكرته المتشائمة عن الطبيعة البشرية . وقد سلم باخطاء الناس وذنوبهم ، وبشهواتهم الجامحة وجرائمهم العنيفة ، « ولكن الجانب الاكبر من حياتهم يستخدم فى القيام بمهام من المودة الطبيعية ، أو الصداقة ، أو حب الذات البريء ، أو حب الوطن » . ثم اُضاف تحذيرا نافعا للمؤرخين فقال :

« ان الناس ميالون الى اطلاق العنان لخيالاتهم فى أمر جميع ما سمعوا عنه أو قرعوا فى التاريخ من سرقات ، وقرصنات ، وجرائم قتل ، وإيمان كاذبة ، وتزويرات ، ومذابح ، واغتيالات ، فيستنتجون من هذا كله أن النوع الانسانى كله شرير جدا ، وكان دار القضاء هي المكان الصحيح لتقييم أخلاق البشر ، أو المستشفى لتقييم ملاءمة المناخ

للصحة . أفلا يجدر بهم أن يروا أن عدد المواطنين والمزارعين الشرفاء يفوق كثيرا عدد كل أنواع المجرمين فى أى دولة ٠٠٠ وأن ندرة الجرائم بالقياس الى الأفعال البريئة أو الخيرة هى التى تلفت انتباهنا لها ، وتبعث على تسجيلها فى التاريخ ، فى حين تغفل أفعال شريفة سمحة مألوفة ، تفوقها بما لا يقاس ، لا لشيء الا لأنها عادية جدا ؛ وما أشبه هذا بخطر جسيم واحد ، أو شهر يقضى فى المرض ، فيصبح قصة تتردد كثيرا ، خلال حياة طويلة من الصحة والسلامة « .

ذلك عقل سليم !

٦ - ديفد هيوم : ١٧١١ - ٧٦

أ - الفيلسوف الشاب

كان هتشن جزءا متواضعا من حركة « التنوير الاسكتلدى » ، أما هيوم فكان ألمع كواكبها . وهو يروى لنا فى ترجمته الذاتية البسيطة ، ذات الصفحات الست ، أنه ولد بأدنبره فى ٢٦ أبريل ١٧١١ ، « لأسرة طيبة أبا وأما ، فأسرة أبى فرع من إيرل Home أو Hume * وكانت أمى ابنة السر ديفد فوكنر عميد كلية الحقوق » . ومات الأب فى ١٧١٢ ، تاركا ممتلكاته لشقيق ديفد الأكبر ، جون هيوم ، ولديفد دخلا يبلغ ثمانين جنيها فى السنة - يكفى لمعيشة متقشفة . أما الأسرة التى كانت كلها تدين بالمذهب المشيخى ، فقد أشربت الصبى اللاهوت الكلفنى اشرابا قويا تخلف على شكل الحتمية فى فلسفة ديفد . كان فى بكرة كل أحد يختلف الى صلاة فى الكنيسة تتصل ثلاث ساعات ، منها ساعتان من الوعظ ؛ ثم يعود عشية كل أحد الى الكنيسة ساعة ؛ يضاف الى هذا صلوات الصباح فى البيت (٧٢) . ولم يكن مندوحة من أن ينتقض ديفد على هذا كله بالانحراف الى الهرطقة ما دام فيه ذرة من صلابة الخلق .

وحين بلغ الثانية عشرة دخل جامعة أدنبره . ثم تركها بعد ثلاث

* كان سليل لذلك الايرل رئيس وزراء لبريطانيا العظمى فى ١٩٦٤ . والاسم Home كان ومازال يلفظ Hume « هيوم » .

سنوات دون درجة ، عازما على أن يفرغ بكليته للأدب والفلسفة . وفى السادسة عشرة كتب الى صديق يلوم نفسه

« لأن سلامى العقلى لا تدعمه الفلسفة دعما يكفى للثبات للطمات القدر . فعظمة النفس وسموها هذا لا سبيل اليه الا فى الدرس والتأمل . . . فاسمح لى بان أتكلم هكذا كفيلسوف ، فذلك موضوع أطيل التفكير فيه ولا يعينى الحديث فيه اليوم كله (٧٣) » .

وسرعان ما تبخر ايمانه الدينى :

« وجدت ضريبا من جرأة الطبع يتملكنى ، وهى جرأة لا تميل الى الخضوع لأى سلطة فى هذين الموضوعين (الفلسفة والأدب) . . . فلما ناهزت الثامنة عشرة بدا كأنه قد انفتح أمامى مشهد جديد من الفكرة ، أطربنى منتهى الطرب ، وحملنى بحماسة الشباب الطبيعية على أن أنبذ كل لذة أو شغل آخر لأعكف عليه العكوف كله (٧٤) » .

وقال فى فترة لاحقة أنه « لم يشعر باى ايمان بالدين منذ بدأ قراءة لوك وكلارك (٧٥) » . فما ان بلغ السابعة عشرة حتى كان قد خطط لرسالة فى الفلسفة .

وألح عليه أقرباؤه فى أن الفلسفة وثمانين جنيها فى العام لن يتيحوا له سوى عيش ضئيل ، وأن عليه ان يقنع بضرورة التكسب . فهل فى استطاعته أن يدرس القانون ؟ وحاول ذلك طوال ثلاث سنوات مؤلمة (١٧٢٦ - ٢٩) . وانهارت صحته ، وأوشكت روحه أيضا أن تنهار ، وفقد اهتمامه بالأفكار فترة . « رأيت دراسة القانون شيئا يثير فى « الغثيان » (٧٦) ، فطلقها ، وعاد الى الفلسفة ، ربما باتحراف واحد . وفى أواخر فبراير ١٧٣٤ رحل عن ادنبرة الى لندن « لأبذل محاولة هزيلة جدا لولوج مجال من الحياة أكثر نشاطا (٧٧) » . وفى ٥ مارس مثلت آجنس جلبريث أمام القس جورج هيوم (عم ديفد) . واعترفت بأنها حبلى . فلما جرى بها أمام جلسة لمجلس الكنيسة المشيخية صرحت بان « المستر ديفد هيوم . . . هو أبو الطفل » وارتاب للمجلس فى صدقها فأحالها الى الاجتماع التالى للمجلس المشيخى

المحلى ؛ وأمام هذا المجلس فى ٢٥ يونيو ، كررت التهمة . وقد جاء فى محضر مجلس تشيرنسايد :

« ان رئيس الجلسة ... ناشدها ان تقول الصدق وتتعترف هل اذنب معها شخص آخر ... وبعد ان نظر المجلس فى الامر ، وأحيط أعضاؤه علما بأن ديفد هيوم المذكور خرج من المملكة ، أحالوها الى دائرة مجلس تشيرنسايد امثالا لقواعد الكنيسة (٧٨) » .

وهذا يتطلب مثولها فى المسرح أمام الكنيسة وعرضها فى المشهرة ثلاثة آحاد . وفى ١٧٣٩ أديننت آجنيس مرة أخرى بالزنا .

ومضى هيوم الى برستل بعد أن توقف فى لندن ، واشتغل فى مكتب تاجر « ولم تمض على شهور حتى وجدت ذلك الجو لا يلائمنى اطلاقا » فعبر البحر الى فرنسا ، حيث المعيشة أرخص منها فى انجلترا . ومكث فترة فى رانس ، ثم رحل الى لافليش (على نحو ١٥٠ ميلا جنوب غربى باريس) ، لأن كلية اليسوعيين فيها كانت تملك مكتبة كبيرة ، واتصل الاسكتلندى المدبر اتصالا وديا بالكهنة فسمحوا له باستعمال كتبهم . وقد وصفه أحد الآباء فى نظرة لاحقة بأنه « كان شديد الاعتداد بنفسه ... فى روحه حيوية أكثر مما فيها من التماسك وفى خياله توقد أكثر مما فيه من العمق ، وقلبه أشد انغماسا فى الأشياء المادية والعجب الروحى من أن يتغلغل الى الخفايا المقدسة للحقائق الالهية (٧٩) » .

وفى ظل اليسوعيين ألف هيوم أول جزئين من رائعته الشكوكية « رسالة فى الطبيعة البشرية » . وفى سبتمبر ١٧٣٧ ، عاد الى انجلترا متقلا بمخطوطته . وقد لقى عننا مع الناشرين ، لأنه كتب فى ديسمبر الى هنرى هيوم يقول : « اننى الآن أجب كتابى ، أى اقتطع منه أجزاءه الممتازة ، محاولا أن أقلل ما استطعت من أياذنه لشعور الناس (٨٠) » . وكان أهم ما حذف منه « مناقشات حول المعجزات » فنحاهما لاستعمالها فى أوقات أسلم . أما الباقي ، الذى ضمن أنه يدق على أفهام المتشبهين بالقديم ، فقد نشره جون نون اللندنى غفلا من اسم المؤلف فى مجلدين فى يناير ١٧٣٩ . وباع هيوم المجلدين اجمالا

بخمسين جنيها واثنى عشرة نسخة - وهى صفقة ليست خاسرة جدا بالنسبة لكتاب فى المنطق ونظرية المعرفة بقلم شاب مغمور فى السابعة والعشرين . على أنه كان قمة من قمم الفلسفة الحديثة .

ب - الغض من شأن العقل

كشف « الاعلان » الذى تصدّر الكتاب عن ثقة هيوم فى قدراته . فقد قال فيه انه يستهدف دراسة الطبيعة البشرية من حيث الفهم والانفعالات ، ثم فى مجلد ثالث قادم من حيث الاخلاق والسياسة . وشرع فى تحليل « الانطباع » (الاحساس) ، والادراك الحسي ، والذاكرة ، والخيال ، والفكر ، والعقل ، والاعتقاد . وهذا البحث فى كيفية وصولنا الى أن « نعرف » بحث أساسي ، لأن صحة العلم والفلسفة والدين والتاريخ تتوقف على طبيعة المعرفة ، وأصلها ، وامكان وثوقنا بها . وهو فرع من الدراسة عسير ، لأنه يتناول الأفكار المجردة لا الأشياء المحسنة ، والفكر آخر شيء يحاول الفكر أن يفهمه .

وبدأ هيوم بقبوله تجريبية لوك نقطة انطلاق لبحثه ، فكل الأفكار مستقاة فى النهاية من التجربة بطريق الانطباعات . وهذه اما احساس خارجية كالضوء والصوت والحرارة والضغط والروائح والذوق ؛ واما داخلية كالخدر والجوع واللذة والألم . والادراك الحسي احساس مفسر ؛ « فالضوء » احساس ، ولكن « نقرة على الباب » ادراك حسي (وهيوم ليس دقيقا أو ثابتا دائما فى استعماله هذين المصطلحين) . والمولود أعمى أو أصم ليس لديه « فكرة » عن الضوء أو الصوت ، لأنه لم يكن لديه احساس بأحدهما . وفكرتا المكان والزمان نابعتان من التجربة ، فالأولى « فكرة نقاط مرئية أو محسوسة موزعة بنظام معين » ، والثانية ادراك التعاقب فى انطباعاتنا (٨١) ولا تختلف الأفكار عن الانطباعات الا فى ضعف « القوة والحيوية التى تقع بهما على الذهن (٨٢) » . والاعتقاد « ليس الا فهما أكثر حيوية وحدة لآى فكرة . . . انه شيء يشعر به الذهن ، يميز أفكار الحكم عن خرافات الخيال (٨٣) » .

ويبدو أن هيوم فى تعريفاته هذه يرى فى « الذهن » كيانا أو أداة

حقيقية تمارس الانطباعات أو الأفكار ، أو تمتلكها ، أو تتذكرها ، أو تحكم عليها . على انه اذ يمضي فى البحث ينكر وجود أى ذهن ملحق بالحالات النفسية - الاحساس ، أو الادراك الحسى ، أو الفكرة ، أو الشعور ، أو الرغبة التى تشغل الوعى فى لحظة بعينها يقول :

« ان ما نسميه «الذهن» ليس الا كومة أو مجموعة من مختلف الادراكات الحسية توحدت معا بثتى الارتباطات ، ويفترض فيها - وان كان الفرض خطأ - أنها وهبت غاية البساطة والتطابق أما أنا فاننى حين أتغلغل فيما أسميه «نفسى» أعرثر دائما على ادراك حسى معين أو آخر ، للحرارة أو البرودة ، للضوء أو الظل ، للحب أو الكره ، للألم أو اللذة . ولا أستطيع اطلاقا ان ألحظ شيئا غير الادراك الحسى . فاذا زالت عنى ادراكاتى الحسية أى فترة ، كما يحدث بالنوم العميق ، فاننى طوال هذه الفترة أكون ادم الحس «بنفسى» ، ويمكن القول حقا اننى غير موجود . واذا زالت ادراكاتى الحسية كلها بالموت ، فعجزت عن التفكير والشعور والابصار والحب والكره بعد تحلل جسمى ، فاننى أمحق محقا ، ولست أتصور ما يلزم بعد ذلك لجعلى عدما فى عدم واذا ضربنا صفحا عن بعض الميتافيزيقيين . . . فقد أجرؤ على التاكيد بأن باقى البشر ليسوا سوى حزمة أو مجموعة من مختلف الادراكات الحسية التى يعقب بعضها بعضا بسرعة فائقة ، والتى تندفق تدفقا دائما . . . وهذه الادراكات الحسية المتعاقبة . . . تشكل الذهن (٨٤) » .

وهكذا بضرية واحدة من هذا الفتى المتهور سقطت ثلاث فلسفات : الفلسفة المادية ، لاننا (كما أثبت باركلى) لا ندرك «المادة» أبدا ، ولا نعرف غير عالمنا العقلى عالم الأفكار والمشاعر ؛ والفلسفة الروحانية ، لاننا لا ندرك أبدا «روحا» ملحقة بمشاعرنا وأفكارنا الخاصة ؛ وفلسفة الخلود ، لأنه ليس هناك «ذهن» يبقى حيا بعد الحالات الذهنية العابرة . وكان باركلى قد هدم المادية برده المادة ذهنا ، فضاعف هيوم التدمير برده الذهن أفكارا . فلا «المادة» ولا «الذهن» موجودان . لا لوم على ظرفاء العصر اذن أن «يرفضوا الفيلسوفين جميعا بهذه

العبارة « No matter, never mind (وفيها تورية ، لايهم (لا مادة) ،
لا بأس (ولا ذهن)) .

وحرية الارادة فى هذه النظرة المدمرة مستحيلة ، فليس هناك
ذهن يختار بين الافكار أو الاستجابات ، وتعاقب الحالات النفسية
يقرره ترتيب الاحاسيس ، وترايط الأفكار ، وتناوب الرغبات ؛ ان
« الارادة » ليست سوى فكرة تنساب فتصبح حركة ، والهوية الشخصية
هى شعور الاستمرار حين تستحضر حالة نفسية حالات سابقة وتربط بينها
بفكرة العلة .

ولكن العلة أيضا ليست سوى فكرة ؛ فليس قى قدرتنا ان نثبت
انها واقع موضوعى . فاذا أدركنا أن : أ (اللهب مثلا) تعقبه بانتظام
ب (الحرارة) ، استنتجنا أن أ كانت العلة فى ب ، ولكن كل ما لاحظناه
هو تعاقب الاحداث ، لا عملية عليية ، فليس فى استطاعتنا ان نعرف ان
ب ستعقب أ دائما . « كل استدلالنا العقلية المتصلة بالسبب والنتيجة
لا مصدر لها غير العادة (٨٥) » . وليست « قوانين الطبيعة » التى
نتحدث عنها الا تعاقبات مألوفة فى تجربتنا ؛ لا روابط ثابتة وضرورية
فى الاحداث ، ولا ضمان أنها ستصدق غدا . فالعلم اذن تراكم لاحتمالات
المعرضة للتغيير دون انذار . والميتافيزيقا مستحيلة اذا زعمت أنها نسق
من الحقائق حول واقع مطلق ، لأنه لا سبيل الى معرفة « الاسباب »
الكامنة وراء النتائج ، ولا « المادة » الكامنة وراء الاحاسيس ،
ولا « الذهن » الذى يقال انه كامن وراء الأفكار . وما دمنا نبنى ايماننا
بالله على سلسلة من الاسباب والنتائج يفترض أنها ترتد الى « محرك
أول لا يتحرك » ، فان علينا أن نتخلى عن تلك السفسة الارسطاطالية .
ان الاشياء كلها تتدفق ، وما اليقينية الا حلم من الاحلام .

وبعد أن ينشر هيوم الدمار من حوله بسيف عقله البثار ، يتوقف
لحظة تواضع فيقول « حين أتأمل القصور الفطرى فى حكمى ، تقل
ثقتى بأرائى عنها حين أتأمل الاشياء التى أتناولها بالاستدلال (٨٦) »
فهو يعلم مثلنا أن اليقينية ليست ضرورية للحياة ، ولا للدين ، ولا حتى
للعلم ؛ وان درجة كبيرة من الاحتمال تكفى لعبور شارع او بنساء

كتدرائية أو لتخليص نفوسنا . ويسلم فى تذييل للكتاب بأنه قد يكون هناك رغم ذلك نفس وراء الأفكار ، وواقع وراء الأحاسيس ، وعلاقة عليية وراء التعاقبات المتصلة . وهو ثابت على موقفه نظريا « لم يسعدنى الحظ الى الآن بأن اكتشف أى إخطاء جسيمة فى الاستدلالات المعروضة فى المجلدين السابقين (٨٧) » . ولكنه يعترف فى لطف أنه ، غمليا ، يتخلى عن شكوكيته حالما يضح قلمه .

« لو سئلت هل أوافق مخلصا على هذه الحجة التى بذلت هذا الجهد فى أقرارها ، وهل أنا حقا واحد من هؤلاء الشكاك الذين يذهبون الى أن كل الاشياء غير يقينية . . . لأجبت . . . اننى لا أنا ولا أى شخص آخر دان بهذا الرأى فى أى وقت باخلاص وثبات (٨٨) . . . اننى أتناول غذائى ، والعب النرد ، وأتحدث وأسمر مع أصحابى ، فإذا عدت بعد ثلاث أو أربع ساعات من الترويح الى هذه التأملات ، بدت لى باردة مفتعلة سخيطة جدا بحيث لا أستطيع أن أجد فى صميم نفسى ما يدفعنى لمزيد من الأيغال فيها (٨٩) . . . وهكذا يواصل الشكاك استدلاله العقلى واعتقاده ، وإن أكد أنه لا يستطيع الدفاع عن استدلاله العقلى بالعقل ؛ وعلى هذه القاعدة نفسها يجب أن يوافق على مبدأ وجود الجسد وإن عجز عن الادعاء بأى حجج من الفلسفة بأنه أثبت صحته (٩٠) » .

وأخيرا يتنكر هيوم للجدل العقلى باعتباره هاديا للحياة ويضع ثقته فى الايمان الحيوانى ، فى الاعتقاد القائم على العرف بأن الواقع عقلاى تتخلله العلية . وحين يؤكد هيوم أن « الاعتقاد هو على الأصح فعل من أفعال الجانب الحساس لا الجانب العارف من طبائعتنا (٩١) » فإنه - وقد بلغ السابعة والعشرين من عمره - يلتقى بجان جاك روسو ، ذى الستة والعشرين ، فى الشباب والنظرية ، كما قدر له أن يلتقى به بعد ذلك فى الصداقة والمأسة . ولم يقتصر أبرع المجادلين العقليين فى عصر العقل على اتهام المبدأ العلى للعقل ، بل انه فتح بابا لرد الفعل الرومانسى الذى سينزل العقل عن عرشه ويجعل من الوجدان الها له .

و « الكتاب » والمجلد الثانى من « الرسالة » يواصل انزال العقل

عن عرشه . فنرى هيوم يرفض محاولات الفلاسفة بناء مبدأ أخلاقي على تحكم العقل فى العاطفة . وهو يعنى بكلمة العاطفة الرغبة الوجدانية . « لكى أثبت مغالطة هذه الفلسفة بأكملها ، ساحاول أن أثبت أولا أن العقل وحده لا يمكن أن يكون دافعا لآى فعل من أفعال الارادة ؛ ثانيا أنه لا يستطيع اطلاقا معارضة العاطفة فى اتجاه (ضد قوة) الارادة (٩٢) » . « فلا شيء يستطيع مقاومة أو تعطيل دافع العاطفة الا عاطفة مضادة » (أهذا صدى لسبينوزا ؟) . ويضيف هيوم امعانا منه فى ترويع المتشبهين بالقديم « ان العقل عبد ، وينبغى أن يكون عبدا ، للعواطف (الأداة المنيرة والمنسقة للرغبات) ولا يمكن أن يزعم لنفسه أى وظيفة أخرى سوى خدمتها وطاعتها (٩٣) » .

ثم يمضى الى تحليل دقيق للعواطف - وأهمها الحب ، والكراهة ، والعطف ، والغضب ، والطمع ، والحسد ، والكبرياء . « ان العلاقة التى تحدث فى الكثير الغالب عاطفة الكبرياء هى علاقة الملكية (٩٤) » . وكل العواطف تقوم على اللذة والألم ، وتميزاتنا الاخلاقية تنبع فى النهاية من هذا المنبع الخفى ذاته « اذنا نميل الى اطلاق اسم الفضيلة على أى صفة فى الآخرين تعطينا اللذة لأنها تعين على نفعنا ، والى اطلاق اسم الرذيلة على أى صفة بشرية تعطينا الألم (٩٥) » . وحتى مفاهيم الجمال والقبح مشتقة من اللذة والألم . يقول :

« لو تأملنا جميع الفروض التى وضعت ... لتفسير الفرق بين الجمال والقبح ، لوجدناها كلها تنحل الى هذا ، وهو أن الجمال نظام وتركيب للأجزاء ، مهيا لاعطاء اللذة والرضى للنفس ، اما بسبب التكوين الفطرى لطبائعنا (كما نرى فى جمال الجسم البشرى) أو بسبب العرف (كما نرى فى الاعجاب بنحافة القوام فى النساء) أو بسبب النزوة العارضة (كما نرى فى اصفاء الكمال على أوهام الرغبة المعاقة) ... فاللذة والألم اذن ليسا مرافقين ضروريين فحسب للجمال والقبح ، ولكنهما يكوّنان جوهرهما ذاته ، ... وما الجمال الا شكل يحدث اللذة ، كما أن القبح بناء للأجزاء يحدث الألم (٩٦) » .

والحب بين الجنسين يتركب من هذا الاحساس بالجمال ، مضافا اليه « الرغبة الجسمية فى التناسل ورقة ومودة سمحتان (٩٧) » .

وفى مارس ١٧٣٩ عاد هبوم الى ادنبره . وراح يقبل الدوريات فى لهفة بحثا عن نقد لمجلديه ، وعانى من نتائج تقلبيها . قال « لم تلق محاولة أدبية قط حظا أعثر مما لقيت « رسالتى فى الطبيعة البشرية » فلقد ولدت ميتة من المطبعة ، ولم نحظ حتى باثارة دمدمة سخط بين المتعصبين (٩٨) » ولكنه حين كتب هذا فى شيخوخته كان قد نسي ، ربما بسبب الرغبة فى نسيان الذكريات الكريهة ، أن عدة مقالات نقدية ظهرت خلال سنة بعد نشر كتابه . وقد شكك كلها تقريبا من أنه عسير الفهم ، وأن المؤلف سمح لشبابه بالاعلان عن ذاته بتكرار الاشارة الى نفسه والى الجدة الخطيرة التى تنطوى عليها أفكاره . قال باقد نموذجى من أعدائه : « ان ما يؤذى القارئ أشد الأذى هو تلك الثقة التى يسوق بها مفارقاته . . . فما عهدنا شاكا أشد من هذا قطعا بأرائه . . . وأمثال لوك وكلارك ليسوا فى الغالب فى نظره سوى مجادلين تأفهين سطحيين بالقياس اليه (٩٩) » .

وأعد هبوم للمطبعة ، فى عزيمه صادقة رغم حزنه ، المجلد الثالث من رسالته ، المحتوى على الكتاب الثالث « فى الاخلاق » . وقد ظهر فى ٥ نوفمبر ١٧٤٠ . وساء تحليله للفضيلة العقلانيين بقدر ما ساء اللاهوتيين . فهو يزعم أن قواعد الفضيلة ليست الهامات خارقة ، ولكنها أيضا ليست استنتاجات خلص اليها العقل ، وذلك - كما يكرر هبوم القول « لأن العقل ليس له تأثير على عواطفنا أو أفعالنا (١٠٠) » . وحسنا الخلقى ليس مصدره السماء بل التعاطف - شعور الزمالة مع اخواننا من البشر ، وهذا الشعور جزء من الغريزة الاجتماعية التى بها نلتمس الارتباط بالغير لخشيتنا من العزلة . « ان أول حالة وموقف للانسان يمكن أن يوصفا بحق بأنهما اجتماعيان » ؛ و « الحالة الطبيعية » التى عاش فيها الناس دون تنظيم اجتماعى « يجب اعتبارها حديث خرافة (١٠١) » ، فالمجتمع قديم قدم الانسان . واذا كان الناس أعضاء فى جماعة ، فانهم سرعان ما تعلموا أن يمتدحوا التصرفات

١٤ - قصة الحضارة

النافعة للجماعة ، ويذموا الضارة بها . ثم ان مبدأ التعاطف جعلهم يميلون الى تقبل أو محاكاة الآراء التي سمعوها من حولهم ؛ وبهذه الطريقة اكتسبوا معايير وعادات الثناء واللوم ، وطبقوا هذه الأحكام بوعى أو بلا وعى على سلوكهم . هذا فى رأى هيوم أصل الضمير ، لا صوت الله (كما سيتصور روسو وكانط) . ويقول هيوم ان قانون التعاطف هذا ، قانون التجاذب الجماعى ، هو عام ومنير فى العالم الأخلاقى شأن قانون الجاذبيه فى الكون المادى ، ثم يختتم بهذه العبارة « وهكذا يحدونى على الجملة الأمل بأنه لا ينقصنا شيء للبرهان الصحيح على هذا النسق من الأخلاق (١٠٢) » .

وكان المجلد الثالث أقل لفنا للأنظار حتى من المجلدين السابقين . وظلت بقايا النسخ الألف والمائة ، وهى مجموع نسخ الطبعة الأولى للرسالة ، الى سنة ١٧٥٦ ، مكدسة على رفوف الناشر ، ولم يعثر، هيوم ليرى طبعة ثانية من كتابه .

ج - الأخلاق والمعجزات

كان واضحا أنه لا يستطيع كسب قوته بقلمه . وفى ١٧٤٤ بذل محاولة فاشلة للوصول الى كرسي الأستاذية بجامعة ادنبره . ولا شك أنه قبل فى شيء من الاحساس بالهوان (أبريل ١٧٤٥) وظيفه معلم خاص لمركيز أنانديل الصغير لقاء راتب قدره ٣٠٠ جنيه فى العام . أما المركيز فقد اختلط عقله ، وتبين هيوم أنهم يتوقعون منه أن يكون حارسا لمجلسون ؛ ونشبت المشاجرات ، فطرد (أبريل ١٧٤٦) واضطر الى رفع دعوى مطالبا براتبه . ثم اشتغل سنة (١٧٤٦ - ٤٧) سكرتيرا للمجنرال جيمس سانت كلير ، وكان يتقاضى راتبا طيبا ، ويتناول طعاما طيبا . وفى يوليو ١٧٤٧ عاد هيوم الى ادنبره وهو يملك ويزن من الجنيئات أكثر كثيرا منه حين غادرها . وفى ١٧٤٨ أعاد الجنرال استخدامه سكرتيرا وياورا . فى بعثة الى تورين ، واكنسى ديفد الآن سترة قرمزية بتوهجة .

وأعجب جيمس كولفيلد (ايرل تشارلمونت فيما بعد) وكان بومها طالبا بتورين ، بذكاء هيوم وخلقه ، ولكن أفزعته سمته . قال :

« ان سحنته حيرت علم الفراسة وأعيت قدراته . . . فى الكشف عن أقل اثر لمواهبه العقلية فى ملامح وجهه النى تخلو من المعنى . كان وجهه عريضا سمينا ، وفمه واسعا ، بغير أى تعبير غير تعبير البلاهة . . . وكانت بدانة جسمه كله أجدر بأن توحى للناظر بفكرة العمدة أكل الترسه ، لا الفيلسوف المهذب (١٠٣) » .

ويدعى كولفيلد هذا أنه رأى هيوم (وهو فى السابعة والثلاثين) جاثيا على ركبتيه أمام كونتبسة منزوجة (فى الرابعة والعشرين) ، يبثها غرامه ويعانى عذاب الحب المحتقر ؛ أما السيدة فرفضت أن تبادله هذا الغرام قائلة انه ليس الا « عملية طبيعية فى نسقك الفلسفى » . ويقول المصدر نفسه أن هيوم أصيب بالحمى وحاول الانتحار لولا أن منعه الخدم ، ويروى اسكتلندى آخر أن هيوم « تناول القربان الأخير » أثناء مرضه على يد كاهن كاثولىكى . وقيل ان هيوم اعتذر عن مطارحة الغرام وعن تناول القربان الأخير قائلا « ان نظام دماغى كان مختلا ، وكنت مجنونا كائى نزيل لمستشفى المجاذيب (١٠٤) » وفى ديسمبر ١٧٤٨ عاد الى لندن وفرغ للفلسفة بعد أن بلغت ثروته ألف جنيه .

واعترزم أن يجد أذنا مصغية من جديد لأفكار « الرسالة » ، فنشر فى ١٧٤٨ « تحقيقا عن الفهم البشرى » ، وفى ١٧٥١ « تحقيقا عن مبادئ الأخلاق » . وفى « اعلان » قدم به لطبعه لهذين التحقيقين صدرت بعد وفاته (١٧٧٣) تنكر للرسالة باعتبارها « عملا صبيانيا » ورجا أن « تعتبر المقالات التالية وحدها هى المحتسوية على آرائه ومبادئه الفلسفية (١٠٥) » . أما تلاميذ هيوم فقد وجدوا عموما فى أعمال هيوم الأولى من الدسم أكثر مما وجدوا فى أعماله الأخيرة ، فهذه تغطى الارض نفسها ربما بأسلوب أقل عدوانا وقطعا ، ولكنها تخلص الى النتائج ذاتها .

ويعد أن أعاد هيووم تحليله الشكى للعقل قدم القسم العاشر من التحقيق الأول ، وهو مقاله « فى المعجزات » الذى رفض الناشر من قبل أن يطبعه ضمن الرسالة . واستهله باعتداد العادى بنشه ، « أنى أعبط نفسي على أننى عثرت على حجة . . . اذا صدقت كانت للعقلاء والمثقفين رادعا دائما لكل ضروب الوهم الخرافى وستكون اذن نافعة أبد الدهر » . ثم يطلق أشهر فقراته فيقول :

« ما من شهادة تكفى لاثبات معجزة ، الا اذا كانت الشهادة من نوع يكون فيه كذبها أكثر اعجازا من الواقعة التى تحاول اثباتها . . . فاذا أنبأنى انسان بأنه رأى ميتا يبعث ، سألت نفسي للتو أيهما أكثر احتمالا ، أن يكون هذا الشخص خادعا و مخدوعا ، أو أن الواقعة التى يرويها وقعت فعلا . فإوازن بين المعجزتين ، وطبقا لرجحان احدهما . . . أرفض المعجزة الأكبر . ولن تجد فى التاريخ كله معجزة شهد عليها عدد كا فمن الناس ، أوتوا من صادق الادراك والتعليم والثقافة ما يؤمننا من أى انخداع قد ينخدعون به ، ومن النزاهة التى لا ريب فيها ما يرفعهم فوق أى شبهات من أى قصد فى خديعة غيرهم ، ومن الثقة وحسن السمعة فى أعين البشر ما يجعلهم يخسرون الكثيرا اذا ضبطوا متلبسين بأى كذبة ؛ ويشهدون فى الوقت نفسه على وقائع وقعت علانية ، وفى جزء مشهور من العالم ، مما يجعل الضبط أمرا لا يمكن تجنبيه ؛ وهذه الظروف كلها لازمة لاعطائنا الثقة الكاملة فى شهادة البشر . .

« ان القانون الذى نهتدى به عادة فى استدالاتنا العقلية هو ان الأشياء التى لا خبرة لنا بها تشبه تلك التى لنا بها خبرة ؛ وأن ما وجدناه أكثر الأشياء عادية هو دائما أكثرها احتمالا ؛ وانه حيث يكون هناك تعارض فى الحجج ينبغى لنا أن نفضل تلك القائمة على أكبر عدد من الملاحظات الماضية . . وانها لقرينة قوية ضد جميع العلاقات الخارقة والاعجازية ما يلاحظ من أنها تكثر على الأخص بين الأمم الجاهلة

والهمجية ، ... ومن الغريب أن مثل هذه العجائب لا تحدث أبداً في
إيماننا . ولكن لا غرابة ... في أن يكذب الناس في جميع
العصور (١٠٦) » .

واسترسل هيوم في ادعاء عقبات أخرى في طريق الايمان المسيحي:
حياد الطبيعة الهادية ازاء الانسان ومناقسيه على الارض ؛ وتنوع
الشروخ المتكاثرة في الحياة والتاريخ ؛ ومسئولية الله الواضحة عن خطيئة
آدم ، وعن جميع الخطايا ، في عالم لا يمكن أن يقع فيه شيء - طبقاً
لفرض المسيحي - الا برضى الله . ودرءاً لتهمة الكفر عنه ، أجرى هيوم على
لسان «صديق يحب المفارقات الشكية» «لا أستطيع أبداً الموافقة» على مبادئه ،
دفاعاً عن تخيل أبيقور أن الآلهة موجودة ولكنها لا تعبأ بالبشر . ويتساءل
الصديق لم لا يمكن أن يتفق الدين والفلسفة على ألا يزج أحدهما الآخر
كما اتفقا - فيما يظن - في الحضارة الهلنستية :

« بعد أن انتهى الفزَع الأول الذي نجم عن مفارقات ومبادئ
الفلاسفة الجديدة ، يبدو أن هؤلاء المعلمين عاشوا طوال العصور القديمة
في انسجام عظيم مع الخرافة المقررة ، وقسموا البشر قسمة عادلة
بينهما : فالقسم الأول يدعى لنفسه جميع العلماء والحكماء ، والثاني
جميع السوقة والأميين (١٠٧) » .

فياله من أسلوب للمهادنة !

وفي ١٧٤٩ عاد هيوم إلى اسكتلندة ليعيش مع أخيه وأخته في
ضيعتهما بنيانويلز . وبعد علمين تزوج جون هيوم ، وانتقل ديفد إلى
ادنبره ، وأرسل إلى المطبعة الآن : التحقيق في مبادئ الأخلاق « الذي
أمل أن يحل محل المجلد الثالث من الرسالة ، وأكد من جديد أن الحس
الأخلاقي مشتق من التعاطف أو المشاعر الاجتماعية ؛ ورفض ما ذهب
إليه سقراط من أن الفضيلة والذكاء شيء واحد ؛ واستنكر استنكاراً قاطعاً
فكرة لارشفوكو القائلة بأن الأفعال « الغيرية » مدفوعة أنانياً بأمل
اللذة الحاصلة من التقدير الاجتماعي الذي يتوقع أن تحظى به . فاللذة

التي نستشعرها فى مثل هذه الأفعال ، فى رأى هيوم ، ليست سببا لها بل مرافقا ونتيجة لها ؛ أما الأفعال ذاتها فهى عملية من عمليات غرائزنا الاجتماعية (١٠٨) .

ولكن أبرز ملامح هذا التحقيق الثانى هو تفصيله لبدأ منفعة أخلاقى . فبعد هتشن بثلاثة وعشرين عاما ، وقبل بنتام بثمانين وثلاثين ، عرف هيوم الفضيلة بأنها « كل صفة فى العقل نافعة أو لذبة للشخص نفسه أو لغيره (١٠٩) » . وعلى هذا الأساس برر اللذات الصحية للحياة باعتبارها نافعة للفرد ، والمعيار المزدوج للفضيلة باعتباره نافعا للمجتمع . يقول :

« ان طفولة الانسان الطويلة العاجزة تقتضى تضافر الوالدين للابفاء على حياة صغارهما ، وهذا التضافر يحتاج الى فضيلة العفة أو الوفاء للفراش الزوجى . . والخيانة من هذا النوع أشد أذى فى المرأة منها فى الرجل . ومن ثم كانت قوانين العفة أشد صرامة على أحد الجنسين منها على الآخر (١١٠) » .

وقد كتب المؤلف المفتون بكتابه عن هذا التحقيق فى مبادئ الأخلاق يقول : « فى رأى (أنا الذى ينبغى ألا أكون حكما فى هذا الموضوع) أنه من بين جميع مؤلفاتى . . . أفضلها بما لا يقاس » وأضاف « لقد ولد غير ملحوظ ولا مرموق فى هذه الدنيا (١١١) » .

د - الداروينية وحمسيتها

وفى ١٧٥١ ألف « حوارات فى الدين الطبيعى » . وهو أشد ما أخرج مزاجه الشيطانى تخريبا وعدوانا على المقدسات . هنا يتحدث ثلاثة أشخاص ، ديميا الذى يدافع عن السنية ، وكليانثيس الربوبى ، وفيلو الذى هو هيوم لا يخطئه النظر . وبزعم ديميا أنه ما لم نفترض وجود عقل أعلى وراء ظواهر الطبيعة فان العالم يصبح غير مفهوم الى

حد لا يطاق ، ولكنه يسلم ن الهه غير مفهوم بتاتا للعقل البشرى (١١٢) .
ويلوم كليانثيس ديميا على محاولته تفسير غير المفهوم بغير المفهوم ،
ويؤثر أن يثبت وجود الله بأدلة القصد فى الطبيعة . أما فيلو فيسخر
من الحجتين ، ويزعم أن العقل لا يمكن أبدا أن يفسر العالم أو يثبت
وجود الله . « فأى امتياز خاص تمتاز به حركة الدماغ الصغيرة هذه
التي نسميها الفكر ، حتى يتحتم علينا أن نجعلها نموذجا للكون
كله ؟ (١١٣) » . وأما عن القصد ، فان تكييف الأعضاء لتلائم الأغراض
ربما لم ينشأ عن ارشاد الهى ، بل عن تجارب الطبيعة ، البطيئة
المتخبطة ، خلال آلاف السنين (١١٤) . (هنا نجد « الانتخاب
الطبيعى » بعد ١٨٠٠ سنة من لوكرينيوس ، وقبل ١٠٨ سنة من
داروين) . وحتى لو سلمنا بالقصد فوق الطبيعى ، فان قصور
التكيفات وعيوبها ، وآلاف الآلام فى دنيا الانسان والحيوان ، تكشف
لنا - على أحسن الفروض - عن الهه محدود القدرات والذكاء ، أو الهه
غير مكرث للبشر بتاتا . « فحياة الانسان فى النهاية ليست أعظم
أهمية للكون عن حياة المحارة (١١٥) » يقول :

« يخيل للمرء أن هذا الانتاج الفخم لم يتلق آخر اللمسات من
خالقه ، فكل جزء فيه ناقص الصقل جدا ، والخطوط التى نفذ بها
غاية فى الخشونة . فالرياح مثلا تساعد الناس على الملاحه ، ولكن
ما أكثر ما تصبح مؤذية حين تنقلب زوابع وأعاصير ! والأمطار ضرورية
لتغذية جميع نباتات الارض وحيواناتها ، ولكن ما أكثر ما تكون شحيحة
وما أكثر ما تكون مسرفة ! . . . ليس فى الكون شيء كثير النفع الا انقلب
المره بعد المره مؤذيا لافراطه أو قصوره ، ثم أن الطبيعة لم تتخذ حيلتها
بالدقة المطلوبة من جميع ألوان الخلل أو الفوضى (١١٦) » .

وأسوأ من هذا أن الأمر لا يقتصر على وجود الخلل وسط النظام
(اذا نظرنا الى العالم على أنه مخطط) ، بل ان فى وسط الحياة
الزاخرة صراعا عقيما على الدوام مع الموت .

« ان حربا لا يخمد لها أوار تستعر بين جميع الكائنات الحية .
 فالضرورة ، والجوع ، والعوز - تحفز الأقيواء والشجعان ، والخوف ،
 والقلق ، والرعب ، تقلق الضعفاء والعاجزين . وأول مدخل للوليد الى
 الحياة فيه ألم مبرح له ولأمه المسكينة ، والضعف والعجز والضيق رفقاء
 كل مرحلة من مراحل تلك الحباة ، ثم يختم آخر الامر بالعذاب والرعب
 .. لاحظ أيضا .. حيل الطبيعة العجيبة ، لتكدر حياة كل كائن حى
 .. . تأمل ذلك الجيش العرمرم من الحشرات التى تتربى على جسم
 كل حيوان ، أو تغرز حمتها فيه وهى تطير من حوله .. فكل حيوان
 يحدق به أعداء يسعون على الدوام الى اشقائه وتدميره .. والانسان
 ألد خصوم الانسان . فالقهر ، والظلم ، والاحتقار والاهانة ، والعنف ،
 والاعواء ، والحرب ، والافتراء ، والغدر ، والتزييف ؛ بهذه يعذب
 الناس بعضهم بعضا (١١٧) .

« انظر الى هذا الكون نظرة محيطية . يا لها من وفرة هائلة فى
 الكائنات ، الحية المنظمة ، الحساسة النشيطة ! انك لتعجب بهذا التنوع
 الضخم وهذه الخصوبة الهائلة . ولكن افحص بتدقيق أكثر هذه الكائنات
 الحية .. ما أشد عداءها وتدميرها بعضها لبعض ! .. والكل لا يمثل
 سوى فكرة الطبيعة العمياء ، التى تزخر بمبدأ محى عظيم ، ويتدفق من
 حجرها دون تمييز أو رعاية أبوية أطفالها الشائهن المجهزون (١١٨) » .

وتوحى الأدلة المتضاربة على الخير والشر فى العالم الى فيلو
 بثنائية الالهة المتنافسين أو تعددهم ، بعضهم « أخيار » وبعضهم
 « أشرار » ، وربما كانوا مختلفى الجنس . وهو يلمع فى خبث الى أن
 العالم :

« لم يكن سوى المحاولة الفجة الاولى لاله طفل أقلع عنها بعد ذلك
 خجلا من انجازه الاعرج .. أو أنه نتاج الشيوخوخة والخرف فى اله طتن
 فى السن ، وبعد مونه واصل العالم مسيرته مغامرا ، مدفوعا بالدفعة
 والقوة الفعالة الاولى التى تلقاها منه (١١٩) » .

ولعل العالم كما أكد البراهمة « نشأ عن عنكبوت لا نهائى غزل
خيوطه المعقدة كلها من امعائه . . . فلم لا يغزل نسق منظم من البطن
كما يغزل من الدماغ ؟ (١٢٠) » . فتكون الخليقة والحالة هذه انسالا .
أو ربما « كان العالم حيوانا والاله روح العالم التى تحركه
وتتحرك به (١٢١) » .

وبعد هذا المزاج كله يعود فيلو الى القصد ، فيسلم بأن « علة النظام
أو علته فى الكون فيها على الأرجح بعض الشبه بالذكاء الانسانى (١٢٢) » .
ثم يعتذر عن آرائه المخزية عن الكون :

« يجب أن أعترف اننى أقل حذرا فى موضوع الدين الطبيعى
منى فى أى موضوع آخر . . . وأنك على الأخص يا كليانثيس ، أنت
الذى أعيش معه فى علاقة حميمة بغير قيود ، تدرك أننى رغم تحسر
حديثى ، وحبى للحجج الغربية ، فليس هناك من طبع ذهنه بأحاساس
بالدين أعمق من احساسى ، أو من بعبد الكائن الالهى عبادة أعمق اذ
يكتشف فى نفسه أنه يناقش أساليب الطبيية وحيلها التى لا يمكن
تفسيرها . فالقصد ، أو النية ، أو التخطيط ، يسترعى فى كل مكان
نظر أشد المفكرين غفلة وغباء ، وما من رجل يمكن أن يتجمد فى المذاهب
الفلسفية السخيفة تجمدا يجعله يرفض هذا القصد على طول
الخط (١٢٣) » .

على أن أصحاب هيوم ناشدوه ألا ينشر الحوارات رغم هذا العرض
بالمصالحة . فاذعن ، وحبس المخطوطة فى مكتبه ، فلم تر النور الا فى
عام ١٧٧٩ ، بعد موته بثلاثة سنوات . ولكن افتتانه بالدين أغراه بالعودة
الى الموضوع ، وفى ١٧٥٧ نشر « أربع مقالات » تناولت احداها « تاريخا
طبيعيا للدين » . وسحب مقالين آخرين بناء على الحاج ناشره ، وقد
طبعا حين كان أبعد من أن يناله خوف أو لوم ؛ وأحد المقالين عن
الخلود ، والآخر تبرير للانتحار حين يصبح الشخص عبئا على
اخوانه .

ومقال « التاريخ الطبيعى للدين » هذا يجمع بين اهتمام هـيوم القديم بالدين ، واهتمامه الجديد بالتاريخ . فقد فات مرحلة الهجوم على المعتقدات القديمة الى مرحلة التساؤل عن كيفية توصل الانسان الى اعتناقها . ولكنه لا يميل الى البحث الصابر المستأنى ، حتى بين المواد الشحيحة المتاحة آنئذ عن الاصول الاجتماعية ، بل يؤثر أن يتناول المشكلة بتحليل السيكولوجى والاستنباط العلقى . فعقل الانسان البدائى فسر العلية كلها قياسا على ارادته وسلوكه ، فورا أعمال الطبيعة وأشكالها - كالانهار والمحيطات والجبال والعواصف والأوبئة والعجائب الخ - تصور هذا الانسان أعمالا ارادية يقوم بها أشخاص مختلفون ذوو قدرة خارقة ؛ ومن هنا كان الشرك أول ضروب الايمان الدينى . واذ كانت قوى أو أحداث كثيرة مؤذية للانسان ، فقد كان للخوف نصيب موفور فى أساطيره وعباداته ، فجسد هذه القوى الشريرة أو الشياطين وحاول أن يسرئضها . ولعل الآله الذى آمن به كلفن كان شيطانا قاسيا ، خبيثا ، مستبدا ، صعب الارضاء (وهذه اشارة خبيثة من هـيوم) (١٢٤) . واذ تصور الانسان الآلهة الخيرة على شكل البشر - الا من حيث القوة والدوام ، فانه افترض أنها تمنح العون والراحة لقاء الهدايا والزلفى ، ومن ثم كانت طقوس القرابين ، والضحايا ، والعبادة ، وصلاة التضرع . وبازدياد التنظيم الاجتماعى حجما واتساعا ، وبخضوع الحكام المحليين للموك أعظم ، مرت دنيا اللاهوت بتغيير مشابه ، فعزا الانسان فى الخيال الى الآلهة نظاما هرميا تسوده الطاعة ، وانبعث التوحيد من الشرك ، وبينما كانت الجماهير لا تزال تجثو للآلهة أو القديسين المحليين ، عبد المثقفون زيوس ، أو جوبتر ، أو الله .

ولسوء الحظ أصبح الدين أكثر تعصبا كلما غدا أكثر توحيدا . فالشرك سمح بالوان كثيرة من العقيدة الدينية ، أما التوحيد فقد طالب بالتماثل . وانتشر الاضطهاد ، وغدت الصيحة المطالبة بالعقيدة السنية « أعنف العواطف الانسانية وأعتها جميعا (١٢٥) » . واکرمت الفلسفة على أن تكون خادما لايمان الجماهير ومدافعا عنه بعد أن كانت مطلقة

نسبياً بين القدامى باعتبارها دين الصفاة . وفى هذه العفاقد التوحيدية - اليهودية والمسيحية والاسلام - فصل الاستحقاق و « الخلاص » أكثر فأكثر عن الفضيلة ، وربط بحفظ الشعائر والايمان الاعمى . وترتب على هذا ان المتعلمين أصبحوا اما شهداء واما منافقين ، وبما أنهم قلما اخذوا الاستشهاد ، فان حباة البنر لونها النفاق وعدم الاخلاص .

على أن هيوم كان يغضى عن قدر من النفاق ، وذلك فى نوباته الأقل ولعا بالقتال . مثال ذلك أنه حين استتاره فسيس شاب فقد ايمانه أبقى فى الكنيسة ويقبل وظائفها ، أجب ديفد ، أبق :

« ان الوظائف المدنية الصالحة للمثقفين نادرة . . . ومن المغالاة فى احترام العامة ونزعاتهم الخرافية ان يعتز المرء باخلاصه معهم . فهل حدث مرة أن التزم انسان بشرفه بأن يقول الصدق للأطفال أو المجانين ؟ . . . والوظيفة الكنسية انما تضيف القليل الى الخداع أو قل النطاهر - البرىء - الذى بدونه يستحيل على المرء أن يشق طريقه فى هذه الدنيا (١٢٦) » .

ه - الشيوعية والديمقراطية

اتجه هيوم فى أخريات عمره أكثر فأكثر الى السياسة والتاريخ بعد أن أعياه الجدل حول مسائل يقررها الوجدان - فى رأيه - أكثر مما يقررها العقل . وفى ١٧٥٢ نشر « أحاديث سياسية » . وقد أدهشه اقبال القراء عليها . وأبهج انجلترا أن تنسى نزعة لاهوته المدمرة فى النزعة المحافظة لسياسته .

كان يتعاطف بعض الشيء مع التطلعات الى مساواة شيوعية :

« لا بد فى الحق من الاعتراف بأن الطبيعة سخت على الانسان سخاء يتيح لكل فرد أن يتمتع بجميع ضروريات الحياة ، بل أكثر كمالياتها ، لو أن عطباها كلها قسمت بالقسط بين الانواع ، وحسنت

بالفن والصناعة ، . . كذلك لا بد من الاعتراف بأننا أينما خرجنا على هذه المساواة سلبنا من الفقراء رضي أكثر مما نضيف الى الاغنياء ، وبأن الاشباع الطفيف لغرور طائش فى فرد واحد ، كثيرا ما كلف أكثر مما يكلفه الخبز لكثير من الأسر بل الاقاليم » .

ولكنه أحس أن الطبيعة البشرية تجعل حلم المدينة الفاضلة التى تسودها المساواة ضربا من المحال :

« ان المؤرخين ينبئوننا ، لا بل الفطرة السليمة تنبئنا ، بأن هذه الأفكار عن المساواة « التامة » مهما بدت قيمة الا أنها فى صميمها « غير ممكنة عمليا » ، والا لآلحقت أشد الأذى بالمجتمع الانسانى . فلو اذك سوبت تسوية تامة بين الملكيات ، لحطمت درجات الناس ومراتبهم المختلفة من حيث الصنعة والعناية والجد تلك المساواة فورا . أو لو فرضت الرقابة على هذه الفضائل . . . لاحتجت الى أكثر محاكم التفتيش صرامة لمراقبة أى ضرب من عدم مساواة بمجرد ظهوره ، وأشد السلطات القضائية صرامة لعقابه واصلاحه . . . فمثل هذا السلطان المفرط لا بد أن ينحدر سريعا الى درك الطغيان (١٢٧) » .

ونالت الديمقراطية من هيوم ، كما نالت الشيوعية ، رفضه المتعاطف . فالمبدأ فى رأيه « مبدأ . . . نبيل فى ذاته . . . ولكن تكذبه كل التجارب ، أن الناس هم الاصل فى كل ضرروب الحكم العادل (١٢٨) » . ورفض النظرية (التى سيحييها روسو بعد قليل) القائلة بأن الحكومة نشأت أصلا من « تعاقد اجتماعى » بين الناس ، أو بين الشعب والحاكم ، لأنها نظرية صبيانية :

« فكل الحكومات الموجودة الآن تقريبا ، أو التى خلفت لنا أى سجل فى التاريخ ، أسست أصلا إما على الاغتصاب ، أو على الغزو ، أو عليهما جميعا ، دون أن تزعم بأنها حظيت بموافقة الشعب ، أو

بخضوعه الاختيارى . وأغلب الظن أن أول سيطرة الانسان على الجماهير بدأت فى حالة الحرب . . . وكان من أثر استمرار تلك الحالة طويلا . . . وهو أمر مألوف لدى القبائل المتوحشة ، أن الشعب تعود الخضوع (١٢٩) « .

وهكذا أصبحت الملكية أكثر أشكال الحكم انتشارا ، ودواما ، واذن فآكثرها عملية على الأرجح . « أن الامير الوراى ، والنبلاء دون اتباعهم ، والشعب الذى يصوت بواسطة ممثليه ، يؤلفون خير ملكية ، وارشتراطية ، وديمقراطية (١٣٠) « .

وبالاصافة الى تفنيد هيوم لروسو سلفا ، استخدم أسلوبه « الاديسونى » لينبذ سلفا نظرية مونتكيو التى تزعم أن مناخ البلد بقرر طبع أهله . كتب يقول فى « مقالات أخلاقية وسياسية » ظهرت طبعتها الثانية فى آن واحد تقريبا (١٧٤٨) مع « روح القوانين » : « أما عن الاسباب الطبيعية فانى أميل الى الشك فى مفعولها فى هذا المجال . كذلك لا أظن أن الناس يدينون بأى شيء فى طبعهم أو نبوغهم للهواء أو الغذاء أو المناخ (١٣١) » . فالخلق القومى يترتب على الحدود القومية لا المناطق المناخية ، وأهم ما يقرره هو القوانين والحكومة وهيكىل المجتمع وأعمال السكان ومحاكاة الجيران أو الرؤساء .

فى ظل هذه العوامل المختلفة المحلية تكون الطبيعة البشرية أساسا طبيعة واحدة فى كل زمان ومكان ؛ فالدوافع والغرائز ذاتها ، التى تفرضها دواعى البقاء ، تنتج أساسا ، فى جميع العصور والأقطار ، الالفعال والنتائج ذاتها .

« فالطموح والجشع ومحبة الذات والغرور والصدائة والكرم وروح الجماعة - هذه العواطف ، المختلطة بدرجات متفاوتة ، والموزعة بين أفراد المجتمع ، كانت منذ أن وجدت الدنيا وما زالت مصدر جميع

الأفعال والمشروعات التي لوحظت بين بنى البشر . أتريد أن تعرف عواطف اليونان والرومان وميولهم وسير حياتهم ؟ إذن فادرس جيدا طبائع الفرنسيين والانجليز وأفعالهم ، فلن تخطيء كثيرا أن طبقت على الأولين معظم الملاحظات التي لاحظتها على الآخرين - فالبشر شديدا التشابه في كل زمان ومكان حتى ان التاريخ لا يضيف الى علمنا جديدا أو غريبا في هذا الباب . وأهم فائدة له أنه يكشف عن المبادئ الثابتة والعامّة للطبيعة البشرية بعرضه البشر في شتى الظروف والمواقف ، ويمدنا بالمواد التي نكون منها ملاحظتنا ونحيط منها علما بالمناجع المنظمة لأفعال البشر وسلوكهم . فهذه السجلات للحروب والدسائس والأحزاب والثورات هي مجموعات كثيرة من التجارب يستعين بها فيلسوف السياسة أو الأخلاق على تحديد مبادئ علمه (١٣٢) » .

وفد أضاف هيوم اضافات قيمة للفكر الاقتصادي في كتابيه « أحاديث سياسية » و « مقالات ورسائل في موضوعات مختلفة » (١٧٥٣) . ذلك أنه رفض رأى الفيزيوقراطيين الفرنسيين القائل بأن جميع الضرائب تقع في النهاية على الارض . وذهب الى أنها تقع في النهاية على العمل ، لأن « كل شيء في العالم يشتري بالعمل (١٣٣) » (وهو هنا مررد صدق لوك) . وحتى قبل أن تتشكل الثورة الصناعية تنبأ بأن العمال « سيرفعون أجورهم بالتكتل » ، وندد بتمويل المصروفات والمشروعات الحكومية بالضرائب المرتفعة والاصدارات المتكررة للسندات ، وتنبأ بأن مثل هذه الاجراءات الضريبية ستجر « الحكومات الحرة » الى « حالة العبودية التي ترزخ تحتها جميع الامم المحيطة بنا » (١٣٤) . والنقود ليست هي الثروة ، وسك مقادير تزيد على متطلبات التجارة منها انما يرفع الاسعار ويعرقل التجارة الخارجية . والنظرية « المركنتلية » الخاطئة التي ما زالت تحمل الدول الاوربية على التركيز على الصادرات ، ومنع الواردات ، وتجميع

الذهب ، ستحرم أوروبا من المنافع الدولية الناشئة عن قدرة كل أمة على انتاج سلع نوعية بفضل التربة والمناخ والمهارات الخاصة بأدنى تكلفة وأعلى جودة . ثم جرؤ على أن يصلى :

«لا بوصفى انسانا فحسب، بل أحد الرعايا البريطانيين ، . . لاجل التجارة المزدهرة لألمانيا ، وأسبانيا ، وإيطاليا ، بل وفرنسا ذاتها. وانى على الاقل واثق أن بريطانيا العظمى وهذه الامم جميعا سيزيد ازدهارها لو أن ملوكها ووزراءها اعتنقوا هذه الآراء السمحة الخيرة نحو بعضهم البعض . . . فازدياد الثروة والتجارة فى أى أمة لا يؤذى وانما على العكس من ذلك يدعم عادة ثروة وتجارة جيرانها جميعا (١٣٥) » .

هذه الأفكار ، التى ربما كانت متأثرة بمدى « عدم التدخل » الذى نادى به الفيزيوقراطيون ، أنرت بدورها فى آدم سميث ، صديق هيوم ، ولعبت دورا فى تطوير سياسة بريطانية تقول بحرية التجارة ، وهى تجد تحقيقها فى أوروبا الغربية فى عصرنا هذا .

و - التاريخ

فى ١٧٥٢ بعد حملة شنها عليه الحزب السننى الذى اتهمه بأنه زنديق وقح ، انتخب هيوم أمينا لمكتبة كلية المحامين بادنبره . وكان المنصب كبير المعنى فى نظره رغم تواضع راتبه الذى لم يزد على أربعين جنيها فى العام ، لأنه جعله السيد المتصرف فى ثلاثين ألف مجلد . وبفضل وجود هذه المكتبة فى متناوله استطاع ان يؤلف كتابه « تاريخ إنجلترا » . وكان فى عام ١٧٤٨ قد اعترف الى صديق له بهذه الكلمات « لقد طالما نويت ان أؤلف كتاب تاريخ فى سننى حياتى الاكثر نضجا (١٣٦) » . وكان يسمى التاريخ « الخليفة العظمى للحكمة (١٣٧) » ، ويؤمل أن يجد فيه أسباب نهوض الامم وسقوطها ، يضاف الى هذا :

« ان نرى النوع الانسانى كله يمر بنا وكأنه فى عرض امامنا ،
باديا على سجيته ، دون أى من هذه الاستخفاءات التى طالما شوشت.
حكم المتفرجين على هؤلاء الناس اثناء حياتهم - فإى مشهد آخر يمكن
أن تصوره بهذا البهاء والتنوع والتشويق ؟ وأى متعة للحواس أو
الخيال يمكن أن تقارن به ؟ (١٣٨) » .

ان من مظاهر القرن الثامن عشر أنه أنجب فى جيل واحد ثلاثة
من أعظم مؤرخى العالم ؛ فولتير ، وهيوم ، وجبون ، وكلهم مؤسس
فى الفلسفة ، محاول أن يعيد تفسير التاريخ بلغة غير لغة اللاهوت ،
وفى أعرض منظور للمعرفة حشده زمانهم . ولم يملّ جبون من الثناء
على هيوم والاقرار بفضل تأثيره ، وكان يقدر اطراء هيوم للمجلد الأول
من « اضمحلال الاميراطورية الرومانية وسقوطها » (١٧٧٦) فوق
كل اطراء آخر . فهل كان هيوم بدوره مدينا بالكثير لفولتير ؟ كان قد
توصل الى فلسفته وصاغها كباحث مدين للربوبيين الانجليز لا للشكاك
الفرنسيين . « والرسالة فى الطبيعة البشرية » سبقت كل الاعمال
الكبرى التى كتبها فولتير وديدرو ومونتسكيو . ولكن ربما كان كتاب
هيوم « تاريخ انجلترا » (١٧٥٤ - ٦٢) مدينا بشيء لكتاب فولتير
« عصر لويس الرابع عشر » (١٧٥١) ، وحتى لكتاب « مقال فى
العرف » الذى طبعت أجزاء منه فى ١٧٤٥ و ١٧٥٥ . هؤلاء المؤرخون
الثلاثة كلهم أجمعوا على فضح الخرافة ، ورفض التفسيرات الخارقة ،
والتوحيد بين التقدم وتطور المعرفة والعادات والفنون .

وكتب هيوم تاريخه الى الخلف . فغطى مجلده الاول الصادر فى
(١٧٥٤) عهدى جيمس الاول وتشارلز الاول - السنوات ١٦٠٣ - ٤٩ ،
والثانى (الصادر فى ١٧٥٦) امتد من ١٦٤٩ الى ١٦٨٨ ، والثالث
والرابع (الصادران فى ١٧٥٩) من ١٤٨٥ الى ١٦٠٣ ، والخامس
والسادس (الصادران فى ١٧٦١) من غزو يوليوس قيصر لانجلترا الى
ارتقاء هنرى السابع العرش فى ١٤٨٥ .

وقد أدهشه عنف النقد الذي هوجم به المجلد الأول . كان يؤمن بأن تسلط حزب الاحرار على إنجلترا منذ استقدموا وليم الثالث في ١٦٨٨ ، وخوفهم من الثورتين الاستيوارتيتين الناشبتين في ١٧١٥ و ١٧٤٥ ، قد لوثا كتابة التاريخ الرسمى الانجليزى بالعداء لأسرة ستيوارت ، ثم زعم أنه برىء من المزعزعات المضادة . « رأيتنى المؤرخ الوحيد الذى أهمل فى وقت واحد للحكومة والمصلحة والسلطة الراهنة من جهة ، وصيحة التحيز الجماهيرى من جهة أخرى (١٣٦) » . ولكنه نسي أنه اسكتلندى ، وأن اسكتلنדה مازالت تبكى سرا أميرها الجميل تشارلى ، وأن الاسكتلنديين ، وأغلب الظن أن هيووم لم يشذ عنهم ، لم يغفروا قط لانجلترا قتلها تشارلز الأول نصف الاسكتلندى ، واستقدامها أولا رجلا هولنديا ، ثم آخر ألمانيا ، لحكم إنجلترا واسكتلنדה وويلز . فبينما نراه يسلم بأن تشارلز الأول جاوز حدود الامتيازات الملكية واستحق أن يخلع ، نجده بصور البرلمان متجاوزا بالمثل حقه ، ومذنباً بالمثل فى أمر الحرب الأهلية . ولقد سلم بحق لامة فى خلع الملك الطالح ، ولكنه تمنى لو أن أحدا لم يدفع هذا الحق قط الى نهايته ، وخاف من « هياج الشعب وظلمه » وأحس أن اعدام تشارلز « الرجل المعتدل الكريم النفس » قد زعزع بشكل خطر عادات الشعب فى احترام الحكومة . واحتقر البيورتان لانهم « منافقون متظاهرون بالتقوى « لوثوا » لغتهم « برطانة » غامضة و « ووشوا اثمهم بالصلوات (١٤٠) » . وحكم على فترة الكومنولث (جمهورية كرومويل) بأنها فترة تقوى قاتلة ، وطغيان عسكري ، وفوضى اجتماعية ، لم تبرأ البلاد منها الا بعودة أسرة استيوارت الى العرش . وقد ذهب فولتير فى عرضه لتاريخ هيووم الى أنه منصف تمام الانصاف :

« ان المستر هيووم . . . غير متحيز للبرلمان ولا للملكية ، ولا هو انجليكانى ولا مشيخى ، انما هو رجل منصف لا أكثر . فلقد طالما حرم جنون الحزبية إنجلترا من المؤرخ النزيه كما حرمها من الحكومة الصالحة . فما كتبه محافظ كان يرفضه الاحرار ، الذين يكذبهم المحافظون بدورهم . . . ولكننا نجد فى المؤرخ الجديد ذهنا يسمو فوق مظانه ،

يتحدث عن مواطن الضعف وعن الاخطاء الجسيمة وافعال القسوة حديث
الطبيب عن الاوبئة (١٤١) « .

اما النقاد البريطانيون فلم يوافقوا فولتير . فهم لم يأخذوا على
هيوم انه قل أن يرجع الى المصادر الاصلية ، بل (كما ذكر فيما بعد)
« هوجم بصيحة واحدة كلها لوم واستنكار ، بل بغض وكراهية .
فالانجليز ، والاسكتلنديون ، والارلنديون ، والاحرار ، والمحافظون ،
ورجال الكنيسة الانجيكانية واتباع المذاهب المنشقة ، واحرار الفكر
والمقدينون ، والوطنيون والحاشية - كل أولئك أجمعوا على السخط على
الرجل الذى جرؤ على أن يذرف دمعة كريمة على مصير تشارلز الاول
وايرل سترافورد . وبعد ان همدت السورة الاولى لغضبتهم ، كان أشد
خزيا ما بدا من أن الكتاب طوى فى زوايا النسيان . وقد اخبرنى المستر
ملر أنه لم يبع خلال اثنى عشر شهرا الا خمسا وأربعين نسخة منه (١٤٢)»

وقد فت هذا فى عضده حتى لقد حدثته نفسه حيناً بأن يرحل كما
رحل فى شبابه الى مدينة من مدن الاقاليم فى فرنسا ، حيث يستطيع
العيش باسم منتحل . ولكن فرنسا وانجلترا كانتا تقتتلان ، وقد أوشك
المجلد الثانى على نهايته ، فاعتزم أن يواصل العمل . وازداد تحيزه
بسبب ما لقى من معارضة ، ففى تنقيحه للمجلد الاول أدخل « نيفسا
ومائة تغيير » . ولكنه يقول بكل البهجة الخبيثة التى يستشعرها
عفريت ضخمة « جعلتها كلها فى صف المحافظين (١٤٣) » ومع ذلك
بيع من المجلدات التالية عدد لا بأس به ، ورحب به المحافظون الآن
محاميا شديدا المرس ، وسلم بعض الاحرار بسحر أسلوبه البسيط ،
الواضح ، البتار ، الصريح ، الذى سبق أحيانا وقار جبون الحصيف .
فوصفه للمصراع المثير بين هنرى الثانى وتوماس أببيكيت يضارع رواية
جبون لاستيلاء العثمانيين على القسطنطينية . ورفع تأثير المجلدات
الستة المتراكم صيت هيوم الى ذروته . وفى ١٧٦٢ ذهب بوزويل فى
تقديره له الى أنه « أعظم الكتاب فى بريطانيا (١٤٤) » - ولكن بوزويل
كان اسكتلنديا . وفى ١٧٦٤ صرح فولتير فى تواضع بأن الكتاب « ربما
كان أفضل تاريخ كتب فى أى لغة اطلاقا (١٤٥) » وقد أزاحه جبون
وماكولى الى الظل ، ووازن ماكولى تحيزه بتحيز معادل ، ولا ينصحنا

المؤرخون بقراءة كتاب هيوم اليوم ، لأن تسجيله للوقائع قد طرأت عليه تحسينات منذ أمد بعيد ، ولكن قارئاً بدأ قراءته باعتبارها واجبا فوجد فيه الانارة والمتعة .

ز - الفيلسوف العجوز

في ١٧٥٥ بدأت حركة يقودها بعض رجال الدين الاسكتلنديين لاتهام هيوم أمام مجمع الكنيسة العام بتهمة الزندقة ، وكان « التنوير الاسكتلندي » قد أنجب حركة متحررة بين شباب القساوسة ، فاستطاعوا أن يحولوا دون أى ادانة علنية للفيلسوف - المؤرخ ؛ ولكن الهجمات الكنسية اتصلت ضده ، ولدغته لدغات جعلته يعود الى التفكير فى الفرار . وواتته فرصته حين دعاه ايرل هرتفورد (١٧٦٣) ليكون نائب سكرتير له فى سفارة لفرنسا ، وحصل له على معاش قدره ٢٠٠ جنيه مدى الحياة .

وكان منذ أمد بعيد معجبا بالفكر الفرنسي ، وقد تأثر بالرغيل الاول من كتاب « التنوير » الفرنسي ، وراسل مونتسكيو وفولتير . وكانت أعماله تحظى فى فرنسا بثناء يفوق كثيرا ما حظيت به فى انجلترا . وعشقتة الكونتيسة دبوليه من قراءة كتبه ، وكتبت له تتملقه ، وجاءت الى لندن لتراه ، فأفلت منها . ولكن حين وصل باريس بسطت عليه رعايتها ، وجعلته بطل صالونها ، وناضلت لتوقظ فى صدره عاطفة الرجولة ، ولكنها وجدته أثبت وأرسي من أن تجربفه رياح الغرام . وكان يدعى للمآدب فى الاجتماع تلو الاجتماع . قالت مدام دبينيه « لا تكتمل وليمة بدونه » . وفتحت له الارستقراطية ذراعيها ، ورفت من حوله عظيماات النساء - حتى بومبادور العليلة . وكتب يقول : « انى واثق أن لويس الرابع عشر لم يكابد قط فى أى ثلاثة أسابيع من حياته مثل هذا التملق الكثير » . والتقى بطورجو ودالمبير ودولباخ وديدرو ، ودعاه فولتير من عرشه النائى فى فرنيه « با قديسي ديفد » . وأدهش ايرل هرتفورد أن يجد الناس يسعون وراء سكرتيره وينحنون له أكثر كثيرا مما يفعلون معه . ولكن هوراس ولبول غاظه هذا كله ، وسخر بعض « الفلاسفة » من يدانة هيوم غيرة منه . وفى

أحدى الحفلات بعد أن دخل هيوم عقب دامبير بأية من الانجيل الرابع (يوحنا) « والكلمة صار جسدا » وقيل ان احدى السيدات المعجبات بهيوم ردت هنا على الملاحظة بحضور بديهة عجيب « والكلمة صار محبوبا (١٤٦) » . لا عجب أن يكتب هيوم ، الذى ناكده خصومه فى ادنبره ، وكرهوه فى لندن ، « ان الحياة فى باريس تبعث على الرضى الحقيقى لوفرة مجتمع الاشخاص المعقولين الاذكيا المهذبين ، الذين تزخر بهم المدينة (١٤٧) » .

وفى نوفمبر ١٩٦٥ أقبل سفير بريطانيا جديد ، فانهى استخدام هيوم . فعاد الى ادنبره ، ولكن فى ١٧٦٧ قبل وظيفة وكيل فى وزارة الخارجية بلندن . فى هذه الفترة أتى بروسو الى انجلترا ، فخلق له متاعب مشهورة ، ولا بد من ارجاء هذه القصة الآن . وفى أغسطس ١٧٦٩ ، حين بلغ الثانية والخمسين ، عاد نهائيا الى ادنبره ، وقد غدا الآن « غنيا جدا (لاننى كنت أملك دخلا قدره ألف جنيه فى العام) صحيح البدن ، أتوقع - رغم أنى طعنت فى السن بعض الشيء - أن استمتع طويلا بالراحة ، وأن أرى شهرتى فى اتساع (١٤٨) » .

وأصبح بيته فى شارع سانت ديفد صالونا يجتمع فيه من حوله آدم سمث ووليم روبرتسن وغيرهما من مشاهير الاسكتلنديين كانه ملكهم المعترف به . ولم يحبوه لرجاحة ذهنه فحسب ، فقد رأوا انه رغم استدلالاته العقلية المحطمة للمقدسات ، محدث ظريف بشوش معتدل فى الجدل متسامح مع الآراء المعارضة ، لا يسمح للخلاف فى الأفكار بالانتقاص من حرارة صداقاته . ويبدو انه (كمونتيني وفولتير) كان يضع الصداقة فوق الحب . « ان الصداقة بهجة الحياة الانسانية الكبرى (١٤٩) » . ومع ذلك كان محبوبا من النساء ، ربما لأنه لم يكن متزوجا . وكان الضيف الاثير فى بيوت كثيرة ، واذا كانت سمنته تتلف المقاعد (١٥٠) ، فان خفة روحه عوضت عن ثقل بدنه ، وقد اقترح ضريبة على السمنة ، ولكنه توقع ان « بعض القساوسة قد يدعون أن الكنيسة فى خطر » ، وكان يبارك ذكرى يوليوس قيصر لأنه أثار السمان من الرجال - قال آدم سمث : « كنت على الجملة أعده دائما . . أقرب ما تسمح به طبيعة المضعف البشرى من فكرة عن الرجل الكامل الحكمة والفضيلة (١٥١) » .

وإذا لم يكن بد من البحث. عن نقائص في هذا الخلق الذي بلغ غاية اللطف ، أو عن بقع معتمة في هذا الذهن الأملعى ، فإن أكبر أخطائه التى يصعب اغتفارها له هى اشاراته الى « الفرض البشع » الذى افترضه سبينوزا « الكافر » (١٥٢) ، وهى اشارات.لابد أن الهدف منها كان تغيير لون جلده ليحمى نفسه .ولقد كانت سيكولوجية هيوم أكثر سيكولوجيات زمانه نفاذا ، ولكنها لم تغفل تماما الاحساس بالهوية الشخصية ؛ فان حالة نفسية ما لا تستدعى حالة نفسية أخرى فحسب ، بل قد تستدعيها باعتبارها حالتى « أنا » ، واحلال « التابع المنتظم » محل « العلة » لا يتطلب سوى تغيير فى العبارة ؛ و « التابع المنتظم » كاف للعلم والفلسفة ؛ وكتابه « تاريخ انجلترا » لا يفئا يحاول تفسير الاحداث بالاسباب (١٥٣) . وان شكوكيه تخلى عنها صاحبها صراحة فى الحياة العملية ، لا بد أن تكون خاطئة من حيث نظريتها ، لأن الممارسة هى المحك النهائى للنظرية . ومن الغريب أن هيوم مع رده العلة الى العرف ، والفضيلة الى شعور التعاطف ، لم يعط وزنا يذكر للعرف والشعور فى تفسيره للدين ، وأبدى أقل التعاطف مع وظائف الدين الملحة فى التاريخ . وكان عديم الاحساس بتعزيزات الايمان ، والراحة التى كان يسمح بها على النفوس المقشعرة امام سر الوجود. وضحامته ، أو وحشة الحزن ، أو حتمية الهزيمة القاسية . لقد كان نجاح وسلى رد التاريخ على هيوم .

على اننا برغم هذه الاعتراضات التافهة نعود الى الاقرار بما اتسم به ذهن هيوم النفاذ من رهاقة بتارة . لقد كان هو وحده «التنوير» للجزر البريطانية ، ونحن اذا استثنينا مجال الرؤية السياسية ، وجدنا أن أثر هيوم أساسا كان فى بريطانيا معادلا لآثر نيف وعشرة فلاسفة فى فرنسا . ومع أنه كان يشعر بالتأثير الفرنسى شعورا عميقا ، فإنه توصل الى أفكار التنوير ، وكال بعض لطماته البالغة الشدة قبل أن يجرد « الفلاسفة » - بل فولتير - مخال بهم على « العار » 'l'infâme' لقد كانوا مدينين له بقدر دينه لهم . كتب اليه ديدرو يقبول : « انى أحبيك ، انى أحبك ، انى أجلك (١٥٤) » وفى انجلترا: أنهى مذهب الرهبانية بتحديه قدرة العقل على الدفاع حتى عن أبسط مقوماته. الايمان الدينى ، وحمل الحرب لا الى أسوار العقيدة القديمة فحسب. ، بل الى

قلعته الحصينة . وكان جيون سليل هيوم فى الفلسفة ، وتلميذ الذى بزّه فى التاريخ . وفى ألمانيا أيقظ كتابه « تحقيق فى الفهم البشرى » كانط من « سيّاته الدجماطيقى » بما بدا من تقويضه لكل العلم والميتافيزيقا والملاهوت عن طريق تشككه فى موضوعية العلة . ويعد أن قرأ كانط مخطوطة الترجمة التى قام بها هامان لكتاب « الحوارات حول الدين الطبيعى » أدمج فى اعداده النهائى لكتابه « نقد العقل الخالص » (١٧٨١) انتقادات هيوم للحجة القائمة على القصد ، واعتبر هذه الانتقادات مستعصية على الرد (١٥٥) .

وقد كتب هيوم يقول « أتمنى أن يكون حظى - لأجلى ولأجل اصدقائى جميعا - أن أقف دون عتبة الشيوخوخة فلا أوغسل فى ذلك الاقليم الكئيب (١٥٦) . واستجاب له الحظ . تقول ترجمته الذاتية :

« فى ربيع ١٧٧٥ أصبت بأضطراب فى أمعائى لم يفزعنى لأول وهلة ، ولكنه أصبح بعد ذلك ، كما خشيت ، قتالا لا شفاء منه . وانى الآن لأعلق أملى على الانحلال السريع . لقد عانيت الما طفيفا جسدا من اضطرابى هذا ، وأعجب من ذلك أننى برغم التدهور الشديد الذى ألم بيبنى ، لم أعان قط ولو للحظة واحدة أى هبوط فى معنويتى ، بحيث لو طلب الى أن أسمى فترة حياتى التى أوثر أن أعيشها من جديد فربما أغربت بأن أسمى هذه الفترة الاخيرة . فعندى الحماسة ذاتها التى الفتها فى الدرس ، والمرح فى صحبة الاخوان ، ثم اننى أحسب أن الرجل اذا مات وهو فى الخامسة والستين انما يوفر على نفسه بضع سنين من العلل والاسقام (١٥٧) » .

واثمر عليه الاسهال ، ذلك الانتقام الاثير لذى الالهة من عظماء البشر ، مع النزيف الداخلى ، فهبطا بوزنه سبعين رطلا فى عام واحد (١٧٧٥) . وكتب الى الكونتيسة بوفليه يقول « انى أرى الموت يدنو شيئا فشيئا دون أن أشعر بقلق أو أسى . أحبيك بكثير من الود والاحترام لآخر مرة (١٥٨) » وذهب للاستشفاء بالمياه المعدنية فى باث ، فلم تجد فتىلا فى التهاب المعى الغليظ المقرح الزمن . ولكن ذهنه ظل هادئا صافيا .

وعاد الى ادنبره فى ٤ يوليو واستعد للموت « بالسرعة التى يشتهيها أعدائى ان كان لى أعداء ، واليسر واليشاشة اللذين يتمناهما لى أصدقائى (١٥٩) » فلما قرأ فى كتاب لوكان « حوارات الموتى » مختلف الاعذار التى تذرع بها المحتضرون لشارون حتى لا يستقلوا قربه من فورهم ليعبر بهم نهر الجحيم الى الأبدية ، لاحظ أنه لا يستطيع أن يجد عذرا يناسب حالته الا بأنه قد يقول متوسلا « قليلا من الصبر اى شارون الطيب . لقد كنت أحاول فتح عيون الجماهير . فلو عشت بضع سنين أخر لطببت نفسا بأن أرى سقوط بعض مذاهب الخرافة السائدة » . ولكن شارون أجاب « أيها الوغد المتلكىء ، لن يحدث هذا ولو بعد مئات السنين . أتتوهم أننى مانحك فسحة طوال هذه السنين ؟ فادخل الزورق، اذن من فورك » .

أما بوزويل ، الملحاح الوقح ، فقد أصر على توجيه هذا السؤال الى الرجل المحتضر - أيؤمن الآن بحياة آخرة؟ « وأجاب هيوم « انه لوهم غير معقول للغاية أن نعيش الى الأبد » . وثابر بوزويل على الحاحه قائلا « ولكن من المؤكد أن فكرة الحياة المستقبلية تسر النفس ؟ » وأجاب هيوم « أبدا ، انها فكرة كثيبة جدا » . وأقربت النساء ورجونه أن يؤمن ، فصرفهن عن الموضوع بمزاحه (١٦١) .

ومات فى هدوء ، « بغير ألم كثير » (كما قال طبيبه) فى ٢٧ أغسطس ١٧٧٦ . ومشي فى جنازته جمع غفير برغم هطول المطر الغزير . وسمع صوت يقول « كان كافرا » ، وأجاب صوت آخر « لا يهم ، فلقد كان رجلا أميننا (١٦٢) » .

الفصل الخامس

الادب والمسرح

١٧١٤ - ٥٦

١ - دولة القلم

كانت انجلترا تشغى بالطباعة على الاقل ان لم تشغ بالادب .
فضلا عن زيادة سكانها ، لا سيما فى المدن وخصوصا فى لندن ، كان
الامام بالقراءة قد انتشر بينهم باعتباره ضرورة للتجارة والصناعة وحياة
المدينة . وعكفت البورجوازية المزدهرة على قراءة الكتب تميزا
وترويجا ، وعكفت النساء على الكتب فوفرن القراءة والحوافز
لترشدن والرواية . وزاد من جمهور القراء المكتبات الدائرة ، التى
انشىء اول مكتبة فيها يعيها التاريخ المدون فى ١٧٤٠ ، وسرعان ما اصبح
عددنا اثنتين وعشرين فى لندن وحدها . وبدأت الطبقة الوسطى الجماعية
تحل محل الطبقة الارستقراطية الفردية بوصفها راعية للادب ، وهكذا
استطاع جونسن أن يهزأ بشسترفيلد . ولم تعد الاعانات الحكومية تتحكم
فى كبار الاقلام بالمغريات السياسية - كما حدث من قبل مع اديسون
وسويفت وديفو .

وشحذت شهية الجمهور للاخبار تلك الصراعات المرة بين الاحرار
والمحافظين ، وبين الهانوفريين والاستيوارتيين ، وتورط انجلترا
المتزايدة فى الشئون الاوربية والاستعمارية ، واصبحت الجريدة قوة
يعتد بها فى تاريخ بريطانيا . ففي ١٧١٤ كان هنالك احدى عشرة
جريدة تصدر بانتظام فى لندن ، واكثرها اسبوعى ، وفى ١٧٣٣ زادت
الى سبع عشرة ، وفى ١٧٧٦ الى ثلاث وخمسين . وكان كثير منها تعينه
الاحزاب السياسية ، فكلما رفع الشعب صوته اشترت الاقليات الموسرة
الجرائد لتعلمى افكارها . واشتملت كل الجرائد تقريبا على اعلانات .
وخصصت « الدبلى ادفرتيزر » التى اسست فى ١٧٣٠ اول الامر

للاعلانات دون سواها ، ولكنها سرعان ما أضافت عنصرا مثيرا من الأبناء ، كما تفعل جرائدنا الصباحية العملاقة ، لدعم توزيعها وزيادة أجور اعلاناتها . وولدت فى هذه الفترة بعض المجلات الهامة مثل « الكرافتسمان » (١٧٢٦) وهى السوط الذى راح بولنبروك يسوط به ولبول ، ومجلة « جراب ستريت » (١٧٣٠ - ٣٧) ، وهى لسان بوب الحاد ، ومجلة « الجنتلمان » (١٧٣١) التى أعطت جونسون وظيفة فيها ، ومجلة « أدنبره » (١٧٥٥) التى ماتت الى أجل فقط فى ١٧٥٦ . وكثير من الجرائد والمجلات الانجليزية مازال حيا بعد مضي مائتى عام على صدوره .

هذه الدوريات كلها - اليومية أو الأسبوعية أو الشهرية - أعطت المطبعة قوة أضاعت الى مخاطر الحياة البريطانية وحيويتها . ومع أن روبرت ولبول حظر نشر المناقشات البرلمانية ، فانه أباح للصحفيين ان يهاجموه بكل ما فى أدب القرن الثامن عشر من قسوة وخبث . وقد عجب مونتسكيو القادم من فرنسا التى فرضت عليها رقابة المطبوعات ، لتلك الحرية التى كانت صحيفة « جراب ستريت » تقذف بها داوننج ستريت (مقر الحكومة) بالمداد المسموم (١) . وشكا عضو فى البرلمان الى مجلس العموم فى ١٧٣٨ من أن : « شعب بريطانيا العظمى تحكمه قوة لم يسمع بها قط من قبل ، باعتبارها السلطان الاعلى ، فى أى عصر أو بلد . وهذه القوة يا سيدى لا تكمن فى ارادة الملك المطلقة ، ولا فى توجيه البرلمان ، ولا فى قوة جيش ، ولا فى نفوذ الاكليروس ، انها حكومة الصحافة . فالبضاعة التى تحفل بها صحفنا الأسبوعية يتقبلها الشعب باحترام يفوق احترامه لقوانين البرلمان ، وآراء هؤلاء الكتاب التافهين لها عند الجماهير وزن أثقل مما لرأى خيرة السياسيين فى المملكة (٢) » .

وراح الطباعون يعملون بحماسة جديدة ليلبوا الطلب المتزايد فكان فى لندن ١٥٠ منهم ، وفى انجلترا كلها ثلاثمائة ، اثنان منهم فى هذا العهد - وهما وليم كاسلون وجون باسكرفيل - خلفا أسميها على طقم حروف طباعية . وظل الطبع والنشر وبيع الكتب فى معظم الحالات موحدا فى شركة واحدة . ومن الشركات الباقية الى يومنا شركة لونجمان التى ولدت فى ١٧٢٤ . وكانت كلمة « publisher

الناشر « تدل عادة على المؤلف ، أما الذى يخرج الكتاب فهو بائع الكتب أو تاجرها bookseller . وألف بعض باعة الكتب ، كأبى جونسن ، أن يحملوا بضاعتهم الى الاسواق ، أو يسرحوا بها من مدينة الى مدينة ، ويفتحوا كشكا فى أيام السوق ، وكان الثمن الذى يطلبونه عن كتاب مجلد يتفاوت بين شلنين وخمسة ، ولكن الشلن عام ١٧٥٠ كان يساوى دولارا وربعا تقريبا . وكان البرلمان قد أقر قانونا بحقوق الطبع فى ١٧١٠ ، وكفل للمؤلف أو من يخصصهم حقوق الملكية فى كتابه أربعة عشر عاما ، تمتد الى ثمانين وعشرين عاما اذا عمر بعد الفترة الاولى . على أن هذا القانون لم يحمه الا فى المملكة المتحدة ، وكان فى استطاعة الطباعين فى ايرلندا وهولندا أن ينشروا طبعا مسروقة ويبيعوها (حتى ١٧٣٩) فى انجلترا منافسين بذلك بائع الكتب الذى دفع ثمن الكتاب .

فى هذه الظروف المنطوية على المجازفة تشدد باعة الكتب فى مساوماتهم مع المؤلفين . وكان الكاتب يبيع حقه فى الكتاب عادة بمبلغ محدد ، فاذا راج الكتاب على غير توقع فقد ينفخ البائع المؤلف بمبلغ اضافى ، ولكن هذا لم يكن لزاما عليه . أما ثمن الكتاب الذى يؤلفه مؤلف معروف فكان يتفاوت بين مائة ومائتى جنيه . وقد تسلم هيوم خمسمائة جنيه ثمنا للمجلد من كتابه « تاريخ انجلترا » وهو ثمن مرتفع ارتفاعا استثنائيا . وكان للمؤلف الحق فى قبول الاكتنابات لكتابه ، كما فعل بوب فى ترجمته للالياذة ؛ وفى هذه الحالات كان المكتتب يدفع عادة نصف ثمن الشراء سلفا ، والنصف الثانى عند تسلمه الكتاب ، وكان المؤلف يتولى الدفع للطابع .

وعاشت الكثرة العظمى من المؤلفين فى فقر مسخط . من ذلك أن سيمون أولكى ، الذى ظل عاكفا عشر سنوات على تأليف كتابه « تاريخ المسلمين » (١٧٠٨ - ٥٧) ، اضطر الى استكماله فى سجن المدينين ؛ وكان رتشارد سفدج يتسكع فى الشوارع ليلا لافتقاره الى مسكن ، وظل جونسون ثلاثين عاما يعانى مرارة الفقر قبل أن يصبح أمير الادب الانجليزى . وكان شارع جراب (شارع ملتن الآن) الموطن التاريخى « للشعر والفقر » (كما قال جونسن) ، حيث الكتاب الماجورون -

من صحفيين ، مترجمين ، ومصنفين ، وقراء تجارب الطبع ، وكتاب المقالات للمجلات ، ومحققين - ينمون ثلاثة فى فرائش واحد ويرتدون البطاطين لافتقارهم الى غيرها من الملابس . ولم تكن العلة فى هذا الفقر شح باعة الكتب وعدم الكثرات ولبول بقدر ما كانت اتخام السوق الادبية اتخاما لم يسبق له نظير بأصحاب المواهب الهزيلة ينافس بعضهم بعضا فى قبول الأجور المنحطة . وشارك طغيان حالات الاخفاق على حالات الفلاح فى المال والأعمال ، مع انسلاخ الأدب عن الحماية الارستقراطية ، على الحط من المكانة الاجتماعية للمؤلفين . وفى الوقت الذى كان فيه الشعراء والفلاسفة والمؤرخون فى فرنسا يستقبلون بالترحيب فى أروع البيوت والصدور ، كانوا فى انجلترا - باستثنائين أو ثلاثة - يقصون عن « المجتمع المذهب » باعتبارهم بوهيميين غير مغتسلين . وربما كان هذا هو السبب فى أن كونجريف رجا فولتير ألا يدرجه فى زمرة الكتاب . وقد تحدى الكسندر بوب تحيزات عصره بادعائه أنه شاعر وجنتلمان معا . وقد عنى بكلمة جنتلمان الرجل « الكريم المولد » لا الرجل الكريم السلوك . ولكن الأمر كان على النقيض !

٢ - الكسندر بوب : ١٦٨٨ - ١٧٤٤

يستهل جونسن ، الذى كان يحتقر الترجمات التى تبدأ بنسب صاحبها وتنتهى بمأتمه ، ترجمته المتعازة لبوب بانباثنا أن « الكسندر بوب ولد بلندن فى ٢٢ مايو ١٦٦٨ ، لأبوين لم يتحقق أحد قط من مرتبتهما أو مركزهما (٣) » . أما أبوه فتاجر كتان جمع ثروة متواضعة ثم اعتزل فى بنفيلد قرب غابة ونزر . وكان أبواه كلاهما يتبعان المذهب الكاثوليكي الرومانى ، والسنة التى ولد فيها بوب كانت أيضا السنة التى حطم فيها خلع جيمس الثانى أمال الكاثوليكية فى تخفيف القوانين المعادية للكاثوليك . وخصت الأم الصبى الذى كان وحيدها بكثير من الترفق ، وقد ورث عنها استعدادا للصداع ، وعن أبيه تقوسا شديدا فى عسوده الفقرى ، فلم يزد طوله على أربعة أقدام ونصف .

وقد عهد بتعليمه الأول الى القساوسة الكاثوليك ، فاعانوه على اجادة اللاتينية ، واليونانية بقدر أقل ، وعلمه معلمون خصوصيون

آخرون الفرنسية والايطالية ، واذ اقفلت فى وجهه الجامعات والمهن المراقية بسبب مذهبه ، فقد واصل دراساته فى البيت ، فلما عاقه جسمه المحدودب وصحته الهشة عن العمل النشيط ، ترك أبواه «العنان لولعه بكتابة الشعر . يقول :

« كنت وأنا بعد طفل ، لم تغرر بى الشهرة بعد ،
الثنج ببهور الشعر ، لأن بحوره وافتنى طوعا (٤) » .

وحين بلغ الثانية عشره أتيحت له نظرة خاطفة الى درايدن يحتل مكان الصدارة فى مقهى ولز ، وأثار المنظر فيه رغبة عارمة فى المجد الأدبى . فلما بلغ السادسة عشرة كتب بعض « الرعويات » التى تداولها الناس مخطوطة وحظيت بثناء أدار رأسه ، وقبلت للنشر فى ١٧٠٩ . وفى ١٧١١ ، وبكل الحكمة الناضجة التى احتوتها سنوه الثلاث والعشرون ، أدهش أدباء لندن بقصيدته « مقال فى النقد » نراه - حتى وهو يحذر المؤلفين من أن :

« العلم القليل شيء خطر ؛
فأنهلوا من الأعماق ، والا فلا تذوقوا ينبوع الشعر (٥) »

يضع بحسم القاضى قواعد الفن الأدبى . هنا هضم الشاعر « فن الشعر » لهوراس ، و « الفن الشعرى » لبوالو فى ٧٤٤ بيتا جيدة المعانى هضما عجيبا ، نظمت نظما رائعا ، بالفاظ لا يزيد كثير منها على مقطع واحد - « أفكار طاما خطرت بالبال ، ولكن لم يعبر عنها بمثل هذه الروعة (٦) » .

وكان للفتى ولح « بالابجرام » ، وبضغط جوامع الحكمة فى بيت واحد ، وقفل كل فكرة بقافية . وقد أخذ مذهبه فى النظم عن درايدن ، ونظريته عن بوالو . واذ كان لديه من الفراغ ما يتسع لصقل شعره ، فإنه لم يتردد فى قبول النصيحة الكلاسيكية ، نصيحة تهذيب الشكل وصقله ، وجعل الكاس أثنى من نبيذها . ومع أنه ظل يجهر بكثلكته ، فإنه اعتنق مبدأ بوالو القائل بأن الأدب ينبغى أن يكون العقل مفرغا فى ثوب لائق . أما الطبيعة فنعم ، ولكنها الطبيعة التى روضسها

الانسان ؛ وأما الوجدان فنعم ، ولكنه الوجدان الذى هذبه وصفاه الذكاء . وأى مرشد أهدى الى مثل هذا الفن المحكوم المنحوت من أعمال قدامى الشعراء والخطباء ، وتصميمهم على أن يكونوا عقلانيين ، وعلى أن يجعلوا كل جزء من كل عمل أدبى عنصرا منظما مدمجا فى كل متناغم ؟ هنا التقليد الكلاسيكى ، المنحدر بطريق ايطاليا وفرنسا ، بطريق بترارك وكورنىي ، والذى يغزو الان انجلترا ويقهرها على يد الكسندر بوب ، كما قهر شيكسبير بمسرحية أديسون « كاتو » (فى زعم فولتير) ، وكما كست العمارة الكلاسيكية المنحدرة عن طريق بالاديو وسيرليو ، وعن طريق بارو ورن ، الخيالات القوطية والشطحات الجامحة أو غلبتها بقواصر رزينة وصفوف أعمدة هادئة . وهكذا تكون مفهوم الشاعر الشاب عن العقل الكلاسيكى الذى يعمل فى ناقد مثالى :

« ولكن أين هو الرجل الذى يستطيع أن يحض النصح ،
الذى ما زال يغتبط بأن يعلم ، ومع ذلك لا يطغيه علمه ؟
رجل لا يحرفه رضى ولا يميله حقد ، لا هو منحيز فى غباوة
ولا مستقيم فى عمى ،
مهذب رغم علمه ، مخلص مع تهذيبه ،
جرىء فى تواضع ، صارم فى انسانية ،
يبصر الصديق بعيوبه فى غير تحرج
ويطرى العدو على فضائله وهو مبتهج ،
رجل أوتى ذوقا مدققا دون تزمت ،
وهب العلم بالكتب والبشر جميعا ، محدث سمح ، ونفس
تنزهت عن الكبرياء ،
يحب أن يثنى ثناء يؤيده فيه العقل (٧) ؟ »

وقد وجد نفر من أمثال هذا الناقد ، على استعداد للترحيب بمثل هذا الشعر وهذه الفضيلة المحسوبة من فتى فى الثالثة والعشرين ؛ وعلى ذلك خلع أديسون ، الذى لابد قد شعر أنه المقصود بهذه الأبيات ، على الشاعر فى العدد ٢٥٣ من صحيفته « اسبكتيتور » ثناء عظيما لن يلبث أن ينمى فى معارك الكلام . أما الشاعر جون دنيس ، مؤلف مسرحية

« ترى هل تحطم الحورية (بليندا - أرابيلا) قانون ديانا (قانون العفة) ،

أم أن قاروره هشة من الصيني سيصيبها شرخ ،
أتراها تلوّث شرفها ، أم ثوبها الموشي الجديد ؟
ألتبسي أن تتلو صلواتها ، أم يفوتها عرض بالاقنعة ،
أنضيق قلبها ، أم قلاقتها ، في حفل راقص ٠٠٠ (١) »

وتشارك بليندا في ثمرات جماعة الاشراف ، وقمارهم في هامتن
كورت ، حيث :

« تموت سمعة عند كل كلمة (١١) » :

ويحشد الشاعر براعته الفنية ليصف لعبة ورق . فاذا انحنت بليندا
لتشرب ، قصّ البارون القوى خصلتها وهرب (وهذا السيل المتدفق
من البحر العميقى « الايامبى iambic » يأخذ بالالباب) .
فتطارده وقد أخذ الغضب منها كل ماخذ ، وتعثر عليه ، وتلقى قبضة
من النشوق في وجهه :

« وبغنة تفيض كل عين بالدموع المنهلة

وتردد قبة السماء صدى عطسه (١٢) »

وفى هذه الاثناء يغتصب الاقزام أو السيلفات أو السمندلات الخصلة
ويجرونها وفي اثرها سحب الفخر الى السماوات حيث تصبح نجما منجما
يفوق بريقه تلالو شعر بليندا .

وقد أبهج هذا نبله لندن ونبيلاتها ، وانديتها ومقاهيها .
ويوجد بوب نفسه رجلا يشيد به الناس أبرع شاعر في انجلترا ، وغدا
كل من عداه من الشعراء خصوما له . ولم يصف جديدا لشهرته بالابيات
المملة التي وصف بها غابة ونزر (١٧١٣) ، كذلك لم ينس
له الاحرار بعد انتصارهم في ١٧١٤ أنه في تلك القصيدة
كشف عن ميوله الكاثوليكية نحو الاسرة المالكة التي سقطت (١٣) .
ولكنه عاد فاسر جمهوره في ١٧١٧ بنظمه في مقطوعات من بيتين

« أببوس وفرجينيا » فقد خيل اليه أنه المذموم فى اببيات بوب
الطائشة :

« ولكن أببوس يحمر لكل كلمة تقولها
ويحملق حملقة رهيبة بعين مهددة
وكانه طاغية متوحش مرسوم على قطعة نسيج قديمة (٨) »

فرد عليها بكتابة « تأملات نقدية وهجائية » (١٧١١) . وقد
انتقى عيوباً حقيقية فى فكر بوب وأسلوبه ، وعرضها فى اطار مقذع .
فوصف بوب بالمنافق القبيح الذى خلق على شكل قوس كيوييد أو ضفدع
أحذب ، وهناه على أنه لم يولد فى اليونان القديمة ، والا لالقت به
عارباً بعد ولادته لقبحه (٩) . ولحق بوب جراحه وترتب فرصته .

ثم تابع نجاحه بنشر قصيدته « اغتصاب خصلة شعر » (١٧١٢)
وكانت تقليداً سافراً لقصيدة بوالو Le Lutrin المقرأ (١٦٧٤) ،
ولكن الناس أجمعوا على أنها فاقت أصلها . وخلاصة الموضوع أن اللورد
روبرت بيتر أعرب عن تحمسه للمسز أرابلا فيرمر بقصه خصلة من
شعرها الجميل وهروبه بها ، وقلا ذلك فتور بين الغاصب والمغتصبة .
واقترح رجل يدعى كاريل على بوي أن أرابلا قد يهدأ سخطها اذا قص
الشاعر القصة فى شعر مازح وقدم لها القصيدة . وهكذا فعل ، وهكذا
انتهى الأمر . فصفحت المسز فيرمر عن اللورد ، ووافقت على نشر
القصيدة . ولكن بوب وسع الخطة ، مخالفا نصيحة أديسون ، وكدسها
بعده من الشعر الملحمى - الهزلى ضمت الكائنات الخرافية : السيلفات،
والسمندلات ، والهوريات ، والأقزام المشاركة فى الملحمة ؛ وراقت هذه
« المليشيا الخفيفة للسماء السفلى » خيالات العصر وميوله ، ولقيت
قصيدة « الاغتصاب » المعدلة استحسان الجميع الا الشاعر دنيس .
وتوقف جورج باركلى فى حملته على المادة ليهنئ المؤلف على لدونة
ربة شعره . ولباقة بوب النظمية كلها ، ومعين أخيلته وعباراته الذى
لا ينضب ، يجعلان القصيدة تتالق تالق الأحجار الكريمة التى رصعت
بها الحسناء « بليندا » شعرها . وهو يصف بخبرة النساء مستحضرات
التجميل التى يسلح بها أحد الجان البظلة لحروب الغرام ، ويعدد فى
مرادفات تهكمية ما سيحفل به يوماً من جلائل الأمور :

مقفيين *couplets* رسائل هلويز وأبيلار المختلقة . فنرى
« الويزا » التي حبست نفسها فى دير للراهبات تطلب الى أبيلار المخصي
أن يضرب بقوانين الكنيسة والدولة عرض الحائط ويأتى الى حضنها :

« تعال ان جرؤت بكل ما فيك من فتنة !
تحد السماء ، وطالب بقلبي ،
تعال ، وينظرة واحدة من تلك العيون المضللة
امح كل فكرة ذكية من أفكار السماء . . .
اخطفنى ، وأنت تهمّ بامتطاء جوادك ، من مسكنى المبارك ،
أعن الاصدقاء ، وانتزعى من الهى ! »

وفى نزوة أخرى تقول له :

« لا ، أبعد عنى بعد المشرقين ،
لترتفع جبال الالب حاجزا بيننا ! ولتهدر محيطات بأسرها !
أواه ، لا تات ، ولا تكتب ، ولا تفكر فى ولو مرة ،
ولا تشاركنى وخزة واحدة من وخزات الالم الذى ذقته لأجلك (١٤) » .
ومع ذلك تثق أنه آت اليها فى ساعة احتضارها ، لا عاشقا
بل كاهنا :

« ليتك نقف فى ثياب مقدسة
والمشعل المقدس يرتعش فى يدك
وتمد الصليب أمام عيني التى تهفو اليك ،
وتعلمنى وتعلم منى الموت (١٥) » .

وكان بوب يحلم ككل شاعر فى زمانه بأن ينظم ملحمة ، ولقد بدأ
كتابة ملحمة وهو بعد فى الثانية عشرة . فلما شب ودرس هومر خطر له
أن يترجم الاللياذة الى ذلك المقطوعات ذات البيتين المقفين التى كانت
تكون منطقته الذى فطر عليه . واستشار أشدقاه فأمذوا على الفكرة .
وقدمه أحدهم وهو جوناثان سويغت الى هارلى وبولنبروك وغيرهما
من كبار رجال الحكومة أملا فى أن يحصل له على وظيفة شرفية يرتزق
منها . فلما أخفق فى هذا تكفل بأن يجمع له اكتتابات تعول «الكسندر»
الجديد وهو يطفر بشعره فوق طرواده . واذ كان سويغت فى موقع

استراتيجى بين طلاب الوظائف والكهنوت ، فقد أعلن أن « أفضل شعراء انجلترا هو المستر بوب ، بابوى بدأ ترجمة لهومر بالشعر الانجليزى ، لا بد له ليكملها من أن يكتبوا فيها جميعا ، لأن المؤلف لن يبدأ الطبع حتى أجمع له ألف جنيه ! (١٦) » . واقترح بوب أن يترجم الالياذة فى ست مجلدات من قطع الربع ، ثمن كل المجموعة منها ستة جنيهات (١٨٠ دولارا ؟) . وأقبلت الاكتتابات تترى رغم هذا الثمن الغالى ، واشتدت الحماسة للمشروع حتى أن برنارد لنتو تاجر الكتب وافق على أن ينقد بوب مائتى جنيه لقاء كل مجلد ، وأن يقدم له نسخا مجانية لمكتبيته . وبما أن المكتبتين (وعددهم ٥٧٥) أخذوا ٦٥٤ مجموعة ، فان بوب كسب ٥٣٢٠ جنيها (١٤٨٩٦٠ دولارا ؟) ثمنا للالياذة ، وهو مبلغ لم يظفر بمثله مؤلف فى انجلترا الى ذلك الحين . وظهر المجلد الأول المحتوى على أربعة أقسام فى ١٧١٥ . وقد لقى منافسه غير متوقعة بسبب نشر ترجمة فى اليوم ذاته للقسم الأول بقلم توماس تيكل . وأثنى اديسون على ترجمة تيكل ، التى اعتقد بوب أنها ليست فى الحقيقة الا بقلم اديسون ، وأحس أن نشرها فى آن واحد مع ترجمته عمل غير ودى ، فأضاف اديسون الى قائمة أعدائه .

ولو كان التفقه فى العلم هو المحك الوحيد لما استحقت ترجمة بوب ثناء يذكر . فعلمه باليونانية متواضع ، وقد اضطر الى الاستعانة بالشرح المدرسيين ، وأنجز أكثر مهمته بالمضاهاة بين الترجمات السابقة واعادة صياغتها بالأبيات الزوجية المقتفاة من البحر الايامبى (العمبى) الخماسى التفاعيل *iambic — pentameter couplets* التى برع فيها . فاما بنتلى ، أمير علماء الدراسات اليونانية الاحياء يومها ، فقد أصاب فى حكمه على هذا الاداء : « قصيدة لطيفة يا مستر بوب ولكن يجب ألا تسميها هومر (١٧) » فالأبيات الزوجية ونقر قوافيها الشبيه بنقر الطبل ، والعبارات والفقرات والطباقات المتوازنة ، هذه كلها عطلت أسلوب الشعر الاغريقى السداسى التفاعيل ، الأسلوب السريع المتدفق . ومع ذلك كان هناك فخامة زاحفة ، ومعين زاهر من اللغة ، فى تلك الأبيات التى ساقها الشاعر على نحو معجز ، عبرا بها - رغم اعتراضات بنتلى - الى القرنين الثامن والتاسع عشر ، كآحب م ١٦ - قصة الحضارة

ترجمة للبايظة . قال فيها جوتسن « انها أسى ترجمة للشعر شهدها العالم الى اليوم (١٨) » وقال جرائ انه لن تضارعهما أية ترجمة أخرى (١٩) . كذلك كان رأى انجلترا الى أن أجل كيتس بصره فى ترجمة تشابمن لهومر ، واستمطر وردزورت اللعنة على الأسلوب المصطنع الطنان الذى أبهج الكثيرين جدا فى عصر انجلترا الاوغسطى .

ونشرت الياظة بوب فى ١٧١٥ م ٢ : ، وأتى نجاحها بتجار الكتب المتنافسين الى بابيه . ورجاه أحدهم أن يعلق على طبعه حديثه لمسرحيات شكسبير ، فوافق بغباوة ، غافلا عن الهوة التى تفصله عن شكسبير عقلا وفنا . وراح يكذ ويكده بصبر ذاهب فى تلك المهمة التى لا تلائمه ، وظهرت الطبعة فى ١٧٢٥ ، وما لبث لويس ثيوبولد ، أقدر المتخصصين فى دراسة شكسبير يومها ، أن أوسعها طعنا لقصورها ، فصلبه بوب فى قصيدته « الدنسيادة » (أى ملحمة المغفلين) .

وأقنعه لنتوت أثناء ذلك بأن يترجم الاوديسة ، عارضا عليه مائة جنيته ثمنا لكل مجلد من مجلداتها الخمسة ، وأخذ المكتتبون ٨١٩ مجموعة ، ولكن بوب ، وقد افتقد الآن حافز الشباب والحاجة ، سئم نحت مقطوعاته ، وعهد بنصف العمل الى دارسين من كمبردج لم يطل بهما الوقت حتى تعلمتا محاكاة أسلوبه . وكان قد نبه المكتتبين سلفا الى انه سيستخدم معاونين له ، ولكنه حين نشر الاوديسة (١٧٢٥ - ٢٦) . - التى قصرت كثيرا عن الياظته - نسب الى مساعديه هذين الفضل فى خمسة كتب من الكب الأربعة والعشرين ، فى حين أنهما ترجما اثنى عشر كتابا فى الواقع (٢٠) . ونقدهما ٧٧٠ جنيها ، أما هو فبلغ صافى ربحه ٣٥٠٠ جنيه ، اذ شعر بحق أن اسمه هو الذى باع الكتاب . وكفلت له الترجمات الاستقلال المالى ، فقال ان فى وسعه الآن « بفضل هومر أن يعيش ويزكو غير محين لانسان أميرا كان أو نبيلاً (٢١) » .

وفى ١٧١٨ اشترى فيللا فى تويكنهام وحديقة مساحتها خمسة أفدنة تنحدر الى نهر التيمز . وصمم الحديقة بالطراز الطبيعى ، معحاشيا الرقابة الكلاسيكية التى مارسها فى شعره . وقال « ان الشجرة شئ أنبل من الملك فى ثياب تتويجه (٢٢) » . وحفر له من بيته نفق

تحت شارع معترض ليخرج منه الى الحديقة ؛ وزين هذه « المغارة » زينة حاملة فيها الأصداف ، والبللورات ، والمرجان ، والمتحجرات ، والمرايا ، والمسلات الصغيرة . فى هذه الخلوة اللطيفة للجو استضافا الكثير من الأصدقاء المشهورين - سويفت ، وجرى ، وكونجريف ، وبولنبروك ، وأربنتوت ، والليدى مارى ورتلى مونتاجيسو ، والأميرة كارولين ، وفولتير . وكانت الليدى مارى جارتة فى حى أطلقا عليه اسم « تويتنام » ؛ وكان بولنبروك يسكن دولى على مقربة منه ، ولندن لا تبعد أكثر من أحد عشر ميلا فى نزهة لطيفة بالقرب على التيمز ، وأقرب منها القصور الملكية فى رتشموند ، وهامتن كورت ، وكيو .

وانضم الدكتور جون آربنتوت ، الذى أضى كتابه « تاريخ جون بول » (١٧١٢) على انجلترا شخصية واسما ، الى سويفت ، وكونجريف وجرى ، وبوب ، فى نادى سكريليروس الشهير (١٧١٣ - ١٥) ، الذى كرس للتهكم على كل ضروب الدجل والعجز ، وأضيف كل ضحاياهم الى القائمة المتعاطمة من خصوم بوب . وكان له مع الليدى مارى مغامرة اختلط فيها الواقع بالأدب وانتهت بعداوة مرة . وسأكنه سويفت أحيانا ، كما حدث أيام نشره « رحلات جلفر » (١٧٣٦) ، وتبادل الاثنان بغضهما للبشر ، وبعض الرسائل التى كشفت عن رقة مخبوءة تحت دروعهما القاسية (٢٣) . أما معرفة بوب ببولنبروك فقد بدأت حوالى ١٧١٣ ، وتطورت الى تأثير فلسفى . وقد أثنى الواحد منهما على صاحبه ثناء يبعث على الغثيان لغسلوه ، فقال بوب « أعتقد حقيقة أن فى ذلك الرجل العظيم شيئا يبدو أنه وضع هنا خطأ من عالم أعلى » ، وقال بولنبروك وبوب يحتضر « لقد عرفته هذه السنين الثلاثين ، ويزيد تقديرى لنفسى بسبب حبى لهذا الرجل » - وهنا خانه صوته كما تقول القصة (٢٤) .

ولا بد أنه كان هناك شيء يحب فى هذا الشاعر الذى صورته الرواية المتواترة ، بل صورته قلمه هو أحيانا ، انسانا مشاغبا خداعا خسيسا مغرورا . وينبغى أن نذكر دائما أنه كان مغرورا - وله العذر - بسبب ما استشعره كل يوم من مذلة عجزه البدنى . لقد كان فى صباح جميل الصورة ، لطيف الطبع ، وقد ظل وجهه دائما جذابا ، ولو

لمجرد توقد عينيه . ولكنه كلما شب أصبح تقوس عموده الفقري سافر بصورة أكثر ايلاما له . وقد وصف نفسه بأنه « مخلوق قصير ، كله حيوية ، طويل الساقين والذراعين ، لا تخطيء اذا رمزت له بالعنكبوت ، وقد حسبه البعض على بعد طاحونة هواء صغيرة (٢٥) » . (ويذكرنا هذا بسكارون المسكين) . فاذا جلس الى المائدة وجب أن يسند على مقعد عال كالطفل ليحاذى غيره . وكان يحتاج الى من يخدمه طوال الوقت تقريبا . وما كان في استطاعته أن يمضي الى فراشه أو ينهض منه دون أن يعان عليه ، ولا أن يرتدى ثيابه أو يخلعها بنفسه ، وكان يجد مشقة في الاحتفاظ بنظافة جسمه . فاذا نهض لم يستطع أن ينصب عوده حتى يشده خادمه الى صدره من القنب المقوى ، وبلغ من نحافة ساقيه أنه كان يلبس ثلاثة جوارب طويلة ليضخمهما ويدفئهما ، وكان بسبب حساسيته الشديدة للبرد يرتدى « نوعا من الصدر الضيقة المصنوعة من الفراء » ، تحت قميص من الكتان الثقيل الخشن . وقل أن عرف لذة العافية . وقد قال عنه اللورد باثورست أنه كان يشكو الصداع أربعة أيام في الأسبوع ، ويمرض في الثلاثة الباقية . ومن المعجز أن استطاع جوناثان رتشردن أن يرسم لبوب لوحة بمثل هذه الطلعة الحسنة (٢٦) - كلها تيقظ وحساسية ، ولكننا نستطيع في التمثال النصفى الذى صنعه له روبياك أن نتبين الجسم المعذب يعذب العقل .

ومن القسوة أن نتوقع من رجل كهذا أن يكون هادىء الطبع ، أو لطيفا ، أو بشوشا ، أو رقيقا . فلقد أصبح شأن كل عليل نزقا ، كثير المطالب ، نكد المزاج . ونذر أن تجاوز في ضحكه الابتسامة ، واذ حرم كل فتنة الجسد ، فقد عزى نفسه بكبرياء المقام وغرور الفكر . وكما يفعل حيوان ضعيف أو جريح ، وكما يسلك فرد من أقلية مظلومة ، تعلم المكر والمراوغة والدهاء ، وما لبث أن تعلم الكذب ، لا بل ممارسة الخيانة مع أصدقائه . وتملق النبلاء ، ولكنه ترفع عن كتابة الاهداءات التى تستهدف الكسب . وكان فيه من الشجاعة ما حصله على رفض معاش عرضته عليه حكومة يحقرها .

ونحن نرى في حياته الخاصة بعض الخلال الجديرة بالحب . قال سويغت عنه أنه « أعظم من عرفت أو سمعت عنه من الأبناء قايما

بواجبهم نحو آبائهم (٢٨) » . فلقد كان حبه لأمه أظهر عاطفة وأبقاها من عواطف روحه المضطربة . كتب فى عامها الحادى والتسعين يقول ان صحبتها اليومية جعلته لا يحس أى افتقار الى علاقات عائلية أخرى . وكانت أخلاقياته الجنسية أفضل تطبيقا منها كلاما ؛ ولم يكن هيكله يصلح للزنا ، ولكن لسانه وقلمه كان فى وسعهما أن يكونا اباحيين الى حد مقزز (٢٩) . وحتى فى رسائله للمراتين اللتين ظن أنه يعشقهما كان يكتب بتحرر مفرط لا تطيقه اليوم سوى بغى . ومع ذلك فان احداهما ، وهى مرتا بلاونت ، أحببت الشاعر العاجز حبا حسبه المنفولون علافة أئمة . وفى ١٧٣٠ وصفها بأنها « صديقة ... كنت أتفق معها كل يوم ثلاث ساعات أو أربعا طوال هذه السنين الخمس عشرة (٣٠) » . وبات هى شيخوخته المبكرة معتمدا على محبتها ، وأوصى لها بكل تركته الكبيرة تقريبا .

وإذ كان دائم الوعى بعيوبه البدنية ، فقد كانت تكويه كيا كل كلمة تنقد خلقه أو شعره . لقد كان العصر عصرا يغلب عليه حب الثار فى معاركه الأدبية ، وكان بوب يرد على السباب بسباب لا يصح طبعه أحيانا . وفى ١٧٢٨ حشد خصومه ونقاده فى زريبة شعره ، وأطلق عليهم كل سهام غضبه فى أقوى أعماله الأدبية وأبلغها إيذاء . ولم ينشر اسمه عليه ، ولكن كل لندن القارئة استشفت توقيعه فى أسلوب الكتاب . وسيرا على الطريق الوعر الذى سلكته من قبل قصيدة درايدن « ماك فلكنو » (١٦٨٢) ، أشادت قصيدة بوب « الدنسيادة » بكتابة جراب ستريت أقطابا للمغفلين فى بلاط الغباء الذى يتربع ثيوبولد على عرشه . وقد بكى على موت رن وجرى ، وعلى اقضاء سويفت فى منفاه الارلندى ، حيث يموت « كفار مسموم فى حجر » يعنى كتدرائية دبلن . أما عن الباقيين فلم ير من حوله الا عجزة فاسدين لا طعم لهم ولا مذاق . وتلقى ثيوبولد ، ودنيس ، وبلاك مور ، وأوزبورن ، وكزل ، وكيبير ، وأولد مكسون ، وسميدلى ، وآرنل - كل فى دوره جزاءهم من الجلد والتهمك والقدز - ولا غرو فقد كان للشاعر ولع بالقذارة ، ربما لأن هذه صفة تلازم العجز البدنى (٣١) .

وفى طبعة لاحقة ذكر بوب فى ابتهاج ، على لسان الشاعر سفنج ، كيف أن حشدا من الكتاب حاصروا تاجر الكتب فى تاريخ نشر القصيدة

أول مرة ، وهددوه بامتعمال العنف معه اذا نشرها ، وكيف أن هذا جعل الجمهور أشد تهاافتا على النسخ ، وكيف أن الطبعة تلو الطبعة كانت تطلب وتنفذ ، وكيف أن الضحايا ألفوا أندية ليكتلوا النار من بوب ، وصنعوا دمعة على صورته وأحرقوها . وجاء ابن دنيس بهراوة ليضرب بوب ، ولكن اللورد باثورست صرفه عنه ، وبعدها ظل بوب حينما يأخذ معه في جولاته مسدسين وقلبه الدنمركى الضخم . ورد عليه عدد من ضحاياه بكتيبات ، وبدأ بوب وأصحابه (١٧٣٠) « مجلة جراب ستريت » ليواصلوا الحرب . وفي ١٧٤٢ أصدر جزعا رابعا من « ملحمة المغفلين » ، هاجم فيه المريين وأحرار الفكر تعطشا لخصوم جدد - هؤلاء الذين يفخرون قائلين :

« أننا نتخذ في فخر ذلك الطريق الاعلى
ونجادل هابطين حتى نشك في الله ،
ونجعل الطبيعة تعدو على قصده ،
وندفعه الى أبعد ما نستطيع . . .
أو ، بوثية واحدة تقفز فوق كل قوانينه ،
نجعل الله صورة للإنسان ، والانسان العلة النهائية ،
ونجد الفضيلة شيئا محدودا ، ونحتقر كل الصلات ،
نرى الكل في أنفسنا ، واننا لم نولد الا لأنفسنا ،
لا نوقن بشيء يقيننا بعقولنا ،
ولا نتشكك في شيء تشككنا في الروح والإرادة (٣٢) » .

وواضح أن بوب كان ينقب في الفلسفة ، وليس مع بولنبروك وحده ؛ فقد صدرت رسالة هيوم « في الطبيعة البشرية » في ١٧٣٩ ، قبل هذا الجزء الرابع من « ملحمة المغفلين » بثلاث سنوات . وهناك بعض الأدلة على أن الفيكونت كان قد نقل الى الشاعر ريوبييه شاقتمبرى مشحودة بحكمة الدنيا (٣٣) . وقال له بولنبروك ، حسبك هجاء وسفاسف ، ووجه ربة شعرك وجهة الفلسفة الدينية . يقول جوزف وأرتن « لقد أكد لي اللورد باثورست غير مرة أنه قرأ كل خطة « مقال عن الانسان » مكتوبة بخط بولنبروك ، ومفصلة في سلسلة من القضايا كان على بوب أن ينظمها شعرا ويوضحها (٣٤) » . ويبدو

أن بوب فعل هذا ، الى درجة استعماله عبارات بعينها من وضع المتشكك الكبير (٣٥) ، ولكنه أضاف بعض البقايا المنقذة التي تخلفت عن عقيدته المسيحية . وهكذا أصدر « مقاله عن الانسان » فصدرت الرسالة الأولى فى فبراير ١٧٣٣ ، والثانية والثالثة فى تاريخ لاحق من تلك السنة ، والرسالة الرابعة فى ١٧٣٤ . وسرعان ما ترجم المقال الى الفرنسية ، واشاد به أكثر من عشرة فرنسيين باعتباره من المع ما ألف من جوامع الشعر والفلسفة معا .

واليوم يذكر هذا المقال أولاً لما حوى من أبيات يعرفها كل انسان ، فلننصف بوب برؤيتها فى اطار فنه وفكره . وهو يستهلها بمناجاة لبولنبروك :

« استيقظ يا قديسي جون : واترك كل التوافه

للطمع الدنىء وكبرياء الملوك .

وما دامت الحياة لا تستطيع أن تهبنا

غير نظرة فيما حولنا يعقبها الموت ،

فطوف ببصرك حرا فوق هذا المشهد كله ، مشهد الانسان ،

يا له من مقاهة هائلة ، ولكنها ليست بغير خطة ، ..

فلنضرب معا فى هذا الحقل الفسيح ،

ولنضحك حيث يجب الضحك ، ونتصارح حيث نستطيع المصارحة ،

ولكن لنبرر طرق الله مع الانسان (٣٦) » .

هنا بالطبع ذكرى « لالهيات » لبينتس ، « وفرديوس ملتن

المفقود (٣٧) » . ويمضي بوب فيحذر الفلاسفة من أن يؤملوا الفهم أو

يدعوه ، « فهل يستطيع الجزء أن يحتوى الكل ؟ » فلنكن شاكرين

لأن عقلنا محدود ومستقبلنا مجهول :

« فذلك الحمل الذى قضى استهتارك بذبحه اليوم ،

لو أوتى عقلك ، أكان يطفر ويلهو ؟

انه فى ابتهاجه الى النهاية يقضم طعامه اليانع

ويلعق اليد التى رفعت لتريق دمه (٣٨) » .

هاهنا تشاؤم خفى ، فالرجاء لا يمكن أن يبقى حيا إلا بالجهل :

- « فارح فى تواضع اذن ، وحلق بجناحين مرتعشين ،
وانتظر الموت ، ذلك المعلم العظيم ، وأعبد الله .
انه لا يهبك العلم بالنعيم الآتى ،
ولكنه يسمح بأن يكون ذلك الرجاء بركتك الآن .
فالرجاء ينبعث أبدا فى صدر الانسان ،
وهو لا ينعم بالسعادة ، بل لا يفتأ يرجوها أبدا (٣٩) » .

ولا قدرة لنا على رؤية المبرر لما يبدو فى الحياة من مظالم ؛
وعلىنا ان ندرك أن الطبيعة لم تخلق للانسان ، وأن الله لا بد يرتب كل
الاشياء لكل الاشياء ، لا للانسان وحده . ويصف بوب « سلسلة الوجود
الشاسعة » ابتداء من أدنا المخلوقات ومرورا بالانسان والملوك الى الله ،
ويحتفظ بايمانه فى نظام الهى وان خفى عن علمنا :

« ان الطبيعة كلها ليست الا فنا لا علم لك به ؛
وكل المصادفات توجيه لا تستطيع رؤيته ؛
وكل تنافر تناغم غير مفهوم ؛
وكل شر جزئى خير كلى ؛
ورغم ما فى حقد العقل الضال من كبرياء ،
فان هناك حقبة واحدة واضحة ، وهى أن كل الوجود صواب (٤٠) »

أما الدرس الأول فهو التواضع العقلى . ثم هذه الابيات المذكورة
تذكيرا رائعا ببسكال :

« فاعرف نفسك اذن ، ولا تجسر على فحص الله ،
فالدراسة الصحيحة للبشر هى الانسان .
هذا الذى وضع فوق هذا البرزخ فى حالة وسط ،
كائن حكيم فى غموض ، عظيم فى فجاجة ...
حكم أوحد فى امر الحقيقة ، مدفوع الى اخطاء لا تنتهى ،
مفخرة الدنيا ، وأضحوكتها ، ولغزها المحير ! (٤١) »

فلنوافق فى نطاق هذه الحدود البشرية على أن « محبة الذات ، منبع الحركة ، تحفز الروح » ، ولكن لابد للعقل أيضا أن يدخل ليبحث النظام والتوازن فى عواطفنا وينقذنا من الرذيلة . لأن

« الرذيلة مخلوقة متوحشة رهيبية السحنة ،
نكرها حالما نراها ،
ولكننا لكثرة ما نراها نألف وجهها ،
ونحتملها أولا ، ثم نرثى لها ، ثم نعانقها (٤٢) » .

هذه العواطف وان كانت كلها ألوانا من محبة الذات الا انها جوانب من المخطط الالهى ، وقد تفضي الى نهاية طيبة حتى لبصرنا الأعمى . فشهوة الجسد تبقى على النوع ، وتبادل المصلحة ولد المجتمع . والنظام الاجتماعى والايمان الدينى نعمتان واضحتان ، رغم أن الملوك وأصحاب المذاهب لطحوا التاريخ بدماء البشر :

« ليختلف الحمقى حول أشكال الحكم
فأصلحها هو أفضلها ادارة وتصريفا
وليقتتل المتعصبون الثقلاء حول ضروب الايمان ،
فلن يخطيء من عاش حياة فاضلة (٤٣) » .

أما الرسالة الرابعة من مقال الانسان فتتنظر فى السعادة ، وتحاول جاهدة أن تسوى بينها وبين الفضيلة . فاذا رأيت الرجل الصالح يبتلى بالكوارث ، والأشرار يفلحون أحيانا ، فانما السبب أن :

« العلة الكونية
لا تعمل وفق قوانين جزئية بل كلية (٤٤) ؛ »

والله ينظم بالكل ، ولكنه يترك الاجزاء لقوانين الطبيعة ولارادة الانسان الحرة . وقد يأسى البعض لفوارق الملكية باعتبارها مصدرا للشقاء ، ولكن الفوارق الطبقيه ضرورية للحكم :

« فالنظام أول قوانين السماء ، وإذا سلمنا بهذا
كان البعض ، ولا بد أن يكونوا ، أعظم من الباقيين (٤٥) » .

وليس هذا واضحا وضح النهار ، ولكن أى كلام آخر يمكن أن يقال للفيكونت بولنبروك ، (أو يقوله بولنبروك) ؟ والسعادة موزعة بالقسط رغم عدم المساواة فى العطايا الطبيعية والمكتسبة ؛ فالفقير سعيد سعادة الامير . وليس سعيدا ذلك الوغد الغنى ؛ فهو يحتضن أمواله ولكنه يشعر باحتقار العالم له ، أما البار فتنعم روحه بالسلام حتى فى الظلم .

أما ما يسترعى نظرنا لأول وهلة فى مقال الانسان ، فهو هذا الاسلوب المحكم الذى لا يضارع فى ايجازه . يقول بوب « لقد اخترت الشعر لأننى رأيتنى قادرا على التعبير عن هذه الأفكار بالشعر بأوجز مما بالنثر (٤٦) » . ولم يبلغ شاعر ، حتى شكسبير نفسه ، ما بلغه بوب من قدرة على حشد ذخائر لا حصر لها - وحشد المعنى الكبير على الأقل - فى حيز ضيق . فهنا فى ٦٥٢ بيتا زوجيا ، هى أدعى لأن تعيها الذاكرة من نظيرها فى أى ميدان أدنى معادل غير العهد الجديد . وكان بوب عليما بحدود قدراته ، فقد أنكر صراحة أصالة أفكاره ، وأراد أن يصوغ من جديد فلسفة ربوبية متفائلة بفن موجز ، ووفق فيما أراد . وفى هذه القصيدة نحى عقيدته الكاثوليكية ولو الى حين . ورأى فى الله علة أولى فقط ، لا يعنى « عناية الهية خاصة » ليقى الرجل الفاضل من خبث الأشرار . وليس فى هذا النسق معجزات ، ولا أسفار مقدسة موحاة من الله ، ولا آدم ساقط أو مسيح مكفر ، إنما هو رجاء مبهم فى الجنة ، ولكن لا ذكر للنار اطلاقا .

وقد هاجم نقاد كثيرون القصيدة باعتبارها فلسفة « انسانية أو بشرية » منظومة . فالقول بأن « دراسة البشر الصحيحة هى الانسان » عرف وجها من وجوه هذه الفلسفة ، وبدأ أنه يفرق اللاهوت كله . فلما ترجم المقال الى الفرنسية انقض عليه قسيس سويسرى يدعى جان كروزاز ، فزعم أن بوب قد ترك الله فى طريق جانى فى قصيدة مفروض فيها أنها تبرر طرق الله للانسان . ولم يخف للدفاع عن بوب أمام هذا الهجوم من الخارج رجل غير وليم وريرتون الفحل ، فقد شهد أسقف المستقبل أن القصيدة عمل من أعمال التقوى المسيحية التى لا شائبة فيها . ورغبة فى تهدئة رجال الدين نشر بوب فى ١٧٣٨ ترنيمة .

حطوة سماها « الصلاة العالمية » . ولم يقتنع المسنون تمانا ، ولكن العاصفة هدأت . أما فى القارة فقد استقبلت القصيدة بعواطف مسرفة . فقال فولتير فى حكمه عليها « انها فى رأى أبديع وأنفع وأسمى قصيدة وعظيمة نظمت فى أى لغة (١٧) » .

وفى ١٧٣٥ كتب بوب مقدمة لجلد من الهجائيات سماها « رسالة الى الدكتور آريتنوت » دافع فيها عن حياته وأعماله ، وقتل خصوما جدا . هنا وردت صورته الشهيرة لاديسون الذى سماه « أتيكوس » ، وفضيحته القتالة للورد هرفى المخنث الذى كان قد زل فوصف بوب بأنه « قاس قلبك ، مجهول كأصلك (٤٨) » . وطعنه بوب طعنات نجلاء تحت اسم « سبوراس » فى أبيات يتجلى فيها الشاعر فى أروع صورته وأسوأها . قال :

« ماذا ؟ ذلك الشيء المصنوع من الحرير ،
سبوراس ، ذلك الخثارة البيضاء من لبن الحمير ،
وا أسفاه ! لا يجدى معه هجاء ولا كلام معقول ! أيستطيع
سبوراس أن يحس ،

وهو الذى يحطم فراشة على دولاب التعذيب ،
ولكن دعونى أصفع هذا البقة المذهبة الأجنحة ،
ابن القدر هذا المزوق ، الذى ينتن ويلدغ ...
وسواء تكلم وهو عاجز عجزا فاضحا
وزيق كالدمية حين ينفخ فيها الملقن ؛
أو جلس الى اذن حواء ، كأنه الضفدع الأليف ،
ينفث حديثا نصفه زبد ونصفه سم ،
فى توريات أو أحاديث سياسية ، أو حكايات ، أو أكاذيب ،
أو غل أو سناج أو قواقى أو كفریات .
ذكاؤه كله متارجح هنا وهناك ،
صاعد حيننا ، هابط حيننا ، سيد مرة وفتاقا مرة ،
وهو ذاته تناقض حقير .
شيء ذو وجهين ، يلعب كلا الدورين ،
الرأس التافه ، أو القلب الفاسد ؛

غندور فى زينته ، متملق فى مجلسه ،
 • يخطر أنا كالنساء ، ويتبختر أنا كالسادة (٤٩) «
 وكان بوب فخورا ببراعته فى هذه الهجمات القتالة -

« أجل ، انى فخور ، ويجب أن افخر برؤية
 • الرجال الذين لا يخشون الله يخشوننى (٥٠) «

وقد اعتذر عن مرارته بأن العصر يتهدده انتصار الغباوة ، وأنه
 فى حاجة الى عقرب يلدغه ليفيق ويعقل ، ولكنه انتهى فى ١٧٤٣ الى
 أنه خسر المعركة • ففى آخر تنقيح للحمة المغفلين رسم صورة قوية -
 هى نذر الشاعر « دون » بالويل والثبور صاغها بلهجة ملتن ونبراته
 للمدين ، والأخلاق ، والنظام ، والفن ، وقد لفها كلها ظلام واضمحلال
 شاملان • فالاهة الغباء المتوجة تتنأب فوق عالم محتضر :

« انها قادمة ، انها قادمة ، تأمل العرش الأسود ،
 عرش الظلمة الأزلية والفوضى القديمة !
 أمامها تتبدد كل سحب الخيال الذهبية ،
 وتتلاشي كل أقواسه القزحية . . .
 بينما تأفل النجوم الذابطة نجما بعد نجم
 من الأفق الأثيرى ، عند سماع لحن ميديا الرهيبة
 وهكذا عند الاحساس بدنوها ، وخشية جبروتها الخفى ،
 • ينطفىء الفن تلو الفن ، وتمسي الدنيا ظلاما فى ظلام
 فانظر الى الحقيقة وقد هربت متسللة الى كهفها القديم ،
 وفوق رأسها أهيلت جبال من الفتاوى !
 والفلسفة التى كانت من قبل تستند الى السماء ،
 • تنكمش الى علتها الثانية ثم تموت .
 والطبيعية (العلوم) تسال ما بعد الطبيعة الدفاع (ضد هيوم ؟)
 وما بعد الطبيعة يستنجد بالحس الطبيعى (لوك ؟) !
 وترى الأسرار الخفية تلجا الى الرياضيات (نيوتن ؟) !
 ولكن عبثا نحارل ! ناهى تحملق ، وتترنح ، وتهذى ، ثم تموت •
 ويستر الدين نيرانه المقدسة وقد احمر وجهه خجلا ،

وتذوى الفضيلة دون أن تدرى . . .
 فهناك دولتك الرهيبية وقد عادت أيتها الفوضى ،
 والنور ينطفئ أمام كلمتك القاتلة ،
 وبذلك أيتها الفوضى الجبارة تنزل الستار
 فإذا الظلام الدامس بلف كل شيء (٥١) » .

ولعله حسب اسحلاله هو انهيارا للكون كله . ففد كان وهو بعد
 فى الخامسة والخمسين يموت من الهرم . وأصبح المشي عسيرا عليه
 لأصابته بالانسقاء ، والتنفس مؤلما لأصابته بالربو . وفى ٦ مايو
 ١٧٤٤ أصابه هذيان كان يفبق منه فترات ، وأعرب فى احداها عن ايمانه
 بحياة بعد الموت . وسأله صديق كاثوليكي أيسندعى له كاهنا فاجاب بوب
 « لست أراه ضروريا ولكنه سيكون عين الصواب ، وشكرا لأنك ذكرتى
 بهذا » (٥٢) . ومات فى ٣٠ مايو ، « هادئا رابط الجأش » (إذا
 صدقنا جونسن) ، « حتى أن خدمه لم يتبينوا بالضبط وقت وفاته » . ولم
 يكن من حقه أن يدفن فى دبر وستمنستر لأنه كاثوليكي ، فوورى التراب
 الى جوار أبيه وأمه فى نويكنهام .

أكان جنتلمانا ؟ لا ، فان أحقاده الفياضة بالقدر والذم ساركت
 فى تسميم هواء انجلترا الأدبى فى النصف الأول من القرن الثامن
 عشر ، وقد أخرجت آلامه الجسدية أحماضا لاذعة وحرمته العافية التى
 تفيض بالحب والود على من حولها . أكان عبقرى ؟ بالطبع ، لا فى
 الفكر الذى استعاره ، بل فى الشكل الذى بلغ به مرتبة الكمال فى النوع
 الأدبى الذى اختاره . وقد وصفه ثاكرى بأنه « أعظم فنان أدبى شهده
 العالم (٥٣) » . وفى لباقة الكلام ، وإيجاز التعبير ، وخصب العبارة ،
 كان أمام عصره غير منازع . وحتى الفرنسيون قبلوه أعظم شاعر فى
 جيله ، وتطلع اليه فولتير مثلا له وقلده ، كما نرى فى « أحاديثه عن
 الانسان » . ولقد ظل ثلاثين عاما - أطول من أى شاعر آخر - أمير
 الشعر الانجليزى ، وثلاثين عاما آخر نموذجا يحتذى الشعراء الانجليز،
 الى أن جاء وردزورت بشيرا بعصر جديد .

ونحن الذين نهروا فى حياتنا اليوم رغم فراغنا كله ، نرى فى
 مقطوعات بوب ، فى تشطيرها الآلى ، أو فى صعودها وهبوطها

« كالأرجوحة » (٥٤) القدرة على التنويم ، فلا توقظنا الا بين الحين والحين بالابجرامات ، وحتى مقاله البارع عن الانسان ، ليس شعرا الا فى أوزانه وقوافيه . والصنعة نيه ظاهرة فوق ما ينبغى ، فلقد نسي الفنان نصيحة هوراس له بستر فنه . كذلك غفل عما نبه اليه هوراس من أن الشاعر لابد أن يملك الشعور قبل أن يستطيع نقله ؛ وقد شعر بوب ، ولكن غالبا ليحتقر ويسب ؛ وقد افتقد الاحساس بالجمال نحو الأفعال النبيلة أو اللطف الانثوى . واستنفد خياله فى العثور على ألفاظ رقيقة ، بنارة ، مركزة ، لأفكار قديمة ؛ فلم يتناول ليمسك بالأشكال المثالية التى تلهم عظماء الشعراء والفلاسفة . ولم تعطه الأجنحة سوى أحقادها .

وهو لم يزل الى اليوم الرمز الشعري الأكبر لعصر انجلترا الاوغسطى - الذى يجوز ان نرسم حدوده بعمره ، ١٦٨٨ - ١٧٤٤ .
 همعرفة الذهن الانجلزى المتزايدة بعيون الأدب اليونانى والرومانى ، وبمسرحية « القرن العظيم » الفرنسية ؛ وتأثير الارستقراطية - تأثير الطبقة المسيطرة على الكثرة - فى الحديث ، والعادات ، والألفاظ المهذبة ، ويسر السلوك وأطفه ؛ وانتفاض العقل والواقعية على الشطح الاليزابيثى وعلى التدين البيورتنانى المتزمت ، وانتقال المعايير الفرنسية الى انجلترا مع عودة الملكية ، والمكانة الجديدة للعلم والفلسفة - كل أولئك تضافر لاختراع أشكال الشعر الانجلزى السائدة لقواعد هوراس وبوالو الكلاسيكية . وجاء عصر من النقد بعد عصر الخيال ، فبينما غزا الشعر فى انجلترا الاليزابيثية النثر ولونه ، نرى النثر فى انجلترا الاوغسطية يحل من قدر الشعر ويغير لونه . وكان أثر هذا الأدب « الكلاسيكى الجديد » على اللغة الانجليزية حسنا وسيئا : فقد أعطاهما دقة ووضوحا ورشاقة جديدة ، ولتئها خسرت حيوية الكلام الاليزابيثى وقسوته ودفئه . وخضعت ثورة الشخصية والتعبير وفردانيتهما القديمة لنظام مفروض من فوق ، ألزم بالتطابق فى الحياة ، وبالشكل فى الأدب . وهكذا استحال الشباب كهولة .

على أن الاسلوب الكلاسيكى الجديد لم يعبر الا عن شطر من الحياة الانجليزية ، فلم يكن فيه متسع للتمرد ولا للعاطفة ولا للحب .

وفام شعراء بريطانيون ، حتى أيام سلطان بوب ، نددوا بالصنعة والمنطق ، وتحولوا من العقل الى الطبيعة ، ووجدوا صوتا يعبر عن الوجدان ، والدهشة ، والخيال ، والاكتئاب المتفكر ، والامل المحزون . فبدأت بذلك الحركة الرومانسية فى ذروة عصر انجلترا الكلاسيكى .

٣ - أصوات الوجدان

لم يكن الشعر الكلاسيكى الجديد يتأمل شيئا غير عالم الكتب . فقد رأى شعور وهو راس ، وأديسون وبوب ، رؤية أوضح من رؤيته للرجال والنساء الذين يمرون فى الشوارع ، أو الدلقس والمناظر الطبيعية التى تنفعل بها أمزجة الناس كل يوم . ولكن الأدب كشف الآن من جديد ما كان الفلاسفة يزعمونه طويلا ، وهو أن « الانسان » فكرة عامة غامضة ؛ وأنه لا وجود الا « للناس » ، المعتزين بفردبتهم الحريصين على واقعهم . وعمق الشعراء ذواتهم ولمسهم الأرض ، وشعورهم بالحقول والتلال والبحر والسماء واستجابتهم لها ، وبتغلغلهم الى ما وراء الافكار لبطوا الى المشاعر الدفينة التى يعلنها الكلام أقل مما يخفيها . فلم يبالوا كذبوا بالكلام واعتزموا الغناء ، وعادت القصيدة الغنائية وذوت المحمة . وغلب الشوق الى العزاء المنبعث من الايمان بما فوق الطبيعة ، والى الانبهار الصوفى الذى يوسع الحياة ، هجوم الربوبية على المعجزات ، والتمس بازدياد ، فى أساطير العصور الوسطى ، ورومانسيات الشرق ، والأشكار القوطية ، شيئا من الهروب من الواقع القاسي لهذه الحياة الدنيا .

وبالتطبع لم يخل عصر من أصوات الوجدان . ألم يشد « البطل المسيحى » للكاتب ستيل (١٧٠١) بالايمان القديم والعاطفة الرقيقة ؟ والم تركز « السمات المعيزة » لشافتسبرى (١٧١٠) حياة البشر فى « العاطفة » و « المحبة » ؟ وألن يشق المتشكك هيوم والاقتصادي سمث كل الفضيلة من شعور الأخوة والتعاطف ؟ ولكن جيمس طومسن هو الذى ضرب أول ضربة واضحة جلية دفاعا عن قضية الاحساس ورقة الشعور .

وكان ابن قسيس فقير فى تلال اسكتلنده . نزل الى أدنبره ليدرس للموسيقى ، ولكن عاقه عن غايته ادانة الاساتذة لأسلوبه لأنه شعري

بصورة لا تتفق ولغة الدين . فهاجر الى لندن ، وسرق ماله فى الطريق ،
 وأشرف على الهلاك جوعا ، وباع قصيدته « الشتاء » (١٧٢٦) ليشتري
 حذاء (٥٥) . على أن اهداه اياها الى السر سبنسر كونتن أتاه
 بعشرين جنيها ثمنا لثنائه ؛ ولا غرابة فان النبلاء الانجليز لم يكونوا
 صما أو بخلاء بالقدر الذى خاله جونسون . وتصور طومس فى قصيدته
 صوت النعال وهى تطحن قشرة الجليد ، وكيف :

« سمع الرياح تزار والسييل العميق يهدر ،
 أو رأى العاصفة العميقة الثوران تتجمع
 فى سماء المساء الكالحة ؛ »

وكيف راقب من الشاطيء الرياح وهى تحرث البحر ، وتقلب
 « الليم من قاعه وقد تغير لونه » ، وتمزق المراكب من مراسبها ، وترفعها
 رفعا خطرا فوق موجة وتهوى بها هويا منذرا تحت أخرى ، وتقذف
 بها فوق « صخر مدبب أو مياه ضحضاحة غادرة » ثم تبدها « شظايا
 متناثرة . . . تطفو فى حركة دائرة » . وصور الفلاح وقد اقتنصته
 عاصفة من الثلج الذى يعمى العيون ، تغوص قدماه المتجمدتان فى
 الثلوج العميقة وهو يكافح فى سيره ، حتى يعجز عن رفع حذائه ، فيقع
 منهوكا فريسة للموت متجمدا .

« أواه ، ما أقل ما يخطر ببال المستكبرين ، المستبحين المرحين ،
 كم من الناس يحسون فى هذه اللحظة بالموت
 وكل ضروب الألم الحزينة . . .
 وكم يذوون فى الفاقة وغياهب السجون محرومين مما ينعم به
 الخلق كلهم من تنسم الهواء
 وتحريك الأطراف ، وكم يتجرعون كأس
 الحزن القاتل ، أو ياكلون خبز الضيق المر ، وقد اخترمت
 اجسامهم رياح الشتاء ،
 وكم ينكمشون فى ذلك الكوخ القدر ،
 كوخ الفقر التعس » .

هنا نعمة جديدة من الشفقة تخزى « بل مل » وداوننج سترتت ،

وعودة تنعش النفس الى شعر ملتن المرسل عقب ما وصف به طومسن
قوافى بوب من « بهرجة تافهة » .

وشهد عام آخر ، وراع جديد لطومسن ، طبع قصيدته « الصيف »
(١٧٢٧) ؛ وفى ذلك العام شارك بقصيدة شهيرة فى صيحة الحرب
على أسبانيا :

« حين انبعثت بريطانيا أول مرة
بأمر السماء من اليم الأزرق ،
كان هذا دستور أرضها ،
وتغنت ملائكتها الحارسة بهذا اللحن :
احكمى يا بريطانيا ، تسلطى على الأمواج ؛
ان البريطانيين لن يستعبدوا أبدا » .

ومن لندن راح يجول الايام والأسابيع فى الريف ، مستوعبا بحواس
الشاعر المرهفة « كل مشهد ريفى ، وكل صوت ريفى » ، يحب « رائحة
الالبان » المنبعثة من المزارع ، وينتشي بمنظر الشمس منتصرة عقب
المطر ، أو يسبق كيتس فى اكتئابه لمراى الخريف . وهكذا نشر قصيدته
« الربيع » فى ١٧٢٨ ، وبإضافة قصيدة « الخريف » ومطلعها (« حين
تبدأ الورقة المسمومة فى الالتواء ») جمع القصائد الاربعة كلها فى
ديوان « الفصول » (١٧٣٠) . وقد كوفىء بجولة فى القارة رفيقا
لتشارلز تالبوت ، ابن وزير الخزانة فى ذلك الحين . فلما عاد عاش
فى دعة ونظم الشعر الرديء الى أن مات الوزير (١٧٣٧) . وبعد أن
صاحب الفقر فترة أخرى قدموه الى ولى العهد (أمير ويلز) الذى
سأله عن أحواله ، فأجاب « انها فى وضع أكثر شاعرية من ذى قبل » .
وتلقى معاشا قدره مائة جنيه مكافاة على ملاحظته الساخرة هذه . ثم
قضى عليه برد أصيب به على التيمز ، ومات غير متجاوز الثامنة
والاربعين .

وقد قررت « الفصول » أسلوبا جديدا فى شعر انجلترا الاقل شأنا،
ووجدت أتباعا فى فرنسا ؛ هناك نظم جان فرانسوا دسان - لامبير ،

الذى سرق اميلى من فولتير ، قصيدته « الفصول » (١٧٦٩) . وبينما كانت مقاطع الشعر الملحمى تختال عبر القرن ، كان ادورد ينج ، ووليم كولنز ، ووليم شنستون ، ومارك اكينسايد ، وتوماس جراى ، يوسعون الطريق الرومانسى المفضي الى وردزورث وتشاترتن . أما ينج فبعد ان ظل ينظم الشعر التافه المرح حتى الستين من عمره ، عمل لآخرته بديوان شعر اسمه « خواطر لبليية فى الحياة والموت والخلود » (١٧٤٢ - ٤٤) . وقد شجب فولتير هذا النتاج اللبلى لانه « مزيج مهوش من الشعر الطنان والتوافه الغامضة » ، ولكن ربما كان دافعه الى هذا الحكم ان ينج كان قد وخزه ببيتين لاذعين قال فبهما :

« اذك مسرف فى الذكاء ، والحلاعة ، والنحول ،
حتى لنحسبك ملتن ، والموت ، والخطيئة ، مجتمعة كلها فى
رجل واحد (٥٦) » .

وأما وليم كولنز فعاش نصف عمر ينج ، وكتب اقل مما كتب ينج واجود منه مرتين . هرب من دعوة لاحتراف القسوسية ، وأنفق أخسر دراهمه فى صقل الابيات الألف والخمسائة التى نظمها قبل ان يجن ويموت (١٧٥٩) وهو بعد فى الثامنة والثلاثين . وأجمل من قصيدته « نشيد المساء » التى ظفرت بالتقريظ القبرية التى كتبها رثاء للجنود البريطانيين صرعى المعركة فى ١٧٤٥ :

« كيف ينام الشجعان الذين يسقطون ليرقدوا
وفد باركتهم كل دعوات وطنهم !
حين يعود الربيع الذى بلل الندى أصابعه الباردة
لجمل ترابهم المقدس ،
هنالك بكسو بالعشب ثرى أعطر
مما وطئته أقدام الخبال .
اجراءهم ندقها ايدى الجان
ولحن الموت نرتله أفواه لا ترى ،
هنالك بجحر « الشرف » ، حاجا أشيب الشعر ،

ليبارك العشب الذى يكسو ثراهم ،
وتذهب « الحرية » برهة
لتقيم كالناسك الباكي على قبورهم » .

وأكثر من يذكر بين شعراء الوجدان هؤلاء ذلك الروح الغريب
الذى أسبغ على اكتئاب الشباب كثيرا من العبارات الرقيقة . ذلك
هو توماس جراى ، الذى كان أحد اننى عشر طفلا ولدوا لكاتب عمومى
لندن ، مات منهم أحد عشر فى طفولتهم . ولم يتخط توماس هذه السن
الخطرة الا لأن أمه استعملت متصها لتفتح وريده بعد أن رآته يتشنج .
فلما بلغ الحادية عشرة ذهب الى انتن ، حيث بدأ صداقاته المشؤومة مع
هوراس ولبول ورتشرد وست نم مضي الى كمبردج ، التى وجدها
« مملوءة بالمخلوقات المكتئبة والمعلمين المجدبين » . وأراد أن يدرس
القانون ، ولكنه انزل الى دراسة الحشرات وقرض الشعر ، وانتهى الى
التبحر فى اللغات والعلوم والتاريخ الى حد خنق العلم فبه شعره .

وفى ١٧٣٩ جاب أوروبا مع هوراس ولبول . فلما عبر جبال
الألب فى الشتاء كتب يقول « ما من جرف ، ولا سيل ولا منحدر فيها
الا وهو مغمم بالدين والشعر » ، وفى ١٧٤٠ حين كتب من روما أدخل
الى اللغة الانجليزية كلمة جديدة هى picturesque (أى الشبيه
بالصورة الرائعة) . ولم يكن قاموس جونسن يعرف هذه الكلمة حتى
فى ١٧٥٥ . وفى ريدجو ايميليا تشاجر مع ولبول ، فقد كان هوراس
شديد الوعى بنبالته ، وتوماس شديد الفخر بفقره ، ووشي « صديق
للطرفين » لكل منها برأى الآخر المستتر فيه ، فافترقا ، وواصل جراى
رحلته منفردا الى البندقية وجرينوبل ولندن .

وبغضه فى الحياة موت صديقه وست (١٧٤٢) فى السادسة
والعشرين من عمره . فاعتكف فى بيت عم له فى ستوك بوجز ، وهناك ،
وسط دراساته المتصلة ، كتب (١٧٤٢) « قصيدة غنائية فى نظرة من
بعيد لكلية ايتن » . اذ نظر من مسافة مأمونة الى هذه المشاهد المدرسية ،
فقد تذكر صديقه الذى قصف الموت عمره قبل الاوان ، ووراء العاب هؤلاء
الشباب ومرحهم رأى ببصر مكتئب مصائرهم الشقية :

« هؤلاء ستمزقهم الانفعالات والعواطف الجامحة ،

ونسور العقل الجارحة ،
والغضب المفعم بالاحتقار ، والخوف الشاحب الوجه ،
والخجل الذى يتوارى مختبئاً ؛
أو يفنى الحب المعذب شبابهم ،
أو الغيرة المكثرة عن نابها ،
التي تقرض القلب فى شغافه
والحسد الساحب ، والهم الذابل ،
والياس المتجهم الذى لا يقبل العزاء ،
وسهم الحزن الذى يخترم النذس .

انظر ، فى وادى الحياة أسفلك
تر رهطاً رهيباً ،
هم أسرة الموت المؤلمة ،
الأبشع منظراً من ملكتهم .
فهذا يحطم المفاصل ، وهذا يلهب الأوردة ،
وذاك يوجع كل عضلة مجهداً ،
وأولئك يحدثون ثورة فى الأحشاء الدفينة .
ثم ها هو الفقر أقبل ليكمل الفرقة ،
الفقر الذى يخلد الروح بيده الباردة ،
والهرم الذى يبرى الناس على مهل .

لكل انسان آلامه ، والكل بشر ،
قضى عليهم كلهم بالآنين ،
فالحنون يئن لألم غيره ،
والقاسي يئن لألم نفسه ،
ولكن واهاً لهم ! فلم يبصرون بحظوظهم ،
ما دام الحزن لا يبطله مجيئه أبداً ،
والسعادة سريعة الهروب ؛
ان التفكير كفيل بان يدمر فردوسهم ،
فأمسك ، لأنه حيث يكون الجهل نعيماً
فمن الحماقه ان تكون حكيماً » .

وفى أواخر ١٧٤٢ قفل جرای الى كمبردج ليستانف دراساته .

وأرسل الى ولبول ، بعد أن اصطلحا ، (١٧٥٠) « مربية مكتوبة فى فناء كنيسة ريفية » . وداولها ولبول بين أخصائه وطبعها ناشر لص وحرفها . . وحماية لشعره سمح جراى لددسلى بأن يصدر نسخة أفضل وان شابها النقص هى أيضا (١٧٥١) ، فى هذه القصيدة التى نعد من أروع قصائد القرن الـبس جراى الاكتتاب الرومانى لبوسا كلاسيكيا دقيقى النحت ، مسندلا بمفطوعات بوب الزوجية العالية الرنين ربايعيات هادئة تتحرك فى وقار نسجى الى خاتمتها الحزينة .

وفى ١٧٥٣ ماتت أمه ، فكتب لها قبرية رقيقة ، ودفن همومه فى الشعر . وفى قصيدة غنائية عن « تقدم الشعر » حيا انتقال ربات الفن والأدب من اليونان والرومان الى « ألبيون » ، واعترف بتطلعات صباه الى مباراة الشاعر بندار ، والتمس من الشعر أن يهبه عطية « العقل الذى لا يقهر » . وفى قصيدة غنائية أكثر سُمونا حنى من هذه ، واسمها « الشاعر » ، رأى جراى فى الشعراء ضربا من التكفير عن سيئات الحياة البريطانية يفصح الرذيلة والطغيان . هانان « القصيدتان الغنائيتان البنداريثان » ، اللتان نسرتهما مطبعة ولبول فى ستروبرى هل ، بلغتا فى افتعال الشكل والازدحام بالشواهد القديمة والوسيطه ميلغا جعل فهمهما عسيرا على القراء الا الراسخين منهم فى الأدب . وقد لف جراى نزوعه هذا للعزلة فى ثوب من الكبرياء فقال « ما كنت لأضيف حاشية (تفسيرية) أخرى لأنقذ أرواح جميع البوم الذين فى لندن . ان الوضع الراهن حسن جدا - فلا أحد يفهمنى ، وأنا راض بهذا تمام الرضى . وكان البوم معتادا على مثل هذا الصفير فى الظلام .

واذ انكفا مكتئبا الى غرفته ببيتر هاوس فى كمبردج يعانى من فقر وتهيب منعاه من الزواج ، ومن حساسية شديدة قعدت به عن نضال الحياة ، فقد أمسي انسانا منطويا محزونا ؛ وروعه بعض الطلاب ذات ليلة ، وقد ساءهم منه عزوفه ووقاره ، وعرفوا فيه الخوف من النار ، فصاحوا تحت نافذته بأن الردهة تحترق . وفى رواية مختلف عليها أنه أدلى نفسه من النافذة وهو فى قميص النوم وانزلق على حبل - ليقع فى حوض ماء وضعه العابثون ليتلقاه (٥٨) . وفى ١٧٦٩ جاب اقليم البحيرات الانجليزية ، وفى اليومية التى كتبها (بخط غاية فى الجمال) جعل انجلترا تدرك لأول مرة جمال ذلك الاقليم . وفى جولة أخرى

بماالفيرن تلقى نسخة من قصيده « القرية المهجورة » (لجولدسمث)
فقال « هذا الرجل شاعر » ثم وضع النقرس نهاية لرحلاته ، ثم لحياته
بعد قليل (١٧٧١) .

وطبقت شهرته الآفاق حيناً . فانعقد الأجماع فى ١٧٥٧ على أنه يقف
على قمة الشعراء الانجليز ، وعرضت عليه امارة الشعر فرفضها . وقال
فيه كوبر متخطيا ملتن « انه الشاعر الوحيد بعد شكسبير الذى يحق له
أن ينعى شعره بالسمو » . اما آدم سمث فاضاف متخطيا شكسبير « ان
جراى يضيف الى سمو ملتن أناقة بوب وتناغمه ، ولا ينقصه شيء
ليكون - ربما - أول شاعر فى اللغة الانجليزية ، الا أن يكون قد نظم
شعرا أكثر قليلا مما فعل (٥٩) » . وأعجب جونسن بالمرثية ، ولكنه
كان يملك من العلم ما جعله يجد عشرات العيوب فى القصائد الغنائية .
« ان لجراى ضربا من الوقار المختال ، وهو طويل القامة بفضل مشيه
على أطراف أصابعه . . . وانى لأعترف أننى أتأمل شعره برضى أقل مما
أتأمل حياته (٦٠) » .

ونستطيع أن نقرب هذه الحكمة مطمئنين . فقد كانت حياة جراى
تعدى لا اغراء فيها ، من شجاره مع ولبول الى قصة الحوض . وكانت
أنبل أحداثها ثلاث قصائد أو أربعا ستظل أجيالا كثيرة من ادمغ
البراهين على « تقدم الشعر » من اليونان والرومان الى البيون .

٤ - المسرح

ماذا كانت مسارح لندن تصنع فى نصف القرن هذا الذى نحن
بصدده ؟ كان أهمها مسرح درورى لين . ثم (من ١٧٣٣) كوفنت
جاردن ؛ وكان هناك مسارح صغيرة فى لنكولنز ان فيلدز وجودمانز
فيلدز ، وكان فى هيبماركت « مسرح صغير » للتمثيليات الهزلية ،
« ومسرح جلالة الملك » للأوبرا ؛ وبلغت جملة المسارح فى لندن مثلى
عدها فى باريس . وكانت حفلات التمثيل تبدأ فى السادسة مساء .
أما النظارة فقد غيروا طابعهم منذ أيام عودة الملكية ، فتحول
« المجتمع الراقى » الآن عن المسرح الى الأوبرا . وكان المتفرجون
المحظوظون أو الأثرياء لا يزالون يجلسون على خشبة المسرح . واتسع

« قاع » المسرح وأعلاه لقرابة ألفى شخص جالسين ؛ هنالك غلبت الطبقة الوسطى ، وقررت بتصفيق الاستحسان استقبال التمثيليات ونوعيتها ؛ ومن هنا ازدياد المنافسة بين الموضوعات البورجوازية والرومانسية . واستولت النساء على كل الادوار النسائية وعلى كثير من قلوب الرجال ؛ وبدأ الآن سلطان الممثلات الشهيرات من أمثال كتي كلايف ، وبج ووفنجتن - النى رسمها هوجارت ، وحاك تشارلز ريد رواية حولها .

ولقد قال جارريك ، بما ان « هواية الممثلين الاولى ، والعظمى ، والمسيطرة ، هي الأكل (٦١) » فانهم فضلوا التمثيليات المتبلة بالجنس . وقال آدمز ، القسيس الذى رسمه الروائى فيلدنج : لم أسمع قط بتمثيليات تصلح لأن يقرأها مسيحي الا تمثيليات أديسون ، ورواية ستيل « العشاق الواعون » . على أن فيلدنج ذاته كتب هزليات فاجرة (٦٢) . وقد وصف فولتير المسارح فى إنجلترا بأنها « مجردة من اللياقة » . وناشد السرجون برنارد مجلس العموم فى ١٧٣٥ بأن يكبح شيئاً من جماح المسارح ، وزعم أن « الأمة البريطانية . . . أصبحت شديدة الادمان على الملاهى الداعرة العاطلة . . . حتى لقد أدهش أوروبا كلها أن يتقاضى السنيورات والخصيان الايطاليون رواتب تعادل رواتب وزراء الخزانة (٦٣) » . ولم يفعل أحد شيئاً فى أمر المناظر والعبارات الخليعة ، ولكن حين سخر فيلدنج وجاى المسرح للهجو السياسي فهاجما روبرت ولبول وجورج الثانى ، استصدر الوزير ، المتسامح عادة مع المعارضة ، بطريق البرلمان قانون الرخص (١٧٣٧) ، الذى وجه أمين البلاط الى المزيد من التشدد فى منح الأذن بالحفلات المسرحية ★ .

وقد غالى ديدرو فى « موسوعته » فى الثناء على مسرحية « التاجر اللندنى » ، التى أخرجت بلنسدن فى ١٧٣١ ، والتي أثارت اهتمامه لأنها المسرحية التى أدخلت مأساة الطبقة الوسطى الى المسرح البريطانى . وكانت الدراما الكلاسيكية الفرنسية قد أرست مبدأ مؤداه أن المأساة وقف على الارستقراطية ، وأنها تفقد مقامها ووقارها ان هى نزلت

★ هذا القانون بصيغته المعدلة فى ١٨٤٣ مازال قانونا بريطانيا ، ولكنه يطبق بتساهل كبير .

الى المساهد البورجوازية . وقام جورج ليللو بمغامره مزدوجة ؛ أنزل
 المساة الى بيت تاجر ، وكتبها نثرا . فترى فيها التاجر الأمين ثوروجود
 يعترف « بكرامة مهنتنا » ويتق بانها « لما كان اسم التاجر لا يشين الجنئلمان
 أبدا ، فهو اذن لا يقصيه اطلاقا عن المجتمع الراقى » . والفكرة فى
 المسرحية هى تدمير حياة صبي تاجر على يد غانية أغوته ، والموضوع
 موشي بالحض على مكارم الاخلاق ومطوف فى العاطفة الرقيقة . وقد
 صفقت للمسرحية دافئة ، وسطى أبهجها أن ترى فضائلها ومثلها العليا
 معروضة على مسرح بريطانى . ورحب بها ديدرو وحكاها فى حملته
 لادخال « المساة البيئية والبورجوازية » فى المسرح الفرنسى . ونقل لسنج
 نبرتها فى « الأذنة سارا سامسن » (١٧٥٥) . وهكذا راحت الطبقات
 الوسطى تؤكد ذاتها فى الأدب كما تؤكدها فى السياسة .

أما فى اسكتلنده ، فقد أجاج النار تحت قدر الدراما جون هيوم ،
 الذى أغضب زملاءه رجال الدين بكتابته واخراجة تمثيلية « دجلاس »
 (١٧٥٦) ، وهى أنجح مساة فى زمانها . وقد حياه ابن عمه ديفد
 هيوم فى نوبة من الحماسة المتدثقة لا تكاد تليق بفيلسوف شاك ، فقال
 انه « تلميذ صادق لسوفوكليس وراسين قد يوفق فى الوقت المناسب لتبرئة
 المسرح الانجليزى من تهمة الهمجية (٦٤) » . فلما رفض جاريك
 المسرحية ، رتب هيوم ، ولورد كيمس (هنرى هيوم) ، و « المعتدلون »
 من رجال الدين الاسكتلنديين اخراجها فى ادنبره ، وقام ديفد ببيع
 التذاكر . وكان الحدث نصرا لال هيوم جميعا ولباقى اسكتلنده ، لأن
 جون هيوم حول أغنية شعبية اسكتلندية قديمة الى دراما وطنية ملات
 عيون الاسكتلنديين بدموع الفرح ، اللهم الا هيئة شيوخ الكنيسة بادنبره ،
 التى نددت بهيوم لأنه جلب العار على رداثه ، وذكرته « بالرأى الذى
 كانت الكنيسة المسيحية تراه دائما فى تمثيلات وممثلى المسرح لأضرارهم
 بالدين والفضيلة (٦٥) » . ثم صدرت اتهامات رسمية لهيوم وقسيس
 آخر يدعى الكسندر كارليل لحضوره التمثيل . أما ديفد هيوم الذى
 اضطرر بالخيرة على قربه فقد أهدى « المقالات الأربع » لابن عمه ،
 وكتب اتهاما حارا لاتعجب . واستقال جون من قسوسبته ، وذهب الى
 لندن ، وتهد مسرحيته « دجلاس » تخرج ، وعلى رأس ممثلاتها
 بج ووفذجتن (١٧٥٧) . هناك أيضا انتصرت المسرحية ، واحتشد

الاسكتلنديون الساكنون لندن ليصفقوا لها ، وفى نهاية هذه الحفلة الافتتاحية فى لندن هتف اسكتلندى من أعلى المسرح « اخسأوا يا قوم : فما قولكم الآن فى ويلي شكسبيركم (٦٦) ؟ » وظلت التمثيلية تتردد على المسرح جيلا بأكمله ، مع أنها اليوم ميتة موت تمثيلية أديسون « كاتو » . وحين مثلتها المسز .بيدونز بادنبره فى ١٧٨٤ ، اضطر المجمع العام للكنيسة « الى توقيت الاجتماع لأعماله الهامة بالتناوب مع أوقات تمثيلها ، بحيث يجتمع فى الالبام التى لا يمل فيها (٦٧) » .

أما اطرب نجاح حققه المسرح اللندنى فى هذه الفترة فكان « أوبرا التحاذ » . وقد بدأ مؤلفها جون جاي حياته صببا فى متجر ، وارتقى حتى أصبح سكرنيرا لايرل كلارندن ، وواحدا من أكثر أعضاء نادى « سكريليروس » حيوية ومرحا . وقد وصفه بوب بأنه :

« دمت الطبع ، رقيق العاطفة ،
فى ذكائه رجل ، وفى بساطته طفل ؛
مفطور على مرج يخفف من غضبه للحق ،
مخلوق ليبهج العصر ويسوطه معا (٦٨) » .

وقد وضع جاي بصمته على المسرح عام ١٧١٦ بتمثيلية « تريفيا أو فن التسكع فى شوارع لندن » . فقعقة عجلات المركبات على أحجار الرصف ، والسائقون يستحثون خيلهم بالسوط واللسان ، و « الصبية الموحلة » تحمل السمك الى بلنجزجيت ، وهدوء « بل مل » بسيداته المعطرات يتكئن على أذرع العشاق ، والسائر يشق طريقه الملتوى وسط مباراة فى كرة القدم تسد الشارع ، واللصوص المهذبون « يخفون جيبك من أثقاله بأصابع لا تحس » ، والحارس الضخم يهدى خطاك المضطربة بمصباحه المرشد الى الطريق الأمين « ويقودك الى بايك ؛ كل هذا وأكثر منه يجده فى « تريفيا » من يريد أن يتصور لندن فى ١٧١٦ .

وفى ١٧٢٠ نشرت « قصائد » جاي بنظام الاكتتاب ، فوافته بالف من الجنيهات خسرما فى انهيار شركة بحر الجنوب . وخف بوب وغيره لنجدته ، ولكنه أدرك الثراء من جديد عام ١٧٢٨ بتأليفه « أوبرا الشحاذ » . وتقدم لنا مقدمتها الشحاذ ، الذى يقدم لنا بدوره أوبراه .

وتبدأ بأغنية شعبية يغنيها بيتشوم ، الذى يتظاهر (كما تظاهر جوناثان وايلد) بخدمة القانونون بالابلاغ عن اللصوص (اذا رفضوا خدمته) ، ولكنه فى حقيقة الامر يتجر فى البضائع المسروقة . ويصف نفسه بالرجل الامين لأن « كل أصحاب المهن الراقية يحتال بعضهم على بعض » ، ويحدوهم الجشع للربح . ويفسد عليه امره ان ابنته بولى وقعت فى غرام قاطع الطريق الوسيم الانيق الكبتن ماكهيث ، وربما تزوجته ، ومن شأن هذا الغرام أن يعطل تسخيرها مفاتن بولى فى ملاطفة المشترين والبايعين ورجال الشرطة . وتطمئنه المسز بيتشوم قائلة :

« بحقك لم يجب أن تختلف ابنتنا بولى عن غيرها من بنات جنسها ، فلا تحب الازوجها ، ولم يجب أن يقلل زواجها من ملاحقة الرجال الآخرين لها ، على عكس ما نلاحظه فى كل مكان ؟ كل الرجال لصوص فى الحب ، ويزيد من حبهم للمرأة أن تكون ملكا لغيرهم (٦٩) » .
على أن الام تحذر ابنتها قائلة :

« لست أعارض يا بولى ، كما تعلمين ، فى أن تعبثى قليلا مع زبون خدمة للعمل ، أو سبيلا لاستخلاص سر أو نحوه ، ولكنى سأقطع رقبتك لو وجدتك تصرفت كالحمقى ، وتزوجت . أيتها اللعوب » .

وتعتذر بولى عن زواجها فى أغنية شعبية :

« أيمكن أن تحكم النصيحة الغرام ؟
أيطيع كيوييد أمهاتنا ؟
لو كان قلبى باردا كالثلج
لذاب من لهيب ناره .
حين قبلنى ضمنى بشدة
وكان عناقه حلوا فلم أملك غير الامثال ،
ورأيته أسلم وأفضل
أن أتزوج مخافة لومك وتقريعك (٧٠) » .

ويشتعل غضب بيتشوم ، وهو يخشى أن يقتله ماكهيث ويقتل زوجته ليرث ثروتهما من طريق بولى . فيبيت أن يشي بماكهيث لرجال القانون

ليشفقوه دون ريب . ويظهر ماكهيت على المسرح ، ويهدى روع بولى بعناقه ، ويؤكد لها أنه منذ الآن سيكون ملكا لها دون غيرها من النساء :

« لقد كان قلبى طليقا
يتنقل كالنحلة ،
حتى سلبت بولى لى
كنت أرشف رحين كل زهرة ،
وأتقلب كل ساعة ،
ولكن هنا اجتمعت كل الزهور فى واحدة » .

وتضرع اليه أن يقسم أن يأخذها معه اذا نقل . فيقسم قائلا
« أفى استطاعة أى قوة . . . أن تنتزعى منك ؟ أيسر من هذا أن
تنتزعى راتبا من رجل بلاط ، أو اتعابا من محام ، أو امرأة جميلة
من مرأة » ثم يشتركان فى ثنائية جميلة :

« هو . . . لو ألقيت على شاطيء جرينلند ،
واحتضنت فتاتى بين ذراعى ،
دافئة الجسد وسط صقيع لا ينقضي
لانقضي سريعا ليل نصف العام .
هى . . . لو باعونى فى أرض الهند
لاستطعت عقب انقضاء النهار المحرق
أن أهزأ بالكدح فى القيظ الشديد
ما دمت أستريح على صدر فاتنى .
هو . . . ولأحببتك اليوم كله ،
هى . . . ولتعانقنا ولعبنا كل ليلة ،
هو . . . لو سرحت معى فى هيام
هى . . . فوق التلال ، بعيدا جدا » .

وتبوح له بان أباه يدبر تسليمه للقانون ، وتطلب اليه فى أسى
أن يختفى برهة . فينصرف ، ولكنه يتوقف فى حانة ليعطى أعروانه
تعليماته بشأن احدى سرقاته . فاذا انصرفوا رقص وعبث مع فتيات

الحانة ، وكان بيتشوم قد رشاهن ليشين به ، فيسرقن مسدسيه وهن يدللنه ، ثم يستدعين الشرطة ، ونراه فى سجن نيوجيت فى المنظر التالى . هناك تتنافس عليه بولى واحدى زوجاته ، وتحررانه من السجن ، ولكن يقبض عليه من جديد ويرسل الى المشنقة ، وفى طريقه اليها يعزى نساءه بهذه الاغنية :

« وداعا اذن يا حبى - وداعا يا ساحراتى العزيزات ا
انى أموت راضيا - وهذا خير لكن .
هنا ينتهى كل نزاع طوال ما بقى لنا من حياة ،
لأننى بهذا أرضي زوجاتى أجمعين (٧١) » .

ويظهر الآن الشحاذ المؤلف ، ويفخر بانه جعل الرذيلة تلقى ما تستحقه من عقاب ، كما هى الحال فى جميع التمثيليات اللائقة ، ولكن ممثلا يعترض بان « الاوبرا يجب أن تنتهى نهاية سعيدة » (لشد ما تتغير العادات ا) . ويذعن الشحاذ ، وينقذ ماكهيث من حبل المشنقة ويحيط عنقه بحبل آخر هو بولى ، ويرقص الجميع حولهما ، بينما يتساءل الكبتن ، أتراه لقى مصيرا شرا من الموت .

وكان من حسن حظ جاي أن أفاد من خدمات يوهان بوش ، وهو مؤلف موسيقى المانى يقطن انجلترا ، واختر بوش موسيقى لاغانى جاي من الالحن الانجليزية القديمة ، وكانت النتيجة رائعة . فقد استجاب الجمهور بحماسة فى حفلة الافتتاح بمسرح لنكولنز ان فيلدز (٢٩ يناير ١٧٢٨) رغم ما جاء فى المسرحية من هجو للرشوة والنفاق . واستمر عرضها ثلاثا وستين ليلة متوالية ، وفاقت فى هذا كل ما سبقها من تمثيليات ، وعرضت عروضاً طويلة فى كبرى المدن البريطانية ؛ ومازالت تشغل المسرح فى قارنتين ، وقد حولت الى فلم من أبهج الافلام فى عصرنا . أما الممثلة التى قامت بدور بولى فقد أصبحت معبودة الفتيان الطائشين المرحين ، وتزوجت دوفا . ولكن رجلا من رجال الكنيسة الشديدة الاحتفال بالطقوس ندد بجاي لأنه جعل قاطع طريق بطلا لتمثيلته ، ولأنه تركه يفلت من العقاب . فلما حاول جاي أن يخرج تنمة للتمثيلية سماها « بولى » رفض كبير الأمناء الترخيص

بها . فنشرها جاى ، وراجت ، وتصاعدت حصيلة « أوبرا الشحاذ »
تصاعدا سارا ، حتى قال ظريف ان التمثيلية جعلت جاى غنيا (rich)
وجعلت رتش (المدير) مبتهجا (gay) . وبعد أربع سنوات من
انتصار الشاعر أصيب بمغص أودى بحياته .

٥ - الرواية

كان الحدث البارز فى التاريخ الأدبى لهذه الحقبة هو ظهور الرواية
الحديثة . فروايتا « كلاريسا » و « توم جونز » من الناحية التاريخية
أهم من أى قصيدة أو مسرحية إنجليزية فى ذلك العهد . ومنذ عام
١٧٤٠ ، باتساع مجال الحياة العامة وامتداده من البلاط الى الشعب ،
ومن الافعال الى الأحاسيس ، حطت الرواية محل الدراما صوتا ومرآة
لانجلترا .

أما القصص فكانت قديمة قدم الكتابة . فللهند حكاياتها
وخرافاتنا ؛ واليهودية ضمننت أدبها أساطير لراعوث واسثير وأيوب ؛
واليونان الهلنستية والأقطار المسيحية الوسيطة أخرجت رومانسيات
مغامرة وحب ، وايطالية النهضة أنتجت آلاف « النوفلى mvelle »
(أى المستحدثات الصغيرة) ، كما فى بوكاشو وبانديلو ، وأسبانية
النهضة وانجلترا الاليزابيثية كتبتا حكايات تشرد لاوغاد رائعين ،
وفرنسة القرن السابع عشر أثقلت الدنيا بقصص حب أطول كثيرا من
الحب . وقص لساج قصة جيل بلاس ، وجود ديفو حكاية المغامرة بيانا
لشجاعة الانسان ؛ وسخر سويقت قصة الرحلات ليسلخ بها جلد البشر .

ولكن أكانت هذه الآثار روايات بمعناها الحالى ؟ لقد أشبهت
قصص القرن الثامن عشر فى كونها حكايات خيالية ، وامتاز بعضها بميزة
الطول الذى لا شك فيه ، وصور بعضها الشخص بجهد يحاول تجسيد
الواقع ؛ ولكنها (ربما باستثناء كروسو) افتقدت الحبكة التى تربط
بين الأحداث والشخص فى كل متطور . لقد كان فى قصة
« الأورونوكو » للسيدة أفرا بن (١٦٨٨) ، وهى قصة عبد أفريقى ،
حبكة رابطة ، وكذلك قصص ديفو « الكبتن سنجلتون » (١٧٢٠) ،

و « مول فلاندرز » (١٧٢٢) ، و « روكسانا » (١٧٢٤) ، ولكن هذه كلها كانت لا تزال سلسلة من الأحداث المترابطة أكثر منها وحدة بنائية يعمل كل جزء فيها على تقديم موضوع يوحد بينها . فلما ملك رتشردن وفيلدنج ناصية فن التطوير هذا ، وصورا الشخصية وهي تنمو خلال الأحداث ، وجعلا رواياتهما تصور العادات فى عصرنا ، كان هذا استهلالا للرواية الحديثة .

١ - صموئيل رتشردن : ١٦٨٩ - ١٧٦١

كان الرجل الذى استهل عصر الرواية الجديدة ابن نجار من داربيشير انتقل الى لندن عقب مولد صموئيل . وكأنت الأسرة ترجو أن تجعل الصبى قسيسا ، ولكن الفقر عافها عن تأهيله التأهيل المدرسي المطلوب ؛ على أنه وفق فى أن يضمن كتبه شيئا من الوعظ . وكان الوسط الذى شب فيه يحتفظ بالفضيلة البيورتانية . والحق صبيا لطباع ، وأعانه اشتهاره بجمال الخط على زيادة دخله بتدبيجه الرسائل للفتيات الأميات اللاتى أضناهن الحب ، وقد قررت هذه المصادفة الشكل الذى اتخذته رواياته ، أعنى شكل الرسائل ، وما أفاضت فيه هذه الروايات من ريادة لسيكولوجية المرأة وسبر لعواطفها . وأفاده جده واقتصاده ، فأنشأ مطبعة خاصة به ، وتزوج ابنة مخدومه السابق (١٧٢١) ، وأنجب منها ستة أطفال ، مات منهم خمسة فى حدائتهم . كذلك ماتت أمهم (١٧٣٠) وهى ما تزال صغيرة السن محبوبة ، وأعانت هذه الاحزان على خلق مزاجه الذى تغلب عليه الكآبة . وتزوج ثانية ، وأنجب ستة أطفال آخرين ، واكتوى بمزيد من الاحزان ، ثم ارتقى لوظيفة طباع مجلس العموم . وبلغ الخمسين من عمره قبل أن ينشر كتابا .

وفى ١٧٣٩ كلفه صديقان طباعان بكتابة مجلد صغير من نماذج للرسائل مرشدا « للقراء الريفيين الذين لا قدرة لهم على التحرير بأنفسهم » ، ومعلما فى « التفكير والتصرف بصواب وحكمة فى الشؤون العادية لحياة الانسان (٧٢) » . وبينما كان رتشردن يعد هذا الكتاب - وهنا اغتنمت العبقريه فرصة الظرف - خطر له أن ينسج سلسلة من الرسائل فى قصة حب تشرح الفضيلة الحكيمة فى بطلتها العذراء . ولعل

الموضوع ، وهو العفة المصونة خلال سلسلة طويلة من المغريات ، قد أُوحت به قصة « حياة ماريان » (١٧٤١ - ٤١) التى ألفها الكاتب الفرنسي ماريفو . أيا كان الأمر ، فان رتشرسن أقام فى نوفمبر ١٧٤٠ معلما على طريق الأدب الانجليزى باصداره كتابا فى مجلدين سماه « باملا ، أو الفضيلة التى كوفئت ؛ سلسلة من الرسائل العائلية من آنسة شابة جميلة الى أبويها ؛ منشورا لأول مرة ليربى مبادئ الفضيلة والدين فى عقول الشباب من الجنسين » وراج الكتاب ، وأصاف اليه رتشرسن مجلدين آخرين فى ١٧٤١ ، « باملا فى أسمى حالاتها » ، يقصان فضائلها وحكمتها بعد زواجها .

ومازال نصف القصة الأول طريفا ، لأننا لا نكبر أبدا على استطرافنا لقصص الأغواء - وان كان كل شيء حتى الاغواء يصبح مملا بعد ألف صفحة . ويبدأ التركيز على العاطفة فى الصفحة الأولى ، حيث تكتب باملا « أواه ! لكم تذرف عيناي الدمع مدرارا ! لا تعجبا اذا رأيتما الورق شديد التلوث » . وهى مثال الطيبة والتهديب والتواضع . فلما أرسلت خارج الأسرة لكى « تخدم » وهى فى السادسة عشرة حولت لأبويها أول ما كسبت من مال « لأن العناية الالهية لن تتركنى فى عوز . . . فاذا حصلت على المزيد فاذى واثقة بأنه من واجبى ، وسيكون موضع اهتمامى أن أحبكما وأعتز بكما ، لأنكما أحببتمانى واعتزتما بى حين لم كن أقوى على صنع شيء لنفسي (٧٣) » . أما الابوان الحذران فيرفضان انفاق المال حتى يطمئنا الى أنه ليس عربونا يدفعه مخدموها الأعزب لوصولها . وينبهانها الى أن جمالها يعرض عفتها للخطر « اننا نخاف - نعم ، يا بنيتى العزيزة ، اننا نخاف - لئلا تشتطى فى عرفان الجميل ، فتكافئيه بتلك الجوهرة ، بفضيلتك ، التى لا يستطيع مال . . . أن يعوضك عنها » . فتعددهما بأن تكون حذرة وتضيف « ما أجمل فعل الخير ! انه كل ما أحسد عليه العظماء » . وعواطفها جديرة بالاعجاب وان فقدت بعض فتنتها لأنها تصرح بها . وفى مأساة متفاقمة يدخل مخدموها مخدمها دون التمهيد الواجب ، ويضمها الى صدره المضطرب . فيغشي عليها ، وتفسد خطته . فلما أفاقت « وضعت يدي على فمه وقلت : أواه ! قل لى ، ولكن لا تقل لى ، ماذا عانيت أنا فى هذه المحنة ؟ (٧٤) » . فيؤكد لها أن مقاصده

أخفقت . واذ تقدر ما ينطوى عليه اشتهاؤه لها من تحية ، تتعلم شيئا فشيئا أن تحبه ، وتعد المراحل التي تتدرج فيها عاطفتها من الخوف الى الحب ، لمسة من اللمسات الرقيقة الكثيرة التي تدعم شهره رتشردن كاتباً سيكولوجياً . على أنها تقاوم كل حصاراته رغم ذلك ، وينتهي به الحال الى الانهيار ، فيعرض عليها الزواج . واذ أسعد باملا انها انقذت فضيلتها وروحه ، فانها تعتزم أن تكون زوجة انجليزية مثالية : تلزم بيتها ، وتتجنب الحفلات الفخمة ، وتمسك حسابات الأسرة بعناية ، وتوزع الصدقات ، وتطهو الهلام والكعك والحلوى والفاكهة المحفوظة ، وتكون شاكراً اذا تفضل عليها زوجها بالحديث معها بين الحين والحين هابطاً السلم الطبقي اليها . ويختتم رتشردن المجلد الثانى بعظة فى فوائد الفضيلة فى المساومة بين الجنسين ، « ان ناشر هذه الصفحات سيحقق هدفه اذا أوحى (فضيلة باملا) بالقدوة المحمودة فى عقول أى أشخاص أفاضل ، قد يكتسبون بهذا حقا فيما نالته باملا عن جدارة من أسباب اللواب والثناء والبركة » .

وأضحك هذا بعض الانجليز ، مثل فيلدينج القوى الصب ، ولكن آفا مؤلفة من قراء الطبقة الوسطى شاركوا باملا خفقات قلبها فى تعاطف . وأطرى رجال الدين الكتاب ، وقد سرهم أن يجدوا مثل هذه الدعامات لعظاتهم فى أدب بدأ أنه باع نفسه لرئيس الشياطين (بعلزبول) . ونفدت أربع طبعات من باملا فى ستة أشهر . وبالطبع حث الناشر رتشردن على مزيد من التنقيب فى هذا المنجم الغنى ، ولكنه لم يكن بالكاتب المرتزق ، ثم ان صحته بدأت تعتل . ففريت ، ومضى فى أعماله الطباعية . ولم يخرج رائعته التالية التى جاءته بأوربا البورجوازية كلها عند قدميه الا عام ١٧٤٧ .

وقد صدرت هذه الرائعة ، واسمها « كلاريسا ، أو تاريخ شابة » وطولها ألفا صفحة ، فى سبعة مجلدات ، ما بين نوفمبر ١٧٤٧ وديسمبر ١٧٤٨ . وكان قد ساءه اتهامه بأن قصة باملا أظهرت الفضيلة مجرد خطة للمساومة ، وأنها صورت فاسقا صلحت حاله تصويرها لزوج صالح ، لذلك عمد الى اظهار الفضيلة هبة الهبة سوف تثاب فى السماء ، واظهار فاسق سادر فى غيه مقضيا عليه لا محالة بنهاية سيئة مدمرة ،

وخلصة القصة ان لفلبس الطائش الذى اشتهر بانه شيطان مع النساء ، يطلب يد كلاريسا هارلو ، فلا تنق به ، ولكنها مفتونة أشد الفتنة بشهرته . وتحظر عليها أسرتها لقاء وغد كهذا وتغلق أبوابها فى وجهه ، وتعرض عليها مستر سومز ، وهو رجل لا رذائل فيه ولا شخصية ، فترفضه ؛ ولكى يكرهوها على الأذعان يوبخونها ويعذبونها ويحبسونها . ويسناجر لفلبس مساعدا ليزيف هجوما مسلحا عليها من أقاربها ؛ ولكى تفر منهم تسمح له بخطفها الى سانت البانس . وهى راغبة فى الزواج منه ، ولكنه يرى فى هذا مغامرة يائسة جدا . فيكتب لصديق له :

« . . . كنت أصمم على الزواج لولا هذا الاعتبار ، وهو أننى متى تزوجت مرة أصبحت متزوجا مدى الحياة . تلك هى المصيبة ! لو أن الرجل استطاع أن يفعل كما تفعل الطير ويغير (زوجانه) كل عيد من أعياد القديس فالنتين . . لما كان فى الأمر بأس على الإطلاق . . . وتغيير كهذا سيكون وسيلة للقضاء على . . . أربع أو خمس كباثر فظيعة : هتك العرض ، الذى يطلق عليه هذه التسمية السوقية ، والخيانة الزوجية ، والزنا ؛ كذلك لن يلهث الرجل وراء تعدد الزوجات ، وستمتنع كثيرا جرائم القتل والمبارزة ، ولن يسمع الناس بشيء اسمه الغيرة (وهى العلة فى أعمال العنف المفزعة) . . . ولن تكون هناك امرأة عاقر . . . فكلا الجنسين سيحتمل الآخر ، لأن فى استطاعتهما ان يرمى كل منهما مصلحته بعد بضعة أشهر . . . وستزدحم الصحف بفقرات تعنى بتعارف المحبين . عندها لن يكون التمييز جميلا جدا يا جاك ؟ تماما كما فى الزهور ، فهذا السيد ، أو هذه السيدة ، اما موسمى (أو موسمية) ، واما مستديم (أو مستديمة) (٧٥) » .

ويحاول اغواء كلاريسا ، فتنذره بأنها قاتلة نفسها ان لمسها ، فيحبسها حبسا خسيسا وان تلتطف معها فيه ، وترسل خلاله الرسائل المفعمة حزنا لأننا هاو ، صديقتها التى تأتمنها على سرها . أما هو فيخترع الحيلة تلو الحيلة ليخترق معاقل دفاعها ، فتقاومه ، ولكنها

تري أن عرضها تلوث تلوثا لا براء منه لأنها قبلت نصف قبول أن تهرب معه . وتكتب الرسائل الأليمة لأبيها ضارعة إليه أن يغفر لها بل أن يسحب اللعنة التي استمطرها عليها ، والتي تعتقد أنها ستثقل في وجهها أبواب الجنة الى الأبد ، ولكنه يأبى ، فتصيبها علة مدمرة لا يسندها فيها غير ايمانها . أما لفليس فيختفى في فرنسا ويقتل في مبارزة بيد عم كلاريسا ، وأخيرا يأتي أبواها عارضين عليها المغفرة ، فيجدانها ميتة .

إنها قصة بسيطة ، طال عزفها على نغمة واحدة طويلا لا يمكن أن يشد عقولنا المحمومة ، ولكنها أصبحت في إنجلترا القرن الثامن عشر مثار خلاف قومي . فكتب مئات من القراء الى رتشردن في فترات النشر يتوسلون اليه الا يدع كلاريسا تموت (٧٦) . ووصف أحد الآباء بناته الثلاث بأنهن « في هذه اللحظة تمسك كل مذن بمجلدها الخاص (من كلاريسا) ، وعيونهن كلها بللها الدمع كأنها زهرة مخضلة في الربيع (٧٧) » . أما الليدي ماري ورتلي مونتاجيو ، التي بلغت غاية ما تبلغ نساء عصرها الانجليزيات من علم وثقافة ، فقد تقبلت الكتاب على أنه استرضاء لعواطف الطبقة الوسطى وحماسة الجماهير ، ولكنه أذى ذوقها الارستقراطي . قالت :

« كنت تلك الحمقاء العجوز التي بكت على كلاريسا هارلو كما تبكى أى بائعة لبن في السادسة عشرة لسماعها أغنية « سقوط السيدة » الشعبية . والحق أن المجلدات الأولى الأنتنى بما حوت من شبه كبير بأيام صباى ، ولكن الكتاب في جملته بضاعة غثة . . . ان كلاريسا تتبع قاعدة الافضاء بكل أفكارها لكل من تراه ، وقد غاب عنها أن أوراق التين فى وضعنا البشرى الشديد النقص لازمة لعقولنا لزومها لأجسامنا ، وليس من اللياقة أن نعرض كل أفكارنا ، تماما كما أنه ليس من اللياقة أن نعرض كل أبداننا (٧٨) » .

والحت نساء إنجلترا الآن على رتشردن المنتصر فى أن يصور لهن رجلا مثاليا كما صور المرأة المثالية - فى ظنهن - فى باملا . فتردد أمام هذه المهمة الشائكة ، ولكن حفزه اليها هجو فيلدنج لباملا فى روايته

« جوزف أندروز » ، كما حفزته اللوحة الكاملة المفصلة التي رسمها فيلدينج لمرجل فى روايته « توم جونز » ، وعليه فقد أخرج بين نوفمبر ١٧٥٣ ومارس ١٧٥٤ ، فى مجلدات سبعة ، « قصة السر تشارلز جرانديسين » . ومزاج عصرنا الذى لا يبالى يصعب عليه أن يفهم لم لقيت هذه الرواية الثالثة نجاحا عظيما كما لقيت أختها من قبل ؛ فانتناقض القرن العشرين على البيورتانية ، وعلى التوفيق الذى حاوله العصر الفكتورى الوسيط ، ختم على قلوبنا فلم تعد ترى صور الطيبة المثالية ، على الأقل فى الذكور ؛ فقد لقينا رجالا طيبين ، ولكن أحدا منهم لم يخل من عيوب تكفر عن طيبته . ولقد حاول رتشرسن أن يجمل السر تشارلز ببعض اللهفات ، ولكننا ما زلنا نكره هذه الشقة البعيدة بينه وبيننا . أضف الى ذلك أن الفضيلة تفقد فننتها اذا عرضت على الانظار . ولقد أفلت جرانديسين بالجهد من أن يسلكه صانعه فى زمرة القديسين .

وألح رتشرسن على الوعظ الحاحا جعله يسمح لبعض العيوب أن تشوب فنه الأدبى . فاندعت أو كادت الفكاهة والنكتة الذكية عنده ، وأوقعته محاولة حكاية قصة طويلة بالرسائل فى أشياء بعيدة الاحتمال (كتذكر العدد الهائل من الأحاديث) ، ولكنها أتاحت له عرض الأحداث نفسها من مختلف وجهات النظر ، وأضفت على الحكاية ألفة لا تكاد تتيسر فى شكل أقل ذاتية . وكان مما يتمشى تماما مع العرف فى ذلك العصر أن يكتب الانسان الرسائل الطويلة الحميمية الى من يثق بهم من ذوى القربى أو الاصدقاء . ثم ان طريقة الرسائل هذه أفسحت المجال أمام موهبة رتشرسن الكبرى - وهى عرض خلق المرأة . هنا أيضا توجد عيوب . فعلمه بالرجال أقل من علمه بالنساء ، وبالنبلاء أقل من العامة ، وقل أن لقط ما فى النفس الانسانية من تقلبات وتناقضات وتطور - ولكن مئات التفاصيل تدل على ملاحظته الدقيقة للسلوك الانسانى . ففى هذه الروايات ولد القصص السيكولوجى الانجليزى والنزعة الذاتية التى بلغت فى روسو مبلغ الحمى .

وتقبل رتشرسن نجاحه فى تواضع وواصل عمله طباعا ، ولكنه بنى لنفسه بيتا أفضل . وكتب رسائل طويلة ضمنها النصائح لدائرة كبيرة من النساء ، كان بعضهن يدعوه « بابا العزيز » - وفى أخريات عمره

دفع ثمن الفكر المركز والفن المسهب حساسية عصبية وأرقسا . وفى
٤ يوليو ١٧٦١ قضت عليه اصابة بالفالج .

وكان تأثيره الدولى أعظم من تأثير أى انجليزى اخر فى عصره
باستثناء ولى وبنت الاب . وقد أعان فى وطنه على صوغ المزاج
الخلقى لانجلترا جونسن ، وعلى الارتفاع بأخلاقيات البلاط بعد جورج
الثانى . وأسهم التراث الخلقى والادبى الذى خلفه فى تكوين رواية
جولدسمث « قسيس ويكفيلد » (١٧٦٦) ورواية جين أوستن « العقل
والوجدان » (١٨١١) . أما فى فرنسا فقد عد كابسا لا ضريب له فى
المقصة الانجليزية . يقول روسو « لم تكتب قط فى أى لغة رواية نعدل
أو حتى تقترب من كلاريسا (٧٩) » . وقد ترجم الأبيه بريفوست
رتشردسن ، ومسرح فولتير باملا فى « نانين » وصاغ روسو « هلويز
الجديدة » على غرار كلاريسا موضوعا وشكلا وهدفا خلقيا . وارتفع
ديدرو الى المناجاة المفرطة الحماسة فى مقاله « تقرير لرتشردسن »
(١٧٦١) ، فقال انه لو أكره على بيع مكتبته لما احتفظ من كتبه كلها
الا بهومر ويوربيديس وسوفوكليس ورتشردسن . وفى ألمانيا ترجم
جيلبيرت باملا ، وحاكاها ، وبكى تأثرا من جرانديسن (٨٠) ؛ وانتشى
كلوبشتوك طربا بكلاريسا ؛ وبنى فيلاند تمثيلية على جرانديسن ؛ وراح
الالمان يحجون الى بيت رتشردسن (٨١) . وفى ايطاليا مسرح جولدونى
قصة باملا .

واليوم لا يقرأ أحد رتشردسن الا مضطرا بحكم الدرس ، ونحن
لا نملك الفراغ الذى يتسع لكتابة رسائل كهذه ، فضلا عن قراءتها ؛
والناموس الاخلاقى الذى يدين به عصر صناعى داروينى يهرب فى
ضجر من المحاذير والقيود البيورترانية . ولكننا نعرف أن هذه الروايات
مثلت ثورة الوجدان على عبادة الفكر والعقل ، أكثر مما مثله شعر
طومسن ، وكولنز ، وجرى ، وثنين فى رتشردسن الأب - كما تتبين
فى روسو البطل - لتلك الحركة الرومانسية التى ستنتصر فى أواخر
القرن على صنعة بوب الكلاسيكية وواقعية نيلدنج العارمة .

٤ - هنرى فيلدنج : ١٧٠٧ - ٥٤

حين قدم الى لندن فى ١٧٢٧ أعجب الناس كلهم بقوامه الفارع ، وبنيته القوية ، ووجهه الوسيم ، وحديثه المرح ، وقلبه المفتوح ؛ فهنا رجل أعدته الطبيعة ليستمتع بالحياة فى كل لذتها وواقعها السيىء السمعة . كان يملك كل شيء الا المال ؛ واذ كان مضطرا - على حد قوله - الى أن يكون سائقا أجيرا ، أو كويتبا أجيرا ، فانه شد نفسه الى قلم ، واكتسب قوت يومه بكتابة الهزليات والتمثيلات الكاريكاتورية . واستعملت الليدى مارى مونتايجيو ، وهى ابنة خال له من المرتبة الثانية ، نفوذها ليخرج له مسرح درورى لين تمثيلية « الحب وراء أقنعة عديدة » (١٧٢٨) ، وذهبت مرتين لتشاهدها معلنة عن نفسها فى تفضل ؛ وفى ١٧٣٢ ساعدت على عرض تمثيلية « زوج عصرى » فترة طويلة . وواصل تأليف المسرحية تلو المسرحية ، وكلها غير ممتاز ، ووقع على عرق من الهجاء المرح فى « مأساة الماسى ، أو حياة وموت توم ثم الكبير » (١٧٣١) .

وفى ١٧٣٤ تزوج شارلوت كرادوك بعد خطبة اتصلت أربع سنين . وورثت عقب زواجهما ١٥٠٠ جنيه ، فأخذ فيلدنج معها الى حياة الدعة سيدا من سادة الريف . ووقع فى حب زوجته . وقد وصفها وصف الزوج المفتون بزوجته فى شخص صوفيا وسترن الجميلة فى خفر ، وأميلييا بوث التى لا حد لصبرها وأناتها . وتؤكد لنا الليدى بيوت « أن اللغة المشرقة التى عرف كيف يستعملها لم تزد على أن أنصفت محاسن الاصل وجمالها (٨٢) » .

وفى ١٧٣٦ عاد الى لندن وأخرج تمثيلات لا تستحق الذكر ؛ ولكن فى ١٧٣٧ وضع قانون الرخص قيودا على الدراما ، وانسحب فيلدنج من المسرح . ودرس القانون ، وقبل محاميا (١٧٤٠) ؛ وتحول مسار حياته فى ذلك العام بظهور رواية رتشردن « باملا » . وأثارت فضائل البطلة وخالفها المتصدة كل ما فى فيلدنج من نزوع الى الهجو . و « قصة مغامرات جوزف أندروز وصديقه مستر ابراهام آدميز ، مكتوبة بطريقة سرفانتيس » (١٧٤٧) يدها تقليدا سنسأخرا

لباملا . فجوزف ، الذى يقدمه لنا المؤلف على أنه أخو باملا ، فتى طاهر جميل بين الفتيان كباملا بين الفتيات ، تراوده مخدومته المرة بعد المرة كما وقع لباملا ، ويقاوم مثلها ، ويفصل مثلها فى رسائله المحاولات الخبيثة للعدوان على عذريته . ورسالته لاخته باملا رسالة تكاد تكون « رتشرسونية » ، وان لم تكن كذلك تماما :

« اختى العزيزة باملا :

« أرجو أن تكونى بخير ، عندى خبر ويا له من خبر أفضي به اليك ! ... لقد وقعت سيدتى فى غرامى - أى ما يسميه عليه القوم بالوقوع فى الغرام - وفى نيتها أن تدمرنى ، ولكنى أرجو أن يكون لى من العزم والحصافة ما يعصمنى من التفريط فى عرضي لآى سيده على ظهر البسيطة .

« لقد طالما أخبرنى المستر آدمز أن العفة فضيلة كبرى فى الرجل كما هى فى المرأة سواء بسواء . وهو يقول انه لم يعرف قط امرأة غير زوجته ، وسأحاول أن اقتدى به . والحق ان الفضل كله لمواعظه ونصائحه الممتازة ولرسائلك فى قدرتى على مقاومة اغراء يقول ان أحدا لا يذعن له الا ندم فى هذه الدنيا وهلك عفابا فى الآخرة ... ما أجمل النصائح والمثل الطيبة ! ولكنى مسرور لأنها طردتنى من مخدعها كما فعلت ، فلقد كدت أنسى مرة كل كلمة قالها لى القس آدمز .

« ولست أشك يا اختى العزيزة فى أن لك من الحصافة ما تصونين به فضيلتك من كل اغراء ، وأتوسل اليك فى الحاج أن تصلى لى يمنحنى الله القوة على صون فضيلتى ، لأنها فى الحق تهاجم هجوما عنيفا من أكثر من امرأة ، ولكنى أرجو أن اقتدى بمثالك ، وبمثال يوسف الصديق سمى ، فاصون فضيلتى من كل اغراء (٨٣) » .

وينجح جوزف ، ويظل بكرا حتى يتزوج العذراء فانى . اما باملا ، التى رفعت درجة فى سلم المجتمع حين تزوجت مخدومها الغنى ، فتدین فانى لتجاسرها على الزواج من جوزف ، الذى ارتفعت منزلته

فى المجتمع بزواج باملا برجل من علية القوم . ولام رتشرسن فيلدنج
لأنه اقترف « اضافة فاجرة خسيه » الى باملا (٨٤) .

ولم تشبع شهوة فيلدنج للهجو بتقليده الساخر لرتشرسن ، وراح
يحاكى الالياذة محاكاة ساخرة ، بالتصرع الى ربات الفنون والاداب
ويجعل كتابه ملحمة . وقد فاض ينبوع فكاهته فى مختلف الشخصيات
التي تلقاها جوزف وادمز فى طريقهما ، لا سيما الفندقى تو - واوز ،
الذى تفاجئه المسز تو - واوز متلبسا « بالجرم الفاضح » مع الخادمة
بتى ثم نصفح عنه ، و « احتمل نى هدوء ورضي أن يذكر بذنوبه . . .
مرة أو مرتين كل يوم طوال حياته الباقية » . واذ لم يكن فى طبع
فيلدنج أن يصنع بطلا ، ورواية بأكملها ، من شاب لا عيب فيه ، فانه
سرعان ما فقد اهتمامه بجوزف ، وجعل القس آدمز الشخصية المحورية
لكتابه . وقد بدا هذا خيارا بعبد الاحتمال ، لأن آدمز كن قسا سنيا
فى اخلاص وصدق ، يحمل معه مخطوطة بمواعظه باحثا عن ناشر
متهور . ولكن المؤلف أعطاه « بيبة » متبنة ، ومعدة قوبة ، وقبضتين
صلبتين ؛ ومع أن القس يعارض الحرب ، فإنه مقاتل كفاء يصرع
سلسلة من الأوغاد يتعقبونه لسرقة قصته . وهو الى حد بعيد أحب
شخص رسمه فيلدنج ، ونحن نشارك لذة المؤلف فى مواجهته مواجهاة
غريبة مع الخنازير ، والوحد ، والدم . والذين كانوا فى شبابهم
يتأثرون تأثرا عميقا بالمثل المسيحى الاعلى ، لا بد يستشعرون المحبة
الحارة لرجل دين خلا تماما من الغش وفاضت نفسه برا . ويقابل فيلدنج
بينه وبين القس تراليبر الجشع ، الذى كان « من أضخم الرجال الذين
يجدر بك أن تراهم ، وكان فى استطاعته أن يقوم بدور السر جون
فلسطين دون أن يحشو بدنه (٨٥) » .

وازدهى النجاح فيلدنج ، فأصدر فى ١٧٤٣ ثلاثة مجلدات وضع
عليها عنوانا متواضعا هو « منوعات » . وقد احتوى المجلد الثالث على
آية من آيات التهكم المتصل فى « حياة المستر جوناثان وايلد العظيم »
ولم يكن ترجمة حقيقية للص القرن الثامن عشر الأشهر ، « فان قصتى
تروى على الاصح أفعالا كان من الجائز أن يقوم بها (٨٦) » . وكان
فى شكله الأول سخرية من المر روبرت ولبول لاتجاره فى الأصوات

الانتخابية المسروقة ، فلما مات ولبول أصدره المؤلف من جديد فى صور هجاء « للعظمة » كما درج الناس على تقديرها وتحقيقتها . وذهب فيلدنج الى أن معظم « عظماء الرجال » أساءوا الى البشر أكثر مما أحسنوا اليهم. ؛ وهكذا لقب الاسكندر بالأكبر أو « العظيم » لأنه بعد ان « اجتاح امبراطورية شاسعة بالحديد والنار وأهلك العدد الهائل من البؤساء الذين لا ذنب لهم ، ونشر الخراب والدمار كأنه العاصفة الهوجاء يقال لنا ان من أعمال الشفقة التى تذكر له انه لم يذبح عيسوزا ولم يغتصب بناتها (٨٧) » واللص أحرى بضمير أكثر راحة واطمئنانا من ضمير رجل الدولة ، لأن ضحاياه أقل وغنيمته أضال (٨٨) .

وبأسلوب التراجم السياسية يخضع فيلدنج على جوناثان شجرة نسب رفيعة ، فيرجع بأصله الى « ولفستن وايلد ، الذى قدم مع هنجست » . وكان لأمه صفة غروية فى أصابعها غاية فى العجب (٨٩) . ومنها تعلم جوناثان فن اللصوصية وآدابها . وسرعان ما مكنه ذكاؤه الفائق من تنظيم عصابة من الشبان البواسل الذين كرسوا حياتهم لأراحة الناس الزائدين عن الحاجة من سلعمهم الزائدة عن الحاجة ، أو من حياتهم التى لا معنى لها . وكان يصيب حظ الأسد من مكاسبهم ، ويتخلص من المتمردين من مساعديه بتسليمهم لسلطات القضاء والأمن . وقد أخفق فى اغواء ليعيتنيا المطاردة ، التى آثرت أن يعتدى على عرضها مساعده فايريلود ، الذى « اغتصب هذه المخلوقة الجميلة فى دقائق ، أو على الأقل كاد يغتصبها ، لولا أنها منعتة من ذلك بامتثالها فى الوقت المناسب (٩٠) » . وبعدها تزوجت وايلد . وبعد اسبوعين يدخلان فى « حوار زوجى » تشرح فيه حقها الطبيعى فى حياة الفسق ، فيدعوها بالكلبة ، ثم يتبادلان القبل ويتصالحان . ويتصاعد حجم جرائمه أكثر فأكثر حتى يطيب لزوجته أن تراه محكوما عليه بالاعدام . ويرافقه قسيس الى المشنقة . فينشله وايلد فى الطريق ، ولكنه لا يجد معه سوى فتاحة للقوارير ، لأن الكاهن كان ذواقة للخمور ، أما « جوناثان العظيم ، فبعد كل مغامراته الجبارة ، كانت خاتمته - التى قل من عظماء الرجال من يستطيعون تحقيقها - أن علق من عنقه حتى مات (٩١) » .

وفى أواخر عام ١٧٤٤ فقد فيلدينج زوجته ، وكدر موتها مزاجه حتى ظهر حزنه بتصويرها تصوير المحب ، خلال أسي البعد ، فى شخص صوفيا وأميليا . وبلغ به العرفان بالوفاء الصادق الذى أبدته خادمة زوجته التى بفتت معه لترعى أبناءه أنه تزوجها فى ١٧٤٧ . وكان خلال ذلك يعانى من المرض والعوز ، ثم أنقذه من الفقر تعيينه (١٧٤٨) فاضى صلح لوستمنسنر ، ثم لدلسكس بعد فليل . وكانت وظيفة شاقه ، ينقد عليها راتبا غير مضمون من رسوم المنقاضين الدين يوافونه فى محكمته بشارع بو . وقد وصف الجنيهاة الثلثمائة التى تجمعت له من هذه الوظيفة كل عام بأنها « أقدر نقود على وجه الارص (٩٢) » .

ولابد أنه كان خلال هذه السنوات الحافلة بالشدائد (١٧٤٤ - ٤٨) عاكفا على أعظم رواياته ، لأنها صدرت فى فبراير ١٧٤٩ فى مجلدات سنة باسم « قصة توم جونز اللقيط » . وهو يروى لنا أن الكتاب ألف فى « بضعة آلاف من الساعات » استنقذها من الفضاء والكتابة المأجورة ، ولم يستطع أحد أن يتبين من فكاهه الكتاب القوبة وأدبه الفحل أن هذه كانت سنوات الحزن والنقرس والعوز . ومع ذلك فهانها ألف ومائتا صفحة فى رواية يعدها الكثيرون أعظم الروايات الانجليزية . فلم يسبق فى الأدب الانجليزى أن وصف رجل هذا الوصف الكامل الصريح ، بدنا وعفلا وخلقا وشخصية . ويحضرنا فى هذا المجال تلك الكلمات الشهيرة التى قدم بها ثاكرى لقصته « بندنيس » .

« منذ أن وورى مؤلف توم جونز التراب لم يؤذن لروائى منا أن يرسم « رجلا » بأقصى ما يملك من قدرة . فحتم علينا أن نستره وأن نخلع عليه ابتساما متكلفة تقليدية معينة . والمجتمع مصر على زفص « الطبيعى » فى فننا . . . وأنت تأبى أن تسمع . . . ما يتحرك فى دنيا الواقع ، وما يدور فى المجتمع ، وفى الأندية ، والكليات ، وقاعات الطعام - تأبى أن تسمع واقع حياة أبناءك وحديثهم » .

ويطالعنا توم أول ما يطالعنا طفلا غير شرعى وجد فى فراش المستر أولورذى الطاهر النقى . وبين هذه البداية وزواج توم فى النهاية.

حشر فيلدنج مائة حدث ، بأسلوب يوههم بأنه أسلوب قصص التشرذم ذات الفصول المتتابعة في غير ترابط ، ولكن القارىء سيدهشه ان هو ثابر على القراءة الى النهاية أن يجد أن هذه الأحداث كلها تقريبا ضرورية للبكة البارعة ، أو لعرض الشخصيات وتطويرها ؛ وأن يجد الخيوط تحل والعقد تفك . والعديد من الأشخاص مرسومون فى صورة مثالية ، مثل أولورذى الذى يكاد يشبه جرانديسن ، وبعضهم مبسطون تبسيطاً شديداً ، مثل بلايفل الذى يكرهنا على احتقارة ، أو القس نواكوم ، المربى « الذى سيطرت العصا على أفكاره (٩٣) » . ولكن كثيراً منهم يظهر فيهم ماء الحياة ، ومهم سكووير وسترن « الذى يعتز ببناقه وكلايه وخيله (٩٤) » أكثر من أى شيء فى الدنيا ، ثم تاتى زجاجة شرابه ، ثم ابنته صوفيا الفريدة فى بابها . ها هنا « كلاريسا » أخرى تعرف مسالكها بين فخاخ الرجال ، ويأملأ أخرى تصيد رجلها دون أن تزعجها تجاربه الماضية قبل الزواج .

أما توم ففيه شيء من التحلل الجنسي ، وفيما عدا ذلك فهو أطيب من أن يصلح للبقاء . تبناه أولورذى ، وعلمه ثواكوم وأدبه بعصاه ، فأدرك الرجولة القوية التى لا يكدر صفوها غير الخبثاء الذين يذكرونه بأصله الغامض . وهو يسطو على بستان فاكهة ويسرق بطة ، ولكن أباه بالتبنى يغتفر هذه الألاعيب جريا على أفضل التقاليد الشكسبيرية . وتعجب به صوفيا وهى على بعد عفيف منه ، ولكن توم ، الشاعر بمولده غير الشرعى ، لا يجرؤ إطلاقاً على الوقوع فى حب سيدة تبعد عنه هذا البعد السحيق مكانة ومالا . وهو يقنع بمولى سيجرم ، ابنة حارس الصيد ، ويعترف بأنه ربما كان أباً لطفلها ، ويروح عنه كثيراً أن يجد أنه لابس الا واحداً من عديدين يحتمل أن يكون أحدهم أباً للطفل . وتعانى صوفيا اذ تعلم بهذا الغرام الكئيم ، ولكن اعجابها بتوم لا يفتر الا لحظة عابرة . وهو يمسك بها بين ذراعيه اذ تسقط من جوادها أثناء الصيد ، ويشي احمرار وجهها بشعورها نحوه ، فيسارع الى مطارحتها الغرام . ولكن أباه ، سكووير وسترن ، كان قد هيا جيبه لصفقة تزويجها من المستر بلايفل ، وهو ابن أخت أولورذى الغنى الذى لم يعقب ، ووريثه الشرعى . وترفض صوفيا الزواج من هذا المنافق الشاب ، ويصر أبوها ، وتكدر المعركة الناشبة بين ارادة الأب

ودموع ابنته عدة مجلدات . أما توم فيبتعد محجما ، ويدعهم يفاجئونهم في أيكة ومولى بين ذراعيه ، وتظهر صوفيا في هذا المشهد فتقع مغشيا عليها . ويطرده أولورذى توم كارها ، فيبدأ هذا أسفاره الحافلة بالأحداث ، التي بدونها كان عسيرا على فيلدنج أن يكتب رواية ، اذ كان لا يزال مقلدا لسرفانتس ولساج . ويظل قلبه مع صوفيا الكسيرة الخاطر ، ولكنه وقد ظن أنه فقدتها إلى الأبد ينزلق إلى فراش المسز ووترز . وبعد شداؤد كثيرة ، ونعقيدات لا تصدق ، يصفح عنه أولورذى ، ويحل محل بلايفل وريثا له ، ويصلح ذات اللبين مع صوفيا اللخجول الصفوح ، ويرحب به سكوابير وسترن صهرا له ترحيبا صادقا مع أنه كان قبل أسبوع على أهبة قتله . ويتعجل وسترن الخاتمة الآن فيقول :

« اليها يا بنى ، اليها ، أمض اليها . . هل انتهى كل شيء ؟ هل حددت اليوم يا فتى ؟ ماذا ، أكون غدا أم بعد غد ؟ لن أرضي بالتأجيل دقيقة أكثر من بعد غد يمينا انها لتود من كل فلبها أن تنزف الليلة ، أليس كذلك يا صوهى ؟ أين بالله أولورذى ؟ اسمع يا أولورذى ، أراهن حمسه جيبيها لكراون أن سبولد لنا صبى بعد تسعة أشهر من عد (٩٥) » .

ان أحدا لم يصف الحياة الانجليزية منذ شكسبير بمثل هذه الخصوبة أو الصراحة . ذلك أن أوصافهم لا تشمل كل جوانب تلك الحياة ؛ ونحن نفتقد فيها الرقة والوفاء والبطولة والمجاملات والعاطفة - هذه التي توجد فى أى مجتمع . أما فيلدنج فأثر رجل الغريزة عن رجل الفكر . واحتقر مهذبى الكتب ومطهرها الذين حاولوا فى زمانه أن ينقوا تشوسر وسكسبير ، كما احتقر الشعراء والنقاد الذين ظنوا أن الأدب الجاد يجب ألا يتناول غير علية القوم . وفهم الحب بين الجنسين على أنه حب جسدى ، وأحال نواحيه الأخرى الى دنيا الأوهام . واحتقر جنون المال الذى لحظه فى كل طبقة ، وكره الدجل والنفاق كرها شديدا . ولم يرحم الوعاظ ، ولكنه أحب القس آدمز ، والبطل الوحيد فى « اميليا » هو الدكتور هاريسن ، وهو قس انجليكانى ؛ وكان فيلدنج نفسه يعظ فى كل مناسبة فى رواياته .

وبعد أن نشر توم جونز جرد قلمه لحظة لتناول المشكلات التي

بكابدها فى عملها قاضيا . وكانت تجربته تواجهه كل يوم بما فى لندن من عنف واجرام . فاقترح وسائل لتشديد حراسة الامن العام وتصريف القضاء . ويفضل جهوده ، وجهود السرجون فيلدنج ، وأخيه لأبيه ، الذى خلفه قاضيا فى شارع بو ، قضي على عصابة بثت الرعب فى لندن ، وشنق كل أفرادها تقريبا . وذكر متفائل فى ١٧٥٧ أن « الشر المسيطر ، شر سرقات الشوارع ، قد قمع كلية تقريبا (٩٦) » .

فى هذه الاثناء كان هنرى قد نشر آخر رواياته « أميليا » (ديسمبر ١٧٥١) . انه لم يستطع نسيان زوجته الاولى ، ولقد نسي أى عيوب ربما شابتها ، فاقام الآن لذكرها اثرا صورها فيه الزوجة الكاملة لجندى مبذر قصير النظر . فالكبتن بوث رجل لطيف شجاع كريمة ، وهو يعبد زوجته أميليا ، ولكنه يقامر حتى يتردى فى الدين ، ويبدأ الكتاب بالكبتن فى السجن . وهو يستغرق مائة صفحة يقص فيها قصته على نزيهة أخرى هى الأندسة ماثيوز ؛ يفصل لها جمال زوجته وتواضعها ووفاءها وحنانها وغير ذلك من صفاتها المثالية ، ثم يقبل دعوة الأندسة ماثيوز له أن يشاركتها فراشها ، وينفق «أسبوعا كاملا فى هذا الحديث المجرم (٩٧) » . وفى مشاهد السجن هذه وغيرها من المشاهد اللاحقة ، يفضح فيلدنج ، ربما فى شيء من المغالاة ، نفاق الرجال والنساء وفساد الشرطة والقضاء ووحشية السجنانيين . ويجد القارئ هنا وصف سجون المدينين التى ستعمر قرنا آخر لتثير سخط دكنز . ويستطيع القاضي تراشر أن يعرف جريمة سجين من لهجته الارلندية ، « يا غلام ، لسانك يشي بذنبك . فانت ارلندى ، وهذا دائما دليل كاف فى نظرى (٩٨) » . ويتصاعد عدد الاوعاد مع كل فصل ، حتى تصرخ أميليا لابنائها الذين عضهم الفقر قائلة « سامحونى لاننى أتيت بكم الى هذه الدنيا (٩٩) » .

وأميليا ، مثل جريزelda ، هى المثل الأعلى للمرأة الصبور كما تخيله فيلدنج . يكسر أنفها فى أحد الفصول الاولى ، ولكن جراحة الأنف تصلحه ، وتعود جميلة جمالا يغرى بمحاولة العدوان على عرضها مرة فى كل فصلين تقريبا . وهى تسلم بقصورها الفكرى عن زوجها وتطبعه فى كل شيء ، الا أنها ترفض الذهاب الى حفلة تنكرية ؛ وتحضر

لحنا دينبا (أوراتوريو) ، ولكنها تتردد فى تعريض نفسها لنظرات العابثين فى فوكسهول . فاذا عاد بوث اليها بعد احدى مغامراته الطائشة وجدها « تؤدى عمل الطاهى باللذة التى تستشعرها سيدة راقية فى ارتداء نياها استعدادا لحفلة رقص (١٠٠) » . وتتلقى رسالة من الانسة مانيوز اللئيمة نثي فيها بخيانة بوث لزوجته فى السجن ، فتمزق الرسالة وتكتم خبرها عن زوجها ، وتظل تحبه رغم كل سكره وقماره وديونه وسجنه ، وتبيع حلبها الضئيلة النمن ، ثم ملابسها ، لتطعمه وتطعم أطفالها . ولا تفن فى عمدعا أخطاؤه بقدر ما تفت فيه قسوة الرجال والانظمة التى توقعه فى شباكها . فلقد كان فيلدنج ، شأنه فى ذلك سان روسو وهلنتيوس ، يرى ان أكثر الناس طبيون بظنهم ، وان ما يفسدعم هر البينات الشريرة والفوانين السيئة . وعند ثاكري أن أميليا « أكثر الشخصيات فتنسة فى القصص الانجليزى (١٠١) » . ولكن ربنا لم نكن سوى حلم زوج . وفى النهاية تصبح أميليا بطبيعة الحال وارنه ، ويعتزل هى وبوٲ فى ضيعتها ، وبستقبح حال بوٲ .

أما خاتمة الرواية فلا نكاد ببررنا مقدماتها ؛ فبوٲ يبقى بوٲ على الدوام . ولقد حاول فيلدنج أن يربط كل عقد حكته فى وحسدة سعيدة ، ولكن خفته يده هنا مكشوفة جدا ، فلقد أدرك التعب هذا الروائى الفحل ، وأثار تقززه جو اللصوص والقتلة الذى أحاط به . كتب بعد أن فزع من اميليا يقول « لن أزعج العالم بعد اليوم بمزيد من أطفالى الذين تلدهم لى ربة الأدب ذاتها » . وفى يناير ١٧٥٢ بدأ « مجلة كوفنت جاردن » ، وكتب بعض المقالات القوية ، ورد على نقد سمولت ، وصوب طلفه الى روايته « روديك راندوم » ، وفى نوفمبر ترك المجلة نموت . وكان شتاء ١٧٥٣ - ٥٤ أقسى من أن يحتمله بدنه الذى هذه العمل والاستسقاء والصفراء والربو . وجرب ماء القار الذى نصبح به الأسقف باركلى ، ولكن الاستسقاء استفحل ، وأشار عليه طبيبه بالسفر الى بلد أدفا . ففى يونيو ١٧٥٤ استقل سفينة تدعى « ملكة البرتغال » مع زوجته وابنته . وفى الطريق كتب « يوميات رحلة الى لشبونة » ، وهى من ألطف ما كتب . ومات فى لشبونة فى ٨ أكتوبر ١٧٥٤ ، ودفن هناك فى الجبانة الانجليزية .

فما الذى انجزه ؟ لقد أرسى دعائم رواية السلوك الواقعية ؛ ووصف حياة الطبقات الوسطى الانجليزية وصفا أنصح من أى وصف أتى به مؤرخ ، وفتحت كتبه علما بأسره . ولكنه لم ينجح مثل هذا النجاح مع الطبقات العليا ، وكان عليه أن يقنع فى هذا الميدان ، كما قنع رتشرسن ، بنظرة الدخيل . ولقد عرف من حياة وطنه الجسد خيرا مما عرف الروح ، ومن الحب جسده خيرا مما عرف روحه ، وغابت عنه موممات الخلق الانجليزى الأكثر رهافة وخفاء . ومع ذلك فقد ترك بصمته على سمولت ، وستيرون ، ودكنز ، وثاكرى ؛ لقد كان أبا لهم أجمعين .

٣ - طوبياس سمولت : ١٧٢١ - ٧١

لم يكن سمولت يحبه ، لأنهما تنافسا على استحسان القراء فى الميدان نفسه . وكان أصغر الرجلين اسكتلندياً وأفق هيوم على التحسر لأن انجلترا عاقت الطريق الى فرنسا . ولكن جده كان قد شجع الاتحاد البرلمانى مع انجلترا عمليا (١٧٠٧) ، وكان عضواً فى البرلمان المتحد . ومات الأب وطوبياس فى الثانية من عمره ، ولكن الأسرة أنفقت على تعليم الصبى فى مدرسة دمبرتون الثانوية وفى جامعة جلاسجو حيث درس المقررات الممهدة لدراسة الطب . ولكنه بدلا من أن يواصل الدرس حتى يحصل على درجته الطبية أدركته عدوى الكتابة ، وهرع الى لندن وجاريك ، يحمل مأساة ضعيفة ألفها ، ورفضها جاريك . وبعد أن جاع طوبياس فترة قصيرة التحق مساعدا لجراح فى البارجة « كمبرلاند » وأبحر معها (١٧٤٠) فى الحرب التى نشبت مع أسبانيا بسبب « أذن جنكينز » . واشترك فى الهجوم الأخرق على قرطاجنة لمواجهة لساحل كولومبيا . وفى جميعا ترك الخدمة ، وهناك التقى بنانسي لاسيل التى تزوجها عقب عودته (١٧٤٤) الى انجلترا . وسكن بيتا فى داونج ستريت ومارس الجراحة ، ولكن شهوة الكتابة غلبته ، وكانت تجاربه فى البحرية تطالبه على الأقل بقصة واحدة . لذلك نشر أشهر رواياته فى سنة ١٧٤٨ .

أما هذه الرواية ، وأسمها « مغامرات رودريك راندوم » ، فهى

رومانسية التشرم القديمة ، الحافلة بالأحداث الدائرة حول احدى الشخصيات . ولم يعترف سمولت بأى فضل لفيلدنج ، ولكنه اعترف بالفضل الكبير لسرفانتيس ولساج . وقد شده البشر وأفعالهم أكثر مما شدته الكتب والألفاظ ، فحشد قصته بالأحداث وأضفى عليها نغمة الأقدار ولون الدماء ، وملاها ناسا تفوح منهم رائحة الشخصية والحديث الفجّل . وهذه الرواية من أقدم وأفضل مئات الروايات الانجليزية التى كتبت عن البحر . ولكن قبل أن يجند رودريك فى البحرية يختبر - كما اختبر صامعه - عينات من الفنادق الانجليزية والأخلاق اللندنية . وما أكثر ما افتقدناه لأننا لم نجرب السفر فى مركبات القرن التامن عشر تلك والنزول فى تلك الفنادق ! - مسرح حافل بالأنفس المصطرعة والجنود المحتضرين ، والقوادين والمومسات ، والباعة الجوالين بحملون حزمهم ويخفون نقودهم ، والرجال يقبلون المبالو بحنا عن الفراش الخطأ ، والنساء يصرحن مستغنيات من مَنصب ثم تسكنهن النقود ، وكل صعلوك يتظاهر بالعظمة ، وكل انسان يسب ويتنم . فالآنسة جنى تخاطب البائع الجوال قائلة « أنت أيها الفاسق العريق فى الزنا مائة فى المائة » وتسال الكبتن « لعنك الله يا سبدي ، من أنت ؟ ومن حطك كبتنا أيها المتملق ، القواد ، كناس الخنادق الحقيقير ؟ تبا لك ! ووبل للجيش اذا كان أمثالك من ضباطه (١٠٢) » .

وفى لندن يصبح رودريك (وهو هنا = سمولت) مساعدا لصيدلانى . ويفلت من الزواج حين يجد خطيبته فى الفراش مع رجل آخر . « لقد أعطتني السماء من الصبر وحضور الذهن ما جعلنى أنسحب فوراً ، وشكرت حظى ألف مرة على هذا الكشف السعيد الذى عولت على الافادة منه فأكف عن كل تفكير فى الزواج مستقبلا (١٠٣) » وهو يقنع بحياة الفسق ، ويطلع على حياة البغايا وبلاوبهن ، ويعالج أمراضهن ، ويندد بالدجاجلة الذين يبتزون مالهن ، ويلاحظ كيف أن المومس « مع كثرة شكوى الناس من أنها مصدر ازعاج تفلت من العقاب بفضل مالها من نفوذ على القضاة ، الذين تدفع لهم هى وجميع من يعملن فى خدمتها تبرعات ربع سنوية لقاء حمايتهن (١٠٤) » .

ثم يفقد وظيفته لاتهامه باطلا بالسرقة ، ويتردى فى مهاوى الفاقة حتى « لم أجد ملجأً ألوذ به غير الجيش والبحرية » . ويعقبه من

عذاب اتخاذ القرار عصابة لجمع المجندين بالقوة ، تصرعه على الأرض فاقد الوعي وتجره الى متن سفينة صاحب الجلالة « نندر » . ويستسلم لمصيره ، ويصبح ضابطا جراحا . وبعد يوم واحد فى البحر يدرك أن للكبتن أوكم ليس الا وحنا نصف مجنون ، يلزم البحارة المرضى بالعمل ضنا منه بالمال حتى يموتوا . ويقاتل رودريك فى قرطاجنة وتتحطم به السفينة ، فبسبح الى بر جميك ، ويصبح خادما لشاعرة عجوز علية ، ويقع « فى حب » ابنة أخيها نارسيسا ، « وداعبته الأحلام بأنه سيستمع يوما ما بهذه المخلوقة اللطيفة (١٠٥) » . وهكذا نجرى القصة فى تدفق سمولت اللاهث ، بفقرات تتصل الواحدة منها ثلاث صفحات ، فى لغة بسيطة فوية بذئته . وفى لندن يصادق رودريك مجموعته جديدة من الأصدقاء الغريبي الأطوار ، بما فيهم الأنسة ميلندا جوستراب والأنسة بدى جرايبويل . ثم بمضي الى باث بمزيد من مناظر مركبات السفر ؛ هناك يلتقى بنارسيسا الحلوة ويظفر بمحبنتها له ، تم يفقدها ، ويشتبك فى مبارزة ٠٠٠ ويعود الى البحرية جراحا ، ويبحر الى غينيا (حيث « يشتري » قبطان سفينة أربعمائة عبد ليبيعهم فى بارجواى « بريح كبير ») ، ثم يعود الى جميك ، حيث يجد أباه الذى فقده منذ أمد طويل وأصبح الآن ميسور الحال ، ويعود الى أوربا ثم الى نارسيسا ، فيتزوجان ويعود بها الى اسكتلنده وضبيعة أبيه ؛ أما نرسيسا « فيبدأ خصرها يستدبر بشكل ملحوظ » . وأما رودريك :

« فاذا كان على الأرض شيء يسمى السعادة الحققة فانى استمتع بها . لقد سكتت الآن اضطرابات عاطفتى العاصفة ولانت فى حنان الحب وهدوئه ، بعد أن رسخ جذورها ذلك الاتصال الحميم والتعاطف القلبى الذى لا وجود به غير رباط الزوجية الطاهر » .

وراجت رواية رودريك راندوم . وأصر سمولت الآن على نشر مسرحيته « قاتل الملك » مشفوعة بمقدمة محق فيها أولئك الذين رفضوها من قبل ؛ وقد دأب على أن يطلق العنان لطبعه الحاد فى خلق الأعداء . وذهب الى أبردين فى ١٧٥٠ وتسلم درجة الطب ، ولكن شخصيته كانت عقبة فى طريق مارسه الطب ، فانكفا الى الأدب . وفى ١٧٥١ أصدر « مغامرات بريجرين بيكل » . وهنا ، كما فى راندوم ، دعا العنوان

القارىء لجولة من الأحداث المثيرة فى حياة جوابة ؛ ولكن سمولت وقع الآن على عرق من الفكاهة اللاذعة فى أنجح شخوصه ، ذلك هو الكومودور ترنيون ، الذى يصفه بأنه « سيد من طراز غاية فى الغرابة » كان « مقاتلا مغوارا فى زمانه ، وفقد عيننا وعقبنا فى الخدمة العسكرية (١٠٦) » وهو يصير على أن يقص للمرة التاسعة كيف قصف بالمدافع بارجة فرنسية تجاه رأس فنستير . ويأمر خادمه توم بابير بأن يؤمن على كلامه ، وهنا « فتح توم فمه كأنه سمكة » قد « لاهتة » وبايقاع أشبه بعصف الريح الشرقية تصفر فى شق « فاه بالتأييد المطلوب (وقد رأى فيه ستيرن هذا آثارا طفيفة من العم توبى والجوايش تريم) .

ويواصل سمولت مرحة خلال وصف صاخب لمسز جريزل وهى تخطب ود الكومودور الذى يتوسل اليه مساعده ذو الساق الواحدة ، جاك هانشواى ، ألا يسمح لها بأن « تجره تحت مؤخر سفينتها » لأنها « متى أحكمت وثاقلك الى مؤخرها ، انطلقت والله حثيثا ، وجعلت كل عرق من عروق جسدك ينشق من الشد » . ويطمئنه الكومودور قائلا « لن يرى انسان هوسر ترنيون طريحا فى مؤخر السفينة فى ذيل أى - فى العالم المسيحي (١٠٧) » على أن مختلف الخطط والمكائد تحطم عقته ؛ فيوافق على أن « يثبت مركبه بمرساة » أى يتزوج ، ولكنه يمضي الى رباط الزوجية « كمجرم ماض الى اعدامه وكأنه يخشى فى كل لحظة من تحلل عناصر الطبيعة » . ويصر على أن يكون فراش زواجه أرجوحة شبكية ، فتنهار تحت ثقل الجسدين ، ولكن هذا لم يقع الا بعد أن « ظنت السيدة أن هدفها العظيم قد تحقق ، وسلطانها أصبح مكفولا أمام جميع صدمات الحظ » . على أن هذا التلاحم بين جسدين ينتهى بغير ثمر ، فتتكفى المسز ترنيون الى البرندى و « فروض الدين التى راحت تؤديها بصرامة تفيض حقدا » .

وقد صور المر ولتر سكوت سمولت فى أربعيناته بأنه « وسيم جدا ، جذاب الملامح ، وحديثه - بشهادة كل أصدقائه الباقين على قيد الحياة - منير ومسل الى أبعد حد (١٠٨) » . وأجمع الناس على أنه رجل حاد الطبع فى حديثه . قال يصف السر تشارلز نولز أنه « اميرال بغير ارادة ، ومهندس بغير معرفة ، وضابط بغير عزيمة ، ورجل بغير م ١٩ - قصة الحضارة

السجن ثلاثة أشهر ، وغرامة قدرها مائة جنيه (١٧٥٧) . على أن خدعة طبعه كانت ترافقها فضائل كثيرة ، فقد كان كريما رحيمًا ، أعان فقراء المؤلفين ، وأصبح كما قال السر ولتر « أبًا شديد التعلق بأبنائه ، وزوجًا محبًا لزوجته (١١٠) » . وكان منزله في لورنس لين بحى تشلسي ملتقى لصغار الكتاب الذين كانوا يصيبون من طعامه وإن لم يتبعوا نصائحه ؛ وقد نظم بعضهم في فرقة من المساعدين الأدبيين . وكان رائدًا بين الناشرين (ودرايدن بين الشعراء) ؟) في الزامه تجار الكتب بتأييده في شرط يليق بعبقريته . وكان أحيانًا يكسب ستمائة جنيه في العام ، ولكن كان عليه أن يكد ويكدح ليكسبها . وكتب ثلاث روايات أخرى ، اثنتان منها لا تستحقان الذكر . وأقنع جاريك بأن يخرج تمثيليته « العقاب » ، التي نجحت بفضل هجمات على فرنسا ؛ ثم كتب لعدة مجلات مقالات تتسم بروح التحرش والمشاكسة ؛ ورأس تحرير صحيفة « البريطاني » لسان حال المحافظين . وترجم جيل بلاسي ، وعدة مؤلفات لفولتير ، ودون كخوته (مستعينا بترجمة سابقة) ، وكتب - أو أشرف على كتابة - تاريخ لانجلترا من تسعة مجلدات (١٧٥٧ - ٦٥) . ومن المؤكد أنه استخدم « مصنعه الأدبي » المؤلف من الكتاب المأجورين في جراب ستريت ليصنف « تاريخا للعالم » وكتبا ذا ثمانية مجلدات اسمه « الحالة الراهنة للأمم » .

وحين بلغ الثانية والأربعين عام ١٧٦٣ ، كان قد دفع باعتلال صحته ثمن حياته المتطلعة ، الحافلة بالمغامرة والجهد والشجار والكلام . ونصحه طبيبه بأن يستشير اخصائيا في مونبلييه يدعى الدكتور فيز . فمضى إليه ، وأخبره الاخصائى أن ربوه ، وسعاله ، وبصاقه الصديدي ، دليل على اصابته بالسل ، واذا كره العودة الى رطوبة انجلترا وخضرتها ، فقد ظل عامين في القارة ، يغطى نفقاته بكتابة « رحلات في فرنسا واطاليا » (١٧٦٦) ، وقد أبدى هنا ، كما أبدى في رواياته ، تلك النظرة الحادة للملاحظة التي ترى سمات خلق الافراد والأمم وسميزاته ؛ ولكنه تبل أوصافه بالشتائم الصريحة . وأخبر سائقى مركبات السفر ، وزملاءه المسافرين ، وأصحاب الفنادق ، والخدم ، والأجانب المتحمسين لاوطانهم ، رأيه فيهم دون موارد ؛ واعترض على كل فاتورة حساب ، وحطم الفن الفرنسي والاطالى ، وسخر من الكاثوليكية ، وحكم على

الفرنسيين بأنهم لصوص جشعون لا يظفون دائما سرقاتهم بغلاف من
للادب والكياسة . استمع اليه يقول :

« لو أن فرنسا أدخل الي أسرتك . . لكان أول رد له على مجاملاتك
أن يطرح زوجتك الغرام اذا كانت جميلة ؛ والا فأختك ، أو ابنتك ، أو
ابنة أخيك أو أختك . . . أو جدتك . . . فاذا كشف أمره . . . صرح في
صفاقة بأن ما صنعه لم يكن سوى تودد لا غبار عليه ، مما يعد في فرنسا
من مقومات التربية الحسنة (١١١) » .

وعاد سمولت الي إنجلترا وقد تحسنت صحته كثيرا . ولكن عائلته
عاودته في ١٧٦٨ ، فحاول الاستشفاء في باث . غير أنه وجد مياهاها
عديمة الجدوى له ، وهواءها الرطب خطرا عليه ؛ وفي ١٧٦٩ عاد الي
ايطاليا . وفي فيللا قرب لجهورن كتب آخر كتبه وأفضلها وهو « رحلة
هسفرى كلنكر » وفي رأى ثاكري أنه « أفكه قصة كتبت منذ بدأ ذلك الفن
الجميل ، فن كتابة الروايات (١١٢) » . وهو ولا شك أمتع والطف كنب .
سمولت اذا استطعنا أن نطبق شيئا من القدر . وفي مطلع القصة
تقريبا نلتقى بالدكتور - الذى يتحدث عن الروائح « الطيبة » أو
« الخبيثة » باعتبارها ميولا ذاتية خالصة « لأن كل شخص يزعم أنه
يتقزز من رائحة افرازات شخص آخر يستنشق رائحة افرازاته هو برضا
تام ، وقد ناشد جميع الحاضرين من السيدات والسادة هناك أن يشهدوا
على صدق قوله (١١٣) » ، ويلى ذلك صفحة أو اثنتان من شروح أشد
لذعا وحرافة حتى من هذه . وبعد أن تخفف سمولت من هذه اللقمة ،
عمد الي اختراع سلسلة مرحة من الشخصوس ، يواصلون الحكاية بخطاباتهم
في أسلوب غاية في العجب والامتاع ، وعلى رأسهم ماثيو برامبل وهو
« سيد عجوز » وعزب عصي ، ينطقه سمولت بأرائه . وهو يذهب
الي باث للاستشفاء ، ولكنه يجد خبث رائحة مياهاها أشد وقعا في
نفسه من قوتها الشافية . وهو يكره زحام الجماهير ، ويغنى عليه
مرة من روائحهم المتجمعه ، ولا يطبق هواء لندن الملوث ، أو أطعمتها
المغشوشة . يقول :

« ان الخبز الذى آكله في لندن عجيب مؤذ اختلط به الجير والشب

ورماد. العظام؛ غث المذاق مدمر للجسم . ولا يجهل القوم الطيبون. هذا الغش لكنهم يفضلونه على الخبز الصحى ، لأنه أكثر بياضا . . . وهكذا يضحون بمذاقهم وصحتهم . . . والطحان أو الخباز مضطر الى تسميمهم . . . ومثل هذا الفساد الشديد يظهر فى لحم العجول الذى ياكلونه ، والذى يبيضون لونه باستنزاف دمه مرارا وتكرارا ، وبغير هذا من الوسائل الخبيثة ؛ وقياسا على هذا يصح للمرء أن يتناول غذاءه بمثل هذا الاطمئنان من قطعة محمرة من قفاز جلد الماعز . . . ولن تصدقوا أن الجنون بلغ بهم أن يسلقوا خضرهم ومعها قطع نحاسية من نصف البنس لينضروا لونها (١١٤) « .

وعليه يهرع ماثيو عائدا الى ضيعته الريفية ، حيث يستطيع أن يتنفس ويأكل دون أن يعرض حياته للخطر . وفى طريقه اليها ، بعد أن انتهى ربع القصة ، يلتقط غلاما ريفيا فقيرا فى أسمال بالية يدعى همفري كئىك « كانت نظراته تنبئ بالجوع ، ولم تكد الخرق التى يلبسها تستر ما تقتضى اللياقة اخفائه » . ويعرض هذا الصعلوك أن يسوق العربية ، ولكن حين يتربح على مقعد السائق العالى تنشق سراويله العتيقة ، وتشكو المسز طابيتا برامبل (أخت ماثيو) من أن همفري « جرؤ على أن يؤذى بصرها بإبداء أردافه العارية » . ويكسو ماثيو الصبى ، ويلحقه بخدمته ، ويحتمله بصبر حتى حين يصبح الفتى واعظا مثوديا عقب سماعه جورج هوايتفيلد .

ويبدو جانب آخر من الموقف الدينى فى المستر - الذى يقابله برامبل فى سكاربرو ، والذى يفاخر بأنه تحدث الى فولتير فى جنيف « عن تسديد اللطمة القاضية للخرافة المسيحية (١١٥) » ويدخل خارجى آخر اسمه الكبتن لزماها جو القصة فى درم - « رجل طويل هزيل ، يتفق مظهره هو وحصانه مع وصف دون كخوته ممتطيا جواده روزنانتى » . وقد عاش بين هنود أمريكا الشمالية ، وهو يقص فى لذة كيف أن هؤلاء الهنود قد شؤوا على النار مرسلين فرنسيين لقولهما ان الله سمح لابنه « ان يدخل أحشاء امرأة ، ويعدم كما يعدم المجرمون » ، ولأنهما زعما أنهما يستطيعان « تكثير الله الى مالا نهاية بالاستعانة بقليل من الدقيق والماء » وكان لزماهاجو « يكثر استعمال ألفاظ مثل

العقل ، والفلسفة ، وتناقض الحدود ؛ وقد أنكر خلود نار الجحيم ،
 بل قذف ببعض مفرقاته عقيدة خلود الروح قذفا شيط شوارب إيمان
 السيدة طابيثا قليلا (١١٦) » .

ولم يكتب لسمولت أن يرى « همفري كلنكر » مطبوعة . ففي
 ١٧ سبتمبر ١٧٧١ مات في فيلته الايطالية غير متجاوز الخمسين ،
 بعد أن خلق من الأعداء والشخصيات الحية أكثر مما خلقه أى كاتب
 آخر فى زمانه . ونحن نفتقد فيه ما نجده فى فيلدنج من ابتهاج وتقبل
 صحى للحياة وبناء للحبكة فيه جهد وعناية ، غير أن فى سمولت حيوية
 هارمة ، وفيه رنين ورائحة مدن بريطانيا ومراكبها وطبقته الوسطى ،
 وحكايته ذات الأحداث المترابطة البسيطة تتدفق بحرية وحيوية أكثر
 دون أن يعوقها عائق من المواقف . . ورسم الشخصى أقل لفتا للنظر
 فى فيلدنج ، ولكنه أكثر تعقيدا . وكثيرا ما يقنع سمولت بتكديس
 السمات المميزة للأفراد بدلا من ارتياده للتناقضات والشكوك والتجارب
 التى تصنع الشخصية . وهذا الأسلوب فى تمييز الأفراد - بالمبالغة فى
 خصيصة ما باعتبارها « لازمة » فى كل شخص - انتقل الى دكنز ،
 الذى واصل بمذكرات بكوك الرحلة التى بدأها ماثيو برامبل .

هؤلاء الكتاب - رتشرسن وفيلدنج وسمولت - اذا أخذناهم معا ،
 وجدناهم يصفون انجلترا منتصف القرن الثامن عشر وصفا أكمل وأدق
 من أى وصف أتى به مؤرخ أو جميع المؤرخين - الذين يضلون طريقهم
 وسط الشذوذات . فكل شيء موجود هنا ، اللهم الا تلك الطبقة العليا
 التى أخذت عن فرنسا عاداتها ومستعمراتها . هؤلاء الروائيون أدخلوا
 الطبقات الوسطى دخول الظافرين الى ميدان الأدب ، كما أدخلهم
 ليللو الى الدراما ، وجأى الى الاوبرا ، وهوجارث الى التصوير . لقد
 خلقوا الرواية الحديثة وتركوها تراثا لا يبارى .

٦ - الليدى ماري

بهذا اللقب ألفت انجلترا أن تلعب الملع الانجليزيات فى جيلها ،
 المرأة التى دخلت تاريخ الآداب والعادى بهجومها على التقاليد التى
 حبست جنسها ، ودخلت تاريخ آداب اللغة بكتابتها رسائل تنافس رسائل
 مدم دسفينيه .

وقد حظيت بظروف مواتية للانطلاق ؛ فهي حفيدة السرجون
 ايفلين ، وابنه ايفلين بييربونت الذى انتخب عضوا بالبرلمان سنة
 مولدها (١٦٨٩) ، والذى ورث عقب ذلك ضيعة غنية ولقب ايرل
 كنجرتن ، ومن هنا لقبته ابنته بـ « ليدى مارى » منذ طفولتها . أما
 أمها ، الليدى مارى فيلدنج ، فكان أبوها ايرلا ، وابن عمها هو الروائى
 المعروف . وماتت الأم وبطلتنا لا تتجاوز الرابعة من عمرها . وأرسل
 الأب أطفاله الى أمه لتكفلهم ، فلما ماتت عادوا الى مقره الريفى
 المترف ، ثورزى بارك ، فى مقاطعة نوتنجهامشير ، وكانوا يعيشون
 أحيانا فى منزله اللندنى فى بيكاديللى . وكان شديد التعلق بمارى التى
 اختارها « نخبا » (أى شخصا يشرب نخبه) للعام فى نادى الكيت كات؛
 هناك كانت تنتقل من حجر الى حجر ، وببدى ذكاءها فى شيطنة . وقد
 علمت نفسها فى مكتبة أبيها بمعاونة مربيتها ، فكانتا تتفقدان هناك
 أحيانا ثمانى ساعات فى اليوم ، تستوعبان الرومانسيات الفرنسية ،
 والتمثيلات الانجليزية . والتقطت بعض الفرنسية والايطالية ، وعلمت
 نفسها اللاتينية بالاستعانة بـ « تحولات » الشاعر أوفيد . . وكان
 أديسون وستيل وكونجريف يختلفون الى البيت ، ويشجعونها على
 الدرس ، ويحفزون ذهنها المتطلع . ونحن نعرف ، من مصدر وحيد
 هو مصدرها هى ، أن المامها بالأدب اللاتينية هو الذى جذب اليها
 اهتمام ادورد ورتلى .

وكان حفيدا لادورد مونتاجيو ، أول ايرل لساندوتش ، واتخذ
 أبوه سدنى مونتاجيو اسم ورتلى عند زواجه بوارثة ذلك اللقب . وكان
 ادورد حين التقى بمارى (١٧٠٨) - وهو فى الثلاثين - رجلا ذا شأن
 وتطلعات كبيرة ، تزود بتعليم جامعى ، ودعى لاحتراف المحاماة فى
 الحادية والعشرين ، وظفر بكرسى فى البرلمان وهو فى السابعة
 والعشرين . وهو لا يدرى كيف بدأ توددها اليه ، ولكن هذا التودد أحرز
 شيئا من التقدم ، لأنها كتبت له فى ٢٨ مارس ١٧١٠ تقول :

« اسمح لى بأن أقول هذا (وأنا عليمه بأن قولى قد يبدو
 غرورا) ، وهو أنى أعرف كيف أسعد رجلا معقولا ؛ ولكن على ذلك
 الرجل . . . أن يسهم هو نفسه بشيء فى هذا . . . وهذه الرسالة . . .
 هي اول رسالة كتبتها فى حياتى لانسان من جنسك ، وستكون الأخيرة .
 فعليك ألا تتوقع رسالة أخرى على الاطلاق (١١٧) » .

وأفلحت استراتيجيتها المتأنيبة . فلما مرضت بالحصبة أرسل إليها رسالة قصيرة كانت آخر مما ألف أن يرسل : « كان يفرحني كثيرا أن أسمع بأن حسنك قد أودى جدا لو كنت أسر بأى شيء يسوعك ، لأن من شأن هذا أن يقلل من عدد المعجبين بك (١١٨) » . ودفع جوابها . حملتها خطوة أخرى « انك نظن أننى - لو تزوجتنى - ساهيم بحبك شهرا ، ويجب آخر فى الشهر التالى ، ولكن لن يحدث هذا ولا ذاك . فى استطاعتى أن أقدر انسانا ، وأن أكون صديقة لأنسان ، ولكننى لا أدرى أستطيع أن أعشق (١١٩) » . ولعل هذه الصراحة جعلته يتريث ، لأنها كتبت فى نوفمبر « تقول انك لم تستقر على رأى بعد ، فدعنى أقرر نيابة عنك ، وأعفيك من مشقة الكتابة ثانية . وداعا الى الأبد ! لا ترد (١٢٠) » . وعادت تكتب فى فبراير ١٧١١ لتقول له « هذه آخر رسالة أبعث بها (١٢١) » . واستأنف تودده إليها ، فتقهقرت ، وأغرته بالمطاردة الحثيثة . وتدخلت الاعتبارات المالية واعتراض الأب ، فدبرا الهرب ، وان كان معنى هذا الا تتوقع مهرا من أبيها . وألذرت ورتلى انذارا أمينا « فكر الآن لآخر مرة بأى طريقة يجب أن تأخذنى . سأحضر اليك بقميص نومى وتنورتى ، وذلك كل ما ستحصل عليه معى (١٢٢) » والتقيا فى نزل ، وتزوجا فى أغسطس ١٧١٢ ، وبعدها لقت بالليدى ماري ورتلى مونتايجو ، هذا الاسم الاخير اتخذته من نسب زوجها ، ولكن لما كان ابنا لابن ثان للأسرة (غير البكر) ، فقد ظل اسمه ادورد ورتلى دون القاب شرف .

وما لبثت دواعى العمل والسياسة أن نقلته الى درم ولندن ، بينما تركها بدخل متواضع جدا فى عدة بيوت فى الريف انتظارا لوصول وليدها . وفى أبريل لحقت بورتلى فى لندن ، وهناك ولد طفلها الاول فى شهر مايو . على أن سعادتها كانت قصيرة الاجل ، فقد رحل زوجها سعيا لاعادة انتخابه فى البرلمان ، وما لبثت أن أخذت تشكو الوحدة ؛ لقد تطلعت الى شهر عسل حالم ، وتطلع هو الى مقعد فى البرلمان الجديد . وأخفقت حملته الغالية التكلفة ، ولكنه عين عضو لجنة صغيرا . واستاجر بيتا قرب قصر سانت جيمس ، وهناك ، فى يناير ١٧١٥ ، بدأت الليدى ماري غزوها للندن .

وقد خبرت فيها دوامة الحياة الاجتماعية . فكانت تستضيف
 الأصحاب أيام الاثنين ، وتختلف الى الأوبرا أيام الأربعاء ، والى
 المسرح أيام الخميس . وتزور وتزار ، وترفرف حول بلاط جورج الأول ،
 ومع ذلك ظفرت برضي الأميرة كارولين . وصادقت الشعراء ، وتبادلت
 النكت الذكية مع بوب وجاى . وافتتن بوب ببديقتها الحاضرة ، ونسي
 لحظة احتقاره للجنس الأنعم ، وصفق لجهودها فى تعليم البنات ،
 وأهداها بعض قوافيه التى نظمها فى هرولة :

« فى الحسن أو الذكاء

لم يجرؤ بشر بعد

أن يشك فى علو كعبك ،

ولكن من الرجال ذوى الفطنة

من رأى ان التسليم لسيدة

فى أمور العلم أمر عسير .

ان المدارس الوقحة ،

بقواعدها الغبية البالية ،

أنكرت التعليم على الاناث ،

وكذلك يذكر البابويون

على الناس قراءة الكتاب المقدس

مخافة أن تغدو الرعية حكيمة كراعيا .

ان المرأة كانت أول

من ذاق لذة المعرفة

(رغم أنها لعنت)

ويجمع الحكماء

على أن القوانين يجب أن تقضى

بالحق لأول مالك .

اذن فاستأنفى أيتها السيدة الحسنة

فى جراءة ذلك الحق القديم

الذى هو فطلب جنسك كله ؛
 واجعلى الرجال يتلقون
 على يد حواء ثانية ذكية
 معرفة الخير والشر .

ولكن اذا كانت حواء الاولى
 قد عوقبت عقابا صارما
 لانها لم تقطف غير تفاحة واحدة ،
 فإى عقاب جديد
 يقضى به عليك ،

يا من سرقت الشجرة كلها بعد أن ذقت حلاوتها (١٢٣) ؟ «

وكتب جاى الآن نشيدا رعويا سماه « التبرج » هجا فيه بعض
 اعلام لندن تحت أسماء زائفة شفاقة . وشاركت الليدى مارى فى هذه
 النعبة . وبمساعدة بوب وجاى نظمت نشيدين رعويين نافست أبياتهما
 الزوجية البتارة أبيات الشاعرين رشاقة ولذعا . ولم تنشر هاتين
 القصيدتين ، ولكنها سمحت بتداول نسخ مخطوطة منهما بين
 الاصدقاء - واكتسبت الآن شهرة بأنها قريع بوب بين النساء ، امرأة
 تحذق فنون القلم والقوافى والسخرية الموجهة .

على أنها فى ديسمبر ١٧١٥ كابتدت لطمة أوجع من سهامها . ذلك
 أن الجدرى الذى قتل من قبل أخاها هاجمها هجوما قاسيا حتى شاع
 أنها ماتت . وقد نجت من الموت ، ولكن وجهها تشوه ببثور الجدرى ،
 ورموشها سقطت ، ولم يبق غير عينيها السوداوين النجلاوين أثرا من
 ذلك الجمال الذى اعتمدت عليه فى دفع زوجها الى الامام . ومع ذلك
 ظفر ورتلى بالكفاة ، ففى أبريل ١٧١٦ عين « سفيرا فوق العادة »
 فى البلاط العثمانى . وابتهجت الليدى مارى ، فلقد حلمت بالشرق
 مرتعا للأحلام والشعر ، وحتى وهى فى صحبة زوجها قد تجد الرومانس
 فى الآستانة أو فى الطريق اليها . وكتب لها بوب وقد طاف هذا الحلم

بخياله كذلك ، فى اول يوليو ، رسالة اشرفت على شفا الغرام باسلوب
أنيق :

« لو خطر لى أننى لن أراك ثانية لقلت هنا أشياء ما كنت لأقولها
لشخصك . فما أريد أن أتركك تموتين مخدوعة فى ، أى تذهبين الى
الاستاذة دون علم بأننى ، بشيء من المبالغة ، وبغاية التعقل أيضا ،
يا سيدتى » .

ثم وقع بالتحية المنمقة المألوفة ، تحية العبد الخاضع
المطيع (١٢٤) .

وفى اول أغسطس ، عبر ورتلى ومارى وابنهما البسالع ثلاث
سفين ورهط من الخدم والحشم البحر الى هولنדה . ومروا بكونولونيا
الى ريجنبرج ، حيث ابجروا على ذهبية يجذف فيها اثنا عشر ملاحا
مرورا بقمم جبلية تعلوها القلاع . وفى فيينا وجدت رسالة من بوب
يقدم فيها قلبه ويؤكد لها :

« لا لأنى أرى فى كل انسان متجرد مشهدا رائعا مثلك أنت وقلة
اخرى من الناس . . فى وسعك أن تتخيلى بسهولة مبلغ رغبتى فى
مراسلة شخص علمنى منذ أمد بعيد أن الاحترام من أول نظرة محال
كالحب ، وأفسد على منذ ذلك الحين لذة كل حديث مع أحد الجنسين ،
وكل صداقة مع الجنس الآخر تقريبا . . لقد فقدت الكتب تأثيرها على ،
وآمنت منذ رأيتك أن هناك شيئا أقوى من الفلسفة ، وأن هناك ، منذ
سمعتك ، انسانا حيا هو أحكم من جميع الحكماء (١٢٥) » .

ولكنه أضاف أمله بأن تكون سعيدة مع زوجها . وردت عليه
قائلة :

« ربما ضحكت منى لشكرى اياك بكل وقار على اهتمامك المتفضل
الذى أعريت عنه . ومن المؤكد أنه يحق لى ، أن شئت أن أحمل الأشياء
الجميلة التى قلتها لى على محمل الفكاهة والمزاج ، وربما كان حلى

لها على هذا المحمل صوابا . ولكننى لم أكن فى حياتى مiale ولو نصف .
ميلي الآن لتصديقك (١٢٦) » .

وفى ٣ فبراير ١٧١٧ بعث لها بوب يتصریح آخر يبوح فيه بحبه العميق ، محتجا على اعتبارها اياه . « صديقها فقط » . واحتفظت مارى بهذه الرسائل لنفسها ، سعيدة بانها حركت حطام أعظم الشعراء الاحياء .

وبلغت الجماعة الاستانة فى مايو . وهناك عكفت مارى على تعلم التركية بعزيمة ماضية ، وبلغت من ذلك مبلغا أتاح لها فهم الشعر التركى والاعجاب به ، واتخذت الثياب التركية ، وزارت النساء فى الحریم ، ووجدتهن أرقى من خليلات جورج الأول . ولاحظت ممارسة التطعيم فى تركيا بشكل منتظم وناجح وقاية من الجدري ، وطعم الدكتور هيتلاند الجراح الانجليزى فى الاستانة ولدها بناء على طلبها . ورسائلها من تلك المدينة لا تقل فتنة عن أى رسائل فى هذا الجانب من جوانب مدام دسفينيه ، أو هوراس ولبول ، أو ملشور جريم . ولم تنتظر حتى يخبرها انسان بانها أديب ، فلقد كتبت بهذا التطلع ، وقالت لأصدقائها « أن أحدث اللذات التى صادفتها فى طريقى هى رسائل مدام دسفينيه ، جميلة جدا هذه الرسائل ، ولكنى أؤكد ، دون أدنى غرور ، أن رسائلى لن تقل عنها امتاعا بعد مضي أربعين سنة من الآن . لذلك أنصحكم بالا تقذفوا بأى منها فى سلة المهملات (١٢٧) » .

واتصلت رسائلها مع بوب . فتوسل اليها أن تأخذ تأكيدات مأخذ الجد ، ولكن نبرته كانت مزيجا محيرا من المزاج والحب . وقد تصور تركيا فى خياله الشاطح « بلد الغيرة ، حيث لا تتحدث النساء التعمعات مع أحد الا الخصيان ، وحيث يؤتى لهن بالطعام - حتى الخيسار - مقطعا » . ثم أضاف وهو يفكر فى تشوه جسده محزونا « اننى شخصيا قادر على أن أتبع انسانا أحببته ، لا الى الاستانة فحسب ، بل الى أرجاء الهند التى يقولون لنا أن النساء فيها يعظم حبهن لأقبح الرجال صورة ، . . . ويرين فى التشوهات دلائل الرضى الالهى » . ويقول انه سيعتق الاسلام ان اعتنقته ويصحبها الى مكة ، وأنه لو وجد التشجيع

صدق (١٠٩) « . وإقام عليه الأميرال دعوى القذف ، فكابد سمولت الكافى لالتقى بها فى لباردية ، « مسرح تلك الغراميات المشهورة بين الأميرة الجنية وقزمها (١٢٨) » . فلما علم أنها عائدة الى أرض الوطن هزه الطرب حتى كاد ينتشي : « أكتب وكأننى ثمل ، فاللذة التى أجدها فى التفكير فى عودتك تطربنى فوق حدود التعقل واللياقة . . . تعالى بالله ، تعالى يا ليدى مارى ، تعالى سريعا ! (١٢٩) » .

وأخفقت بعثة ورتلى ، ودعى للعودة الى لندن . ونحن نقرأ عينة من أسفار القرن الثامن عشر فى رحيلهم من الأستانة فى ٥ يونيو ١٧١٨ ووصولهم الى لندن فى ١٢ أكتوبر . هناك عاودت الليدى مارى حياتها فى البلاط ومع الأدباء والظرفاء ، ولكن بوب الذى كان الآن عاكفا على ترجمة هومر ، كان مشغولا فى ستانتون هاركورت . على أنه انتقل فى مارس ١٧١٩ الى تويكنهام ، وفى يونيو وجد ورتلى والليدى مارى بمعونته بيتا هناك أيضا باعه لهما السر جودفرى نلر . وعقب ذلك دفع بوب لنلر عشرين جنيها ليرسم له صورتها (١٣٠) . وقد أجساد نلر رسمها مع أنه كان فى الرابعة والسبعين . فاليدان رائعتان ، والوجه يكاد يكون شرقيا كلباس الرأس التركى ، والشفتان ممثلتان امتلاء شهوانيا ، والعينان نجلاوان سوداوان لا تزالان تخلبان الألباب - وقد أشاد بهما جأى فى أبيات فى هذه الفترة . وعلق بوب اللوحة فى حجرة نومه ، وخلدها فى قصيدة بعث بها اليها :

« البسمات اللعوب حول الفم المغمز ،

وسيماء الجلال والصدق السعيدة ،

ونظير هذا من تآلق فى الذهن الرفيع

حيث اجتمعت كل المفاتن والفضائل ،

علم فى تواضع ، وحكمة فى اعتدال ،

عظمة فى غير تكلف ، وذكاء فى غير ادعاء (١٣١) » .

فى ذلك العام بلغ نجمها أوجبه ، وبدأت الكوارث التى ابتليت بها . ذلك أن زائرا فرنسيا يدعى توسان ريمون أودع عندها ألفين من الجنيهات لتستثمرها على الوجه الذى تستصويه . فاشتريت بها أسهما

من شركة بحر الجنوب بناء على نصيحة بوب ، ولكن الأسهم هبطت هبوطاً مدمراً ، فأصبح الألفان خمسمائة ، فلما أنهت الأمر الى ريمون اتهمها بسرقة ماله (١٧٢١) . وفى السنة نفسها هدد حياة ابنتها التى ولدتها فى ١٧١٨ وباء جدري أصابها ، فأرسلت فى طلب الدكتور ميتلاند الذى كان قد عاد من الآستانة ، فطعم الفتاة بناء على طلبها . وسنرى فى مكان لاحق تأثير هذا المثل على الطب البريطانى قبل جنر .

وفجأة ، فى سنة ١٧٢٢ ، انهارت صداقتها لبوب . كانا الى شهر يوليو يلتقيان فى كثرة أثارت القيل والقال فى تويكنهام . ولكن فى سبتمبر بدأ يكتب الرسائل الودية الى جوديث كوبر ، ذكر فيها على سبيل تعزيتها ، أن هناك اضمحلالا واضحا فى « ألمع ذكاء فى العالم » . وزعمت الليدى مارى أن بوب قد باح لها بحبه فى حرارة ، وأنه لم يغتفر لها قط الاستخفاف الذى قابلت به هذه المغامرة الجريئة (١٣٢) . ولزم الصمت برهة ، ولكنه كان بين الحين والحين يرهف شعره فى مناسبات يساهم يستشفها القارىء بسهولة . ولما كتبت لصديق تذكر أن سويفت ويوب وجاى هم الذين اشتركوا فى كتابة قصيدة غنائية شعبية ظن الصديق أنها من نظمها ، بعث اليها بوب بتوبيخ حاد ؛ وفى قصائده « المنوعات » التى نشرها فى ١٧٢٨ أذاع هذا التوبيخ بوضوح صارخ :

« تلك الأعييبك يا ليدي مارى ،

ولكن ما دمت تفقسين ، فاعترفى بأفراخك ،

وكونى أكثر حذقا فى نقراتك ،

فلا تنقرى كبار ديوكك كما تفعلين بصغارها (١٣٣) » .

وفى قصيدة سماها « التقليد » (١٧٣٣) أشار الى « سافو الهائجة . . . التى ابتلاها حبها بمرض . . . » وهو يعنى أن عشيقها أصابها بالزهري (١٣٤) . ويقول هوراس ولبول أنها هددت بأن ترسل اليه من يضربه بالسوط .

وكانت هذه المشاحنة القبيحة ضربة أخرى أعانت على انهيار زواجها . ذلك أن ورتلى بعد أن استعاد مكانه فى البرلمان تركها مهملة

اهمالا واضحا فى تويكنهام . وقد جعله موت أبيه (١٧٢٧) رجسا عريض الثراء ، فزودها بحوائجها المادية ، ولكنه تركها لمواردها الخاصة فى شئون الحب . واخذ ابنها يثبت أنه وغد كسول . أما ابنتها التى غدت امرأة ذكية مهذبة فكانت سلواها الوحيدة . وحاول اللورد هرفنى أن يحتل مكان بوب فى حياتها ، ولكن كان فى طبيعة جسمه ما جعله لا يستطيع أن يغتفر لها ، ولا لزوجته ، كونها امرأة . ولا بد أنه عرف بتقسيم الليدى مارى النوع الانسانى الى رجال ، ونساء ، وهرفيين (١٣٥) .

وفى ١٧٣٦ دخل نيزك ايطالى فلكما وغير مساره . ذلك هو فرانتشيسكو الجاروتى ، الذى ولد بالبندقية فى ١٧١٢ ، وكان قد اثار بعض المضجة فى دنيا العلم والأدب الخالص . وفى ١٧٣٥ كان ضيفا فى بيت فولتير ومدام دشاتليه فى سيريه حيث درس ثلاثتهم نيوتن . ثم قدم الى لندن بخطابات تعريف من فولتير ، واستقبل فى البلاط ، والتقى بهرفى وبالليدى مارى عن طريقه . ووقعت فى غرامه كما لم تقع قط فى غرام ورتلى لأن قلبها كان خاليا ، ولأنه كان جميلا ، ذكيا ، شابا . وكانت ترتعد حين يخطر لها أنها فى السابعة والأربعين وأنه فى الرابعة والعشرين . وبدا أن طريقها الى الرومانس قد غدا مهيدا بزواج ابنتها من ايرل بيوت (أغسطس ١٧٣٦) . فلما سمعت أن الجاروتى عائد الى ايطاليا أرسلت اليه خطابا يفيض بعاطفة الصبايا المشبوبة :

« لم أعد أعرف باى طريقة أكتب اليك . فمشاعرى أقوى مما ينبغى ، وليس فى طاقتى أن أفسرها ولا أن أخفيها . فلكى تغتفر لى رسائلى يحب أن تجيش فى صدرك حماسة كحماستى . واننى لأرى كل ما فى هذا من حماقة دون أى أمل فى اصلاح نفسى . فمجرد فكرة مشاهدتك أعطتنى نشوة تذيبنى ، فماذا جرى لتلك اللامبالاة الفلسفية التى صنعت مجد أيامى الماضية وهدووعها ؟ لقد فقدتها الى الأبد ، ولو أن هذا الغرام المشبوب شفى لما رأيت أمامى غير الملل القاتل . فاعفر هذا الشطط الذى كنت السبب فيه ، وتعال لترانى (١٣٦) » .

وأتى ، وتناول العشاء معها عشية رحيله . وكان هرفى قد دعاه أيضا ؛ فلم يلب دعوته . فجن من الغيرة ، وكتب الى الجاروتى طعنا

مرا في الليدى مارى ، منبها انياها الى انها كانت تضيع على لندن كلها
غزوها الايطالى بهذه العبارة المزهووة
« جئت ، ورأيت ، وغلبت » ربما ، ولكن رسائلها الى الجاروتى لم تكن
رسائل الغالب :

« ما أجبنا الانسان حين يحب : أخشى أن أسوء اليك بارسالى
هذا الخطاب حتى لو كان قد : أن أسرك . والحق أننى مجسونة
فى كل أمر يتصل بك حتى أننى لست وأنت من خواطرى . كل ما هو
مؤكد هو أننى سأحبك ما حبيت ، برغم نزوتك وتعقلى (١٣٧) » .

ولم يرد على هذه الرسالة ، ولا على ثانية ، ولا ثالثة ، رغم
تهديدها بالانتحار . أما الرابعة فقد انتزعت منه ردا جاء كما تقول
« فى وقت مناسب جدا لانقاذ البقية الباقية من عقلى » . فقد عرضت
أن تتبعه الى ايطاليا ، ولكنه ثناها عن الفكرة ، وراحت تجتر غرامها
فى عزلتها ثلاث سنوات . ولكن فى ١٧٣٩ اقنعت زوجها بأنها فى حاجة
الى رحلة لايطاليا . وكان قد فقد حبه لها ، فاستطاع أن يتصرف تصرف
الانسان المهذب . فودعها حين غادرت لندن ، ووافق على أن يرسل لها
رأبنا ريع سنوى قدره ٢٤٥ جنيها من دخله الخاص ، وأن يحول اليها
دخلها السنوى الذى أوصى به أبوها وقدره ١٥٠ جنيها . وسافرت
بأسرع ما تستطيع الى البندقية أولا فى أن تجد الجاروتى هناك ، ولكنه
كان قد ذهب الى برلين (١٧٤٠) ليعيش مع فردريك الثانى المتوج
حديثا ، وكان يحبه حب اللوطيين . واتخذت مارى لها بيتا على قناة
البندقية الكبرى وقد استبد بها الحزن ، وافتتحت فيه صالونا ،
واستضافت الادباء والكبراء ، وحظيت بالتودد اللطيف من نبلاء
البندقية وحكامها .

ثم غادرت البندقية الى فلورنسة بعد عام ، وأقامت شهرين فى
قصر ريدولفى ضيفا على اللورد والليدى بومفريت . ورآها هوراس
ولبول هناك ، وأرسل الى ه . س . كونواى وصفا رقيقا لها :

« هل أنباتك بأن الليدى مارى ورتلى هنا ؟ انها تضحك من
الليدى ولبول (زوجة أخى هوراس) . وتقرع الليدى بومفريت ،

وتضحك منها المدينة كلها . ولا بد أن لباسها ، وجشعها ، ووقاحتها ،
تكهنش أى انسان لم يسمع باسمها . فهى ترتدى قبعة بشعة (تربط
تحت الذقن) لا تخفى خصلاتها السوداء الدهنية القوام التى ترسلها
دون تمشيط أو تجعيد ، وازارا أزرق قديما يفغراه ويكشف عن تنورة
من التيل . وقد انتفخ وجهها انتفاخا شديدا من أحد جانبيه بمخلفات -
غطى بعضها بلزقة ، وبعضها بالطلاء الابيض . . وقد قامت مرتين
أو ثلاثا فى لعبة ورق (تسمى الفرعونية) فى قصر الاميرة كراعون
حيث تغش بكل وسيلة فى اللعب . وهى فى الحق مسلية ، كنت أقرأ
أعمالها التى تعيرها مخطوطة ، ولكنها نسائية الى حد مفرط ، وأعجبني
القليل من أعمالها (١٣٨) .

والواقع أن هذا الكاريكاتور كان له أساس ، فقد جرى العرف فى
ايطاليا على أن ترتدى المرأة فى بيتها الثياب الفضفاضة المهملة توخيا
للراحة ، وما من شك فى أن وجه ماري كان منقرا جسدا ، ولكن ليس
بالزهري بالتأكيد (١٣٩) . وكان من عادات المؤلفين أن يعيروا الأصدقاء
مخطوطاتهم . وقد أثارت الليدى ماري استياء ولبول الشاب بمصادقتها
لمولى سكيريت ، التى ساءه منها أنها أصبحت الزوجة الثانية لأبيسه .
ولعل الليدى ماري كانت أكثر اهمالا لمظهرها مما اعتادت بعد أن خلعت
أنها فقدت الجاروتى الى الأبد .

ثم علمت أنه فى تورين ، فهرعت اليها ، ولحقت به (مارس
١٧٤١) ، وعاشت معه شهرين . ولكنه عاملها بخشونة وعدم مبالاة ،
وسرعان ما تشاجرا وافترقا ، فمضى هو الى برلين ، وهى الى جنوه ،
هناك رآها ولبول مرة أخرى ، واستمتع بكرم ضيافتها ، ووجهه الى
مركبتها أبياتا تنفث السم :

« ايه ايتها العربة ، يا من حكم عليك بأن تحملى
جلد الليدى ماري العفن ،
اذهبي بها الى أقصى ركن فى ايطاليا ،
وانزليها بالله حية ،
ولا تعجنى بهزاتك ولطماتك

نصف الألف الذي مازالت تحتفظ به (١٤٠) » .

وفى ١٧٦٠ أبهجها أن تعلم أن صهرها أصبح عضواً فى المجلس الخاص لجورج الثالث . وفى ٢١ يناير ١٧٦١ مات زوجها تاركاً معظم ثروته لابنته ، و ١٢٠٠ جنيه فى العام لأرملته . وعادت الليدى ماري الى إنجلترا (يناير ١٧٦٢) بعد غيبة امتدت إحدى وعشرين سنة ، أما لأن موت زوجها أزال عقبة خفية فى سبيل رجوعها ، وأما لأن سطوع نجم صهرها فى عالم السياسة قد اجتذبها الى وطنها .

غير أن الأجل لم يمهلها أكثر من سبعة أشهر ، ولم تكن بالأشهر السعيدة . ذلك أن مطاردتها للجارتى ، وأنباء كتلك التى أشاعها عنها هوراس ولبول ، كانت قد سوات سمعتها ؛ ثم ان ابنتها لم تسعد بصحة أمها رغم حرصها على صحتها وراحتها . وفى يونيو بدأت الليدى ماري تشكو ورما فى صدرها . وتقبلت فى هدوء مصارحة طبيبها لها بأنها مصابة بالسرطان ، وقالت انها عاشت من العمر ما يكفى . وماتت بعد شهر من الألم (٢١ أغسطس ١٧٦٢) .

وكان من آخر طلباتها أن تنشر رسائلها لتعطى القراء جانبها من القصة ، وتدعم حقها فى تذكر الناس لها . ولكنها كانت قد عهدت بمخطوطاتها الى ابنتها ، فبذلت هذه الابنة (الليدى بيوت) التى غدت الآن زوجة لرئيس الوزراء ما وسعها لتمنح نشرها . على ان الرسائل التى كتبتها من تركيا نسخت سرا قبل أن تسلم لابنتها ، وصدرت فى ١٧٦٣ . وسرعان ما نفدت عدة طبعات منها ، وكان من قرائها الذين ابتهجوا بها جونسن وجبون . أما النقاد الذين قسوا على المؤلفة وهى حية ، فقد أسرفوا الآن فى اطراء رسائلها . وكتب سمولت يقول ان الرسائل « لم يكتب نظيرها أى كاتب رسائل من أى جنس ، أو سن ، أو أمة » وفضلها فولتير على رسائل مدام سفنييه (١٤١) . وقد م ٢٠ - قصة الحضارة

أحرقَت الليدي بيوت قبل أن تموت في ١٧٩٤ يومية أمها الضخمة ،
ولكنها تركت الرسائل ليتصرف فيها ابنها البكر . فسمح بنشر بعضها
في ١٨٠٣ ، أما الرسائل التي كتبتها لألجاروتي فظلت طي الخفاء الى
أن اقنع بايرون جون مري بأن يشتريها من صاحبها الايطالي (١٨١٧) .
ولم يكتمل نشرها الا عام ١٨٦١ ، واعترف الناس بان الليدي ماري
تشارك بوب ، وجرای ، وجای ، ورتشردسن ، وسمولت ، وهيوم ،
الفضل في جعل أدب انجلترا أعظم آداب ذلك العصر الفحل تنوعا
وحيوية وتأثيرا

الفصل السادس

التصوير والموسيقى

١٧١٤ - ٥٦

١ - المصورون

لم تكن إنجلترا التي سطع نورها الاصيل في عالم الادب والسياسة سوى تابع متواضع في دنيا الموسيقى والتصوير . وكان لتخلفها في التصوير أسباب كثيرة ، ليست منها أجوائها المعتمة ، فالأجواء أعتمت في الأراضي المنخفضة كذلك ، ومع ذلك حقلت هولندا بمصورين كثيرين كثرة طواحين هوائها . وربما كان المانش أحد الأسباب ، لأنه كان أشبه بالترس منع عن إنجلترا الفنون كما وقاها حروب القارة ، وربما كانت الموهبة الانجليزية غارقة في التجارة وفي الحرب بعد ولبول . وقد تلام العروتستنتية على ركود الفن الانجليزي، لأن الفن ينمو ويتزعرع على الخيال ، والبروتستنتية أقصت الخيال عن الفن وكرسته للأدب واللاهوت ، ولكن يرد على هذا أيضا بأن هولندا كانت بروتستنتية . وأغلب الظن أن العامل الأهم كان الثورة والتراث البيورثانيين ؛ اعدام تشارلز الأول عاشق الفن ، وتشتيت مجموعته الفنية ، وانحسار الذهن الانجليزي - باستثناء ملتن - خلال فوضى الجمهورية (الكومنولث) . وقد طأطأ التأثير البيورثاني رأسه خلال عودة الملكية ، ولكنه عاد يرفعه مع وليم الثالث والهانوفريين ، ثم اتخذ في المئوية صورة منبعثة القوة ، وغدا الجمال خطيئة مرة أخرى .

كان هناك منجزات صغيرة في الفنون الصغرى . من ذلك أن الخزف البديع الناعم العجينة صنع في تشلسي (١٧٥٥) تقليدا لخزف مايسين وسيفر . وأثرى خزافو برمنجهام من صنع الانية من اللك (اللاكيه) . وبلغ ثراء أحدهم ، وأسمه جون بسكرفيل ، ميلغا أتاح له أشباع هوايته بطبع طبعاات جميلة للشعراء الانجليز . وزينت حنايا الروكوكو المتسمة بالخيال الجامح الكتب والقماش والآلات والاواني

وقضة شفيدل وقاعة الروتندا فى حدائق فوكسهول ، وبعض الحجرات فى قصر تشسترفيلد وسترويرى هل .

أما المثالون فكان الناس قد بدأوا يفرقون بينهم وبين البنائين . وكان أقطاب المثالين فى انجلترا أجنب المولد وان أصبحوا عادة مواطنين بريطانيين . فوفد بيتر شاميكز من أنتويرت ، واشرك مع لوران ديلفو فى نحت تمثال دوق بكنجهام ونورمانديه فى دير وستمنستر . وكان أعظم هؤلاء الأجنب لوى روبياك ، وهو ابن مصرفى من ليدن ، قدم الى انجلترا فى ١٧٤٤ وارتقى سريعا بفضل رعاية آل ولبول . وقد نفذ تمثال شكسبير النصفى المعروف الآن بالمتحف البريطانى ، وتمثال هندل المعروف بقاعة الصور القومية ، وحبته الملكة كارولين برعايتها ، وجلست اليه ليصنع لها تمثالا ، وكلفنه بأن ينحت تماثيل نصفية لبويل ، ونيوتن ، ولوك ، وغيرهم من أفاضل الانجليز لتضعها فى مغارتها برتشموند . وقد لقب تشسترفيلد (وكان ذواقة للفنون) روبياك - « فيدياس زمانه (١) » . ومات روبياك مفلسا فى ١٧٦٢ بعد أن عاش حياة ملؤها التفانى فى خدمة فنه .

أما العمارة فكانت فى نشوة من فن بالاديو . ذلك أن الشروة المتصاعدة التى حققتها الدبقات العليا التى أثرت وهى منبرمة فى ظل السلام الوبولى قد مولت مئات الرحلات الكبرى ، التى تشرب فيها السادة البريطانيون حب معابد الرومان وقصور النهضة . وكانت البندقية دائما تدخل فى أسفارهم ، فيقف المسافرون فى الطريق عند فتشنتسا ليعجبوا بواجهات بالاديو ، فاذا عادوا ملأوا انجلترا بالأعمدة والاعتاب والقواصر الكلاسيكية . وفى ١٧١٥ - ٢٥ أصدر كولين كامبل كتابه « فتروفوس بريتانيكوس » الذى أصبح انجيل البلاديويين ، ودفع وليم كنت (١٧٢٧) وجيمس جبز (١٧٢٨) الطراز دفعة أخرى بتأليف كتيبات فى العمارة ، وفى ١٧١٦ نشر رتشرد بويل ، إيرل برلنجنن الثالث ، طبعة فاخرة من نصوص بالاديو ، وفى ١٧٣٠ نشر ترميمات بالاديو للصرح القديمة . واحتوى بيته الريفى فى تشريك على نسخة من « فيلا روتندا » التى بناها بالاديو فى

- ٣٠٩ -

فتشنتسا ، برواقها المعمد وقبتها الوسطى . وكان برلنجن راعيا سخيا
للأدب والموسيقى والفن ، وصديقا لباركلى وهندل ويوب وجاى .

وفى ١٧١٩ جلب معه من روما معماريا شابا يدعى وليم كنت ظفر
بجائزة بابوية على رسومه ، وكان شديد التحمس لكل ما هو كلاسيكى .
وغدا كنت احب الفنانين واحفلهم بالمواهب فى انجلترا ، بعد أن سكن
قصر برلنجن حتى وفاته (والقصر مازال بعد تجديده مركزا من مراكز
الفن الانجليزى) فصور أسقف قصور هوتن وستو وكنزنجتن ؛ وصمم
الاثاث وصحاف الطعام والمرايا والزجاج ، ومركبا للمهرجانات وملابس
لسيدات المجتمع ، ونحت تمثال شكسبير فى دير وستمنستر ؛ وكان ممن
تزعموا حركة تشجيع الحديقة الانجليزية « الطبيعية » ؛ وفى ميدان
العمارة شيد معبد الفضيلة القديمة فى حدائق ستو ، وقصر ديفونشير
ببيكادلى ، وقصر حرس الخيالة فى هوايتهول ، وقاعة هولكم المدهشة
فى نورفوك .

وفى ١٧٣٨ رفع اللورد برلنجن الى مجلس مدينة لندن تصميم
كنتت البلاديوى لمسكن عمدة لندن « مانشن هاوس » ، واعترض عضو
بان بالاديوى كان بابويا ، فرفض تصميم كنت ، وتلقى جورج دانس
الاب التكليف (وكان بروتستيا) وقام به خير قيام . ولكن فى ذلك
العام بدأت الحفائر فى هر كولانيوم ، وافضت الكشوف فيها الى الحفر
عن بومبى (١٧٤٨ وما بعدها) ، وفى ١٧٥٣ نشر روبرت وود
« أطلال بلميرا (تدمر) » وفى ١٧٥٧ « أطلال بعلبك » ، وأعطت
هذه الكشوف للحملة الكلاسيكية فى انجلترا دفعة لا تقاوم ، ووضعت
حدا لوفرة التزيويق الباروكى الذى ازدهر فى قصر فانبروج « بلنهم »
الذى بنى لأسرة تشرشل . وفى ١٧٤٨ بنى اسحاق وير ، وهو معمارى
آخر كان يرعاه برلنجن ، قصر تشستر فيلد فى شارع كرزى .

وقد فات البلاديويين فى تحمسهم هذا أن العمارة الكلاسيكية
انما صممت لأجواء البحر المتوسط لا لرياح انجلترا وغيومها . وأخطا
كولن كامبل خطأ جسيما بنقله عن النماذج الايطالية دون أن يطوعها
لشئ انجلترا ؛ فقلعة ميروث التى بناها لم تسمح الا لبصيص من أشعة

الشمس بدخولها ، أما قاعة هوتن التي شادها لروبرت ولبول فقد ضحت بحجرات المعيشة ايثارا للمصالح الفخمة التي تلقت التيارات الشديدة البرودة . واستخدم جيمس جيز ، أحد تلاميذ كرسنوفر رن ، الطراز الكلاسيكي استخداما رائع التأثير في كنيسة سانت ماري - لستراند يلندن (١٧١٤ - ١٧) ، ويرج هذه الكنيسة أشبه بأغنية من الحجر . وأضاف جيز (١٧١٩) الى كنيسة سانت كلمنت دين التي بناها رن برجاً يعطو علواً لا يتناسب مع قاعدته ، ولكنه مع ذلك جميل جمالا محفوظا بالخطر . وتوج عمله في ١٧٢١ برواق كلاسيكي وأعمدة كورنثية في سانت مارتنز - ان - ذفيلدز ، بميدان ترافلجار . وأخيرا خلق في مكتبة رادكليف باكسفورد (١٧٣٧ - ٤٧) لحنا منسجما من الأعمدة والقبة .

أما بهاء بات المصاري فالفضل الأول فيه لجون وود . وكانت الفكرة المسيطرة عليه هي ربط المياني المفردة في كتلة واحدة ، ومن ثم صمم وبدأ - وأكمل ابنه جون بكفاية - « الهلال الملكي » الضخم - وهو ثلاثون بيتا وراء واجهة موحدة من ١١٤ عمودا كورنثيا - دمرت تدميرا شديدا في الحرب العالمية الثانية ، ولكن أمكن ترميمها . وعلى مقربة من هذا المكان يقى وود الأب والابن « السيركس » (المييدان) (١٧٥٠ - ٦٤) ، وهو دائرة جميلة من المساكن يكسو واجهتها أفريز متصل وثلاثة صفوف من الأعمدة ؛ هنا سكن بت الأب ، وتوماس جينزبورو ، وكليف حاكم الهند . وصمم وود - دون أن يكمل - لجوانب ثلاثة من « كوين سكوير » سلسلة أخرى من المنازل الموحدة وراء واجهة تحكى واجهات قصور النهضة . والكثير من هذا البرنامج ، برنامج تصميم وبناء المدن ، موله رالف ألين الذي اتخذ فيلدينج نموذجا صاغ على غرار « سكواير أولوردي » . وبنى وود الأب لابن قصرا فاخرا بلانديوى الطراز في يرايور بارك (١٧٣٥ - ٤٣) ، خارج باث .
بميلين .

لقد كان فقر جماهير بريطانيا يعدله بهاء قصورها . فقد تكلف معبد آلن في يرايور بارك ٢٤٠.٠٠٠ جنيه . وأوحت نزوة المبسرة للتبلاء والتجار باقامة القصور الضخمة للضيافة والتباهي . ويقول ،

هرفى ان روبرت ولبول اكتسب عداء اللورد تاونشند الابدى بينائه هوتن هول على مستوى أشد ترفا حتى من قصر تاونشند المجاور المسمى رينهام بارك . وقد ندد اللورد لقتلن بهذا « الجنون الوبائى » جنون بناء القصور ، ومع ذلك طالبت زوجته بقصر جديد يبنى على الطراز الايطالى ، فأذعن لها تحت ضغط الالاح والى حد أشرف به على الافلاس . فلما تم بناء القصر هجرت زوجها الى مغنى أوبرا ايطالى مشكوك فى رجولته ، وسرعان ما انتشرت فى انجلترا ، وحتى فى ارلنדה الانجليزية ، أمثال هذه البيوت المظهيرية التى بناها الأغنياء . ونظمت الرحلات السياحية ، ونشرت الكتب المرشدة ، لزيارة هذه المساكن الفخمة وحدائقها وقاعات صورها . وطبقت شهرة هذه الصروح الأفاق حتى بلغت روسيا ، فطلبت كاترين الكبرى الى جوسيا ودجوود ان يصنع لها طقم مائدة امبراطوريا مزينا بمناظر من قصور الريف الانجليزية (٢) .

وأودعت معظم الصور فى انجلترا ، وإخفيت فى كثير من الحالات ، فى هذه البيوت الارستقراطية اذ لم يكن هناك بعد متاحف يستطيع الجمهور العام أن يشاهد فيها الصور . وكانت الرعاية تغدق بوجه خاص على الفنانين الأجانب ، وكلها تقريبا لقاء لوحات تصور الاعيان الذين داعبهم الأمل فى أن يخلدوا على القماش بينما تبلى أجسادهم داخل توابيت من الخشب ؛ ولم يكن هناك سوق للمناظر الطبيعية ولا للوحات « التاريخية » . فلما وفد كارل فانلو على انجلترا فى ١٧٣٧ تهافت الكثير جدا من الوجوه النبيلة عليه ليصورها ، حتى أن رتل العربات المقترية من بيته ظل أسابيع ينافس ذلك الواقف أمام المسارح . ودفعت المبالغ الطائلة للرجل الذى كان يسجل مواعيده رشوة يؤدونها له ليسبقوا غيرهم والا فقد يضطر الواحد منهم الى الانتظار ستة أسابيع (٣) .

وحاولت « الجمعية الملكية للفنون » التى أسست عام ١٧٥٤ أن تشجع المواهب الوطنية بالمباريات والمعارض ، ولكن الطلب على التصوير الانجليزى تباطأ جيلا آخر . وظفر جوزف هايمور ، وهو تلميذ لنلر ، ببعض المشترين للوحاته حين رسم مشاهد من رواية

« باملا (٤) » ؛ والتقط توماس هدسن بعض حيوية هندل فى لوحته التى رسمها له فى ١٧٤٩ (٥) . وكان من تلاميذ هدسن مصور يدعى جوشوا رينولدز ، تنبأ أستاذه بأنه « لن ينبغ أبدا (٦) » . ولكن السر جيمس ثورنهل كان أبعد نظرا . فقد حقق نجاحا بصور نيوتن ، وبنتل ، وستيل ، وصور القبة الداخلية لكنيسة القديس بولس ، وأسقف مستشفى جرينتش وقصر بلنهم ، وأحرز الخلود بالانابة ، لأنه زوج ابنته لأعظم مصورى العصر الانجليز قاطبة .

٢ - وليم هوجارث : ١٦٩٧ - ١٧٦٤

كان أبوه مدرسا وكتبا أجيرا ، الحقه فى صباه بنقاش للأسلحة . وانتقل من ذلك الى الحفر على النحاس ، ثم الى رسم الرسوم الايضاحية للكتب . وفى ١٧٢٦ أعد اثنتى عشرة محفورة (كلشيئات) كبيرة لكتاب بطر « هودبيراس » . ثم التحق بفصل التصوير الذى كان يعلم فيه ثورنهل ، وتعلم التصوير بالزيت ، ثم هرب مع ابنة أستاذه ، وصفح عنه ثورنهل وعينه مساعدا له .

كانت الرسوم الايضاحية التى رسمها هوجارث لمسرحية العاصفة ، ومسرحيتى هنرى الرابع ، ولاويرا الشحاذ ، صورا نابضة بالحياة . فميراندا رقيقة حنون ، وكالبان فظ غليظ ، وبروسبرو عطوف كريم ، وايريل يداعب مزهرا فى الهواء ، والسير جون فلسطاف يتكلم من كرشه بخيلاء ، والكبتن ماكهيث فى أغلاله والحانه ، بطل فى عيون زوجاته رغم كل شيء . ووقع هجاء المستقبل على ذلك العرق الذى تميز به ، وذلك فى لوحة « المصلين النيام » ، فقد كره هوجارث كل المواعظ الا مواعظه ؛ أما فى « حفلة الاطفال » فقد تلذذ بأجمل جوانب الحياة الانجليزية . وهذه الصور تلذنا الآن ، ولكنها لم تاته بثناء وقتها .

وجرت تصوير الاشخاص ولكنه لم يحقق نتائج تذكر ، وكانت المنافسة قاسية ، فأكثر من عشرة مصورين يجمعون ثروات صغيرة بتملق زبائنهم وتوزيع العمل على مساعديهم ؛ فهم يرسمون الرأس ولكنهم يحيلون رسم الخلفيات والستائر لمساعدين يبخسونهم أجورهم . يقول هوجارث

« وكل هذا يتم بسرعة مريحة تتيح للرئيس الحصول فى أسبوع واحد على مال أكثر مما يستطيع أن يحصل عليه رجل ذو مواهب فنية من أعلى المراتب فى ثلاثة أشهر (٧) » . وندد بتجار الوجوه هؤلاء الذين جملوا وجوه زبائنهم اشباعا لغرورهم واستدراارا للمالهم . أما هو فمذهبه أن يصور زبائنه بكل ما فيهم من دامل والا فلا . فلما جلس اليه نبيل تغلب عليه سماء القردة صوره هوجارث باهانة مؤذية . ورفض اللورد أن يأخذ صورته اذ لم يكن قد رأى نفسه قط . كما يراه الآخرون . فأرسل اليه المصور رسالة جاء فيها :

« المستر هوجارث يقدم احتراماته الواجبة للورد - واذا وجد أنه لا يريد أن يأخذ الصورة التى رسمت له ، فهو يذكره مرة أخرى بحاجة المستر هوجارث الى اللال . فاذا لم يرسل سيادته فى طلب الصورة خلال ثلاثة أيام ، فسيبيعها ، بعد اضافة ذيل وغيره من الملحقات الصغيرة ، الى المستر هير مقتنى الوحوش الشهير ؛ لأن المستر هوجارث قطع لذلك السيد عهدا باعطائه الصورة لعرضها فى معرض للصور (٨) » .

ودفع اللورد المال .

وكان هوجارث واثقا من أن فى استطاعته أن يرسم صور الاشخاص كاي فنان قدير . وبينما كان يصور هنرى فوكس (البارون هولاند فيما بعد) أخبر هوراس ولبول أنه وعد فوكس انه اذا جلس متبعا لتعليماته فانه سيرسم له صورة لا تقل روعة عن صور روبنز أو فانديك (٩) ، وهو ما صدم هوراس فى الصميم من ثقاليده . وربما برر كثير من لوحات هوجارث التى رسمها للذكور استنكار ولبول لها ، فالوجوه « مقولية » جدا ، وبعضها يستحق وصف هوجارث الهازىء لبعض الصور الانجليزية بالـ « ساكنة » ولكن يجب أن نستثنى منها لوحة « السر توماس كورام » التى أسسلفنا ذكرها فى معرض الحديث عن الاحتفال بمستشفى اللقطاء الذى أسسه كورام ، والذى ترى فيه صورته ، فقد التقط هوجارث الطبيعة البارة بالناس فى الوجه المبتمس ، والخلق الحازم فى اليدين المقبوضتين . ولقد كانت فرشاته ، بوجه عام ، أرفق بالنساء منها بالرجال . مثال ذلك أن « صورة سيدة » تنافس صور

جانزبورو ، وصورة « سيدة فى ثياب بنية (١١) » لها الملامح القوية لامرأة أفلحت فى تربية أطفال كثيرين ؛ واذا كانت صورة « الأنسة مارى ادوردز (١٢) » ميثة نوعا ما ، فإن الكلب - وهو حاضر دائما فى لوحات هوجارث - يبعث فيها الحياة ، وأروع من هذه الصور اللوحات الجماعية مثل « أسرة برايس (١٣) » و « أبناء جراهام (١٤) » وأفضل حتى من هذه « خدم هوجارث (١٥) » ، حيث ترى كل وجه مرسوما فى حب بكل طابعه المتفرد . وأبدع صورة كلها بالطبع هى « بائعة الجمبرى (١٦) » - وهى ليست لوحة شخصية بل ذكرى رجل سليم قوى المصيبة التى رآها تبيع الجمبرى من سلة متزنة على رأسها ؛ فتاة عطلت من كل زينة أو زخرف ، لا تستحى من الأسمال التى تكسوها ، تطل على الدنيا وقد توردت وجنتها وتآلقت عيناها صحة وعافية بفضل الحركة والنشاط .

وقد ترك هوجارث على الأقل أربع لوحات صور نفسه فيها . وفى ١٧٤٥ صور نفسه مع كلبه السمين « ترمب (١٧) » . وفى ١٧٥٢ أرانا نفسه جالسا الى حامله ، جسم قصير متين ، ووجه مستدير قصير سمين ، وأنف أفطس عريض ، وعينان زرقاوان أتعبهما طول النضال وشفقتان مزموقتان تحفزا لاستئناف النضال . كان فى رأى ثكرى « مواطنا لندنيا أمينا مرحا ، ورجلا مخلصا صريحا ، يحب نكته ، وأصحابه ، وكأسه ، وروزبيفه - روزبيف انجلترا العجوز (١٨) » . ولم يكن يصل طوله الى خمسة أقدام ، ولكنه كان يحمل سيفا (١٩) ولا يطيق اللغو من أى انسان . ووراء حبه للمقتال دفاعا عن النفس قلب محب ، مسرف فى العاطفة أحيانا ، قطع على نفسه العهد أبدا بشن الحرب على النفاق والقسوة . وكان يحتقر النبلاء الذين يصورهم ، ويحب اللندنى البسيط البرىء من الخيلاء . وقد أدخل الجماهير الانجليزية الى دنيا الفن ، فصورهم فى أثناسهم والامهم ، فى مستشفى المجاذيب ، والسجن ، والدين ، والكذ المضى . وكره الفرنسيين لأنهم أفسدوا الانجليز بغلوهم فى الزينة وبخيلائهم الارستقراطية . ولم ينس قط أنه قبض عليه لأنه رسم رسوما تخطيطية لبوابة كاليه ، فنار لنفسه بتصويره الفرنسيين كما رآهم هناك : عمالا أجلافا ، وجمهورا يؤمن بالخرافة ، وراهبا بدينا يحدق بنشوة فى كتف من لحم البقر (٢٠) .

وقد أنبأنا هوجارث فى كتابه « نوادر » كيف حولته ضالة ربحه من صورته الى الاتجاه الذى أكسبه الشهرة ، قال :

« كرهت أن أنحدر الى درك « صانع » الصور الشخصية ، واذ كنت لا أزال أصبو الى الاستقلال فى عملى ، فقد طلقت كل أمل فى الانتفاع من ذلك المورد . . وبما أننى لم أستطع اقناع نفسى بالعمل كما يعمل بعض اخوانى ، وجعل تصوير الاشخاص ضربا من الصناعة يدار بالاستعانة بمصورى الخلفيات والستائر ، لذلك لم تحقق لى هذه الطريقة من الربح ما يكفى لسد نفقات أسرتى . ومن ثم وجهت أفكارى الى رسم وحفر الموضوعات الخلقية العصرية ، وهذا ميدان لم يطرق لى أى بلد أو عصر (٢١) » .

وعلى ذلك رسم فى ١٧٣١ تسعة صور سماها « رحلة بغى » ، وحفرها على النحاس ، ومن هذه المحفورات صنع سلسلة من النسخ المطبوعة عرضت للبيع بعد عام ، ترى فيها الفتاة القادمة من الريف تقدمها قوادة قادرة على الاقناع الى سيد ملهوف ؛ والصبية سريعة التعلم ، ولا تلبث أن تحرز ثراء قبيحا . ثم يقبض عليها لا للبقاء بل للمسقة ، وتؤدى عملها المفروض عليها فى السجن وهو نفض القنب ، ثم تسير حثيثا الى المرض والموت ، ولكن يعزيها أن يشيع جثمانها رهط من المومسات . وكان فى استطاعة هوجارث أن ينقل شخوصه من الواقع دون مشقة أو عناء ، فقد رأينا المسز نيدهام ينكل بها فى المشهرة عقابا لها على احترافها البغاء ، ويحصبها الجمهور ، وتموت من اصاباتها . (ومع ذلك فان الكولونيل تشارتريز ، الذى اتهم مرتين بهتك العرض وحكم عليه مرتين بالاعدام ، عفا عنه الملك مرتين ، ومات فى أبهة النبلاء بمقره بالريف (٢٢)) . وقد أخطأ هوجارث حين خيل اليه أنه طرق ميدانا جديدا فى هذه الرسوم التى تمثل الحياة اليومية ، فقد سبقها الكثير فى ايطالية النهضة ، وفى فرنسا ، وفى الاراضي المنخفضة ، وفى المانيا . ولكن هوجارث جعل الآن من « الموضوعات الخلقية » فنا وفلسفة . على أنه ، ككل الأخلاقيين ، لم يكن مبرا من الاتم ، فقد أطاق فى غير اشمنزاز صحبة السكارى والبغايا (٢٣) ، وكان الهدف من صورته المطبوعة أولا التكسب ، ثم التبشير بالفضيلة إن أمكن .

وراجت صور « البغى » المطبوعة ، فاستهوت ألفا ومائتى مكتب ،
 يونيف ربحها الصافى على ألف جنيه . ومع أن طبعات مسروقة كانت
 تنتقص من ربح المصور ، فانها أبعدت شبح الجوع عن بابه . وأقبل
 الجمهور البريطانى فى غير تردد على مناظر الخطيئة هذه ، وهو
 الذى لم يكن به ولع باللوحات ، فهنا فاكهة محرمة ، طهرتها الفضيلة
 ولكنها لم تنتقص من بهجتها ، وهنا يستطيع المرء لقاء ثمن زهيد أن
 يتعرف الى الرذيلة وهو فى مأمن ، وأن يرقب عقابها الذى تستحقه
 وهو راض . واستطاع هوجارث الآن أن يطعم أسرته من مكاسبه ، لا بل
 اتخذ مسكنا له فى حى لستر فيلدز العصرى ، وعلق على بابه رأسا
 مذهباً يشير الى مهنته فنانا . وقد اشترى بعد ذلك بيتاً ريفياً فى
 كزيك .

ثم رسم صورا كبيرة فى السنوات القليلة التالية ، لا سيما
 « مهرجان سذيرك » - وهى لوحة « بروجلية » انجليزية - ولوحة
 جماعية لطيفة تدعى « أسرة أدوردز » ولكنه عاد الى رسومه المطبوعة
 فى ١٧٣٣ ، وعارض سلسلة « البغى » بسلسلة سماها « رحلة الفاجر »
 ترى فيها شابا طائشا مفتونا يرث فجأة تركة كبيرة ، فيهجر أكسفورد
 الى لندن ، ويستمتع بالحانات والمومسات ، ويبدد ماله ، ويجر الى
 السجن لعجزه عن الوفاء بديونه ، ثم تنقذه خليلته التى نبذها ،
 ويستعيد قدرته على الوفاء بديونه بالزواج من كهل عوراء غنية ، ولكنه
 يقامر بثروته الجديدة فى نادى هوايت ، فيودع السجن مرة أخرى ،
 ويختتم سيرته مجنوناً فى مستشفى « بدلام » . لقد كانت تمثيلية
 أخلاقية فى صور سهلة الفهم تصور قطاعا من الحياة تصويرا دقيقا .
 ولكى يحمى هوجارث سلسلة صور « الفاجر » المطبوعة من السرقة
 شن حملة تستهدف الحماية القانونية لحقوقه . وفى ١٧٣٥ أقر
 البرلمان « قانونا لتشجيع فنون الرسم ، والحفر ، والنقش الخ » ،
 وهذا القانون ، الذى تعارف الناس على تسميته « قانون هوجارث »
 أعطاه حقا يعادل حق التأليف على صور المطبوعة . وفى ١٧٤٥ باع
 بالمزاد اللوحات التى حفر عنها سلسلتى « البغى » و « الفاجر » ،
 فربح منها ٤٢٧ جنيها .

وتوافرت له الآن الكفاية المالية والثقة بالنفس ، فغزا غزوة أخرى

فى التصوير . « لقد راودتنى بعض الآمال فى أن أنجح فيما يسميه المغالون فى أطراء الكتب « الأسلوب العظيم فى تصوير التاريخ (٢٤) » . وفى العقد الممتد من ١٧٣٥ الى ١٧٤٥ أنتج صوراً رائعة كان عليها أن تنتظر قرناً لتحظى بالتقدير . فلوحة « الشاعر المحزون (٢٥) » هى القصة القديمة ، قصة المؤلف الذى افتقر يطالب فى الحاج بايجار مسكنه بينما تحيك زوجته فى عصبية وبنام قطه فى رضى خلى من الهم . وحاولت لوحته « بركة بيت حسدا » رسم مشهد من الانجيل ، ولكن هوجارث تبلىه بحسنا نصف عارية تقف أمام المسيح وجها لوجه . ولم يكن الفنان معصوماً من اغراء جسد الانثى ، ففي محفوره « المثلثات المتجولات يرتدين ثيابهن فى جرن » خلج على هذا الجسد مزيداً من الفتنة والاغراء بالثياب نصف المجردة . وتقرب لوحة « السامرى الصالح (٢٦) » من مستوى « أئمة التصوير القدامى » . والطف منها لوحة كبيرة سماها « ديفد جاريك فى دور رتشرد الثالث (٢٧) » وقد كلفه بها رجل يدعى دنكوم دفع فيها مائتى جنيه ، وهذا أعلى ثمن دفع لمصور انجليزى الى ذلك الحين .

ومع ذلك لم تظفر هذه الأعمال باستحسان النقاد . فعاد هوجارث (١٧٥) الى هجو الحياة اللندنية فى محفورات أكد فيها المناقش درسا اخلاقيا بقصة . ففي المشهد الاول من « الزواج العصرى » يتعاقد ايرل مفلس مصاب بالنقرس ليزوج لقبه وابنه الكاره فتاة كارهة هى ابنة حاكم اقليمى غنى . ويعرض الايرل نسب الأسرة فى شكل شجرة على درج ، ويرش المحامى المسحوق المجفف على التوقعات ، ثم يدير العريس ظهره للعروس التى تلقى أذنا مصغية لعشيقها ، ويختص كلبان نفسيهما بالسلام العائلى . وفى المنظر التالى يبدو الزوجان وقد تخاصما . فقد عاد اللورد الشاب منهوكاً من مغامرة أنفق فيها ليله ودلت على طبيعتها قلنسوة فتاة من الدنتلا تطل من جيبه ؛ اما الزوجة الشابة فنتئاب بعد أن قضت الليل ترفه عن أصحابها بالموسيقى والقمار و « الدرشة » ، وهنا أيضا ليس هناك مخلوق سعيد الا الكلب . أما المشهد الثالث فهو هوجارث فى أجراً حالاته ، ترى فيه اللورد الوغد يأتى بخليلته الى طبيب دجال ليجهضها ، والمنظر الرابع يرينا الزوجة أثناء ترجيل شعرها فى استقبال الصباح ، ونرى عشيقها معها وهى تتجاهل الموسيقى التى يعزفها أو يغنيها

ضيوفا ، وفيهم مخنث فى شعره أوراق ملفوفة . وفى المنظر الخامس أمسكها زوجها مقلبسة مع عشيقها ، ويستل الرجلان سيفيهما ، ويجرح الزوج جرحا مميتا ، ويفر العشيق من النافذة ، ويغلب الندم الزوجة ويظهر رجل الشرطة بالبواب . وفى المنظر الأخير نرى الأرملة الشابة تحتضر ، وينزع أبوها خاتما ثمينا من أصبعها ليستنقذ البقية الباقية من الثروة التى دفعها ثمنا للقبها .

وفى ١٧٥١ أعلن هوجارث أنه سيبيع بالمزاد فى ساعة محددة فى مرسه اللوحات الزيتية التى رسمها لسلسلة « الزواج العصرى » ، ولكنه أنذر تجار الصور أن يبتعدوا عن المزاد . فلم يظهر غير شخص واحد ، عرض ١٢٦ جنيهها ثمنا للوحات وأطرها . ونزل عنها هوجارث لقاء هذا الثمن ، ولكنه سخط فى سره على ما رآه أخفاقا معيبا . وفى ١٧٩٧ بيعت هذه اللوحات بمبلغ ١٣٨١ جنيه . وهى اليوم من أعلى ما تملكه قاعة الصور القومية بلندن .

وكان أثناء ذلك قد أسخط الملك بلوخته « زحف فرقة الحرس الى اسكتلندة » (١٧٤٥) وكانت السنة التى حاول فيها « الأمير تشارلى الجميل » الأطاحة بالهانوفريين . وصور هوجارث رجال الحرس الملكى يتجمعون عند احدى ضواحي لندن المسماة فنشلى . يدعوهم زمار وطبال ، ويستعين الجند على تقبل قدرهم بالسكر ، وهم جماعة مظهرهم زرى ، وأصلح للقصف فى حانة منهم للقاء مع الموت فى ساحة الأبطال ، وأطلع جورج الثانى على اللوحة كطلب الفنان الذى استأذن فى اهدائها اليه . ولكن الملك رفض وهو يصيح «ماذا ؟ مصور يهزأ بجندى ؟ انه يستحق أن يحبس عقابا على وقاحته . اغربوا باللوحة الحقيرة عن وجهى » وتقول رواية غير مؤكدة أن هوجارث أهدى الصورة الى فردريك الأكبر بوصفه « مشجعا للفنون والعلوم (٢٨) » .

وعاد الى صوره المطبوعة الهجائية . فتنبع سيرة صبيين من صبيان التصناع فى اثنتى عشرة لوحة سماها « الجد والكسل » (١٧٤٧) . فاما فرانك جودتشايلد فيكد ويكدح ويقرأ الكتب الجيدة ويختلف الى الكنيسة كل أحد ، ويتزوج ابنة معلمه ويحسن الى الفقراء ، ويصبح عمدة البلدة وحاكما اقليميا ثم عمدة على لندن ، وأما توم أيدل فينام

ويشخر فوق نوله ، ويقراً الكتب الخبيثة مثل « مول فلاندرز » ، ويسكر ويقامر وينشل ، ثم يؤتى به أمام الحاكم جودتشايلد الذى يحكم عثيه بالشنق وهو يبكى شفقة عليه . وقابلت محفورتان ، هما « زقاق الجن » و « شارع الجعة » (١٧٥١) بين « النتائج الرهيبة لشرب الجن » والآثار الصحية للجعة . أما « المراحل الأربع للقسوة » (١٧٥١) فقد قال الفنان انهما استهدفت « تهذيب تلك المعاملة الهمجية للحيوان ، التى تجعل منظر شوارع عاصمتنا محزنا جدا لكل نفس حساسة . واننى لاشد فخرا برسمى لهذه الصور مما لو كنت صاحب رسوم رفائيل الهزلية (٢٩) » . وفى سلسلة « صور أربع لأحد الانتخابات » (١٧٥٥ - ٥٨) استهدف شرورا أبهظ ثمننا ، فقد هاجمت فساد السياسة الانجليزية .

ولو أخذنا صور هوجارت المطبوعة على أنها مجرد رسوم لكانت فجة فى فكرتها وتنفيذها متعجلة غير دقيقة فى تفاصيلها . ولكنه كان ينظر الى نفسه على أنه مؤلف أو كاتب مسرحى أكثر منه مصورا ، وقد أشبه صديقه فيلدنج أكثر من ألد خصومه ولیم كنت ، ولم يكن يعرض تقنيات التصوير بل يقدم صورة للعصر ، « لقد حاولت تناول موضوعى كما يتناوله كاتب للدراما ، فصورتى هى خشبة مسرحى ، والرجال والنساء هم ممثلى الذين يراد منهم ببعض الحركات والایماء أن يقدموا عرضا صامتا (٣٠) » . ونحن اذا نظرنا الى صور المطبوعة على انها هجائيات وجدناها مبالغات متعمدة ، فهى تشدد على جانب وترهف نقطة وهى أكثر ازديحاما بالتفاصيل مما ينبغى أن يكون عليه العمل الفنى ، ولكن كل تفصيل فيما عدا الكلب الذى لا مناص منه يسهم فى الموضوع . وصوره المطبوعة فى مجموعها تتيح لنا نظرة الى طبقة لندن الوسطى - الدنيا فى القرن الثامن عشر ؛ البيوت ، والحانات وحى المل ، وكوفنت جاردن ، وكوبرى لندن ، وتشيبسايد ، وبرايديويل ، وبدلام ، وشارع فليت ، وهذه ليست كل لندن ، ولكن ما صوره منها ينبض بالحياة نبضا رائعا .

أما ناقدو الفن وجماعوه وتجاره فى ذلك العهد فلم يعترفوا لا بكفاية هوجارت فنانا ولا بصدقه هجاء . فاتهموه بأنه لا يصور غير

جفالة الحياة الانجليزية ، وسخروا منه لأنه اتجه الى صور مطبوعة شعبية لعجزه عن تصوير اللوحات الشخصية الناجحة أو المناظر التاريخية . ونددوا برسمه لأنه مهمل وغير دقيق . وقد رد عليهم بأن اتهم التجار بانهم يتآمرون على الاشادة بما يحتفظون به من مخلفات كبار المصورين القدامى ، بينما يتركون الاحياء يتضورون جوعا . قال :

« ان أفضل الصور صيانة وأكملها صقلا ، بغير تكريس لها من سلطتهم وتأييد من التقاليد . . . لا تباع فى مزاد على خمسة شلنات ، فى حين أن لوحة قماشية عتيقة ، حقيرة ، معطوبة ، مرممة ، اذا كرسها ثنائوهم عليها ، لا بد أن تباع بأى ثمن مهما غلا ، وتحتل مكانا بين أرقى المجموعات . كل هذا يفهمه التجار فهما تاما (٣١) » .

وقد رفض أن يخضع رأيه لامثال هؤلاء التجار أو الخبراء . وندد باسترقاق المصورين الانجليز لمحاكاة فانديك أو للى أو نلر ؛ لا بل أنه أطلق على عمالقة التصوير الايطالى لقباً هزليا هو « الاساتذة السود » ، لأنهم ألقوا على التصوير الانجليزى حجابا كثيفا بالسحر الأسود (الشيطانى) الكامن فى ألوانهم القاتمة الشبيهة بالصلصة البنية . فلما بيعت لوحة منسوبة الى كوريدجو باربعمائة جنيه فى مزاد بلندن ، لشكك فى صحة نسبتها وفى قيمتها ، وقال ان فى وسعه أن يرسم صورة لا تقل عنها جودة فى أى وقت شاء . فلما تحداه بعضهم ، رسم لوحة « سجموندا » (١٧٥٩) - وهى محاكاة جيدة لكوريدجو ، فيها الدانتيل والملابس الزاهية والأيدي الرقيقة والوجه الجميل ، ولكن العينين كان يشوبهما من الاكتئاب ما لم يسر المشتري المنتظر ، الذى أبى أن يدفع الجنيهات الأربعمائة التى طلبها هوبجارث ثمنها لها . وقد بيعت بعد موته بستة وخمسين جنيها .

ثم أعطى خشومه سلاحا جديدا بتأليفه كتابا . فعلى لوحة الألوان الظاهرة فى الصورة التى رسمها لنفسه ولكلبه (١٧٤٥) كان قد تتبع خطأ ملتفا لاح له أنه العنصر الاساسى فى الشكل الجميل . وقد عرف هذا الخط فى رسالة تربوية سماها « تحليل الجمال » (١٧٥٣) بأنه

ذلك الخط الذى يتكون بلف سلك فى توال مطرد حول مخروط ، وذهب الى أن خطا كهذا ليس سر الجمال فحسب ، بل حركة الحياة . وكان هذا كله فى رأى نقاد هوجارث هراء سخيفا .

على أنه أثرى برغم أنوفهم ، فافتنى كل بيت مثقف تقريبا صورة المطبوعة ، وتاخ له بيعها المتصل دخلا ثابتا . وفى ١٧٥٧ ، وبعد أن نسيت لوحته « زحف فرقة الحرس » ، عين « رئيس المصورين لكل أعمال جلالته » ، وهى وظيفة أئته بمائتى جنيه أخرى فى السنة . وكان فى وسعه الآن أن يختصم أعداء جددا . وفى ١٧٦٢ أصدر صورة مطبوعة سماها « العصر الحاضر » هاجم فيها بت وولكس وغيرهما لأنهما تجار حرب . ورد ولكس فى مجلته « البريطانى الشمالى » يصف هوجارث بأنه عجوز مغرور جشع لا يستطيع تصور « فكرة واحدة عن الجمال » ورد هوجارث بنشره لوحة صور فيها ولكس وحشا أحول . ورد تشرشل ، صديق ولكس ، بخطاب شرس سماه « رسالة الى وليم هوجارث » ، فأصدر هوجارث صورة مطبوعة بدا فيها تشرشل على هيئة دب ، وكتب يقول « ان اللذة والفائدة المالية اللتين حصلنت عليهما من هاتين المحفورتين ، بالاضافة الى ركوبى الخيل بين الحين والحين ، أعادا الى من الصحة الموفورة أكثر ما يرجى فى مثل عمرى » . ولكن فى ٢٦ أكتوبر ١٧٦٤ انفجر أحد شرابيئه فمات .

ولم يترك بصمة منظورة على فن زمانه . وفى ١٧٣٤ افتتح « مدرسة حياة » ليدرب الفنانين ، وقد أدمجت فى ١٧٦٨ فى الأكاديمية الملكية للفنون . ولكن حتى الفنانون الذين تعلموا فى مدرسته هجروا واقعته مؤثرين عليها المثالية الفاشية يوما ، مثالية رينولدز وجينزبورو . على أن تأثيره أحس به الناس فى مجال الكاريكاتور ؛ هناك انتقلت فكاهته وقوته من توماس رولاندسن الى اسحاق وجورج كروكشانك ، وأصبح الكاريكاتور فنا . أما شهرة هوجارث الحالية مصورا فقد بدأت بملاحظة لهويسلر قال فيها ان هوجارث « هو المصور الانجليزى العظيم الوحيد (٣٤) » . وقد استثنى هويسلر نفسه فى حرص من هذه المقارنة . وقال قاض أقل تحوطا فى تقديره لهوجارث « اننا لو نظرنا اليه فى أفضل صورته لوجدناه أعظم شخصية فى تصوير (م ٢١ - قصة الحضارة)

القرن الثامن عشر (٣٥) » . وهذا التقدير يمثل ما يشيع اليوم من يخس لقدر رينولدز بدعوى أنه كان مجملا للارستقراطيين همه جمع المال ، وتلك نزوة عارضة ستختفى . ومن العسير تقييم هوجارث كفنان ، لأنه لم يكن فنانا فحسب ، فلقد كان صوت انجلترا الغاضبة لما فيها من فساد وانحطاط ، ولقد عد نفسه بحق قوة اجتماعية . كذلك فهمه فيلدينج ففال فيه « أكاد أجرؤ على التاكيد بأن عمليه هذين اللذين يسميهما « رحلة فاجر » و « رحلة بغى » ، قصد بهما خدمة قضية الفضيلة . أكثر مما خدمتها كل المجلدات الضخمة التي كتبت اطلاقا فى الاخلاق (٣٦) » . على أن شيئا واحدا لا شك فيه ، هو انه كان الانجليزى الصميم بين جميع من عاش من الفنانين الانجليز .

٣ - الموسيقون

من الغاز التاريخ المحيرة ذلك السر فى أن انجلترا التى أسهمت هذا الاسهام الموقور فى التطور والنظرية الاقتصاڊيين والسياسيين ، وفى الأدب والعلم والدين والفلسفة - انجلترا هذه أقفرت نسبيا فى أشكال التاليف الموسيقى الأكثر تعقيدا منذ عصر الميزابيث الاولى . وربما وجدنا بعض تعليل لهذه الظاهرة فى زوال الكتلكة من انجلترا ؛ فالذاهب الجديدة شجعت المؤلفات الموسيقية الرفيعة تشجيعا أقل ، ومع أن الشعائر اللوثرية فى المانيا والانجليكانية فى انجلترا تطلبت الموسيقى ، فان أشكال البروتستنتية الأكثر تزمنا فى انجلترا وفى الجمهورية الهولندية لم تبذل تشجيعا يذكر لآى موسيقى تزيد على الترنيمة الجماعية التى يرمنها المصلون . وحل محل أساطير كنيسة زوما وطقوسها ، التى طالما شددت على مباحج الايمان ، عقائد جبرية قاتمة نشدد على هول الجحيم ، ولم يستطع غير « أورفيوس » أن يغنى فى وجه الجحيم . وماتت أغانى انجلترا الاليزابيثية الغرامبسة الشعربة فى الصقيع البيورتانى . وقد جلبت عودة الملكية من فرنسا روحا أكثر مرحا ، ولكن بعد موت بيرسل اسدل حجاب كنيف على الموسيقى الانجليزية من حديد .

هذا باستثناء الاغانى التى تفاوتت من الجهوريات الجماعية المنتشرة فى أندية الطرب glee clubs الى الرقة الهفافة التى تميزت

بها الغنائيات المأخوذة من تمثيلات شكسبير . وكلمة glee هي الكلمة الانجلو - سكسونية glee ، ومعناها الموسيقى ؛ ولم تتضمن بالضرورة الفرع ، وكانت تطبق عادة على الاغانى التى لا ترافقها الموسيقى لثلاثة أصوات أو أكثر . وازدهرت اندية الطرب قرنا ، وبلغت أوجها حوالى عام ١٧٨٠ فى عز أيام أكبر مؤلف لأغانى الطرب ، وهو صموئيل وب . وكان أجمل منها موسيقات توماس آرن التى لحنها لأغانى شكسبير - « هبى ، هبى ، يا ريح الفتاء » و « تحت شجرة الغابة الخضراء » و « حيث ترشف النحلة رحيقها هناك أرتشف رحيقى » ؛ وما زالت هذه نسيم فى انجلترا . والموسيقى المشجى آرن هو الذى لحن قصيدة طومسن « احكمى يا بريطانيا ! » وفى هذه الفترة ، أو قبلها ، لحن وطنى مجهول نشيد بريطانيا الفوسى ، « حفظ الله الملك » . وعلى قدر ما نعلم ، غنى هذا النشيد علنا أول مرة فى ١٧٤٥ حين جاء نبأ بأن قوات جورج الثانى هزمها الاسكتلنديون بقيادة المطالب الشاب بالعرش عند بريستونبانس ، ولاح أن أسرة هانوفر قد حان حينها . والنشيد فى أقدم صورته المعروفة (وهى لا تختلف الا اختلافا طفيفا عن الكلمات واللحن الحاليين) دعا الى الله بالنصر على الحزب الاستيوارتى فى السياسة الانجليزية ، وعلى الجيش الاستيوارتى الزاحف من اسكتلندة :

« حفظ الله مولانا الملك

ليحى ملكنا النبيل (جورج الثانى) طويلا ،

حفظ الله الملك .

ربنا انصره نصرا عزيزا

واجعله سعيدا عظيما ،

لئبملك علينا طويلا ،

حفظ الله الملك .

ربنا والهنا قم ،

وشتت أعداءه ،

واجعلهم يسقطون ،

وأحبط سياساتهم

وأفسد مكائدهم الوضيعة

آمالنا معلقة عليه (فى النص الحالى « عليك ») ،
 احفظنا اللهم أجمعين (٣٧) .

واقتبست اللحن لفترات شتى تسع عشرة دولة ، لحننت به أغانى
 وطنية ، ومن هذه الدول ألمانيا وسويسرة والدنمرك والولايات المتحدة
 الامريكية - التى أحلت فى ١٩٣١ محل « أمريكا » نشيدا قوميا « الراية
 المرصعة بالنجوم » يغنى وفق لحن عسير من أغنية شراب انجليزية
 عتيقة .

ويدل رواج الاغانى الرقيقة فى انجلترا على ذوق موسيقى واسع
 الانتشار . فكان فى كل بيت هاربيسيكورد فيما عدا بيوت الفقراء ، وكان
 كل انسان تقريبا يعزف على احدى الآلات الموسيقية ، وتوفر من
 العازفين فى الاحتفال بذكرى هندل عام سنة ١٧٨٤ بدير وستمنستر
 عدد يكفى للعزف على خمسة وتسعين كامانا ، وست وعشرين فيولا ،
 واحدى وعشرين فيولنتشلو ، وخمسة عشر دبل باصا ، وستة نايات ،
 وست وعشرين أوبوا ، واثنى عشر بوقا ، واثنى عشر نفيرا ، وست
 ترمبونات ، وأربعة طبول ، مع فرقة غنائية من تسعة وخمسين
 سوبرانو ، وثمانية وأربعين تينورا وأربعة وثمانين باصا - وهذا عدد
 كان خليقا لكبره بأن يرتجف له هندل فرقا فى مقبرته بالدير .
 ولم يدخل الكلاينت الا فى أواخر القرن . وكان هناك أراغن رائعة ،
 وعازفون عظام عليها مثل موريس جرين الذى كانت أناشيده وتسبيحات
 شكره - مع تلك التى لحنها هندل وبويس - هى تقريبا موسيقى انجلترا
 الكنسية الوحيدة الجديرة بالذكر فى ذلك العصر .

أما وليم بويس فقد ارتقى حتى أصبح مديرا للفرقة الموسيقية الملكية
 (أى الأوركسترا) وعازف الأراغن فى الكنيسة الملكية رغم ما شاب سمعه
 من خلل فى صباه . وكان أول « مايسترو » يقود العازفين واقفا . أما
 هندل ومعاصروه الآخرون فكانوا يقودونهم من الأراغن أو الهاربيسيكورد
 وما زالت بعض أناشيده - لا سيما « على أنهار بابل » - تسمع فى
 الكنائس الانجليكانية ، وما زالت البيوت الانجليزية تسمع على الأقل
 أغنيتين من أغانيه « قلوب من البلوط » التى كتبها لأحدى تمثيلات

جاريك الايمائية ، و «رفقا فى هبويك يا نسيم الجنوب» وهو لحن فى كنتاتا « سليمان » . أما سمفونياته فتبدو ضعيفة هزيلة لأذنانا التى عراها الذبول .

كان الشيء المثير الوحيد فى دنيا الموسيقى الانجليزية فى مطلع القرن الثامن عشر هو مجيء الأوبرا ، وكانت هناك عروض سابقة ترجع الى عام ١٦٧٤ ، ولكن الأوبرا لم تستهوا المزاج الانجليزى الا حين قدم المغنون الايطاليون من روما فى ١٧٠٢ . وفى ١٧٠٨ صدمت لندن وافتتحت بصوت مغن سوبرانو ، خصى (castrato) يدعى نيكولينى . وتلاه مغنون خصيان آخرون ، وقد ألفتهم انجلترا ، وكادت تجن بصوت فارينلى . فما وافى عام ١٧١٠ حتى كان فى لندن من المغنين الايطاليين عدد أتاح لهم تقديم أول أوبرا فيها بالايطالية دون غيرها . وقامت الاحتجاجات الكثيرة على هذا الغزو . وخصص له أديسون العدد الثامن عشر من صحيفته « سبكتيتور » مستهدفا :

« أن يسلم الى الأجيال القادمة وصفا أمينا للأوبرا الايطالية ان حفتنا البعيدين سيشتد فضولهم لمعرفة السر فى أن أجدادهم اعتادوا الجلوس معا كأنهم جمهور من الأجانب فى وطنهم ليستمعوا الى تمثيلات باكملها تمثل أملمهم بلسان لا يفهمونه » .

واستنتج من حركات هذه التمثيلات انه ما من شيء فى الأوبرا « يصلح للتلحين الجيد الا كان لغوا فارغا » . وسخر من المناظر التى يغازل فيها البطل حبيبته بالايطالية ، فترد البطلة بالانجليزية - وكان اللغة أمر ذو بال فى مثل هذه الأزمات . واعترض على المناظر المسرحية المسرفة - على العصافير الحقيقية التى تطير حول المسرح ، ونيكولينى يرتعش فى قارب مكشوف على بحر من الورق المقوى .

وكان فى صدر أديسون ضغينة يريد شفاءها ، فقد كتب النص لأوبرا توماس كلايتون الانجليزية « روزاموند » التى فشلت (٣٨) . وأغلب الظن أن ثورته (٢١ مارس ١٧١١) فجرها العرض الأول (٢٤ فبراير) لأوبرا ايطالية تسمى « رينالدو » فى دار أوبرا هايماركت .

وزاد الطين بلة أن الموسيقى ألفها ألماني وفد مؤخرا على إنجلترا ، هذا الى أن الكلام كان بالاطالية . ومما أفرع أديسون أن الأوبرا الجديدة حققت نصرا عظيما ، فما مضت ثلاثة أشهر حتى كانت قد عرضت خمس عشرة مرة اكتظ المسرح فيها دائما برواده ، ورقصت لندن على مختارات من موسيقاها ، وتغنّت بالحانها الأكثر بساطة (٣٩) . تلك هي بداية الطور الانجليزى فى أروع سيرة فى تاريخ الموسيقى .

٤ - هندل : ١٦٨٥ - ١٧٥٩ (٤٠)

أ - نشأته

كان جيورج فريدرش هندل ★ أشهر مؤلف موسيقى على عهد يوهان سباستيان باخ . انتصر فى ألمانيا ودانت له ايطاليا الموسيقية ، وكان روح الموسيقى وتاريخها فى إنجلترا طوال النصف الأول من القرن الثامن عشر . واتخذ تفوقه قضية مسلمة ، لم يجادله فى ذلك مجادل ، وشمخ فى دنيا الموسيقى كأنه مارد مسيطر يزن ٢٥٠ رطلا .

ولد فى مدينة هاله بسكسونيا العليا فى ٥٣ فبراير ١٦٨٥ قبل مولد يوهان سباستيان باخ بستة وعشرين يوما ، وقبل مولد دومنيكو سكارلاتى بثمانية أشهر . ولكن بينما أشرب باخ وسكارلاتى الموسيقى منذ طفولتهما ، وأتيح لهما أبوان من مشهورى المؤلفين ، وربيا على سلم موسيقى ملزم ، ولد هندل لابوين لا يكثران للموسيقى ؛ فابوه كان الجراح الرسمى فى بلاط الدوق يوهان أدولف أمير ساكس - فايسنغيلز ، وأمه ابنة قسيس لوثرى . ولم يرضيا عن ادمان الغلام على عزف الأارغن والمهاريسيكورد ، ولكن حين أصر الدوق بعد أن سمعه يعزف على ضرورة تدريبه على الموسيقى ، سما له بأن يدرس على فريدرش تساخاو ، عازف الأارغن بكنيسة ليبفراوينكيرشي فى هاله . وكان تساخاو معلما مخلصا دقيقا . فما بلغ جيورج الحادية عشرة حتى كان يؤلف

★ كان فى المنابا يوقح باسمه Händel (هندل) ، وفى ايطاليا وانجلترا Hendel (٤١) .

السوناتات (التي بقى منها ست) ، وحذق العزف على الارغن الى حد
حمل تساخاو والابوين المستسلمين على ايفاده الى برلين ليعزف امام
صوفيا شارلوت ناخبة براندينبورج المثقفة ، التي ستصبح عما قليل ملكة
بروسيا . فلما عاد جيورج الى هاله (١٦٩٧) وجد أن أباه قد مات .
أما أمه فعمرت الى سنة ١٧٢٩ .

وفى ١٧٠٢ دخل جامعة هاله ليحضر لمهنة المحاماة فى ظاهر الامر .
وبعد شهر عينه القائمون على الكتدرائية الكلفنية فى هاله مكان عازف
أرغنهم السكير . أما العبرى الشاب الذى لا يستقر على حال ، والذى
هفت نفسه الى مجال أرحب ، فبعد أن قضى عاما واحدا هناك اقتلع كل
جذوره التى فى هاله باستثناء حبه المقيم لأمه وانطلق ميمما هامبورج ،
حيث كان الناس يحبون الموسيقى حبا يكاد يبلغ حبههم للمال . وكان فى
هامبورج دار الاوبرا منذ ١٦٧٨ . هناك وجد هندل ، وهو فى الثامنة
عشرة ، مكانا له عازفا ثانيا للكمان . وصادق يوهان ماتيسون البالغ من
العمر اثنى عشر عاما ، و « التينور » الاول فى الاوبرا ، الذى
أصبح بعد ذلك أشهر النقاد الموسيقيين فى القرن الثامن عشر . ورحلا
معا الى لوبك (أغسطس ١٧٠٣) ليستمعا الى الشيخ بوكستيهودى
يعزف ، ويتحسسا اماكن خلافته فى العزف على الارغن فى كنيسة
مارينكرشي ، ووجدوا أن خليفته يجب أن يتزوج ابنة هذا الشيخ . فنظروا
الى الشيخ وابنته ثم رحلا عن المدينة .

وانهارت صداقتهما فى مبارزة سخيفة سخف المبارزات فى أى
مسرحية . ذلك أنه فى ٢٠ أكتوبر ١٧٠٤ أخرج ماتيسون أوبراه
« كليوبطره » ومثل دور البطل فيها . ولقيت نجاحا لا شك فيه ، وأعيد
تمثيلها مرارا . وفى هذه الحفلات قاد هندل الاوركسترا والمغنين من
الهاربسيكورد . وكان ماتيسون أحيانا ينزل من خشبة المسرح بعد أن
يموت فى دور أنطونيوس ، وفى نشوة الفخر يأخذ مكان صديقه قائدا
وعازفا على الهاربسيكورد ، ويسعد بنصيب من التصفيق الأخير . وفى
٥ ديسمبر أبى هندل أن يحل صديقه محله على هذا النحو . فالحق
الصديقان الاوبرا بشجار ساخن ، وعقب انتهاء التمثيل سارا الى الميدان
العام ، واستلا سيفيهما ، واقتتلا على أنغام المديح من رعاة الاوبرا

والمارة • وصك سيف ماتيسون زرا معدنيا على سترة هندل فانكسر • وانقلبت الماساة مهزلة فى نظر الجصيع الا بطليها ، وراحا يجتزان سخطهما الى أن قبل مدير الفرقة أوبرا هندل « الميرا » التى احتاجت الى ماتيسون ليؤدى دور التينور • وأعاد نجاح الأوبرا (٨ يناير ١٧٠٥) الخصمين صديقين كما كانا من قبل •

وأحب الناس أوبرا « الميرا » ، التى احتوت على واحد وأربعين لحنًا بالألمانية وخمسة عشر بالاطالية ، حبا اتاح عرضها عشرين مرة فى سبعة أسابيع • ودب دبيب الغيرة فى قلب راينهارت كايزر الذى كان مشرفا على الفرقة ومؤلفا لمعظم أوبراتها • وضعت شعبية أوبرا هامبورج ، وعاش هندل عامين على دخل ضعيف • وكان الامير جوفان جاستونى دى مديتشي ، أثناء مروره بهامبورج ، قد نصحه بأن يرحل الى ايطاليا حيث يجن الناس كلهم بالموسيقى ويصدق حتى خدم المطاعم بالأغاني الجميلة • واقتحم هندل ثلوج جبال الألب فى ديسمبر وفى محفظته مائتا دوقاتية ، وخطاب من جاستونى الى أخيه فرديناند راعى الأوبرا فى فلورنسه ؛ وبلغها أواخر عام ١٧٠٦ • فلما وجد جيوب فرديناند منيعة نزل الى روما • ولكن دار الأوبرا هناك كان قد أغلقها البابا انوسنت الثانى عشر باعتبارها بؤرة للفساد • وعزف هندل على الأارغن فى كنيسة سان جوفانى لاترانو ، وصدق له الجمهور عازفا بارعا ، ولكنه عاد الى فلورنسه لأن أحدا لم يرد أن يخرج أوبراه الجديدة • هناك وجد جاستونى الذى دافع عنه ، ففتح فرديناند كيس نقوده ، ومثلت « رودريجو » ، وسر الجصيع بها • ونفح فرديناند مؤلفها الشاب بمائة سكوين (٣٠٠ دولار ؟) وطقم عشاء من الخزف • ولكن فلورنسه لم يكن بها دار أوبرا عامة ، أما البندقية فكان بها ست عشرة دارا • ومن ثم مضى هندل الى البندقية •

كان ذلك فى خريف ١٧٠٧ ، ومملكة الأدرياتى مبهورة بسحر أليساندرو سكارلاتى ، تصفق لأعظم أوبراته « مترداتى أوباتورى » ، فلا مجال فيها للألمانى شاب حديث العهد بتعلم أسرار الميلوديا الايطالية ودرس هندل أوبرات سكارلاتى ، ووجد له صديقا وفيما فى ابن أليساندرو • وتقول الرواية انه حين عزف هندل وهو مقنع على الهاريسيكورد فى حفلة تنكرية فى البندقية ، صاح دومنيكو سكارلاتى

« هذا اما السكسونى المعجز أو الشيطان (٤٢) » . والصدائقة الخالدة التى ربطت قلبى أعظم عازفين للهاريسيكورد فى ذلك العهد أشبه بلحظة تناغم وانسجام وسط نشاز التاريخ . وقد ترك كلاهما البندقية للموسيقيين الأكبر منهما سنا وانطلقا الى روما (يناير ١٧٠٨ ؟) .

وفى هذه المرة لقى هندل استقبالا أفضل . فقد بلغ نبا « رودريجو » العاصمة ، وفتح الامراء والكرادلة أبوابهم له ، وهم أسد ضيقا بلهجته الألمانية منهم بمذهبه اللوثرى . وبنى المريكيز دى روسبولى مسرحا خاصا فى قصره ليخرج عليه أول أوراتوريو لهندل ، واسمها « القيامة » ، وكانت موسيقاها مفاجأة ملهمة فى قوتها وتعقيدها وعمقها ، وسرعان ما راحت الصفوة المثقفة كلها فى روما تتحدث عن « السكسونى الطويل الجبار » . غير أن موسيقاه كانت أصعب مما يحبه العازفون الايطاليون . فلما أخرج الكردينال بييترو أوتوبونى أوراتوريو هندل « سريناتا » اتعبت الموسيقى أركانجلو كوريللى ، الذى كان عازفا أول للكمان وقائدا للأوركسترا . فتمتم فى تأدب « أيها السكسونى العزيز ، هذه الموسيقى تنهج النهج الفرنسى الذى لا أفهمه (٤٣) » . وأخذ هندل الكمان من يدي كوريللى وعزف بحيويته المعهودة . وسامحه كوريللى .

بقى على هندل أن يغزو نابلى . وتقول رواية لا يعتمد عليها ان هندل وكوريللى ، وسكارلاتى الأب والأبن ، كلهم قصدوا تلك المدينة معا (يونيو ١٧٠٨) . وتزعم قصة أخرى مشكوك فيها أن هندل وقع فى غرام هناك ؛ ولكن التاريخ الحذر يعترف فى أسف بأن ليس لديه أى دليل سليم على أى غرام وقع فيه هندل ابان حياته فى أى بلد ، اللهم الا غرامه بأمه وبموسيقاه . وقد يبدو أمرا لا يصدق أن يخلو قلب رجل استطاع أن يكتب مثل هذه الألحان المشبوبة من شحنة الحب ، ولعل التعبير عنها بدد حرارته على أجنحة الغناء . أما أهم الأحداث فى هذه الفترة التى أقام فيها هندل فى نابلى فهو - على قدر علمنا - لقاؤه بالكردينال فنتشنتسو جريماتى ، حاكم نابلى وسليل أسرة بندقية غنية . وقد قدم للمؤلف نص أوبرا تتناول موضوع أم نيرون القديم . وأتم هندل المهمة فى ثلاثة أسابيع . ورتب جريماتى تمثيلها فى مسرح أسرته بالبندقية ، فأسرع اليها هندل حاملا موسيقاه .

كانت الحفلة الافتتاحية لأوبرا « أجريينا » (٢٦ ديسمبر ١٧٠٩)
 أبهج الانتصارات التي عرفها هندل الى ذلك الحين . ولم تخالج الايطاليين
 الكرماء الغيرة لأن المانيا تفوق عليهم فى لعبتهم ، وأراهم روائع من النغم ،
 واقتحامات من الانتقال ، وأفانين من الصنعة قل أن أدركها حتى
 موسيقيهم المفضل اليساندرو سكارلاتى ، فهتفوا « يحيى السكسونى
 الحبيب (٤٤) » . ونال نصيبا من هذا الهتاف المغنى الباصو الممتاز
 جوزيى بوسكى الذى تنقل صوته فى يسر بين سلسلة كاملة من تسع
 وعشرين نغمة .

وخطب الكثيرون ود هندل الآن . فدصح تشارلز مونتاجيو ،
 ايرل مانشستر الذى كان سفيرا لبريطانيا فى البندقية ، بان يذهب الى
 لندن ، وعرض عليه الامير ارنست أوغسطس الأخ الاصغر للناخب جورج
 لويس ، وظيفة قائد الفرقة الموسيقية الكنسية فى هانوفر . لقد كانت
 البندقية رائجة ، تتنافس الموسيقى ، ولكن الى متى يستطيع المرء أن
 يكسب قوته من أوبرا واحدة ، والى متى يستطيع الركون الى هؤلاء
 الايطاليين المتقلبين ؟ أما هانوفر ففيها ضباب ، وغيوم ، وكلام خارج
 من الحناجر ، ولكن فيها أيضا دار فخمة للأوبرا وراتب ثابت وطعام
 ألمانى دسم ؛ ثم انه يستطيع بين الحين والحين أن يركب منها ليزور
 أمه فى هاله . وعليه ففى ١٥ يونيو ١٧١٠ عين هندل قائدا للفرقة
 الكنسية فى هانوفر ، وكان يومها فى الخامسة والعشرين ، براتب سنوى
 قدره ألف وخمسمائة كراون ، مع الأذن له بالغياب بين حين وحين . وفى
 خريف ذلك العام ، طلب الأذن له بزيارة انجلترا ، فحصل عليه ،
 ووعد بالرجوع سريعا .

ب - غزوا انجلترا

كانت أوبرا لندن فى محنة . ففيها فرقة ايطالية تغنى ، مغنيها
 الباصو بوسكى ، ومغنيها الكونترالتو زوجته ، ومغنيها السوبرانو
 نيكولينى الذى ذهب تشارلز بيرنى ، مؤرخ الموسيقى الغيور ، الى أنه
 « أول مغن عظيم حقا غنى فى مسرحنا (٤٥) » . ولكن دار أوبرا
 هايماركت (وكانت يومها تسمى مسرح صاحبة الجلالة) ، ومسرح

دروزي لين ، كانا يقعان فى قسم سوقى من المدينة ، تنشل فيه الجيوب ،
وتحطم الرعوس . وتردد « المجتمع الراقى » فى المغامرة بباروكاته
وأكياس نقوده هناك .

وسمع آرون هل مدير الفرقة بأن هندل فى لندن ، فعرض عليه
نص أوبرا مأخوذا عن « تحرير أورشليم » لئاسو . وعكف هندل على
العمل بنشاطه الهائل ، ونقل فى غير تخرج عن ألحانه هو ، فلم ينقض
أسبوعان حتى أتم أوبرا « رينالدو » . فأخرجت فى ٢٤ فبراير ١٧١١ ،
وأعيد عرضها أربع عشرة مرة أمام جمهور حافل قبل أن ينتهى الموسم
فى ٢٢ يونيو . وهاجمها أديسون وستيل ، ولكن لندن أقبلت عليها ،
وتغنت بالحنانها فى الشوارع ، وأكثر ما مس أوتار العاطفة من ألحانها
بل يستطيع أن يحرك مشاعرنا حتى فى يومنا هذا ، لحنان هما
اتركنى اننى أبكى *Lascia ch'io pianga* و *Cara Sposa* يا زوجتى
العزيرة ، وقد ربح جون وولش ألفا وأربعمائة جنيه بنشره أغانى من
أوبرا مينالدو ، واقترح هندل فى سخرية أن على وولش أن يكتب
موسيقى الأوبرا القادمة ويترك له نشرها (٤٦) . وما لبثت هذه الأوبرا ،
وهى خير أوبرات هندل ، أن أخرجت فى دبلن وهامبورج ونابلى ،
وقد شغلت المسرح فى لندن عشرين عاما .

ومد هندل أجازته حتى بلغت سنة كاملة وهو يرشف نجاحه على
مهل ، ثم عاد كارها الى هانوفر (يونيو ١٧١١) ولم يكن هناك أسدا
فى قاعات الاستقبال ، بل خادما فى قصر الامير الناخب ؛ وأغلقت
دار الأوبرا فترة الموسم ، فالف الكونشرتوات الكبيرة والكنتاتات ، بينما
كان خياله يطلق فى سماء الأوبرات . وفى أكتوبر ١٧١٢ استأذن فى
زيارة أخرى « قصيرة » لانجلترا . وأذن له الامير الناخب ، ربما وهو
شاعر أن انجلترا ستكون على أية حال اقطاعية هانوفرية بعد قليل .
ووصل هندل الى لندن فى نوفمبر ، ومكث هناك ستا وأربعين سنة .

وقد حمل معه أوبرا جديدة هى « الراقى الوفى » ، النى مازال
استهالها اللطيف يسحر جونا . وقد أخرجت فى ٢٢ نوفمبر ، وفشلت .
وللفور بدأ موضوعا آخر وقد حفزه هذا الفشل أكثر مما ثبط همته .

والموضوع هو « تيسيو (ثيوسيو) » وكانت حفلة الافتتاح نصرا له ، ولكن المدير هرب بعد الليلة الثانية حاملا ايصالات شبك التذاكر . وتسلم عمله مدير آخر اسمه جون هيديجر ، وواصل عرض « تيسيو » حتى بلغت عروضها ثلاثة عشر ، وكافا المؤلف الذى لم ينقد أجره بتنظيمه حفلة خيرية لاعانة « المستر هندل » ، ظهر فيها المؤلف وهو يعزف على الهاربسيكورد . ودعا ايرل بيرلنتن ، وكان مستمعا متحمسا ، هندل لينزل ضيفا عليه فى قصر بيرلنتن ، وقبل هندل الدعوة ، ووجد المسكن الطيب والطعام المترف ، والتقى هناك ببوب ، وجاى ، وكنت ، وغيرهم من أئمة الادب والفن .

واقبلت عليه الدنيا أيما اقبال . ذلك أن الملكة آن تافت لوضع حد لحرب الوراثة الأسبانية ، وأتت النهاية مع معاهدة أوترخت ، فأبهج هندل آن بـ « تسبحة أوترخت » وبـ « أغنية الميلاد » فى عيد ميلادها . وأثبت فيهما أنه درس « كوارس » بيرسيل . وأثابته الملكة العطوف بمعاش قدره مائتا جنيه . أما وقد ظفر بالالئمئنان والرخاء ، فانه استراح الان على مجدافيه طوال سنة من التهرب .

ولكن فى أول أغسطس ١٧١٤ ماتت آن ، وأصبح الناخب جورج لويس أمير هانوفر ملكا على انجلترا باسم جورج الاول . وتوجس هندل بعض الشيء من هذا الاتجاه الذى اتخذته الاحداث . فالواقع أنه هرب من هانوفر ، وله أن يتوقع أن يكون الملك غير راض عنه ، وقد حدث هذا ، ولكن جورج لزم الهدوء . وأعيدت تسمية مسرح هايماركت الان فسمى « مسرح جلاله الملك » ، وأحس الملك أنه ملزم ببسط رعايته على هذا المسرح ، ولكنه كان يعرض أوبرا « رينالدو » التى لحنها ذلك المتهرب ، فذهب جورج متنكرا الا فى لهجته ، واستمتع بالعرض . وكان هندل خلال ذلك قد كتب أوبرا أخرى « أماديجى الغالى » ، وأخرجها هيديجر فى ٢٥ مايو ١٧١٥ ، وأحبها جورج . وبعد قليل طلب عازف الكمان والمؤلف الايطالى فرانتشسكو جيمينيانى ، الذى دعى للعزف فى البلاط ، أن يصاحبه هندل ، لأنه عازف الهاربسيكورد الوحيد فى انجلترا الذى يصلح لمصاحبته . وكان له ما أراد ، وأبدع هندل فى العزف فعفا عنه الملك ، ورفع معاشه الى أربعمئة جنيه فى السنة .

وولت اليه الاميرة كارولين تدريس بناتها ، وأضافت معاشا قدره مائتا جنيه . وهكذا الآن صاحب أعلى أجر بين المؤلفين الموسيقيين في أوروبا .

فلما غادر جورج الاول لندن (٩ يوليو ١٧١٦) ليزور هانوفر اصطحب هندل معه . وزار الموسيقى أمه فى هاله ، وبدأ نفحاته الدورية لارملة معلمه القديم تساخاو التى أخنى عليها الدهر . وعاد الملك والمؤلف الى لندن فى مطلع ١٧١٧ . ودعا جيمس بريدجس ، ايرل كارنارفون - دوق تشاندوس فيما بعد - هندل ليعيش فى قصره الفاخر المسمى « كانونز » بمدللكس ، ويحل محل قائد الموسيقى فيه ، الدكتور يوهان بيبوش ، الذى انتقم لنفسه فيما بعد بتأليفه موسيقى « أوبرا الشخاذ » . هناك كتب هندل « متتابعات موسيقية للهاربسيكورد » وهى « فنتازيات » على الهاربسيكورد بأسلوب دومنيكو سكارلاتى وكوبران ، وبعض الكونشرتوات الكبيرة ، واثنى عشر « نشيدا تشاندوسيا » وموسيقى لتمثيلية تنكرية لجاي سمها « آيس وغلاطية » ، وأوبرا « راداميستو » .

ولكن من يخرج الأوبرا ؟ لقد هبط عدد رواد مسرح صاحب الجلالة ، وأشرف هيديجر على الافلاس . ورغبة فى انقاذه وانقاذ الأوبرا أسس نفر من النبلاء والأعيان (فبراير ١٧١٩) الاكاديمية الملكية للموسيقى ، ومولوها بخمسين سهما طرحت على الجمهور بسعر مائتى جنيه للسهم ، واشترى جورج الاول خمسة أسهم . وفى ٢١ فبراير أعلنت صحيفة لندن أسبوعية أن « المستر هندل ، وهو أستاذ موسيقى شهير ، أبحر الى القارة بأمر جلالة الملك ليجمع فرقة من صفوة المغنين فى أوروبا للأوبرا فى مسرح هايماركت (٤٧) » وأغار هندل على مختلف الفرق فى ألمانيا ، وزار أمه مرة أخرى . وبعد ساعات من مغادرته هاله الى انجلترا ظهر يوهان سبستيان باخ فى المدينة بعد أن مشى اليها نحو خمسة وعشرين ميلا من كوتن ، وطلب أن يقابل الألماني العظيم الذى غزا انجلترا ؛ ولكنه وصل متأخرا ، ولم يلتق الموسيقيان قط .

وفى ٢٧ أبريل ١٧٢٠ مثلت « راداميستو » أمام الملك ، وخليلته ، وجمهور تالق باللقاب والجواهر ، وناضل أشخاص من ذوى اللقاب

ليدخلوا . يقول مينويرنج « لقد رد العديد من السادة الذين عرضوا دفع أربعين شلنا ثمنا لكرسي من المقاعد الرخيصة (٤٨) » . ونافس الجمهور الانجليزى فى تصفيقهم وهتافهم البنادقة الذين صفقوا وهتفوا لأوبرا « أجريينا » قبل ذلك بأحد عشر عاما . وهكذا غدا هندل مرة أخرى بطل لندن .

ولكن البطولة شاب تماما نقصان . ذلك أن جماعة منافسة من عشاق الموسيقى ، يتزعمهم إيرل بيرلنتن الراعى الأسبق لهندل ، فضلوا عليه جوفانى باتيستا بونونتشىنى . فاقنعوا الأكاديمية الملكية للموسيقى بأن تفتح موسمها الثانى بأوبرا بونونتشىنى « آستارتو » (١٩ نوفمبر ١٧٢٠) ، وضمنوا لدور البطل فيها مغنيا سوبرانو كان الآن معبودا للجماهير أكثر من نيكوليني . وكان لـ « سنسينو » هذا (فرانتشيسكو برناردى) ، الكريه الطباع ، الساحر الصوت ، الفضل فى انتصار أوبرا آستارتو والوصول بعروضها الى العشرة . أما المعجبون ببونونتشىنى فقد أشادوا به موسيقيا أعظم من هندل . ولم يكن أحد هذين المؤلفين مسئولاً عن الحرب التى قسمت الآن جمهور الأوبرا اللندنى الى فريقين متخاصمين ، ولكن لندن كانت فى ذلك العام ، عام انفجار فقاعة بحر الجنوب ، عصبية كباريس . أما الملك والأحرار ففضلوا هندل ، وأما ولى العهد والمحافظون فناصروا بونونتشىنى ، واحتشد الظرفاء وكتاب الكراريس لدخول المعركة . . . وبدا أن بونونتشىنى قد أثبت تفوقه بأوبرا جديدة سماها « كريسبو » (يناير ١٧٢٢) وفقت توفيقا حمل الأكاديمية على أن تتبعها بنصر آخر لبونونتشىنى هى « جريزدا » . فلما مات ملبره العظيم (فى يونيو) اختير بونونتشىنى ، لا هندل ، ليؤلف النشيد الجنائزى ، ونفحت ابنة الدوق هذا الايطالى معاشا سنويا قدره خمسمائة جنيه . لقد كان ذلك العام عام بونونتشىنى .

ورد هندل بأوبرا « أوتونى » ومغنية سوبرانو جديدة أغراها من ايطاليا بضمن لم يسبق له نظير مقداره ألفا جنيه . وكانت هذه المغنية ، واسمها فرانتشسكا كوتزونى ، كما رآها هوراس ولبول ، « قصيرة سمينة ، لها وجه عجيبى القوام نزق ، وبشرة ناعمة رقيقة ،

ممثلة غير قديرة ، سيئة الهمام ، غبية ، شاطحة الأحلام (٤٩) « ، ولكنها كانت تصدح بصوت ساحر . وقد حفلت « بروفاتها » بصراع الارادات والطباع الحادة . قال لها هندل « أعرف جيدا أنك شيطانة حقيقية ، ولكننى أنا نفسى أريدك أن تعرفى أننى بعزبول (رئيس الشياطين) » . فلما أصرت على غناء لحن مخالفة لتعليماته ، أمسك بها وهدد بان يقذفها من النافذة (٥٠) . ولما كانت الالفان من الجنيهات ستبعاها ، قانها اذعدت لأمره . وفى حفلة الافتتاح (١٢ يناير ١٧٢٣) أبدعت الغناء حتى صاح أحد المتحمسين من المقاعد الرخيصة وسط غنائها « على اللعنة ان فى بطنها عشا من البلابل (٥١) » . وقد نافسها سنسينو ، وأعانها « باصو » بوسكى . وفى الليلة الثانية بيعت الكراسي بزيادة قدرها خمسة جنيهات . وفى نحو هذه الفترة كتب جون جاى الى جوناثان سويفت يقول : -

« أما التسلية المسيطرة على المدينة فهى الموسيقى دون سواها ؛ هى الكمانات والفيولات الجهيرة والأوبوات الواقعية ، لا القياثير والمزامير الشعرية . ولا يسمح لأحد بأن يقول « أنا أغنى » الا اذا كان خصيا أو امرأة ايطالية . وكل انسان أصبح الآن حكما عظيما فى الموسيقى كما كان الناس فى أيامك حكاما فى الشعر ؛ والقوم الذين لم يكونوا يستطيعون التمييز بين نغمة وأخرى يتشاجرون الآن كل يوم على الأساليب المختلفة التى ينتهجها هندل ، وبونونتشيني ، وأتيليو (أريوستى) . . . وفى لندن ووستمستر ، فى كل حديث مهذب ، يجمع الرأى على أن سنسيثو هو أعظم رجل ظهر فى الوجود (٥٢) » .

ثم اشترى هندل بعد أن صعد نجمه ثانية بيتا فى لندن (١٧٢٣) وأصبح مواطنا بريطانيا (١٧٢٧) . وواصل حرب الأوبرا حتى ١٧٢٨ . ونش التارىخ بحثا عن الموضوعات ، فعرض على المسرح فلافىوس ، وقيصر ، وتيمورلنك ، وسكيبو ، والاسكندر ، ورتشرد الأول . ورد بونونتشيني باستياناكس ، وارمينيا ، وفارناسس ، وكلبورنيا ؛ ولحن مؤلف آخر هو أريوستى أوبرات عن كريولانوس ، وفسبازيان ، وارتاجزيسيس ، ودارا ؛ ولم يسبق فى أى عهد أن لحن التارىخ على هذا النحو المتناغم . وفى ١٧٢٦ ازداد وطيس الصراع الثلاثى بوصول

فاوستينا بوردونى ، وهى مغنية نصف - سوبرانو ، دانت لها قبل ذلك البندقية ونابلى وفيينا . صحيح أنها لم توهب نبرات كوتزونى الرقيقة العذبة ، ولكنها وجدت لصوتها سندا من وجهها وقوامها ورشاقتها . وفى أوبرا « اليساندرو » (٥ مايو ١٧٢٦) جمع هنسدل بين المغنيتين ، وأعطاهما عددا متساويا من الألحان المنفردة ، ووازن بينهما بعناية فى لحن ثنائى ، وصفق لهما السامعون معا بضع أمسيات ، ثم انقسموا فريقين ، فكان فريق يصوت سخرية بينما الآخر يصفق استحسانا ، وهكذا أضيف بعد جديد لحرب الأنغام . وفى ٦ يونيو ١٧٢٧ حين غنت المغنية الأولى فى أوبرا بونونتشينى « استياناتى » انفجر أنصار كوتزونى محدثين جلبة شائنة من صفير الاستهجان وصيحات الاستنكار حين حاولت بوردونى الغناء . واندلع القتال فى قاع الصالة وسرى الى خشبة المسرح ، وشاركت فيه مغنيتا الأوبرا وراحت الواحدة منهما تشد شعر الأخرى ، وحطم النظارة مناظر المسرح مبتهجين - وكل هذا فى حضرة كارولين ، أميرة ويلز ، وهى شاعرة بالخزى والمهانة .

ولعل « قياس الخلف » هذا كان وحده كافيا لقتل الأوبرا الايطالية فى انجلترا . أما الضربة القاضية فقد كالمها لها واحد من أرق الناس فى لندن . ففى ٢٩ يناير ١٧٢٨ ، قدم جون جاى « أوبرا الشحاذ » فى مسرح لنكولنز ان فيلدز . وقد وصفنا أغانيها المرححة الذكية البذيئة ، ولكن الذين سمعوها تغنى على أنغام الموسيقى التى وضعها أو اقتبسها يوهان بيبوش - هؤلاء فقط هم الذين فى وسعهم أن يفهموا لم تحول جمهور المسارح بجملمته تقريبا عن هندل وبونونتشينى وأريوستى ، الى بيبوش وبوللى وجاى ، وظلت « أوبرا الشحاذ » تمثل الليلة تلو الليلة طوال تسعة أسابيع ، بينما راحت « سيرانات » مسرح صاحب الجلالة وخصيانه يغنون لكراسي خاوية . ثم ان جاى كان قد هجا الأوبرا الايطالية وسخر من حركاتها البلهاء ، وهزأ بالارتعاشات و « الشخلعات » فى غناء المغنين والمغنيات السوبرانو ، واتخذ اللصوص والشحاذين والمومسات شخوصا للتمثيلية بدلا من الملوك والنبل والعذارى والملكات ، وعرض القصائد الشعبية الانجليزية أغانى أفضل من الألحان الايطالية . وابتهج الجمهور بالألفاظ التى يستطيع فهمها ، خصوصا اذا كانت مكشوفة بعض الشيء . ورد هندل بمزيد من الأوبرات - سيروى ، وطولوميو ملك مصر

(١٧٢٨) وقد حظيت كلتاهما بلحظات مجيدة ولكنهما لم تاتيا بربح .
وفى ٥ يونيو شهرت الأكاديمية الملكية للموسيقى أفلاسها ولفظت أنفاسها
الأخيرة .

على أن هندل لم يسلم بالهزيمة . فبعد أن هجره النبلاء الذين لاموه
على خسائرهم ، كون مع هيديجر (يونيو ١٧٢٨) « الأكاديمية الجديدة
للموسيقى » ، وأنفق عليها عشرة آلاف جنيه - وهى كل مدخراته تقريبا -
وتلقى من الملك الجديد ، جورج الثانى ، وعدا بألف جنيه فى العام معونة
له . وفى فبراير انطلق الى القارة فى رحلة أخرى ليجند مواهب جديدة ،
لأن كوتزونى وبوردونى وسنسينو ونيكولينى وبوسكى ، هجروا سفينته
المشرفة على الغرق وراحوا يغنون للبندقية . واستخدم هندل بدلا منهم
ديوكا وبلابل جددنا . انطونيو برناكى السوبرانو ، وأنيبالى فابرى
التينور ، وأنا ماريا سترادا ديل بو السوبرانو . وفى رحلة عودته توقف
ليزور أمه آخر مرة . وكانت يومها فى التاسعة والسبعين ، عمياء مشلولة
تقريبا . وبينما كان فى هاله زاره فلهم فريدمان باخ ، الذى آتاه بدعوة
لزيرة لبيزج ، حيث عرضت قبيل ذلك أول مرة « آلام المسيح كما رواها
متى البشير » . واضطر هندل الى رفض الدعوة . فهو لم يسمع بيوهان
سباستيان باخ الا للملا ، ولم يخطر بباله قط أن شهرة هذا الرجل ستحجب
شهرة يوما ما . وهرول قافلا الى لندن ، والتقط فى طريقه الباصو
الهامبورجى يوهان ريمنشيدر .

وظهرت الفرقة الجديدة فى أوبرا « لوتاريو » فى ٢ ديسمبر
١٧٢٩ دون أن تلقى نجاحا . وجرب حظه ثانية فى ٢٤ فبراير بأوبر
« بارتونوى » ، فلم يوفق . وأعيد برناكى وريمنشيدر الى القارة ،
واستدعى سنسينو ثانية من ايطاليا ، وبفضله هو وسترادا ديل بو ،
ونص كتبه متاستاسيو ، اجتذبت أوبرا هندل « بورو » أسماع لنسدن
(٢ فبراير ١٧٣١) ، وكان قد خلع على هذه الأوبرا طائفة من أعظم
الحانه تأثيرا . وامثلا مسرح صاحب الجلالة برواده مرة أخرى .
واستقبلت أوبرتان أخريان ، هما « ايتسيو » و « سوزارمى » استقبالا
طييا .

ولكن الكفاح للبقاء على جمهور انجليزى بأوبرا ايطالية أخذ
(م ٢٢ - قصة الحضارة)

يصبح أشد عسرا ، وقد بدأ الآن أنه طريق مسدود ينتهى دائما بالانهاك البدنى والمالى . لقد قهر هندل انجلترا ، ولكن انجلترا بدت قاهرته الآن ، فلقد كانت أوبراته شديدة التشابه ، مصيرها المحتوم الى الضعف والهزال . ولقد سمت بها الالخان الرائعة ، ولكن هذه الالخان انما كانت موصولة بالحبكة وصلا هزيلا ، وكانت بلغة غير مفهومة مهما كان فيها من انساب رقيق ، وكثير منها لحن للمسوبرانو من الرجال ، وهؤلاء ازداد العنور عليهم صعوبة . وتحكمت القواعد الجامدة والغيرة بين الفنانين فى توزيع الالخان ، وزادت من افتعال القصة . ولو أن هندل واصل السير على الخط الايطالى لكاد يصبح اليوم نسيا منسيا . على أن سلسلة من المصادفات انتزعت انتزاعا من دربه المطروق ووجهته الى الميدان الذى سيطل فيه نسيج وحده حتى فى أعين زماننا هذا .

ج - هزيمته

فى ٢٣ فبراير ١٧٣٢ ، وفى حانة « التاج والمرساة » عرض برنارد جيتس ، احتفالا بعيد ميلاد هندل السابع والاربعين ، أوراتوريو هندل « استير » عرضا خاصا . وقد اجتذبت جمهورا مجزيا أغرى جيتس بتكرار عرضها مرتين - مرة لجماعة خاصة ، ومرة (فى ٢٠ أبريل) للجمهور . وكان هذا أول أداء علنى فى انجلترا . واقترحت الاميرة أن عرض « استير » بمسرح جلالة الملك وتزويدها بالملابس والمناظر والحركة ، ولكن أسقف لندن أحتج على تحويل الكتاب المقدس الى أوبرا . فاتخذ هندل الآن قرارا من أهم القرارات فى حياته ، وأعلن انه سيخرج « قصة استير المقدسة » « أوراتوريو : الانجليزية » فى مسرح هيماركت فى ٢ مايو ، ولكنه أضاف أنه « لن يصاحب الأداء حركة على المسرح » ، وأن الموسيقى « ستؤدى بطريقة حفلة التتويج الدينية » ، وهكذا فرق بين الأوراتوريو والأوبرا . وجاء بكورسه وأوكستراه ، وعلم لاسترادا والايطاليين الاخرين أن يغنوا أغانيهم المنفردة بالانجليزية . وحضرت الأسرة المالكة ، واحتملت « استير » عروضاً خمسة فى أول شهر لها .

وأخفت أوراتوريو أخرى سماها « أسيس وغلاطية » (١٠ يونيو) فى ارضاء مشاهديها ، وارتد هندل الى الأوبرا . فعرضت أوبرا

« أورلاندو » (٢٧ يناير ١٧٣٣) فترة طيبة ، ولكن حتى مع هذا التحسن ، واجهت شركته مع هيديجر الافلاس . فلما اخرج هندل الاوراتوريو الثالثة « دبوره » (١٧ مارس) حاول أن يستعيد كفايته المالية بمضاعفة أجر الدخول . ونددت رسالة غفل من التوقيع موجهة الى صحيفة « كرافتسمان » بهذا الاجراء ، ودعت للثورة على سيطرة « المستر هندل الوقح ٠٠٠ المستبد ، المسرف (٥٣) » على موسيقى لندن . ولما كان هندل قد ظفر برعاية الملك ، فقد فقد أوتوماتيا مودة فرديريك ، أمير ويلز ، وابن جورج الثانى وعدوه . واخطأ هندل - الذى كثيرا ما خضع سلوكه لحدة طبعه - بالاساءة الى جوزف جوبى ، الذى كان يعلم الرسم لفرديريك ؛ وثار جوبى لنفسه برسمه كاريكاتورا للموسيقى ظهر فيه مخلوقانها متوحشا له خطم خنزير برى ؛ ووزعت نسخ من الرسم فى أرجاء لندن فأضافت الى تعاسة هندل . وفى ربيع ١٧٣٣ شجع أمير ويلز حاشيته على تأليف فرقة منافسة سميت « أوبرا الاشراف » . واستقدمت الفرقة من نابلى أشهر معلمى الغناء فى ذلك العهد ، وهو نيكولو بوربورا ، وأغرقت سنسينو بترك هندل ، وكوتزونى بالمجىء من ايطاليا ؛ وفى ٢٩ ديسمبر ، وفى مسرح لنكولنز أن فيلدز ، أخرجت أوبرا بوربورا « آريانا » التى لقيت استحسانا عظيما . أما هندل فقد قابل هذا التحدى الجديد بأوبرا تناولت موضوعا مشابها مشابها تنطوى على التحدى ، « آريانا فى كريت » (٢٦ يناير ١٧٣٤) ، فلقبت هى أيضا استقبالا حسنا . ولكن فى نهاية الموسم انتهى عقده مع هيديجر ، وأجر هيديجر مسرح جلالة الملك لأوبرا الاشراف ، ونقل هندل فرقته الى مسرح كوفنت جاردن الذى يملكه جون رتش .

وانتقم بوربورا بدعوة كارلو بروسكى ، أشهر المغنين الخصيان ، المعروف لاوريا كلها باسم « فارينللى » . وقد نقل الحديث عن غناء هذا الرجل حين نلتقى به فى وطنه بولونيا ، وحسبنا هنا أن نقول انه حين انضم الى سنسينو وكوتزونى فى أوبرا بوربورا « أرتازرسى » كان ذلك حدثا فى تاريخ إنجلترا الموسيقى ، وأعيد عرض الأوبرا أربعين مرة فى السنوات الثلاث التى مكثها فارينللى - وقابلها هندل بأوبرا « أريودانتى » (٨ يناير ١٧٣٥) ، وهى من أروع أوبراته ، غنية غنى فريدا فى موسيقاها الالوية ، وقد ظفرت بعشرة عروض فى شهرين ،

ووعدت بأن تغطى نفقات هندل . ولكن حين أخرج بوربوراً أوبرا « بوليفيمو » (أول فبراير) التى لعب فيها فارينللى دور البطل ، لم يستطع الملك ولا الملكة ولا الحاشية أن يمتنعوا عن مشاهدتها ، وفاقت فى مرات عرضها « أرتازيرسى » ، بينما لم تلبث أوبرا هندل «التشيننا» (١٦ أبريل) أن أقفر مسرحها من رواده - ولو أن الحانا أوركستراالية متتابعة (سويت) من موسيقاها لا تزال تظهر على البرامج اليوم . واعتزل هندل ساحة القتال نصف سنة ليطلب آلامه الروماتزمية بمياه ينابيع تنبردج .

وفى ١٩ فبراير عاد الى كوفنت جاردن بأوراتوريو لحنها لقصيدة درايدن «وليمة الاسكندر» . كتب معاصر أن جمهور الألف والثلاثمائة مشاهد الذين ملأوا المسرح استقبلوا الأوراتوريو بتصفيق « ندر أن سسمع فى لندن (٥٤) » . وتعزى هندل بربح منها بلغ ٤٥٠ جنيهها ، ولكن القصيدة كانت أهزل من أن تحتمل إعادة عرضها أكثر من أربع مرات ، رغم أن هندل قام بعزف مثير على الأارغن فى فترة الاستراحة ، وانقلب المؤلف - المخرج - القائد - العازف اليائس الى الأوبرا من جديد . وفى ١٢ مايو قدم « أطلانطا » مسرحية رعوية تحتفل بزواج أمير ويلز . وكان قد دعا من ايطاليا مغنيا خصيا جديدا يدعى جيتسبلو (جواكينو كونتى) لغناء السوبرانو ، وخص دوره بلحن (كارى سلفى) وهو من أجمل وأخلد أغانيه . وبلغ من سرور فردريك أنه نقل رعايته من فرقة بوربوراً الى فرقة هندل ، ولكن هذا النصر كدره الغاء الملك لتبرعه السنوى بالف جنيه لمشروع هندل حين سمع بالخطوة التى اتخذها ابنه .

وكف بوربوراً عن المعركة فى ربيع ١٧٣٦ . وملا هندل مسرحه بمناوبة الأوبرا مع الأوراتوريو ، وأضاف الى فرقة « جوستينو » (١٦ فبراير ١٧٣٧) « الدببه ، والحيوانات الغريبة ، والتنانين التى تقذف النار (٥٥) » . ولكن الجهد الذى اقتضته مسئولياته المنسوعة حطمه . وفى أبريل أصابه انهيار عصبى ، ونقطة شلت ذراعه اليمنى فترة . وفى ١٨ مايو عرض « برينيتشى » ، آخر أوبرا كتبها لفرقته . ثم أغلق مسرحه فى أول يونيو متقلا بديون كثيرة ، متعهدا بالوفاء بها جميعا كاملة ، وقد فعل . وبعد عشرة أيام حلت « أوبرا الاشراف »

المنافسة له ، مثقلة بدين قدره اثنا عشر ألف جنيه . وهكذا انتهى عصر الاوبرا العظيم فى إنجلترا .

وكانت صحة هندل من بين ما تخلف من حطام . فالروماتزم فى عضلاته ، والتهاب المفاصل فى عظامه ، والنقرس فى أطرافه - هذه كلها تفاقمت فى صيف ١٧٣٧ بنوبة جنون عارضة (٥٦) . فغادر إنجلترا ليستشفى بمياه آخن . وكتب السرجون هوكنز يقول انه هناك:

« احتمال من افرازات العرق التى بعثتها حمامات البخار ما أدهش كل انسان . وبعد بضع محاولات من هذا النوع ، بدت معنويته خلالها ترتفع ولا تهبط من أثر العرق الغزير ، فارقه اضطراب عقله ، وبعد بضع ساعات . . . ذهب الى كنيسة المدينة الكبرى ، ووصل الى الارغن ، ثم عزف عليه عزفا جعل الناس يعزون شفاءه الى المعجزة (٥٧) » .

وفى نوفمبر عاد الى لندن ، والى الكفاية المالية وأسباب التشريف . وكان هيديجر قد عاد ثانية الى مسرح صاحب الجلالة . ونقد هندل ألف جنيه لقاء أوبراتين ، واحتوت احدهما وهى « سري » (١٥ أبريل ١٧٣٨) على اللحنين المشهورين « لارجو » و « أومبرا ماى فو » . ودفع مستأجر حدائق فوكسهول الى روبياك ثلاثمائة جنيه لينحت تمثالا يظهر فيه الموسيقى وهو يداعب أوتار قيثاره ؛ وفى ٢ مايو أزيح الستار عن هذا التمثال الثقيل الوقفة ، الغبى التعبير ، فى الحدائق فى حفلة موسيقية . ولا بد أن هندل قد سره أكثر من هذا تلك الحفلة التى أعين بها فى ٢٨ مارس ، والتى أتته بأكثر من ألف جنيه . فدفع الآن ديون أعجل دائنيه ، وكان أحدهم يهدد بإيداعه سجن المدنين . ولكنه كان مشرفا على الافلاس برغم كل تشريف . ولم يستطع أن يتطلع بعد ذلك لهيديجر ، الذى أعلن (٢٤ مايو) أنه لم يتلق من الاكتتابات ما يتيح له اخراج أوبرات فى ١٧٣٨ - ٣٩ . هنا ، ودون تكليف ولا فرقة ، بدأ هندل أعظم أطواره ، وهو فى الثالثة والخمسين ، والأوصاب والالوجاع تهز بدنه .

د - الأوراتوريو

نشأ هذا الشكل الجديد نسبياً من كورالات العصور الوسطى التي تمثل أحداثاً في التاريخ المدون في الكتاب المقدس أو حياة القديسين . وكان القديس فليب نيري قد خلق على هذا الشكل اسمه بتفضيله آياه وسيلة للعبادة والتعليم الديني في مصلى آباء الأوراتوريو في روما . وطور جاكومو كاريسى وتلميذه أليساندرو سكارلاتي الأوراتوريو في إيطاليا ، ونقلها هنريش شوتس من إيطاليا إلى ألمانيا ، وبلغ رينهارت كيزر بهذا اللون شأوا بعيداً قبل موته (١٧٣٩) . وهذا هو التراث كيزر بهذا اللون شأوا بعيداً قبل موته (٢٧٣٩) . وهذا هو التراث الذي بلغ غايته في « مسيا » " Messiah هندل عام ١٧٤١ .

والفضل في نجاح هندل يرجع بعضه إلى توفيقه بين هذا الشكل وبين الذوق الانجليزي . وقد واصل اختيار موضوعات الأوراتوريو من الكتاب المقدس ، ولكنه أضفى عليها بين الحين والحين عنصر تشويق غير ديني ، كما فعل في موضوع الحب في « يوسف وأخته » . وفي « يفتاح » ؛ وركز على الطابع الدرامي لا الديني ، كما فعل في « شاول » و « اسرائيل في مصر » ؛ واستعمل نصاً انجليزياً خالصاً ، أخذ جزءاً منه فقط من الكتاب المقدس . لقد كانت في جزء كبير منها موسيقى دينية ، ولكنها مستقلة عن الكنائس والطقوس . وقد مثلت على مسرح تحت رعاية علمانية . يضاف إلى هذا أن هندل استخدم الموضوعات الكتابية ليرمز بها للتاريخ الانجليزي ، فاسرائيل ترمز لانجلترا ، وتمرد ١٦٤٢ الكبير وثورة ١٦٨٨ المجيدة يمكن سماعهما في كفاح اليهود للتحرر من ربقة المصريين (أسرة ستيوارت) والسيطرة الهلنستية (الغالية) ؛ ولم يكن الشعب المختار في حقيقته سوى الأمة الانجليزية ، واله اسرائيل هو نفس الاله الذي قاد الشعب الانجليزي إلى النصر بعد المحن . وكانت فكرة هندل عن الله أشبه بفكرة البيورتان ، فهو « يهوه » اله العهد القديم الجبار ، لا الله الأب كما يصوره العهد الجديد (٥٨) . وكان هذا احساس انجلترا ، فاستجابت في فخر لأوراتوريوات هندل .

بدأ الطريق الصاعد إلى « المسيا » بأوراتوريو « شاول » التي أخرجت على مسرح صاحب الجلالة في ١٦ يناير ١٧٣٩ . « أن مارش الموتى المهيب ، الجليل ، لكفيل وحده بأن يخلد هذا العجل (٥٩) » .

ولكن الجمهور لم يعتد شكل الأوراتوريو ، لذلك لم تعمر « شاول » أكثر من عشرة عروض . وبهمة لا تصدق ألف هندل وقدم (٤ أبريل) آية أخرى من آياته هي « اسرائيل فى مصر » . هنا جعل الكورس هو البطل ، صوت أمة تولد ، ووضع موسيقى يعدها الكثيرون أسمى ما كتب (٦٠) . ولكن اتضح أنها مترامبة عسيره فوق ما يحتمله الذوق السائد آنئذ ، وأنهى هندل موسمه التاريخى بديون جديدة .

وفى ٢٣ أكتوبر اندفعت انجلترا الى الحرب مع أسبانيا بسبب أذن جنكيز . وفى وسط ضجيج الحرب وصخبها استأجر هندل مسرحا صغيرا ، وفى عيد القديسة راعية الموسيقيين قدم الاطار الموسيقى الذى ألفه لقصيدة درايدن الغنائية التى كتبها بمناسبة « عيد القديسه سيسيليا » (٢٢ نوفمبر ١٧٣٩) ولم تستطع لندن ، حتى فى برد تلك الليلة من ليالى الشتاء وفوضاها ، أن تقاوم ذلك الاستهلال الرخيم المشرق ، أو لحن السوبرانو الانيرى فى القسم الثالث ، أو « الناي الشاكى الخافت » و « العود الصادح » فى الخامس ، فى حين اتفق « دق الطبل المراءد ، ذلك الدق المضاعف المضاعف المضاعف » مع روح الحرب المدممة فى السوابع . وعادو الأمل هندل ، وجرب أوبرا سماها « أمينيو » (١٧٤٠) ، ولكنها فشلت ، وجرب أخرى اسمها « ديداميا » (١٧٤١) ، فشلت هى أيضا ، واعتزل العملاق المرهق المسرح الموسيقى اللندنى . قرابة عامين .

وكان هذان العامان أروع ما فى حياته . وفى ٢٢ أغسطس ١٧٤١ بدأ يؤلف أوراتوريو « المسيا » . وقد اقتبس النص تشارلز جيننز من أسفار أيوب والمزامير وأشعيا ومراثى أرميا وحجى وزكريا وملاخى - وكلها من أسفار العهد القديم ، ومن أناجيل متى ولوقا ويوحنا ، ورسائل بولس ، وسفر الرؤيا - وهى من أسفار العهد الجديد . وأتم كتابة الموسيقى فى ثلاثة وعشرين يوما ، وقال لصديق انه فى بعض هذه الأيام « حسبتنى حقا أبصر السماء كلها أمامى فعلا ، والله العلى ذاته (٦١) » . واذا لم يتح له أمل مبكر فى العثور على جمهور لها ، فقد انتقل الى كتابة أوراتوريو كبيرة أخرى هي « شمشون » ، بناها على قصيدة ملتن عن معاناة شمشون Samson Agonistes وفى تاريخ غير معرف خلال

هذه المنشوات تلقى دعوة لعرض بعض أعماله فى دبلن . وبدأ له أن الاقتراح أت من العناية الالهية التى تقدره حق قدره ، ولكن الحقيقة أنه أتى من وليم كافندش ، دوق ديفونشير ، ونائب الملك فى أرنلندة .

ووصل الى دبلن فى ١٧ نوفمبر ١٧٤١ . واستخدم أفضل من وجد من المغنين ، ومنهم سوزانا ماريا كبر ، الابنة المثقفة لتوماس آرن . ونظمت عدة هيئات خيرية ست حفلات موسيقية له ، نجحت نجاحا حمله على تقديم سلسلة ثانية . وفى ٢٧ مارس ١٧٤٢ نشرت مجلتان فى دبلن اعلانا جاء فيه :

« رغبة فى اغائة المسجونين فى عدة سجون ، واعانة مستشفى ميرسر . . . سيقدم يوم الاثنين ١٢ أبريل على قاعة الموسيقى فى شارع فيشامبل ، اوراتوريو المستر هندل الكبرى الجديدة ، المسماه « المسيا » . وسيشارك فيها أعضاء الكورس فى كلتا الكتدرائيتين ، ويعزف المستر هندل بعض الكونشرتوات على الارغن (٦٢) » .

وبيعت التذاكر كذلك للبروفات التى ستجرى فى ٨ أبريل ، والتي قالت مجلة فوكنر انها « تؤدى أداء رائعا . . . اعترف معه أعظم الحكام بأنها أبداع لحن موسيقى سمعه الناس اطلاقا » . وأضيف الى هذا اعلان يؤجل حفلة الاثنين الى الثلاثاء ، ويرجو السيدات « أن يحضرن بغير أطواق لاثوابهن ، لأن هذا من شأنه أن يدعم عمل البر ، اذ سيفسح المكان لعدد أكبر من الحاضرين » . وطلبت فقرة أخرى الى الرجال أن يحضروا بغير سيوفهم . وبهذه الطرق اتسعت قاعة الموسيقى لسبعمائة شخص بدلا من ستمائة .

وأخيرا ، وفى ١٣ أبريل ١٧٤٢ ، قدم أشهر الألحان الموسيقية الكبرى قاطبة . وفى ١٧ أبريل احتوت ثلاثة صحف دبلنية نقدا واحدا :

« فى يوم الثلاثاء الماضي قدمت اوراتوريو المستر هندل الكبرى المقدسة ، « المسيا » . . . وقد اعترف أفضل الحكام بأنها أفضل القطع الموسيقية صقلا . وتعوزنا الألفاظ للاعراب عز، المتة الفائقة التى أتاحتها للجمهور المزدحم المعجب . وقد تضافرت عناصر السمو والفخامة

والرقة ، التى واعم بينها وبين أنبل الالفاظ وأجلها وأشدها تأثيرا ،
لتطرب وتسحر القلب والأذن المسلوبين . ومن الانصاف لمسنر هندل
أن يعرف العالم أنه تبرع فى سخاء بحصيلة هذه الحفلة الكبرى لتوزع
بالتساوى بين جمعية اغائة المسجونين ، ومبرة العجزة ، ومستشفى
ميرسر ، وهو عمل ستذكره له هذه الهيئات بالشكر على الدوام (٦٣) .

وأعيد عرض « المسيا » فى دبلن فى ٣ يونيو . وقد أعيدت ألف
مرة منذ ذاك التاريخ ، ومع هذا فمندا الذى مل تلك الالحن - سواء
الهادئة منها أو الفخمة - ، تصاحبها الترانيم الخافتة الرقيقة اللطيفة
مثل « سوف يطعم قطيعة » و « أعلم أن فادى حى » ، و « ليتجد
اسمه » و « كان مزدرى مرفوضا » ؟ لقد حدث والمسز كبر تترنم بهذا
اللحن الأخير فى أول عرض بدبلن أن صاح قسيس انجليكانى من بين
الحاضرين قائلا « لتغفرلك خطاياك من أجل هذا أيتها المرأة ! » فكل
ما فى الرجاء الدينى من عمق وحرارة ، وكل ما فى الترتيل الورع من
رقة وحنان ، وكل ما وهب الموسيقى من فن وعاطفة - كل هذا اجتمع
لجعل من هذه الالحن أرفع اللحظات فى الموسيقى الحديثة .

وفى ١٣ أغسطس غادر هندل دبلن منتعش الروح معتلىء الجيب
وقد عقد النية على أن يغزو انجلترا من جديد . ولابد أن قد سرى عنه
غلو بوب فى الثناء عليه فى الجزء الرابع من « ملحمة الأغبياء »
(١٧٤٢) :

« ها هو هندل العملاق يقف قويا وهو مدجج بسلاح جديد !
مثل برياريوس الشجاع ، وله مائة يد (أى الأوركسترا)
يأتى ليحرك ويوقظ ويهز النفوس
ورعود جوبيتر تتبع طبول مارس .

وعليه ففى ١٨ فبراير ١٧٤٣ ، فى المسرح الملكى بكوفنت جاردن ،
قدم الموسيقى الذى استعاد شبابه أوراتوريو « شمشون » . وكان جورج
الثانى على رأس الصفوة اللندنية التى حضرت حفلة الافتتاح . وأبهج
الاستهلال الجميل كل انسان سمعه الا هوراس ولبول ، الذى صمم على
الا يعجب بشيء قط ؛ وكان اللحن الرفيع الذى مطلع « يارب الجنود »

رائعا روعة تقرب من روعة ألحان المسيا ، وكما فعل شمشون الجبار الذى سحق بقوته المحتفلين اذ اسقط عليهم المعبد ، فكذلك كان تأثير أوراتوريو « شمشون » ساحقا على الحاضرين . ولكن حين عرضت المسيا نفسها بعد شهر (٢٣ مارس) على لندن ، لم يستطع حتى الملك - الذى أرسى يومئذ تقليدا دائما بوقوفه عند ترنم الفرقة بلحن « هلوليا » - أن ينهض بالأوراتوريو الى مقام التقبل . فرجال الدين نددوا باستعمال المسرح للموسيقى الدينية ، اما النبلاء فما زالوا على صدهم وجراح اخفاق فرقتهم الاوبرالية توجعهم . ولم تعرض المسيا فى العامين التاليين الا ثلاث مرات ، ثم توقف عرضها حتى عام ١٧٤٩ . ففى ذلك العام أهدى هندل ، الذى كان رجلا بارا بالانسانية فيما بين افلاساته ، أرغنا جميلا لمستشفى اللقطاء الذى كان صديقه هوجارث يحبه حبا جما ، وفى أول مايو ١٧٥٠ قدم أول عرض من عروض المسيا السنوية لأعانة أولئك البؤساء المحظوظين .

وفى ٢٧ يونيو ١٧٤٣ قاد جورج الثانى جيشه للنصر فى معركة ديتنجن . فلما عاد الى لندن حيته المدينة بالعروض والأضواء والموسيقى، وصدحت الكنيسة الملكية فى قصر سانت جيمس بـ « تسبيحة ديتنجن » التى لحنها هندل لهذه المناسبة (٢٧ نوفمبر) . وكانت نتاج العبقريّة والمقص ، لأنها احتوت فقرات مسروقة من مؤلفين أسبق وأقل شأنا من هندل ، ولكنها كانت معجزة من معجزات اللصق . وابتهج الملك .

فلما أن تشجع هندل بالابتسامات الملكية ، جدد جهوده ليقتنص أذنان لندن من جديد . وفى ١٠ فبراير ١٧٤٤ قدم أوراتوريو أخرى سماها « سملى » احتوت ترنيمة بديعة اسمها « حيثما سرت » ما زالت تترنم بها انجلترا وأمريكا ، ولكن الأوراتوريو لم تستطع تجاوز عروض أربعة . وظل النبلاء على عدائهم لهندل ، وحرصت نبيلات كثيرات على إقامة الولائم المترفة فى الأمسيات المقررة للحفلات الموسيقية التى يحييها هندل ، واستؤجر الأوباش ليمزقوا اعلاناته . وفى ٢٣ أبريل ١٧٤٥ ألغى الحفلات الموسيقية الثمان التى أعلن عنها من قبل ، وأغلق مسرحه ، واعتزل فى تنبردج ولز . وأرجفت الشائعات أنه مجنون . كتب حامل لقب إيرل شافنسبرى فى تلك الفترة يقول (٢٤ أكتوبر) « ان هندل المسكين يبدو

أحسن قليلا ، وأرجو أن يتماثل للشفاء تماما ، ولو أن عقله قد اختلط
اختلاطا تاما (٦٤) » .

وربما أخطأت الشائعات ، لأن هندل الذى بلغ الستين استجاب بكل
قواه لدعوة من ولى العهد ليحيى ذكرى انتصار أخى الأمير الأصغر ، دوق
كمبرلاند ، على القوات الاستيوارتية فى كالودين . وابتدأ هندل انتصار
يهودا المكابى (١٦٦ - ١٦١ ق م .) على خطط أنطيوخس الرابع لقرض
الهلنستية على وطنه موضوعا رمزيا للأوراتوريو الجديدة . وقد أحسن
الجمهور استقبالها (أول أبريل ١٧٤٧) حتى احتملت إعادة عرضها
خمس مرات فى أول موسم لها . أما يهود لندن الشاكرون هذا الاحتفال
النبيل بأحد أبطالهم القوميين ، فقد أعانوا على تكثير جمهور النظارة ،
فمكثوا هندل من تقديم الأوراتوريو أربعين مرة قبل موته . واعترافا
بفضل هذا الدعم الجديد اتخذ أكثر موضوعات ألحانه الدينية بعد ذلك
من تاريخ اليهود أو أساطيرهم ، اسكندر بالوس ، ويشوع ، وسوسنة ،
وسليمان ، وافتتاح . وعلى عكس ذلك لم تجتذب أورانونريو « تيودورا »
- وهو اسم مسيحي - من الجمهور الا أقل القليل ، حتى لاحظ هندل
فى مرارة أنه « كان هناك مكان يتسع للرقص » وغادر تشسترفيلد المسرح
قبل نهاية العرض معذرا بأنه « لا يريد ازعاج الملك فى خلوته (٦٥) » .

هـ - بروميثيوس

ليست الأوراتوريو الا « نوعا » واحدا من ذلك « الجنس » المسمى
هندل . ذلك أن روحه المتعددة الاشكال اتجهت بتوافق تلقائى تقريبا لآى
شكل من الاشكال الموسيقية الكثيرة . فالأغاني التى مازالت تمس أوتار
العاطفة ، وقطع الأرنج أو البيان المتناهية الرقة ، والسوناتات ،
والمقتابعات ، والرباعيات ، والكنشرتو ، والأوبرا ، والأوراتوريو ،
وموسيقى الباليه ، والقصائد الغنائية ، والرعويات والكنتاتات ،
والتراويل ، والأناشيد الوطنية ، وتسيبحات الشكر ، وترانيم أسبوع .
الالام - كل شيء تقريبا الا السمفونية الوليدة نجده فى موسيقاه ،
منافسا بذلك فيض بيتهوفن أو باخ المتدفق ، و « متتابعات
المهاربسيكورد » تبدو اليوم على المهاربسيكورد وكأنها أصوات أطفال
سعداء لم يعرفوا التاريخ بعد . وهناك مجموعة ثانية من المقتابعات .

هدات بذلك الاستهلال الذى لعب به الموسيقى برامز لعبا مرححا فى
« تنويغات وفوجه على موضوع لهندل » .

وكما أخذ هندل الاوراتوريو عن كاريسمى وكايزر وارتفع بها الى
أوجها ، كذلك أخذ عن توريللى وكوريللى « الكونشرتو الكبير » -
لالتين أو أكثر لمغن واحد أو مغنيين مع أوركسترا صغير (أوركسترا
الحجرة) . وفى مجموعته الموسيقية السادسة ترك اثنى عشر من هذه
الكونشتراتو الكبيرة ، مقابلا كمانين وفيلوننتسيلو بمجموعة وترية ،
وبعضها يبدو لنا اليوم رتيا ، وبعضها يقرب من كونشرتو براندنبورج
لباخ . كذلك نجد فى هندل كونشتراتو ممتعة لالة منفردة - الهاريسيكورد
أو الكمان ، أو الفيولا ، أو الأوبوا ، أو الهارب . أما تلك المخصصة
للوحات المفاتيح فكان يؤديها هندل بنفسه فى المقدمات أو الفواصل .
وكان أحيانا يترك متسعا فى موسيقى الكونشرتو لما يجب أن نسميه
اليوم « ارتجالا » *cadenza* ، حيث يستطيع العازف أن يطلق
العنان لخياله ويظهر براعته . وكانت ارتجالات هندل فى مثل هذه
الافتتاحات أعاجيب تحدث الناس بها طويلا .

وفى يوليو ١٧١٧ نظم جورج الاول « رحلة » ملكية فى ذهبيات
حفلت بالزينات على نهر التيمز . وتكشف صحيفة « الدبلى كورنت »
عدد ١٩ يوليو ١٧١٧ عن هذا المشهد فتقول :

« فى مساء الأربعاء حوالى الثامنة نزل الملك الى النهر عند
هوايتهول فى ذهبية مكشوفة ، كان فيها أيضا دوقة نيوكاسل ، وكونتيسة
جودولفن ، ومدام كيلمانسيك ، وايرل أوركنى ، وصعدوا فى النهر
جنوب تشلسي . ورافقتهم ذهبيات كثيرة أخرى يستقلها بعض عليّة
القوم ، وزوارق كبيرة العدد بحيث غطت صفحة النهر تقريبا . وخصص
زورق فرقة موسيقية من فرق المدينة لعزف الموسيقى ، زود بخمسين
آلة من جميع الأنواع ، عزف عليها العازفون طوال الطريق من لامبث
. أبداع السمفونيات ، التى لحنها المستر هندل خصيصا لهذه
المناسبة وأعجبت جلالته جدا حتى طلب عزفها أكثر من ثلاث مرات فى
الذهاب والاياب (٦٦) » .

وهذه هي « موسيقى المياه » ، التي هي اليوم أبقي وألذ ما تخلف من مؤلفات هندل الالكية . ويبدو أنه كان هناك فى الاصل احدى وعشرون حركة - وهو عدد أكبر من أن يحتمله المستمعون العصريون الذين تعوزهم الذهبيات والوقت ، ونحن لا نستمتع عادة لأكثر من ست . وبعضها متعبة بعض الشيء فى تطوافها المشجى ، ولكن أكثرها موسيقى صحية مرحة مثالقة ، كأنها متدفقة من ينبوع لتهدد خليلات الملك . و « موسيقى المياه » أقدم قطعة موسيقية فى الذخيرة الاوركسترالية الحالية .

وبعد جيل كامل ، ومن أجل جورج ثان ، أضفى هندل الكرامة على مناسبة خلوية أخرى . ذلك أن الحكومة قررت اقامة عرض للالعب النارية فى جرين بارك احتفلا بصلح اكس - لا - شابل ، ووكلت هندل بكتابة « موسيقى الالعب النارية الملكية » . فلما عزفت بروفا هذه الموسيقى فى حدائق فوكسهول (٢١ أبريل ١٧٤٩) ، دفع اثنا عشر ألف شخص مبلغ الشلنين - الكبير فى ذلك الوقت - للاستماع اليها ؛ وبلغ التزاحم مبلغا عطل المرور على الطريق الذى يعبر كوبرى لندن ثلاث ساعات - « ولعل هذا كان أروع ثناء ظفر به أى موسيقى على الاطلاق (٦٧) » . وفى ٢٧ أبريل شق نصف سكان لندن طريقهم الى جرين بارك ، واقتضى الأمر هدم ست عشرة ياردة من سور الحديقة لتمكينهم من الدخول فى الميعاد . وعزفت « فرقة » من مائة موسيقى لحن هندل ، وتالقت الالعب النارية فى السماء ، وشبت النار فى مبنى أقيم لهذه المناسبة ، فذعر الجمع المحتشد وأوذى كثيرون ومات شخصان . ولم يبق من المهرجان الا موسيقى هندل . واذا كان هدف هذه الموسيقى أن تخلد حربا ظافرة وأن تسمع عن بعد فقد كانت عبارة عن دوى هتافات وطنين طبول أشد ضجيجا مما تحتمله الأذن التى ألفت الحركة البطيئة . ولكن فيها حركة بطيئة جدا تقع وقعا محمودا على الاعصاب المرهقة .

وانتهت انجلترا آخر الامر الى محبة الالمانى العجوز الذى ناضل جاهدا ليكون انجليزيا . لقد فشل فى نضاله ، ولكنه حاول ، حتى الى حد السب والشتم بالانجليزية . وتعلمت لندن ان تغتفر له بدانته الهائلة ،

ووجهه العريض وخصيه المنتفخين ، وساقيه المقوستين ومشيته الثقيلة ، ومعطفه القرمزى المخملى ، وعصاه الذهبية المقبض ، وعجبه وتعالیه ؛ لقد كان لهذا الرجل بعد كل المعارك التي خاضها الحق في الظهور بمظهر الفاتح ، أو على الأقل بمظهر اللورد ، نعم كان في سلوكه جلالة ، وكان يدرب موسيقييه بالحب والغضب ، ويوبخ جمهور المستمعين على كلامهم خلال البروفات ، ويهدد مغنياته باستعمال العنف ، ولكنه غلف عنفه بالفكاهة . فلما التحمت كوتزوني وبوردوني بالأيدي على خشبة المسرح قال هدوء « اتركوهما لتنتهيا المعركة » ، وراح يدق لحنا مصاحبا مرحا على النقاريات ليرافق سورة عضبهما (٦٨) . ولما هدده مغن بالونب على الهاريسيكورد لأن عزف هندل المصاحب اجتذب السامعين أكثر من غناء المغنى ، طلب اليه هندل أن يحدد تاريخ هذه التمثيلية المقترحة للاعلان عنها قائلا أن « الذين سبأتون لبروك تقفز أكثر من الذين سبأتون لبسموك تغنى (٦٩) » . وكانت ملاحظاته الظريفة تعدل في براعتها تعليقات جوناثان سويفت ، ولكن الاستمتاع بها كان يقتضي الالمام بأربع لغات .

وفى ١٧٥٢ بدأ يفقد بصره . فبينما كان يكتب « يفتاح » اختلطت الرؤية أمام عينيه حتى أضطر الى الكف عن الكتابة . وفى المخطوطة الأصلية المحفوظة بالمتحف البريطانى أخطاء عجيبة - « سيقان رسمها بعيدة بعض الشيء عن النوتات التي ننتمى اليها ، ونوتات واضح أنها وصلت طريقها (٧٠) » . وفى أسفل الصفحة سطر كتبه المؤلف « الى هنا وصلت ، الأربعاء ١٣ فبراير . منعنى عيني اليسرى من الاستمرار » . وبعد عشرة أيام كتب على الهامش « ٢٣ فبراير ، حالتى أحسن قليلا . اسنأفت العمل » . ثم ألف موسيقى لهذه الكلمات « فرحنا يضيع فى الحزن . . . كما يضيع النهار فى الليل (٧١) » . وفى ٤ نوفمبر كتبت صحيفة «الجنرال أدفرتيزر» : « بالأمس أعد (لعملية السد أو الكتركت) السيد جورج فردريك هندل التي يجريها له الطبيب وليم برومفيلد جراح سمو أميرة ويلز » . وبدا أن الجراحة نجحت ، ولكن فى ٢٧ يناير ١٧٥٣ أعلنت جريدة لندنية أن « المستر هندل كف بصره فى النهاية تماما لسوء الحظ » . على أن التقارير اللاحقة تشير الى أنه احتفظ ببصيص من النور حتى موته .

وواصل التأليف والقيادة سبع سنين آخر . فقدم فى ستة أسابيع (٢٣ فبراير الى ٦ أبريل ١٧٥٩) حفلتين عرض فيهما « سليمان » ، وحفلة عرض فيها « شمشون » واثنتين « يهوذا المكابى » وثلاثا « المسيا » . ولكن بينما كان يغادر المسرح عقب حفلة عرض المسيا فى ٦ أبريل وقع مغتصبا عليه ، واقتضى الأمر حمله الى بيته . فلما أفاق كان دعاؤه أن يفسح له فى الأجل أسبوعا آخر . « أريد أن أموت فى يوم الجمعة الكبيرة ، رجاء أن الحق بالالة الصالح ، ربي ومخلصي الحبيب ، فى يوم قيامته (٧٢) » . وأضاف الى وصينه ملحقا أوصي فيه بألف جنيه لجمعية اعانة الموسيقيين العجزة وعائلاتهم ، وبمبالغ كبيرة لثلاثة عشر صديقا ، والى « خادمانى راتب سنة لكل واحدة » . ومات فى سبت النور (عنيه الفياحه) ، ١٤ أبريل ١٧٥٩ ، ودفن فى دير وسنمستر فى ٢٠ أبريل ، فى مشهد من « أعظم حشد للبشر من جميع الرتب روعى فى مثل هذه المناسبة بل وفى أى مناسبة أخرى (٧٣) » .

ولقد ترك نزوة موسيقية لا تصارع ، سنا وأربعين أوبرا ، وانين وثلاثين أوراتوريو ، وسبعين مقدمة ، واحدى وسبعين كنتانا ، وستة وعشرين كوسرنا كبيرا ، وثمانية عشر كوشرتا للأرغن ، وكثيرا وكثيرا غير هذا بحيث يملأ كل هذا مائة مجلد ضخم ، تكاد تعدل أعمال باخ وبيتهوفن مجتمعة . وكان بعض هذا التراث مكررا ، وبعضه مسروقا ، لأن هندل سطا على موسيقى تسعة وعشرين مؤلفا على الأقل دون اقرار بفضلمهم ليستعين بهم على الوفاء بمواعيده (٧٤) ، مثال ذلك أن المينبوويت فى مقدمة « شمشون » أخذت انغامها نصا من أوبرا كلودبوس لكايزر .

ومن العسير تقدير هندل بقدره الصحيح ، لأنه لا يعرض علينا اليوم الا اليسير من أعماله . أما الأوبرات ، فانها باستثناء بعض الألحان الساحرة لا سبيل الى بعثها ، فقد وضعت، ونق نمانج ايطالية ذهبت ولا أمل فى رجوعها فيما يبدو ، ونصوص موسيقاها الموجودة الآن ناقصة ، وهى تستعمل رموزا واخصارات أكثرها غير مفهوم الآن ، وقد كتبت لأوركسترات يختلف تكوينها عن تكوين أوركستراتنا اختلافا تاما ، ولاصوات لجنس ثالث مختلف كل الاختلاف عن المتوسط من

أجناس عصرنا . وتبقى بعد ذلك موسيقى الكونشرتو الشبيهة بأرض صيد سعيدة تحوى كنوزا منسية ، و « موسيقى المياه » ، والأوراتوريوات – ولكن حتى هذه الأوراتوريوات « عتيقة » ، لأنها كتبت لانجليز يعدون للمعركة ويهود شاكرين ؛ وتحتاج تلك الكوارس الضخمة والحركات الصوتية المتكاثرة الى معدة ضليعة فى الموسيقى لتضمها – وان كان مما يبهجنا أن نسمع « يفتاح » و « إسرائيل فى مصر » من جديد . ويخبرنا الموسيقيون أن فى الأوراتوريوات المهمة فخامة ووقارا ، وسموا فى الوجدان ، وقوة فى التصوير والتعبير والدراما ، وتنوعا وبراعة فى التقنية التركيبية ، لم يدركها أحد بعده فى ذلك اللون من التأليف الموسيقى . وقد عاشت «المسيا» الى اليوم رغم ما شابها من تكرار وتقطيع أوصال لأنها من جهة تصون وتدخر أهم العقائد المسيحية العزيزة حتى على من تنكروا لها ، ولكن أهم من ذلك أن الحانها العميقة و « قراراتها » المعبرة عن الانتصار تجعلها فى جملتها أعظم تاليف مفرد فى تاريخ الموسيقى .

وقد أدركت انجلترا عظمته بعد موته ، فلما اقتربت ذكرى ميلاده انضم النبلاء الذين كانوا يخاصمونه من قبل الى الملك والنواب فى أحيائها بثلاثة أيام من موسيقاه . ولما كان مولده فى ١٦٨٤ طبقا للتقويم الانجليزى ، ففقد أقيمت أول حفلة فى ٢٦ مايو ١٧٨٤ بدير وستمنستر ، والثانية والثالثة فى ٢٧ و ٢٩ مايو . ولم تكف هذه لتلبية الطلب ، فاقامت حفلتان أخريان فى الدير فى ٣ و ٥ يونيو . وبلغ عدد المرتلين ٢٧٤ ، والعازفين فى الأوركسترا ٢٥١ ، وبدأ الآن ذلك التقليد الذى يسبغ على عروض هندل الضخامة العارمة والجلال الطاغى . وأحبت عروض هائلة كهذه احتفالات لاحقة بذكرى مولد هندل ، حتى اذا جاء عام ١٨٧٤ ازداد عدد المشاركين فى الأداء حتى بلغ ٣٠٠٠ . وقد ذهب بيرنى الذى سمع أحد هذه العروض الكبرى الى أن ضخامة الصوت لم تنتقص من حلاوة الموسيقى (٧٨) . على أى حال كانت هذه أضخم حفلات أقيمت لآحياء ذكرى أى موسيقى كائنا من كان . والآن وقد خفت فورتها فقد يصبح فى الامكان الاستماع الى موسيقى هندل من جديد .

٥ - فولتير فى انجلترا ١٧٢٦ - ٢٨

كان يعيش فى انجلترا عام ١٧٢٦ شاب فرنسي سيتبوا فى تاريخ القرن الثامن عشر مكانا اهم كثيرا من مكان هندل . لقد بلغ فولتير السواحل الانجليزية عند جرينش قرب لندن فى ١٠ أو ١١ مايو . وكان أول انطباع له فياضا بالحماسة . فقد كان أسبوع مهرجان جرينتش ، وكادت صفحة التيمز تغطبها الزوارق والأشعة الضخمة ، وكان الملك هابطا النهر فى ذهبية حافلة بالزينة ، تسبقها فرقة موسيقية ، وعلى الشاطئ رجال ونساء يختالون على جياذ تخطر ، ثم عشرات من الفتيات الحسان يمشين وقد تزين ليوم عطلة . وأنارت مشاعر فولتير البالغ من العمر اثنتين وثلاثين سنة أجسادهن الرشيقة ، واحتشامهن ، ووجناتهن المتوردة . على أنه نسيهن حين وصل الى لندن ووجد أن المصرفى الذى كان يحمل البه خطاب نحويل على رصيده بعشرين ألف فرنك قد أسهر أفلاسه . وأنفذه افرارد فوكزر ، وهو تاجر التقى به فى فرنسا ، فأقام عدة شهور فى ضيعة هذا البريطانى الكريم بواندزورث ، وهى ضاحية من ضواحي لندن . وأرسل جورج الأول الى فولتير مائة جنيه حين سمع بحادثه المرؤف .

وكان يحمل رسائل تعريف من هوراشيو ولبول ، السفير البريطانى لدى فرنسا ، الى كثير من مشاهير الانجليز ، وقد التقى عاجلا أو آجلا بكل انسان تقريبا ممن يشار اليهم بالبنان فى ميدان الأدب أو السياسة الانجليزية . فاستقبله روبرت ولبسول ، رئيس الوزراء ، ودوق نيوكاسل ، وسارة دوفن ملبره ، وجورج أوغسطس وكارولين أمير وأميرة ويلز ، ثم آخر المطاف الملك الذى نحه بساعة ثمينة أرسلها فولتير عربون صلح لأبيه .

ثم زار « سيدى اللورد بولنبروك وسيدتى الليدى بولنبروك » و « وجد محبتهما لاتزال كما هى (٧٧) » . وفى أغسطس قام برحلة خاطفة الى فرنسا ، وهو لم يزل على تلفه لفتال رومان ، ولكن سبب الرحلة كان فى أغلب الظن تنظيم شئونه المالية . وعاش ثلاثة أشهر - بعضها مع سويقت - ضيفا على الايرل الثالث لستربورو . واستمتع (م ٢٣ - قصة الحضارة)

ثلاثة أخرى فى قصر ايستبرى بضيافة بوب دودنجن ، ذلك السياسي الفاسد والراعى العطوف لفيلدنج ، وطومسون ، وبنج . والتقى فولتير بكلا الشاعرين هناك ، وقرأهما دون أن يخرج بفائدة من القراءة . ومن ثم عكف على تعلم اللغة بعزم صادق ، فما وافت نهاية عام ١٧٢٦ حتى كان يكتب الخطابات بالانجليزية (٧٨) . واقتصر فى الشهور الاولى على المجالس التى كانت تفهم فيها الفرنسية ، ولكن كل من كان ذا شأن من الرجال أو النساء فى الأدب الانجليزى أو السياسة الانجليزية كان يعرف الفرنسية . وكتب المذكرات التى ملأها الآن باللغتين على السواء ، وهى تدل على أنه تعلم الألفاظ النابية أول ما تعلم من الانجليزية .

وقد اكتسب من الاحاطة بالأدب الانجليزى ما لم يكتسبه فرنسي مرموق بعده حتى ايبوليت تين . وقرأ بولنبروك ، ولكنه وجد قلم الفيكونت أقل المعية من لسانه ؛ على أنه ربما أخذ عن كتاب بولنبروك المسمى « مفهوم الملك الوطنى » الاعتقاد بأن خير أمل فى الاصلاح الاجتماعى يجرى على يد الملكية المستنيرة . وشق طريقه وسط أحقاد سويقت المقطرة ، وربما تعلم منه بعض فنون الهجاء ، وحكم بأنه « يفوق رابليه بما لا يقاس (٧٩) » . وقرأ ملتن ، ووقع من فوره على هذه الحقيقة ، وهى أن الشيطان هو البطل الحقيقى للمحممة الفردوس المفقود (٨٠) . وقد رأينا فى مكان آخر انفعاله المختلط بشكسبير - الاعجاب ببلاغة « الهمجى المحبوب » ، و « درر » السمو أو الرقة الدفينة وسط « كومة روث هائلة » من المهازل والمبازل (٨١) . وقلد « بوليوس قيصر » فى « موت قيصر » ، وعطيل فى « زائير » . كذلك ظهرت رحلات جلفر من جديد فى « ميكروميغاس » ، ومقال بوب عن الانسان فى « رسائل منظومة فى الانسان » .

وبادر بعد وصوله الى انجلترا بزيارة بوب . وصدمه منه تشوهه وعذاباته ، وأذهلته حدة ذهن بزب وارهاف عبارته ، وفضل مقال بوب فى النقد على مقال بوالو فى « فن الشعر (٨٢) » . وزار كونجراف المسن وساءه أن يجد أن الرجل الذى كان يوما ما مسرحيا عطيا أراد أن يعتبر « جنتلمانا لا مؤلفا (٨٣) » . وعلم فى حسد بأمر الوظائف الشرفية والمعاشات التى منحتها الوزارة الانجليزية قبل ولبول

للمؤلفين ، وقارن بين هذا الوضع وما صار اليه أمر أكبر شعراء فرنسا ،
الذى زج به فى السجن لأنه استاء من اهانة نبيل له .

ومن الأدب انتقل الى العلم ، فالتقى بأعضاء الجمعية الملكية ،
وبدأ يدرس نبوتن تلك الدراسة التى أتاحت له بعد ذلك أن يحل نيوتن
محل ديكارت فى فرنسا . وتائر تأثرا عميقا بالجنازة الرسمية التى
شيعت بها صفوة الانجليز نيوتن ، ولاحظ كيف رحبت الكنيسة
الانجليكانية بعالم يدفن فى دير وستمنستر . ومع أنه كان قد أصبح
ربوبيا قبل زيارته لانجلترا - اذ تعلم فن الشك من رابليه ومونتيني
وجاسدى وفونتنبيل وبيل - فانه الآن اتخذه دعما له من ربوبي
انجلترا - من تولاند وولسنن وتندال ونسب وكولنز ومدلنن وبولنبروك؛
وسيلح مكتبته بكنبهم فى فترة لاحقة . وكان أقوى حتى من هؤلاء
تأثير لوك الذى امتدحه فولبير لأنه أول من درس العقل دراسة واقعية .
ولاحظ أن القليل جدا من هؤلاء المهترقين المصريين على هرطقتهم
سجنوا بسبب آرائهم . ثم لاحظ نمو التسامح الدينى منذ ١٦٨٩ ،
وذهب الى أنه لا يوجد فى انجلترا تعصب دينى أعمى ، وحتى
الكويكرز خفت فورتهم فغدوا رجال أعمال هادئين . وزار أحدهم ،
وسره أن يئبأ بان بنسلفاديا بلد مثالى يخلو من الطبقات والحروب
والاعداء (٨٤) .

كتب بعد ذلك الى مدام دو دفان يقول « ما أشد حبى للانجليز ،
ما أشد حبى لهؤلاء القوم الذين يقولون ما يعتقدون (٨٥) ! » وعاد
يقول :

« انظرى ما حققته قوانين الانجليز ، لقد ردت لكل انسان حقوقه
الطبيعية التى سلبته اياها كل النظم الملكية تقريبا . وهذه الحقوق
هى : الحرية الكاملة للفرد وما يملك ؛ وحقه فى أن يكلم الناس بقلمه ؛
وأن يحاكمه محلفون من الرجال الاحرار اذا اتهم بجريمة ؛ وألا يحاكم
فى أى أمر الا طبقا لقوانين محددة ؛ وأن يجهر وقت السلم بالدين الذى
يفضله ايا كان ، مع البعد عن تلك المناصب التى لا يختار لها
الا أعضاء الكنيسة الأنجليكانية (٨٦) » .

والسطر الاخير يدل على أن فولتير أدرك حدود الحرية
الانجليزية . فقد عرف أن الحرية الدينية لم تكن قط كاملة ، وقد سجل

فى مذكراته القبض على « مستر شبنج » لما أبدى من ملاحظات مهينة على خطاب العرش (٨٧) . وكان فى استطاعة أى من مجلسي البرلمان أن يستدعى المؤلفين لمحاكمتهم على تصريحاتهم المؤذية عن أعضاء البرلمان ؛ وكان فى استطاعة كبير الامناء أن يرفض التصريح بالتمثيلات ؛ وقد وضع ديفو فى المشهرة عقابا على نشرة حشاها تهكما . ولكن فولتير أحس بأن حكومة انجلترا رغم فسادها أعطت الشعب قسطا من الحرية يحفره حفرا خلافا فى كل مجالات الحياة .

فهنا على سبيل المثال كانت التجارة حرة نسبيا ، لا يغل يدها ما يعرقلها فى فرنسا من مكوس داخلية . وخلعت على رجال الأعمال المناصب الادارية الرفيعة ، وسيعين صديقه فوكنر بعد قليل سفيرا لانجلترا فى تركيا . وأحب فولتير ، رجل الأعمال ، روح الانجليز العمالية ، واحترامهم للحقائق والواقع والمنفعة ، وبساطة سلوكهم وعاداتهم وملبسهم حتى الأثرياء منهم . وأحب أكثر من هذا كله الطبقة الوسطى الانجليزية . وقارن بين الانجليز وجعتهم : رغبة على السطح ، وحثالة فى القاع ، ولكن الوسط رائع (٨٨) . كتب فى ١٢ أغسطس ١٧٢٦ يقول : « لو خيرت لأثرت المكث هنا لغرض واحد هو أن أتعلم أن أفكر » ، وفى دفقة من حماسه دعا تييريو الى زيارة « أمة مغرمة بالحرية ، مثقفة ، ذكية ، تحترق الحياة والموت ، أمة من الفلاسفة (٨٩) » .

وقد كدر صفاء غرامه هذا بانجلترا ما حام حوله حينما من اشتباه بوب وغيره فى أنه يعمل جاسوسا على أصدقائه المحافظين لوزارة وليول (٩٠) . فلما اتضح أن الشبهة ظالمة نبذت للتو ، وظفر فولتير بشعبية كبيرة بين النبلاء وصفوة المثقفين اللذنيين . وحين قرر أن ينشر ملحمة الهنريادة فى انجلترا ، أرسلت له كل الدوائر المثقفة تقريبا اكتباباتها ، بما فيها جورج الأول ، والأميرة كارولين ، والبلاطان المتنافسان ؛ وطلب سويغت الى بعض هؤلاء ، أو قل أمرهم ، بالاككتاب . فلما ظهرت القصة (١٧٢٨) أهديت الى كارولين ، التى كانت الملكة الآن ، مشفوعة بباقة من الازهار الى جورج الثانى ، الذى رد على التحية بنفحة قدرها أربعمائة جنيه ، ودعوة الى حفلات العشاء الملكية . ونفذت ثلاث طبعات فى ثلاثة أسابيع ، رغم أن النسخة بيعت جيشن باهظ قدره ثلاثة جنيهات . وقد قدر فولتير دخله من هذه الطبعة

الانجليزية بمبلغ ١٥٠.٠٠٠ فرنك . واستخدم بعض هذا المال ليعين عدة فرنسيين فى انجلترا (٩١) ، أما الباقي فقد استثمره بـ غاية الحكمة ، حتى لقد حكم بعد ذلك على هذا الربح الذى لم يتوقعه بأنه الاصل فى ثرائه . ولم يكف قط عن عرفانه بصنيع انجلترا .

لقد دان لها قبل كل شيء بحفز هائل لذهنه وانضاج لفكره . فلما عاد من منغاه جلب معه كتب نيوتن ولوك فى حقائقه . وانفق جزءا من سنه العشرين التالية فى تعريف فرنسا بهما . كذلك جلب معه كتب الربوبيين الانجليز ، الذين زودوه ببعض الذخيرة التى سيستعملها فى الحرب على « العار » . وكما أن انجلترا على عهد تشارلز الثانى تعلمت الخير والشر من فرنسا لويس الرابع عشر ، فكذلك ستتعلم فرنسا لويس الخامس عشر من انجلترا الاعوام ١٦٨٠ - ١٧٦١ . ولم يكن فولنير وسيط التبادل الاوحد فى هذا الجيل ؛ فان مونتسكيو ، وموبورتوى ، وبريفوست ، وبوفون ، ورينال ، وموريليه ، وليلاند ، وهلفتيوس ، وروسو - هؤلاء أيضا أتوا الى انجلترا ، والذين لم يأتوا تعلموا من الانجليزية ما يكفى لجعلهم حملة للأفكار الانجليزية . وقد أجمل فولتير فى تاريخ لاحق هذا الدين فى رسالة بعث بها الى هلفتيوس . قال :

« لقد استعرتنا من الانجليز المرتبات السنوية ، وأموال استهلاك الديون ، وبناء السفن وتسييرها ، وقوانين الجاذبية ، والالوان الاساسية السبعة ، والتطعيم ، وسنكتسب منهم ، دون ادراك منا ، حرية تفكيرهم الرفيعة ، واحتقارهم العميق لتفاهة المعلومات التى تعطىها المدارس (٩٢) » .

ومع ذلك شعر بالحنين الى فرنسا . لقد أشبهت انجلترا الجعة ، أما فرنسا فلها مذاق النبيذ فى فيه . والتمس المرة بعد المرة أن يؤذن له فى العودة . ويبدو أنه منح الأذن بشرط معتدل هو أن يجتنب باريس أربعين يوما . ولا علم لنا متى غادر انجلترا ، وأغلب الظن أن هذا كان فى خريف ١٧٢٨ . وفى مارس ١٧٢٩ كان فى سان - جرمان - أن - ليه ؛ وفى ٩ أبريل كان فى باريس ، رجلا هذبته المحن ومحصلته دون أن تقضى عليه ، جياشا بالأفكار ، متلهفا على تغيير هذه الدنيا وتبديلها .

المراجع

APOLOGY

1. Brandes, G., *Voltaire*, I, 4.
2. Cousin, Victor, *Histoire de la philosophie*, in Buckle, H. T., *History of Civilization in England*, I, 519n
3. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 16.

CHAPTER I

1. Brandes, *Voltaire*, I, 30
2. *Ibid.*, 31, Parton, James, *Life of Voltaire*, I, 26, Campbell, T. J., *The Jesuits*, 354.
3. Desnoiresterres, *Voltaire et la société française au XVIII^e siècle*, I, 32.
4. *Ibid.*, 17-18.
5. Letter of Feb. 7, 1746, to Father Latour, in Desnoiresterres, I, 24; Brandes, I, 44.
6. Parton, I, 53.
7. Hazard, Paul, *European Thought in the 18th Century*, 129.
8. Parton, I, 66
9. Desnoiresterres, I, 171.
10. Duclos, C. P., *Secret Memoirs of the Regency*, 6
11. Saint-Simon, *Memoirs*, II, 329.
12. Duclos, 10.
13. Saint-Simon, II, 326.
14. Desnoiresterres, I, 96.
15. Wormeley, K. P., *Correspondence of Madame, Princess Palatine, . . . Marie Adélaïde de Savoie, . . . and Mme. de Maintenon*, 29.
16. Guizot, F., *History of France*, V, 3.
17. Martin, Henri, *Histoire de France*, XV, 13.
18. Duclos, Louis, *French Society in the 18th Century*, 55.
19. Martin, H., XV, 20-22, Desnoiresterres, I, 164.
20. Stryienski, C., *Eighteenth Century*, 82.
21. Beard, Miriam, *History of the Business Man*, 47.
22. Martin, H., XV, 53.
23. Voltaire, *Works*, XVI, 20.
24. Martin, H., XV, 54.
25. Michelet, J., *Histoire de France*, V, 268.
26. Saint-Simon, II, 232.
27. *Ibid.*, III, 239.
28. Martin, H., XV, 62.
29. Saint-Simon, III, 243.
30. In Lacroix, Paul, *Eighteenth Century in France*, 201.
31. Wormeley, 31.
32. Guizot, V, 42.
33. Duclos, *Secret Memoirs*, 70.
34. Martin, H., XV, 107.
35. Saint-Simon, III, 338.
36. Michelet, V, 133.
37. *Ibid.*, 135.
38. Saint-Simon, III, 69.
39. Voltaire, *Works*, XVIa, 155
40. Saint-Simon, III, 418.
41. *Cambridge Modern History*, II, 111.
42. Michelet, V, 197, Martin, H., XV, 111
43. Duclos, *Secret Memoirs*, 8.
44. Ercole, L., *Gay Court Life in France in the 18th Century*, 18-20.
45. Saint-Simon, III, 69.
46. Ercole, 27.
47. *Ibid.*, 10.
48. Ducros, *French Society*, 56.
49. Ercole, 44.
50. *Camb. Mod. History*, VI, 132.
51. Duclos, *Secret Memoirs*, 131.
52. Ercole, 44.
53. Martin, H., XIV, 552n., and Michelet, V, 160, credit the charge of incest.
54. Dupuy, *DIALOGUE*, 12.
55. Dupuy, *Dialogues sur les plaisirs*, 14, in Crocker, L. G., *Age of Crisis*, 117.
56. Brunetière, F., *Manual of the History of French Literature*, 282.
57. Wormeley, 10.
58. Lacroix, 83.
59. Michelet, V, 251.
60. Martin, H., XV, 339.
61. Batiffol, L., *The Great Literary Salons*, 103.
62. Toth, K., *Woman and Rococo in France*, 107.
63. *Ibid.*
64. Lacroix, 417.
65. Ercole, 56.
66. Louvre.
67. Metropolitan Museum of Art, New York.
68. Louvre.
69. Metropolitan Mus. of Art.
70. Wallace Collection, London.
71. Dresden, Gemäldegalerie.
72. Wallace Collection.
73. There are outstanding collections of Watteau's drawings in the Louvre and in the Pierpont Morgan Library, New York.
74. Goncourt, E. and J. de, *French 18th-Century Painters*, 1.

- 75 Aldington, R., *French Comedies of the 18th Century*, 103
76. Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, I, 81.
77. *Ibid.*, 82.
78. Lesage, *Adventures of Gil Blas*, prefatory memoir.
- 79 Aldington, 131.
- 80 Lesage, *Gil Blas*, Book VIII, Ch. x.
- 81 *Gil Blas*, last line.
- 82 Sainte-Beuve, *Portraits*, I, 104.
83. Saint-Simon, III, 42, cf. 91-94
84. Créqui, Marquise de, *Souvenirs*, 44.
85. Michelet, V, 126.
86. Faguet, Émile, *Literary History of France*, 474.
87. Saint-Simon, III, 376.
88. Duclos, *Secret Memoirs*, 326.
89. Michelet, V, 155; Martin, H., XV, 80.
90. *Ibid.*, 115.
91. Saint-Simon, III, 373.
92. *Ibid.*, 376.
93. 77
94. In Torrey, N., *The Spirit of Voltaire*, 21.
95. Parton, I, 99.
96. Desnoïesterres, I, 217.
97. Parton, I, 98.
98. Brandes, I, 97.
- 99 *Ibid.*, 98.
100. 99.
101. Parton, I, 115.
102. Like Desnoïesterres, I, 159, and Brandes, I, 100
103. Créqui, 149.
104. Desnoïesterres, I, 157.
105. Beard, Miriam, *History of the Business Man*, 463, Brandes, I, 306.
106. Desnoïesterres, I, 190.
107. Parton, I, 154.
108. Desnoïesterres, I, 242; Faguet, *Literary History*, 469, gives a different version: "Gare que cet écrit in extremis n'aille pas à son adresse."
109. Parton, I, 165.
110. Voltaire, *Works*, XXIa, 221.
111. Frederick the Great, *Mémoires*, I, 59.
112. Desnoïesterres, I, 345.
113. Brandes, I, 152.
114. *Ibid.*; Parton, I, 185.
115. Parton, I, 190.
- day Things in England, 21, Mantoux, P., *Industrial Revolution in the 18th Century*, 165.
5. Quennell, *Everyday Things*, 12
6. Trevelyan, G. M., *English Social History*, 179
7. Besant, Sir Walter, *London in the 18th Century*, 386.
8. Lipson, E., *Growth of English Society*, 212.
9. Nussbaum, *Economic Institutions of Modern Europe*, 252.
10. Jaurès, *Histoire socialiste de la Révolution française*, I, 67.
11. Usher, A., *History of Mechanical Inventions*, 280.
12. Lipson, 196.
13. Ashton, *Economic History*, 220.
14. *Encyclopaedia Britannica*, VI, 544a
15. Mantoux, 73.
16. Ashton, 201-4.
17. In Tawney, R. H., *Religion and the Rise of Capitalism*, 190.
18. Ashton, 212; Mantoux, 72.
19. Ashton, 203.
20. Webb, S and B., *History of Trade Unionism*, 31-50.
21. Mantoux, 119.
22. Chesterfield, Earl of, *Letters to His Son*, letter of Sept. 12, 1749.
23. Mantoux, 102; Taine, H., *Ancient Régime*, 33.
24. Beard, M., *Business Man*, 430.
25. Voltaire, *Lettres sur les Anglais*, No. 10, in Mantoux, 138.
26. Hume, David, *Enquiry concerning the Principles of Morals*, 248.
27. In Beard, M., 435.
28. Lecky, W. E., *History of England*, I, 323.
29. Mackay, C., *Extraordinary Popular Delusions*, 50.
30. *Ibid.*, 55
31. Quennell, P., *Caroline of England*, 71.
32. *Camb. Mod. History*, VI, 181.
33. Mackay, 73.
34. *Ibid.*, 78.
35. Voltaire, *Works*, XIIIa, 23.
36. Ranke, L., *History of the Reformation in Germany*, 468.
37. Rogers, J. E. T., *Economic Interpretation of History*, 157, Ashton, 2, Ogg, David, *Europe in the 17th Century*, 2.
38. Defoe, *Tour*, I, 337.
39. Besant, *London in the 18th Century*, 352.
40. Trevelyan, *English Social History*, 142
41. Lecky, *History of England*, I, 482-84.
42. *Ibid.*
43. Letter of Mar. 23, 1752.
44. Besant, 380-81.

CHAPTER II

1. Shakespeare, *Richard II*, II, i.
2. Defoe, *Tour through England and Wales*, I, 1 and *passim*.
3. Voltaire, *Lettres philosophiques*, No. 9, Ashton, T., *Economic History of England: The 18th Century*, 36.
4. Quennell, M. and C., *History of Every-*

45. W. R. Brock in *New Camb. Mod. History*, VII, 266
46. Besant, 238.
47. Lecky, II, 543-45.
48. James, B. B., *Women of England*, 135
49. Besant, 138.
50. Markun, L., *Mrs Grundy*, 183.
51. Fay, B., *La Franc-Maçonnerie et la révolution intellectuelle du XVIII^e siècle*, 78-79
52. Besant, 384.
53. Blackstone, *Commentaries on the Laws of England*, 151n.
54. Congreve, Wm., *Way of the World* III, iii, in Hampden, J., *Eighteenth-Century Plays*.
55. Gay, John, *Beggar's Opera*, I, v, in Hampden.
56. Halsband, R., *Lady Mary Wortley Montagu*, 14.
57. Langdon-Davies, J., *Short History of Women*, 305.
58. Besant, 459; Lecky, I, 522; Quennell, P., *Caroline of England*, 29.
59. George, M. Dorothy, *London in the 18th Century*, 29.
60. Lecky, I, 477.
61. *Ibid.*, 479; Besant, 297 f.
62. Berkeley, George, *Sirius*, in Jefferson, D. W., *Eighteenth-Century Prose*, 122
63. Besant, 301-2.
64. Turberville, *Johnson's England*, I, 48.
65. Boswell, *Journal of a Tour to the Hebrides*, 84 (Aug. 31, 1773).
66. *Enc. Brit.*, XX, 779d.
67. *Camb. Mod. History*, VI, 187.
68. Ashton, 62-63.
69. Hobhouse, L. T., *Morals in Evolution*, 313.
70. Besant, 342.
71. Lecky, I, 183.
72. *Ibid.*, 367; Barnes, H. E., *Economic History of the Western World*, 256.
73. Westermarck, E. A., *Origin and Development of the Moral Ideas*, II, 558.
74. Turberville, I, 72.
75. Some instances in Thackeray, *The Four Georges*, 42-43.
76. Turberville, I, 312.
77. Fielding, H., *Amelia*, Book I, Ch. ii.
78. Turberville, I, 310.
79. Quennell, M. and C., *Everyday Things*, 9.
80. Lecky, I, 507.
81. Turberville, I, 322.
82. *Ibid.*, 319; Lecky, I, 501-2.
83. Smith, Preserved, *History of Modern Culture*, II, 586.
84. Johnson, S., *The Rambler*, 183.
85. Pope, A., *Imitations of Horace*, Epistle II.
86. James, B. B., *Women of England*, 318.
87. Turberville, I, 341.
88. Thackeray, *Four Georges*, 41.
89. Allen, B. S., *Tides in English Taste*, I, 249.
90. Lecky, I, 552.
91. *Ibid.*, 553-54.
92. Walpole, H., *Letters*, I, 309 (June 29, 1744).
93. Weinstock, H., *Handel*, 228
94. Allen, B. S., *Tides*, I, 94; Chesterfield, *Letters*, Oct. 19, 1748.
95. Clergue, H., *The Salom*, 4.
96. Chesterfield, *Letters*, June 11, 1750.
97. Sainte-Beuve, *English Portraits*, 25.
98. Wharton, G. and P., *Wits and Beaux of Society*, I, 349.
99. Sainte-Beuve, *English Portraits*, 29.
100. Chesterfield, letter of July 8, 1739
101. Letter of June, 1752, in *Letters to His Son*, II, 96.
102. Letter of Apr. 19, 1749.
103. Apr. 13, 1752.
104. Nov. 6, 1747.
105. May 16, 1751.
106. May 23, 1751.
107. Sept. 5, 1748.
108. Apr. 15, 1751.
109. In Sainte-Beuve, *English Portraits*, 41.
110. Dec. 25, 1753.
111. May 17, 1748.
112. Nov. 11, 1752.
113. Oct. 9, 1747.
114. Feb. 22, 1748.
115. Oct. 19, 1748.
116. Jan. 8, 1750.
117. Apr. 13, 1752.
118. Dec. 25, 1753.
119. Stephen, Leslie, *English Literature and Society in the 18th Century*, 150.
120. Krutch, J. W., *Samuel Johnson*, 354.
121. Chesterfield, July 25, 1741.
122. Feb. 24, 1747.
123. Krutch, 354.
124. Parton, II, 551.
125. Sainte-Beuve, *English Portraits*, 43.
126. Nicolson, H., *Age of Reason*, 201.
127. In Sainte-Beuve, *English Portraits*, 34.
128. Dec. 2, 1746.
129. Oct. 17, 1768.
130. *Letters*, II, 334.
131. Oct. 11, 1769.
132. Sainte-Beuve, *English Portraits*, 44.
133. *Ibid.*, 45.

CHAPTER III

1. Acton, Lord, *Lectures on Modern History*, 266.
2. Quennell, P., *Caroline*, 22.
3. Halsband, *Lady Mary*, 45.

4. Voltaire, *Works*, XXIIb, 70-72; cf. Laski, H., *Political Thought in England, Locke to Bentham*, 16.
5. Hauser, *Social History of Art*, II, 261.
6. *New Cambridge Modern History*, VII, 261.
7. Voltaire, XIXb, 29.
8. Chidsey, D. B., *Marlborough*, 291.
9. Rowse, A. L., *The Early Churchills*, 131.
10. Martin, H., XV, 76.
11. Lang, A., *History of Scotland*, IV, 226-27.
12. Collins, J. C., *Bolingbroke, and Voltaire in England*, 117.
13. Churchill, W. S., *History of the English-Speaking Peoples*, III, 91.
14. Schoenfeld, H., *Women of the Teutonic Nations*, 275.
15. Quennell, *Caroline*, 93; Martin, H., XV, 343.
16. Traill, H. D., *Social England*, V, 139.
17. Walpole, H., *Reminiscences*, in *Letters*, introd., cxxx.
18. Walpole, H., *Memoires of . . . the Reign of George II*, I, 63.
19. Thackeray, *Four Georges*, 33.
20. Wharton, G. and P., *Wits and Beaux of Society*, I, 276.
21. Mossner, *Life of England*, I, 465.
22. Mossner, *Bishop Butler and the Age of Reason*, 4; Quennell, *Caroline*, 134.
23. *Camb. Mod. History*, VI, 77.
24. Voltaire, XIXb, 23.
25. Lecky, I, 520.
26. Quennell, *Caroline*, 252.
27. Lecky, I, 326; *Camb. Mod. History*, VI, 181.
28. Macaulay, T., *Essays*, I, 346.
29. Walpole, *Memoires of the Reign of George II*, II, 273.
30. Mossner, *Bishop Butler*, 5.
31. Beard, M., *History of the Business Men*, 477.
32. Macaulay, *Essays*, I, 348; Lecky, I, 367-72; Koven, A. de, *Horace Walpole and Mme. du Deffand*, 13.
33. Lord Hervey in Jefferson, D. W., *Eighteenth-Century Prose*, 28.
34. Tucker in Lecky, I, 334.
35. Frederick the Great, *Memoires*, I, 29.
36. Chesterfield, letter of Dec. 12, 1749.
37. In Lovejoy, *Essays*, 177.
38. Collins, J. C., *Bolingbroke*, 166.
39. *Camb. History of English Literature*, IX, 254.
40. Bolingbroke, *On the Spirit of Patriotism*, 28.
41. Collins, J. C., 172.
42. Bolingbroke, 128.
43. Hearnshaw, F. J., *Social and Political Ideas of Some English Thinkers of the Augustan Age*, 215.
44. *Ibid.*
45. Acton, *Lectures*, 273.
46. See *Camb. Mod. History*, VI, 64 f.; Wingfield-Stratford, *History of British Civilization*, 681; Churchill, III, 202.
47. Lecky, I, 385n; Burke, *Letters on a Regicide Peace*, in *Reflections on the French Revolution*.
48. Altamira, R., *History of Spain*, 435.
49. *Enc. Brit.*, XX, 779c.
50. In Lecky, I, 394.
51. *Ibid.*, 291.
52. *Ibid.*
53. 239.
54. ~~241~~
55. Mantoux, *Industrial Revolution*, 87.
56. Swift, Jonathan, *Short View of the State of Ireland*, in Lecky, II, 208.
57. Lecky, II, 424.
58. *Camb. Mod. History*; VI, 485.
59. D'Alton, E. A., *History of Ireland*, IV, 531.
60. Lecky, II, 499.
61. D'Alton, IV, 472-73.
62. Lecky, II, 217.
63. *Ibid.*
64. Mossner, *Life of Hume*, 234.
65. Lecky, II, 83.
66. Trevelyan, *English Social History*, 444.
67. Robertson, J. M., *Short History of Freethought*, II, 168.
68. Traill, *Social England*, V, 159.
69. Lang, A., *History of Scotland*, IV, 425-27.
70. *Ibid.*, 449.
71. 451.
72. Voltaire, *Age of Louis XV*, II, 14.
73. Lang, A., IV, 512.
74. *Camb. Mod. History*, VI, 117.
75. Lang, A., IV, 519.
76. *Enc. Brit.*, IV., 292d.
77. Voltaire, *Age of Louis XV*, II, 44.
78. Frederick, *Memoires*, I, 191.
79. Wingfield-Stratford, 682.
80. Lecky, II, 479-80.
81. *Ibid.*, 476.
82. Churchill, III, 112

CHAPTER IV

1. *Pensées diverses*, in Lecky, II, 531n.
2. Davidson, John, introd. to Montesquieu's *Persian Letters*, xxi.
3. *Ibid.*
4. Hervey, *Memoirs of the Court of George II*, in introd. to Mandeville's *Fable of the Bees*, x.
5. Besant, *London*, 152.
6. *Camb. Mod. History*, VI, 79.

7. Stephen, L., *History of English Thought in the 18th Century*, I, 217.
8. Thackeray, *Four Georges*, 34.
9. Lecky, II, 468.
10. Hume, D., essay "Of National Character."
11. Besant, 153.
12. Lecky, I, 275-76, 303-4.
13. Trevelyan, G. M., *England under the Stuarts*, 342.
14. Robertson, J. M., *History of Free-thought*, II, 161; Lecky, I, 313.
15. Voltaire, XIXb, 218.
16. Voltaire, VIa, 288.
17. Woolston, *Discourses*, I, 34, in Stephen, *History of English Thought*, I, 232.
18. Bury, J. B., *History of Freedom of Thought*, 141; Voltaire, *Philosophical Dictionary*, article "Miracles," in *Works*, VIa, 288-93; Robertson, J. M., *Free-thought*, II, 157-59; Stephen, *History of English Thought*, I, 228-38.
19. Benn, A. W., *History of English Rationalism in the 19th Century*, I, 145.
20. Tindal, M., *Christianity as Old as the Creation*, 14, in Stephen, *History*, I, 139.
21. In Stephen, I, 262; Robertson, II, 158.
22. In Stephen, I, 266.
23. Collins, J. C., *Bolingbroke*, 183.
24. Stephen, I, 178.
25. Torrey, N. L., *Voltaire and the English Deists*, 149.
26. In Hearnshaw, *English Thinkers of the Augustan Age*, 240.
27. Stephen, *History*, I, 180.
28. Collins, J. C., 180.
29. Goldsmith, O., *Life of Bolingbroke*, in Clark, B. H., *Great Short Biographies*, 1057.
30. In Stephen, I, 246.
31. *Ibid.*, 345.
32. 349-52.
33. 356.
34. *Enc. Brit.*, IV, 463b.
35. Mossner, *Bishop Butler and the Age of Reason*, 8.
36. Toynbee, Arnold J., *Study of History*, abridgment of Vols. I-VI by D. C. Somervell, 486.
37. Gibbon, Edward, *Memoirs*, 21.
38. Turberville, *Johnson's England*, I, 33.
39. Inge, *Christian Mysticism*, 283.
40. *Camb. Mod. History*, VI, 81.
41. Gibbon, *Memoirs*, 22.
42. Bearne, *Court Painter*, 198.
43. Voltaire, essay "Epic Poetry."
44. Besant, 149.
45. McConnell, F. J., *John Wesley*, 13.
46. Wesley, John, *Journal*, 94.
47. *Encyclopaedia of Religion and Ethics*, XII, 724d.
48. *Ibid.*, 725a.
49. McConnell, 47.
50. Lecky, II, 554.
51. Wesley, *Journal*, 43; Hastings, XII, 725d.
52. *Enc. Brit.*, XXIII, 576.
53. Lecky, II, 565.
54. *Ibid.*
55. 563.
56. 591-94; Lecky, *History of European Rationalism*, I, 45.
57. Turberville, *Johnson's England*, I, 221.
58. Wesley, *Journal for 1739*, in Lecky, *History of England*, II, 584.
59. *Ibid.*, 583.
60. 590.
61. 636; Toynbee, *Study of History*, IX, 459-60.
62. McConnell, 48.
63. *Ibid.*, 66.
64. Wesley, *Journal*, entry for Mar. 30, 1736.
65. *World Christian Handbook*, 5.
66. *Journal for Jan. 1, 1790*.
67. Shaftesbury, 3d Earl of, *Characteristics*, I, 260.
68. Mandeville, *Fable of the Bees*, 83-85.
69. Hutcheson, F., *Inquiry concerning Moral Good and Evil*, in *Enc. Brit.*, XI, 945c.
70. Buckle, II, 334-
71. *Ibid.*, 336.
72. Hume, D., *Dialogues concerning Natural Religion*, 4.
73. Huxley, T. H., *Hume*, 3.
74. *Ibid.*, 6.
75. Mossner, *Life of Hume*, 51.
76. Huxley, 6.
77. "My Own Life," in Hume, *Dialogues concerning Natural Religion*, 233.
78. Mossner, 82.
79. *Ibid.*, 94.
80. 111.
81. Hume, *Treatise of Human Nature*, Book I, Part II, Sec. 5.
82. *Ibid.*, I, II, 1.
83. I, III, 10 and 7.
84. I, IV, 2 and 6.
85. I, IV, 1.
86. *Ibid.*
87. Appendix.
88. I, IV, 1.
89. I, IV, 7.
90. I, IV, 2.
91. I, IV, 1.
92. II, III, 3.
93. *Ibid.*
94. II, I, 10.
95. II, I, 7.
96. II, I, 8.
97. II, II, 11.

98. "My Own Life," in Hume, *Dialogues concerning Natural Religion*, p. 234.
99. Mossner, p. 129.
100. *Treatise*, III, 1, Sec. 1.
101. III, II, 2.
102. III, III, 6.
103. Mossner, p. 213.
104. *Ibid.*, 215-18.
105. Hume, *Enquiry concerning the Human Understanding*, p. 2.
106. *Ibid.*, Part X, Secs. 91-95 and 100-101.
107. XI, 102.
108. *Enquiry concerning the Principles of Morals*, V, 1, Secs. 174-75, Appendix II; cf. essay "Of the Dignity and Mean-ness of Human Nature."
109. *Enquiry concerning . . . Morals*, IX, 1, Sec. 226.
110. *Ibid.*, IV, Sec. 166.
111. "My Own Life," *loc. cit.*, p. 236.
112. *Dialogues concerning Natural Religion*, 156.
113. *Ibid.*, 148.
114. 182-83.
115. Essay "On Suicide."
116. *Dialogues*, 210.
117. *Ibid.*, 194.
118. 211.
119. 169.
120. 180.
121. 171.
122. 227.
123. 214.
124. Hume, *Natural History of Religion*, Secs. I, XIII-XV, in Cassirer, E., *Philosophy of the Enlightenment*, p. 181.
125. *Dialogues*, introd., xv.
126. Burton, *Life of Hume*, II, in Lecky, *History of England*, II, 543.
127. *Enquiry concerning . . . Morals*, III, II, Sec. 155.
128. Hume, *History of England*, IV, p. 480.
129. Hume, *Essays Literary, Moral, and Political*, 27, 273
130. *Ibid.*, 161.
131. Essay "Of National Character."
132. *Enquiry concerning the Human Understanding*, Part VII, Sec. 65.
133. Essay "Of Commerce."
134. Essay "Of Civil Liberty."
135. Essay "Jealousy of Trade."
136. In Black, *Art of History*, p. 80.
137. Mossner, 317.
138. Essay "Of the Study of History"
139. "My Own Life," *loc. cit.*, 236
140. In Black, 114.
141. Mossner, 318.
142. "My Own Life," *loc. cit.*, 236
143. *Ibid.*, 237
144. Mossner, 223.
145. *Ibid.*, 318.
146. 444-45.
147. "My Own Life," *loc. cit.*, 238.
148. *Ibid.*, 239.
149. *Enquiry concerning the Human Understanding*, Part XI, Sec. 108.
150. Mossner, 568.
151. Adam Smith, letter to Wm. Strahan, Nov. 9, 1776, in Hume, *Dialogues*, p. 247.
152. *Treatise of Human Nature*, Book I, Part IV, Sec. 5.
153. Wolf, *History of Science*, 757.
154. Mossner, 478.
155. Hume, *Dialogues*, introd., xxx.
156. Mossner, 588.
157. "My Own Life," *loc. cit.*, 239.
158. Strachey, L., *Portraits in Miniature*, 151.
159. "My Own Life," *loc. cit.*, 244.
160. *Ibid.*, 245.
161. Mossner, 598-600.
162. *Ibid.*, 603.

CHAPTER V

1. Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, I, 132.
2. Buckle, I, 312.
3. Johnson, *Lives of the Poets*, II, 143.
4. Pope, "Epistle to Dr. Arbuthnot," lines 127-28.
5. *Essay on Criticism*, lines 214-15.
6. *Ibid.*, line 298.
7. Lines 631-42.
8. 585-87.
9. Stephen, L., *Alexander Pope*, 45.
10. *Rape of the Lock*, Canto II, lines 105-9
11. *Ibid.*, III, 16.
12. v, 85-86.
13. See "Windsor Forest," lines 41-42.
14. Pope, "Eloisa to Abelard," lines 281-92.
15. *Ibid.*, lines 325-28.
16. Stephen, *Pope*, p. 61.
17. *Ibid.*, 64.
18. Johnson, *Lives*, II, 161.
19. Stephen, *Pope*, 64.
20. *Ibid.*, 78.
21. Pope, "Second Epistle of the Second Book of Horace," lines 68-69, in *Collected Poems*, p. 305.
22. Thornton, J. C., *Table Talk from Ben Jonson to Leigh Hunt*, 112
23. E.g., see Jefferson, *Eighteenth-Century Prose*, 25.
24. Parson, I, 214.
25. Stephen, *Pope*, 91.
26. Boston Museum of Fine Arts
27. London, National Portrait Gallery
28. Stephen, *Pope*, 100.

29. See "Farewell to London," in *Poems*, 368, and Strachey, *Portraits*, 14.
30. Garnett and Gosse, *English Literature*, III, 199.
31. Pope, *Dunciad*, Book II, lines 75-76, 102-8, 155-56.
32. *Ibid.*, Book IV, lines 471-82.
33. Robertson, J. M., in Shaftesbury, *Characteristics*, introd., p. xxv.
34. Collins, *Bolingbroke*, 158.
35. Stephen, *Pope*, 166.
36. *Essay on Man*, Epistle I, lines 1-16.
37. Milton, *Paradise Lost*, 1, line 26.
38. *Essay on Man*, I, 81-84.
39. I, 91-96.
40. End of Epistle I.
41. *Essay on Man*, II, 1-17.
42. *Ibid.*, 217-20.
43. III, 303-6.
44. IV, 35-36.
45. 49-50.
46. Taine, H., *History of English Literature*, Book III, Ch. vii, Sec. 4.
47. Voltaire, *Lettres sur les Anglais*, in *Works*, XIXb, p. 94.
48. Johnson, *Lives*, II, 193.
49. "Epistle to Dr. Arbuthnot," lines 305-29.
50. *Satires*, epilogue, lines 208-9.
51. *Dunciad*, IV, 629-55.
52. Johnson, *Lives*, II, p. 199.
53. Thackeray, *English Humourists*, 213.
54. Walt Whitman, in Traubel, H., *With Walt Whitman in Camden*, 126.
55. Lecky, *History of England*, I, 463.
56. Brandes, *Voltaire*, I, 16.
57. Woods, Watt, and Anderson, *Literature of England*, II, 51.
58. Garnett and Gosse, III, 287; questioned by *Camb. History of English Literature*, X, 147.
59. Arnold, M., *Essays in Criticism*, 317.
60. Johnson, *Lives*, II, 392, 388.
61. Allen, R. J., *Life in 18th-Century England*, 16.
62. Brandes, *Voltaire*, I, 32.
63. Lecky, *History of England*, I, 541.
64. Mossner, *Hume*, 357.
65. *Ibid.*, 360.
66. 379.
67. 364.
68. Pope, "Epitaph on Gay."
69. Gay, John, *Beggar's Opera*, I, v.
70. *Ibid.*, I, viii.
71. III, xi.
72. *Camb. History of English Literature*, X, 3.
73. Richardson, S., *Pamela*, 2.
74. *Ibid.*, 179.
75. Richardson, *Clarissa*, 429-31.
76. *Ibid.*, introd., viii.
77. *Ibid.*, ix.
78. Montagu, Lady Mary W., *Letters*, II, 232 (Mar. 1, 1752).
79. Rousseau, J. J., letter to Duclos, Nov. 19, 1760.
80. Francke, K., *History of German Literature*, 216.
81. Texte, J., *J. J. Rousseau and the Cosmopolitan Spirit*, 148 f.
82. Fielding, H., introd. to *Amelia*, xxiii; Thackeray, *English Humourists*, 263n.
83. Fielding, *Joseph Andrews*, Book I, Ch. x.
84. Saintsbury, G., introd. to *Pamela*.
85. *Joseph Andrews*, II, xiv.
86. Fielding, *Jonathan Wild*, preface.
87. *Jonathan Wild*, I, i.
88. *Ibid.*, I, v.
89. I, iii.
90. III, vii.
91. IV, xv.
92. Thackeray, *English Humourists*, 266n.
93. Fielding, *Tom Jones*, III, v.
94. *Ibid.*, III, x.
95. XVIII, xii.
96. Besant, *London*, 502 f.; Lecky, *History of England*, I, 487.
97. *Amelia*, IV, ii.
98. *Ibid.*, I, ii.
99. XI, ix.
100. VI, ii.
101. Thackeray, 263.
102. Smollett, T., *Roderick Random*, Ch. xi, pp. 56-58.
103. *Ibid.*, xx, 114.
104. xvii, 95.
105. xxxix, 223.
106. Smollett, *Adventures of Peregrine Pickle*, Ch. ii.
107. *Ibid.*, vi.
108. Thackeray, 254n.
109. *Ibid.*, 255n.
110. 254n.
111. Smollett, *Travels through France and Italy*, xxvii.
112. Thackeray, 256.
113. Smollett, *Humphrey Clinker*, 16 (letter of Apr 18).
114. *Ibid.*, 142 (letter of June 8).
115. 218-20 (letter of July 4).
116. 225-37 (letter of July 13).
117. Montagu, Lady M. W., *Letters*, I, 173.
118. Halsband, *Lady Mary Wortley Montagu*, 11.
119. Montagu, *Letters*, I, 174 (Apr. 25, 1710).
120. *Ibid.*, 178.
121. 181.
122. Letter of Aug. 16, 1712, Halsband, 25.
123. Pope, *Collected Poems*, 370.
124. Halsband, 58.

125. Pope, letter of Aug. 18, 1716, in Montagu, I, 405-7.
126. Montagu, I, 237 (Sept. 14, 1716).
127. Brockway and Winer, *Second Treasury of the World's Great Letters*, 170.
128. Halsband, 63.
129. Montagu, I, 431, 434.
130. Collection of the Marquess of Bute.
131. Pope, *Poems*, 371.
132. Halsband, 113.
133. *Ibid.*, 130.
134. 141.
135. *Camb. History of English Literature*, IX, 277.
136. Translated from Halsband, 156.
137. *Ibid.*, 157.
138. Walpole, H., *Letters*, I, 57-62 (Sept. 25 and Oct. 2, 1740).
139. Halsband, 204, 218
140. *Ibid.*, 218.
141. 289.

CHAPTER VI

1. Turberville, *Johnson's England*, II, 75.
2. Allen, B. S., *Tides in English Taste*, I, 73 f.
3. Lecky, *History of England*, I, 530.
4. Tate Gallery, London.
5. Staatsbibliothek, Hamburg.
6. Traill, *Social England*, V, 271.
7. Wilenski, R., *English Painting*, 102.
8. Thackeray, *English Humourists*, 247n.
9. Beckett, R. B., *Hogarth*, 22.
10. Vienna.
11. Collection of Sir Francis Cook.
12. Frick Gallery, New York.
13. Metropolitan Museum of Art, New York.
14. Tate Gallery.
15. *Ibid.*
16. National Gallery, London.
17. Tate Gallery.
18. Thackeray, 247.
19. Quennell, P., *Hogarth's Progress*, 31.
20. Tate Gallery.
21. Thackeray, 245n.; Wilenski, 60.
22. Wilenski, 79 f.; Dobson, *Hogarth*, 23.
23. Wilenski, 72.
24. Beckett, 13.
25. Art Gallery, Birmingham, England.
26. St. Bartholomew's Hospital, London.
27. Collection of Earl of Faversham.
28. Wilenski, 63; Beckett, 18, questions this story.
29. Wilenski, 85.
30. Dobson, 21.
31. Wilenski, 71.
32. Tate Gallery.

33. Wilenski, 68.
34. Craven, Thos., *Treasury of Art Masterpieces*, 210; Quennell, P., *Hogarth*, 7.
35. Wingfield-Stratford, *History of British Civilization*, 777.
36. Dobson, 31.
37. Grove's *Dictionary of Music and Musicians*, II, 406.
38. Weinstock, *Handel*, 55.
39. Brockway and Weinstock, *Men of Music*, 60; Turberville, *Johnson's England*, II, 160.
40. This section is especially indebted to Herbert Weinstock's *Handel*.
41. Grove's *Dictionary*, II, 504.
42. Weinstock, 32; Brockway and Weinstock, 57.
43. *Oxford History of Music*, IV, 80; Weinstock, 38.
44. Mainwaring, John, *Life of Handel*, in Deutsch, Otto, *Handel*, 27.
45. Burney, C., *General History of Music*, II, 662.
46. Weinstock, 60.
47. *Ibid.*, 92.
48. 97.
49. *Oxford History of Music*, IV, 209.
50. Burney, II, 721n.
51. *Ibid.*
52. Weinstock, 115.
53. *Ibid.*, 172.
54. McKinney and Anderson, *Music in History*, 438.
55. Weinstock, 207.
56. Burney, II, 817.
57. Weinstock, 212.
58. Láng, P. H., *Music in Western Civilization*, 522.
59. Brockway and Weinstock, *Men of Music*, 76.
60. *Oxford History of Music*, IV, 84; Weinstock, 225; Brockway and Weinstock, 76.
61. Weinstock, 232.
62. *Ibid.*, 239.
63. 241.
64. Rolland, R., *Musical Tour through the Land of the Past*, 58.
65. *Oxford History of Music*, IV, 198.
66. Weinstock, 77.
67. Brockway and Weinstock, 81.
68. Rolland, 49.
69. Davison, A., *Bach and Handel*, 46.
70. *Ibid.*, 44.
71. Rolland, 67.
72. Weinstock, 303.
73. *Ibid.*, 305.
74. Davison, A., 41.
75. *Oxford History of Music*, IV, 85-89, 93
76. Burney, II, 1023.

77. Letter to Thieriot in Strachey, *Books and Characters*, 122.
78. E.g., *Works*, XXIa, 211.
79. *Works*, XIXb, 91.
80. Goldsmith, O., *Life of Voltaire*, in *Miscellaneous Works*, 504.
81. Letter of July 19, 1776, in Desnoires-terres, VIII, 108; article "Dramatic Art" quoted in Holzknacht, *Backgrounds of Shakespeare*, 387.
82. Collins, J. C., *Bolingbroke, and Voltaire in England*, 201, Brandes, *Voltaire*, I, 173.
83. Johnson, *Lives of the Poets*, II, 7.
84. *Works*, XIXb, 209.
85. In Buckle, I, 528.
86. *Philosophical Dictionary*, article "Government."
87. Gay, *Voltaire's Politics*, 44.
88. Parton, II, 523.
89. Voltaire, *Correspondance*, ed. Besterman, II, 31.
90. Johnson, *Lives*, II, 176; Collins, J. C., 210.
91. Collins, 230.
92. Brunetière, *Manual of the History of French Literature*, 319.

قصة الحضارة

ول وَايرئيل ديورانت

عصر قولتير

مراجعة
عاصم أدهم

ترجمة
محمد علي أبو درة

الجزء الثاني من المجلد التاسع

٣٦



تونس



بيروت

فهرس الجزء الثانى من المجلد التاسع

عصر فولتير - (٣٦)

الكتاب الثانى

فرنسا - ١٧٢٣ - ١٧٥٦

الفصل السابع

الشعب والدولة

صفحة

٦	١ - النبلاء
١٠	٢ - رجال الدين
١٨	٣ - الطبقة الثالثة
١٨	١ - الفلاحون
٢١	٢ - الطبقة الكادحة (البروليتاريا)
٢٦	٣ - البرجوازية
٣١	٤ - الحكومة
٤١	٥ - لويس الخامس عشر
٥٢	٦ - مدام دى بمبادور

الفصل الثامن

الأخلاق والعادات

٦٢	١ - التعليم
٦٤	٢ - الأخلاق
٧١	٣ - العادات
٧٦	٤ - الموسيقى
٨١	٥ - الصالونات

الفصل التاسع

عبادة الجمال

٨٩	١ - انتصار الروكوكو
٩٦	٢ - فى العمارة

صفحة	
٩٨	٣٠ - النحت
١٠١	٤ - الرسم
١٠٣	١ - في حجرة الانتظار
١٠٥	٢ - بوشيه
١١١	٣ - شاردان
١١٦	٤ - لانور

الفصل العاشر

نشاط الذهنى

١٢٢	١ - صناعة الكلام
١٢٦	٢ - المسرح
١٣٣	٣ - القصة الفرنسية
١٤١	٤ - حكماء أقل شأنًا
١٤٨	٥ - مونتسكيو
١٤٨	١ - الرسائل الفارسية
١٥٤	٢ - لماذا سقطت رومه
١٥٨	٣ - روح القوانين
١٧٠	٤ - النتيجة

الفصل الحادى عشر

فولتير فى فرنسا ١٧٢٩ - ١٧٥٠

١٧٧	٢ - فى باريس ١٧٢٩ - ١٧٣٤
١٨٤	٢ - رسائل عن الانجليز
١٩٢	٣ - أنشودة الحب فى سيرى ١٧٣٤ - ١٧٤٤
٢٠٨	٤ - رجل البلاط : ١٧٤٥ - ١٧٥٨
٢١٧	٥ - موت الحبيبة
٢٢٠	٦ - مدام دنيسى

الكتاب الثاني

(من المجلد التاسع)

فرنسا

١٧٥٦ - ١٧٢٣

الفصل التاسع

الشعب والدولة

كان عدد سكان فرنسا التي عاد إليها فولتير ١٧٢٧ . نحو تسعة عشر مليوناً من الأنفس ، مقسمة إلى ثلاث طبقات : رجال الدين والنبلاء ، ثم الطبقة الثالثة التي تضم بقية الشعب . وإذا أردنا أن نفهم الثورة الفرنسية فلا بد لنا من أن ندرس كل طبقة منها دراسة دقيقة .

١ - النبلاء

أطلق السادة الإقطاعيون الإقليميون الذين استملوا ألقابهم من الأرض إلى امتلاكوها (وهي ربع أرض فرنسا تقريباً) على أنفسهم اسم « نبلاء السيف » . وكانت مهمتهم الرئيسية أن ينظموا ويتولوا قيادة الدفاع عن سيادتهم وعن إقليمهم وعن وطنهم وعن ملكهم . وفي النصف الأول من القرن الثامن عشر ترأس هؤلاء النبلاء نحو ثمانين ألف أسرة تضم نحو أربعمئة ألف من الأنفس ^(١) . وكانوا شيعاً أو طبقات متحاسدة ، أعلاها طبقة ذرية الملك الذي يتربع في دست الحكم وأولاد اخوته وأخواته . ويلى هؤلاء في منزلة أدنى : طبقة أشراف فرنسا : وتضم الأمراء من أبناء الملوك السابقين . ثم سبعة أساقفة وخمسين دوقاً . ويأتي بعد ذلك الأدواق الأقل شأناً ، ثم الحاصلون على لقب مركيز ، ثم لقب كونت ، ثم لقب فيكونت ، ولقب بارون وشيفالييه (نبيل من الدرجة الدنيا) . وكانت ثمة امتيازات رسميه تميز هذه السلسلة من المراتب بعضها عن بعض . ومن هنا كان نزاع حاد فاجع حول حق السير تحت المظلة في مواكب عيد القربان أو حق الجلوس في حضرة الملك .

ومن بين نبلاء السيف هؤلاء ، تعقبت أقلية منهم أصول ألقابها وممتلكاتها عبر عدة أجيال ، واختصت نفسها باسم « النبلاء ذوى المجدد الكريم »

ونظروا فيها بعين الازدراء إلى النبلاء الذين حصلوا على لقب النبالة عن طريق أسلاف حديثي العهد ، أو حصلوا عليه هم أنفسهم في عهد لويس الثالث عشر أو لويس الرابع عشر . كما أن بعض هذه الألقاب كانت تمنح لقاء خدمات للدولة في الحرب أو في الإدارة أو في التمويل ، كما أن بعضها كان يبيعه الملك المعظم المعوز الراحل ، مقابل ستة آلاف جنيه ، وبهذه الطريقة ، كما قال فولتير ، « حصل عدد كبير من المواطنين - رجال المصارف والجراحون والتجار والكتبة وخدم الأمراء - على براءة النبالة^(٢) ، وثمة مناصب حكومية معينة ، مثل منصب المستشار أو كبير القضاة ، كانت تضمنى على شاغلها لقب النبالة تلقائياً . وفي عهد لويس الخامس عشر كان في مقدور أى رجل عادى أن يحصل على النبالة بشراء حق تعيينه وزيراً مقابل مائة وعشرين ألف جنيه . وفي عهد لويس السادس عشر ربما كان هناك نحو تسعمائة وزير وهمى أو صورى من هذا الطراز . كما أنه كان في الإمكان شراء اللقب بشراء ضيقة أحد النبلاء . ويحتمل أنه في ١٧٨٩ ، كان نحو ٥٩ / ، من مجموع النبلاء ينحدرون في الأصل من الطبقة الوسطى^(٣) .

ووصلت غالبية هؤلاء إلى درجة كبيرة من الأهمية ورفعة الشأن عن طريق دراسة القانون ، ومن ثم حصلوا على مناصب القضاء والإدارة . ومن بينهم كان أعضاء البرلمانات الثلاثة عشر التي كانت بمثابة دور قضاء في كبريات المدن في فرنسا ، ولما كان يجوز للقاضي أو الحاكم ترك منصبه لابنه ، فقد تشكلت أرستقراطية وراثية - هم نبلاء الرداء (الروب) . وكان الرداء بالنسبة لرجل القضاء ، كما هو بالنسبة لرجل الدين ، يمثل نصف السلطة أو السيادة . وكان أعضاء البرلمانات وهم يرفلون في أروبيتهم للقرمزية ، وعباءاتهم الثقيلة والأكمام ذات الأهداب والشعور المستعارة المضمخة والقبعات ذات الريش ، يجيئون في مرتبة أدنى من الأساقفة ونبلاء الأرض . ولكن حيث أن بعض الحكام والقضاة أصبحوا ، عن طريق الرسوم القانونية التي كانوا يقاضونها ، أكثر ثراء من معظم ملاك الأرض

ذوى لحسب والنسب ، فقد تحطمت الحواجز بين نبلاء السلاح ونبلاء الرداء وما وافى عام ١٧٨٩ حتى كان ثمة اندماج كامل تقريبا بين الطبقتين . وبلغت الطبقة التي تكونت عندئذ من وفرة العدد والقوة مبلغا لم يستطع الملك معه أن يقف في وجهها أو يقاومها ، وزعماء الثورة وخدمهم هم الذين اسنطاعوا أن يقضوا على هذه الامتيازات الباهظة التكاليف .

وانتاب الفقر كثيراً من النبلاء القدامى بسبب الاهمال في إدارة ممتلكاتهم أو تغييبهم عنها ، أو بسبب اتباعهم أساليب متخلفة في زراعتها ، أو لإنهاك التربة ، أو خفض قيمة العملة التي كانوا يتقاضون بها إيجار الأرض أو الرسوم الإقطاعية . ولما كان المفروض ألا يشتغل النبلاء بالتجارة أو الصناعة ، فإن نمو هذه وتلك خلق اقتصاداً قائماً على المال ، قد يمتلك المرء في ظلّه أرضاً شاسعة ولكنه يظل فقيراً . وكان هناك في بعض أقاليم فرنسا مئات من النبلاء يعانون من الفقر مثلما يعاني الفلاحون^(٤) . ولكن أقلية كبيرة من النبلاء تمتعت بثروات ضخمة وبنزوات تليذيراً . فكان الدخل السنوي لمركز دى فييت ١٥٠ ألف جنيه ، ولدوق دى شفريرز ٤٠٠ ألف جنيه ، ولدوق دى بويون ٥٠٠ ألف جنيه . وأعنى معظم النبلاء من الضرائب المباشرة ، إلا في حالة الطوارئ ، حتى تصبح الحياة لديهم أكثر احتمالاً ويسراً . وخشى الملوك أن يفرضوا عليهم الضريبة حتى لا يطالبوا بدعوة مجلس الطبقات ، فقد تفرض الطبقات الثلاث في مثل هذا الاجتماع بعض الرقابة على الملك ثمناً للموافقة على الاعتمادات أو الإعانات . قال توكفيل « كان عدم المساواة في الضرائب يعمل على التفرقة بين الطبقات في كل عام حيث أعنى الأغنياء وأنقل كاهل الفقراء^(٥) » . وفي عام ١٧٤٩ فرضت على النبلاء ضريبة دخل قدرها ٥٪ ولكنهم كانوا يفاخرون بالتهرب منها .

وقبل القرن السابع عشر كان نبلاء الأرض يقومون بمهام الاقتصاد والإدارة والحرب ، وأيا كانت طريقة إحراز الممتلكات . فإن هؤلاء السادة نظموا تقسيم الأرض وفلاحتها ، إما عن طريق الرقيق أو عن طريق عقود الإيجار ، وسهروا على القانون ، وقاموا بإجراءات المحاكمة وأصدروا

الأحكام ، و نفذوا العقوبات ، و تعهدوا المدارس و المستشفيات المحلية ، و وزعوا الصدقات . و في مئاة من مناطق السيادة و النفوذ مارس السيد الإقطاعي هذه الوظائف و المهام ، بالقدر الذي سمحت به الأثنية الطبيعية في الإنسان . و قد اعترف الفلاحون بانتفاعهم منه ، و من ثم فلإنهم أطاعوه و احترموه و في بعض الأحيان أحبوه .

و أدى عاملان أساسيان إلى تبديل هذه العلاقة الإقطاعية : تعيين الحكام أو المحافظين على عهد الكاردينال ريشيليو و ما بعده ، و تحويل لويس الرابع عشر لكبار السادة الإقطاعيين إلى رجال حاشية . و كان هؤلاء المحافظون موظفين بـ بروقراطيين من الطبقة الوسطى ، يبعث بهم الملك ليحكموا الأقسام الاثنين و الثلاثين التي انقسمت إليها فرنسا من الناحية الإدارية . و كانوا عادة ذوي كفاية و مقدررة و نيات حسنة ، و لو لم يكونوا جميعاً من أمثال ترجو . و قاموا بتحسين الأحوال الصحية و الإضاءة و تزيين المدن ، و أعادوا تنظيم الشئون المالية ، و بنوا السدود و الخزانات على الأنهار من أجل الري ، أو أقاموا الحواجز اتقاء لخطر الفيضانات ، و زودوا فرنسا في هذا القرن بشبكة هائلة من الطرق لم يكن لها مثيل في سائر أنحاء العالم . و شرعوا في أن يفرسوا على جوانبها الأشجار التي تظللها اليوم و تزيئها (٦) . و سرعان ما زحزح تفوقهم في الدأب على العمل و المقدررة و الكفاية السادة الإقطاعيين المحليين عن حكم الأقاليم ، و رغبة في التعجيل بهذه الزحزحة التي تركز الحكم في أيدي هؤلاء المحافظين ، عمد لويس الرابع عشر إلى دعوة السادة الإقطاعيين للانتظام في بلاطه الملكي ، و هناك عينهم في وظائف بسيطة ذات ألقاب رفيعة و أو شحة مخدرة . و فقدوا الاتصال بالشئون المحلية على حين ظلوا يحصلون من مزارعهم على الموارد اللازمة للاتفاق على قصورهم و بطانئهم في باريس أو فرساي : و تشبثوا بمقوقهم الإقطاعية بعد أن تخلوا عن واجباتهم الإقطاعية . إن ضياع المهام الإدارية التي كانوا يقومون بها في مجال الاقتصاد و الحكومة جعلهم عرضة للاتهام بأنهم كانوا طفيليات غير ضرورية عالية على فرنسا .

٢ - رجال الدين

كانت الكنيسة الكاثوليكية قوة أساسية ذات وجود بارز في كل ركن في لحكومة . وقد رجال الدين الكاثوليك في فرنسا بنحو ٢٦٠ ألفا في ١٦٦٧^(٧) ، و ٤٢٠ ألفا في ١٧١٥^(٨) . و ١٩٤ ألفا في ١٧٦٢^(٩) . وهذه الأرقام كلها من قبيل التخمين ، ولكن قد نفترض انخفاض هذا العدد بنسبة ٣٠٪ في القرن الثامن عشر ، على الرغم من تزايد عدد السكان ، وحسب لاكروا أن فرنسا كان فيها عام ١٧٦٣ ، ١٨ رئيس أساقفة ، ١٠٩ أساقفة ، و ٤٠ ألف قسيس ، و ٥٠ ألف مساعد قسيس ، و ٢٧ ألف رئيس دير ، و ١٢ ألف كاهن ، و ٢٠ ألف كاتب (من رجال الدين) ، ومائة ألف راهب وراهبة وعضو أخوية دينية^(١٠) ، ومن بين ٧٤٠ ديراً كان هناك ٦٢٥ ديراً يتولى شئونها مساعدو رؤساء أديار ، لمصلحة رؤساء أديار متغيين عنها وكانوا يتمتعون باللقب وينصف أو ثلثي دخل الدير ، دون أن يكون مطلوباً منهم أن يحيوا حياة كنسية .

وكان رجال الدين الأعلى مرتبة يشكلون من الوجهة العملية فرعاً من النبلاء ، وكان الملك يعين كل الأساقفة ، عادة ، بناء على ترشيح السادة الإقطاعيين المحليين ، على شرط موافقة البابا . ورغبة من الأسرات ذوات الألقاب في عدم تفتيت ممتلكاتهم بالتوريث ، كفلت لصغار أبنائها المناصب الأسقفية ومناصب رؤساء الأديار ، حتى أنه في ١٧٨٩ لم يكن من بين المائة والثلاثين أسقفاً في فرنسا إلا واحداً فقط من الأفراد العاديين غير ذوى الألقاب^(١١) . وأدخل أبناء الأسرات العريقة هؤلاء معهم إلى الكنيسة عاداتهم التي درجوا عليها في التمتع بترف الدنيا وزخرفها . ومن ذلك أن الإمبر الكاردينال إدوارد دي روهان كان في القدامس يرتدى ثوباً كهنوتياً له حواش من المخمرات المعقودة ، قدرت قيمته بمائة ألف جنيه ، وكانت أدوات مطبخه من الفضة الخالصة^(١٢) . وفسر رئيس الأساقفة ديلون دي ناربون للويس السادس عشر ، السبب في أنه أى رئيس الأساقفة ، استمر

« تمارسة الصيد بعد أن حرمه على رجال الدين في أسقفيته ، بقوله « مولاي إن رذائل رجالى من عند أنفسهم ، ولكنى ورثت رذائلى أنا عن أسلافى »^(١٣) لقد انقضى العصر الزاهر لرجال الكنيسة - من أمثال بوسويه وفينلون وبوردلو - وأفسح المرح الابيقورى الصاحب فى عهد الوصاية المجال أمام رجال مثل ديبواوتنسان للترقى فى مناصب الكنيسة على الرغم من انقاسهم فى ملذات الصيد بنوعيه ، اقتناص الحيوان واصطياد النساء . وقضى كثير من الأساقفة معظم حياتهم فى فرساي أو باريس ، مشاركين البلاط الملكى بهجته ومسرانه ومبازله ، فاحتفظوا بقدم فى الآخرة وقدم الدنيا ، ولم ينسوا نصيبهم من متاعها .

وكان للأساقفة ورؤساء الأديار حقوق السادة الإقطاعيين وواجباتهم ، حتى إلى حد تقديم نور لخدمة أبقار فلاحهم^(١٤) . وكانت ممتلكاتهم الشاسعة ، التى كانت تضم أحياناً مدن بأسرها ، تدار كما تدار الممتلكات الإقطاعية . وكان جزء كبير من مدينة فرن ومعظم الأرض المحيطة بها ملكا للأديار^(١٥) ، وفى بعض الكوميونات (وحدات التقسيم الإدارى) ، عين الأسقف كل القضاة والموظفين ، وهكذا عين رئيس أساقفة كبراي الذى كان السيد الأعلى على منطقة تضم ٧٥ ألفاً من السكان كل رجال الإدارة فى كاتوكبرسيس ، ونصفهم فى كبراي^(١٦) . وعمر نظام الرقيق لأطول فترة فى ضياع الأديار^(١٧) وكان للكهنة فى سان كلود فى جبال جورا اثنا عشر ألفاً من الرقيق ، وقاوموا بشدة الانتقاص من الخدمات الإقطاعية^(١٨) . وارتبطت حصانات الكنيسة وامتيازاتها بالنظام الاجتماعى القائم ، كما جعلت هيئة الكنيسة أقوى تأثير محافظ على القديم يناهض أى تغيير فى فرنسا .

وجمعت الكنيسة سنويا ، مع شىء من الاعتدال ومراعاة الظروف ، العشور عن نتاج كل مالك أرض وماشية ، ولكن هذا نادراً ما كان العشر فى الواقع ، بل كان فى الكثير الغالب جزءاً من اثنى عشر ، وأحياناً جزءاً من عشرين^(١٩) . وبهذه العشور ، بالإضافة إلى الهبات والوصية والتوريث ، وبدخل العقارات الثابتة ، احتفظت الكنيسة بكهنة أبرشياتها فقراء معوزين

على حين هاش الأساقفة مترفين منعبين . وأغاثت الكنيسة المحتاجين المعلمين وعلمت الصغار ولقنتهم مبادئها . وفي المقام التالي بعد الملك وجيشه ، كانت الكنيسة أقوى وأغنى سلطة في فرنسا . وكانت تمتلك ، طبقاً لمختلف التقديرات ، ما بين ٦ ٪ و ٢٠ ٪ من الأرض (٢٠) ، وثالث الثروة (٢١) . وكان دخل أسقف سنس السنوي ٧٠ ألف جنيه ، وأسقف بوفيه ٩٠ ألفاً ، ورئيس أساقفة روان ١٠٠ ألف ، ورئيس أساقفة ناريون ١٩٠ ألفاً ، ورئيس أساقفة باريس ٢٠٠ ألف . أما رئيس أساقفة ستراسبورج فقد أربى دخله السنوي على المليون من الجنيهات (٢٢) . وكان رأس مال كنيسة برعمونترية بالقرب من لاؤون ٤٥ مليوناً من الجنيهات . أما الإخوة الدومنيكان البالغ عددهم ٢٣٦ في تولوز فقد بلغت مقتنياتهم من الأملاك الفرنسية والمزارع في المستعمرات ومن الرقيق الأسود ما قدرت قيمته بعدة ملايين من الجنيهات أما رهبان سانت مور فقد بلغت قيمة ممتلكاتهم ٢٤ مليوناً من الجنيهات تدر ثمانية ملايين في العام .

ولم تدفع الكنيسة أية ضرائب عن شيء من ممتلكاتها أو دخلها ، ولكن كبار رجال الدين كانوا يقررون بصفة دورية في المجامع الوطنية لإعانة اختيارية للدولة . وفي ١٧٧٣ بلغت هذه الإعانة ستة عشر مليوناً من الجنيهات لمدة خمس سنوات . وقد اعتبرها فولتير نسبة عادلة من دخل الكنيسة (٢٣) . وفي ١٧٤٩ اقترح ماشول دي ارنوفيل المراقب العام المالي أن يستبدل بهذه المنحة الاختيارية ضريبة مباشرة سنوية قدرها ٥ ٪ من مجموع الدخل تفرض على الكنيسة وعلى عامة الناس وخشى رجال الدين أن تكون هذه خطوة أولى نحو سلب أموال الكنيسة بغية انقاذ الدولة ، فقاوموا الفكرة في « غضب شديد واصرار (٢٤) » . كذلك اقترح ماشول تحريم التوريث بالوصية للكنيسة دون موافقة الدولة ، وإلغاء المؤسسات الدينية التي قامت منذ ١٦٣٦ دون ترخيص من الملك ، ومطالبة شاغلي الرتب الكنسية ذوات الدخل بتقديم تقرير عن عن مواردهم إلى الحكومة . وأبت جمعية انعقدت من رجال الدين الامتثال لهذه القرارات ، وقالوا : « لن نوافق إطلاقاً على أن يصبح ما كان حتى الآن ثمرة حبتنا وإجلالنا ضريبة على طاعتنا » ، وأمر لويس الخامس عشر

بفض الاجتماع ، كما أصدر المجلس الملكي أوامره إلى المحافظين بجمع ضريبة أولية مقدارها سبعة ملايين ونصف مليون جنيه على أملاك الكنيسة .

وحاول فولتير تشجيع ماشول والملك فأصدر كتيباً عنوانه « صوت الحكمة وصوت الشعب » حرض فيه الحكومة على أن تفرض سيطرتها على الكنيسة ، وأن تحول دون أن تكون الكنيسة دولة داخل الدولة ، وأن تعهد إلى فلاسفة فرنسا بالدفاع عن الملك والوزارة ضد كل قوى الخرافة (٢٥) . ولكن لويس الخامس عشر لم ير سبباً يدعو إلى الاعتقاد بأن الفلسفة في مقدورها أن تكسب الجولة في الحرب مع الدين . وأدرك أن نصف سيادته وسلطانه يتركز على مسحة بالزيت المقدس وتوجيه بأيدي رجال الكنيسة ، ليصبح بعد ذلك - في نظر الجماهير التي ليس في مقدورها أن تدنو منه إلى حد تستطيع معه إحصاء عدد محظياته - نائب الله الذي يتحدث بمقتضى التفويض الإلهي . ان الإرهاب الروحي الذي يبثه رجال الدين في النفوس وتعززه قوى التقاليد والعادات والاحتفالات الدينية والملابس الكهنوتية والهيبة ، نقول إن هذا الإرهاب قام مقام ألف من القوانين ومائة ألف من رجال الشرطة في المحافظة على النظام الاجتماعي ، والابقاء على طاعة الجماهير وامتثالها للحكومة والملك . وهل في مقدور أية حكومة ، دون دعم من الرجاء والخوف الحارقين للطبيعة ، أن تسيطر على ما فطر عليه الناس من نزعة التمرد على القانون أو عدم الخضوع له ؟ وعقد الملك عزمه على الاستسلام للأساقفة ، ونقل ماشول إلى منصب آخر ، وصادر كتاب فولتير ، ووافق على منحة اختيارية بدلا من الضريبة على أملاك الكنيسة .

إن قوة الكنيسة كانت تعتمد أساساً على نجاح كاهن الأبرشية ، وإذا كان الناس يخشون رجال الدين الذين يضعون التيجان على رؤوسهم (الأساقفة مثلاً) ، فإنهم أحبوا الراعي المحلي الذي شاركهم فقرهم وعوزهم ، وأحياناً كلدحهم وكدهم في فلاح الأرض . أنهم تدمروا من جمع العشور ، ولكنهم كانوا على يقين من أن رؤساء الراعي هم الذين أرغموه على جمعها ،

وأن ثلثي هذه العصور ذهب إلى الأسقف أو إلى أحد ذوى المناصب الكنسية الغائبين عنها ، على أن كنيسة الأبرشية . ضناها ما كانت تعانى من خلل وحاجة إلى ترميم ، مما تثن منه التقوى نفسها . إن هذه الكنيسة الحبيبة كانت دار بلديتهم ، يعقدون فيها اجتماعاتهم القروية تحت رئاسة الكاهن . وفى سجل الأبرشية ، وهو شاهد بقائهم صابرين متجلدين عبر الأجيال ، كانت تدون مواليدهم وزيجاتهم ووفياتهم . وكان صوت أجراس هذه الكنيسة أنبل موسيقى ترن فى آذانهم ، والاحتفالات هى المسرحية التى تشد انتباههم وتبعث فيهم النشاط ، وقصص القديسين ذخائر الأدب عندهم ، كانت أعياد تقويم الكنيسة هى العطلات الحبية إلى نفوسهم . ولم ينظر الناس إلى عظات راعى الأبرشية ونصائحه وتحذيراته أو إلى تعليمه وتربيته لأبنائهم ، على أنها تلقين مبادئ أسطورية لتدعيم لسلطان الكنيسة ، بل نظروا إليها على أنها عون لا غنى عنه للنظام الأبوى والانضباط الخلقي ، وعلى أنه إيحاء بنظام إلهي يتجلى فيه معنى الخلود الذى خفف من أسلوب حياتهم الممل الجاف فى هذه الدنيا . فكانت العقيدة ثمينة أثيرة لديهم إلى حد الاستثارة إلى الفتك بمن يحاول انتزاعها منهم . ورحب الولدان النلاحان بالدين جزءا من الواجبات اليومية فى البيت ، ونقلوا إلى أولادها الأساطير الدينية ، وواظب الجميع على صلوات المساء والولدان على رأسهم . وكان راعى الأبرشية يحب الناس كما أحوه ، فانضم إليهم فى الثورة .

وتناقص عدد الرهبان والراهب واخرة الطوائف الدينية ، ولكن نمت فيهم روح الفضيلة^(٢٦) كما نمت ثروتهم . ونادرا ما كانوا الآن يتسولون أو يعيشرن على الصدقات لأنهم وجدوا من الحكمة ومن الخير لهم أن ينتزعوا الوصية بالتوريث من الذين يدنو أجلهم ثمناً بدلا من أن يستجدوا بعض البنسات فى القرية ، وفاضت بعض ثروتهم على أعمال البر والاحسان ، فأنفق كثير من الأديار على المستشفيات والملاجىء ، ووزعت الطعام على الفقراء يومياً^(٢٧) . وفى ١٧٨٩ ألحت جماعات كثيرة على حكومة الثورة ألا تقضى على الأديار المحلية لأنها كانت المنظمات البارة المحسنة الوحيدة فى

نطاق أراضيها . (٢٨) وأدت أديار الراهبات مهام كثيرة تؤدي الآن بطرق أخرى ، فكانت توفر مأوى للأرامل ، وللنساء اللاتي أفرقن عن أزواجهن ، وللسيدات المراهقات مثل مدام دي ديفان التي رغبت في أن تتأى بنفسها عن صخب الدنيا . ولم تنكر الأديار متاع الحياة الدنيا وزينتها إنكاراً تاماً . فقد استخدمها الأثرياء مأوى لما زاد عن الحد من بناتهم ، وإلا فإن زواجهن إذا لم يلجأن إلى الأديار يتطلب مهوراً تنقص من ميراث الأبناء ، ولم يكن هؤلاء العذارى المنبوذات ميالات دائماً إلى التقشف . وكان للأمم أوريني (رئيسة دير للراهبات) عربية تجرها أربعة جياد ، وكانت تستقبل في جناحها الفاخر أفراداً من الجنسين . وكانت الراهبات في ألكس يرتدين الثنورات ذوات الأطواق الموسعة والأردية الحريرية المبطنة بالفرو ، وكان في أديار أخرى يتناولن العشاء ويرقصن مع ضباط من المعسكرات المجاورة (٢٩) وواضح أن هذه كانت ضرورياً من التسلية البريئة غير الآثمة ، فإن كثيراً من الأفاضل التي رويت عن الفساد الخلقي في الأديار في القرن الثامن عشر كانت مبالغتة إشنيعة مثيرة استخدمت في حرب الدعاية بين المذاهب المتنازعة ، وكانت الحالات التي لزم فيها البنات الدير على غير إرادتهن نادرة (٣٠) .

وكان اليسوعيون قد ضعف سلطانهم ومكانتهم . إنهم ظلوا حتى ١٧٩٢ يسيطرون على التعليم ، وكانوا يزودون الملك والملكة بكهنة اعتراف ذوي تأثير قوى ، ولكنهم عانوا من فصاحة بسكال ، ومن تشكك أوصياء العرش غير الأتقياء، وكانوا يخسرون معركتهم الطويلة المريرة مع الجانسينيين فإن هؤلاء الكاثوليك المتعصبين لعقيدتهم عمروا بعد الاضطهادات الملكية والمراسيم البابوية ، وكان عددهم كبير في مجال الأعمال والمهن والاشتغال بالقانون ، وكانوا يقتربون من الهيمنة على برلمان باريس وغيره من البرلمانات . وبعد موت زعيمهم اللاهوتي المتكشف فرانسوا دي باريس (١٧٢٧) حجج الجانسينيون المتحمسون المغشى عليهم إلى جدته في مقبرة سان ميدارد ، وهناك جلدوا أنفسهم بالسياط ، حتى أصاب بعضهم نوبات من

التشنج ، ومن سموا « بالمتشجنين » وتوجعوا وبكوا وابتهلوا إلى الله أن يمن عليهم بالشفاء ، وادعى كثير منهم أنهم برثوا بمعجزة . وبعد ثلاثة أعوام من هذه الأحداث أغلقت السلطات هذه المقابر ، وكما قال فولتير : حرم على الله بأمر من الملك أن يأق بمعجزات هناك ، وانقطعت التشنجات ، ولكن الباريسيين السريعى التأثير مالوا إلى تصديق المعجزات ، وفي ١٧٣٣ ذكر أحد الصحفيين في مبالغة ظاهرة أن مدينة باريس الطيبة جانسية قلبا وقالبا (٣١) . وتحديداً للمرسوم الملكي الصادر في ١٧٢٠ رفض صغار رجال الدين الامثال للأمر البابوي الصادر في ١٧١٣ الذى استنكر فيه البابا انوسنت الثالث عشر مائة مسألة ومسألة زعموا أن الجانسينيين آثروها . وقضى رئيس أساقفة باريس بأن السر المقدس الأخير لا يجوز أن يقدم لأى فرد لم يكن قد اعترف لتقسيس كان قد ارتضى الأمر البابوي . واسهم هذا النزاع فى إضعاف مركز الكنيسة المنقسمة أمام هجمات الفلاسفة .

وكان الهيجونوت وغيرهم من البروتستانت الفرنسيين لايزالون يعتبرون خارجين على القانون ، ولكن مجموعات صغيرة منهم كانت تجتمع سرا . واعتبر القانون أن زوجة البروتستانتى عاهرة وأن أبناءها غير شرعيين ، ليس لهم أن يرثوا أية أملاك . وفى عهد لويس الخامس عشر شنت عدة حملات للاضطهاد والتعذيب . وفى ١٧١٧ قبض على أربعة وسبعين فرنسيا يقيمون الشعائر البروتستانتية ، وأرسلوا للتجديف فى القواديس أو المراكب الشراعية وزج بزوجاتهم فى السجن ، وقضى مرسوم صدر فى ١٧٢٤ بعقوبة الإعدام على الوعاظ البروتستانت ، وبمصادرة أملاك كل من يشهد اجتماعات البروتستانت ، مع إرسال الرجال للتجديف فى السفن الشراعية . وحلق شعور النساء واعتقلهن مدى الحياة (٣٢) وفى عهد الكاردينال فليرى حدث شىء من التراخى فى تنفيذ هذا المرسوم . واكن بعث من جديد بعد موته ، بناء على طلب الأساقفة الكاثوليك فى جنوب فرنسا (٣٣) . وفى ١٧٤٩ أمر برلمان بورديو بالتفريق بين ٤٦ زوجا وزوجة ، تم زوجهم وفق الطقوس البروتستانتية .

وكان من الجائز انزاع الأطفال الذين يشتبه في أن آباهم من البروتستانت ؛ لتريتهم وتشتهم في بيوت كاثوليكية . ولإناسم عن رجل ثرى من الهيجونوت أنفق ٢٠٠ ألف جنيه رشوة للموظفين الرسمين حتى يسمحوا له بالاحتفاظ بأبنائه . (٣٤) وفيما بين عامى ١٧٤٤ و ١٧٥٣ سجن نحو ٦٠٠ بروتستانتى ، وحكم على ٨٠٠ آخرين بعقوبات مختلفة (٣٥) . وفي ١٧٥٢ شتق في مونبلييه الواعظ البروتستانتى بيتز - البالغ من العمر ستة وعشرين عاما . وفي نفس العام ، أمر لويس الخامس عشر ، تحت تأثير مدام دى بمبادور ، بوضع حد لهذه الاضطهادات . (٣٦) وبعد ذلك استطاع البروتستانت في باريس أو قريبا منها ، أن يتفادوا العقوبات ، على شرط حضور الصلوات الكاثوليكية مرة في العام . (٣٧) .

وعلى الرغم من تعصب زعماء الكنيسة وانشغالهم بأمر الدنيا ورغبتهم في السلطة والثروة ، فقد كان بين رجال الدين الفرنسيين مئآت ممن أمتازوا بالعلم الغزير والحياة النقية النقية . وبالإضافة إلى أولئك الأساقفة الذين بددوا في باريس العشور التى جمعوها من الفلاحين ، كان هناك أساقفة آخرون اتسموا بالطهر والتقوى قدر ما سمحت به المهام الادارية . فكان الكاردينال لويس أنطوان دى نواى رئيس أساقفة باريس رجلا ذكيا نبلا . وكان الناس يحبون جان بابتست ماسيون أسقف كلرمونت على الرغم من عظاته الزاخرة بألوان العلم والمعرفة ، التى كان فولتير يحب أن يستمع إليها وقت تناول الطعام ، لجمال أسلوبها على الأقل . أما جبرائيل دى كايوس أسقف أوكسير فقد وهب كل ثروته للفقراء ، وباع طبقه الفضى ليطعم الجياع ؛ ثم اعتذر لمن التمسوا رفته بعد ذلك بقوله « يا أبنائى ، لم يبق لدى شيء أعطيكم إياه » (٣٨) . ولم يبرح الأسقف فونسواى بلزونس مكانه وسط الطاعون الرهيب الذى اجتاح مرسيليا ١٧٢٠ ، حين هلك ثلث سكان المدينة ، وفر منها معظم الأطباء ورجال الحكم والقضاء . وفي هذا كتب ليمرنتى : « انظروا إلى بلزونس : وأنه أنفق كل ما يملك . لقد هلك كل الذين كانوا في خدمته بسبب العدوى ، فسار على قدميه فقيرا بائسا في الصباح إلى مواطن (م - ٢ قصة الحضارة)

العماسة والشقاء ؛ كما كان يرى مساء وسط الأماكن التي اكتظ بها ولوؤها أولئك الذين يعانون سكرات الموت ، ليظفئ ظمأهم ، ويواسيهم وكأنه صديق لهم ... وفي ساحة الموت هذه يأخذ بيد الأنفس التي لا معين لها . إن هذا المثل للذي ضربه هذا الأسقف الذي يبدو أنه محصن ضد أى أذى كان كفيلا بأن يدفع كهنة الأبرشيات والقساوسة والطوائف الدينية إلى محركاته في شجاعته وبسالته ، فلا يتخلى أحد عن موقعه ، ولا يبالي أحد بما يلقي من عناء وتعب ولو ضحى بحياته . وهكذا أودى الوباء ستة وعشرين راهبا ، وبثمانية عشر من بين ستة وعشرين يسوعيا . واستدعى الكيوشيون أخوتهم من الأقاليم الأخرى ، فسارع هؤلاء إلى الاستشهاد في خفة المسيحيين الأولين وابتهاجهم بمثل هذا العمل . وقضى الطاعون على ثلاثة وأربعين من بين خمسة وخمسين منهم . أما سلوك الرهبان الأوراتوريين (طائفة كاثولوكية) فكان أروع من هذا . فقد بذلوا غاية جهدهم (٣٩) .

ولندكر ، ونحن نسجل الصراع المرير بين الدين والفلسفة ، ونشارك الفلاسفة مقتهم للرقابة الخائفة والحرافة الشائنة ، أنه كان هناك بين رجال الكنيسة على اختلاف مراتبهم الورع والتقوى كما كان هناك الغنى والثراء ، بقدر سواء . كما كان هناك الاخلاص مع الفقر بين كهنة القرى ، أما الناس فقد تغلغل فيهم حب راسخ يتعذر المساس به أو النيل منه ، لعقيدة هيأت للزهو الهوى شيئا من الانضباط المنقذ من الضلال ، كما هيأت للأيام العصبية الشاقة رؤيا وجد الناس فيها شيئا من السلوى والعزاء .

٣ - الطبقة الثالثة

١ - الفلاحون :

تساءل « الاقتصاد السياسي » الذي وصمه كارليل بأنه « العلم الكئيب » هل الفقراء فقراء ، لأنهم جهلة ، أم أنهم جهلة لأنهم فقراء . ويمكن أن نجيب عن هذا السؤال ، بالموازنة بين الاستقلال البهيج الذي يفاخر به الفلاح الفرنسي اليوم ، وحالته في النصف الأول من القرن الثامن عشر .

وفي ١٧٢٣ كانت حال الفلاح آخذة في التحسن بالمقارنة بالمسعى المنحط الذي هبطت به إليه حروب لويس الرابع عشر وابتزازاته . فإنه خضع للرسوم الاقطاعية ولعشور الكنيسة ، إلى جانب إنه امتلك نسبة متزايدة من أرض فرنسا ، كانت تتراوح بين ٢٠٪ في نورماندى وبريتانى و ٥٠٪ في لنجدوك وليموزين^(٤٠) . ولكن متوسط حصة هؤلاء الملاك الصغار كان ضئيلا - من ثلاثة إلى خمسة أفدنة - إلى حد اضطروا معه إلى الاشتغال بأجر في المزارع الأخرى ليعولوا أسرهم . فإن معظم الأرض كانت ملكا للنبل أو رجال الدين أو الملك ، وكانوا يفلحها مستأجرون أو مزارعون نظير جزء من المحصول ، أو عمال مياومة تحت إشراف قهرمان أو وكيل مسئول . وكان المالك يتقاضى من المستأجر مالا وخدمة وخدمات اما المزارعون فكانوا يعطون المالك نصف المحصول في مقابل الأرض والآلات الزراعة والبذور .

وعلى الرغم من تزايد ملكية الفلاح ظلت هناك بقايا إقطاعية كثيرة ، فإن أقلية ضئيلة من الملاك قد لا تتجاوز ٢ ٪ هي التي وضعت يدها على أراض معفاة من الرسوم الاقطاعية . وكل الفلاحين باستثناء مالكي هذه الأرض المعفاة ، كان مطلوبا منهم أن يعملوا للسيد الإقطاعي الخلى لعدة أيام في السنة تكفي لحرق أرضه وبلدها ، وحصاد محصولها وتخزينه . وكانوا يدفعون له رسوما مقابل صيد السمك في البحيرات أو الجداول المائية ومقابل رعي ماشيتهم في الحقول ، مما يقع في زمام أرضه . (في فرائش كومتيه ، وأوفرن ، وبريتانى ، حتى قيام الثورة كانوا يدفعون له مبلغا من المال مقابل الاذن لهم بالزواج^(٤١) . وكان لزاما عليهم أن يستخدموا طاحونه ومخبزه ومعصرة النبيذ أو الزيت التابعة له ، وليس غيرها . وأن يدفعوا له مالا في كل مرة يستخدمون فيها شيئا من هذه . كما نفذوه مالا عن كل مستوقد أقاموه وكل بئر حفروه وكل جسر عروه في نطاق أرضه (إن بعض أمثال هذه النهائب موجود بيننا الآن في أشكال متغيرة ، وتدفع للدولة) . وكانت القوانين تحرم على السيد ورفاقه الاضرار بمزروعات الفلاح

أو حيواناته عند الصيد ، ولكن هذه القوانين إخفقت إحصافاً شديداً ، وكان محظورا على الفلاح أن يطلق النار على حمام السيد ، وهي تأكل محصوله^(٤٢) وبناء على تقدير يتسم بالتحفظ بلغت الرسوم الإقطاعية جملتها نحو ١٤ ٪ من إنتاج الفلاح أو دخله ، وهناك تقديرات ترفع من هذه النسبة^(٤٣) .

وفي بعض الأماكن بقي الرق بمعناه الحقيقي ، وقدر مؤرخ اقتصادي مشهور أن عدد الرقيق في فرنسا في القرن الثامن عشر لم يجاوز المليون^(٤٤) ، ونقص عددهم ، ولكن في ١٧٨٩ كان لا يزال في فرنسا نحو ٣٠٠ ألف من الأرقاء^(٤٥) ومثل هؤلاء الفلاحين كانوا مرتبطين بالأرض ولم يكونوا يستطيعون قانونا أن يهجروا أرضهم أو يبيعوها أو ينقلوها أو يغيروا محال إقامتهم دون موافقة سيدهم . فإذا ماتوا دون أبناء كانوا يعيشون معهم ، وعلى استعداد للنهوض بشئون المزرعة ، آلت المزرعة بكل معداتها إلى السيد .

وكان على الفلاح ، بعد دفع الرسوم الإقطاعية وعشور الكنيسة ، أن يجد مالا أو يبيع شيئاً من نتاجه أو ممتلكاته ليواجه الضرائب التي تفرضها عليه الدولة . ودفع الفلاح وحده ضريبة الأراضي ، وبالإضافة إلى ذلك دفع ضريبة الملح ، و ٥ ٪ من الدخل ضريبة الرأس عن كل فرد في البيت . وبهذا كان يدفع في الجملة ثلث دخله للمالك والكنيسة والدولة^(٤٦) وكان من سلطة جباة الضرائب أن يدخلوا أو يقتحموا كوخه ، ليفتشوا عن المدخرات المخبأة ، ويستولوا على الأثاث تسديداً لمبلغ الضريبة المفروضة على الأسرة . وكما كان الفلاح ملزماً بالعمل ودفع الرسوم لسيدته ، فإنه بعد ١٧٣٣ كان ملزماً بأن يعمل للدولة بدون أجر من ١٢ إلى ١٥ يوماً في السنة ، في إقامة الجسور وبناء الطرق أو إصلاحها (أعمال السخرة) . وكان يعاقب بالسجن إذا قاوم أو تواني .

ومدّ تصاعدت الضرائب بازدياد الدخل والتحسينات ، فإنه لم يكن ثمة ما يحفز الفلاحين على الابتكار والعمل والمغامرة . وظلت أساليب الزراعة

بداية في فرنسا ، إذا قورنت بالأساليب في إنجلترا المعاصرة . وكانت فرنسا تتبع نظام اراحة الأرض الذي يقضى بترك كل قطعة دون زراعة سنة في كل ثلاث سنين ، على حين أدخلت إنجلترا نظام الدورة الزراعية . وكانت الزراعة المكثفة غير معروفة تقريباً ، والمحاريت الحديدية نادرة الوجود . وكانت الحيوانات قليلة العدد في المزرعة ، كان كان السهاد قليلا . وكان متوسط الأرض المملوكة ضئيلا إلى حد لا يسمح باستخدام الآلات بشكل مجز .

وروع السائحون الإنجليز في ذلك العصر لفقر الفلاح الفرنسي . ففي ١٧١٨ كتبت السيدة ماري مونتاجو : « في كل محطة كنا نقف فيها لتبديل خيول البريد كان أهل البلدة جميعاً يخرجون إلينا يسألوننا إحسانا ، في وجوه أضعناها البؤس والجوع وملابس رثة ممزقة ، وما كانوا بعد ذلك في حاجة إلى دليل أبلغ من ذلك لإقناعنا بتعاسة أحوالهم (٤٧) . ولم يرسم المراقبون الفرنسيون صورة أكثر إشراقاً من هذه إلا في وقت متأخر من هذا القرن . وقال سان سيمون : « في ١٨٢٥ كان الناس في نورماندى يعيشون على حشائش الحقول . ان أول ملك في أوروبا عظيم لمجرد كونه ملك الشحاذين . وتحويله مملكته إلى مستشفى فسيح الأرجاء يقيم فيه أناس يعانون سكرات الموت . انتزع منهم كل شيء دون أن يدوا شيئاً من التذمر (٤٨) » . وفي ١٧٤٠ حسب المركيز رينيه لويس دي أرجنسون ، أن عدد الفرنسيين الذين ماتوا بسبب الفقر والعوز في العامين الأخيرين أكبر من عدد من قتلوا في حروب لويس الرابع عشر كلها (٤٩) . وقال بسنارد : « كانت ملابس الفقراء من الفلاحين - وكانوا كلهم تقريباً فقراء - تدعو إلى الاشفاق والرثاء ، حيث لم يكن لدى الفرد منهم إلا ثوب واحد للصيف والشتاء معا أما الحداء الوحيد (المرقع الواهي المثبت بالمسامير) الذي اقتناه عند زواجه ، فكان لزاماً أن يستخدمه بقية أيام حياته ، أو على الأقل طيلة بقاء الحداء (٥٠) » . وقدر فولتير أن مليوني فلاح فرنسي كانوا يستخدمون نعلا خشبية في الشتاء ، وكانوا يسرون حفاة الأقدام في الصيف ، لأن

الضرائب الباهظة المفروضة على الجلود جعلت الأحمذيد ضرباً من الترف^(٥١) أما مسكن الفلاح فكان يبنى من الطين مع سقف من القش ، وكان عادة يتكون من غرفة واحدة ، منخفضة لا سقف لها في بعض الأجزاء في شمال فرنسا ، على أن الأكواخ كانت تبني بطريقة أقوى حتى تتحمل البرد والرياح في الشتاء . وكان طعام الفلاح يتألف من الحساء والبيض ومنتجات الألبان وخبز الشعير أو الشوفان . أما اللحم وخبز القمح فكان أكلهما إسرافاً طاوئاً^(٥٢) . ففي فرنسا ، كما هو الحال في أي مكان آخر ، كان أولئك الذين يطعمون الأمة لا يملكون من الغذاء إلا أقله .

ووجد الفلاح بعض العزاء والسلوى من هذه الحياة الشاقة في الخمر والدين . وكانت الحانات كثيرة وصنع الجعة في الدار مشجعاً . وكانت الأخلاق خشنة جافة ، طابعها الوحشية . وكثيراً ما تفجرت أعمال العنف بين الأفراد والأمرات والقرى . ولكن سادت الأسرة عاطفة حب قوية ، ولو أنها صامتة ، وكان الأبناء كثيرين ، ولكن اختطفت يد المنون معظمهم قبل أن يبلغوا رشدهم . وكاد ألا يكون هناك زيادة في سكان فرنسا فيما بين عامي ١٧١٥ و ١٧٤٠ . فقد أحدثت الحرب والمرض والقحط أثرها بانتظام وفق ما جاء في نظرية مالتس .

٢ - البروليتاريا العمال الكادحون .

وكان خدام المنازل أدنى مكانة من الفلاحين في السلم الاجتماعي ، وكانوا فقراء إلى حد لم يهسى إلا لقليل منهم أن يتزوجوا . وكانت طبقة البروليتاريا في المدن أعلى قليلاً من الفلاحين ، وكانت تشكل الحرفيين في الحوانيت والمصانع وحمالي البضائع ومتعهدي الخدمات وعمال البناء أو الترميم . وكان معظم الصناعة لا يزال منزلياً أو محلياً يقوم في أكواخ ريفية أو في الدور في المدن الصغيرة . وكان التجار يقدمون المواد الخام ، ويجمعون الإنتاج ، ويستولون على كل الربح تقريباً . وكانت الصناعة في المدن إلى حد كبير في الطور النقابي (نظام نقابات العمال وطوائفهم في العصور الوسطى) ، فكان هناك المعلمون والغلمان الذين يتدربون ، وعمال المياومة المهرة ،

يعملون جميعاً وفقاً للقواعد القديمة التي حددت النقابة والحكومة عمقتها ساعات العمل وشروطه ، وطرز الإنتاج ونوعيته وسعره والمنطقة المحدودة المسموح فيها بالبيع . إن هذه التنظيمات والقواعد جعلت من التحسينات أمراً عسيراً ، واستبعدت حافز المنافسة الخارجية ، وأسهمت مع رسوم التجارة الداخلية في تعويق التنمية الصناعية . وكانت النقابات قد أصبحت أرستقراطية عمالية ، وارتفعت الرسوم على القبول في سلك المعلمين الصناعيين إلى أثنى جنيه ، واتجهت هذه المهنة إلى أن تكون وراثية . (٥٣) وكان العمل في الحوانيت يبدأ مبكراً وينتهي متأخراً . وكان عامل المياومة حول فرساي يبدأ عمله في الرابعة صباحاً وينتهي منه في الثامنة مساءً . (٥٤) ولكن العمل كان أقل اجتهاداً منه في المصانع اليوم ، كما أن أعياد الكنيسة هيأت أيام عطلة كثيرة .

وكانت الصناعة في معظمها « صغيرة » تستخدم ثلاثاً أو أربعاً من « الأيدي العاملة » من خارج الأسرة . بل أن المدايغ ومصانع الزجاج والمصايغ كانت مؤسسات صغيرة . وكان عدد العمال في بوردو لا يتجاوز أربعة أمثال أصحاب العمل . واحتفظت الحكومة على أية حال ببعض مصانع كبيرة - مصانع الصابون ، ومصانع نسيج الجوبلان (المزدان بالرسوم) ومصانع الخبز الصيني في سيفر . وأخذت عملية التعدين في التوسع بعد أن حل الفحم محل الخشب في الوقود . وثار الاحتجاجات على دخان الفحم الذي يلوث الهواء ، ولكن الصناعة آنذاك ، كما هو الحال اليوم ، مضت تشق طريقها ، وتعرضت صحة الناس في باريس ، وفي لندن على حد سواء ، للخطر نتيجة لتنفس هذا الهواء الملوث . وكانت هناك مصانع للصلب في دوفيني ، ومصانع للورق في أنجوموا . وتوسعت مصانع النسيج توسعاً ملحوظاً في الشمال ، فاستخدم فان روييه ١٥٠٠ عامل في مصنع واحد في آبقيل واستخدم فان دركروسن ثلاثة آلاف رجل في ليل (٥٥) . وشجع ازدياد العمال هذا على تقسيم العمل والتخصص فيه ، وحفز على اختراع الآلات للعمليات المكررة على نسق واحد (الروتينية) وتضمنت دائرة

معارف ديدرو (١٧٥١ وما بعدها) أوصافا ورسوماً مدهشة لآلات متنوعة معقدة أدخلت بالفعل في الصناعة في فرنسا ، ينذر أن تكون قد نالت استحساناً أو ترحيباً من البروليتاريا . وحين أقيم نول جاكار (لحياسة الأقمشة المصورة) في ليون ، عمد عمال نسج الحرير إلى تهشيمه ، خشية أن يلتقي بهم في عرض الطريق بلا عمل (٥٦) .

ورغبة في تشجيع الصناعات الجديدة فإن حكومة فرنسا - كما فعلت حكومة إنجلترا في عصر اليزابث - منحت عدة احتكارات ، مثال ذلك أنها منحت أسرة فلان رويية احتكار إنتاج الأقمشة الهولندية الرفيعة ، كما ساعدت مشروعات أخرى بمعونات وقروض دون فوائد . وفرضت الحكومة على كل الصناعة تنظيماً صارماً موروثاً عن كولبير . وأثار هذا الأسلوب اعتراضاً متزايداً من جانب أصحاب المصانع والتجار الذين دفعوا بأن الاقتصاد ينمو ويزدهر إذا تحرر من تدخل الحكومة ، وترديداً لهذا المطلب ، قال فنسنت دي جورناي (حوالى ١٧٥٥) عبارة التاريخية اتركه وحده « اتركه يعمل » التي عبرت في الجيل التالي ، على لسان فرنسوا كني وترجو ، عن المذهب الفيزيوقراطي الذي نادى بحرية العمل والتجارة .

واستاء الحرفيون أيضاً من هذه القواعد والتعليقات التي وقفت حجر عثرة في سبيل تنظيمهم من أجل ظروف عمل وأجور أفضل . ولكن أهم ما هاج حفيظتهم هو أن عمال الريف والمصانع كانوا ينتزعون السوق من أيدي النقابات . فما وافى عام ١٧٥٦ حتى كان أصحاب المصانع قد هبطوا بالحرفيين في المدن الكبرى - حتى بالمعملين النقابيين - إلى مستوى الإجراء الذين يعتمدون في عملهم على المقاولين أو الملتزمين . (٥٧) وفي نطاق النقابات أجرى المعلمون - تحفيظاً في أجور عمال المياومة الذين عمدوا إلى الاضراب على نحو دوري . وكان الفقر في القرى شديداً مثلما هو في المدن تقريبا . ووصل نقص الحاصلات بالطبقة الكادحة ، البروليتاريا ، في المدن إلى حد المجاعة والشغب كل بضع سنين ، كما حدث في تولوز ١٧٤٧ ، وفي باريس

١٧٥١ ، وفي تولوز ١٧٥٢^(٥٨) وكان القسيس الملحد جان مزلييه قد اقترح بالفعل ، حوالى ١٧٤٩ استبدال شبيعية قائمة على الحرية بالنظام القائم^(٥٩).

وفي أواسط القرن كانت باريس وروان وليل وليون وبوردو ومرسيليا تعج بالبروليتاريا . وتفوقت ليون بوصفها مركزا صناعيا لبعض الوقت على باريس . وقد وصفها الشاعر الانجليزي توماس جراى في ١٧٣٩ بأنها « ثانية مدن المملكة من حيث الاتساع والمكانة . وشوارعها بالغة الضيق والقدارة ، ودورها بالغة الإرتفاع والاتساع (تتكون الدار من خمسة طوابق في كل طابق ٢٥ غرفة) ، مكتظة بالسكان » .^(٦٠) وكانت باريس خلية هائجة ، يقطنها ٨٠٠ ألف منهم ١٠٠ ألف خدام ، و ٢٠ ألف متسول ، وفيها الأكواخ الكثيرة والقصور الفخمة ، والأزقة والحارات المظلمة والشوارع القذرة وراء المتنزعات الأنيقة ، وفيها الفن إلى جانب الأملاق والفقر المدقع . وسارت فيها المركبات الكبيرة والمركبات العامة ذات الحواد الواحد والمحفات يصطدم بعضها ببعض مع تبادل السباب والشتائم ، واختناق شديد في حركة المرور . وكانت بعض الشوارع قدر صفت منذ ١٦٩٠ . وفي عام ١٧٤٢ رصف ترينساكيه الطرق بأحجار ملساء ، ولكن معظم الشوارع كانت قدرة تماما ، مملوءة بالحصى الكبير الذى يصلح لإقامة المتاريس في أثناء الثورات . وبدأت مصابيح الشوارع تحمل محل الفوانيس في ١٧٤٥ ولكنها لم تكن تضاء إلا إذا لم يكن القمر بدرا . وظهرت لافتات أسماء الشوارع في ١٧٢٨ . ولكن لم توضع للبيوت أرقام قبل الثورة . وكان للأغنياء وحدهم صنادير ماء في بيوتهم ، أما سائر الناس فكان يزودهم بالماء عشرون ألف سقاء يحمل الواحد منهم دلوين يصعد بهما أحيانا سبع مجموعات من درجات السلم . أما المراحيض في المنازل والحمامات المزودة بالماء الجارى الساخن البارد ، وكانت امتيازًا لكبار الأثرياء . وظلت آف الحوانيت ، المشهورة بشعاراتها الرائعة المثيرة ، على حالتها من الفوضى في الموازين والمقاييس المتضاربة والمشتبه فيها ، إلى أن وضعت الثورة النظام المترى (العشرى) . وكان هناك أصحاب حوانيت أمناء في « متاجر الثقة » ، ولكن الغالبية

اشتهرت بالتطفيف في المقاييس والتلاعب في الأسعار ورداءة أنواع السلع. (٦١) وكان بعض الحوائث ينتحل عظمة زائفة خداعة لأن أصابها كانوا يستقلون العربات . وكان الفقراء من الناس يعتمدون في شراء حاجياتهم أساسا على الباعة المتجولين الذين حملوا بضاعتهم جاهدين في دلاء أو سلال على ظهورهم، والذين أسهموا في موسيقى الشوارع بصيحاتهم ونداءاتهم التقليدية غير المفهومة التي يدعون بها الناس إلى الشراء ، من « البطاطس المطبوخة » إلى الموت للفيران « فقد نازعت الفيران الناس على تيسيرات السكنى في المدينة ، وزاحم الرجال والنساء والأطفال الفيران في مسابقة الحصول على الطعام . قال رجل فارسي كان في زيارة مونتسكيو : « البيوت مرتفعة إلى حد يظن معه أنه لا يقطنها إلا منجمون . ولك أن تتخيل مدينة بنيت في الهواء ، فيها أقيمت ستة أو سبعة منازل الواحد منها فوق الآخر وهي مزدحمة بالسكان ، حتى إذا نزلوا جميعا إلى الشارع ، رأيت هناك حشدا رائعا . لقد بقيت هنا شهرا ، لم يقع نظري فيه على شخص واحد يسير بحطى وثيدة . وليس في العالم كله مثل الرجل الفرنسي وهو يجتاز الطريق ، إنه يعدو أو يطير . (٦٢) أضف إلى ذلك المتسولين والمتشردين والنشالين والمغنين في الشوارع والنافخين في الأرغن والدجالين بائعي الأدوية الزائفة . وجملة القول أنهم شعب تشيع فيه مائة من أخطاء البشر ، لا يوثق به إطلاقا ، متلهف على الكسب ، مسرف في الدنس والتجديف بكل معنى الكلمة . ولكنه إذا أوقى اليسير من الطعام والنبيد فهو أطف شعوب العالم وأكرمها وأكثرها مرحا وابتهاجا .

٣ - البرجوازية :

وفيا بين الطبقتين الدنيا والعليا قامت الطبقة الوسطى . تضم لها أولاها البغض والكراهية، وتزديها الثانية ، وكانت تضم الأطباء والأساتذة ورجال الإدارة وأصحاب المصانع والتجار ورجال المال ، وهي طبقة شقت طريقها إلى الثروة والنفوذ والسلطة في حدق ومهارة وصبر وجلد .

وقام أرباب المصانع بمغامرات اقتصادية وتطلبوا من أجلها عائدا وفاقا . وشكروا من أنهم يتعرضون لمائة من المضايقات التي تسببها لهم تعليمات الحكومة ورقابة النقابات على السوق والعمال المهرة ، واغتناظ التجار الذين يوزعون المنتجات من فرض ألف من المكوس والرسوم التي تعوق حركة البضائع ، ذلك أنه عند كل نهر أو قناة أو مفترق طرق كان هناك وكيل عن النبيل أو رجل النيسة مالك الأرض ، ليتقاضى رسما على الترخيص بمرور البضائع . وأوضح السيد المالك أن هذه المكوس إنما هي تعويض معقول له عما ينفق في صيانة الطرق والجسور والمعابر وإصلاحها لتبقى صالحة للاستعمال . وألغى مرسوم ملكي صادر في عام ١٧٢٤ ألفا ومائتين من هذه المكوس ، ولكن بقيت بعد ذلك منها مئات لعبت دورا في كسب البورجوارية إلى جانب الثورة وتأييدها لها .

أما التجارة الفرنسية التي كانت معوقة في الداخل فقد انتشرت واتسعت فيما وراء البحار . وسيطرت مرسيليا ، وكانت ميناء حرة ، على تجارة أوروبا مع تركيا والشرق . ومدت شركة الهند التي أعيد تأسيسها ١٧٤٣ ، أسواقها ونفوذها السياسي في البحر الكاريبي ووادى الميسيسيبي وأجزاء من الهند . ورفعت بوردو ، وهي ، المنفذ الرئيسي لتجارة الأطلنطي ، تجارتها البحرية من أربعين مليونا من الجنيهات في عام ١٧٢٤ إلى ٢٥٠ مليونا في ١٧٤٨ . وأبحر أكثر من ٣٠٠ سفينة سنويا من بوردو ونانت إلى أمريكا ، يحمل معظمها العبيد ليعملوا في مزارع قصب السكر في جزر الأنتيل ولوزيانا^(٦٣) . وفاقت نسبة المبيعات من السكر المنتج من أمريكا الفرنسية مثلتها من السكر الإنجليزي المنتج في جاميكا وباربادوس في الأسواق الأوربية ،^(٦٤) وربما كان هذا من أسباب حرب السنين السبع ، وارتفعت جملة تجارة فرنسا الخارجية من ٢١٥ مليونا من الجنيهات في ١٧١٥ إلى ٦٠٠ مليون في ١٧٥٠ .^(٦٥) وقدر فولتير أن عدد السفن التجارية التي استخدمتها فرنسا زاد من ٣٠٠ سفينة في ١٧١٥ إلى ٨٠٠ في ١٧٣٨ .^(٦٦)

وكانت الأرباح المتزايدة من التجارة البحرية الدافع الأساسي لغزو

المستعمرات . وكانت حماسة التجار والمبشرين الفرنسيين قد كسبت لفرنسا معظم كندا وحوض الميسيسيبي وبعض الجزر في البحر الكاريبي . وتحدث إنجلترا هذه الممتلكات الفرنسية على اعتبار أنها تضيق الخناق على مستعمراتها في أمريكا وتعرضها للخطر . والحرب هي التي يمكن أن تحسم هذه القضية ، ودب الخلاف بين إنجلترا وفرنسا في الهند بسبب منافسة مماثلة . وكان الفرنسيون في ١٦٨٣ قد وطدوا مركزهم في بوندشيري على الساحل الشرقى جنوبى مدراس ، وفي ١٦٨٨ حصلوا من امبراطور المغول على حق السيطرة الكاملة على شاندرناجور شمالي كلكتا . وفي ظل القيادة النشيطة اليقظة لجوزيف دوبليكس ، استولى هذان الثغران على كثير من التجارة والثروة إلى حد أحست معه شركة الهند الشرقية الانجليزية ، التي كانت قد أقامت لها مراكز في مدراس (١٦٣٩) وبمباي (١٦٦٨) وكلكتا (١٦٨٦) - أنها مضطرة إلى خوض الحرب مع الفرنسيين من أجل مملكة المغول التي تتمزق أوصالها .

ولمآراء إنجلترا وفرنسا أنهما على طرفي نقيض في حرب الوراثة النمسية (١٧٤٤) فان ماهي دي لا بور دونيه - الذي كان قد ضرب رقما قياسيا في الاقدام والمغامرة في إدارة جزر موريشيوس وبوربون الفرنسية في المحيط الهندي - عرض على حكومة فرساي خطة « للقضاء على التجارة وعلى المستعمرات الانجليزية في الهند » .^(٦٧) وهاجم مدراس بأسطول فرنسي ، بموافقة دوبليكس الحسود ، وسرعان ما أرغم المدينة على الاستسلام (١٧٤٦) وتحت مسؤوليته الخاصة وقع مع السلطات الانجليزية اتفاقية تقضى بإعادة مدراس إليهم لقاء تعويض قدره ٤٢٠ ألف جنيه . ورفض دوبليه التصديق على الاتفاقية ، ولكن لا بور دونيه أصر في عناد ، وأبحر على سفينة هولندية إلى أوربا : وأسرته سفينة إنجليزية ، وأطلق سراحه تحت وعد شرف ، ودخل باريس فزج به في الباستيل بتهمة التمرد والخيانة ، وطلب المحاكمة ، وبعد عامين قضاهما في السجن حوكم وقضى له بالبراءة (١٧٥١) وتوفى ١٧٥٣ . وفي تلك الأثناء حاصر أسطول إنجليزي قوى بوندشيري (أغسطس

(١٧٤٨) فدافع عنها دوبليكس دفاعا مجيدا حتى رفع الحصار عنها (أكتوبر) . وبعد ذلك بسبعة أيام وصلت الأنباء إلى الهند بأن معاهدة إكس لا شابل أعادت مدراس إلى إنجلترا . ذلك أن الحكومة الفرنسية أدركت أنه مقضى عليها بالهزيمة في الهند بسبب ضعف قواتها البحرية ، فرفضت أن تدعم مشروعات دوبليكس في الغزو والفتح ، وأرسات إليه قوات واهتمامات هزيلة ، وأخيرا استدعته إلى فرنسا (١٧٥٤) . وامتد به الأجل حتى رأى لإنجليز يوقعون بالفرنسيون هزيمة منكرة في الطور الهندي من حرب السنين للسبع .

وكان « رجال المال » في قمة الطبقة الثالثة وكانوا من مقرضي النقود على نطاق ضيق ، من الطراز العتيق المحافظ ، أو من أصحاب المصارف بكل معنى الكلمة ، الذين يتعاملون في الودائع والقروض والاستثمارات ، أو من « ملتزمي الضرائب » الذين يعملون للدولة باعتبارهم « وكلاء الدخل » . وكانت القيود التي فرضتها الكنيسة الكاثوليكية على تقاضي فوائد الأموال قد ضعف أثرها أو أصبحت غير ذات موضوع تقريبا ، في تلك الأيام . ورأى جون لو أن نصف فرنسا متلهف على الأنجار في الأسهم والسندات ، وافتتحت باريس سوق الأوراق المالية (البورصة) فيها سنة ١٧٢٤ .

وكان بعض (رجال المال) أغنى من معظم النبلاء . فكان باريس مونتارتل يمتلك مائة مليون جنيه ، ولينورمان دي تورنهم عشرين مليونا ، وصمويل برنارد ٣٣ مليونا (٦٨) . وزوج برنارد بناته من أزواج أرسقراطيين حيث دفع لكل منهن مهراً قدره ٨٠٠ ألف جنيه (٦٩) . وكان سيداً مهذباً محبا لوطنه . وفي ١٧١٥ حدد بنفسه الضرائب المستحقة على ممتلكاته بمبلغ تسعة ملايين من الجنيهات ، ومن ثم كشف عن ثروة كان يمكن أن يخفيها جزئياً (٧٠) . وعندما قضى نحبه (١٧٣٩) ، أماغ فحص حساباته اللثام عن المدى الواسع لصدقاته الخفية (٧١) . أما الإخوة الأربعة الذين حملوا لقب « باريس » فقد طوروا مؤسستهم المصرفية إلى سلطة سياسية . وتعلم منهم فولتير كثيرا من براعته المالية ، فأذهل أوروبا لكونه فيلسوفا و « مليونيرا » في وقت معا .

وكان « الملتزمون العامون » أبغض رجال المال في فرنسا في القرن الثامن عشر . وكان نظام « الملتزم العام » قد أدخل في ١٦٩٧ لجمع الضرائب غير المباشرة - أساساً الضرائب على الإعانات والتسجيلات والطلبات والملح والتبغ - ولكي تنفق الحكومة هذه الإيرادات قبل جمعها ألزمت بها شخصاً يدفع لها المبلغ المتعاقد عليه ، مقابل حق جبايتها على مدى ست سنوات . وانعكس ازدياد الضرائب والثروة والتضخم في ارتفاع ثمن هذا العقد الراجح : ٨٠ مليوناً ١٧٢٦ ، ٩٢ مليوناً ١٧٤٤ ، ١٥٢ مليوناً ١٧٧٤ . ولم تقع أية حكومة يوماً في حيرة جرياً وراء الطرق التي تنفق بها أموال شعبها وفوضت للمتعاقد مهة جمع الضرائب بالتعاقد إلى أربعين « ملتزماً عاماً » أو أكثر ، دفع كل منهم مليوناً من الجنيهات أو أكثر ضماناً مقدماً ، ولحق أصابعه كلما مرت بها الإيرادات ، وهكذا ، فيما بين عامي ١٧٢٦ - ١٧٣٠ تجاوزت أرباح الملتزمين العاميين الأربعين ١٥٦ مليوناً من الجنيهات (٧٣) وابتاع كثير من أمثال هؤلاء الجباة الضياع والألقاب وشادوا القصور الفخمة وعاشوا حياة غاية في البلخ والترف ، مما أثار حنق الأرستقراطية ورجال الكنيسة . وجمع بعضهم روائع الفن وأحاطوا أنفسهم بالفنانين والشعراء والتحليلات ، وفتحوا أبواب بيوتهم مأوى أو منتدى للصفوة من أهل الفكر وكان « أطف الفلاسفة ، هلفشيوس ، واحداً من أكرم « الملتزمين العاميين » . وقضى روسو فترة طويلة في ضيافة مدام دي ايبناى زوجة أحد الملتزمين . واستمتع رامو وفانلو بكرم الضيافة لدى الاسكندر دي لابولنيير الذي اشتهر من بين رجال المال بأنه يمثل ميسيناس (رجل الدولة الروماني من رعاة الأدب صديق هوراس وفرجيل في القرن الأول ق .م) وثار كبار أفراد البورجوازية المتهفون على الاعتراف بمكانتهم الاجتماعية ، لأنفسهم من استهجان الكنيسة واحتقار النبلاء لهم ، بمنصرة الفلاسفة ضد الكنيسة ، ثم ضد النبلاء فيما بعد ، وربما كان رجال المال هم الذين أمدوا الثورة بالمال .

٤ - الحكومة :

كانت الطبقات الوسطى آنذاك أكثر فعالية وقوة في الدولة ، لأنها شغلت كل المناصب ، فيما عدا مناصب الوزارة التي كانت تتطلب غير هجرة الأسرة أو عراقة الحسب والنسب ، وكان أفرادها يشكلون البروقراطية وصقلت مواهبهم بالانتقاء الطبيعي في ميدان الاقتصاد ، وأثبتوا أنهم أمهر وأقدر من النبلاء سليلي الأسرات الواهين الحاملين الذين ليس لهم ما يحفزهم على الجهد والعمل . وفي الحق أن نبلاء الرداء في البرلمانات والحكام كانوا ينتسبون إلى البرجوازية من حيث الأصل والخلق . وتولت الطبقة الوسطى شئون الكوميونات والأربعين مقاطعة ، وإدارات الحرب والتموين والمواصلات والمناجم والطرق والشوارع والجسور والأنهار والقنرات والثغور . وكان قواد الجيش من النبلاء ، ولكنهم قاموا بحملات خططها لهم في باريس رجال من الطبقة الوسطى ، بارعون في تخطيط الحرب (٧٣) . إن نمط البرجوازية الفرنسية في القرن التاسع عشر كان قد سبق تشكيله في القرن الثامن عشر .

وكان المعترف به بصفة عامة أن الإدارة في فرنسا كانت أحسن إدارة في أوروبا ، ولكن كانت تشوبها عيوب قتالة : كانت مركزية متغلغلة ، مفصلة إلى حد أنها عوقت الابتكار والمبادرة والحيوية المحلية ، وضيعت كثيراً من الوقت في نقل الأوامر والتقارير . وبالمقارنة بإنجلترا كانت فرنسا استبدادية مطلقة خانقة . فلم يكن مسموحاً بالاجتماعات العامة ، ولم يؤخذ بالاقتراع الشعبي إلا في المسائل المحلية التافهة ، ولم يقف أي برلمان في وجه الملك . وحسن لويس الخامس عشر الحكومة بإهمالها ، ولكنه فوض إلى وزرائه سلطات ملكية مثل إصدار أوامر القبض أو الرسائل المختومة ، وغالباً ما أسيء استخدام هذه السلطة . حقاً إن مثل هذه « الرسائل السرية » ، أفلحت أحياناً في تسيير شئون الحكومة بسرعة عن طريق تجنب التفاصيل الفنية في الإجراءات الإدارية « الروتين الحكومي » . ويأخذ هذه الرسائل أسس لويس الرابع عشر « الكوميدي فرانسيز » في عام ١٦٨٠ . وأنقذت بعض الرسائل سمعة إحدى الأسرات ، بالزج بوغد لثيم في السجن دون

بطاء ودون محاكمة علنية ربما كانت تكشف عن كوارث خاصة . كما أن بعض هذه الرسائل ؛ كما حدث عند اعتقال فولتير وسجنه للمرة الثانية ، حال بين أحد الحمقى الذين يمكن الصفح عنهم ، وبين إتمام حماقته . وفي حالات كثيرة صدرت الرسائل بناء على طلب والد يائس (مثل ميرابو الأكبر) من تقويم اعوجاج ابن جامع . وفي مثل هذه الحالات كان السجن خفيفاً قصير الأمد . ولكن كانت هناك حالات كثيرة من القسوة الصارخة ، ومن أمثلتها احتجاج الشاعر ديفورج لمدة ست سنوات (١٧٥٠ - ١٧٥٦) في حجرة من حديد لأنه استنكر تصرف الحكومة في نفي شارل ادوارد ستيوارت حفيد جيمس الثاني من فرنسا (وكانوا يسمونه المطالب الصغير بالعرش) .^(٧٤) وإذا كان لنا أن نصدق رواية الكاتب الألماني ولهم جريم ، وهو دقيق بصفة عامة ، فإن الحكومة قدرت أعظم التقدير انتصارات موريس دى ساكس في المعارك إلى حد أنها أرسلت إلى الشاعر شارل فافار أمرا سريرا ليضم زوجته إلى قائمة خليلات دى ساكس .^(٧٥) إن أية إساءة إلى أحد النبلاء من رجل عادي ، أو أى نقد شديد يوجه إلى الحكومة ، كان من شأنه أن يؤدي إلى صدور رسالة سرية مخترمة تتضمن أمرا بالقبض والزج في السجن دون محاكمة أو قضية مبينة . ومثل هذه الأوامر التعسفية أثارت استياء متزايدا على مر السنين في هذا القرن الثامن عشر .

وعوق القانون الفرنسى مع تقدم الإدارة الفرنسية ، وكان يختلف من مقاطعة إلى مقاطعة مما أعاد إلى الأذهان انفراد المقاطعات بعضها عن بعض باستقلالها الذاتى ، في سالف الأيام . وكان في مختلف أقاليم فرنسا . ٣٥٠ هيئة قانونية متباينة . وكان كولبير قد قام بمحاولة غير موفقة في تنظيم القانون الفرنسى وتحديدته في « قانون العقوبات » الذى صدر في ١٦٧٠ ولكن قانونه خلط بشكل مضطرب بين تشريع العصور الوسطى والحديثة ، والتشريع الألماني والرومانى ، والتشريع الكنسى والمدنى . وكان الملك يسن القوانين الجديدة وفقاً لمتطلبات الساعة ، وعادة بناء على إلحاح وزرائه مع التسرع في التحقق من إنساقها مع القوانين القائمة . وكان من العسير على المواطن أن يتبين أى القوانين سارى المفعول في محل إقامته أو في قضيته .

وتولت « الشرطة الراكبة » تنفيذ قانون العقوبات في الأقاليم ، أما في المدن الكبيرة فكان يتولاها « شرطة البلدية » ، التي نظمها ودرجها أحسن تدريب وتنظيم في باريس ، مارك رينيه دي فواييه دي أرجنسون ، الذي لم ينجب أبناء لامعين فحسب ، بل إنه كذلك بوصفه قائد الشرطة من ١٦٩٧ إلى ١٧١٨ ، اكتسب لقب « اللعين » ، لأنه كان يبدو وكأنه شيطان ، إنه كان على أية حال مصدر رعب وفزع لمحرمي باريس ، لأنه كان يعرف أوكارهم وأساليبهم ، ومع ذلك كان (كما يؤكد لنا سان سيمون) « يتسم بالروح الإنسانية » (٧٦) — عطوفا على البؤساء .

وكان الشخص المقبوض عليه يسجن قبل محاكمته ، ويعامل معاملة لا تكاد تختلف عن معاملته وهو مذنب محكوم عليه بالعقوبة . وقد يقضى — مثل جين كالاس — شهورا في السلاسل والأغلال والتعذيب العقلي ، معرضاً للمرض في كل يوم بين الأقدار . وإذا حاول الهرب تصادر ممتلكاته ، وإذا اتهم بجريمة كبرى لا يسمح له بالإتصال بمحام . ولم يكن هناك حق التحقيق في قانونية أمر الاعتقال (هايياس كوربس) ، أو حق المحاكمة عن طريق المحلفين . وكان الشهود يسألون سراً ، كل على حدة . وإذا اعتقد القاضي بأن المتهم مذنب ، ولكن ليس هناك أدلة كافية لإدانته ، كان له سلطة تعذيبه لينتزع منه اعترافاً . وقل حدوث مثل هذا التعذيب القضائي وخفت حدته على عهد لويس الخامس عشر ، ولكنه ظل جزءاً من الإجراءات القانونية في فرنسا حتى ١٧٨٠ .

وتراوحت العقوبات من الغرامات إلى تمزيق الأوصال . وكانت الشهرة مفضلة في عقاب عدم الأمانة في العمل . وكان اللصوص وصغار المجرمين يجلدون بالسياط ، وهم مجرون مربوطين في ذيل عربة في الشوارع . وكان يمكن أن يكون الإعدام عقوبة الخدم إذا اقترفوا السرقة ، ولكن مخدوميهم نادراً ما تمسكوا بتنفيذ هذا القانون . وفي ١٧٤٨ أبطل بصفة رسمية الحكم بالتجديف في السفن الشراعية الكبيرة . وكان الإعدام هو العقوبة القانونية لمجموعة كبيرة متباينة من الجرائم منها السحر والشعوذة والتجديف على الله (م ٣ — قصة الحضارة)

وسفاح ذوى القربى واللواط والعلاقة الجتسية بين إنسان وحيوان . ولم يعودوا يلجأون إلى قطع العنق أو شد الحجر إلى خازوق لإحراقه . ولكن كان يمكن أن يزيدوا من روعة تنفيذ الحكم « بسحب المحكوم عليه وتمزيق أوصاله إلى أربعة أجزاء » أو تحطيم أطرافه بقضيب حديدي وهو مربوط إلى « دولاب » التعذيب . وروى « أن الناس ، وبخاصة في باريس ، كانوا دائماً يتطلعون في ابتهاج وسرور إلى تنفيذ حكم الإعدام (٧٧) » .

وكان النظام القضائى معقداً مثل القانون تقريباً . وكان في الريف آلاف المحاكم الإقطاعية التي تطبق القانون المحلي ، ويرأسها قضاة يعينهم السادة الملاك ، وكان يمكن لهذه المحاكم أن تنظر في القضايا الصغيرة فقط . وليس لها أن تفرض من العقوبات إلا الغرامة البسيطة . وكانت أحكامها عرضة للاستئناف ، ولكن الفلاح وجد أن من العسير عليه ، ومما يكلفه نفقة باهظة أن يكسب قضية ضد السيد المالك . وعلاوة على محاكم السادة الملاك هذه كانت هناك محاكم محلية ، وكان في كثير من المدن محاكم خاصة بالكوميونات وفوق كل هذه المحاكم الدنيا كانت هناك المحاكم الإقليمية التي تطبق القانون الملكي ، وللملك أن يعين محاكم خاصة لأغراض خاصة . وكانت الكنيسة تحاكم رجالها بمقتضى قانونها الكنسى الخاص بها في محاكم كنسية . وكان المحامون يحشدون في مختلف المحاكم وفيما حولها ، مستفيدين من ولع الفرنسيين بالتقاضى . وكان في المدن الكبرى الثلاث عشرة برلمانات تتألف من قضاة يعملون على هيئة محاكم عليا لهذه المدن وما حولها ، وعلى هذا الأساس كان برلمان باريس يخدم ثلث فرنسا تقريباً . وطالب كل برلمان بأن أى مرسوم ملكى أو حكومى لا يصبح قانوناً إلا إذا عرض على البرلمان ووافق عليه وسجله . ولم يسلم المجلس الملكى للدولة بهذا المطلب قط ، ولكنه في الغالب سمح للبرلمان بحق الاعتراض . ودارت أشد حقب التاريخ الفرنسى كتابة حول هذه المطالب المتعارضة والمتنازع عليها بين الملك والبرلمانات .

وبين برلمان باريس والملك قام الوزراء والبلاط . وشكل كل الوزراء معاً « مجلس الدولة » وكان البلاط يتألف من الوزراء علاوة على النبلاء

أو رجال الدين أو أعيان العامة الذين كانوا قد قدموا إلى الملك ، بالإضافة إلى معاوني رجال البلاط وخدمهم . وكانت هناك مراسم صرامة (بروتوكول) تحدد وضع كل رجل في البلاط ومسوغاته وأسبقيته وامتيازاته وواجباته ، كما أنه كانت هناك قواعد تشریفاب معقدة مدروسة مفصلة تيسر الاحتكاك بين عدة مئات من الأفراد المزهين الذين تملأ الغيرة والحقد قلوبهم ، كما تثقل كواهلهم . كما أن المراسم والتشريفات الباذخة المسرقة لطفت من رتابة نظام الحاشية . وهيأت جو الغموض الذي لاخفى عنه للحكومة الملكية . وكانت ضروب التسلية الأثيرة لدى أفراد الحاشية هي الانهماك في القيل والقال والأكل ، والميسر والصيد والقنص والزنى . قال سفير نابلي « إن تسعة أعشار الناس في فرنسا يموتون جوعاً ، والعشر يموت من عسر الهضم »^(٧٨) وكانت مبالغ الخسارة والمكسب على موالد القهار جسيمة . ولكي يسدد رجال الحاشية ديونهم كانوا يبيعون نفوذهم لمن يدفع مبلغاً محزماً لأحد أفراد الحاشية ، وكان لكل زوج في البلاط ، تقريباً ، عشيقاً ، ولكل زوجة تقريباً عشيق . ولم ينكر أحد على الملك خليلاته ، وكل ما شكاه منه النبلاء أن الملك صحب معه إلى فراشه « ادم دي بمبادور وهي سيدة من عامة الشعب على حين أنهم ربما أحسوا أنه قد يشرفهم أن يفترع جلالته بناتهم البكارى .

وعلى الرغم من أن لويس الخامس عشر كان قد بلغ سن الرشد رسمياً في ١٧٢٣ ، فإنه كان آنذاك في سن الثالثة عشرة ، وعهد بالإدارة إلى لويس هنرى ، الدوق دي بوربون . وكان التفكير قد اتجه لشغل هذا المنصب إلى كونت دي تولوز ، وهو أحد أبناء لويس الرابع عشر الذين أضيفت عليهم صفة الشرعية ، ولكنه استبعد « لأنه لفرط أمانته لا يصلح لأن يكون وزيراً »^(٧٩) وكان السيد الدوق دي تولوز « نفسه رجلاً طيب الشعور ، بذل كل ما في وسعه للتخفيف من فقر الشعب ، وفكر في تحقيق هذا الغرض عن طريق وضع نظام يحدد الأسعار والأجور بصفة رسمية . ولكن قانون العرض والطلب خهب آماله . وتجاسر على فرض ضريبة دخل قدرها ٢٪ على كل الطبقات فاحتج رجال الدين وتأمروا على سقوطه »^(٨٠)

وأباح لعشيقته المركزية دى برى من النفوذ والسلطان أكثر مما ينبغي، وكانت ذكية ، ولكن ذكاءها كان دون جماها ، فاحتالت على زواج لويس الخامس عشر من ماري لوزكزنسكا ، أملا في أن تستبقى الملكة الشابة تحت تأثيرها . ومهما يكن من أمر فإن ماري سرعان ما فقدت نفوذها وعطفت مدام دى برى على فولتير ، وأقصت رجال الدين ودفعت الدوق إلى مهاجمة الأسقف الذى يتولى تعليم الملك ، والذى كان قد أوصى الملك باختيار الدوق ليكون وزيره الأول . ولكن الملك كان يعجب بمعلمه ويثق فيه أكثر من أى رجل آخر في الدولة .

وكان أندريه هركيل دى فليرى قد عين أسقفاً في فريجييس ١٦٩٨ ثم مؤدباً للملك ١٧١٥ . وسرعان ما أصبح ذا تأثير شديد على عقل الصبي . وكان الأسقف فارح الطول وسيما مرناً لبقاً ، كسولاً بعض الشيء لا يتعجل الحظ والثراء أبداً ، ولو أنه وصل إلى ما يصبوا إليه . واعتقد ميشيليه وسانت بييف أن فليرى ، باعتباره معلماً ، كان قد أضعف شخصية الملك الصغير بإطلاق العنان لرغباته وشهواته في ابتهاج خال من الهوم والتفكير ، ورباه على مساندة اليسوعيين والعطف عليهم^(٨١) . ولكن فولتير ، الذى لم يكن صديقاً لرجال الدين ، أعجب بفيليرى ، وقدره أعظم تقدير ، معلماً ووزيراً ، على حد سواء وأخذ فليرى على عاتقه أن يشكّل ذهن تلميذه ويدربه على العمل والتكتم والاستقامة والأمانة ، وعلى أن يصون نفسه وسط تعجل الحاشية وهياجها وصخبها ، طيلة الفترة التي لم يبلغ فيها الملك سن الرشد ، والتي نعم فيها بحسن تأثير الوصى وتقدير الشعب . ولم يمن فليرى قط بقيمة خدماته ، ولم يشك قط من الآخرين ، ولم يغمس يده في مكائيد الحاشية ودسائسها قط . وحاول سراً أن يتعرف على شئون المملكة في الداخل ومصالحها في الخارج . وصفوة القول إن سلوكه الواعى الخذر ومزاجه اللطيف جعل كل فرنسا تود أن تراه على رأس الإدارة فيها^(٨٢) .

ولما علم فليرى بأن تأثيره المستمر في تقرير السياسة استفز الدوق دى بوربون ليوصى بطرده من البلاط ، لم يبذل أى محاولة للاحتفاظ بمركزه

بل انسحب في هدوء إلى دير السليبيشيان في ISSY، لإحدى ضواحي باريس (١٨ ديسمبر ١٧٢٥) . وأمر الملك الدوق أن يطلب إلى فليرى أن يعود ، وعاد بالفعل ، وفي ١١ يونيو ، استجابة لما وضح من رغبة الحاشية ورجال الدين والجمهور ، (٨٣) أمر لويس الخامس عشر، بشكل مفاجيء ، بوروبون « أن يأوى إلى شانتيلى ويبقى هناك لحين صدور أوامر أخرى » . وأبعدت مدام هـى برى إلى قصرها في نورماندى ، حيث تولاهما الضجر والسأم إلى أبعاد الحدود ، فتناوات السم وفارقت الحياة (١٧٢٧) .

وظل فليرى يخطر إلى الأمام بفضل تراجعه ، ولم يحظ بأى منصب رسمى ، بل إنه على العكس ، حث الملك على أن يعلن أنه سيتولى الحكم بنفسه منذ الآن . ولكن لويس آثر الصيد أو لعب القمار ، وأصبح فليرى الوزير الأول في كل الشئون إلا اللقب (١١ يونيو ١٧٢٦) . وكان آنذاك في الثالثة والسبعين من العمر ، وكَم من نفس طموحه تطلعت إلى أن يعاجله الموت ، ولكنه حكم فرنسا سبعة عشر عاما .

ولم ينس فليرى أنه قسيس ، فألغى ضريبة ال ٢٪ فيما يتعلق برجال الكنيسة ، فكان جوابهم على هذا أنهم قدموا للدولة منحة اختيارية قدرها خمسة ملايين جنيد ، وطلب فليرى إليهم أن يساندوه في تنصيبه كاردينالا ، وكان في حاجة إلى هذا اللقب ليكون له حق الصدارة والأسبقية على الأذواق في مجلس الدولة ، فكان له ما أراد (٥ نوفمبر) ، ولم يحاول منذ تلك اللحظة أن يخفى الحقيقة ، تلك هي أنه كان يحكم فرنسا .

ولشد ما كانت دهشة الحاشية حين رأوه متواضعا وهو في أوج السلطة مثلما كان متواضعا وهو يمهدها . وعاش في بساطة تكاد تنسم بالتقتير ، قانعا بالحقيقة الواقعة دون امتيازات السلطة ومقتضياتها . وكتب فولتير « إن ارتفاع مكانته لم يغير من عاداته وسلوكه ، ودهش الجميع ليجدوا في شخص رئيس وزارة ، أعظم رجال الحاشية جاذبية وفي نفس الوقت أعظمهم نزاهة وتجردا » (٨٤) وقال هنرى مارتن « كان أول وزير عاش بعيداً عن الترف والبذخ ومات فقيرا » . (٨٥) وكان أمينا غاية الأمانة ،

ولم يسنّ استغلال منصبه قط . (٨٦) وكان إلى أبعد الحدود أكثر تسامحاً ممن يحيطون به « (٨٧) وعامل فولتير معاملة ودية لطيفة وتغاضى عن ممارسة الطقوس البروتستانتية سرا ، ولكنه لم يتسامح قط مع الجانسينيين .

ولم يعكف ، بطريقته المتروية المتأنية ، على تقرير السياسة فحسب ، بل على إدارة الحكومة كذلك . - اختار معاونيه بعد حكم فاحص مدقق ، وساسهم في حزم وكياسة . وفي عهده تابع هنرى فرنسوا دى أجوسو مهمته الطويلة المدى (١٧٢٨ - ١٧٥١) في اصلاح القوانين وتنسيقها ، وأعاد فيليبرت أورى النظام والاستقرار إلى مالية الدولة . وتجنب فليرى الحرب حتى أكره عليها بسبب الأطلاع الأسرية في الأسرة الحاكمة ، ومن ثم هياً لفرنسا فترات سلام وهدوء طويلة ، سمحت لها باستعادة الانتعاش الاقتصادى . وبدا أن نجاحه برر مقدماً الحجج التى ردها الفيزيوقراطيون « أن نحكم حكماً يسيراً معناه أن تحكم حكماً صالحاً » (حرية التجارة والصناعة وعدم تدخل الحكومة فيهما) . وواعد بوقف التضخم ، وأوفى بوعد . واتسعت التجارة الداخلية والخارجية ، وزاد الدخل . وحيث أنفق الإيرادات في قصد أكيد بعيد عن التبذير ، وحدث من نفقات مهرجانات الحاشية الملكية ، فإنه استطاع أن يلغى ضريبة الـ ٢ ٪ على الدخل بالنسبة لكل الطبقات ، وأن يخفف ضريبة الأملاك التى بهتت كاهل الفلاحين وأعاد إلى المدن الكبيرة والصغيرة الحق في انتخاب موظفيها الرسميين واقتداء بالمثل الذى ضربه فليرى في الاستقامة تحسنت أخلاق رجال البلاط على كره منهم .

وفي مقابل هذه المفازر والمزايا تطل بعض المآخذ الجسيمة برؤوسها إنه رخص للملتزمين العامين في الاستمرار في جمع الضرائب دون تدخل من جانب الوزارة . وتعزى منه للمشروع الضخم الذى وضعه المحافظون ، أقر نظام السمخرة الذى فرض على الفلاحين العمل دون مقابل اللهم إلا الطعام . وأسس مدارس عسكرية لأبناء الأستقراطية ، ولعله قبض يده بشكل مغل غير حكيم بإهماله إصلاح البحرية والتوسع فيها ، وسرعان ما باتت تجارة

فرنسا ومستعمراتها تحت رحمة الأساطيل الإنجليزية . إنه وثق ثقة عمياء في قدرته على المحافظة على السلام بينه وبين إنجلترا .

وطيلة حكم روبرت وولبول في إنجلترا نجحت سياسة السلام التي اتبناها الكاردينال . فإن الرجلين . ولو أنهما كانا على طرفي نقيض في الخلق والطباع ، اتفقا على أن السلام أمر مرغوب فيه . على أنه في ١٧٣٣ ، حضره مستشاروه في الشؤون الخارجية على القيام بمحاولة فاترة لاجلاس ستانسلاس لركزنسكى ، وهو حمو الملك . على عرش بولندا ، ولكن ستانسلاس اقترح اصلاح دستور بولندا وتشكيل حكومة قوية ، وآثرت كل من روسيا والنمسا أن تكون بولندا عاجزة مهيضة الجناح ، فرفضنا هذا الاقتراح . وفي حرب الوراثة البولندية ١٧٣٣ - ١٧٣٨) طردتا لركزنسكى من وارسو ثم من دانزج . ولما كان فليرى يعارض أى صراع خطير ، فإنه نصح ستانسلاس بأن يلجأ إلى نانسى ولونفيل حاملا لقب « ملك اللورين » . ولم تقع الكارثة ، فإن لركزنسكى والدول اتفقوا على أنه عند وفاته تعود إلى فرنسا اللورين التي كانت فرنسية إلى أبعد حد . وهذا ما حدث في ١٧٦٦ .

وجاهد فليرى الذى كان في الثامنة والثمانين قدر طاقته المتضائلة ، أن ينأى بفرنسا عن حرب الوراثة النمسية (١٧٤٠) ، ولكن امرأة فرضت سلطانها عليه . ذلك أن فليسيتيه دى نسل مركيزة فنتميل ، التي كانت آنذاك تشارك الملك فراشه أصغت في بهجة وفرح إلى شارل أوجست فوكيه ، كونت دى بل أيل . حفيد المختلس البار نيقولا فوكيه الذى كان لويس الرابع عشر قد أحسن صنعا بعزله . إن بل أيل هذا أبلغ المركيزة أن فليرى رجل هرم أحرق ، وأنه في مهاجمة فردريث الثانى ملك بروسيا للملكة الشابة ماريا تريزا ملكة النمسا ، فرصة ذهبية لتمزيق إمبراطورتها ، وأن فرنسا ينبغي أن تنضم إلى فردريك ، وتقتسم الغنائم . وصبت العشيقه الفاتنة هذه الكلمات في آذان الملك الوهان . وأقنعته بأن ينتزع زمام الأمور من بين يدي الكاردينال اللتين ترتعدان خوفا وجبنا ، ويستعيد مجد فرنسا .

وناشد فليرى بأن الشرف والمصلحة تحولان دون المضي في مشروع بل آيل .
فإن إنجلترا لن تسمح بتدمير النمسا لتصبح فرنسا عظيمة إلى حد يندر بالخطر .
وأن على فرنسا أن تدخل في حرب مع إنجلترا أيضا ، وأن فرنسا في خير حال
في السلم ! وفي ٧ يونية ١٧٤١ أعلن لويس الحرب على النمسا . وفي ٢٥
نوفبر استولى بل آيل على براج ، واتفقت معه كل فرنسا تقريبا على أن
فليرى عجوز أحمق .

وبعد عام في الحرب تخلى فردريك المراوغ عن فرنسا وعقد سرا هدنة
مع النمسا ، وإذ تحورت الجيوش النمسوية على هذا النحو ، تقدمت إلى بوهيميا ،
وشرعت في تطويق براج . ولم تكن إلا مسألة وقت ، ليضطر إلى التسليم
بل آيل وجيشه المؤلف من عشرين ألف رجل ، أقص مضاجعهم وأزعجهم
الأهالي الذين أضمروا لهم العداة . وفي ١١ يولية ١٧٤٢ أرسل فليرى إلى
القائد النمسوي كونت فون كونيغزج نداء مدلا يناشده فيه شروطا معتدلة
للحامية الفرنسية ، قال فيه « يعلم كثير من الناس كم كنت أرضى القرارات
التي اتخذناها ، وإني أرغمت بطريقة ما على الموافقة عليها » (٨٨) فأرسل
كونيغزج الخطاب إلى مارياتريزا التي نشرته على العالم . وأرسل جيش فرنسي
لإنقاذ بل آيل ، ولكنه لم يصل إليه قط . وفي ديسمبر ترك بل آيل وراءه
سنة آلاف من المرضى والجرحى ، وغادر بقواته الأصلية براج إلى الحدود
عند ايجو ، ولكن عملية الفرار هذه حدثت في قلب الشتاء عبر مائة ميل
جبال ومستنقعات مغطاة بالجليد أو الثلوج ، ولم تنقطع غارات العدو عليهم
طيلة انسحابهم ، وهلك من الأربعة عشر ألف رجل الذين بدأوا هذه
المسيرة اثني عشر ألفا في الطريق ، وامتدحت فرنسا هذا الإنقاذ الرائع
بالارتداد المذهل . وتخلي فليرى عن الوزارة ، وآوى إلى الدير في اسي
حيث فارق الحياة (٢٩ يناير ١٧٤٣) وهو في سن التسعين .

وأعلن الملك أنه سيتولى رئاسة الوزارة بنفسه . نذ الآن

٥ - لويس الخامس عشر

عجبا : ماذا يكون شعور الإنسان عندما يكون ملكا وهو فى سن الخامسة ؟ ان الصبى الذى قدر له أن يحكم فرنسا طيلة تسعة وخمسين عاما ، كان لا يكاد يسترعى الانتباه أو الملاحظة فى طفولته المبكرة ، كان ضعيفا هزيلا ، يتوقعون أن يعاجله الموت بين آونة وأخرى . وفجأة فى ١٧١٢ توفى والداه دوق ودوقة برجندى بالجدرى ، وأصبح الصبى وريث العرش . وبعد ثلاث سنوات كان هو الملك .

وانخذت كل الاحتياطات لجعله غير صالح للحكم . وقلقت مربيته مدام دى فتادور أشد القلق على صحته ، وعملت على وقايته من قسوة الجو ، وغرس فيه كاهن اعتراف يسوعى احتراماما رهيبا للكنيسة . وكان فليرى ، معلمه ومؤدبه ، كيسا متسامحا ، ويبدو أنه فكر فى أنه من الخير لفرنسا أن يكون مليكها كسولا بليدا . أما معلمه الخاص ماريشال دى فيلرول فقد دبر سماً عكسيا . حيث قاده إلى نافذة فى قصر التويلارى ليرى الجماهير التى احتشدت لتصفق وتهلل وتهتف له ، وهو يقول « انظر يا مولاي ، هذا الجمع وهؤلاء الناس كلهم لك تابعون لك . أنت مليكهم وسيدهم .^(٨٩) واقترنت القدرة على كل شيء بالعجز وعدم الأهلية لأى شيء .

لقد أفسد لويس هالة القداسة التى أضفوها عليه ، وكان أنانيا فى سلطته بليدا عنيدا ، ومن ثم نشأ شابا ضجرا صموتا ، مع التجاوز عن تجنبه مراقبة حراسه وفيما بعد تجنبه مراسم حاشيته وخنوعها ليوجد متنفسا فى الحضر على الخشب وشغل الأبرة وحلب البقرة واللعب مع الكلاب .^(٩٠) إن عناصر القسوة التى تكمن فىنا جميعا تمكنت عنده من أن تظهر إلى السطح من خلال جبينه . ويروى أنه كان فى صباه يجد لذة فى صيد الحيوانات بل قتلها .^(٩١) وفى سننى نضجه هذب من هذه القسوة إلى مجرد الصيد ، وربما برزت فى سوء معاملته ، وسرعة نبذه للبنات اللاتى شاركنه فراشه بعد تدريبهن على ذلك فى « متنزه الأطباء » على أن معاملته

لأصدقائه تميزت بقدر من الحساسية المقرونة بالجلد والحجل ومراعاة شعورهم وحقوقهم .

وكان له ذهن سليم ، كان من الممكن أن يتفوق لو أن الاخلاق ساندته ودعمته . وأدهش الجميع بقوة ذاكرته وسرعة بديهته . وكان بطبيعته يؤثر الألعاب على الدرس . ولكنه استوعب بعض التعليم الصحيح في اللاتينية والرياضيات والتاريخ وعلم النبات والفنون العسكرية . وشب فارغ الطول نحيل القوام ، ولكن عريض المنكبين ، مع بشرة جميلة وشعر ذهبي متجدد . وقال عنه «ماريشال دي ريشيليو» « أكثر الصبية وسامة وملاحة في مملكته » (٩٢) يحتفظ متحف فرساي بصورة رسمها له فانلر ، وهو في الثالثة عشرة بالسيف والدرع ، مما يكاد يتلاءم مع الوجه الصبياني . وقارنه رينيه لوس دي آرجنسون باله الحب عند اليونان « ايروس » (كيوبيد عند الرومان) . ووقعت النساء في غرامه لأول نظرة . وحين مرض في ١٧٢٢ وصلت كل فرنسا من أجله ، وعندما أبل من مرضه بكت كل فرنسا فرحا وابتهاجا . إن هذا الشعب الذي كثيرا ما عانى وقامى من ملوكة طرب وابتهاج لما راوده من أمل في أن الشاب سرعان ما يتزوج وينجب ابنا يحفظ العرش في الأسرة الكريمة العريقة .

والحق إنه كان قد خطب (١٧٢١) وهو في سن الحادية عشرة ، ماريانا آنا فكتوريا ، وعمرها عامان ، ابنة فيليب الخامس ملك أسبانيا . وكانت قد انتقلت إلى باريس ، وكانت الآن تنتظر أن تبلغ سن الزواج . ولكن مدام دي برى رأت أنها قد تستطيع الاحتفاظ بنفوذها المتريد بفسخ هذا القران المرتقب ، وشرعت في تنفيذ خطتها ، وأعيدت الأميرة إلى أسبانيا (١٧٢٥) وتلك إهانة لم يختمها البلاط الأسباني قط . وكان ستانسلاس في مأواه في ويزمبيرج في الألزاس حين تلقى طلب ملك فرنسا يد ابنته ، فدخل إلى الحجر التي كانت ابنته وأمها تعملان فيها وقال « فلنسجد شكرا لله » . فتعجبت ماري فرحة مبتهجة وقالت « أبى العزيز ، هل دعيت ثانية لارتقاء

عرش بولنדה ؟ « فأجاب ستانسلاس » بل إن الله من علينا بتعمة مذهلة أكثر . لقد أصبحت ملكة فرنسا « (٩٣) إن مارى لم تكن تحلم قط بارتقاء أعظم عرش في أوروبا . وكانت قد رأت صور لويس الخامس عشر ، شابا يكلمة المحمد والرفعة ، وسيما قوياً ، إلى أبعد حد . وأرسلت إليها الخزانة الفرنسية الأردية والثياب والملابس الداخلية والأحذية والقفازات والخوهرات ، ووعدتها بمائتين وخمسين ألف جنيه لدى وصولها إلى فرساي ، وبراتب سنوى قدره عشرون ألف كراون ذهباً مدى الحياة . وتلقت مارى هذا كله في ذهول وهى لا تكاد تصدق ، واتجهت إلى الله بالشكر على حظها السعيد . وفى ١٥ أغسطس ١٧٢٥ عقد قرانها على الملك بتوكيل فى ستراسبورج ، وسارت فرحة إلى باريس عبر طرق تجتاحها العواطف لعدة أيام قاسية . وزفت إلى الملك فى فونتينبلو فى ٥ سبتمبر . وكان هو فى الخامسة عشرة . وكانت هى فى الثالثة والعشرين من العمر ، ولم تكن جميلة ، بل طيبة فقط .

أما لويس الذى لم يكن قد أبدى بعد ولعاً بالنساء ، فإنه أفاق عندما مس عروسه المتواضعة ، وعانقها فى حرارة أدهشت حاشيته ، وكانت حياتهما لبعض الوقت مثالا للحب والسعادة ، وحظيت باحترام الناس وولائهم ، ولكنها لم تكن يوماً ذات شعبية أو محبوبة . وكانت لطيفة ودودة رقيقة حساسة ، لا تعوذا الدعابة المرحة ، ومع ذلك افتقدت فرساي فيها الذهن المتوقد والحديث المرح المفعم بالحياة . مما أصبح لزاماً أن تتحلى به سيدات البلاط . وصعقت مارى لأخلاقيات الأرستقراطية الفرنسية ، ولكن نقدها لها لم يجاوز أنها ضربت مثالا للزوجة الأمينة المخلصة الحريصة على اسعاد زوجها وعلى الجباب وريث له . وعلى مدى اثني عشر عاماً وضعت عشرة أطفال ، وفى سنوات أخرى عانت كثيراً من الاجهاض . وكان أشباع شهوة الملك معضلة واجهت الملكة . أنها توسلت إليه أن يتعنف ويستعصم ، على الأقل أيام الاحتفال بأعياد كبار القديسين ، وأصبحت فى غمرة جهودها وواجباتها « بناسور » خبيث ، والتمست « الحرارة » التى تضطرم بين جنبي

الملك منافذ أخرى . وكان عرفانها بحسن صنيع مدام دى برى والدوق دى بوربون محنة ابتليت بها وأصغت في صبر ناقد حين هاجم الدوق بوربون فليرى في حضرة الملك . وعندما تولى فليرى زمام السلطة أرسل بناتها إلى ديرناء بحجة الاقتصاد في النفقات . ورجح نفوذه المتزايد من كفة أعدائها . ولما زاد فتور الملك نحوها آوت إلى حلقة محدودة من أصدقائها ، ولعبت الورق ونسج البسط ، وحاولت الرسم ، ووجدت بعض السلوى والعزاء في التقوى وأعمال البر . « وعاشت حياة الدير والرهبنة وسط انفعالات الحاشية وعيها » (٩٤) .

وكان ينبغي للملك أن يلهو ويتسلى ، ولكن مدام دى برى كانت قد اختارت له زوجة غير مسلية . على أنه لم يتخذ خليفة إلا بعد سبعة أعوام من زواجه ، وعند ذلك اتخذ أربعاً على التعاقب ، مع قدر محدود من الاخلاص ، لأنهن كن أخوات . ولم يكن رائعات الجمال ، ولكن كن جميعاً نشيطات مسليات مفعمات بالحوية ، وكن جميعاً ما عدا واحدة ذرات خبرة بأساليب الفنج والدلال والعبث . وواضح أنه كان للويزا دى نسل كونتيسة دى ميللى الشرف في أن تكون سبابة إلى إغراء الملك واغوائه (١٧٣٢) . انها ، مثل لويزا دى لآ فالبير ، أحلصت في حبها لعشيقها المللكى ، ولم تكن تسعى للثراء أو السلطة ، وكل ما سعت إليه هو أن تسعده . فلما زاحمتها أختها فليسيته ، وكانت لثوها قد غادرت الدير ، على مخدع الملك ، فإن لويزا شاوكتها في لويس (١٧٣٩) في قران رباعى مهرطق — لأنه ظل يتردد على المللكة . وأزعج هذا التعقيد ضمير الملك ، وتجنب تناول القربان المقدس ، لفترة من الوقت ، بعد أن سمع قصصاً رهيبية مفزعة عن أناس كانوا قد تناولوا القربان في فم آثم خاطئ . (٩٥) إن هذه المرأة المغوية الخطرة (السيرانه : عند الإغويق كائن أسطورى له رأس امرأة وجسم طائر ، كانت تسحر الملاحين بغنائها فتوردهم موارد الهلاك) — كما تروى إحدى أخواتها « كان لها شكل الغرناد (سملك بحرى) وعنق الغرنوق (طائر ذو عنق طويل) ورائحة القرد » (٩٦) . ومع ذلك احتالت

التحمل . وحفاظا على ماء الوجه وآداب المجتمع أوجد لها لويس زوجا ،
وعينها مركيزة فتميل . وفي ١٧٤٠ آوت مدام دي ميللى إلى أحد الأديار ،
ولكنها غادرته بعد عام واحد لترعى منافستها المتصرة التي كانت تعانى
سكرات الموت أثناء الولادة (١٧٤١) . ويكى الملك وبكت مدام دي ميللى
معه . ووجد بعض العزاء بين ذراعها ، وعادت عشيقه له من جديد .

وثمة أخت ثالثة ، أدلند نسل ، البدينة الديمة ، وكانت بارعة ذكية ،
عملت على تسلية الملك بحركاتها الجسدية وسرعة بدنتها وأجوبتها السريعة .
واستمع الملك بها ، ووجد لها زوجا ، وظل على علاقته بها . أما الأخت
الرابعة ، مدام دي فلافاكور ، فإنها صدت الملك وصادقت الملكة . ولكن
الأخت الخامسة ، أقدرهن جميعاً ، هى مارى آن دي نسل دي لاثورنل ،
أقنعت مدام دي ميللى بأن تقدمها للملك . ولم تغز مارى قلب الملك فحسب ،
بل إنها أصرت كذلك على أن تكون المحظية الوحيدة ، وأقصيت ميللى
فقيرة معدمة ، وهوت بين عشية وضحاها من أبهة الملكية إلى كتابة الدبر .
وهكذا أزاحت كل من الأخوات من بنات نسل أختها لها . وبعد ذلك بقليل
كانت مارى تشق طريقها لتصل إلى مقعدها فى كنيسة نوتردام ، فكان
فى هذا ازعاجا لجماعة من المصلين ، وتذمر أحدهم قائلا : « كل هسله
الضجة من أجل بنى فاجرة : » فقالت هى « سيدى ، ما دمت عرفتنى
جيذا فأرجو أن تمن على بالصلاة لله من أجلى . » (١٧) « ولا بد من أن الله
سبحانه وجد من اليسير أن يفقر لها .

وكانت السيدة نسل الجديدة أجمل الأخوات . إن الصورة التى رسمها
لها نائيه - وجهه وسيم ، صدر بارز منتفخ ، قوام رشيق ، فى ثوب من
حرير مهفهب متموج يكشف عن قدمين صغيرتين رقيقتين - تفسر شدة
اندفاع الملك نحوها وميله إليها . وإلى هذا كله كانت تجمع ذكاء متقددا
قدر بريق عينها . وعلى التقيض من دي ميللى كانت مارى تتلطف على
الأنو والسلطان . وقدرت أن نفقاتها تستحق أن يكون لها دوقية شاتورو

التي تدر ٨٥ ألف فرنك في العام ، فحصلت عليها وعلى لقب دوقه (١٧٤٣) . ودخلت التاريخ لمدة عام .

وتحيز لها وساندها حزب قوى في البلاط ، كان يأمل في استخدام نفوذها في كسب الملك إلى جانب سياسة عسكرية فعالة ، تعود فيها سلطة الحكومة من البيروقراطية البرجوازية إلى النبالة العسكرية (نبلاء السيف) وكان لويس في بعض الأحيان ، شعورا منه بالواجب ، ينهك في العمل مع وزرائه ، ولكنه على الأغلب كان يفوض إليهم سلطاته وواجباته . ونادرا ما اجتمع بهم ، أو عارضهم ، وأحيانا وقع مراسيم اقترحها أو عرضها عليه أعوان متنافسون . وهرب من قواعد التشريفات في البلاط إلى كلابه وجياده وإلى الصيد والقنص . فإذا لم يخرج يوما للصيد قال رجال الحاشية « أن الملك لا يفعل شيئا اليوم » . وعلى الرغم من أنه لم تعوزه الشجاعة ، فإنه لم يكن يميل إلى الحرب ، وكان يؤثر الفراش على الخلد .

وفي الخلد وفي حجرة الجلوس حرضت الدولة الشهبانية اللعوب - مستعيدة ذكرى أجنيس سوريل - الملك على القيام بدور فعال في الحرب ضد إنجلترا والنمسا . وصورته له لويس الرابع عشر يقود جيشه إلى المجد والعظمة في مونزونامور ، وتساءلت : لماذا لا يتألق لويس الخامس عشر الوسيم الشجاع في درعه وسيفه على رأس جيشه ، مثلما كان يفعل جده العظيم . ونجحت الخطة ، وماتت الدوقة منتصرة . وأفاق الملك الكسول لحظة من سباته . وربما كان نتيجة لاستحاثها وتحريضها ، إنه عندما حانت منية فليرى المسالم ، أعلن لويس أنه سيحكم ويملك معا . وفي ٢٦ أبريل ١٧٤٤ استأنفت فرنسا الحرب الفعلية ضد النمسا ، وفي ٢٢ مايو تجدد التحالف مع فردريك ملك بروسيا الذي بعث بشكره وامتنانه إلى مدام شاتوره . وتقدم لويس إلى الجبهة في أهته الملكية وتبعه بعد يوم واحد خيالاته وسائر سيدات البلاط ، تحيط بهن كل مظاهر البذخ والترف المألوفة ، وكسبت القوات الفرنسية الرئيسية التي يقودها الملك ، ولكن يخطط عملياتها

أدريان موريس دى نواى وموريس دى ساكس ، انتصارات يسيرة فى كورتراى ومنان وأبرس وفورنيس . وبدا وكان لويس الرابع عشر والقرن العظيم ولدا من جديد .

ووسط المهرجانات والابتهاجات ترامت الأنباء بأن قوة فرنسية تخلى عن مسانبتها إلى حد كاف حلفاءها البافاريون ، كانت قد هيأت الفرصة لجيش نمسوى مجرى أن يحتل أجزاء من الالزاس واللورين ، مما اضطر معه ستلانلاس الذى لم يفارقه سوء الطالع ، إلى الهرب من لوفيل . وترك لويس فلاندرز وأسرع إلى متزأملا فى استئارة هم الجيش المنهزم بوجوده . ولكنه ، هناك ، نتيجة المشاغل المتنوعة وسوء الهضم وحرارة أواسط الصيف ، انتابه مرض شديد ، وازدادت الحالة سوءا بسرعة إلى حد أنه فى ١١ أغسطس ظن أن فى خطر من أن يهلك ، وكانت خليلته قد لحقت به ، وهى الآن تسهر على العناية به ورفض أسقف سواسون أن يناوله الأسرار المقدمة الأخيرة إلا إذا طردت الدوقة . واستسلم لويس ، وأقصاها إلى نحو ١٥٠ ميلا بعيدا عن الحاشية (١٤ أغسطس ١٧٤٤) وشيعها الأهالى بصيحات الاحتقار والاستنكار وهى تغادو المدينة .

وفى الوقت نفسه كانت ماري لوكزنسكى قد عجلت بالسفر عبر فرنسا لتكون إلى جانب زوجها وهو طريح الفراش . وعلى الطريق التقى ركبها بعربة شاتورو وبطانتها . وعانق الملك الملكة قائلا « لقد سبيت لك مالا تستحقين من الحزن والأسى ، وأرجو أن تغتفرى لى هذا كله » . فكان جوابها « ألا تعرف أنك لست فى حاجة أبدا إلى الصفح من جانبي . إن الخطأ فى حق الله وحده » . وعندما بدأ الملك يسترد صحته كتبت الملكة إلى مدام دى موريا بأنها « أسعد مخلوقة على وجه الأرض » . واغتبطت فرنسا كلها أيما اغتباط بشفاء الملك وندمه على ما فات ، وعانق المواطنين بعضهم بعضا فى الشوارع ، وعانق بعضهم جواد الرسول الذى حمل هذه الأنباء السارة . واطلق بعضهم على الملك « لويس المحبوب جدا » ورددت الأمة هذه العبارة . وعندما سمع بها لويس تعجب قائلا « ماذا فعلت لأجعلهم يحبوننى إلى هذا الحد ؟ » (٩٨) إنه كان رمز الوالد لشعبه .

وأُنقذ فرديريك الألزاس لفرنسا بغزو بوهيميا ، فإن الجيش النمساوي
المجري ترك الألزاس لإنقاذ براج . وانضم لويس ، وهو لا يزال ضعيفا إلى
جيشه المتقدم نحو ألمانيا ، وراه يستولى على فريبورج - أم بريسجو . وفي
نوفمبر عاد الملك إلى فرساي ، وأعاد مدام دي شاتورو إلى سابق حظوتها
ومكانتها ، ونفى أسقف سواسون . ولكن في ٨ ديسمبر ، وبعد أن عانت
من الحمى والهذيان لعدة أيام ، قضت الخليفة نجها . ودفنت في ظلام الليل ،
تفاديا لامتهان الجمهور لرفاتها . واستاء الملك من رجال الدين فامتنع عن
تناول الأسرار المقدسة في عيد الميلاد ، وظل يترقب غراما جديدا .

ونسيت الأمة لبعض الوقت خطايا « المحبوب جدا » وسط انتصارات
جيشه ، وكان قائد ألماني بروتستانتى هو بطل فرنسا . ذلك أن موريس
دى ساكس كان ابن أوغسطس القرى ناخب مكسونيا وملك بولندا .
وكانت أمه هى الكونتس ماريا أورورا فون كونيجز مارك التى اشتهرت
بين محظيات الملك بالجمال والذكاء إلى حد أطلق معه فولتير عليها « أنها
أشهر امرأة على مدى قرنين من الزمان » (٩٩) . وفي سن الثانية عشرة تزوج
موريس من جرهانا فكتوريا ، كونتيس فون لوين ، وكانت سيئة الخلق
مثل أبيه . وبدد ثروتها واستنكر دعارتها وفجورها وطلقها (١٧٢١) .
وبعد أن أظهر شجاعته في حملات كثيرة قصد إلى باريس لدراسة الرياضيات .
وفي ١٧٢٠ حصل على منصب في الجيش الفرنسى . وبعد أن نجح من كل
محاولات زوجته السابقة لقتله بالسم ، عثر على خلية مخلصه في شخص
أدرين لكوفرير التى برزت مكانتها في الكوميدي فرانسيز آنذاك
(١٧٢١) . وفي ١٧٢٥ غادر فرنسا ليؤسس له مملكة في كورلند (جزء
من لتفيا الحالية) . أما الممثلة العظيمة ، فإنها على الرغم من حزنها الشديد
على فقد حبيبها ، منحته ، عوناً له على تنفيذ مشروعه ، كل ما لديها من
من فضة وحلى ومصوغات ، قيمتها أربعون ألف جنيه . وبهذا المبلغ ،
بالإضافة إلى سبعة آلاف طالير (عملة فضية ألمانية قديمة) من والدته ،
قصد إلى كورلند ، وانتخب لعرش الدوقية (١٧٢٦) . ولكن كاترين

الأولى قيصر روسيا وأياه ساندا مجلس الديت البولندي في مناهضة ارتقائه العرش ، وطردت القوات البولندية من كورلند ، الجندي الذي لم يكن ليقهر لولا هذه المقاومة ، ولما عاد إلى باريس (١٧٢٨) وجد أن الممثلة الكبيرة كانت تنتظره مخلصه له ، ولكنه كان قد ورث عن أبيه خلقه وتقلبه ، ورضى بها صاحبة الخطوة الأولى بين عشيقاته .

ومع هذا الانحلال الخلقى الجدير بالازدراء وتقلبه بين أحضان النساء الواحدة بعد الأخرى دون أن يبادهن اخلاصهن ، أصبح موريس في ميدان القتال عبقريا لا يجارى في استراتيجية الحرب ، جريئاً في تفكيره ، يقظاً لأي خطر يتهدده ، وأية فرصة تسنح له . وقال عنه فرديريك الأكبر مناسه الوحيد في ذلك العصر إنه « قادر على تلقين الدروس لأي قائد في أوربا » (١١٠) وفي ربيع ١٧٤٥ عين قائدا عاما للجيش الفرنسي ، وصدرت إليه الأوامر بالتقدم نحو الجبهة . وكان على شفا الموت آنذاك في باريس ، حيث أنهكه إفراطه في الشراب وآلام داء الاستسقاء المبرحة ، وسأله فولتير كيف يذهب إلى ميدان القتال في مثل هذه الحالة ، فأجابه موريس « ليس المهم أن أعيش ولكن المهم أن أبدأ » . (١١١) . وفي ١١ مايو التحم بجيشه البالغ ٥٢ ألف رجل مع قوات الإنجليز والهولنديين البالغ عددهم ٤٦ ألفا من الرجال الأشداء ، في فونتنوي . وكان لويس والدوفين يتابعان سير المعركة الشهيرة على ربوة قريبة ، أما موريس الذي أعده الاستسقاء عن ركوب الخيل ، فكان يديرها وهو على كرسي من الأغصان المجدولة . ويروي لنا فولتير ، فيما كان يمكن أن يتطور إلى أسطورة وطنية ، (١١٢) أنه عندما أصبح مشاة الأعداء وجهاً لوجه على مرعى البنادق ، صاح لورد تشارلز هاى قائد الحرس الإنجليزى « أيها الفرنسيون أطلقوا النار » فأجابه كونت دى أنتروخ عن الفرنسيين « أيها الرجال ، نحن لن نبدأ بإطلاق النار ، فهل تبدأون أنتم » (١١٣) وأيا كان الأمر كياسة أو خدعة حربية ، فإن الثمن كان غالبا ، حيث قتل بالطلقات الأولى تسعة ضباط و ٤٣٤ من المشاة ، وجرح ٣٥ ضابطا و ٤٣٠ جنديا . (١١٤) واضطرب المشاة الفرنسيون وتفرقوا وولوا الأذبار . وأرسل موريس إلى الملك يعرض عليه الانسحاب ، فأبى لويس ، حتى حين وصل

إلى مكانه الجنود العائدون ، وربما أخرجهم تصميمه . فما كان من موريس إلا أن امتطى صهوة جواد ، وأصدر أوامره إلى قواته من جديد وأعاد تنظيمها ، وأطلق القوات الملكية الخاصة على العدو . وقد رأى الفرنسيون مايكهم في خطر الأسر أو الهلاك ، وحيث شجعهم وجود ماريشال دى ساكس المتهور تحيط به طلقات النار من كل مكان في أية لحظة ، فإنهم جددوا القتال ، وأبدى النبلاء والعامّة بطولة عظيمة مشربة بروح الانتقام في ساحة المجد . وأخيرا هزم الإنجليز واختلت صفوفهم ، وأرسل موريس إلى الملك يبشره بالفوز في هذا الالتحام المرير . وفقد الإنجليز والهولنديون ٧٥٠٠ رجل ، والفرنسيون ٧٢٠٠ . وحنى لويس رأسه خجلا حين حياه الجنود الباقون على قيد الحياة . والتفت إلى اللوفين ولى العهد قائلا « انظر يا بني كم يكلف النصر ، احرص على أن تكون ضنينا بدماء رعاياك » (١٠٥) . وبينما عاد الملك ومرافقه إلى فرساي ، تقدم موريس للاستيلاء على غنت وبروجز وأودينارد وأوستند وبروكسل . ودانت الفلاندرز كلها لفرنسا فترة من الزمن .

وضيع فردريك نتائج فونتنوى بتوقيعه صلحا مفردا مع النمسا (ديسمبر ١٧٤٥) وتركت فرنسا تقاتل وحدها على ست جهات من الفلاندرز إلى إيطاليا . وبمقتضى معاهدة إكس لاشابل (١٧٤٨) تخلت عن الفلاندرز ، وكان عليها أن تقنع بالحصول على دوقيات بارما وبياشنزا وجوستيلا لصهر لويس الجديد (زوج ابنته) الأمير دون فليب الأسباني . وعاش موريس أوف سكسونيا حتى عام ١٧٥٠ ، غنيا معززا مكرما ، ومثقلا بالأمرض . وكان يجد فسحة من الوقت ، بين الغواني ، ليلون بعض نظرات فلسفية حاملة : « ماذا نرى اليوم في الأمم ! نفر من الناس يعيشون في فراغ وسرور وجدة على حساب الجاهير التي لا تعيش إلا على توفير ملذات جديدة دوما لهذه القلة من الناس . إن هذه المجموعة من الظالمين والمظلومين تشكل ما نسميه مجتمعا » (١٠٦) .

وتجاسر رجل آخر من القلة المرموقة المنعمة على أن يحلم بنظام أرحم وأكرم . ذلك أن رينيه لويس دى فوايه ، مركزيز أرجنسون الذى تولى منصب وزير الخارجية لمدة ثلاث سنوات (١٧٤٤ - ١٧٤٧) ، كتب فى ١٧٣٩ « تأملات فى حكومة فرتسا » ، ولم يجرؤ على نشره إلا فى ١٧٦٥ . وجاء فيه أن هؤلاء الذين يفلحون الأرض هم أعظم قطاع فى السكان قيمة ، وينبغى أن يتحرروا من كل الرسوم والالتزامات الإقطاعية ، والحق أنه يجدر بالحكومة ، أن تقرض صغار الفلاحين أموالا لتساعدهم على الاتفاق على زراعاتهم^(١٠٧) . والتجارة حيوية لازدهار الأمة ويجب تحريرها من المكوس والرسوم الداخلية ، بل من رسوم التصدير والاستيراد كلما أمكن ذلك . والنبلاء هم أقل العناصر قيمة فى الدولة ، أثبتوا عجزهم فى الإدارة ، وهم عالة على المجتمع » . وإذا قال أحد بأن هذه المبادئ تتفق مع الديمقراطية ، وتميل إلى القضاء على طبقة النبلاء فلن يكون مخطئا . ولأنه ليجدر بالتشريع أن يهدف إلى أكبر قدر ممكن من المساواة . وينبغى أن يحكم الكوميونات موظفون ينتخبون محليا ، على أن تبقى السلطة المطلقة الرئيسية فى يد الملك ، لأن الملكية المطلقة وحدها هى القادرة على حماية الناس من ظلم الأقوياء^(١٠٨) . واستبق دى أرجنسون الفلاسفة فى التطلع إلى الإصلاح على يد ملك مستنير ، وقص على النبلاء ما لم يعترفوا به إلا فى ٤ أغسطس ١٧٨٩ حين تنازلوا عن امتيازاتهم الإقطاعية ، ومن ثم كان مرحلة فى طريق فرنسا إلى روسو وإلى الثورة .

وفى ١٧٤٧ استسلم لويس لتحريرض نواى ومورياس وبمبادور وعزل دى أرجنسون . وفقد المركز ثقته فى الملوك . وفى ١٧٥٣ تنبأ بما حدث فى عام ١٧٨٩ : « إن المسارئ والشورور الناجمة عن الحكومة الملكية الاستبدادية لتقنع كل فرنسا وكل أوربا بأنها أسوأ الحكومات وإن هذه الفكرة لتبرز وتنتشر وتزداد قوة ، وقد تؤدى إلى ثورة وطنية . . . وكل شىء يمهّد الطريق إلى حرب أهلية . . وأذهان الناس مهياة للتمرد

والعصيان ، ويبدو أن كل شيء يتجه إلى ثورة كبرى في الدين والحكومة
معاً (١٠٩) .

أو كما قالت خليعة الملك الجديدة « من بعدى الطرفان » .

مدام دي بمبادور

هي من أشهر النساء في التاريخ ، وأوتيت من الرشاقة والجمال ما أعمى
أبصار معظم الرجال عن آثامها وخطاياها ، ومع ذلك وهبت من قوة الذهن
ما مكنتها لمدة عقد زاهر من السنين ، من أن تحكم فرنسا وتحمي فولتير وتنقذ
موسوعة ديدرو ، مما أدى بالفلاسفة إلى القول بأنها تنتسب إليهم . . ومن
العسير أن ننظر إليها في الصورة التي رسمها لها بوشيه دون أن نفقد نزاهة
المؤرخ في الافتتان بالإنسان . فهل كانت دي بمبادور إحدى روائع الطبيعة ،
أو إحدى روائع بوشيه فحسب ؟

وكانت قد بلغت الثامنة والثلاثين حين رسمها ، وكانت صحتها الهزيلة
تتدهور ، ولم يحط من قدرها بالحسية أو الشهوانية السطحية في صوره العارية
المشرقة . وبدلاً من ذلك أبرز تقاطيع وجهها الرائعة ، ورشاقة قوامها ،
والذوق في ملابسها . والرقعة الناعمة في يديها ، « وتسريحة » شعرها الخفيف
الأسمر عالياً فوق الجبين . وربما زاد من قيمة هذه المفاتن بجماله ومهارته ،
ولكنه مع ذلك لم ينقل ضحكاتها المرححة المستهترة ، ولا ريمحها الوديع ،
بل لم ينقل ذكاءها الحاد الماكر ولا قوة شخصيتها الهادئة ، ولا صلابة
إرادتها التي لا تلين ولا ترحم أحياناً .

وكانت جميلة منذ ولادتها تقريباً . ولكنها لم تحسن اختيار والديها ،
فكان عليها أن تناضل طوال حياتها ضد إزدراء الاستقراطية للطبقة الوسطى
التي نبتت فيها . وكان والدها سمانا (بقالا) ، وهو فرنسوا بواسون الذي
لم يستطع يوماً أن يتخلى من اسمه « السيد سمك » (بواسون بالفرنسية معناها
سمك) . وآتهم بالاختلاس فحكم عليه بالاعدام ستقاً ، ولكنه هرب إلى
هبرج ، وتحايل للحصول على العفو عن جريمته ، وعاد إلى باريس

(١٧٤١) . أما والدتها فكانت ابنة « متعهد لتموين العجزة . » وشغلت بالارتقاء في أحضان الرجال ، بينما كان زوجها يستدر العطف في هبرج . واستمتعت بعلاقة غرامية طويلة بملتزم ثرى ، هو شارل فرنسوا لينورمانت دى تورنهم ، الذى تولى الاتفاق على تعليم البنت الجميلة التى وضعتها مدام بواسون في ١٧٢١ .

وأتيح لهذه الابنة ، جين أنطوانيت بواسون . أحسن ما يمكن أن يتاح من المعلمين ، جليوت ، الجهير العظيم ، للغناء ، وكرييون الأب لفن الإلقاء ، حتى باتت في الوقت المناسب تنافس نجوم المسرح في الغناء والرقص والتمثيل . وكان صوتها في حد ذاته اغواء . (١١٠) وتعلمت الرسم والحفر ، وعزفت على البيان القيثاري إلى حد تهمست له مدام دى ميللي في استحسان عزفها . ولما كانت جين في التاسعة من عمرها ثنأت لها سيدة عجوز (كافاتما فيما بعد على نبوءتها) بأنها ستصبح يوما ما « عشيقة الملك » (١١١) ولما بلغت الخامسة عشرة دعا جمالها وأعمالها البارعة أمها إلى القول بأنها « طبق شهى للملك » ، ولو أنه من المؤسف أنها لن تكون ملكة . (١١٢) ولكن « الطعام الشهى الملكى » كانت قد بدأت تسعل دما .

وفي سن العشرين أغراها مسيو دى تورنهم بأن تزوج ابن أخيه شارل غليوم لينورمانت دى اتوال ، ابن أمين صندوق دارسك النقود . وهام الزوج يحب زوجته ، وقدمها إلى المنتديات مفاخرا مزهوبا . والتفت في منتدى مدام دى تفسان بمونتسكيو وفونتنيل وديكلو وماريفو ، وأضافت فن الحديث إلى مفاتها الأخرى . وسرعان ما استضافت هى نفسها ، مع فونتنيل ، مونتسكيو وفولتير في بيتها . وكانت سعيدة . وأنجبت طفلين وأقسمت « أنه لن يحملها أحد في العالم ، إلا الملك ، على أن نخون زوجها أو تكون غير مخلصة له » (١١٣) أية بصيرة نافذة هذه !

وفكرت الوالدة في أن هذا الاستثناء من للمستطاع تدبيره . ورأت أنه يمكن أن تقصد جين مستقلة مركبة فاخرة إلى غابات سينار حيث يذهب لويس للصيد . وكثيرا ما رأى الملك وجهها الذى لا يمكن نسيانه . وقدمت

الرشاوى إلى غلمان الملك ليطروا جملها له، به . وفي ٢٨ فبراير ١٧٤٥ شهدت حفلة رقص تنكرية أقيمت في أوتيل دي فيل بمناسبة زواج الدوفين ، وتحديث إلى الملك ، وطلب منها أن تخلع القناع لحظة ، ففعلت ، ثم انصرفت وهي ترقص ، وفي أبريل رأها في مسرحية هزلية تمثلها فرقة إيطالية في فرساي . وبعد ذلك بعدة أيام أرسل إليها دعوة لتناول العشاء . ونصحتها أمها « بأن تسلي الملك رتدخل السرور على قلبه » وفعلت جين ، واستسلمت للملك . وعرض عليها جناحا في فرساي فقبلت . وحث مسيو تورنهم الزوج على أن يأخذ المسألة بروح فلسفية : « لا تعرض نفسك للسخرية بالاسترسال في الغضب مثل أى برجوازي ، أو بخلق مشكلة (١١٤) وعين الملك سيودي أتوال ملتزما عاما ، وكيف الرجل نفسه ليكون جامع ضرائب ، وابتهجت الأم بارتفاع مكانة ابنتها ، وقضت تحبها . وفي سبتمبر حصلت جين على ثروة عريضة ، وأصبحت المريضة دي بمبادور ، وقدمت بهذه الصفة إلى الحاشية وإلى الملكة التي هدأت من روعها ولاطفها في ارتباك طفيف . إن الملكة غفرت لها باعتبارها شرا لا بد منه ، ودعتها للعشاء . أما الدوفين فإنه ، على أية حال ، أطلق عليها « مدام هور » (السيدة البغي) واستاءت الحاشية لاقتحام سيدة برجوازية مخدع الملك واستيلائها على أمواله ، وما فاتهم أن يلحظوا انزلاقها من حين إلى حين إلى التفوه بألفاظ الطبقة الوسطى أو انتهاج أساليبها . وتمتعت باريس بالمقطوعات الساخرة والمهجاء اللاذع « لخادمة الملك الشابة » . وعانت في صمت وجلد بغض الناس لها ، حتى باقت قادرة على تثبيت انتصارها وفرض سلطتها .

وإذ رأت لويس وقد بلغ به السأم والضجر ذروته ، وهو الذي يملك كل شيء ، ولكن كل شيء كان قد فقد عنده كل نكهته وطلاوته، فإنها تفننت وأظهرت عبقريتها في تسلية والترفيه عنه . فألته بجلبات الرقص والمسرحيات الهزلية والحفلات الموسيقية وروايات الأوبرا ، وحفلات العشاء والتزهات والصيد والقنص ، وفيما بين هذا وذاك أدخلت على قلبه البهجة والسرور بمرحها وحيويتها وحديثها البارع وذكاها . وأقامت في فرساي

« مسرح البيت الصغير » ، وأقنعت الحاشية بالقيام بأدوار على المسرح ، كما كان الحال في أيام لويس الرابع عشر ، ومثلت هي نفسها في مسرحيات موليير الهزلية ، وقامت بدورها على خير وجه ، إلى حد أن الملك قال عنها « أشد النساء فتنة في فرنسا » (١١٥) . وتنافس النبلاء على تمثيل الأدوار . وقام الدوفين الصارم نفسه بدور أمام « السيدة البغي » . وتفضل بأن يكون دمثاً معها في دنيا النفاق . وأصاب الملك بعض نوبات دينية ، فهدأت من روعه بالموسيقى الدينية التي عزفتها بشكل يأسر ليه ، حتى نسي نخوفه من الجحيم . وأصبح يعتمد عليها كل الاعتماد لولعه بالحياة وتعلقه بها ، فأكل معها ، ولعب ورقص وقاد عربته واصطاد معها ، وقضى معها كل ليلة تقريباً . وما هي إلا بضعة سنين حتى خارت قواها وتدهورت صحتها .

وشكا البلاط من أن مدام دي بمبادور صرفت الملك عن مهامه بوصفه حاكماً ، وأنها كانت عبثاً ثقيلاً على خزانة الدولة ، فقد ازدانت بأغلى الثياب والجواهر ، وتألفت غرفة ملابسها بأنية الزينة المصنوعة من البللور والفضة والذهب . وازدانت حجراتها بالأثاث المطلى باللك أو الخشب الأطلساني أو المطعم بالصدف والعاج والمعادن ، وأروع آنية الخزف المصنوعة في درسدن وسيفر والصين واليابان ، وكانت تضاء بثريرات فخمة من الفضة والزجاج ، تنعكس أنوارها على مرايا ضخمة على الجدران ، أماسقوفها فكانت منغطة بالصور التي رسمها بوشية وفانلو لإلهات الحب التي تهج الحواس وتثيرها . ولما أحست بأنها سجيننة وسط هذا الترف والبذخ ، سمحت مبالغ طائلة من المال من الملك أو من الخزانة لتشييد أو توثق قصوراً وبررت تجهيزاتها المسرفة وحدائقها الشاسعة بأنها لازمة لاستضافة صاحب الجلالة . وكان لها الضيعة والقصر في كريسي في دري ، وشادت قصر « المنظر الجميل » الفخم على ضفاف السين بين سيفر ومودون . وأقامت صوامع أو أدياراً صغيرة في غابات فرساي وفونتنبلو وكومبيين وانخذت من « أوتيل دي بونشارتران مقرأ لإقامتها في باريس ، ثم انتقلت إلى قصر كونت دي افري في شارع فوبورج سانت أونوريه ، ويبدو أن السيدة

الفاتنة أنفقت ما يبلغ في جملته ٣٦,٣٢٧,٢٦٨ جنياً (١١٦) ، كان جزء منه فنا
بقي في حوزة فرنسا . وبلغت نفقاتها الخاصة ٣٣ ألف جنياً سنوياً (١١٧) .
واتهمتها فرنسا بأنها كانت تكلفها أكثر مما تكلفها الحرب .

وجمعت دي بمبادور من السلطة والنفوذ قدر ما جمعت من الروة وأصبحت
المجرى الرئيسى الذى يفيض بالتعيينات والرواتب وأوامر العفو وغيرها من
من النعم والعطايا من الملك . . وحصلت لدوى قرباها على المنح والهبات
والألقاب والوظائف ذات العمل اليسير والدخل الكبير . ولم تهيء لابنتها
الصغيرة ألكسندرين التى كانت تسميها « فانان » شيئاً يذكر ، ولكنها
كانت تحلم بتزويجها لأحد أبناء لويس الخامس عشر من مدام دي فتميل ،
ولكن فانان ماتت فى سن التاسعة ، وحطمت قلب أمها . أما أخوها آبل
- الوسيم الدمث - فإنه بنفسه كسب عطف الملك الذى كان يدعو « بالأخ
الصغير » ، وكثيراً ما كان يدعو إلى العشاء . ونصبته بمبادور مركز دي
ماريني وعينته مديراً عاماً للمبانى ، فقام بوظيفته فى جد وكفاية ، إلى حد
رضى معه وسر به الجميع تقريباً . وعرضت بمبادور عليه أن ترقى به إلى
مرتبة الدوق فرفض .

وانتشر أثرها على الفن الفرنسى بل الأوروبى ، ويرجع هذا إلى حد ما
إلى الملك ، ولكن أكبر الفضل فيه يرجع إلى شخصها هى . وأخفقت
محاولاتها فى أن تكون هى بنفسها فنانة ، ولكنها أحبت الفن من كل قلبها ،
وما لمست شيئاً إلا وصار جميلاً . وازدهرت الفنون الصغيرة بشكل يهر
الألباب بفضل تشجيعها . وأقنعت لويس الخامس عشر بأن فرنسا تستطيع
صنع الخزف اللازم لها ، بدلا من استيراده من الصين ودرسدن ، مما
يكلفها ٥٠٠ ألف جنياً سنوياً . وثابرت على ذلك حتى تعهدت الحكومة
بتمويل مصانع الخزف فى سيفر ، واكتسب الأثاث وأدوات الأكل
وساعات الحائط والمراوح والمركبات وأوانى الزهر والزجاجات والصناديق
والنقوش على الأحجار الكريمة والمرايا ، واكتسب كل أولئك فتنه دقيقة
سريعة الزوال حتى يتفق مع ذوقها الرفيع الذى يتطلب مهارة فائقة ،

وأصبح « ملكة الروكوكو » (١١٨) . (فن الزخرفة المعقدة) . وكان قدر كبير من إسرافها في النفقة يرجع إلى الرعاية التي أسبغتها على الرسامين والمثاليين والنقاشين على الخشب والمعادن ونجاري الأثاث الفاخر والمعماريين . وأغلقت على بوشية وأودرى ولاتور ومائة غيرهم من الفنانين . وأوحت إلى فانلو وشاردان أن يصورا مشاهد الحياة العامة ، فأنهت بذلك التكرار المتبادل لموضوعات من تاريخ العصور القديمة والوسطى وأساطيرها ، واحتملت في تسامح باسم تدمر لاتور ووقاحته ، حين كان يرسم لها صورة . وأطلق اسمها على المراوح وتسريحات الشعر والثياب والأطباق والأثاث والكراسي والأشرطة ، وعلى « وردة بمبادور » المصنوعة من الخبز المفضل لديها ، وفي هذه الحقبة ، لا في عهد لويس الرابع عشر ، على الأرجح ، بلغ تأثير فرنسا على المدنية الأوروبية ذروته .

وربما كانت بمبادور أكثر نساء زمانها ثقافة . وكان لها مكتبة تضم ٣٥٠٠ مجلد منها ٧٣٨ في التاريخ ، و ٣١٥ في الفلسفة ، ومجلدات كثيرة في الفن ، وبعض مجلدات في السياسة أو القانون ، إلى جانب عدة قصص في الحب . وواضح أنها إلى جانب تسلية الملك ومكافحة أعدائها والمساعدة على حكم فرنسا ، كانت تجد فسحة من الوقت لقراءة الكتب القيمة ، لأنها هي نفسها كتبت لغة فرنسية رائعة ، في رسائل زاخرة بالمادة ساحرة البيان . وكم توسلت إلى حبيبها أن يبارى جده في رعايته للأدب ، ولكن ورعه وبخله قعدا به عن ذلك . وعندما حاولت أن تنجمله وتخرجه بقولها : بأن فرديريك الأكبر أجرى على دالمبرت راتبا قدره ألف ومائتا جنيه ، أجاب بقوله « هنا أفذاذ أكثر مما في بروسيا . وقد أكون مضطرا إلى إقامة مأدبة عشاء كبيرة لأجمعهم كلهم » . وبدأ يدهم على أصابعه « موبرتيوس ، فوتنيل ، لاموت ، فولتير ، فريرون ، بيرون ، ديتوش ، مونتسكيو ، كاردينال دي بوليناك » . وأضاف من كانوا حوله ، « دالمبرت ، كليرو ، كريببون الابن ، بريفوسث » . . وعندئذ نهد الملك قائلا « حسناء معنى هذا أن كل هؤلاء كان يمكن أن يتناولوا الغداء أو العشاء معي طوال خمسة وعشرين عاما (١١٩) » .

وعلى ذلك أحثت بمبادور مكان الملك في رعاية الأدب . فأتت فولتير إلى البلاط ، وأغدقت عليه ، وحاولت أن تحميه من سوء تصرفاته ، وساعدت مونتسكيو ، ومارمونتيل ، وديكلوس ، وبيفون وروسو ، ويسرت انضمام فولتير وديكلوس إلى الأكاديمية الفرنسية . ولما سمعت بما يعاني كريبيون الأب من الفقر أجرت عليه راتباً ، وخصصت له جناحاً في اللوفر ، وعاونت على إحياء مسرحيته « كاتيلينا » ، وأصدرت تعليماتها إلى إدارة المطبعة الملكية بإصدار طبعة أنيقة من روايات الكاتب العجوز . واختارت فرانسوا كيرني طبيباً خاصاً لها وهو من أنصار المذهب الفزيوقراطي وخصصت له جناحاً تحت جناحها مباشرة في فرساي ، وكانت تستقبل هناك ديدرو ودالمبرت وديكلوس وهلفيشيوس وترجو ، وغيرهم ، مما كان يمكن أن تكون أفكارهم مصدر إزعاج الملك ، ويروى مارمونتيل : « ولما لم تكن تستطيع أن تدعو هذه المجموعة من الفلاسفة إلى « صالونها » فلإنها كانت تنزل لهم لتجتمع بهم على المائدة وتتجاذب معهم أطراف الحديث (١٢٠) » .

وكان طبيعياً أن ينظر رجال الدين وجماعة الأنقياء في الحاشية وعلى رأسهم اللدوفين ، بعين الرعب والقزح إلى تدليل هؤلاء الكفار . وفوق ذلك ، كان معروفاً أن بمبادور كانت تؤيد فكرة فرض الضرائب على أملاك الكنيسة ، بل حتى تجريدتها من الصفة الدينية أو انزعافها من يد الكنيسة ، إذا كان هذا هو المهرب الوحيد من إفلاس الدولة (١٢١) . وأشار اليسوعيون على كاهن اعتراف الملك أن يمتنع عن تناولته الأسرار ما دام يحتفظ بعلاقته بهذه العشيقة الخطرة (١٢٢) . ودافع أبناء الملك عن رجال الدين ، واستخدمت ابنته الكبرى هنريت التي يؤثرها بحبه ، نفوذها في التفريق بينه وبين بمبادور . وكان عيد الفصح من كل عام مثار أزمة بين العاشقين . ففي ١٧٥١ أظهر لويس تلهفاً شديداً على تناول القربان المقدس . وفي محاولة منها تهدئته واسترضاء كاهن الاعتراف ، الأب بيروسو ، واطبقت على إقامة الشعائر الدينية وحضور القداس يومياً والصلوات بشكل يلفت الأنظار ، كما أكدت للكاهن أن علاقتها الآن بالملك علاقة

أفلاطونية بريئة تماماً . ولما لم يقتنع الكاهن بهلنا ، فإنه طلب إليها ، أن تغادر البلاط ، شرطاً مسبقاً للسماح للملك بتناول الأسرار المقدسة . ومات بيروسو ، ولكن خليفة ديمارتس وكان مثشداً مثله . وثبتت بمبادور في مكانها ، ولكنها داومت على ورعها الظاهري . ولم تغتفر قط لليسوهبين أنهم لم يأخذوا « تحولها » مأخذ الجذ ، وربما كان لإستيائها منهم دور صغير في طردهم من فرنسا في ١٧٦٢ .

وربما كان قولها الحق في أنه لم يعد لها اتصال جنسي بالملك لويس . وقد أكد دارجنسون أحد أهدائها هذه الحقيقة (١٢٣) . وكانت بالفعل قد أفضت إلى بعض خلصائها بأنها تجذ مشقة متزايدة في الإستجابة للنيران المتقدة بين جنبيه (١٢٤) ، راعرتف بأن عدم تحمسها لمضاجعته ذات مرة أو هن ما اشتد من قوته ، وأصابه عجز جنسي وتملكه الغضب (١٢٥) . وتناولت « عقاقير الحب » (١٢٦) دون نتيجة تذكر، اللهم إلا الإضرار بصحتها . وأدرك أعداؤها في البلاط هذا الوضع فجددوا مؤامرتهم لإقتلاعها من مركزها . وفي ١٧٥٣ دبر دارجنسون خطة تنفذها مدام دي شوازيل رومانت إلى أحضان الملك ، ولكنها طالبت بشمن باهظ ظن أنه لا يتكافأ مع توضيحيتها وسرعان ما تمكنت بمبادور من طردها . وهنا آن الأوان أن تأوي المحظية الأولى المنهوكة إلى « متنزه الأطباء » البغيض .

وفي « متنزه الأطباء » في طرف ناء من فرساي جهز مسكن لإقامة شابة أو شابتين مع خلدتهما ومرافقيهما حتى يحين الوقت ليستقبلهما لويس في جناحه الخاص ، أو يقصد إليهما في مسكنهما متنكراً في زي كونت بولندي عادة . وتناثرت الشائعات بأن هؤلاء البنات كن كثيرات ، وأضافت الأساطير أن سن بعضهن لم تزد على تسع سنوات أو عشر . والظاهر أنه لم يكن يوجد منهن في وقت واحد أكثر من اثنتين (١٢٧) ، وكان يؤتى بمجموعات منهن على التعاقب ، ليتدرين على أن يقدمن للملك « حق السيادة » فإذا حملت إحداهن أعطيت مبلغاً من المال يتراوح بين عشرة آلاف ومائة ألف جنيه ، يساعدها على العثور على زوج لها في الأقاليم ، وكان الأطفال

الدين يولدون عن هذا الطريق يمنحون راتباً سنوياً قدره أحد عشر ألف جنيه . وعلمت مدام دى بمبادور بأمر هذا « الحریم » الذى لا يصدق ، فلزمت الصمت . ورغبة منها فى ألا تحتل مكانها عشيقة من النبيلات ستعمل من غير شك على إبعادها عن البلاط ، بل ربما عن باريس ، آثرت أن تترك للشابات الوضيعات أن يشبعن أذواق الملك القاسده ، وانهارت حالتها المعنوية إلى الحضيض وقالت لمدام دى هوست « كل ما أضن به هو قلبه ، وكل هؤلاء الفتيات غير المتعلمات لن يسلبننى إياه (١٢٨) » .

ولم تزعج الحاشية إنزعاجاً ملموساً لهذه الترتيبات الجديدة لأن كثيراً من رجالها احتفظوا هم أنفسهم بأكواخ فى « منتدى الأطباء » هذا لخليلاتهم (١٢٩) . ولكن أعداء بمبادور افترضوا أن سلطانها قد آذن بزوال . ولكن خاب فألمهم ، فإن الملك ظل صديقها المخلص لفترة طويلة بعد أن انقطعت عن أن تكون « خليلته » . وكان فى ١٧٥٢ قد خلع عليها رسمياً لقب دوقة . وفى ١٧٥٦ ، وعلى الرغم من احتجاجات الملكة منحها المنصب الرفيع « مديرة قصر الملكة » (كبير وصيفات الملكة) . فلازمت الملكة ، وحضرت معها العشاء ورافقتها إلى القداس . ولما كانت وظيفتها الجديدة تقتضى الإقامة فى البلاط فإن اليسوعيين تنازلوا عن طلبهم إبعادها وألغى « الحرم من الكنيسة » الذى ظل مفروضاً عليها لفترة طويلة ، وأجيز لها تناول الأسرار المقدسة . أما بنات الملك اللاتي ناصبها العداوة منذ زمن طويل فكن يقصدن إلى زيارتها فى « شوازى » .

وقضى لويس معها مدة ساعات فى كل يوم تقريباً ، حيث ظل يجد للذة فى طلاوة حديثها ورقتها الفاتنة التي لا تنضب معينها . واستمر يحترم ، وغالباً ما يتبع ، مشورتها فى التعيينات ، وفى المسائل الداخلية ، بل حتى فى السياسة الخارجية . وأصدرت الأوامر إلى الوزراء ، واستقبلت السفراء واختارت القواد ، ونحدثت أحياناً باسم الملك وباسمها ، وكأنها تشارك فى الحكم ، فكانت تقول « نحن » سننظر (فى الأمر) . وكان طلاب الوظائف يزجون حجرة انتظارها ، فكانت تحسن استقبالهم وتلاطفهم . وسلم أعضاؤها بسعة إطلاعها المدهشة فى الشؤون السياسية ، ولباقتها فى الأحاديث الدبلوماسية ،

ونظراتها التي كثيراً ما كانت ثابتة (١٣٠) . وكانت قد أشارت منذ زمن بعيد إلى أن عجز قواد فرنسا هو أساس اضمحلالها العسكري . وفي ١٧٥٠ ، اقترحت على لويس أن ينشئ مدرسة حربية يتلقى فيها الفنون والعلوم العسكرية أبناء الموظفين والضباط الذين قتلوا أو استنزفت قواهم في خدمة الدولة . ووافق الملك واسكنه أبطاً في توفير الاعتمادات اللازمة للمشروع . فنقلت بمبادور إلى هذا المشروع دخلها الخاص لمدة عام ، ووفرت له أموالاً إضافية عن طريق « يانصيب » ، وضريبة على لعب الورق ، وأخيراً فتحت المدرسة ١٧٥٨ ملحقة « بقصر الانفاليد » .

والآن نصح هذا الوزير الساحر بلا وزارة بمراجعة جريئة لسياسة فرنسا الخارجية وإعادة تقييمها . وربما جاءت المبادرة بهذا « التقص المشؤوم للأحلاف » من كونت فون كونتز سفير النمسا في باريس . وقد عززها التنازل الكاره من جانب الإمبراطورة الثقيمة مارياتريزا التي خاطبت بمبادور « بصديقتي العزيزة » ، و « ابنة عمي » ، كما عززها فرديريك الأكبر بإشارته المهيمنة إلى المركيزة دى بمبادور « بحكم المرأة » في البلاط الفرنسي . وكانت مدام دى شاتور وودارجنسون قد وجهها السياسة الخارجية نحو الصداقة مع بروسيا ، وأوضح كونتز وبمبادور أن بروسيا الحديثة — التي قويت بيلاتتصار في حرب الوراثة النمسوية ، والتي لديها جيش قوامه ٥٠ ألف جندي أحسن تدريبهم تحت إمرة قائده قدير طموح لا يبالي بأية مبادئ خلقية ، وملك غدر بفرنسا مرتين بتوقيعه صلحاً منفرداً — إن بروسيا هذه لا بد أنها سرعان ما تشكل خطراً أشد من خطر النمسا التي كانت قد فقدت آنذاك سيليزيا ، ولم تعد تتوقع أي عون أو تأييد من أسبانيا في ظل حكم آل بوربون ، وقد انقضى تطويق النمسا لفرنسا . وقويت هذه الحججة حين عقدت بروسيا في ١٦ يناير ١٧٥٤ تحالفاً مع إنجلترا — عدوة فرنسا التقليدية ورد مجلس الدولة الفرنسي على هذا بإبرام تحالف مع النمسا (أرل مايو) . وهنا نجد أن المركيزة دى بمبادور التي عادت الآن تبصق دماً ، وكانت في الخامسة والثلاثين ، ولم يبق لها من العمر إلا ثمان سنوات ، نجد أنها قد لعبت دورها في التمهيد لاشعال حرب السنين السبع .

الفصل الثامن الأخلاق والعادات

١ - التعليم

كان بين الصراعات الكثيرة الأساسية التي شهدتها فرنسا في القرن الثامن عشر ، محاولة الكنيسة الاحتفاظ بسيطرتها على التعليم ، إلى جانب محاولة الفلاسفة وغيرهم لإنهاء هذه السيطرة والقضاء عليها . وبلغ الصراع ذروته بطرد اليسوعيين من فرنسا في ١٧٦٢ ، وتأميم المدارس الفرنسية ، وغلبة التعليم العلماني في الثورة الفرنسية . وكان الخلاف قد بدأ يبرز في النصف الأول من القرن الثامن عشر فقط .

ولم تكن الغالبية العظمى من الفلاحين تعرف القراءة . وفي كثير من المجتمعات الريفية ، كانت الهيئات البلدية ، حتى إلى عام ١٧٨٩ ، « لا تكاد تعرف الكتابة »^(١) . وكان في معظم الأبرشيات على أية حال « مدرسة صغيرة » يقوم فيها الكاهن بنفسه ، أو من يعينه هو ، بتعليم القراءة والكتابة والدين المسيحي على صورة سؤال وجواب ، للأولاد الذكور أساساً ، في مقابل رسم زهيد يدفعه الآباء عن كل تلميذ^(٢) ، أما الأولاد الذين يعجز آباؤهم عن الدفع فكانوا يتعلمون بالهجان إذا طلبوا ذلك . وكان اللحاق بهذه المدرسة مطلوباً قانوناً بمقتضى مراسيم ١٦٩٤ و ١٧٢٤ ، ولكن هذه المراسيم لم تنفذ^(٣) ، وامتنع كثير من الآباء العلاحين عن إرسال أبنائهم إلى المدرسة ، لحاجتهم إليهم في المزرعة من ناحية ، ومن ناحية أخرى لأنهم رأوا أن التعليم أمر مزعج لا ضرورة له لمن قدر عليهم أن يشتغلوا في الأرض . فالتعليم لم يكن يكفل أى ارتفاع في المركز الاجتماعي لأن الحواجز الطبقية كانت عقبة لا يمكن التغلب عليها تقريباً في النصف الأول من القرن . وفي القرى والمدن الصغيرة نادراً ما كان الذين تعلموا القراءة يقرأون شيئاً غير ما تعلق بعملهم اليومي . وكان كل إنسان يعرف قواعد الدين ، وفي المدن الكبيرة وحدها كان هناك شيء من المعرفة بالأدب والعلوم والتاريخ .

وفى الطبقات المتوسطة والعليا كان معظم التعليم على أيدي المربيين والمؤدبين ، أو المعلمين الخاصين ، وأخيراً على أيدي معلمى الرقص ، وهؤلاء الأخيرون كان مقروصاً فيهم أن يعلموا الجنسين كليهما الفنون الشاقة ، وهى فنون الجلوس والوقوف والمشى والحديث والإيماء ، فى كياسة ورقة . وتلقت بعض الفتيات دروساً خاصة فى اللاتينية ، وفوق هذا كله تقريباً ، تعلم الفقراء الغناء والعزف على البيان القيثارى . وقام التعليم العالى للبنات فى الأديار ، حيث ارتقن فى الدين والتطريز والموسيقى والرقص وقواعد السلوك القويم الذى يجدر بالشابة أو الزوجة أن تتحلى به .

وكان كل التعليم الثانوى للذكر تقريباً فى يد اليسوعيين ، ولو أن الرهبان الأورأتوريين والبندكتيين أسهموا فيه . وكان المتشككون من أمثال فولتير وهلفيشيوس من بين الخريجين العديدين المرموقين فى كلية اليسوعيين « لويس الأكبر » حيث كان الأب شارل بوريه يقوم بتدريس « البلاغة » (أى اللغة والأدب وعلم الكلام) وترك فى تلاميذه ذكريات طيبة . وما كاد المنهج فى المدارس اليسوعية ليتغير طوال قرنين من الزمان . وعلى الرغم من تركيز هذا المنهج على الدين والأخلاق ، فإن مادته كانت كلاسيكية إلى حد بعيد ، فكان التلاميذ يدرسون مؤلفات رومه القديمة فى نصوصها الأصلية ، فأكب التلاميذ الصغار على دراسة الفكر الوثنى لمدة خمس أو ست سنوات ، فلا عجب أن ساورتهم بعض الريبة فى عقيدتهم المسيحية . وأكثر من هذا فإن اليسوعيين « لم يدخروا وسعا فى تنمية ذكاء تلاميذهم وغيرتهم » (٤) . فكانوا يشجعون على المناقشة والتحدث علانية وعلى تمثيل الروايات ، وكانوا يتعلمون قواعد لترتيب أفكارهم والتعبير عنها ، ومن ثم كان جزء من وضوح الأدب الفرنسى وصفاته من غرس المدارس اليسوعية ، وأخيراً تلقى الطالب مناهج قاسية فى المنطق والميتافيزيقا وعلم الأخلاق عن أرسطو من ناحية وفلاسفة العصور الوسطى السكولاسيين (المدرسين) من ناحية أخرى . وهنا ، مرة أخرى ، نجد أن النتائج كانت تقليدية ، إلا أن عادة التفكير والاستنتاج والتحليل بقيت - وأصبحت بالفعل - علامة مميزة لهذا العصر

« عصر العقل » بوجه خاص . وكان الجلد بالسياط أيضا جزءا من المنهج ، حتى لطلاب الفلسفة ، ودون تمييز في المرتبة أو المكانة الاجتماعية ، فقد جلد من أصبح فيما بعد مركز دارجنسون ودوق بوفلرز ، أمام أقرانها في الفصل ، لأنهما قلدا أساتذتهما الأجلاء بحبات البازلاء^(٥) .

وعلت الشكوى بالفعل من أن المنهج لم يول عناية تذكر بما وصلت إليه المعرفة من تقدم وازدهار ، وأن التعليم كان نظرياً إلى حد كبير ، ولا يعد للحياة العملية ، وإن الإلحاح الشديد على التعليم الديني قد أفسد الأذهان أو أغلقها . وفي « رسالة عن التعليم » كانت يوماً مشهورة (١٧٢٦-١٧٢٨) دافع شارل رولان رئيس جامعة باريس عن المنهج الكلاسيكي (القديم التقليدي) وعن التركيز على الدين . وكان من رأيه أن الهدف الأسمى من التعليم هو خلق أناس أفضل . وأفاضل المعلمين « لا يعنون كثيراً بالعلوم ، حيث لا تساعد هذه العلوم على التمسك بأهداب الفضيلة . ولم يكونوا يأبهون كثيراً بالتزود بألوان المعرفة ، إذا لم تقترن بالاستقامة وحسن الخلق . وكانوا يؤثرون الرجل الأمين على الرجل العالم الواسع الاطلاع^(٦) . وقال رولان إنه من الصعب أن نشكل الخلق القويم دون تأسيسه على عقيدة دينية . ومن ثم « ينبغى أن يكون الهدف من جدودنا ، والغرض من تعليمنا هو الدين »^(٧) وسرعان ما يثير الفلاسفة الجدل حول هذا الموضوع ، ويستمر الجدل حول ضرورة الدين للأخلاق طوال القرن الثامن عشر ، والقرن الذي يليه . وهو جدل حي في أيامنا هذه .

٢ - الأخلاق

ويبدو أن حجة رولان كانت تؤيدها الفروق الطبقة في المبادئ الأخلاقية . إن الفلاحين الذين تمسكوا بدينهم عاشوا حياة أخلاقية نسبياً . وربما كان هذا ، على أية حال راجعاً إلى حقيقة أن الأسرة كانت وحدة الإنتاج الزراعي ، وأن الأب كان أيضا المستخدم أى صاحب العمل ، وكان نظام الأسرة يرتكز في جذوره على نظام اقتصادي يفرضه تعاقب الفصول ومتطلبات الأرض . واستمسكت الطبقات الوسطى بقدر كبير من العقيدة

الدينية ، مما عزز سلطة الأبوين أساسا للنظام الاجتماعي . أما مفهوم الأمة باعتبارها رابطة من الأسرات عبر الأجيال ، فقد هيا لأخلاقيات الطبقة الوسطى قوة التماسك والتقاليد . وكانت الزوجة البرجوازية نموذجاً للعهد والتقوى والأمانة . وكانت تتحمل آلام الوضع في صبر وجلد ، وسرعان ما كانت تعود إلى عملها . وكانت قانعة ببيتها وعلاقتها مع جيرانها ، وقليلاً ما انزلت إلى زخرف الدنيا الخلداع التي يسخر الناس فيها من الاخلاص على أنه شيء عتيق بال . ونادراً ما نسمع عن حوادث الزنى عند زوجات الطبقة الوسطى . وضرب كل من الأب والأم معا مثلاً رائعاً في العادات القويمة والتمسك بالدين والحب المتبادل . وتلك هي الحياة التي خلد شاردان ذكرها معزاً بها ، في لوحاته مثل « البركة » .

ومارست كل الطبقات أعمال البر والإحسان وكرم الضيافة . وكانت الكنيسة تجمع الصدقات وتوزعها . ودعا الفلاسفة المعادون للدين إلى عمل الخير ، وبنوا دعوتهم على أن هذا حب للإنسانية لا حب لله ، ومن ثم كانت « الإنسانية » الحديثة نتاجاً للدين والفلسفة معا . وأمدت الأديار الجلياع بالطعام ، وعينت الراهبات بالمرضى ، وقامت المستشفيات وملاجئ الفقراء والأيتام والعجزة على الأموال التي تدفعها الدولة والكنيسة والتقانات . وكان بعض الأساقفة مبذرين منصرفين إلى متاع الدنيا . ولكن نفرأ آخر منهم — مثل أساقفة أوكسير وميربوا وبولون ومرسيليا — وهبوا ثرواتهم وحياتهم لأعمال البر والاحسان . ولم يكن موظفو الدولة مجرد طالبي مناصب أو نفعيين طفيليين ، فإن موظفي بلدية باريس كانوا يوزعون الطعام وحطب الوقود والنقود على الفقراء « وفي ريمس خصص أحد أعضاء البلدية ٥٠٠ ألف جنيه للصدقات . وكان بالملك لوس الخامس عشر نزعات إلى الشفقة والعطف والحنان المشوب بالجنين . وعند ما خصص مبلغ ٦٠٠ ألف جنيه للألعاب النارية احتفالاً بمولود دوق برجندي الجديد (١٧٥١) ، ألغى الملك العرض وأمر بتوزيع المبلغ مهوراً لستائة من أفقر بنات باريس ، وحذت مدن أخرى حذوه . وعاشت المملكة عيشة مقتصدّة غير مسرفة وأنفقت معظم (م ٥ — قصة الحضارة)

دخلها في الأعمال الخيرية . وكذلك أنفق دوق أورليان ابن الوصي المشاغب الخليع ثروته في أعمال البر والإحسان . ويبدو الجانب غير المشرق في هذا الموضوع في الفساد والإهمال اللذين يشهرا إدارة المؤسسات الخيرية . فهناك عدة أمثلة لمديري مستشفيات استولوا لأنفسهم على الأموال التي كانت تصلهم من أجل العناية بالمرضى والفقراء .

وعكست الأخلاقيات الاجتماعية طبيعة الإنسان - أناني وكريم ، وحشي وموظف ، يخلط بين قواعد اللياقة وسفك الدماء في المعركة . ولعب رجال الطبقات العليا والدنيا ونساؤها الميسر في تهور بالغ ، دون إحساس بالمسئولية وبددوا ثروات أسراتهم ، وكان الغش في اللعب سائداً إلى حد كبير (٨) . وفي فرنسا ، كما كان الحال في إنجلترا . أفادت الحكومة من حب الناس للمقامرة بإنشاء « يانصيب » وطني . أما أسوأ مظاهر الحياة الفرنسية وأكثرها مجافاة للأخلاق فهو تبذير أرستقراطية الحاشية البالغ الخالي من الرحمة ، تلك الأرستقراطية التي كانت تعيش على الدخول التي كانت تبزها من الفلاحين الفقراء . فإن ملاءات سرير الدوقة دي لافرى كانت مشغولة بالمخرمات الغالية الثمن ، وتكلفت ٤٠ ألف كراون ، وكانت لآلىء ومجوهرات مدام اجونت تساوى ٤٠٠ ألف كراون (٩) ، وكانت الخيانة والخداع أمرين عاديين مألوفين في أعمال الموظفين ، واستمر بيع الوظائف والمناصب ، وكان مشروها يستغلونها في الأثراء غير المشروع تعويضاً لهم عما دفعوا فيها ولم يكن قدر كبير مما يجبي من الضرائب يصل إلى خزينة الدولة . وفي غمرة هذا الفساد نمت روح الوطنية ، ولم يكف الرجل الفرنسي عن حب فرنسا ، ولم يطق الرجل الباريسي أن يعيش طويلاً بعيداً عن باريس . وامتاز كل فرنسي تقريباً بالبسالة . وفي حصار ماهون ، ورغبة من المارشال دي ريشيليو في منع جنوده من تعاطي المسكرات ، أصدر هذا القائد قراراً يقول فيه « أن أى فرد منكم يوجد ثملاً في المستقبل لن يكون له شرف الاشتراك في الهجوم ، فتوقف شرب الخمر تقريباً (١٠) ، واستمرت المبارزة على الرغم من كثرة قرارات تحريمها . قال لورد تشستر فيلد « إن المرء يليقته الخزي والعار إذا لم يثر للإهانة ، وإنه ليلقى حظه إذا استاء لها (١١) »

وكان عقاب اللواط الإعدام حرقاً ، ولكن هذا القانون كان ينفذ في الفقراء وحدهم ، كما حدث مع أحد رعاة البغال ١٧٢٤ . وفي ١٧٢٥ ألقى القبض على الراهب ديفونتين ، الذى كان قد اشتغل بالتدريس فى إحدى الكليات اليسوعية لمدة خمسة عشر عاماً ، واتهم بمثل هذه الفعلة ، فأهاب بفولتير لمساعدته ، فنهض فولتير من فراش مرضه قاصداً إلى فونتبلو ، واستحث فليرى ومدام دى برى لاستصدار عفو عنه (١٢) ، وطيلة العشرين عاماً اللاحقة كان ديفونتين من ألد أعداء فولتير . وكان بعض خدم الملك منحرفين جنسياً . ويبدو أن أحدهم ، وهو تريمو ويل ، اتخذ من الملك دى الستة عشر ربيعاً غلاماً له (١٣) .

وانتشر البغاء بين الفقراء والأغنياء . وفى المدن الصغيرة كان أصحاب الأعمال ينقلون مستخدماتهم الأناث مبالغ لا تفى بنفقاتهن الضرورية ، وأجازوا لمن أن يكلمن أجورهن اليومية بالاستجداء وبممارسة الدعارة ليلاً (١٤) . وقدر كاتب معاصر عدد البغايا فى باريس بأربعين ألفاً . وهناك تقدير آخر بأنهن ستون ألفاً (١٥) وكان الرأى العام — فيما عدا الطبقة الوسطى — متسامحاً مترفقاً بأمثال هؤلاء النسوة ، حيث أدرك أن كثيراً من النبلاء ورجال الدين ووجوه المجتمع ساعدوا على خلق هذا الطلب الذى أدى إلى هذا العرض ، وتلوع الرأى العام بشيء من اللياقة ، فأدان الفقيرات اللاتي يبعن أعراضهن أقل مما آدان الذين يشترون المتعة . أى أن مسئولية هؤلاء عن هذا العمل الشائن أكبر . وكانت نظرة رجال الشرطة إلى هذا الأمر تختلف عن ذلك اللهم إلا إذا قدمت شكوى خاصة أو عامة ضد هؤلاء « البنات » وهنا يتم الاعتقال بالجملة . تبرئة لساحة الحكومة ، وعندئذ يساق النساء للمثول أمام أحد القضاة ، وقد يحكم القاضى بإيداعهن السجن أو المستشفى ، حيث تحلق رءوسهن بالموسى ويعاقبن ويوضعن تحت المراقبة ثم يطلق سراحهن . وتنمو شعورهن من جديد . وإذا خلقت متاعب جمّة لأحد ذوى النفوذ والسلطان أو أسان إليه ، فيمكن إرسالهن إلى لوزيانا . وعرضت محظيات الحاشية أو المومسات اللاتي يتردد عليهن

الأغنياء ، مركباتهن وحليهن ومجوهراتهن في طريق « كور - لا - رين » في باريس ، أو في متنزه « لونجشامب » (١٦) . وإذا حصلن على عضوية الكوميدي فرانسيز أو الأوبرا ، حتى لتمثيل الأدوار القصيرة ، اكتسبن الحصانة ضد الاعتقال بتهمة بيع مفاتهن أو أعراضهن . وارتفع بعضهن ليكن نماذج للفنانين (لرسم الصور العارية) ، أو يتمخذهن النبلاء ورجال المال أخذانا لهم خاصة . واقتنص بعضهن أزواجاً ، وحصلن على ألقاب و ثروات ، وأصبحت واحدة منهن بارونة سانت شاموند .

وكانت الزيجات القائمة على الحب ، دون موافقة الأبوين ، تزداد في عددها وفي الإنتاج الأدبي . وكان من الممكن الاعتراف بشرعيتها إذا عقدت أمام كاتب العدل أو الموثق . ولكن في معظم الأحوال ، حتى بين الفلاحين ظل الآباء هم الذين يرتبون أمر الزواج باعتباره اتحاداً بين الممتلكات والأسرات ، لا مجرد اتحاد الأفراد . فالأسرة ، لا الفرد ، هي وحدة المجتمع ، ومن ثم كانوا يرون أن بقاء الأسرة وممتلكاتها أهم من الملذات العابرة أو العواطف السريعة الوهن عند الشباب المتهور . وفوق هذا قال فلاح لابنته « الحظ أقل عمى من الحب (١٧) » .

وكانت السن القانونية للزواج هي الرابعة عشرة للذكور والثالثة عشر للإناث . ولكن كان يمكن قانوناً أن تتم الخطبة في سن السابعة ، وهي التي حددها فلاسفة العصور الوسطى مبدأ « سن العقل » وكانت الشهوة الجامحة عند الشبان تدفع بهم إلى مطاردة الآنسات مطاردة عنيفة ، إلى حد أن الآباء زوجن بناتهن حالما كان ذلك ممكناً ميسوراً تفادياً لإنفضاض البكارة قبل الأوان ، وهكذا كانت المركيزة دى سوفيف أرملة في الثالثة عشرة من عمرها . وازمت بنات الطبقتين الوسطى والعليا الدير حتى يتم اختيار الأزواج لهن ، وعندئذ يعجل بهن من حياة الدير إلى حياة الزوجية ، وكان لزاماً تشديد الحراسة عليهن في الطريق . ونهذا النظام القاسى المنافى للأخلاق السيء ، كان كل النساء تقريباً عذارى عند الزواج .

وإذ احتضرت الأرستقراطية الفرنسية التجارة والصناعة ، ونادرأ ما

غطت الدخول الإقطاعية نفقات الإقامة في البلاط وما تقتضيه من مظاهر ، فإنها وطنت النفس على تزويج أبنائها للذين توافرت لهم الأرض ولم يتوافر لديهم المال ، من بنات الطبقة البرجوازية العليا اللاتي لا يملكون أرضاً ، ولكن يملكن مالا . ولما اعترض ابن دوقه شولن على زواجه من ابنة التاجر بونيه ذات الصداق الكبير . أوضحت له أمه « أن زواج المنفعة من هي دونك مرتبة ، هو مجرد حصولي على الروث لتسميد أرضك » (١٨) . وفي مثل هذه الزيجات عادة ، كان الزوج النبيل أو ذو اللقب . وهو يستغل أموال زوجته ، يذكرها من حين لآخر بأصلها الوضيع ، وسرعان ما يتخذ خليفة . وفي هذا خير شاهد على احتقاره لزوجته . ولم يغب هذا أيضاً عن ذاكرة الطبقة الوسطى حين ساعدت الثورة .

ولم يوصم الزنى بأية وصمة عار اجتماعي ، في البيئه الأرستقراطية ، بل كان أمراً مقبولاً باعتباره بديلاً ساراً عن الطلاق الذي حرّمته الديانة الوطنية . وقد يتخذ الزوج الذي يخدم في الجيش أو في الأقاليم له خليفة ، دون أن يبدي لزوجته سبباً مقبولاً للشكوى . وقد يفترقان الواحد منهما عن الآخر ، بالخدمة في الحاشية أو في الضيعة ، وهنا أيضاً قد يتخذ خليفة ومذ كان عقد الزواج يتم دون الزعم بأن العاطفة يمكن أن تتجاوز عن الثراء فإن كثيراً من الزوجين من النبلاء عاشا فترة طويلة من حياتهما منفصلين ، وأباح كل منهما للآخر زلاته ، شريطة أن تكون هذه الزلات مستورة بلباقة ، كما تكون في حالة المرأة مقصورة على رجل واحد في نفس الوقت وأجرى مونتسكيو على لسان سائحه الفارسي قوله : « إن الرجل الذي يريد أن يستحوذ على زوجته له هو وحده يعتبر معكراً لصفو السعادة العامة ، غيباً يريد أن يستأثر بالاستمتاع بضوء الشمس ، ويحجبها عن سائر الناس » (١٩) . وسئل يوماً دوق دي لوزون الذي لم يكن رأى زوجته طيلة عشر سنين ، ماذا يقول لو أن زوجته أرسلت إليه تنبئه بأنها حامل ، فأجاب ، مثل أي سيد معاصر في القرن الثامن عشر : « أكتب إليها لأقول إنني مبتهج فرح لأن الله يبارك زواجنا ، اعن بصحتك ، سأحضر لأقدم لك احتراماتي هذا المساء (٢٠) » فالغيرة كانت أمراً مردولاً .

وكان بطل الزنى وقتى العصر ونموذج الإناقة فى ذاك الزمان هو لويس فرانسوا أرمان دى فينيرو دى بلسيس ، دوق ريشيليو حفيد أخى الكاردينال الصارم المتقشف . وقد انزلت إلى مخدعه عدة سيدات نبيلات من ذوات الألقاب ، الواحدة تلو الأخرى ، تجرهن إليه مكاتنه وثروته وشهرته . ولما وبخ ابنه وهو العاشرة من عمره على بطله تقدمه فى دراسته اللاتينية ، أجاب فى سرعة مفحمة : « أن أبى لا يعرف اللاتينية ، ولكنه مع ذلك يحظى بأجمل نساء فرنسا (٢١) » . وهذا لم يمنع اختياره للأكاديمية الفرنسية قبل فولتير ، صديقه ودائنه ، بثلاث وعشرين سنة . وكان فولتير يكبره بعامين . ومهما يكن من أمر فإن رأى معام استهجن سلوك هذا الدوق لأنه كان يجلب إلى الملك النساء لهذا الغرض اللئى . ومنعته جيوفران من التردد على ندوتها لأنه يجمع بين عديد من أمهات الكباثر (٢٢) . وعمر حتى بلغ الثامنة بعد التسعين ، ومات قبل قيام الثورة بعام واحد .

وإذا كانت العلاقة بين الزوجين على هذا النحو ، فإننا نستطيع أن نتصور مصير أبنائهما . كان النبلاء يعتبرون صراحة أن أبنائهم عوائق فى طريقهم ، ويدفعون بهم عند ولادتهم إلى المرضعات ، ويتولى تنشئتهم مربيات ومعامون خاصون ، حيث يرون والديهم بين الحين والحين . وروى تاليران أنه لم يتم قط تحت السقف الذى نام تحته أبوه وأمه . وكان من رأى الأبوين أنه من الحكمة أن يباعلوا بينهم وبين أبنائهم ، فكانت العلاقة الحميمة أمرا شادا ، وكانت الألفة أمرا غير معروف . فعاطب الابن أباه بقوله « سيدى » وقبلت البنت يد أمها . وإذا كبر الأبناء أرسلوا إلى الجيش أو الكنيسة أو الدير . وكاتت كل الممتلكات تؤول إلى الابن الأكبر ، كما كان الحال فى إنجلترا .

واستمر أسلوب الحياة هذا سائدا فى نبلاء الحاشية ، حتى ارتقاء لويس السادس عشر عرش فرنسا فى ١٧٧٤ . وكشف هذا الأسلوب ، من جهة أخرى ، عن فقدان الإيمان بالدين عند الطبقات العليا . وتحلى الناس تماما عن مفهوم الزواج فى المسيحية ، مثله فى ذلك مثل مفهوم الفروسية فى

العصور الوسطى . وأصبح الجرى وراء اللذة والمتعة « وثنيا » بشكل أشد سفورا منه في أى وقت منذ عصر رومه الامبراطورية المضمحلة . ونشرت كتب كثيرة في « الأخلاقيات في فرنسا في القرن الثامن عشر » ، ولكن كانت هناك أيضاً كتب كثيرة تعالج البذاءة والفحش بطريقة مدروسة متعمدة ، وكانت أوسع انتشاراً ورواجاً ولو كانت سرية . وكتب فردريك الأكبر يقول « إن الفرنسيين ولا سيما سكان باريس ، أصبحوا الآن مترفين متغمسين في الملذات ، أو هنتهم المتعة والدعة »^(٢٣) وحوالى ١٧٤٩ رأى مركز دارجنسون في إنحطاط الوعي الخلقى نديرا آخر بكارثة وطنية : « القلب قوة نسلب أنفسنا إياها كل يوم لأننا لا نروضه ولا ندر به أبدا . على حين أننا نشحذ الذهن ونصقله باستمرار ، فنصبح عقلانيين—لا عاطفيين— أكثر فأكثر وإنى لأنبأ بأن هذه المملكة لا بد هالكة ، نتيجة لآخاد القوى التي تنبع من القلب ، إننا لا نكسب أصدقاء ، ولم نعد نجب عشيقاتنا ، فكيف نجب بلادنا ؟ إن الناس يفقدون يوماً بعد يوم تلك الخلطة الحميدة التي نسميها رقة الشعور . ويخفى الحب والحاجة إلى الحب وحسابات المصلحة تشغلنا وتستنزفنا دائماً . وكل شيء سييل إلى الدسيسة والمسكيدة وتنطفىء جنوة النار الداخلية (العواطف) لأننا لا نغذيها ، ومن ثم يزحف الشلل إلى القلب^(٢٤) » .

وهذا هو صوت بسكال يردد مذهب طائفة بورت رويال (مذهب الجانسنيين) وصوت روسو ، قبل ظهور جثث جاك بيجيل واحد ، أو صوت الأرواح المرهفة الحس في أى عصر من عصور القلق الفكرى والتحرير ، ولسوف يطرق أسماعنا ثانية .

٣ - العادات

لم ير التاريخ قط أخلاقيات طائشة مثل هذه ، مزخرقة بموهة تهذيب ورقة في السلوك وأناقة في الملابس والحديث ، وتنوع في المتع والملذات ، وفتنة في النساء ، وكياسة متأقفة في المراسلات ، وإشراق في الفكر والذكاء :

« ولم يوجد قط في فرنسا من قبل ، أو في أوروبا المعاصرة . . . بل ولا في العالم منذ وجد العالم ، مجتمع مهذب ذكى مبهج ، مثل المجتمع الفرنسى في القرن الثامن عشر » (٢٥) قال هيوم في ١٧٤١ إن الفرنسيين « أتقنوا بدرجة كبيرة ذلك الفن ، وهو أنفع الفنون وأليقها ألا وهو فن الحياة ، فن المجتمع ، فن الحديث » (٢٦) . ولم تستخدم كلمة « مدنية » إلا في أخريات هذه الحقبة ، فلم تظهر في قاموس جونسون ١٧٥٥ ، ولا في « المعجم الكبير » الذى صدر في ٣٠ مجلدا في باريس في ١٧٦٨ .

وأحس الفرنسيون بالمدنية بوجه خاص في ملابسهم ، ونافس الرجال النساء منافسه كبيرة في العناية بالثياب . واقتضى الزى العصرى السائد أن يلبس أفراد الطبقة العليا قبعات كبرى ذوات ثلاث زوايا ، مزدانة بالريش والأشرطة الذهبية ، ولما كانت هذه القبعات تفسد ترتيب شعورهم المستعارة ، فلنهم وضعوا القبعات عادة تحت أذرعهم . وكانت الشعور المستعارة آنذاك أصغر مما كانت عليه أيام الملك العظيم (لويس الرابع عشر) ، وكانت أكثر شيوعا حتى بين الحرفيين . وكان في باريس ألف ومائتا حانوت للشعور المستعارة ، يعمل فيها ستة آلاف عامل . وكان الشعر الطبيعى والمستعار يدهن بالمساحيق . وكان شعر الذكور طويلا عادة ، ويلم بشريط أو في كيس وراء الرقبة . وكانوا يرتدون سترة طويلة زاهية اللون — من الخمّل عادة — فوق البذلة الداخلية التى تكشف عن صدره مفتوحة عند الحلق ، وعن قبيص حريرى رقيق ، ورباط عنق عريض ، وأكمام تنتهى إلى « كشكشات » مزخرفة عند المعصم . وكانت « بنطلونات » الركوب القصيرة ملونة ، والجوارب من الحرير الأبيض . وكانت الأحذية تشد بمشابك من فضة . ولبس أفراد الحاشية أحذية ذات كعوب حمراء . علامة مميزة لهم . واستخدم بعضهم عظام فك الحوت ليحتفظوا بأذيال ستراتهم ممتدة على نحو صحيح . وتزين بعضهم بالماس في عرى ستراتهم . وكان الجميع يحملون سيوفا . وحمل بعضهم العصى . وكان حمل السيف محرما على الخدم وغلّمان الحرفيين والموسيقين (٢٧) . وكانت ملابس أفراد الطبقة البرجوازية

بسيطة : سترة و « بنطلون » قصير من قماش عادى قاتم ، وجوارب صوفية سوداء أورمادية ، وأحذية ذات نعال سميكة وكعوب وطبئة . وارتدى الحرفيون وخدم المنازل الأردنية التي كان الأغنياء يلبسونها . وتلزم ميرابو الأكبر من أنه كان لا يستطيع التمييز بين الحداد واللورد !

وظلت السيدات تتمتعن بحرية أرجلهن داخل الرحاب الفسيح لتنورانهن ذات الأطواق الموسعة . وشجب رجال الدين النساء اللاتي ارتدين مثل هذه التنورات « بأنهن اناث قرودة أو أعوان الشيطان » ولكن النساء أحببنا لأنها تضىف عليهن جلالا حتى ولو كن حبالى . وتروى مدام دى كريكى « أنها لم تستطع أن تهمس أذن مدام دى اجمونت لأن التنورة ذات الأطواق الموسعة حالت دون اقتراب الواحدة منهما من الأخرى » (٢٨) أما حذاء السيدة ميلادى « ذو الكعب العالى والمصنوع من جلد ملون والمرصع بتطريزات من الذهب والفضة - فقد أضفى على قدمها فتنة تسلب الألباب إذا لم يراها أحد . وارتقى صانع حذاءها إلى مصاف البرجوازية العليا بسبب إبداعه فى فنه ، وكم من قصة حب كتبت عن قدم جميلة ، وهى عادة حذاء جميل وكان مثيرا إلى مثل هذا الحد تقريبا ، ذلك « الخف » المزين برسوم الأزهار ، الذى لا نعل له ، والذى كانت تلبسه ميلادى فى البيت . وكانت مقيدة أيضا الأهداب والحواشى والمراوح والملابس التحتية المزخرفة التى كانت تجذب عين الرجل الزائفة أو تخفى جسم المرأة الحائرة فى كل ناحية . وكان مشد الخصر والردين (الكورسيه) المصنوع من عظام فك الحوت يساعد على تشكيل هذا الجسم فى القوام الأنيق الذى يقتضيه العصر ويلائم المكانه الاجتماعيه . وبرز جزء معقول من الصدر ليشهد بالامتلاء المناسب المريح . وكان الحلاقون وضييعين بسطاء . ولم تظهر تسريحة الشعر العالية إلا فى ١٧٦٣ . وعالجت مستحضرات التجميل والتطرية لليدين والذراعين والوجه والشعر . وتختلف الرجال قليلا عن النساء فى استخدام العطور . وكان وجه السيدة ينقش ويطل بالمساحيق ، وتوضع عليه بطريقة بارعة لصوق تجميلية أو شامات من الحرير الأسود مقطعة على شكل قلوب

أو قطرات من الدموع أو أقمار أو نيازك أو نجوم ، ويمكن أن يكون للسيدة العظيمة سبع أو ثمان من هذه اللصوق على جبهتها ، وصدغها وقرب عينيها وعلى جوانب الفم . وكانت تحمل صندوقاً للصوص فيه شامات إضافية تعوض بها ما قد يتساقط منها . وكانت المائدة في حجرة ملابس السيدة الغنية تتألق بالأدوات والمواد اللازمة لها - صناديق من الذهب والفضة أو الحجر اللازوردى ، مخصصة لحفظ أدوات الزينة . وتلألأت الجواهر الثمينة على الذراعين والرقبة والأذنين والشعر . وكان يسمح للرجال ذوى الحظوة بالدخول إلى حجرة ملابس السيدة ميلادى ليجاذبوا أطراف الحديث ، بينما كانت وصيفاتها تقمن بإعدادها لبرنامج اليوم . وكان الرجال في الطبقة الأرستقراطية عبيداً للنساء كما استعبدوا للزى السائد للنساء، أما الزى فيحدده مصمم ملابس النساء . وبعد ١٧٠٤ أعرضت فرنسا عن محاولات تحديد الزى أو الملابس ، عن طريق قوانين ضبط الإنفاق . واتبعت أوروبا الغربية بصفة عامة أزياء فرنسا ، ولكن كانت هناك أيضاً موجة معاكسة فإن زواج لويس الخامس عشر من ماري لوكزنسكا أتى بطرز بولندية وأدخلت الحرب ضد النمسا والمجر أزياء مجرية ، وعمل زواج الدوفين من الأميرة الإسبانية ماريا تريزا رافاييلا على انتشار « الطرحة » في فرنسا من جديد .

ولم تكن وجبات الطعام منمقة مزخرفة مثل الثياب ، ولكنها تطلبت علماً دقيقاً متنوعاً ، كما تطلبت فناً رقيقاً . وكان المطبخ بالفعل النموذج الذى يحتذى فى العالم المسيحى ومكمن الخطر فيه . وفى ١٧٤٩ حذر فولتير قومه من أن وجبات الطعام الثقيلة التى يتناولونها « قد تصيب آخر أذهانهم بالتبلىد » (٢٩) . وضرب مثلاً طيباً للغذاء البسيط وسلامة العقل والفظنة . وكلما ارتقت الطبقة ، ازداد ما تتناول من طعام . وعلى هذا كانت وجبة العشاء على مائدة لويس الخامس عشر تتكون من حساء ، وشواء من لحم البقر ، وطبق من لحم العجل ، وبعض الدجاج ، والحجل والحمام . ثم الفاكهة الطازجة والفاكهة المحفوظة (٣٠) ويقول فولتير « كان نفر قليل من الفلاحين يذوقون طعم اللحم لأكثر من مرة واحدة فى الشهر » (٣١) .

وكانت الحضرات ضربياً من الترف في المدينة حيث كان يصعب الاحتفاظ بها طازجة . وانتشر أكل السمك « الأنقليس » . وكان بعض السادة الكبار ينفقون ٥٠٠ ألف جنيه سنوياً على المطبخ ، وأنفق أحدهم ٧٢ ألف جنيه على مأدبة عشاء أعدها للملك والحاشية . وكان رئيس الخدم في البيوتات الكبيرة شخصية مهيبة تثير الإعجاب ، يلبس ثياباً فاخرة ثمينة ، ويحمل سيفاً ، ويتألق في أصبغه خام من الماس . وكانت النساء الطباخات موضع ازدراء واحتقار ، وكم طمع الطباخون وجهدوا في ابتداع أطباق جديدة ليخلدوا أسماء ساداتهم ، فأكلت فرنسا طبق شرايح لحم عجل المنظر الجميل (بل قى) - قصر مدام دي بمبادور المفصل لديها - « ودجاج فيلروا » وصلصة الميونيز ، تخليداً للذكرى انتصار ريشيليو في « ماهون » (٣٢) . وكانوا يتناولون الأكلة الرئيسية في الساعة الثالثة أو الرابعة بعد الظهر ، والعشاء في التاسعة أو العاشرة ليلاً .

وكانت القهوة آنذاك تنافس النبيذ شرباً . ولا بد أن ميشيليه (المؤرخ الفرنسي ١٧٩٨ - ١٨٧٤) أحب القهوة كثيراً ، حيث رأى أن تزايد تدفق البن من شبه الجزيرة العربية والهند وجزيرة البوريون والبحر الكاريبي أسهم في انتعاش الروح الذي ميز عصر الاستنارة (٣٣) . وكانت كل صيدلية تبيع البن حبوباً أو القهوة المعدة للشراب على المنضدة الطويلة بداخلها . وفي ١٧١٥ كان في باريس ٣٠٠ مقهى ، وفي ١٧٥٠ زادت إلى ٦٠٠ ، كما وجد منها عدد مناسب في كل مدينة في الأقاليم وفي مقهى « بروكوب » وكان يسمى أيضاً « كاف الكهف لأنه كان دائماً مظلماً » كان ديدرو ينشر أفكاره ، كما كان فولتير يقصد إليه متنكراً لسمع التعليقات على أحدث روياته . وكان مثل هذا المقهى منتدى العامة حيث يلعبون الشطرنج أو « الضمامه » أو « الدومينو » ، وفوق هذا وذلك يتجاذبون أطراف الحديث لأن الناس ازداد شعورهم بالوحدة والوحشة بازدياد السكان في المدن .

وكانت الأندية عبارة عن مقاه خاصة ، عضويتها مقيدة ، وتغلب عليها رعاية مصالح من نوع محدد . وحوالي ١٧٢١ أسس الراهب آلارى نادى

« دى لا ترسول » (عبارة عن طابق مسروق بين الطابق الأرضى والطابق الذى فوفه ، فى دار الراهب ، حيث كان يجتمع نحو عشرين من رجال السياسة والقضاء والحكم والأدب ليثدارسوا شئون الساعة، دينية أو سياسية وكان بولنجبروك هو الذى جاء بهذا الاسم فأدخل لفظة CLUB إلى اللغة الفرنسية ، وهناك شرح الراهب دى سانت بيير برامجه للإصلاح الاجتماعى والسلام الدائم ، مما أزعج بعضها الكاردينال فلىرى فأمر بفض النادى فى ١٧٣١ . وبعد ذلك بثلاث سنوات أسس أيضاً أنصار جيمس الثانى اللاجئون من إنجلترا فى باريس أول دار فرنسية للبنائين الأحرار (الماسونيين) ، كانت ملجأً للربوبيين ، ووكراً للدسائس السياسية ، وأصبحت منفلاً للنفوذ الإنجليزى ومهدت الطريق للفلاسفة .

إن الرجال والنساء ، وقد أصابهم الضمجر والسأم من الكدح والنصب فى أعمالهم اليومية كانوا يقصدون زرافات ووجدانا إلى المتنزهات وقاعات الرقص والمسارح وفرق الموسيقى والأوبرا ، وأولع الأثرياء بالصيد والقتنص والبرجوازيون بالتنزهات الحلوية . وكانت غابة بولونيا والشانز لرية وحدائق التويرلرى وحدائق لكسمبرج وحديقة النباتات أو حديقة الملك ، كما كانوا يسمونها آنذاك — أما كن مفضلة للتنزه فى المركبات أو مشياً على الأقدام ، ولقاء العشاق وعروض عيد الفصح . أما إذا لزم الناس بيوتهم فإنهم كانوا يتسلون بالألعاب المنزلية والرقص والموسيقى والتتاليات الخاصة . وكان كل إنسان يرقص . وكان « البالية » قد أصبح فناً ملكياً معقداً . ظفر الملك فيه بنصيب من حين إلى حين . وكان راقص الباليه مثل كامارحو أو لاجوسان معبود الجماهير فى المدينة ومشتهى أصحاب الملايين .

٤ - الموسيقى

كانت الموسيقى فى فرنسا قد انحطت منذ تفوق لى على مولير فى تسلية الملك الأعظم فلم يكن هنا فى فرنسا هذا الجنون أو الولع الشديد بالموسيقى الذى أدى بايطاليا إلى نسيان إذلالها أو خضوعها السياسى ، ولا التفانى الشديد فى أساليب التلحين ، الذى أوجد القداسات الضخمة والألحان الموسيقية

المطولة المبنية على رواية الإنجيل لآلام المسيح في ألمانيا على عهد باخ .

وكانت الموسيقى الفرنسية في عصر انتقال من الشكل التقليدي إلى زخرفة الباروك، إلى رقة الروكوكو ، ومن الطباق المعقد ذى الألفاظ المشوهة للحن ، إلى ألحان سلسلة متدفقة وأفكار رئيسية رقيقة تتلاءم مع الطبيعة الفرنسية . واستمر مؤلفو الموسيقى يخرجون أغاني الغزل أو الهجاء أو أغاني حزينة تتحدى الفتيات ، وتتحدى الملوك ، وتستنكر العزوبة والتواني . وامتدت رعاية الموسيقى من الملوك الذين يتطلبون العظمة والجلال إلى رجال المال الذين يدافعون عن حظوظهم مع الفرق الموسيقية والمسرحيات والشعر مما يستأثر به القلة من ذوى الجاه والنفوذ . وأخرجت أوبرا روسو « الموزيات الأنبيات » (إلهات تسع تحمين الشعر والغناء في الأساطير اليونانية) Les Muses Galantes في بيت الملزم العام ببولنير . وكان لبعض الأغنياء فرق موسيقية خاصة بهم . وكانت العروض أو الحفلات المفتوحة للجمهور مقابل رسم دخول ، تقدمها بانتظام في باريس « فرق الموسيقى الروحية » التي أنشئت ١٧٢٥ وتبعها في ذلك سائر المدن . وقدمت الأوبرا في باليه رويال « في وقت متأخر بعد الظهر عادة ، حتى إذا انتهت في الثامنة والنصف مساء ، قصد المتفرجون للتنزه في حدائق التويلري ، وأطربهم المغنون والعازفون في الهواء الطلق . وكان هذا واحدا من المظاهر الفاتنة في الحياة في باريس .

وإنا لنذكر من مطالعة كتاب ديدرو « ابن أسحق رامو » كم من الملحنين والموسيقيين البارعين أقبل الناس عليهم إقبالا شديداً في هاتيك الأيام ، على حين جر عليهم النسيان اليوم ذبوله . وثمة ملحن فرنسي واحد من تلك الحقبة خلف لنا أعمالا لا تزال تتشبه بالحياة . إن جين فيليب رامو أولع أيما ولع بالموسيقى . وكان أبوه عازف الأرغن في كنيسة سانت اتين في ديجون . ويؤكد لنا كتاب السير المتحمسون أن جين استطاع في سن السابعة أن يقرأ أية موسيقى توضع أمامه بمجرد وقوع نظره عليها . وفي الكلية استغرق كل جهده في الموسيقى إلى حد أن الآباء اليسوعيين فصلوه ، وبعد ذلك

كاد جين لا يفتح كتاباً إلا في الموسيقى أو عن الموسيقى . وسرعان ما أصبح بارعا في العزف على الأرغن والبيان القيثاري والكمان مما لم يكن بعده زيادة لمستزيد في ديجون . ولما وقع الشاب في شرك الغرام ، ورأى الوالد أن في هذا مضيعة لمواهبه أرسله إلى إيطاليا ليدرس أسرار الألحان فيها (١٧٠١) .

ولما عاد جان إلى فرنسا ، عمل عازفاً على الأرغن في كليرمونت فراند وخلف أباه في ديجون (١٧٠٩ - ١٧١٤) ، ثم رجع أدراجه إلى كليرمونت عازفاً على الأرغن ، في الكاتدرائية (١٧١٦) ، ثم استقر به المقام في باريس ١٧٢١ . وهناك في ١٧٢٢ وهو في التاسعة والثلاثين كتب مؤلفه الرائع عن النظرية الموسيقية في فرنسا في القرن الثامن عشر « رسالة عن علم الإيقاع موجزاً في أسسه الطبيعية » . وحاول رامو أن يبرهن أنه يوجد دائماً في التأليف الموسيقى السليم ، سواء كان موزعاً أو غير موزع - « قاعدة أساسية » يمكن أن تستمد منها كل الأنغام التي فوقها ، وأن كل النغمات المتألقة يمكن أن تستخرج من سلسلة إيقاعات النغمات الجزئية ، وأن كل هذه الأنغام يمكن أن تقلب دون أن تفقد هويتها . إن رامو كتب بأسلوب لا يفهمه إلا أكثر الموسيقيين تبحراً ومعرفة بالموسيقى ، ولكن أفكاره سرت دالمبرت الرياضي ، الذي شرحها بشكل أوفى ١٧٥٢ وإنك لتجد أن قوانين الترابط الوترى التي صاغها رامو ، مقبولة في عصرنا هذا أساساً نظرياً للتأليف الموسيقى (٣٤) .

وشن النقاد هجومهم على رامو ، فرد عليهم هو بتأليف وتفسير ، حتى حظى بالتقدير والإجلال بما أخضع له الموسيقى من قوانين ، كما فعل نيوتن بالنسبة للنجوم (٣٥) . وفي ١٧٢٦ - وهو في سن الثالثة والأربعين تزوج من ماري ماجنو ، إذ ذاك في الثامنة عشرة . وفي ١٧٢٧ وضع موسيقى مسرحية فولتير الغنائية « سمسون » ولكنهم حظروا إخراجها على أساس أن قصص الكتاب المقدس لا يجوز تحويلها إلى أوبرا . وكان على رامو أن يكسب قوته بالعمل عازفاً للأرغن في كنيسة « سانت كروادى لا بروتيري » . وبلغ الخمسين من العمر قبل أن يغزو مسرح الأوبرا .

وفي ١٧٣٣ قدم له الراهب بللجرين أوبرا « هبوليريت وأريسي » ،
 المبذبة على رواية راسين « فدر » ولكن الراهب حصل من رامو على صك
 بمبلغ خمسمائة جنيه ضماناً في حالة سقوط الأوبرا . ولما مثلت على سبيل
 التجربة ابتهج الراهب بموسيقاها أيما ابتهاج ، إلى حد أنه مزق الصك في
 نهاية الفصل الأول . ولما مثلت أمام الجمهور في أكاديمية الموسيقى أدهشت
 المتفرجين بخروجها الجريء عن الأنماط التي كانت قد أصبحت تقاليد مقدسة
 منذ عهد اللي . واعترض التقاد على ما أتى به رامو من إيقاعات جديدة
 غريبة ، وتغييرات مبتدعة في طبقة الصوت وتعقيدات في التوزيع الموسيقي
 بل إن الفرقة الموسيقية نفسها كرهت الموسيقى . وفكر رامو لبعض الوقت
 في التخلي عن محاولاته في مجال الأوبرا ولكن محاولاته الثانية
 Les Indes galantes (١٧٣٥) حظيت بإعجاب المتفرجين بتدفق ألحانها
 المنسقة ، أما أوبرا Castor et Pollux ١٧٣٧ فكانت من أروع الانتصارات
 في تاريخ الأوبرا الفرنسية .

وأفسده النجاح . وتفأخر بأنه في مقدوره أن يحول أي نص إلى أوبرا
 جيدة وأن ينقل صحيفة أي جريدة إلى موسيقى . وأنتج (٣٦) سلسلة طويلة
 من الأوبرات غير الهامة . ولما ضاق مديرو أكاديمية الموسيقى ذرعاً به
 انصرف إلى تأليف قطع للبيان القيثاري والكمان والفلوت . وأخذ لويس
 الخامس عشر - أو بالأحرى مدام دي بمبادور - بيده ، باستخدامه في
 كتابة موسيقى رواية فولتير « أميرة نافار » . التي لقيت في فرساي نجاحاً
 أعاد له مكانته (١٧٤٥) ونال رضا الأكاديمية من جديد . وكتب مزيداً
 من روايات الأوبرا . ومذ ألفت باريس أسلوبه فلإنها نسبت للي . ونادت
 برامو ملكاً على دنيا الموسيقى بلا منازع .

وفي ١١٥٢ وجد نفسه يواجه تحدياً جديداً . ذلك أن بعض الفنانين
 العازفين والملحنين كانوا قد قدموا من إيطاليا . ومن ثم بدأت حرب صاخبة
 بين الموسيقى الفرنسية والموسيقى الإيطالية التي بلغت ذروتها في السبعينات
 بالموسيقار بتشيني ينافس جلك Gluck . وفي دار الأوبرا في باريس قدمت

فرقة إيطالية مع أوبرا برجوليزي « La serva Randona » فاصلاً موسيقياً وهي من روائع الأوبرا الهزلية ورد أنصار الموسيقى الفرنسية على ذلك بالنشرات وبقطع رامو . وانقسمت الحاشية إلى معسكرين وناصرت مدام بمبادور الموسيقى الفرنسية على حين دافعت الملكة عن الموسيقى الإيطالية ، وهاجم جريم الأوبرا الفرنسية بأسرها (١٧٥٢) وأعلن روسو أن الموسيقى الفرنسية بغیضة لا تطاق . والعبارة الأخيرة في مؤلفه « رسالة في الموسيقى الفرنسية » (١٧٥٣) تدل أبلغ دلالة على خله العاطفي قال : « وفي اعتقادي أني قد أوضحت أن الموسيقى الفرنسية مجردة من الوزن والتناغم معاً ، لأن اللغة لا توفر لها هذا أو ذلك . والغناء الفرنسي مجرد نباح وشكوى متصلتين ولا تطبيقه الأذن غير المتحيزة ، وأن إيقاعها غير مستساغ وإنها لا تعبر عن شيء ولا تشعر إلا بما تلتقت عن معلمها ، وأن النغم الفرنسي ليس نغماً ، وأن المقاطع الصوتية الفرنسية ليست مقاطع صوتية . ومن ثم انتهيت إلى أن الفرنسيين ليس لديهم موسيقى ، ولن يكون لهم شيء منها وإذا قدر لهم أن يكون لديهم شيء من الموسيقى فستكون وبالاعليهم » .

وانتقم أنصار الموسيقى الفرنسية بخمس وعشرين نشرة أصدرها ضد روسو ، وأحرقوا تمثالاً له على باب دار الأوبرا (٣٧) واستخدم رامو ، على كره منه ، عنصراً رئيسياً في حرب المهرجين ، فلما هدأت المعركة وأعلن انتصاره فيها اعترف هو نفسه بأن الموسيقى الفرنسية لا تزال في حاجة إلى أن تتعلم الشيء الكثير عن الموسيقى الإيطالية ، وقال إنه لو لم تكن سنة قد كبرت إلى هذا الحد ، لعاد إلى إيطاليا ليدرس طرق برجوليزي وغيره من الأساتذة الإيطاليين .

وكان رامو آنذاك في قمة شعبيته ، ولكن كان له أعداء كثيرون قدامى وجدد . وأضاف إليهم بنشرة أصدرها يعرض فيها أخطائه التي وردت في المقالات التي ظهرت عن الموسيقى في دائرة المعارف . فما كان من روسو ، وهو كاتب معظم هذه المقالات إلا أن انقلب عليه وازداد مقتاً له . أما ديدرو أبو دائرة المعارف فإنه كان السبب للملحن العجوز في لباقة تبعث

على الاحترام في « ابن أخى رامو » التي لم ينشرها تفضلاً منه وكرماً ، قال : إنه الموسيقار الشهير الذي خلصنا من موسيقى اللي المتعددة الأصوات التي ترنمنا بها لأكثر من قرن من الزمان ، والذي كتب كلاماً كثيراً خيالياً غير مفهوم وحقائق غامضة عن نظرية الموسيقى - وهي كتابات لم يفهمها هو ، ولا أحد غيره قط . إنه أخرج لنا عدداً من الأوبرات التي يجد فيها المرء أنغاماً متألّفة وشيئاً من الغناء ، والأفكار غير المترابطة والثروة في سرعة وجلبية ، والحركات السريعة ومواكب النصر والحراب والمثل العليا وألحان الرقص . . . مما سيبقى إلى الأبد (٣٨) .

وحين ظهر رامو في إحدى المقصورات ١٧٦٠ - وهو في سن السابعة والسبعين المناسبة لإعادة أوبرا « داردانوس » وهي من إخراجه ، لقي احتفاء وترحيباً حماسياً كاد يفوق ما قوبل به فولتير بعد ذلك بثمانية عشر عاماً . ومنحه الملك براءة النبالة . وأعفته هو وأسرته دييجون الفخورة بابنها من الضرائب البلدية مدى الحياة . وانتابته وهو في قمة مجده حمى التيفويد ، وذبل بسرعة وقضى نحبه في ١٢ سبتمبر ١٧٦٤ وشيعته باريس باحتفال مهيب حيث ووري التراب في كنيسة سانت أوستاش . وأقامت مدن كثيرة في فرنسا الصلوات تكريماً له .

٥ - الصالونات

كانت باريس العاصمة الثقافية للعالم ، أكثر ممتها لفرنسا . قال ديكلوس « إن هؤلاء الذين يعيشون على مسافة مائة فرسخ من العاصمة إنما يبعدون عنها بمائة عام من حيث أساليب السلوك والتفكير (٣٩) وربما لم توجد عبر التاريخ قط مدينة تعج بحياة متنوعة الألوان . فالمجتمع المهذب المصقول وفنون الأدب الرفيع اثلتفا في رباط وثيق مذهل . وكان الخوف من الجحيم قد زال عن الباريسيين المتعلمين وتركهم في حالة من المرح والابتهاج لم يسبق لها مثيل ، لا يلقون بالا في وثوقهم الجديد بأنه ليس هناك عملاق رهيب قد ير في السموات ، يسترق السمع إلى خطاياهم ويحصيها عليهم . ومن تحرير الذهن على هذا النحو لم تنجم بعد آثار كثيية من عالم مجرد من القداسة

(م ٦ - قصة الحضارة)

والهدف الخلقى ، عالم يرتجف في زمهرير التفاهة والحقارة ، وكان الحديث شائقا تتمخلة الدعابة والمرح . وغالبا ما انتقل إلى هزل ظاهري ، وهنا كان التفكير ينحصر في ظواهر الأمور خشية عدم العثور على شيء في أعماقها . وكان القيل والقال والفضائح تنتشر بسرعة من ناد إلى ناد ومن بيت إلى بيت ، وكثيراً ما تطرق الحديث إلى آفاق خطيرة في السياسة والدين والفلسفة ، مما قد يتيسر الخوض فيه اليوم إلا نادرا .

وكان المجتمع متألقا ، لأن السيدات كن مبعث الحياة فيه . وكن المعبودات التي قدسها هذا المجتمع ، وهن اللأى تولين توجيهه ، وبطريقة ما وبرغم العرف والعوائق أتيح لبعضهن قدر من التعليم يكفى لتبادل الحديث في فطنه وذكاء مع أئمة الفكر الذين أحبن أن يستضيفوهم . ونافسن الرجال في الاستماع إلى محاضرات رجال العلم^(٤٠) . إذ عاش الرجال قليلا في المعسكرات وطالت إقامتهم في العاصمة وفي الحاشية فقد تزايد إحساسهم بالمقاتن غير الملموسة في النساء - رشاقة الحركة ، عذوبة الصوت حيوية الروح ومرحها ، بريق العينين ، رهافة الذوق ، الجزع المشوب بالحنان والحب ، النفس المشربة بالرحمة والشفقة . إن تلك الصفات جعلت المرأة محبوبية في كل مدينة ولكننا ربما لا نجد في أية ثقافة أخرى أن الطبيعة والتعليم والملابس والحلي وأدوات التجميل والزينة قد جعلت من المرأة مخلوقا يسحر الأبواب بقدر ما كانت عليه في فرنسا القرن الثامن عشر . وكل هذا المفاثن والمغريات لا تستطيع على أية حال أن نفسر سلطان المرأة وقوتها . إن الذكاء في معالجة الرجال وسياساتهم أمر ضروري . وبارى ذكاء النساء عقل الرجال وفي بعض الأحيان تفوق عليه . وعرف النساء الرجال أفضل مما عرف الرجال النساء . والرجال يندفعون في تهور بالغ إلى أفكار لتنضج حتى تفهم ، على حين إن التراجع المحتشم المطلوب حتى من السيدة المفتوحة ، هيا لها فسحة من الوقت للملاحظة والتجريب وتخطيط حملتها أو هجومها .

وكلما ازدادت حساسية الرجل اتساعا وعمقا ، نما تأثير المرأة ونفوذها . وفتشت البسالة في ميدان الحب عن جزاء وفاق لها في الصالون وفي مخدع

المرأة وقى الحاشية على حد سواء . وكم اهتر الشعراء طرباً حين وجدوا
أذناً صاغية من الجنس الرقيق . وكم رفع من شأن الفلاسفة تفضل السيدات
ذوات التهذيب الرفيع والمكانة العالية بالاستماع إليهم ، بل إن أغزر العلماء
علماء وأوسعهم إطلاعاً وجدوا في الصدور الناعمة وفي حفيف الرقص مثاراً
للفكر والعقل . وهكذا مارست المرأة قبل « تحريرها » سيادة طبعت
العصر بطابعها المتميز . وتذكرت مدام فيجي لبرون فيما بعد « كانت المرأة
تحكم آنذاك ، ثم ثلت الثورة عرشها » (٤١) . إن النساء لم يعلمن الرجال
آداب السلوك والعادات فحسب ، بل لأنهن كذلك رفرن أو خفضن من
درجاتهم في الحياة السياسية ، بل حتى في الحياة العلمية . من ذلك أن مدام
دى تنسان هيأت اختيار ماريفو بدلا من فولتير ، لعضوية مجمع ائالحالدين
(الأكاديمي فرانسير) في ١٧٤٢ . وكان شعار « فثس عن المرأة » وسيلة
النجاح ، فإنك إذا عثرت على المرأة التي يحبها الرجل ، كشفت عن المنفذ
الذي تصل منه إلى الرجل الذي تريد .

كانت كلودين الكسندرين دى تنسان — بعد بمبادور — هي السيدة
الأكثر إمتاعاً وتشويقاً بين النساء اللاتي سيطرن على فرنسا في النصف الأول
من القرن الثامن عشر . وقد عرفنا كيف هربت من أحد الأديار . وأنجبت
دامبرت ، واتخذت لها مسكناً في باريس في شارع سانت أونوريه حيث
استقبلت مجموعة متعاقبة من العشاق ، بينهم بولنجبروك ، ريشيليو ،
فونتنيل (صموت ولكنه نشيط قوى في سن السبعين) وعدداً من الرهبان
ومدير الشرطة في باريس . وأضافت الشائعات أخاها بيير إلى قائمة المترددين
عليها ، ولكن ربما أحبته لمجرد أنها أخت حنون مصممة على تنصيبه
كاردينالاً ، إن لم يكن رئيساً للوزراء . وعن طريقه وعن طريق غيره
دبرت أن تكون ركناً قوياً في حياة فرنسا .

إنها جمعت المال أولاً : . واستثمرته على طريقة دكتور لو ، ولكنها
باعت الأسهم في الوقت المناسب . وقبلت الحراسة على ثروة شارل جوزيف
دى لافرزي ، ثم أبت إعادتها إليه ، فانتحر في دارها ، تاركاً وصية

يتهمها فيها بالسرقة (١٧٢٦) ، وأرسلت إلى الباستيل ولكن أصدقائها
دبروا أمر الإفراج عنها ، واحتفظت بمعظم الثروة . ونجحت ثروة المدينة
والحاشية ، وخرجت منها سالمة .

وحوالى ١٧٢٨ أفاضت مدام دي نئسان إلى مخدعها صالوناً اتحدته
سلما ترقى به إلى السلطة والقوة ، واستقبلت فيه مساء يوم الثلاثاء من كل
أسبوع ، على مائدة العشاء عدداً من الرجال البارزين ، أطلقت عليهم
« معرض الوحوش » منهم مونتنيل ، مونتكيبو ، ماريفو ، بريفوست ،
هلفشيوس ، استروك ، مارمونتل ، هينولت ، ديكلوس ، مابلى ،
كوندرسيه ، وأحياناً تشستر فيلد . وكانت المجموعة كلها من الرجال عادة
لأن نئسان لم تكن تطيق على مائدتها أية منافسات . ولكنها أطلقت
« لوحوشها » العنان ، ولم تغضب قط لرفضهم السافر للمسيحية . وتساوى
كل الناس من كل الطبقات هناك ، فكان الكونت النبيل فى مستوى الرجل
من العامة ، وقد تروى التقاليد فيما بعد أنه هنا كانت تجرى أكثر المناقشات
تألقاً ودقة طوال هذا القرن ، قرن الحديث الذى لا حدود له (٤٢) .

وعن طريق ضيوفها وعشاقها وكهنة اعترافها استخدمت نفوذها لتحقيق
أهدافها بطريقة سرية فيما بين فرنسا ورومة . ولم يكن أخوها طموحاً ،
بل كان يتوق إلى البساطة فى الحياة والهدوء فى الأقاليم ، ولكنها سعت
حتى عين رئيس أساقفة ثم كاردينالا ، وأخيراً وزيراً فى مجلس الدولة .
وعاوت على أن تجعل من مدام شاتورو خليمة للملك ، واستحثتها على
حث الملك ليقود جيشه فى الحرب . لأنها رأت فى بلاده لويس وتكاسله
مصدراً للاضمحلال السياسى ونذيراً بهذا الاضمحلال . وربما كانت على
صواب فيما فكرت فيه من أنها لو تولت رئاسة الوزارة للقيت الحكومة
نجاحاً أكبر ، وأظهرت نشاطاً وحيوية أكثر . وناقش رواد صالوتها فى
جرأة انحلال الملك واحتمال قيام الثورة .

ون شيوخوتها نسيت خطاياها ، وانضمت إلى اليسوعيين وشنت الحملات
على الجانسينيين ، وبادلت رسائل المودة مع البابا بندكت الرابع عشر الذى

أرسل إليها صورته اعترافاً منه بخدماتها للكنيسة . إن رقة الفؤاد التي ازدانت بها أخطاؤها ، وجدت لها منافذ كثيرة . ولما قابل الجمهور في بداية الأمر كتاب مونتسكيو « روح القوانين » (١٧٤٨) بعدم الاكتراث اشترت تنسان كل نسخ الطبعة الأولى تقريباً ، ووزعتها مجاناً على أصدقائها الكثيرين . وتولت رعاية ما رمونتل الشاب وأسدت إليه النصيح أن يعقد فوق كل شيء ، أواصر الصداقة مع النساء ، لا الرجال ، وسيلة للارتقاء والصعود في هذا العالم^(٤٣) . وأصبحت هي نفسها ، في سنى شيخوختها وضعفها الأخيرة ، كاتبة ومؤلفة ، وسترت الطيش والحماقة بإغفال ذكر اسمها على ما ألفت . وقارن أصدقاؤها النقاد قصبتها بقصة مدام دى لا فاييت (برنيسيس دى كليف Princesse de Cleves) .

وفارقت مدام تنسان الحياة في ١٧٤٩ وهي في الثامنة والستين . وعندئذ تساءل فونتينيل العجوز « أين أتناول العشاء مساء الثلاثاء الآن ؟ » ولكنه أجاب لنفسه في ابتهاج على الفور « حسناً » ، عند مدام جيوفرين^(٤٤) . وربما ألقينا به هناك .

كان صالون مدام دى دفاند قديماً قدم صالون تنسان ، كما عمر مثل ما عمر صالون جيوفرين تقريباً . إن ماري دى فيشى شامروند باتت يتيمة وهي في سن السابعة فوضعت في دير اشتهر بالتعليم ، فبدأت تدرس وتتأمل في سن مبكرة الأوان ، وكانت تلقى أسئلة تنسم بالتشكك إلى حد مزعج ، وإذ وقعت الراهبة في حيرة من أمر الصبية وأسئلتها فلإنها أحالتها إلى الواعظ المتفقه ماسيون ، الذى عجز عن تفسير المسائل الغامضة ، فتعظي عنها ياساً من إنقاذها من الضلال . وفي سن الحادية والعشرين أصبحت مركيزة دى ديفان بزواج تم عن تراض بين الطرفين ، ولكنها سرعان ما تبينت أن زوجها شخص مبتدل ممل إلى حد لا يحتمل ، فافترقا بعد اتفاق وفر لها ثروة لا بأس بها . وفي باريس وفرساي انصرفت إلى لعب الميسر في اندفاع شديد « لم أفكر في شيء إلا القمار » ولكن بعد ثلاثة أشهر منبت فيها بخسائر فادحة ، « تولاني جزع شديد ، وحزنت على ما أنا فيه ، ونأيت بنفسى

عن هذه الحقاقة « . وقضيت فترة قصيرة خلية للوصى (٤٥) . ثم تنحت عنه إلى عدوته الدوقة دي مين . وفي مسكو ألتقت بشارل هنولت رئيس مجالس التحقيق العسكرى ، الذى أصبح عشيقاً لها ، ثم صديقاً مدى الحياة .

وبعد أن أقامت لبعض الوقت مع أخيها انتقلت إلى نفس الدار فى شارع دى بون ، التى قضى فيها فولتير نجه . وإذ اشتهرت بجملها وعينها البراقبتين وذكائها الحاد ، فإنها جذبت إلى مائدتها (حوالى ١٧٣٩) نفراً من مشاهير الرجال الذين جاءوا ليؤلفوا صالونا يذيع صيته كما ذاع صيت صالون تنسان تقريباً : هنولت ، مونتسكيو ، فولتير ، مدام دي شانيليه ، ديدرو ، دالمبرث ، مارمونتيل ، مدام دي ستال دي لونييه وفى ١٧٤٧ ، وقد بلغت آنذاك الخمسين ، وخفضت من غلوأها بعض الشيء ، استأجرت شقة جميلة فى دير سان جوزيف فى شارع سان دومينك . وكان من عادة الأديار تأجير غرف للعرائس والأرامل والنساء اللأئي افترقن عن أزواجهن ، وكانت هذه المساكن عادة فى أبنية خارج المبنى الأساسى الخاص بالراهبات . ولكن فى حالة هذه المتشككة الثرية ، كان المسكن داخل جدران الدير ، والحق إنه المسكن الذى كان قد آوى تحت سقفه مؤسسة هذا الدير الآثمة ، مدام دي مونتسبان . وتبع صالون المركيزة شخصها إلى مقرها الجديد . ولكن ربما أزعجت البيئة المحيطة به الفلاسفة ، فلم يعد ديدرو يحضر ونادراً ما كان يجىء مارمونتيل ، وكان جريم يتردد بين الحين والحين ، وسرعان ما انقطع دالمبرث . ومعظم المجموعة الجديدة فى سان جوزيف كانوا من سلالة الأستقراطية القديمة : مارشال لكسمبرج ومارشال ميربوا وعقياتهما ، دوفا ودوقتا دى بوفلوز ودى شوازيل ودوقات اجوبون وجرامونت وفيلروا وصديق مدام دي ديفاند من أيام طفولتها ومدى الحياة ، وهو بونت دى فيل . وكانوا يلتقون فى السادسة ، ويتناولون العشاء فى التاسعة ثم يلعبون الورق والميسر ؛ ويتناولون بالتحليل والتفصيل الأحداث الجارية فى عالم السياسة والأدب والفن ، ثم يفترقون . فى نحو الساعة الثامنة صباحاً . وكان الأجانب البارزون ، الوافدون على باريس يجتالون للحصول على

دعوة إلى « مأوى النبلاء » هذا . وروى لورد باث في ١٧٥١ « اني لاذكر أمسية دار الحديث فيها عن تاريخ إنجلترا ، وكم دهشت وارتبكت حين وجدت أن هؤلاء القوم عرفوا من تاريخ بلادنا خيراً مما عرفنا نحن عنه! »^(٤٦)

وتفردت دي ديفاند بأصني دهن وأسوأ خلق بين صاحبات الصالونات فكانت مغرورة متغطسة عيابة شكاكاة ، أنانية أكثر مما يليق بالمرء أن يكون . ولما عالج كتاب هلفشيوس « الروح » ما ذهب إليه لاروشفوكول من أن كل الدوافع الإنسانية أنانية ، علقت هي بقولها في ازدراء « إنه إنما كشف عن سر كل إنسان »^(٤٧) وكانت تجيد الهجاء المشوب بالحقد والضعف كما فعلت في وصفها مدام دي شاتيليه . ولم تر في الحياة الفرنسية إلا الجوانب التافهة الضعيفة . وذهبت إلى أن الفقراء اشترکوا ، بقدر ما سمحت به ظروفهم في ردائل الأغنياء ومساوئهم . ولم تضيف شيئاً إلى التطلعات المثالية للفلاسفة سوى ما جاءت به العقيدة العتيقة من أساطير مغربية مريحة للنفس . وتجنب الاستنتاجات وآثرت العادات القويمة . واحتقرت ديدرو ونعته بأنه جلف ساذج . وأحبت المبرث ثم عادت فكرهته . وأعجبت بفولتير لأنه سبىه السلوك حاد الذهن . والتقت به في ١٧٢١ وعندما هرب من باريس ، ثم شرعت في ١٧٣٦ تبادل الرسائل التي تعد من الروائع في الأدب الفرنسي ولم تقل رسائلها عن رسائله . رقة وعمقاً وصفاء وروعة ولكنها لم تبلغ ما بلغه هو في رسائله من لطف وسهولة وبعد عن التكلف والكياسة .

وفي سن الخامسة والخمسين بدأت تفقد بصرها ، واستشارت كل متخصص في طب العيون ، ثم لجأت إلى كل دجال ومشعوذ . وبعد ثلاث سنوات من الكفاح والعناء ذهب بصرها تماماً (١٧٥٤) ، ويومذاك أنذرت أصدقاءها بأنهم إذا استمروا في شهود أسياتها فإنه يجدر بهم أن يهتموا السيدة العجوز الضريرة . وعلى الرغم من هذا قصدوا إليها . وأكد لها فولتير من جنيف أن ذكاءها وفطنتها باتاً أكثر نالفاً مما كانت تحتي وهي مبصرة ، وشجعها على المضى في الحياة حتى لمجرد أن تثير غضب من يدفعون لها

رواتها السنوية . ووجدت في جولى دى لسبيناس شابة لطيفة نشيطة فاتنة تعاونها على أن تستقبل وتستضيف الأصدقاء . وكانت هي آنذاك تتصدر المائدة وكأنها هومر الأعمى يتصدر مائدة مستديرة وحوله الحكماء وشعراء الملاحم البطولية ، وكانت تنتقل هنا وهناك وقورة شائخة متحدية لمدة ستة وعشرين عاماً آخر . وإنما لنأمل أن نلتقي بها هي أيضاً مرة أخرى .

ولقد كان عصرراً مشرقاً زاهياً ، لأن النساء تألقن فيه ، وجمعن فيه بين الذكاء والجمال ، مما لم يسبق له مثيل . وبفضلهن ألهم الكتاب الفرنسيون الفكر بالعاطفة ، وزينوا الفلسفة بالظرف وخفة الروح . وكيف كان يتسنى لفولتير أن يكون فولتير بغير وجودهن ؟ حتى ديدور الفظ الغامض اعترف بقوله « إن النساء عودتنا أن نناقش أشد الموضوعات جفافاً وتعقيداً ، بشكل ساحر واضح ، إننا نحدثهم حديثاً متواصلاً ، ونريد منهن الإصغاء إلينا ، ونخشى أن يتولاهن التعب أو الضجر . ومن ثم كنا نستخدم طريقة معينة في إيضاح آرائنا لهن في يسر وسهولة . وكانت هذه الطريقة تنتقل من مجرد الكلام إلى أسلوب » (٤٨) وبفضل النساء أصبح النثر الفرنسي أكثر إشراقاً ووضاءة من الشعر واكتسبت اللغة الفرنسية صمراً رقيقاً ، ورشاقة في العبارة ولباقة في الحديث مما جعلها بهيجة ذات مكانة رفيعة . وبفضل النساء انتقل الفن الفرنسي من طراز الباروك الغريب الشاذ إلى الشكل المهذب المصقول والذوق الرفيع ، مما ازدانت به كل مظاهر الحياة في فرنسا .



الفصل التاسع

عبادة الجمال

١ - انتصار الروكوكو

في هذا العصر ، فيما بين الوصايا وحرب السنين السبع - عصر طراز لويس الخامس عشر - كانت النساء تتحدى الآلهة : أى الفريقين أحق بالعبادة ، وكان السعى وراء الجمال ينافس الإنصراف إلى التبتل والورع ، والإندفاع إلى الحرب . وفي الفن والموسيقى ، كما في العلوم والفلسفة ، تراجع كل ما هو فوق الطبيعة أمام كل ما هو طبيعي . إن هيمنة المرأة على ملك حساس شهوانى ، هيأت اعتباراً جديداً أو مكانة جديدة للرہافة ورقة الوجدان . كما أن الاتجاه إلى مذهب اللذة والمتعة في الحياة الذى كان قد بدأ على عهد فيليب دى أورليان ، بلغ ذروته في أيام بمبادور . وأصبح الجمال أكثر من أى وقت مضى ، أمراً ذا « قيم ملموسة » فكان شيئاً يسر المرأ أن يلمسه بيده أو تقع عليه عيناه ، ابتداء من خزف سيقر إلى لوحات بوشيه العارية . وتخلى المهيب الفعخ من مكانه للبهيج السار والجليل الرقور للرشيق الرقيق ، وكبر الحجم لفتنة الرشاقة ، وكان الروكوكو فن أقلية أبيقورية غنية متلهفة على الاستمتاع بكل لذة قبل انقضاء دنياها السريعة الزوال ، في عمرة طوفان من التغيير تتعجل حسدوثة . وفي هذا الطراز الدنيوى الصريح طفرت الخطوط فرحاً ، وورقت الألوان ، وختل الأزهار من الأشواك ، وتجنبت الموضوعات الفاجعة لتؤكد الإمكانيات الباسمة المشرقة في الحياة ، وكان الروكوكو آخر مرحلة في الباروك من تمرد الخيال على الحقيقة والواقع ، ومن ثورة الحرية والإنطلاق على النظام والقواعد . ومع ذلك لم تكن حرية مخلة ، بل ظل إنتاجها يحتفظ بالمنطق والتركيب ، ويعطى المغزى شكلاً . ولكنها كرهت الخطوط المستقيمة والزوايا الحادة ، ونفرت من التماثل ، وآلمها أن تترك أية قطعة أثاث ذون نقوش . وعلى

الرخم من أناقة الروكوكو الجمذابة ، فإنه أنتج آلافا من الأشياء التي لا يفوقها شيء في رشاقته وزخرفتها . ولمدة نصف قرن من الزمان جعل الروكوكو من الفنون الصغيرة أسمى فن في فرنسا .

وعلى قدر علمنا لم يوجد قط مثل هذا النشاط من قبل . وقليل ما كان مثل هذا التفوق والامتياز ، في مجالات الأعمال الجمالية . تلك المجالات التي كانت يوماً أقل شأنًا . وفي تلك الحقبة صار الفنان والحرفي مرة أخرى شخصاً واحداً كما كان الحال في أوروبا في العصور الوسطى . وكان هؤلاء القادرون على تجميل الجوانب الخصوصية في الحياة ووضع تكريم مع الرسامين والمثاليين والمعماريين في هذا العصر .

ولم يبلغ الأثاث قط من قبل هذه الدرجة من الروعة والالتقان . ولم يعد أثاث طراز « لويس الخامس عشر » مثل ما كان في عهد الملك العظيم ، وقد كان تصميمه مقصوداً للراحة ، ولا للعظمة والوقار ، وكان أكثر ملاءمة لجسم المرأة وملابسها ، منه للجلال والتباهي ، واتخذت الأثاث أشكالاً شتى ، لتتناسب مع الأوضاع الجسمية والأمزجة . وكتب فولتير « إن السلوك الاجتماعي أيسر اليوم منه في الماضي ، ويمكن أن ترى السيدات يقرأن على الأرائك أو أسرة النهار (سرير ضيق يحول في النهار إلى أريكة) دون أن يسبين أى إزعاج أو مضايقة لأصدقائهن ومعارفهن^(١) . وكان السرير يتوج بظلة رقيقة جميلة وتزين ألواحها بالصور والرسوم أو تنجد ، وتنقش قوائمها نقشاً جميلاً . وطورت أنماط جديدة من الأثاث لتواجه حاجات جيل آثر فينوس على مارس (آثر آلهة الجمال على إله الحرب) وأخذ الكرسي المنجد ذو الذراعين والوسادة الوثيرة (البرجير) والأريكة المكسوة بنسيج مزدان بالصور والرسوم ، والكرسي الطويل (شيزلنج) ومائدة الكتابة القرأ (ما يوضع عليه الكتاب عند القراءة) ومنضدة الحوض في حجرة النوم والمائدة المثبتة إلى الحائط تحت مرآة (الكونسول) ، ومسد القلمين ، والخزانة العالية ذات الأدراج ، وصوان السفر - كل هذه الأشياء أخذت آنذاك أشكالها ، وفي الغالب أسماءها التي احتفظت في الواقع

بها إلى يومنا هذا . وأسرفوا في النقش وغيره من ألوان الزخرفة والتزيين إلى حد أثار رد فعل في النصف الثاني من القرن ، وتطعيم خشب الأثاث بالصدف أو المعادن الذي أدخله أندريه شارل بوليه في عهد لويس الوابع عشر ، وأهمله أبناؤه من بعده ، حيث كانوا نجارى الأثاث لدى لويس الخامس عشر وغطت تشكيلة كبيرة من التطعيم سطح الخشب الملون أو المكسو بقشرة رقيقة أو المدهون بورنيش الك « ووضع فولتير » أشغال الك « في فرنسا القرن الثامن عشر ، في رتبة سواء مع ما كان يرد منها من الصين أو اليابان . أما الحرفيون من أمثال كرسنت ، أو بورد اوبن ، كافيرى ، وميسونيه فقد بلغوا من التفوق والتبريز في تصميم الأثاث وزخرفته درجة حدث بنجارى الأثاث الأجانب إلى القدوم إلى فرنسا لدراسة أساليبهم ، ثم نشروا الطراز الفرنسية من لندن إلى بطرسبرج . وجمع جوست أوريل ميسونيه بين عشرة فنون أو تزيد ، فبنى البيوت ، وزخرف أجزاءها الداخلية ، وصنع الأثاث على أحدث طراز ، وصنع « الشمعدانات » والآنية الفضية للمائدة وصمم علب السعوط وأغطية الساعات ، ونظم المشاهد الفاخرة ، وألف عدة كتب دون فيها مهارانه وفنونه . وكاد أن يكون الرجل العالمى في زمانه .

وقد حلت الألفة والعلاقات الحميمة في الحياة على عهد لويس الخامس عشر محل التمسك بالرسميات الذى ساد القرن السابع عشر ، فإن الزخرفة الداخلية انتقلت من الفخامة والأبهة إلى الرقة . وفي هذا أيضاً بلغ العصر الذروة ، فالأثاث والبسط والسجاد والتنجيد والقطع الفنية ، وساعات الحائط والمرايا ، والإطارات والأنسجة المزدانة بالصور والرسوم والستائر واللوحات والسقوف والشمعدانات ، حتى خزائن الكتب — صنعت كلها في تناسق في الألوان والطراز يسر الناظرين . وقد يساورنا الظن بأن الكتب كانت تشتري للون جلدها والمادة المصنوعة منها قدر ما تشتري من أجل محتوياتها ، ولكننا يمكن أن ندرك هذه اللذة أيضاً . وإنا لننظر بعين الحسد إلى المكتبات الشخصية الخاصة المرصوفة وراء الزجاج في خزائن جميلة

مرتكرة إلى الحائط : وكانت حجرات الطعام نادرة في فرنسا قبل ١٧٥٠ ،
أما موائد الطعام فكانت تصنع بحيث يمكن بسهولة تمديدتها لمضاعفة عدد
الجالسين إليها وإزالتها ، لأن ضيوف العشاء قد يبلغون عدد كبيراً لا يمكن
التنبؤ به . ولم تعد المدافئ من ذلك الطراز الضخم الذي كان قد انحدر من
العصور الوسطى إلى عشر لويس الرابع عشر ، ولكنها إزدانت بزخرفة
مترفة ، وفي بعض الأحيان (وهذا مثال نادر للذوق السقيم في هذه الحقبة)
كانت تماثيل للمرأة تستخدم بمثابة أعمدة تحمل رفوف المدفأة . وكانت كل
التدفئة تقريباً عن طريق مدافئ مفتوحة تسترها حواجز مزخرفة ، ولكننا
كنا نجد هنا وهناك في فرنسا ، كما كان في ألمانيا ، موقداً مكسوفاً بالخزف
المزخرف . وكانت الإضاءة بالشموع التي تثبت بمائة طريقه مختلفة ، تبلغ
أقصى روعتها في الشمعدان الضخم المتألق ، المصنوع من البلور أو الزجاج
أو البرونز . ولنا لنعجب من كثرة القراءة على ضوء الشموع ، ولكن ربما
قللت المشاق من إنتاج الهراء واستهلاكه .

ومع تقدم القرن ، حلت اللوحات الحائطية الزاهية الألوان والمزخرفة
زخرفة رقيقة محل النسيج المزدان بالصور والرسوم ، وفي هذه الفترة كانت
قمة ازدهار فن هذا النسيج . وفي كل أنواع النسيج تقريباً - من اللممسي
والمطرزات والمقصبات إلى البسط والسجاجيد والستائر الممتازة تحدث فرنسا
في تلك الأيام أفخر منسوجات الشرق . وتخصصت أميان في الخمل المنقوش
واشتهرت ليون وتور ونيم بالحرير المزركش . وفي ليون ابتدع جان بيلمنت
وجان بابتست هويه وغيرهما بمجاجيد تعلق على الجدران ممهورة ونخيلة
بموضوعات ومناظر صينية أو تركية أسرت لب بمبادور . وكان هذا النسيج
يصنع في المصانع المؤممة في باريس وبوفيه ، وفي الحوانيت الخاصة في
أوبيسون وليل . وكانت هذه المنسوجات إذ ذاك قد فقدت وظيفتها في
الانتفاع بها للحماية من الرطوبة والتيارات الهوائية ، وأصبحت للزين فقط
وغالباً ما صغر حجمها لتلتئم مع النزعة إلى تصغير الحجرات . وسار
النساجون في مصانع الجوبلان وبوفيه في عملهم وفق التصميمات والرسوم

التي وضعها ، والألوان التي تصح باستخدامها أئمة الرسم في ذلك العصر ، وكانت جميلة بصفة خاصة تلك القطع الخمس عشرة التي نسجتها مصانع جوبلان (١٧١٧) وفق الرسوم التي أعدها شارل أنطوان كوييل لتصوير قصة « دون كيشوت » . أما نساجو بوفيه فإنهم ، كما سنرى انتجوا قطعاً رائعة من هذا النسيج ، صمم رسومها الفنان بوشيه . وفي ١٧١٢ أعيد تنظيم مصانع « سافونيرى » وكانت في الأصل لصنع الصابون - وأطلق عليها المصنع الملكي لصناعة السجاد على طراز مجاد فارس والشرق الأدنى وسرعان ما أنتج سجاجيد ضخمة امتازت برسوم دقيقة وألوان متنوعة ووبر ناعم مخملى ، وهذه أجمل سجاجيد ذات وبر في فرنسا القرن الثامن عشر . وكانت مصانع النسيج المزدان بالصور والرسوم هي التي تقوم بالتنجيد الذي يتطلب المثابرة وبذل أقصى الجهد لكراسي الأثرياء ، ولا بد أن كثيراً من الأصابع المتواضعة الدليلة قد تعبت وتصلبت لتوفر لهؤلاء الأثرياء مقاعد وثيرة تقيم عناء الجلوس .

وأقبل الخزافون الفرنسيون على عصر من المغامرة . وهيات لهم حروب لويس الرابع عشر الفرصة . ذلك أن الملك العجوز صهر ما لديه من فضة لتمويل جيوشه وأحل الخزف مكان الفضة ، وأمر رعاياه بأن يخلدوا حنوه . وسرعان ما لبث مصانع الخزف في روان وليل وسكو وستراسبورج وموستير سانت ماري ومرسيليا هذا المطلب الجديد . وبعد موت لويس الرابع عشر شجع الميل إلى الأطباق وغيرها من الأشياء المصنوعة من الخزف - شجع الخزافين إلى إنتاج أجمل ما عرف منها في تاريخ أوروبا . ورسم مشاهير الفنانين من أمثال بوشيه وفلكونيه وباجو المناظر على الخزف الفرنسي وابتدعوا أشكالاً كثيرة منه .

وفي نفس الوقت كانت فرنسا تتجه إلى إنتاج الخزف الصيني . وكانت أنواع متعددة من العجينة الناعمة المساء تصنع في أوروبا منذ مدة طويلة ترجع إلى ١٥٨٢ في فلورنسه و ١٦٧٣ في روان ، وكانت كلها على أية حال تقليداً للنماذج الصينية . ولم تكن مصنوعة من العجينة الصلبة المأخوذة

من مادة الكاولين أى الصلصال الصيني ، أو حجر الطفل الصيني الذى يذاب فى درجة حرارة عالية فى الشرق الأقصى . وإنما كانت من صلصال أقل صلابة يسخن فى درجة حرارة منخفضة ثم يغطى « بالغبطة » وهى مادة متكلسة أو شبه منصهرة ومصقولة . وحتى هذا الخزف الصينى المصنوع من العجينة الطرية - وبخاصة فى شانتبلى ، وفنسن ومنسى - فيلروا (بالقرب من باريس) كان جميلاً جداً ، واستمر استيراد الخزف المصنوع من الصلصال الصلب من الصين أو درسدن . وفى ١٧٤٠ انتزعت مدام دى بمبادور مائه ألف جنيه من لويس الخامس عشر ، و ٢٥٠ ألفاً من مصادر خاصة للتوسع فى إنتاج الخزف من العجينة الطرية فى فنسن . وفى ١٧٥٦ نقلت عمال فنسن المائة إلى مبنى أوسع وأوفى بالغرض فى سيفر (بين باريس وفرساي) وهناك فى ١٧٦٩ بدأت فرنسا لإنتاج الخزف الصينى الحقيقى من الصلصال الصلب .

وأفاد صائغو الذهب والفضة من أن ملك فرنسا استخدم من منتجاتهم رصيلاً احتياطياً قومياً ، محولاً السبائك إلى أشكال مسرفة فى الجمال ، ولكن يمكن فى الحال صهرها إذا دعت الضرورة . وفى عهد لويس الخامس عشر ازداد طلب الطبقات المتوسطة على المشغولات الفضية بوصفها أدوات ناعمة أو وسائل للزينة . وتكاد كل أنماط السكاكين التى نستعملها اليوم تكون قد اتخذت شكلها الراهن فى فرنسا القرن الثامن عشر : شوكات الحمار ، ملاعق المثلجات ، ملاعق السكر ، أطقم الصيد ، طقم الرحلات ، سكاكين وشوكات الأكل ، أضف إلى ذلك مملحة المائدة ، وفناجين الشاي والأباريق والأواني وأدوات التجميل والشمعدانات ، وكلها مزدانة بنقوش بديعة أو مصنوعة فى أشكال جميلة . . « وكان أحسنها فى هذا المجال طراز لويس الخامس عشر من بين كل الطرز الفرنسية (٢) وصنع صائغو الذهب والفضة صناديق أو علبا صغيرة حملها الرجال والنساء على السواء ، لحفظ السعوط أو الأقراص أو الساحيق أو الحلوى ، كما صنعوا مائة صنف من الأواني والأوعية والصناديق لمنضدة الزينة وحجرة النوم والملابس . وكان فى حوزة

الأمير دى كوتتى مجموعة من ثمانمائة صندوق من مختلف الأشكال ، من المعادن النفيسة ، وكلها رائعة متقنة الصنع . واستخدمت مواد أخرى كثيرة لمثل هذه الأغراض : العقيق ، عرق اللؤلؤ ، اللازورد وكان قطع الجواهر وتركيبها الامتياز الذى تفرد به ٣٥٠ من مهرة الحرفيين الذين ضمتهم نقابة الصائغين .

وحملت أشغال المعادن سمعة العصر فى رقة القوالب والأشكال والصقل والإتقان . واتخذت مناصب أو مساند الحطب المشتعل أشكالاً خرافية من التصميمات أو الرسوم المعقدة من الحيوانات الخيالية عادة . واستخدم البرونز الذهبى اللون لصنع أو زخرفة هذه المناسب والمشاعل والشمعدانات ذوات الشعب أو تحليتها بالزخارف ، أو تركيب ساعة الحائط أو البارومتر أو حجر البشب أو الخزف الصينى . فبلغ البرونز الحديث ذروه استخدامه فى القرن الثامن عشر ، فكان من الممكن أن تكون ساعات الحائط فى أشكال ضخمة غريبة وساعات الجيب أو اليد صلبة جميلة - من البرونز أو المينا أو الفضة أو الذهب ، ومزدانة بنقوش غاية فى الجمال والإتقان . وكانت المشاعل فى بعض الأحيان تحفاً رائعة فى فن النحت ، مثل تلك التى أبدعها فالكونيه لقصر فرساي . وكانت المنمنمات والرسوم الفاخرة من روائع هذا العصر . وأنتجت أسرة واحدة هى أسرة رومتيير ، خمسة أشكال من الرصائع (الميداليات) المحفورة على مدى قرن من الزمان ، تميزت كلها بدقة الصنع إلى حد أن الأكاديمية الملكية للفنون الجميلة رحبت بانضمامهم إليها ، فى عداد كبار الرسامين والمثالين . إن القرن الثامن عشر عرض فى الأشياء الصغيرة فى الحياة أعظم ثروته خلوا من المهموم ، كما عرض أكثر فنونه دقة وإتقاناً . وقال تليران « إن أولئك الذين لم يعيشوا قبل ١٧٨٩ لن يدركوا أبداً إلى أى حد يمكن أن الحياة حلوة » (٣) ، إذا تسنى للمرء أن يختار الطبقة التى ينتمى إليها ويتفادى المقصلة .

٢ - فن العمارة

وتجاهل فن العمارة الروكوكو تقريباً . وتتغير الطرز ببطء في البناء أكثر منها في الزخرفة لأن مقتضيات الرسوخ والثبات أقل مرونة من تقلبات الذوق . وكانت الأكاديمية الملكية لفن العمارة التي نظمها كولبير في ١٦٨١ يتولى توجيهها الآن ورثة تقاليد لويس الرابع عشر . وواصل روبرت دى كوت عمل جول هردوين مانسار الذي كان قد أكمل قصر فرساي . وكان جرمن بوفران تلميذاً لمانسار ، وكان جاك جول جبراييل وابنه جاك آنج خلقين غير مباشرين لمانسار ، ومن ثم حصر تيار هذه التقاليد مجراه في قوة وصلابة ، واحتفظ هؤلاء الرجال بطراز الباروك ، بل بالطراز نصف الكلاسيكي ، بالمظاهر الخارجية التي سادت في القرن العظيم ، مثل الأعمدة وتيجانها والعتبات ، ولكنهم سمحوا بمسحة من الروكوكو فيما شادوا من مبان .

ونخفف ضعف الإيمان من حدة التحمس لبناء كنائس جديدة ، ولكن جددت على أية حال واجهتا كنيسةين قديمتين . ذلك أنه في ١٧٣٦ أقام روبرت دى كوت لكنيسة سانت روش أعمدة وقوصرة (مثلث أعلى الواجهة) كلاسيكية . وفيما بين ١٧٣٤ - ١٧٤٥ زود جان نيقولا سرفاندوني كنيسة سانت سولبيس برواق ضخم ذي طابقين في مدخلها ، قائم على أعمدة دورية وأيوبية من طراز بللاديو الروماني الكثيب ، ولكن العمارة المدنية هي التي عبرت عن روح العصر وتحولت فيما بعد عدة قصور بنيت في تلك الفترة إلى وزارات وطنية أو دور للسفارات الأجنبية . من ذلك قصر ماتيون ١٧٢١ الذي أصبح سفارة النمسا ، ثم داراً لرئيس الوزراء ، وقصر البوربون (١٧٢٢ - ١٧٥٠) الذي أدمج جزء منه في مجلس النواب ، وقصر سوبيز (الذي عدل بناؤه ١٧٤٢) والذي أصبح داراً للمحفوظات الوطنية .

وفي عهد المركيز دى ماريني ، مدير المباني ، ازدهرت أحوال عدد

كبير من المهندسين المغاربة والمثاليين والرسامين ومهندسي الزخرفة ، ووجد مساكن وأعمالهم ورأى أنهم يؤجرون أجراً حسناً . وكان المهندس المعماري الأثير لديه هو جاك آنج جيرابيل الذي ارتضى التقليد الكلاسيكي عن طيب خاطر . وبعد صلح اكس لاشابل (١٧٤٨) انهمك إدم بوشاردون في إقامة تماثيل فارس للملك لويس الخامس عشر ، وعهد إلى جيرابيل بتصميم المكان الذي يحيط بالتماثيل . فوضع حول مساحة مكشوفة بين حدائق التويلري والشانزليزيه ، دائرة من « الدرابينات » والحدائق الغائرة ، وشاد في الطرف الشمالي قصر كحريون الحالي ووزارة البحرية الحالية ، وكلاهما على طراز كلاسيكي بحت ، وعمد إلى تزوين الميدان بإقامة أربعة تماثيل أسطورية سرعان ما أطلق عليها الباريسيون أسماء خيليات الملك - ميللي فتميل ، شاتورو ، بمبادور . وأطلق على الميدان اسم لويس الخامس عشر ، ونسبته اليوم ميدان الكونكوردي . وقد يسرنا أن نعلم أنه كان هناك ازدحام في حركة المرور منذ مائتي عام . وجيمس انجل جيرابيل هذا هو نفسه الذي شاد في ١٧٥٢ المدرسة الحربية المتناسقة الأجزاء إلى حد بالغ والتي تضاهى رشاقة أعمدتها مثلتها في أية ساحة رومانية قديمة . ولم تكن باريس هي وحدها التي جددت مبانيها وغيرت وجهها في هذا العصر ففي شاتيللي عهد دوق بوربون إلى جان أو بيرت بإقامة اسطبلات لحياده وكلابه ، بلغت من الفخامة حداً يدعو إلى المقابلة بينها وبين أكواخ الفلاحين . وفي اللورين جعل ستانسلاس لوكزنسكي من نانسي واحدة من أجمل مدن فرنسا ، وهناك أكل بوفران بناء الكاتدرائية التي كان قد بدأها أستاذه جول هاردوين « انسا » وفيما بين عامي ١٧٥٠-١٧٥٧ أقام أمانويل هيري دي كورني « المدينة الجديدة » في نانسي : دار البلدية من طراز الوكوكو ، وميدان ستانسلاس الذي يؤدي عبر حديقة عامة وقوس للنصر إلى ميدان دي لاكارير ودار الحكومة ، وأحاط جان لامور ميدان ستانسلاس بجواجز من قضبان حديدية متصالبة (١٧٥١ - ١٧٥٥) هي أجمل ما صنع من نوعها في الفن الحديث . وأقامت ليون آنذاك ميدان

لويس الأكبر وافتتحت كل من نانت وروان وريمس وبوردو ميدان الملك . وشادت تولوز مبنى فخما للبرلمان ، وأقامت روان نافورات جميلة وزينت الجسور الفخمة مدينة سنس . وعمت المنزهات الواسعة نانت وبلوا ومونبليه . وفيما بين عامي ١٧٣٠ - ١٧٦٠ حول جان جاك جبرائيل بوردو إلى مدينة حديثة ذات ميادين شاسعة وشوارع واسعة ومنزهات طلقة الهواء وواجهة جميلة تطل على المياه ، وشيدت فيها المباني العامة على طراز عصر النهضة الرائع .

وأخيرا تحطت العمارة الفرنسية الحدود ، فعهد إلى رجال العمارة الفرنسيين بإقامة المباني في سويسرا وألمانيا والدنمرك وروسيا وإيطاليا وإسبانيا . وفي أواسط القرن وحين ضعفت قوة فرنسا العسكرية ومكانتها السياسية نجد أنها بلغت ذروة النفوذ والتأثير في مجال العادات والفن .

٣ - النحت

خاض النحت في تلك الحقبة معركة مريرة في محاولة للاعتراف به فنا هاماً كبيراً . وكانت مهمته قد اقتضت لعهد طويل على أن تكون زخرفية أو تزيينية . وفي عهد لويس الرابع عشر أقيمت التماثيل لتضفي زينة وبهاء على القصور الفخمة والحدائق الشاسعة . أما الآن فقد قل الاهتمام بالنحت لأن الولوج بالبناء قد استنفد أغراضه كما استنزف فرنسا ، وقبح الأغنياء في مبان أصغر حجماً ، ولم تجد التماثيل الضخمة لها مكاناً في قاعات الاستقبال أو النوم . وشكا المثالون من أن الأكاديمية الملكية للرسم والنحت منحت معظم جوائزها للرسمين . واقترح ييجال أن يكون هناك مثال ملكي على غرار الرسام أو المصور الملكي ، وأيد بشخصه حملة طائفة سان ميشيل لكسر التقليد الذي جرى عليه العمل وهو تكريم الرسامين وحدهم بمثل هذه المهمة . وانصرف المثالون على كره منهم إلى زخرفة البيوت بقطع صغيرة وبالزهريرات والنقوش البارزة ، وسعوا إلى منافسة رسامي الأشخاص بأن يشكلوا الجسم الفاني في صورة خداعة من البرونز أو الحجر الذي لا يبلى ، ما داموا يتقاضون الأجر . ولما تهاى لبعض هؤلاء المثالين مزيد

من الفرص للعمل اختاروا طراز الروكوكو الرشيق الطبيعي اللعوب المرح على حين ظلوا يمجذون وقار الخطوط الكلاسيكية .

وكما هو الحال مع الرسامين والحرفيين مال فن النحت إلى أن ينمو في أمرات بعينها . وساعد نيقولا كوستو أستاذه أنطوان كويسيفوكس في تزيين القصور الملكية في مارلي وفرساي ، وصمم الشخصيات العظيمة ، رمزا إلى أنهار فرنسا ، وهي الآن في البلدية دار البلدية في ليون . ولا يزال تمثاله « النزول من الصليب » في كنيسة نوتردام دي باريس ، و « الراعى الصياد » واحداً من اثنا عشر تمثالا رائعا تغالب الزمن والجو في حدائق التويللري . ونحت غليوم كوستو الأول الأخ الأصغر لنيقولا ، تمثالا من المرمر لماري لوكز نسكا ، مثل تمثال جونو^(٤) (زوجة جوبيتر في الأساطير الرومانية) كما نحت تمثال « جياذ مارلي » القوية (١٧٤٠ - ١٧٤٥) لذلك القصر أساسا ، ولكنها الآن متمردة على اللجام في المدخلين الغربي والشرقي لقصر الكونكورد . أما ابنه غليوم كوستو الثاني ، فقد حفر للدوفين مقبرة في كاتدرائية سنس .

وأنجبت مدينة نانسي أسرة أخرى من الفنانين فورت جاكوب مجسرت آدم أبناءه الثلاثة النحت والعمارة ، وقضى لمبرت مجسرت آدم عشر سنوات في الدرس والتحصيل في رومه ، عاد بعدها إلى باريس ، حيث تعاون مع أخيه الأصغر نيقولا سباستيان في إقامة نافورة « نبتيون وامقريت » (إله وإلهة البحر) في حدائق فرساي ثم قصد إلى بوتسدام حيث حفر لفردريك الأكبر - هدية من لويس الخامس عشر - مجموعتين من الرخام - صيد الحيوان وصيد السمك - لقصر سان موسي . ثم رجع نيقولا سباستيان إلى نانسي وشاد مقبرة كثرين أو بالنسكا في كنيسة نوتردام دي بون سيكور ، وثمة أخ ثالث ، وهو فرنسوا بلتازار جسبار ، أسهم في تزيين عاصمة ستانسلاس :

وهناك أسرة ثالثة من النحاتين بدأت بالمثل فيلبوكافيري الذي غادر إيطاليا في ١٦٦٠ ليعمل مع ابنه فرنسوا شارل في خدمة لويس الرابع عشر-

وثة ابن آخر هو جاك كافيرى الذى بلغ بعقرية الأسرة إلى الذروة متفوقاً على كل معاصريه فى أشغال البرونز . وتنافست القصور الملكية كلها تقريباً فى الإفادة من فنه فى زمانه . وفى قصر فرساي اشترك مع ابنه فيليب فى المدفأة فى جناح الدوفين وفى صنع قاعدة برونزية من طراز الروكوكو لساعة الملك الفلكية المشهورة الآن . وتعد التركيبات والسنادات البرونزية التى صنعها للأثاث أثمن وأعلى قيمة من الأثاث نفسه^(٥) .

وارتضى آدم بوشاردون - الذى أسماه فولتير « فيداس » فرنسا^(٦) (نحات أغريقى فى القرن الخامس ق . م) - ارتضى تماماً كل القواعد الكلاسيكية التى نادى بها راعيه كونت دى كايوس . وجد لعدة سنين منانا للمثال بيجال حتى خيل لهذا الأخير أنه غلب على أمره . وأورد ديدرو ذكر بوشاردون فى قوله « لم أدخل قط إلى مرسم (ستوديو) إلا خرجت منه بشعور من القنوط سيطر على لعدة أسابيع »^(٧) ورأى ديدرو أن تمثال « الحب - كيوييد »^(٨) الذى صنعه بوشاردون مكتوب له الخلود ، ولكنه لا يكاد يتلظى بنار الحب ، وخير منه النافورة التى أقامها المثال نفسه فى شارع جريرتل فى باريس ، وهى تحفه رائعة فى جلالها الكلاسيكى وعظمتها وفى ١٧٤٩ عهدت إليه المدينة بصنع تمثال فارس للملك لويس الخامس عشر ، وأكب على العمل فيه لمدة تسع سنين ، وصبه فى ١٧٥٨ ، ولكن لم يممه القدر ليراه قائماً وطلب إلى السلطات البلدية ، وهو على فراش الموت ١٧٦٢ ، أن تكل إلى بيجال اكمال المشروع ، وهكذا اختتمت المنافسة التى طال أمدها بين هذين المثالين ، فيما بنى عن الأعجاب والثقة بينهما ، ونصب التمثال فى ميدان لويس الخامس عشر ، ثم جاءت الثورة الفرنسية فحطمته ١٧٩٢ باعتباره رمزاً بغيضاً :

ونبد جان بابتست ليموين كل القيود والقواعد الكلاسيكية ، لأنها تحكم على النحت بالفناء . لماذا لا يعبر الرخام أو البرونز - مثل صور الألوان المائية أو الزيتية عن الحركة والوجدان والضحك والفرح أو الحزن - مما تجرأت التماثيل الهلينية على أن تعبر عنه ؟ وبهذه الروح صمم ليموين

مقبرتي كاردينال فليرى والرسام بيير مينارد لكنيسة سان روش ، وكذلك فى تمثال مونتسكيو الذى نحتته لمدينة بوردو . أبرز المثال المؤلف « روح للقوانين » ساخرا مكتتباً شكاكاً ، وسطا بين سناتور رومانى وفياسوف إقليمى يسخر من أساليب الباريسين فى حياتهم . وأصبحت تلك البسمة العابرة هى العلامة المميزة للعديد من التماثيل النصفية التى صنعها ليموين بأمر من الملك لكثير من رجال فرنسا البارزين . وانتصر هذا الأسلوب التعبيرى المتمتع على كلاسيكية بوشاردون ، وانتقل إلى بيجال وباجو وهودون وقالكونيه فى عصر من أعظم عصور النحت فى فرنسا .

٤ - الرسم

كان الرسامون هم أصحاب اليد الطولى بين الفنانين آنذاك . وعكست سيطرة بوشيه مرة أخرى نفوذ النساء وتأثيرهن على الفنون ، وأحست مركيزة بمبادور أن الرسامين قد أضاعوا كثيراً من الوقت مع أبطال الرومان وقديسى المسيحية وآلهة الإغريق ، وقد آن الأوان لينظروا إلى فتنة الأحياء من النساء فى أبهى حللهن وتورد خلودهن ، ويبرزوا بالخطوط والألوان رشاقة العصر التى لم يسبق لها مثيل فى تقاطيع الوجوه ، وفى الثياب وفى العادات وفى كل الكماليات فى حياة الأقلية الثرية . وكانت المرأة يوماً خطيئة ، وهى تعلن أنها لا تزال خطيئة ، لكن لا شىء إلا أن تكون أكثر إغراء وفتنة . إنها تأرت لنفسها من تلك القرون المرعبة التى أذلتها فيها الكنيسة ودمعتها بأنها أس البلاء ، ومصدر اللعنة . وسمح لها بدخول جنة لا يغشاها إلا الخصبان بفضل عذرية أم الإله فقط . وليس ثمة شىء ينم فى جرة أكبر على اضمحلال الديانة فى فرنسا من زحزحة السيدة العذراء عن الفن الفرنسى .

وحل الملك والأرستقراطية ورجال المال محل الكنيسة فى رعاية الفن . وفى باريس أصبحت أكاديمية سان لوك للرسامين منافسا ومستحقنا للأكاديمية الملكية للفنون الجميلة المحافظة المتمسكة بالقديم . وفى الأقاليم نشأت أكاديميات إضافية فى ليون ونانسى و Metz ومرسيليا وتولوز وبوردو وكلبرمنت

فراند وبووديجون وريمس . وفضلا عن جائزة رومه السنوية وضعت
ثنتا عشرة مسابقة وجائزة ، بعثت في دنيا الفن حركة دائبة واهتياجاً
شديداً ، وفي بعض الأحيان كان الملك أو غيره من رعاة الفن ، يواسون
من لم يفوزوا في هذه المسابقات بشراء بعض لوحاتهم أو منحهم بعض المال
الذي يكفل لهم الإقامة لبعض الوقت في إيطاليا .

وعرض الرسامون لوحاتهم في الشوارع ، وفي بعض الأعياد الدينية
كانوا يثبتونها في السناثر التي تتدلى من نوافذ الأتقياء في الطرق التي يمر بها
الموكب الديني . ورغبة في تعويق ما بدا للفنانين المعترف بهم أنه نهج غير
ملائم ، استأنفت الأكاديمية الملكية للفنون الجميلة في ١٧٣٧ وبعد انقطاع
ثلاث وثلاثين سنة ، إقامة المعرض العام للرسم والنحت المعاصرين في
« القاعة المربعة » في متحف اللوفر . وهذا المعرض السنوي أو الذي كان
يقام كل عامين بعد ١٧٥١ أصبح في أواخر أغسطس وطوال سبتمبر حدثاً
مثيراً في الحياة الفنية والاجتماعية في باريس ، وفي دنيا الأدب ، وجعل
الصراع بين المحافظين في الأكاديمية والمتمردين داخلها أو خارجها ، من
الفن معركة تناقض معارك الحديث عن الجنس بل معارك الحرب الحقيقية
في أحاديث الناس في العاصمة . واحتقر أنصار الخطوط البسيطة المحتشمة
غير المبالغ في رخرقتها ، والتهذيب الذي يعاون على الإصلاح - كما كانوا
هم أنفسهم موضع احتقار - أنصار اللون والتجريب والابتكار والحرية .
وأصبح النقد الفني عملاً ناجحاً . وكانت « تأملات في فن الرسم » للكونت
دى كابوس تقرأ في إسهاب على الملاء في الأكاديمية . وروى جريم أنباء
المعارض لقراء رسائله . وتخلّى ديدرون عن هجومه على المسيحية ليصبح
واحداً من أشد النقاد الفنيين معارضة في ذلك العصر . وأثار الحفارون على
الخشب والمعادن مثل جاك لى بلون ولورنت كارز الهياج بنشر نسخ مطبوعة
من الأعمال المشهورة وتزيين الكتب بالصور ، وإنتاج روائع من عملهم
هم أنفسهم . وكان لى بلون أول من بدأ الحفر بالألوان في ١٧٢٠ .

ولم يكسب الفنانون قط من قبل . اللهم إلا في مجال الفنون الدينية ،

مثل هذا الجمهور المتحمس ، أو مثل هذه الرعاية على نطاق واسع . ويأتى الرسام الآن يوجه نشاطه إلى العالم بأسره .

١ - فى حجرة الانتظار .

ارتفع عدد كبير من الرسامين إلى قمة المجد فى تلك الحقبة ، حتى أنه ليشق علينا هنا مجرد ذكرهم ، وسوف نعرض فى تفصيل أكثر لبوشيه وشاردان ولاتور . ولكن هناك من قد يزعجهم إغفالنا ذكرهم .

فهناك الرسام المبرز جان فرنسوا دى تروى ، ولكنه كانت تعوزه الحيوية ، وكان رسمياً إلى درجة لا يصلح معها أن يكون عظيماً . وأحبه الجميع ، ووافق إلى حد كبير على أن يستخدم ملامح وجهه وكأنها ملامح وجه السيد المسيح « آلام المسيح فى البستان^(٩) » ووجد فى إغراء السيدات لذة أكثر منها فى رسمهن ، وترك وراءه كثيراً من القلوب الكسيرة المحطمة والأعمال المشوهة ، وزخرف فرنسوا ليموين (ويجب ألا تخلط بينه وبين المثال جان بابتست) عقد قاعة هركيول فى قصر فرساي بنحو ١٤٦ شكلاً ضخماً ، ونقل إلى تلميذه بوشيه فن احلال اللون الوردى الذى تؤثره مدام دى بمبادور محل اللون الأسمر المائل للحمرة فى لوحات رامبرانت واستبق شارل أنطوان كوييل ، وهو ابن وحفيد لرسامين ، شاردان فى رسم مشاهد الحياة اليومية وأحداثها ، وقد التقينا به رساماً للوصى ، وفى ١٧٤٧ أصبح الرسام الأول للملك لويس الخامس عشر .

وقد سر فرديك الأكبر باقتناء لوحته « سيدة أمام المرأة » لقصر سان سوسى ، ولا يزال اللوفر يعرض لوحته « الحب والأميرة فاتنة الجلال التى أحبها كيويد » من نسيج الجوبلان المنقوش ، وهى تركيب نفيس من طبيعة بشرية وقماش .

وحظى جان مارك ناتير بشعبية ورواج فى رسم الأشخاص لأنه عرف ، عن طريق الوضعة (كيف يكون وضع المرء أمام الرسام) واللون وحركة الضوء ، كيف يخلص المجالسين أمامه من العيوب أو التشوهات التى أصابتهن بفعل الوراثة أو أحداث الحياة ، حتى أن كل السيدات اللاتي

رميمهن ، فيما عدا واحدة ، سررن حين وجدن أنفسهن في لوحاته ، فانتانت مغربيات كما اعتقدن دائماً في أنفسهن . ولوحته « مدام دي بمبادور » معلقة في فرساي ، بشعرها الجميل الملون بلون خفيف ، وعينيها الوديعتين اللتين لا تكادان تكشفان عن هفتها عل السلطان والسيطرة وتنافس الملوك والملكات على الظفر بالفنان ناثيير . فقد رسم ماري لوكزنسكا سيدة برجوازية تشرع في القيام بنزعة في الريف (١٠) وأنصف كل الانصاف جمال أدليد (١١) ابنة الملكة . وعند ما زار بطرس الأكبر باريس رسم ناثيير لوحتين له ولزوجته القيصرة ، ودعاها بطرس للانتقال إلى روسيا فأبى ، فما كان من القيصر إلا أن حمل اللوحتين دون أن ينقده أجرا . وأحضر جاك أندريه أفيد المولود ، الفلاندرز بعض لوحات فلمنكية واقعية تصور الناس كما هم ، ولا بد أن ميرابو الأكبر جزع عندما رأى نفسه كما رآه أفيد فصوره (١٢) . ولكنها على أية حال من أعظم لوحات هذا القرن .

وعلى كل هؤلاء السادة الجالسين في حجرة الانتظار - حتى على بوشيه وشاردان - نجد جريم وديدرو يؤثران كارل فانلو ، وهو سليل أسرة كبيرة من الرسامين تحمل اسم فانلو ، نعرف منهم تسعة بأسمائهم . ولد في نيس ١٧٠٥ . واصطحبه معه رفيقه الرسام جان بابتست إلى رومه حيث درس بالازميل والفرشاة معا . وفي باريس فاز بجائزة رومه ١٧٢٤ ، ثم قضى في إيطاليا فصلا دراسيا آخر ، عاد بعده إلى فرنسا وأرضى الأكاديمية وأغضب بوشيه ، بأتباعه كل القواعد الأكاديمية . وحيث أنه أفرغ كل جهده وقضى كل وقته في الاشتغال بفننه ، ولم يدخر منه شيئاً ليتعلم القراءة والكتابة والعادات القويمة والحديث المهذب ، فإن مدام بمبادور نفرت منه في شيء من الاشمئزاز (١٣) بأنه « وحش مزعج » ومع ذلك عهدت إليه برسم (مناقشة إسبانية) . ولفترة وجيزة ارتضى مزاج العصر . ورسم سيدات متشحات بأردية ملتصقة بأجسامهن ، ولكنه سرعان ما ركن إلى الرزانة والهدوء في حياة أسرية نموذجية ، فخورا بزوجه البارعة المصقولة ولوعا بابنته كارولين . وفي ١٧٥٣ اشترك مع بوشيه في زخرفة قاعة المجلس

الرائعة في قصر فونتنبلو ، وبلغ درجة كبيرة من الشهرة إلى حد أنه عندما اتخذ مقعده في الكوميدي فرانسيز ، بعد مرض عضال كاد يودي بحياته ، نهض الحاضر رن وحيوه وصفقوا له مظهرين بهذه الملاقة الوثيقة بين الفن والأدب في هذا العصر الذي تميز بثقافة عالية .

وسجل جان بابتست أودرى رحلات الصيد الملكية في أعمال النقش والرسم على القماش . واختارته الملكة معلما لها . وكانت تتولاها الدهشة والعجب حين ترقبه وهو يعمل . وزودت بعض قطعه المنقوشة نسايجي القماش بتوجيهات ونماذج ممتازة يهتدون بها في عملهم ، وسرعان ما عين أودرى مديرا للمصنع الملكي في يوفيه ، فلم يجد هناك إلا الفوضى والتدهور ، فأعاد تنظيم العمل في حزم وشدة ، وأثارهم العمال بحاسته ؛ وصمم لهم سلسلة من قطع النسيج المزدان بالرسوم ، موضعا بصور الحيوانات المبهجة قصص لافونتين الخرافية . وهناك أيضا وضع الرسم التمهيدى للمجموعة الأخاذة من النساء والوحوش المعلقة في اللوفر ، في «ديانا دي بورتير» . وتمسكت النساجين في الجوبلان الغيرة من السجاج الذي أصابه مصنع بوفيه ، فاقنعوا الملك بنقل أودرى إلى المصنع القديم ، وهناك أفنى نفسه في صراع مرير لحمل النساجين على قبول الألوان التي وضعها . وفي الوقت نفسه أسهم في كل من بوفيه وباريس في تدريب المواهب والقدرات المتشعبة لدى أكثر فنانى منتصف القرن في فرنسا امتيازاً وتألقاً ، وأكثر من نال منهم تعنيفاً قاسياً .

٢ - بوشيه : ١٧٠٣ - ١٧٧٠ .

استمع إلى ديدرو وهو يتأمل في لوحات بوشيه العارية : أية ألوان ، وأية تشكيلة ، وأية وفرة في المواد والأفكار ! إن هذا الرجل توفر لديه كل شيء إلا الصدق . إن انحطاط الذوق واللون . وأسلوب التركيب ، والشخصية والتعبير ، كل هذا تبع خطوة بخطوة انحلال الخلق وماذا عسى هذا الرجل أن يرسم إلا ما تصوره في خياله ؟ وماذا يمكن أن يتخيل رجل يقضى حياته برفقة نساء المدينة ؟ إن هذا الرجل

لا يمسك بفرشاته إلا ليبرز الأرداف والصدور . إنه لا يدرك ما هو الجمال فإن الكياسة والأمانة والبراءة والبساطة أصبحت كلها غريبة عليه . إنه لم ير الطبيعة لحظة واحدة قط ، وعلى الأقل الطبيعة التي تدخل البهجة على نفسى ، وعلى نفسك ، مثل طفل كريم المولد ، أو امرأة ذات وجدان حى . إنه مجرد من الذوق والواقع إنه فى تلك اللحظة بعينها ، عين الرسام الأول للملك (١٧٦٥) (١٤) .

ويحتمل ألا يكون بوشيه قد اطلع على هذا النقد قط لأنه كان موجهاً إلى قراء جريم الأجانب . فلنلق نحن نظرة على الفنان دون نية مبيتة للحقد عليه أو الإساءة إليه .

كان بوشيه ابناً صميماً من أبناء باريس . وكان أبوه يشتغل بوضع التصاميم ، يملك محلاً بالقرب من الافر ، ولقن ابنه فرنسوا مبادئ الرسم والنحت ، وإذا أظهر الفتى استعداداً وموهبة فقد تتلمذ على النقاش لورنت كارز ثم على الرسام فرنسوا اليموين . وحيث اشتغل برسم المشاهد للابرا ، فإنه اجتمع هناك بنفر من الممثلات وبنات الفرقة الموسيقية . وانغمس فى مبادئ عهد الوصاية ، بقدر ما أتاحت له إمكاناته (١٥) ويروى لنا إنه وقع مرة فى حب رومانتيكى مع بائعة فاكهة جميلة اسمها روزيت ، وبدا له أنه قد تجسدت فيها البساطة والطهارة معا ، فاتخذ منها نموذجاً للوحة لمريم العذراء ، أفرغ فيها كل ما تبقى له من تفوى طفولته وصباه . ولكنه ، وهو لما يكمل بعد هذه اللوحة انزلق إلى اتصال جنسى غير شرعى ، وحين حاول أن يكملها أفلت منه الوحى والإلهام ، كما أفلتت منه روزيت . ولم يسترجع قط لحظات هذا الخيال الرقيق اللطيف (١٦) .

وتطورت مهارته ونمت بسرعة تحت ارشاد ليموين . وفى هذا الرسم تعلم شيئاً من نزعة كوريجيو إلى الأشكال النسوية ذات التقاطيع الكلاسيكية والرقة الناعمة . وفى قصر لكسمبرج درس اللوحات الزيتية المتألقة على القماش التي كان روينز قد حول فيها الحياة للمارى مديتشى إلى ملحمة من اللون « وعظمة الثياب » . وفى ١٧٢٣ ، وهو فى سن العشرين فاز بجائزة رومه

التي أهلته للاقامة الكاملة في باريس لمدة ثلاثة سنوات ، مع راتب قدره ٣٠٠ جنيه ، ثم أربع سنوات في رومه . وإنما لنحصل على صورة حياة الطالب في عهد الوصاية إذا علمنا أن رفاق الفائز بهذه الجائزة حملوه على الأكتاف وطاقوا به حول ميدان اللوفر .

وفي ١٧٢٧ رافق كارل فانلو إلى إيطاليا . ويقول مدير الأكاديمية الملكية الفرنسية في رومه وجد « للشاب الصغير المدعو بوشيه جحراً صغيراً في غرفة ، وأسكنه فيه . وأخشى ألا يزيد حقيقة عن جحر ، ولكنه على الأقل سيقم تحت السقف^(١٧) . ولكن لم يكن لزاماً على الشاب المتواضع ، كما وصفه المدير ، دوماً أن ينام في هذا الحجر ، لأنه وجد كثيراً من المضاجع ترحب به في رومه . وإنه لمن علائم تغير الذوق إنه لم يبدأ ولعاً بأعمال رافاييل أو ميكلائجلو ، ولكنه عقد أواصر الصداقة مع تيبولو (رسام فينيسى ١٦٩٦ - ١٧٧٠) .

ولما عاد إلى باريس (١٧٣١) استمر يوقد الشمعة من طرفها (يمسك بالعصا من وسطها) ، ونادراً ما كان يقنع بشيء إلا المعرفة المباشرة بنماذجه ، ومع ذلك وجد فسحة من الوقت ليرسم بعض لوحات رائعة مثل « اغتصاب يوروبا » في الأساطير اليونانية (أميرة فينيقية أحبها زيوس واختطفها) وهي من بين عروضه التي لا تحصى لشكل المرأة . وخيل إليه في ١٧٣٣ أنه وقع على فينوس نفسها في نموذجه جين بوزو ، وعلى الرغم من أنه أحس « بأن الزواج لا يلتئم معه »^(١٨) فإنه اتخذ منها زوجة ، ولم يرع عهد الزوجية إلا قليلاً . وكالت له هي بنفس الكيل . ومن المحتمل أنها جلست أمامه ليرسم لوحة « رينوو آرמיד^(١٩) » التي كسبت له العضوية الكاملة في أكاديمية الفنون الجميلة (١٧٣٤) . وحينذاك عهد إليه لويس الخامس عشر برسم مناظر سارة في حجرة نوم الملكة التي كانت لا تزال تتمتع بحبه ، وعند إعادة افتتاح المعرض ١٧٣٧ اتسعت شهرة الفنان وكثر رعاة فنه . ولم يذق بعد ذلك طعم الفاقة ، ولم يعد له منافس .

وتخصص بوشيه في رسم « العاريات » وحتى زواجه لم يكن قد تريت

طويلا إلا نادرا مع امرأة واحده ليكشف شيئا أكثر من بشرتها . ولكنه كان قد وجد أن ذلك المظهر الخارجى ممتع بلا حدود ، وبدا أنه عقد العزم على رسمه من كل الأركان والزوايا ، وفي كل الأشكال والأوضاع ، من الشعر الأشقر الحريرى الناعم إلى الأقدام العارية التى لم تتعلل قط . وكان بوشيه هو الروكوكو قلبا وقالباً .

ولكنه كان أكثر من ذلك . وعلى الرغم من أن النقاد المتأخرين عابوا عمله من الناحية الفنية ، فإنه كان بالفعل فناً حاذقاً فى التأليف واللون والخط ، على أنه فى بعض الأحيان تعجل فى العمل ، ولم يعط الفن حقه رغبة فى سرعة الحصول على الأجر ، وهلل كثير من المعاصرين إعجاباً بروح التأثيرية الثورية فى لوحاته وخصوصية خياله والرشاقة البسيطة فى خطوطه . وقال ديدرو الذى ناصبه العداة ، « لم يعرف أحد قدر ما عرف بوشيه ، فن الضوء والظل^(٢٠) وكاد أى فرع من الرسم والتصوير ألا يروغ من مهارته . إن هؤلاء الذين لا يعرفون منا إلا بعض لوحاته الزيتية وقطعه المصورة على القماش ليدهشون إذ يعلمون أن « شعبية بوشيه ترجع إلى رسوماته قدر ما ترجع إلى لوحاته الزيتية^(٢١) . وكانت رسوماته مادة ثمينة طيلة حياته ، وتنافس فى الحصول عليها مشاهير جامعى الرسومات . وكانت تشتري لتستخدم مساند أو حوامل ، وتعلق فى حجرات النوم والجلوس على الجدران ، وكانت من عجائب الاقتصاد - نقرة فى الخلد تعبر عنها نقطة أو بقعة صغيرة وبسمة يطبعها خط ، وكل بريق وحفيف التنورات الحريرية ينبثق فى إعجاز من قطعة من الطباشير . ومن المحقق أنه ليس من أجل الثروة وحدها ، ولكن بقضل العبقرية والخيال المتفجرين فيه ، يضيئان عينيه ويقودان يديه ، أكب بوشيه على العمل عشر ساعات يومياً فى رسمه ، تاركاً بصماته على كل شيء يلمسه تقريباً . وفضلاً عن ألف لوحة ، رسم بوشيه المراوح وبيض النعام والحرف والرصائع والستائر والأثاث والمركبات ومناظر المسرح وجدران وسقوف المسارح . وقصدت كل باريس النشيطة لترى الزخرفة التى أعدها خلفية (لباليه نوفير : الأعياد

الصينية « ١٧٥٤ . ولم يكن به ميل شديد إلى المناظر الطبيعية ، لأنه كان صغيراً فروديت إلهة الحب والجمال إلى اللوفر ، ومع ذلك احتفظ بشخصياته البشرية في الغابات والحقول ، بجوار المياه القوارية والاطلال الظليلة وتحت السحب البيضاء في السماء الزرقاء ، وشمس دافئة تغري بحرارة الدم وتطريها . وربما ظن المرء أن مشاهد الحياة اليومية لا تلائمها ، ومع ذلك رسم لوحة « منظر أسرة » ، أبرز - وكأنما أراد أن يحرر نفسه من عبودية الجمال - فناء المزرعة وحظيرة الماشية وبرج الحمام ، وعربة اليد ، والأنقاض في الفناء الخلفي ، والحمير ترزح تحت أحمال من الأوعية والآنية التي تحدث قعقة . واستكمالاً لذخيره أصبح أعظم مصمم لرسوم النسيج في هذا القرن .

وفي ١٧٣٦ دعاه أودرى إلى مدينة بوفيه ليضع تصميمات للنساجين هناك حيث بدأ بأربعة عشر رسماً لمناظر قروية إيطالية (٢٢) . وقد لاقت هذه الرسوم نجاحاً كبيراً إلى حد أنها نسجت اثنتا عشرة مرة على الأقل قبل وفاته . ثم انتقل إلى موضوع أكثر نموذجية « قصة الأميرة الفاتنة » - نحس استار تعلق على الجدران ، شكلتها مدام بوشيه ، وهي من التحف الرائعة في فن القرن الثامن عشر . وتوج أعماله بست قطع من النسيج المزدان بالرسوم والنقوش أطلق عليها « الحياة الريفية الكريمة » (٢٣) لإحداها وهي « صائد الطير » تمثل حبيبتين فاتنتين من أروع ما أخرج من الحرير والصوف . وشكا النقاد من أنه بسبب أودرى وبوشيه أصبح النسيج المزدان بالنقوش أقرب شهاً باللوحات الزيتية ، وأنه فقد خصائصه المميزة . ولم يأبه لويس الخامس عشر بهذا كثيراً ، لأنه عند ما توفي أودرى (١٧٥٥) رقى بوشيه إلى رئيس مصانع الجوبلان .

وفي الوقت نفسه حظى الفنان المنتصر الظافر برعاية بمبادور المتقدة حماسة وغيره . فزخرف لها قصر « المنظر الجميل » وصمم أثاثه . وللمسرح الذي سعت به إلى الترفيه والتسرية عن الملك رسم المناظر وابتكر الملابس ورسم لها عدة لوحات آية في الجمال الأخاذ والرقه يحار الناظرون إليها في الحكم عليها . وإن الاتهام بأن بوشيه لم يصل قط إلى ما وراء الجسد قد

سقط الآن وأخرس ، فإنه لم يهبي لنا إن نرى كثيراً من مفاتن جسد العشيقة قدر ما هياً لنا أن نلمس مناقب الذكاء والرقه التي حبيتها إلى الملك ، والاهتمام بالثقافة الذي جعل منها معبودة الفلاسفة ، والذوق الفني النسوى الرفيع في الثياب الذي أضفى في كل يوم فنته جديدة على مفاتن الجسد العائية . ويفضل هذه اللوحات ولوحة . الرحلة - لاتور « استطاعت بمبادور تذكير الملك في هدوء بالجمال الذي ولى والفتنة الأرق التي بقيت . وربما استخلمت بمبادور كذلك لوحات بوشيه الحسية الشهوانية في ارضاء رغبة الملك الجنسية القوية . ولا عجب إذن في أنها جعلت من برشيه صديقاً أثيراً لديها ، ووفرت له جناحاً في الوفرة ، وتلقت عنه درساً في النقش ، وبجشت معه مشروعاتها في زخرفة قصورها ، والارتقاء بالفنون . ورسم لها (١٧٥٣) لوحتين من أعظم لوحاته الشروق والغروب « (٢٤) وفي كلتا اللوحتين ، بطبيعة الحال ، كانت الأشكال البشرية تفوق الشمس بهاء وبريقاً .

وصم بوشيه بعد بمبادور ، وبعد الحرب الفاجعة مع إنجلترا وفرديك الأكبر ، وظلت أحواله في ازدهار إلى سن السابعة والستين حيث وافته المنية . وتكاثرت عليه التكليف بعمل اللوحات ، وأصبح ثرياً ، ولكن لم تقل حماسته وغيرته في العمل عن ذي قبل ، وطهر ثروته بالبذل والسخاء . وكان عربيداً محسناً خيراً ، لا يكمل ولا يمل من الفسق والدعارة ولكنه دائماً أبداً مرح ودود ، « لطيف كريم غير متحيز ، ينأى بنفسه عن الأحقاد الدنيئة به مناعة ضد التلهف الحقيق على كسب المال » (٢٥) وكان متعجلاً في عمله إلى حد لم يبلغ معه قمة الامتياز . وأطلق تخياله عنان الحرية إلى درجة لم يلمس معها جوانب الحقيقة والواقع . وأبلغ رينولدز أنه ليس في حاجة إلى نماذج ، وأنه يؤثر الرسم من الذاكرة ، ولكن ذاكرته جاءت بأشكال مثالية . ولما لم يصوب له الواقع ذاكرته ، فإنه بات مهملاً في رسمه مبالغاً في ألوانه . واتهمه جريم وديدروو وآخرون بأنه أخطأ فحسب الظرف واللفظ جمالاً ، وأنه هبط بجلال الفن إلى مجرد

زخرقة سطحية ذات مظهر خداع ، وبأنه افسد أخلاق العصر باعلاء قيمة مفاتن الجسد . وعاب عليه ديدرو واستنكر ابتساماته المتكلفة وتصنعه . . . وشامات الجمال ، واللون الأحمر على الخدود . . . ونساءه العابات ، ورجاله الفاسقين الشهوانيين وأولاد باخوس وسلينوس غير الشرعيين (إلهما الخمر والعريضة في الأساطير اليونانية) (٢٦) ومات بوشيه وهو يعمل في مرسمه تاركاً على الحامل لوحة لم يكملها « تزين فينوس » وكأنما يتحدى بها ديدرو . وعند ما سمع ديدرو بموت الفنان أحس بالندم وقال « لقد أسأت إلى بوشيه كثيراً بكلامي عنه ، وإني لأكف الآن عن الحديث عنه . (٢٧) ولنكتف نحن بهذا القدر ».

٣ - شاردان : ١٦٩٩ - ١٧٧٩

كم اختلف عالم بوشيه عن دنيا شاردان - أى تباين بينهما في مفاهيم الجمال وفي الخلق وفي الذكاء ! كانت هنا تقريبا حرب طبقية ، ثورة الطبقة المتوسطة ضد الابيقورية المسرفة المبذرة عند رجال المال والأرستقراطية والحاشية . ولدجان مابنتست سيمفون شاردان برجوازي ، وظل برجوازيا قانعا ، وصور الحياة البرجوازية في اخلاص بالغ . وكان أبوه معلم نجارة ذا مكانه عالية في نقابته ، يمتلك دارا في شارع السين على الضفة اليسرى من النهر ، ولما كان يظن أن ابنته جان سيخلقه في مهنته ، فإنه لم يعن بتعليمه في المدرسة قدر عنايته بتدريبه على الأعمال اليدوية . وأسف شاردان على ما فاتته من تعليم وعلى ضآلة ما حصل منه ، ولكن هذا منعه من ارتياد مجالات الفن القديمة ، فولى وجهه وقرشاته شطر الأشياء التي حوله في المصنع والبيت . وسرعان ما أحب الرسم وتلهف على التصوير ، وسمح له والده بالالتحاق بمرسم بييرجاك كيز ، ثم بتسجيل اسمه رساما في البلاط الملكي .

ولم يكن الشاب سعيدا هناك ، فإن النماذج التقليدية التي طلب إليه أن ينسخ عنها بدت له بعيدة بشكل مخيف عن الحياة التي عرفها وألفها . وعندما طلب إليه جراح صديق لوالده أن يعد له لافتة تعلن عن مهنة الخلاق الجراح ، وتبرز أدواتها ، فإن جان - وربما تذكر عند ذلك شعار الرسام

اتو لجرسانت - رسم لافتة ضخمة تمثل رجلا جرح في مباررة ، يقوم على العناية به جراح ومساعدته ، ومن حسن التدبير أضاف إلى هذا سقاء وشرطيا وبعضا من حراس الليل ، ومركبة ، وامرأة تحقد النظر من نافذتها ، وحشدا من المتفرجين يحملقون من فوق الرؤوس - كل أولئك في منظر رائع عن الصخب والايماء والاثارة . وغضب الجراح ورأى أن يلقي باللافتة عرض الحائط ، ولكنها جذبت انتباه المارة ونالت استحسانهم إلى حد كبير إلى درجة أن الجراح استبقاها على بابه ، ولم نسمع بعد ذلك شيئا عن شاردان ، حتى كان عام ١٧٢٨ ، حين حظيت باطراء خاص ، لوحته « السمكة » ولوحته « الخوان » (البوفيه) - طبق فضى فيه فاكهة - في معرض في الهواء الطلق في ميدان الدوفين . ودعا بعض أعضاء الأكاديمية ليطلب الانضمام إلى عضويتها . ودبر أن يعرض بعض من لوحاته هناك غفلا من اسمه ، فأعلن من رأوها أنها تحف رائعة ، ونسبوها إلى فلمنج ، ثم اعترف شاردان بأنه صاحبها ، فاستنكروا هذه الخدعة ، ولكنه على أية حال فاز بعضوية الأكاديمية (١٧٢٨) .

وفي ١٧٣١ خطب مرجريت سنكتار التي وعده أبواها بصداق كبير ، ولكن في فترة الخطوبة منى الوالدان بنسائر جسيمة وفارقا الحياة ، تاركين مرجريت لا تملك شروى نفير ، وتزوجها شاردان على الرغم من ذلك ، وهيا لهما أبوه مسكنا في الطابق الثالث من منزل كان قد اشتراه حديثا على ناصية شارع دى فور وشارع البرنسيس . وهناك أقام الفنان مرسمه الذى كان أيضا مطبخه ، فقد اختار الآن بصفة نهائية أن يرسم الحياة الهادئة ومشاهد الحياة اليومية . وأصبحت الخضر والفاكهة والسملك والخبز واللحم كل الأشياء التي تبعثت في أنحاء الغرفة ، نماذج لفرشاته تارة ، وصنوف قائمة طعامه تارة أخرى .

وافتن شاردان بالأشكال والألوان المتغيرة في الأشياء العادية ، ورأى فيها خصائص في البيئة والتركيب والضوء قلما تلمحها العين الغافلة . فلإن جانبي التفاحة أو خديها كانا بالنسبة له يحملان طابعا رومانتيكيا مثل تورد

وجنتى عذراء ، وبريق السكين فوق مفرش المائدة الأخضر تحدها أن يمسك به في حركته السريعة ، ويحاول تثبيته في فنه . وأبرز هذه الأشياء الصغيرة البسيطة في أمانة وتبصر ، وبراعة فنية في اللون والمناسيب والضوء والظل ، مما لم يتيسر إلا لقلّة من الفنانين أن يبلغوه . وإننا لننظر إلى هذه الأشياء الطبيعية الميئة ، ونحس بأنها حية وإننا لم نرها رؤية صادقة قط من قبل ، وأننا لم نتمحقق قط من تعقيد أشكالها وتفرداها . ومن الفروق الدقيقة بين ظلال ألوانها ، ولم يجد الشعر فقط في إناء من الأزهار أو عنقود من العنب . بل في مرجل قديم محطم ، وفي جوزة ، وفي قشرة برتقالة . وفي فتات كسرة خبز جاف . ففي هذه كلها شعر دائماً كما كان الفلمنكيون والهولنديون قد عرفوا من قبل ، ولكن من في فرنسا بوشيه وبمبادور خامره يوما شعور بوجود هذا الشعر . وكان جمال هذه الأشياء بطبيعة الحال في عين الرائي أو المشاهد أو بالأحرى في نفسه . إن شعور شاردان القوي وبصيرته النافذة - وفقره - كل أولئك هو الذي جعل من مخزن حفظ الأطعمة قصيدة غنائية ، ومن قائمة الطعام ملحمة شعرية .

وكل إنسان يعرف هذه القصة - أو الاسطورة ؟ - كيف انساق شاردان إلى رسم الأشكال البشرية . إنه سمع ذات يوم صديقه أفيد يرفض ٤٠٠ جنيهه أجراً لرسم لوحة لأحد الأشخاص ، فعجب شاردان أشد العجب ، وهو المعتاد على الأجور الضئيلة ، لهذا الرفض . فما كان جواب أفيد إلا أن قال « هل تظن أن رسم إنسان سهل مثل رسم مرقق التوابل (الصلصة) . (٢٨) . وكانت سخرية لاذعة . ولكن مفيدة . إن شاردان كان قد ضيق مجال موضوعاته تضيقاً شديداً ، وسرعان ما كان يمكنه أن يشبع رغبات زبائنه وعملائه في الأطباق وألوان الطعام ، وعقد العزم على رسم الأشخاص . وكشف في نفسه عن عبقرية في رسم الأشخاص في رقة وتعاطف ، وكان هو الذي هيا لهذا العبقرية أن تحمد . وقبل التحدى من فوره . ورسم لوحة لصديقه أفيد نفسه ، « المتفاخر » (٢٩) . وأتبعها بلوحة أحسن منها « دار لعب الورق » . ولكن هنا أيضا كان التفوق والامتياز

في الملابس لا في الوجوه . وفي لوحة « الطفل والخدوف (النحلة) » خطا شاردان خطواته الثانية : اليدان يشعتان بعض الشيء ، ولكن الوجه ينبت عن عقل سليم . ووجد هذا الاعتناق الرقيق منفذا في رسمه للبنات ، كما هو الحال في التحفتين الرائعتين اللتين تضمهما مجموعة روتشيلد : « بنت تلعب تنس الريشة » ، وأخرى « تتسلى بتناول غذائها » .

إن شاردان لم ير في النساء الاغراء الباسم الذي أثار بوشيه ، بل رأى فضائل وخصائص الزوجية والأمومة التي هي عماد الدولة ، وهي التي تقودها إلى طريق الخلاص . ومع شاردان دخلت سيدات الطبقة المتوسطة مجال الفن الفرنسي ، وحصلت على حقها فيه . إن هذا الفنان عرفها وأحبها في كل ما تقوم به من خدمات جليلة أسرة : احضار الطعام من السوق ، سحب الماء ، تقشير السلجم ، لف الصوف ، العناية بالمريض ، تحذير التلميذ من إهمال واجبه أو التهرب منه ، أو كما أبرز شاردان في أشهر لوحاته « الخبز والبركة » (٣٠) الامسك عن الطعام حتى تكف صغرى البنات ، ويدها الصغيرتان مضمومتان ، عن الصراخ والبكاء ويشيع في وجهها ابتسام الرضا ، ورأى المرأة دائماً في ملابس البيت ، غير متبرجة ، في حركة دائبة ، تخدم زوجها وأولادها من الفجر وصلاة الصباح إلى أن يأووا جميعاً في أمان إلى فراشهم ويتدنثروا . وإننا لنرى من خلال لوحات شاردان باريس وهي أكثر حكمة وأكبر عقلاً من الحاشية ، لا تزال متعلقة بالأخلاقيات القديمة والعقيدة الدينية التي وفرت لها عوناً روحياً . وهذا هو أعظم فن نفعاً وصحة في كل تاريخ الفن .

إن هذه الصور التي يهلل لها العالم الآن لم تلق إلا رواجاً محدوداً جداً آنذاك ، ولم تأت للفنان إلا بفرنكات معدودة تقيم أوده في بساطة قانعة . ولم يساوم مع عملاءه . وباع اللوحات بأى ثمن عرضوه عليه تقريباً . ولما كان يعمل في بط وكد وجد ، فإنه انهك نفسه في فقر نسبي ، على حين أن بوشيه استنفذ جهده في يسر ورخاء . ولما توفيت زوجته الأولى بعد أربعة أعوام فقط من الزواج ، آل مسكنه إلى حالة شديدة من الفوضى وسوء

النظام . وكأنه مسكن طالب ، ألح عليه أصدقاؤه أن يتزوج ثانية ، ولو ليحظى بيد امرأة رشيقة وسيدة تعيد النظام إلى بيته . وتردد تسع سنين ثم تزوج الأرملة مرجريت بوجيه . وهو في بساطة زواج مصلحة . وجاءت له مرجريت بصداق متوسط ، يشمل بيتا تملكه (١٣ شارع البرنيس) ، فانتقل إليه . حيث وضعت خاتمة لفقره وعوزه ، وكانت سيدة فاضلة وزوجة شديدة التدقيق . وتعلم هو أن يحبها شاكرا ممتنا .

وزيادة في معونته من الناحية المالية خصص له الملك (١٧٥٢) راتبا قدره ٥٠٠ جنيه ، وعينته الأكاديمية (١٧٥٤) أمينا للصندوق فيها ، وسرعان ما عهدت إليه بترتيب اللوحات المقدمة إليها في قاعات العرض فيها ، ولكنه لم يكن يصلح لهذه المهمة مطلقا ، ولكن زوجته ساعدته فيها . وفي ١٧٥٦ أقنع صديق نقاش - هو شارل نيقولا كوشان الثاني - ماريني بأن يخصص لشاردان غرفة مريحة في اللوفر . وهذا هو كوشان نفسه الذي كان تواقا إلى ابعاد شاردان عن تكرار صور المطبخ ، فحصل له على تكليف برسم ثلاث لوحات ، لتوضع (فوق الباب) لقصر ماريني . فأخرج شاردان في جد واجتهاد (١٧٦٥) « خصائص الفن » وخصائص الموسيقى (٣٢) ثم حصل على تكليف آخر برسم لوحتين شبيهتين لقصر مدام دي بمبادور « المنظر الجميل » . ولسوء الحظ لم يدفع المبلغ الموعود للوحات الخمس حتى عام ١٧٧١ .

وفي نفس الوقت كان الفنان تتقدم سنه ويفقد مهارته . ففي ١٧٦٧ نرى ديدرو الذي كان قد رحب بعمله وأثنى عليه بوصفه « روح الطبيعة والحقيقة » يقول في أسى وأسف « إن شاردان رسام ممتاز لمشاهد الحياة اليومية ، ولكنه يذوى ويذبل (٣٣) » . وكانت لوحات لاتور المرسومة « بالبستل » تأخذ بمجامع الألباب في باريس . وفي نعمة المنافسة أخذ شاردان نفسه الطباشير والورق وأدهش لاتور حين أبدع لوحتين بالبستل لشخصه . وهما من أعظم الإنتاج جاذبية وروعة واتقاناً وكمالاً في اللوفر . إحداها تمثله في قلنسوة قديمة ضيقة مزدوجة العقد على رأسه ، والعوينات

(النظارة) فى أعلى انفه ، ورباط عنق مربوط بأحكام حول عنقه . وأبرزت الأخرى نفس الزى ونفس الوجه مملوءاً بالدهشة والشخصية ، بالإضافة إلى قناع يظلل عينيه اللتين يشكو فيهما ألماً . وأشهر من هاتين ، لوحة البستل التى أبدعها لزوجته الثانية ، وهى آنذاك فى الثامنة والستين : وجه كريم جميل ، أخرجه بمهارة متسمة بالحب . وتلك هى اللوحة التى يقع عليها اختيارنا لتكون تحفة شاردان ورائعته .

وكاتت خاتمة مظفرة لحياة فذة شريفة كريمة . ولسنا فى حاجة إلى تصوير شاردان رجلاً بريئاً من زلات البشر ، فالحق أنه هو نفسه أيضاً ، وقد وخزته أشواك الحياة وأساءت إليه الأحقاد ، كان فى مقدوره أن يقاوم بالانفجار فى الغضب وفى قارص الكلام ، ولكنه لما فارق الحياة فى ١٧٧٩ ، فإن أحداً فى دنيا الفن الباريسى الحاسدة الحاقدة المفترية ، لم يجد كلمة سوء عدائية يقولها فيه . بل إن نظام الحكم المنهار نفسه بدا أنه تحقق من أن شاردان قد كشف بأسلوب فنى لم يزه فيه أحد فى زمانه ، عن فرنسا ، التى هى فرنسا الحقيقية التى لا تزال سليمة بارثة من السقام ، تلك الدنيا المستترة ، دنيا الكد الخالص والولاء للأسرة ، مما يمكن أن يبقى ويعمر - ويساعد فرنسا على البقاء - بعد قرن من الفوضى والثورة . وكما قال ديدرو « كان شاردان أعظم ساحر لدينا » (٣٣) .

٤ - لاتور - ١٧٠٤ - ١٧٨٨

إن نزعات الذوق المتقلبة لا تقدم اليوم لإكليل الغار فى فن الرسم الفرنسى فى القرن الثامن عشر ، إلى يوشيه أو إلى شاردان ، بل تقدمه إلى موريس كاتنان دى لاتور .

وهو أكثر الشخصيات الثلاث إمتاعاً وتشويقاً ، لأنه مزج رذائله وفضائله باستهتار شيطانى ، وساق العالم المرتعد بأسره إلى زاوية ، وطلب كما فعل ديوجنيس ، إلى ملك أن يبتعد عن طريقه . وكان نزاعاً إلى جمع المال فى جشع شديد ، مغروراً وقحاً متخطراً ، عدواً لدوداً وصديقاً متقلباً عميقاً مزهواً مثل رجل عجوز يخفى سنين عمره أو يفاخر بها ، وكان أميناً

صريحا ، بخيلا ، ومحسنا مسرفا وساذجا أنيسا ، وطنيا ملتبها حماسة وغيرهٴ؛
يحتقر الألقاب ، ومن ثم رفض لقب النبالة الذي عرضه عليه الملك .
ولسكن هذا كله لا يتصل بالموضوع ، فإنه كان أعظم رسام في عصره ،
وأعظم مصور بالبستل في تاريخ فرنسا .

وجلس لويس الخامس عشر يوما إلى لاتور ليرسمه ، فاستاء الملك
وجرحت كبرياؤه لكثرة ما ردد الفنان من عبارات المديح والثناء على
الأجانب ، وقال له « ظننت أنك فرنسى » . فأجاب لاتور « لا يامولاي ،
أنا من سانت كاتان في بيكاردي^(٣٤) » (مقاطعة في شمال فرنسا كانت يوما
جزءاً من الفلاندرز) . انه ولد هناك لأب موسيقار موسر ، أراد له أن
يكون مهندسا ، ولكن الولد آثر أن يكون رساما ، فأنبه الوالد على ذلك ،
وهرب موويس وهو في الخامسة عشرة إلى باريس ثم ريمس ثم كبراي ،
يرسم اللوحات هنا وهناك ، وفي كبراي دعاه أحد الدبلوماسيين الإنجليز
إلى لندن ضيفا عليه فيها . وذهب إليها موويس ، وهنا جمع مالا وقضى
وقتا سعيدا مستمتعا بالحياة ، وعاد إلى باريس وتظاهر بأنه رسام إنجليزي .
وكانت روزاليا كارييرا في باريس في عام ١٧٢١ وكان وجهاء القوم ،
إبتداء من الموصى إلى أحدث محدثي الثراء ، يفتشون عن لوحاتها المرسومة
بالبستل . ووجد لاتور أن مثل هذه الرسوم بالأقلام الملونة تلتيم مع مزاجه
القلق ، أكثر من الزيت الذي يحتاج إلى جهد وجلد . وقضى عدة سنين
يحاول ويجرب ويخطئ ، حتى تعلم أن يحقق وينجز بالطباشير ظللا ودقة
في اللون والتعبير مما لم يتسن لأحد من رسامي الأشخاص في زمانه أن
يباريه فيها .

وعندما عرض بعض لوحاته في معرض ١٧٣٧ بدأ رسامو الزيت
يوجسون خيفة من منافسة أقلام البستل لهم . وكانت لوحاته الثلاث المرسومة
بالبستل حديث معرض ١٧٤٠ . وكانت لوحته رئيس مدينة ريو في رداء
الحاكم الأسود وعباءته الحمراء « هي التي فازت بالجائزة في معرض ١٧٤١ .
أما لوحته التي رسمها للسفير التركي فقد تكاثرت عليها الجمهور المعجب في

١٧٤٢ . وسرعان ما طالبت دنيا الأناقة التي تهفو دوما إلى كل ما هو مستحدث ، بالتحول إلى الطباشير ، وأصبح صدام لاتور مع الملك حدثا تاريخيا . ذلك أن الفنان بدأ بالاعتراض على الحجرة إلى اختيرت ليجلس الملك فيها أمامه ليرسمه ، لأن الضوء كان ينفذ إليها من كل جانب ، قائلا « ماذا تتوقع منى أن أفعل في هذه المشكلة ؟ » فأجاب الملك « لقد اخترت هذه الحجرة المنعزلة خصيصا ، حتى لا يعكر صفونا أحد » . فرد عليه لاتور بقوله « لم أكن يا سيدي أعلم أنك لست سيدا في دارك » . وفي مناسبة أخرى عبر الفنان عن أسفه لأن فرنسا لا تملك أسطولا ضخما ، فاعترض الملك في خبث « فما بال فرنيه الذى صور مناظر البحر يعج بالسفن (٣٥) » ولما علم لاتور أن الدوفين أبلغ أنباء مضللة كاذبة عن مسألة معينة ، ابتدره في رفق « وهكذا ترى كيف أنه من السهل على اناس أمثالكم أن يقعوا في حبال المخادعين الخاتلين » (٣٦) .

وعلى الرغم من صراحته اللاذعة للمزعجة . منحتة الأكاديمية عضويتها الكاملة ١٧٤٦ - التي هى بمثابة شهادة امتياز وتفوق . ولكن في ١٧٤٩ ، نتيجة سعى حثيث من الوسامين بالزيت ، قررت الأكاديمية ألا تقبل مزيدا من رسوم البستل . وفي ١٧٥٣ شكوا أحد مصورى اللوحات الزيتية « من أن دى لاتور ارتقى برسم البستل إلى درجة قد تثير النفور من اللوحات الزيتية » ورد لاتوركيد الشاكى في نحره بالخوافز والروائع .

وكان له منافس في البستل ، هو جان بابتست برونو الذى كان يؤثره ليموين وأودرى وغيرهما من الأكاديميين على دى لاتور ، فطلب هذا إلى برونو أن يرسمه (لاتور شخصيا) فقبل برونو وأخرج له تحفة رائعة ، وأجزل له دى لاتور الأجر ، ولكنه رسم بعد ذلك نفسه في لوحة من أعظم اللوحات الذاتية المعروفة روعة وابرزا للشخصية والذات ودبر مع شاردان أن تعرض اللوحتان كالتاهما جنبا إلى جنب في معرض ١٧٥١ . وأجمع كل الذين شاهدوها ان اللوحة الذاتية تفضل لوحة برونو ، ولا تزال اللوحة الذاتية التى رسمها لاتور لنفسه تبتسم ابتسامة النصر في متحف اللوفر .

وهناك أيضا اللوحة التي تجلدى بها بوشيه وهى لوحة البستل الوحيدة التي عرضها ١٧٥٥ . وأفلتت الفرصة منه تقريبا . فحين وجهت إليه الدعوة ليرسم أشهر سيدة فى المملكة أجاب « أرجو أن تفضلوا بإبلاغ مدام دى بمبادور أننى لا أخرج لأرسم » . وكانت تلك طريقته فى جلب الحظ والمال ، مثل إيقاع الفريسة فى الشرك ، بالتراجع ، وتوسل إليه أصدقاؤه أن يقبل ، فأرسل كتابا يديبى بأنه سيحضر ، ولكن سريطة ألا يقطع عليه أحد سير العمل . ولما وصل نزع وقاء حذائه ، وخلع الحذاء ، ونزع شعره المستعار عن رأسه ورقبته (ياقته) وغطى رأسه بقلنسوة حريرية ، ثم بدأ يرسم . وفجأة فتح الباب ودخل الملك . فاحتج لاتور قائلا : لقد وعدتني يا سيدتى أن يظل الباب مغلقا « فضحك الملك ورجاه أن يستأنف عمله ، ولكنه رفض » يستحيل على أن أطيع جلالكم . سأعود عندما تكون السيدة وحدها . . . لا أحب أن يقاطعنى أحد . فانسحب الملك ، وأكمل الفنان الجلسة ، ومن أشهر صورتين لمدام دى بمبادور ، نجد أن اللوحة التي رسمها لاتور أعمق من تلك التي أنتجها بوشيه ، وأقل اشراقا فى اللون ، واتقاناً فى اللمسات الأخيرة والتفاصيل ، ولكنها أكثر نضجا من حيث التعبير وإبراز الشخصية . ولا ريب أن لاتور رسم المركزية ، بإحسان منها ، باعتبارها راعية للفن والموسيقى والأدب والفلسفة ، وعلى أريكة قريبة منها قيثارة ، وفى يدها بعض صفحات موسيقية ، وعلى المنضدة كرة أرضية ، وحقيبة أوراق من نفش يديها ، وقصة فولتير « هنرياد » وكتاب مونتسكيو « روح القوانين » والمجلد الرابع من موسوعة ديدرو .

وعندما فرغ لاتور من اللوحة طلب عليها أجرا قدره ٤٨ ألفا من الجنيهات . وعلى الرغم من تبذيرها وإسرافها فإنها رأت أن المبلغ المطلوب مبالغ فيه بعض الشيء ، وأرسلت إليه ٢٤ ألف جنيه ذهابا . وفكر لاتور فى رد المبلغ . فسأله شاردان إذا كان يعرف ثمن اللوحات الموجودة فى فوتردام ، بما فيها روائح برون ولى سير ، وأجاب لاتور سلما ، وقدر شاردان بحملة تكاليفها بمبلغ ١٢ ألف جنيه . وأعاد لاتور النظر فى تقديره

وقبل المبلغ الذى أرسلته بمبادور (٢٤ ألفا) . إنه ، بصفة عامة كان يطالب بالأجر تبعا لثروة الجالسين أمامه ، فإذا اعترضوا ردهم خائبين ، وربما كان هناك بعض استثناءات لفولتير وروسو ودالمبرت ، حيث أعجب بالفلاسفة من كل قلبه ، وأقر صراحة بتجرده من الإيمان الدينى .

وربما كانت أجوره المرتفعة سبباً فى اشتداد الطلب عليه من جميع الأنحاء . وعن طريقه عرفنا الشخصيات القيادية فى عصره ، وأصبح قمة فى الرسم بالبستل ، فأبدع لوحات جميلة رائعة للملكة ولولى العهد الصغير ، والدوفين المتظاهر بالرزانة والاحتشام^(٣٨) ، ولا كامارجو راقصة الباليه الأولى ، وحاول أن يرسم لروسو لوحة يبدو فيها لطيفا عاقلا حكيمًا^(٣٩) ، وفى أحد أعماله البالغة الروعة رسم موريس دى ساكس القائد الوسيم المنتصر على الجيوش والسيدات^(٤٠) ، وأبرز فى لوحة رسمها لصديقه الرسام جان رستوت شعلة النشاط ونضارة الحياة فى عينيه^(٤١) . ولبس الخنز والخمرات والشعر المستعار استعداداً لصورة ذاتية معلقة الآن فى اميان . وعلى الرغم من عاداته الخشنة ونزواته غير المشروعة ، وحالاته النفسية المتقلبة التى لا ضابط لها : فقد كان موضع الترحيب فى قصور الأرسطراطية ، فى ندوة مسيو دى لا بوبلنيير فى باسى ، وفى صالون مدام جيوفرين . وكان يرتبط بأواصر الصداقة بمشاهير كتاب عصره ، بل حتى بالرسامين والمثاليين الذين نظروا إلى نجاحه بعيون حاسدة - فأنلو ، شاردان ، جريز ، بيجال ، باجو . ومنحه الملك معاشاً إضافياً ومسكناً فى اللوفر . ولا بد أن الرجل كان . فوق كل شيء ، محبوباً .

ولم يتزوج لاتور قط . ولكنه لم يتنقل كثيراً بين أحضان السيدات كما فعل بوشيه وكان له عشيقة ، هى الأنسة فى Mlle Fel التى ساعد غناؤها على تجاح أوبرا روسو « عراف القرية » . وتضايق منها جريم لأنها لم تبادله الحب ، ولكنها أقبلت على لاتور من كل قلبها . وذكر هو لها بالعرفان والشكر كل ما وفرت له من أسباب الراحة والتسلية حتى إنه ظل يشرب نخبها وهو فى الثمانين من عمره . وكان فى إخلاصها له شيء من العزاء

والسلوى حين تقدمت به السن فتصلبت أصابعه وغشى بصره . ودفع ثمن الرخاء والرغد الذى نعم به وهو فى ذروة المجد ، بما لقي من إذلال طال أمده فى سنى شيخوخته واضمحلال صحته . إنه عمر بعد أن تلاشت عبقريته . وسمع النقاد يتحدثون عنها ، وكأنما أدركها القناء .

وعندما قارب الثمانين ترك مسكنه فى اللوفر ، ليعيش فى الهواء الطلق فى أوتى Auteuil . وأخيرا عاد إلى مسقط رأسه . واستقبلت سانت كاتنان ابنا السخى المبذر بطلقات المدافع ودق النواقيس والهاثافات الشعبية . وعمر فى هذه البلدة الهادئة أربع سنوات أخرى وذبل عقله النشط إلى مس خفيف غير مؤذ من الجنون ، فأصبح يتمم بشيء من فلسفة وحدة الوجود (الله والطبيعة شيء واحد ، والسكون المادى الإنسان مظاهر للذات الإلهية) ، ويعبد الله والشمس معا ، ويحلم بالثورة مؤملا فى قيامها . وفازق الحياة قبل قيامها بعام واحد . وقبل أيدى خدمه وهو فى النزاع الأخير .

الفصل العاشر

نشاط الذهن

١ - صناعة الكلام

الآن أصبحت اللغة الفرنسية هي اللغة الثانية لكل متعلم ومثقف في أوروبا ، وواسطة الاتصال والتفاهم المعترف بها في الدبلوماسية العالمية ، وكان فردريك الأكبر يستخدمها بانتظام ، اللهم إلا في التحدث إلى قواته . وألف جييون أول كتاب له باللغة الفرنسية ، واتجه تفكيره لبعض الوقت إلى أن يكتب بها مؤلفه المعروف « اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها » . وفي ١٧٨٤ أعلنت الأكاديمية الألمانية عن مسابقة ذات جائزة لمن يكتب أحسن موضوع يوضح أسباب هذا التفوق والتبريز ، ونشرت مطبوعاتها بالفرنسية . وكانت الأسباب الرئيسية لهذا التفوق هو المنزلة السياسية السامية لفرنسا في عهد لويس الرابع عشر ونشر القوات الفرنسية للغتهم في الأراضي الوطية وألمانيا والنمسا وإسبانيا ، وعلو مكانة الأدب الفرنسي في القارة ، بشكل لا نزاع فيه (وقد يكون لإنجلترا تحفظات على هذا) ، وشعبية المجتمع الباريسي بوصفه مدرسة للدراسات الثقافية والنشاط الاجتماعي ، تنهل منها النخبة الممتازة في أوروبا ، ثم الرغبة في إحلال لغة أحدث وأكثر مرونة محل اللغة اللاتينية في علاقات الأمم بعضها ببعض ، وقيام الأكاديمية الفرنسية بتنقية اللغة وتقسيمها عن طريق قاموسها ، ولم تصل قط لغة وطنية أخرى ما بلغته الفرنسية من دقة وتنوع ، ومن قوة وسحر في العبارة ، ورشاقة ووضوح في الأسلوب . وكان ثمة بعض الخسارة في هذا الانتصار : ذلك أن النثر الفرنسي ضحى بالصراحة البريئة عند مونتاني والحويوة الدافقة القاسية الصادرة عن القلب عند رابليه . وأصاب الشعر الفرنسي الوهن والضعف في سجن القواعد التي وضعها بوالو ،

وانزلت الأكاديمية نفسها - حتى أيقظها ديكلوس بعد انتخابه ١٧٤٦ -
إلى شكليات غامضة وضآلة مبعها الجبن والحذر .

وكانت حرية الفكر والكلام النسبية في عهد الوصاية الخطير قد شجعت
على مضاعفة عدد المؤلفين والناشرين والمكتبات . واندس من يطبعون
وينشرون ويبيعون الكتب في كل مكان ، حتى على الرغم من أنه يتقدم
القرن ، أصبحت هذه التجارة خاسرة ، وكان في باريس وحدها منهم
٣٦٠ كلهم تقريباً فقراء معدمون . وانتشرت المكتبات في كثير من المدن ،
وكان في بعضها حجرات للمطالعة مفتوحة للجواهر ، نظير رسم دخول
ضئيل (٤٠ سو) وقل أن كان التأليف مهنة كافية لكسب القوت ،
ولذلك كانت تكمل عادة بعمل آخر ، فكان كريبيون الأكبر كاتباً لدى
موثق عقود ، وكان روسو ينسخ الموسيقى . واستطاع نفر قليل من مشاهير
الكتاب أن يبيعوا إنتاجهم لقاء ثمن عال . ولما أعسر موريفو بسبب انهيار
نظام لو ، استطاع أن يصلح ماليته ويسترد ثروته برواياته ومسرحيته
« ماريان » : وقبض روسو ، وهو عادة فقير ، خمسة آلاف جنيه عن
كتابه « اميل » . وكان حق الطبع القانوني الوحيد هو الترخيص الملكي
بالنشر وكان في هذا حماية للمؤلف من السطو على كتابه في فرنسا ، ولكن
ليس من السطو عليه وطبعه خارجها ، وكان هذا الترخيص يمنح لمن
يكفل المراقبون الرسميون خلو كتابه مما يسئ إلى الكنيسة أو الدولة .
وكان يمكن للأفكار الجديدة أن تتخطى هذه العقبة باخفاء مادة الكتاب
أو الهرطقة في أسلوب مقنع . فإذا لم تنجح هذه الخدعة ، فقد يعمد
المؤلفين إلى إرسال المخطوط إلى امستردام أو جنيف ، أو أية مدينة أجنبية
أخرى ، ليطبع هناك بالفرنسية ويوزع في الخارج ، ويتداول سرا
في فرنسا .

وأدى اتساع الطبقة الوسطى وانتشار التعليم وتجمع المفكرين في باريس
إلى خلق جمهور متلهف على الكتب ، ونهضت مجموعة كبيرة من المؤلفين
لتلبية هذا المطلب وإشباع هذه الرغبة . وأثاؤ ضعف الدولة في عهد لويس

الخامس عشر وانهيار الإيمان الديني ، المناقشات الشفوية والخطية في المسائل السياسية والفلسفية . وإذ كرهت الأرستقراطية تلك الملكية التي حدثت من سلطتها ، كما كرهت الكنيسة التي كانت تساند الملكية ، فإنها استمعت بأذان صاغية ذات مصلحة إلى نقد الحكومة والعقيدة كلتيهما ، وانضمت الطبقة المتوسطة العليا إلى الأرستقراطية في اصغائها لهذا النقد ، أملا في تغيير يحقق لها المساواة الاجتماعية مع طبقة النبلاء .

وفي هذا الجو الجديد حقق المؤلفون والكتاب مكانة قلما تيسرت لهم قبل القرن الثامن عشر أو بعده . وقبولوا بالترحيب في الصالونات حيث تحدثوا وأبدوا آراءهم بكل ما أوتوا من فصاحة وبيان . واستقبلوا في قصور ذوى الألقاب ما داموا لم يجرحوا كبرياءهم أو يسيثوا إليهم . وكان أصحاب المال يستضيفونهم ويكرمون وفادتهم ، وفي بعض الأحيان يسكنونهم في قصورهم ، مثل ما فعل بويلنيير ، وأصبحوا برغم فقرهم قوة في الدولة . قال ديكلوس في ١٧٥١ « إن امبراطورية رجال الفكر ، من بين كل الامبراطوريات ، أوسعها امتدادا ، دون أن تكون مرئية . إن أصحاب السلطة يأملون ، ولكن رجال الفكر يحكمون . وعلى المدى البعيد . . . إن عاجلا أو آجلا ، سيتغلب الرأي العام على أى شكل من أشكال الاستبداد والحكم المطلق أو يغلبه »^(١) (وفي ١٧٥١ لم يكن قد تم التوصل بعد إلى الأسلوب الذى يتحقق به تشكيل رأى العام تشكيلا محكما بالمال أو عن طريق الحكومة) .

وإذا رحب جمهور متزايد بالكتاب الفرنسيين ، وحفزهم مئات المتنافسين اليقظين ، وحررهم ضعف العقيدة ، واستحثهم زهو الطباعة وخيالاتها ، فإنهم دفعوا إلى المطبعة بسيل من الرسائل والنشرات والأبحاث والنقد اللاذع والمقالات والمذكرات ، والتاريخ والقصص والمسرحيات والقصائد والأبحاث الدينية والفلسفية ، والكتابات الإباحية الداعرة والأدب المكشوب ، مما حطم كل اغلال الرقابة وقبورها ، واكتسح كل مقاومة ، وغير عقل فرنسا وعقيدتها وحكومتها بل إلى حد ما عقل العالم وعقيدته

وحكوماته . ولم يحدث قط ان وجد في الأدب من قبل مثل هذا الذكاء الحاد أو المزاج الرقيق أو هذا التهريج الماجن أو هذا السخف المهلك ، وتصعدت كل القواعد التقليدية في الكنيسة والدولة تحت ضغط الهجمات التي شنتها تلك الأقلام الحادة ، المسمومة أحيانا ، المغمورة أو المجهولة عادة .

إن الرسائل الخاصة نفسها أصبحت قناعاً شائعاً . فما من سيدة أو رجل إلا نفع رسائله وأعاد كتابتها وصقلها وتأنق فيها أملاً في أن يطالعها أكثر من الشخص الذي أرسلت إليه فتتألق أمام العيون وتكون متعة لقارئها ، كذلك نجحوا أحيانا في أن تكون رسائلهم « كتابات ممتازة » أى قطعاً من الأدب . وبسبب جهم للحديث والمناقشة فإنهم تحدثوا على الورق إلى الأصدقاء أو الأعداء الغائبين عنهم ، بشكل طبيعي وكأنما يخاطبونهم وجهاً لوجه ، وبكل الحماسة والحيوية اللتين تدور بهما أحاديثهم حول المائدة في الصالونات . ولم تكن تلك الرسائل تتضمن مجرد توافه الأخبار الشخصية ، بل كانت في معظم الأحوال نقاشاً في السياسة والأدب والفن ، وكانت في بعض الأحيان نثراً - لغة المجتمع - يزخر بالسجع الذي كثيراً ما يأتي عفو الخاطر في الفرنسية ، مع أكبر الأمل في إطراء القارئ لها ، وهكذا كان فولتير يدخل السرور على قلوب أصدقائه بسلسلة القصائد التي يبعث بها إليهم ، مما كانت تفيض به قريحته الوقادة وفنه الرشيق .

وآذن عصر الخطابة بزوال ، لأن فرنسا القرن الثامن عشر خشيت أن يتولاها السأم والضجر حتى لو استمعت إلى بوسويه آخر (أسقف وخطيب واعظ في القرن السابع عشر) . ولكن الخطابة ستعود مع قيام الثورة . وكانت كتابة « المذكرات » لا تزال سائدة ، لأنها باعتبارها رسائل إلى الأعمام والأجيال القادمة . احتفظت بشيء من سحر المسكاتبات وفتنتها . وفي نهاية الحقبة ، في ١٧٥٥ وصلت إلى المطبعة مذكرات البارونة مدام دي ستال دي لوني التي كانت قد فارقت الحياة ١٧٥٠ ، وقد أعادت هذه المذكرات إلى الأذهان ذكريات عهد الوصاية وأمسيات دي سكو . وهنا كما يقول جريم ، كانت سيدة نافست فولتير نفسه بامتيازها وبراعتها في النثر (٢) .

٢ - المسرح

تفوقت المسارح على الصالونات من حيث المكانة التي احتلتها في باريس ، وما حظيت به من حب وإقبال بين الباريسيين . ويقول فولتير لمارمونتيل : « إن المسرح أعظم مهنة سحرا وفتنة ، ففيه يكسب المرء بين عشية وضحاها جاها ومالا ، وإن رواية واحدة ناجحة تأتي لصاحبها بالثروة والشهرة » (٣) . وكانت هناك في الأقاليم مسارح لا بأس بها ، وكان ثمة تمثيل مسرحي خاص في بيوت الأغنياء ، بعض المسرحيات أمام الملك والحاشية في فرساي . ولكن التحمس للروايات في باريس بلغ حد الجنون والحمى والجدل والشجار أو الابتهاج والسرور . واحتفظت « الكويميدى فرنسيز » في « المسرح الفرنسي » بأعلى الدرجات في الموضوع والأداء ، ولكن الجواهر الغقيمة كانت تقصد إلى « مسرح الإيطاليين » ومسرح « الأوبرا كوميك » . .

وثألفت كل هذه المسارح ، ودار الأوبرا في « الباليه رويال » من قطاعات فسيحة بها عدة صفوف من المقصورات والمقاعد للقلة التي يفوح منها شذا العطر ، أما جمهور المشاهدين الأقل تبرجا وإثراء فكانوا يقفون تحت الشرفات الداخلية ، (على الأرض) التي نسميها خطأ . « الأوركستر » ولم توضع فيها مقاعد حتى جاءت الثورة . وكان نحو ١٥٠ من المتحمسين المتأيقن الذين يدفعون أجراً أكبر ، يجلسون على خشبة المسرح ، يحيطون بالممثلين من ثلاثة جوانب . وقد استنكر فولتير هذه العادة ، لأن هذا كان يعوق الممثلين ويفسد المنظر . « لما كانت معظم رواياتنا لا تعدو أن تكون حوارا طويلا ، فإن التمثيل المسرحي لا يكون له وجود ، أو إذ وجد بدا سخيلاً^(٤) وتساءل كيف يتسنى لممثل مسرحي أن يمثل على مثل هذا المسرح مشهد بروتس ثم أنطوني وهما يخطبان في أهل رومه بعد قتل قيصر ؟ وكيف يمكن « للروح » المسكين في هملت أن يسترق النظر من خلال هذه الهياكل العظيمة المتمتعة بامتياز الجلوس على خشبة المسرح ؟ إنه ليكاد يكون من المتعذر تمثيل أى من روايات شكسبير في مثل هذه الظروف^(٥) وكان لاعتراضات فولتير القوية ، التي أيدها فيها ديدرو وغيره ، أثرها فإني عام ١٧٥٩ حتى كانت خشبة المسرح في فرنسا قد أخلت من المتفرجين .

ولدى فولتير نجاحا أقل في حملاته لتحسين الوضع الديني للممثلين : وكانت مكانتهم الاجتماعية قد تحسنت ، فكانوا يترددون على دور الأرسقراطية ، وفي كثير من الأحيان كانوا يمثلون بناء على طلب الملك . ولكن الكنيسة استمرت في اتهامها للمسرح بأنه مدرسة للفساد والفضائح والأعمال الخزية ، وذهبت إلى أن كل الممثلين بطبيعة الحال محرومون من الكنيسة ، وحرمت دفنهم في الأرض المخصصة للمؤمنين - وهي تشمل كل المقابر في باريس وأشار فولتير إلى هذا التناقض :

إن المثلين يتقاضون أجورا من الملك ، في الوقت الذي تحرمهم فيه الكنيسة . ويصدر إليهم أمر الملك بالتمثيل كل مساء ، بينما تحظر عليهم الديانة أن يمثلوا إطلاقا ، وإذا امتنعوا عن التمثيل زج بهم في السجن (كما حدث عند ما أضرب ممثلو جلالته عن العمل) فإذا مثلوا ألقى بهم (عند موتهم) في البالوعات . إننا نبتج ونسر بهم ، ونعترض على دفنهم معنا ، ونرحب بهم على موائلنا بينما نغلق أبواب مقابرنا دونهم (١) .

وكانت أدريين ليكوفريير أعظم الممثلات الفرنسيات في زمانها مثلا واضحا لهذه المتناقضات في حياتها ومماتها . إنها ولدت في ١٦٩٢ قرب ريمس وجاءت إلى باريس في العاشرة من عمرها ، وأقامت قرب « المسرح الفرنسي » وكثيراً ما شقت طريقها إليه ، ثم قلدت في البيت الممثلات اللاتي أعجبت بهن وهي واقفة على أرض المسرح تحت الشرفات . وفي سن الرابعة عشرة نظمت فرقة من الهواة قاموا بالتمثيل على مسارح خاصة . وأعطاهما الممثل « لي جراند » دروسا ، وهيا لها مكاناً في فرقة تمثّل في ستراسبورج . وقامت بالتمثيل في الأقاليم لعدة سنوات ، كما فعل موليير ، وانتقلت من دور إلى دور ، ومن قصة غرام إلى أخرى دون ريب . وهفت نفسها إلى الحب ، فلم تصادف إلا الداعرين الفجرة ، وتركها اثنان منها على التعاقب حاملا ، ورفضا الزواج منها . وفي سن

الثامنة عشرة وضعت بنتا . وفي الرابعة والعشرين وضعت بنتا أخرى .
وفي ١٧١٥ عادت إلى باريس ، والتقى بها هناك فولتير الشاب ، وكان لها
لبعض الوقت أكثر من صديق^(٧) . وفي ١٧١٧ أصبحت السيدة الأولى
في « المسرح الفرنسي » الذي كان مأواها ومبعث إلهامها في شبابها .

ولم تكن مثل معظم الممثلات الشهيرات بارعة الجمال ، بل كانت
بديئة ، وكانت قسماً وجهها غير متناسقة ، ولكنها تميزت برقة تفوق
الوصف في جلستها ووقفها وحركتها وعاداتها ، وموسيقى مغرية في صوتها ،
وبريق من الشرر والإحساس في عينيها السمرالوين ، وتعبير متحرك كريم
في وجهها . وكان كل تصرف منها يعبر عن شخصيتها . ورفضت أن تنبغ
الأسلوب الخطابي الذي كان قد أصبح تقليداً سائداً في التمثيل في فرنسا في
المسرح الطويل المستطيل الشكل في المسارح القديمة . وعقدت العزم على أن
تمثل دورها وتطلق بعباراتها على خشبة المسرح كما تتحدث في الحياة
الواقعية ، اللهم إلا في إخراج الحروف من مخارجها والإبانة في اللفظ ،
ورفع درجة الصوت ، مما هو مطلوب لنقل كلماتها إلى أبعد مكان يوجد
فيه الجمهور . إنها في فترة عملها القصيرة حققت ثورة أو انقلاباً في فن
التمثيل المسرحي . وتحقق هذا أيضاً في عمق شعورها ، وقدرتها على نقل
انفعالات الحب أو رفته ، وكل العطف أو الرعب في أي مشهد مأساوي .
وتفوقت في الفن الشاق ، فن الاصغاء المعبر اليقظ حين يتكلم الآخرون .

وامتدحها الشيب ، أما الشبان فقد وقعوا في غرامها . وهام بجبها
الشاب شارل أوجسطين دي قريول كونت أرجنتال الذي كان مقدرها أن
يصبح « ممولا ومدعماً بنقوده » لفولتير ووكيلا له ، وجزعت والدة شارل
لهذا خشية أن يعرض على أدريين الزواج فتقبل ، فأقسمت الأم أن تبعث
بولدها إلى المستعمرات ، وعند ما سمعت الممثلة بهذا أرسلت إلى مدام
دي قريول (٢٢ مارس ١٧٢١) تؤكد لها أنهم لن تشجع الشاب على
الاتصال بها أو تبادل الرسائل معها : « سأكتب إليه بأى شيء يرضيك .
ولن أراه بعد الآن إذا كنت ترغبين في ذلك . ولكن لا تهدديه بإرساله

إلى أقصى الأرض . وسيعمل كل ما يبعث في قلبك الرضا والارتياح ،
ويضني عليك الشهرة والمجد ، وما عليك إلا أن توجهي مواهبه وقدراته
وتنمي فضائله لتوثق ثمارها^(٨) .

وكانت آدرين على حق ، فإن دارجنتال فاز بعضوية برلمان باريس ،
وفي سن الخامسة والثمانين ، حين كان يقرب النظر في الأوراق التي تركتها
والدته ، عثر على هذه الرسالة التي لم يكن يعرف عنها شيئاً من قبل .
واستمتعت آدرين بدورها بنشوة الحب كما عانت من الهجران
والصدود . وكان الأمير الشاب موريس السكسوني كثيراً ما يتردد على
المسرح الذي تعمل فيه ، ولم يكن بعد قد انتفخت أوداجه زهوا بانتصاراته ،
ولكنه كان وسيماً عاطفياً خيالياً حتى أنه عندما أقسم على الاخلاص والولاء
لها مدى حياته ظننته فارس أحلامها الذي طال انتظارها له ، وإذا وصل
الأمر بالرجال إلى الوعد بالاخلاص مدى الحياة ، فإنهم يحيون ويموتون
عدة مرات مثل القبط (بسبع أرواح) . ورضيت به عشيقاً (١٧٢١) ،
وعاشا لفترة من الزمن يرشقان كؤوس المحبة والاخلاص إلى حد أن باريس
قارنتهما بقمريات لافونتين الحبيبات . ولكن الجندي الشاب الذي أصبح لتوه
« قائد المعسكر » راوده الحلم بأن يكون ملكاً ، وقد رأيناه يسارع إلى
كورلند (جزء من لتقيا الحالية) طمعاً في الحصول على التاج فيما ، وكان
نصف الأموال التي حملها معه من مدخرات آدرين .

فتسلت عن فراقه بتأسيس « صالون » في بيتها . ولم يكن غير ذى عائد
فكرى لها إنها كانت قد تعلمت رشاقة راسين وأفكار مولير ، حتى أصبحت
من خيرة سيدات فرنسا ثقافة وعلماً ، ولم يكن أصدقاؤها من المعجبين
العابرين . ولكنهم رجال ونساء أحبوا عقلها . فقصد فونتييل وفولتير
ودارجنتال والسكونت دي كايوس بانتظام إلى دارها لتناول العشاء ، ووجد
بعض السيدات الأنيقات من ذوات الألقاب والاحساب متعة في الانضمام إلى
هذه الجماعة المتألقة .

وفي ١٧٢٨ عاد الجندي الذي لم يواته الحظ ولم يتحقق أمله إلى باريس .

وكان البعاد قد خفف من لوعة حبه . وتبين أن آدرين كانت تكبره آنذاك بأربعة أعوام حيث كانت في السادسة والثلاثين وعرض كثير من السيدات الثريات أن يشاركنه مضجعه ، وكان الدم الملكي يجرى في عروق إحداهن مثله تقريبا ، وهي لويزدى لورين دوقة بويون حفيذة بطل بولنده النبيل جان سويسكى ، وكانت تحتال في جرأة أمام موريس في مقصورتها في المسرح الفرنسى ، إلى حد أن آدرين ولت وجهها شطر هذه المقصورة ، حين كانت تلقى في شيء من التوكيد بعض أبيات غاضبة من رواية راسين « Phedre » « لست واحدة من هؤلاء السيدات الوقحات اللاتي تعلمن ، وهن يلقين ظلالة من الجريمة على مظهر الوثام الهادىء الوداع ، إن يكن صفيقات إلى حد لا يستشعرن معه الخجل من سوء تصرفهن » (٩) .

وفي يولييه ١٧٢٩ أبلغ سيمون بوريه ، القسيس رسام المنمنمات الآنسة ليكفرير أن رسولين مقتعين من إحدى سيدات البلاط عرضا عليه أن يعطى الممثلة بعض أقراص السم لقاء ٦٦٠٠ جنيه إذا قام بالمهمة . فأخطرت آدرين الشرطة بذلك . فقبضوا على القسيس وأجروا معه تحقيقاً دقيقاً . ولكنه صمم على أقواله . وكتبت آدرين إلى مدير الشرطة رسالة رائعة تطلب منه إطلاق سراح القسيس : « إنى تحدثت إليه ، وجعلته يتحدث إلى كثير أ لوقت طويل ، وأجاب دائماً إجابات محكمة ذكية ، ليس لأنى أرغب في أن يكون ما قال صحيحاً . فإن لدى مزيداً من الأسباب التى تحملنى على أن أتمنى أن يكون مخبولاً . آه : أليس إلى الله وحده أتوسل ان يغفر له ؟ ولكن إذا كان بريثا فأرجو أن تفكر يا سيدى إلى أى حد يجدر بى أن أهتم بمصيره . لا تلق بالآلى مهنتى أو مولدى وأصلى ، ولكن حاول متفضلاً أن تستشف حقيقة نفسى التى بين جنبى ، وكم هى صادقة مخلصه ، وقد كشفت لك عن سريرتها . بجلاء ووضوح فى كتابى هذا (١٠) .

وأمر الدوق دى بويون على أية حال ، على احتجاز القسيس ، ثم أفرج عنه بعد بضعة شهور ، وظل مصرا على أقواله . ولسنا ندرى حتى يومنا هذا مبلغ صدق روايته .

وفي فبراير ١٧٣٠ بدأت الأنسة ليكوفريير تعاني من إسهال يزداد سوءاً يوماً بعد يوم . وظلت تمثل أدوارها على المسرح ، ولكن في أوائل مارس . حاولوا من المسرح مغى عليها . وفي ١٥ مارس مثلت ، وهي تلتقط آخر أنفاسها « جوكاست » في رواية فولتير « أوديت » وفي يوم ١٧ مارس لزمّت الفرّاش ، وصارت تترّف نزيفاً مميتاً من أمعائها ، ولم يعد الماريشال يزورها ، ولكن فولتير ودارجنتال فقط هما اللذان سهرّا على العناية بها في هذه الحاتمة الفاجعة المذلة ، وفاضت روحها في ٢٠ مارس بين ذراعى فولتير .

وحيث كانت آدرين قد رفضت الشعائر الأخيرة للكنيسة (١١) . فإن القانون الكنسى حرم دفنها في الأرض المخصصة للمؤمنين ، واستأجر أحد الأصدقاء اثنين من حملة المشاعل ليحملا جثمانها في عربة أجرة لدفنه سراً على ضفاف السين ، فيما أصبح فيما بعد شارع بورجون . (في نفس العام ١٧٣٠ دفنت الممثلة الانجليزية آن أولدويلد باحتفال عام في كنيسة وستمنستر .) وفي ١٧٣٠ نظم فولتير قصيدة (موت الأنسة ليكوفريير يستنكر فيها المعاملة المهينة في دفنها بهذه الطريقة : « تأثرت كل القلوب ، مثل قاجي ، بالأسى والفجيرة . وإني لأسمع كل الفنون الذاهلة تولول من حولي ، وهي تذرف الدمع . ان ملبومين (ربة المأساة) قضت نجها ، ماذا عساكم تقولون أيها الأعقاب رجال الغد إذا علمتم بهذا الأذى الأليم المدمر الذي ألحقه أناس قساة بلا قلوب بهذه الفنون البائسة التي تخلى عنها أصدقاؤها ؟ لقد حرموا من الدفن من إذا كانت في اليونان القديمة لأقاموا لها مذبحاً في الهيكل . لقد رأيتهم يقدسونها ويزدحون حولها . إنها لا تكاد تموت متى تصبح محرمة ، لقد سحرت ألباب العالم ، ثم ها أنتم تعاقبونها ، كلا ، لن تكون هذه الضفاف بعد الآن دنسة ، إنها تضم رفاتك ، وستكون هذه المقبرة الحزينة معبداً جديداً لنا ، نمجده في ترانيمنا ، وتضفى عليه ظلالك قلمسية . »

في ١٨٤٩ أخرج يوجين سكريب وارانست ليجوفيه في باريس مسرحيتهما الناجحة غير الدقيقة .
تماماً « آدرين ليكوفريير » . . في ١٩٠٣ ألف فرانسكو سيليا أوبرا في نفس الموضوع .

وكان أعظم كاتب مسرحى فى ذلك العصر ، بطبيعة الحال ، فولتير . وكان له منافسون كثيرون ، من بينهم بروسبر جوتون دى كريبون ، وهو معمر عجوز كان ينبغى له أن يفارق الحياة منذ أمد طويل . وكان كريبون قد أنتج فيما بين عامى ١٧٠٥ و ١٧١١ روايات ناجحة ثم اقتنع بالفشل المحتوم لروايته « اجزرسيس » ١٧١٤ ، وهنا كانت نهايته ، وكان قد انقطع عن التأليف ، وبات يعانى الفقر ، ويجد بعض السلوى فى مسكن على السطح مع مجموعة لطيفة من عشر كلاب وخسة عشر قطا وبعض الغرابيب السود . وفى ١٧٤٥ أنقذته مدام دى بمبادور بمعاش ووظيفة عاطلة (يقبض راتباً ولا يؤدى عملاً) ، واتخذت التدابير الطبع مجموعة أعماله فى مطبعة الحكومة . وقصد إلى فرساي ليقدم لها الشكر . ولما كانت هى مريضة ، فقد استقبلته وهى ملازمة الفراش ، فلما انحنى ليقبل يدها دخل لويس الخامس عشر ، فصاح ابن السبعين « مولاتى ، لقد وقعت الكارثة ، إن الملك فاجأنا معا » (١٢٥) . وسر الملك برمضة الذكاء وسرعة البديهة وانضم إلى بمبادور فى حته على إكمال روايته « كاتيلين وكان قد أهملها وشهدتها مدام بمبادور والحاشية ، ونال العرض الأول الاستحسان (١٧٤٨) . واهتز كريبون طويلاً من جديد لما أصاب من شهرة ومال . وفى ١٧٥٤ وهو فى الثمانين أخرج آخر رواياته . وعمر بعد ذلك ثمان سنين ، سعيداً بحيواناته ، ولم يطب فولتير نفساً بظهور منافس له من بين القبور ، ولكن كان عليه أيضاً أن يواجه فى الملهاة منافسه ماريغو المتعدد الجوانب الشديد الانفعال إن بيير كارل دى شمبلين دى ماريغو أصبح هجاءاً حين رأى بمحض الصدفة ، حبيبته ذات السبعة عشر ربيعاً تطبق عملياً مفاتها المغرية أمام المرأة . ودق قلبه مؤقتاً فقط ، لأن والده كان المدير الثرى لدارسك النقود فى ريوم ، وكب من شابهه أو غادة تاقت نفسها لتكون زوجة بيير . وتزوج من أجل الحب ، وأدهش باريس حين عاش حياة جنسية طابعها الرصابة والاعتدال . وانضم إلى صالون مدام دى تنسان ، وربما تعلم فيه الدعابة المرحة ، والعبارة الرشيقة والإحساس الرقيق ، وانتقل كل أولئك إلى رواياته ، وتميزت به مسرحياته .

وأول نجاح لإصابة ماريانو هو رواية « آرليكان يصقله الحب » التي عرضت لمدة اثنتا عشرة ليلة متوالية على « مسرح الايطاليين » ١٧٢٠ . وبقدر ما كان يحصل عليه من أجور ، فقد معظم أمواله عند انهيار بنك لو . ويروى إنه اسرد ثروته بقلمه (١٣) ، حيث كتب سلسلة من رواياته الملهاة (السكوميديا) أمتعت بارييس بمرحها اللطيف وحبكاتها البارعة ، وأشهرها « لعبة الحب والحظ » . وقد هاجمت اعترام زوجين (أربعة أشخاص ، رجلا وامرأتان) اعتراما متزامنا ، ولكن غير متفق عليه ، أن يختبرا اخلاص الخطيب الذي لم تقع عليه العين بعد ، عن طريق تبادل الزى والشكل بين سيد وخدام وسيدة وخدامة ، في سلسلة من المصادفات السخيفة المضحكة ، مثل مندبل ديدمونة (في رواية عطيل) . وسر نساء بارييس أكثر مما سر رجالها بالمآزق التي يتورط فيها الحب في هذه الرواية وبما فيها من عاطفة رقيقة . وهنا أيضا كما هو الحال في قصر قرساي ، وفي المصالونات ، وعند واتو وبوشيه ، تحكمت المرأة ، وكان لها القول الفصل ، وحل تحليل المشاعر محل مشاكل السياسة وبطولات الحرب ، وتحلت الملهاة الرجولية عند مولبير عن مكانها أمام الملهاة الانثوية التي سيطرت على المسرح الفرنسي (معترضة الطريق) إلى أيام سكراب وديماس الابن وساردو .

٣ - القصة الفرنسية

إن ماريانو هذا هو نفسه الذي أضفى على القصة في فرنسا شكلا جديدا . وفي ١٧٣١ أصدر الجزء الأول من « حياة ماريان » . وتقبلها القراء قبولا حسنا . واستمر يقدم أجزاء أخرى حتى عام ١٧٤١ ، حتى بلغت أحد عشر جزءا ، ولم يكملها (ولو أنه عمر حتى عام ١٧٦٣) ، لأن هدفه لم يكن أن يقص حكاية بقدر ما كان أن يحلل شخصية ، وبالذات شخصية المرأة ، وبصفة خاصة في الحب . ولم يكن ثمة شيء رائع أخاذ أكثر من المشهد الافتتاحي ، عصابة من اللصوص تسطو على مركبة للبريد والمسافرين ، وتقتل كل من فيها ، باستثناء ماريان التي عاشت لتقص القصة في شيخوختها .

وتحتفظ البطلة والمفروض أنها مؤلفة القصة ، بعدم ذكر اسمها ، وهذا عمل كيدى ، إلى النهاية . وتشمل المخطوطة إلى صديق لها مع تحذيره « لا تنس أنك وعدتني ألا تبوح باسمي أبدا ، أنا أو د ألا يعرفني أحد إلا أنت . » (١٤)

ولما كان أبوها من بين الضحايا . فقد ثوى تربيتها رجل برجوازي محسن كريم . حتى أصبحت بائعة في محل لبيع ملابس النساء . وازدادت فتنة وجمالاً إلى حد أثار مسيو دى كليمال . وسار يقدم لها هدايا صغيرة ثم هدايا ثمينة ، وأخيراً طلب يدها جراً ما تقدم . ولكنها رفضته . وأعدت إليه هداياه بعد ترددات يصفها ماريفو في ذكاه لطيف . وكان جديراً بنا أن نقول إنها في نفس الوقت كانت قد التقت بابن أخي كليمال . وهو مسيو دى فالجيل ، الذي كان أقل من عمه مالا وأصغر سنًا . ومهما يكن من أمر فإن فالجيل يترك ماريان معلقة . لما يقرب من ألف صفحة . وينصرف إلى سيدة أخرى . وهنا ختام قصة مارييم .

تلك هي القصة النفسية في فرنسا القرن الثامن عشر . التي لم تناقشها إلا قصة « اتصالات خطيرة » التي كتبها تودرلوس دى لا كلوس (١٧٨٢) . إنها أعادت إلى الأذهان قصة مدام دى لا قايت « الأميرة دى كليف (١٦٧٨) ، ولو إنها تكاد لا تعادلها في رقة الشعور وجمال الأسلوب ، ولكنها بزتها في تحليل الدافع والعاطفة . وهما نجد امرأة ، مثل بامبلا عند ريتشاردسن ، تحتفظ بشرفها لأهيمته في سوق الزواج ، إنها تدرك أنه ليس لدى المرأة إلا قيم هزيلة فانية . لتقدمها تأبيداً لأساذبة الزواج للرجل الذي يتجه إلى تعدد الزوجات . ونلك صوت « آخر نهدينا من الصورة التي أخرجها ريتشاردسن . الذي بدأ قصة بامبلا بعد تسع سنين من ما بان وربما تأثر بها . وفي مقابل ذلك نجد أن قصة ريتشاردسن « كلاريس » (١٧٤٧) ساعدت روسوني « هلواز الجديدة » .

وعكس ماريفو خلق الطبقة المتوسطة القوي الحدب . على حين أروع كريبون الابن بفسق الأرستقراطية وفجورها الطائش . وكانوا يطلقون

عليه كربيون المرح « تميزا له عن أبيه » كربيون المكتتب ، (الذى قال عن ابنه إنه أسوأ إنتاجه الكبير) . نشأ كلود بروسير جولبوت دى كربيون فى باريس فى عصر الوصاية الذى رجحت أخلاقه التعليم الجزويتى الذى تلقاه كلود ، ولعدة سنين شارك أباه سكنه فوق السطح وغربانه وكلابه وقططه . وفى ١٧٣٤ وهو فى السابعة والعشرين اشهرته قصته « المنزلق على السطح » . ومن الجائز أن يكون هذا لقب كل أبطاله وعنوان كل كتبه ، لأن الحب فيها - كما قال شامفورت - هو مجرد « ملامسة سطحين »^(١٥) . ووقعت أحداث القصة فى اليابان ، ولكنها كانت نقداً لاذعاً أو هجاءاً صريحاً للكنيسة والدولة فى فرنسا ، والدوقة دى مين الصغيرة (الفتاة الجميلة) ، إلى حد أن الكاردينال فليرى أبعد الكاتب - كلود كربيون - عن باريس لمدة خمس سنوات .

ولما عاد المؤلف أصدر فى ١٧٤٠ اسوأ رواياته سمعة « الأريكة » ، وقد أبعد من أجلها أيضا ولكن لمدة أقصر . ووقعت الأحداث فى « أجرا » ولكن الأخلاقيات كانت باريسية . إن السلطان قولاه الضجر والسأم ، ويريد قصصا يسرى عنه . ويتفضل رجل الحاشية الشاب أمازرى ، فى روى كيف أنه تجسد فى ماضى من الزمان على هيئة أريكة ، ويعود بذكرته إلى بعض الخطايا التى ابتلى بها زيرك الأريكة . وتعاقبت أحداث الزنى فى تفصيل متزايد . ووجد كربيون متعة بالغة فى قصته (Almohid and Mochles) وهما بعد أن أطنيا فى التفاخر بعفتها وطهارتهما ، يعترفان بأن أفكارهما غير عفيفة مثل سلوك سائر البشر ، ويخلصان إلى أنه لا يمكن أن يكون فى الفعل لئم أكبر منه فى التفكير ، ومن ثم فانهما يراهما بين الفعل والقول . وتلك ، على أية حال ، استثنائية . فان نساء كربيون يتطلبين عادة جزاء (عملا) ماليا عن أقوالهن ، ومن ثم أحصت « أمينا » بعناية ما حصلت عليه من مال ، ولم تستجب لرغبة حبيبها إلا بعد أن تأكدت كل التأكد إنه لم يخطئ فى العملية الحسابية . (١١)

ولقى الكتاب ما كان مقدر له من نجاح . ووجد قراء فى عدة لغات

أسرفت كلها في تصرفات شاذة . واعترف لورنس ستيرن بأنه تأثر بقصص كريبون . وفضلها هوراس وولبول على قصص فيلدنج . وكان مفهوم الرجل الفاضل العفيف توماس جراى عن الجنة والنعم « أن يقرأ إلى الأبد قصصا جديدة من تأليف ماريغو وكريبون » (١٧) . وجاءت من إنجلترا على عجل السيدة هنريتا ستافورد ، وأصبحت خليلية كريبون ، وأم ولده ، ثم زوجته ويروون أنه جعل من نفسه زوجا مثاليا لها (١٨) . وفي ١٧٥٢ انضم إلى الكسيس بيرون وشارل كولى فى تأسيس « الكاف - الكهف » وهو ناد للموهبين المرحين الذين اشتهروا بالبعد فى الوقار والمزاح . وفى ١٧٥٩ عين « بدليل الخلف » رقيباً ملكياً على الأدب . ولما توفى والده فى ١٧٦٢ ، بعد أن أبطأ به الموت إلى حد مثير ، ورث ابنه معاشه . « والأمور بخواتيمها » .

وفقدت كتب كريبون شعبيتها قبل وفاته بزمن طويل . ولكن فى الوقت نفسه كان أحد رجال الدين العلماء المتقنين قد كتب قصة لا تزال حية مؤثرة إلى يومنا هذا . وكانت حياة أنطوان فرنسوا بريفوست دى أجزيل . المعروف باسم الراهب بريفوست ، متعددة الألوان مرهقة مثل سير الحياة التى أبدعها قلمه . إنه ولد فى أرتوا فى ١٦٩٧ ، وتعلم فى مدارس اليسوعيين ، ثم أصبح راهبا مبتدئا فى طائفة اليسوعيين (١٧١٣) . وتركهم ليلتحق بالجيش ، وارتقى إلى رتبة ضابط ، ووقع فى شرك الحب . وخاب فيه أمله ونحطم قلبه ، وأصبح راهبا بندكتيا (١٧١٩) ، ثم قسيسا ١٧٢٦ ، وقد يبعث على الدهشة والعجب أن نقول إنه منذ ذلك الوقت اعتمد فى حياته كل الاعتماد على قلمه .

وكان بريفوست ، حتى قبل أن يهجر حياة الدير ، قد كتب قصة رومانسية « مذكرات ومغامرات رجل ذى حيثة » ، نشرت الأجزاء الأربعة الأولى منها ١٧٢٨ فى باريس ، وبعد عام قضاه فى إنجلترا قصد إلى هولنده ، وفى ١٧٣٠ بدأ ينشر قصة ثانية « الفيلسوف الانجليزى ، أو تاريخ مستر كليفلند ، الابن الطبيعى لكروامول » وهى من أوائل القصص التاريخية .

وكتبها في ثمانية مجلدات في السنوات التسع التالية . وفي ١٧٣١ نشر المجلدات الخامس والسادس والسابع من « المذكرات » سالفة الذكر ونشر المجلد السابع على حدة في باريس ١٧٣١ تحت اسم « مغامرات الفارس دى جرييه ودى مانون ليسكو » (تأليف مسيود) . وحظرت الحكومة الفرنسية تداوله ، ومن ثم أقبل عليه الناس اقبالا شديدا متزايدا . ويقال « إنه في باريس لقي رواجاً كبيراً ، وتهافت الناس عليه كما يندفعون إلى النار » (١٩) وقصة مانون موضوعة في قالب قبيح غير مصقول من التظاهر والإدعاء ، فثمة اثنتا عشرة بغيا في مركبة في طريقهن إلى ميناء الهافر لترحيلهن إلى أمريكا . والمركيز - الرجل ذو الحيشة المجهول ، والمفروض أنه يدون المجلدات السبع من المذكرات ، يأسر قلبه جمال إحدى الفتيات التي وصف وجهها فيما بعد « بأنه يمكن أن يعيد العالم إلى الوثنية » (٢٠) . ويرى كذلك فارس دى جرييه البائس الوحيد الذق يحدق النظر باكيا في خليلته السابقة ، مانون ، ويستبد به الحزن والأسى لأنه مفلس ولا يستطيع أن يتبعها إلى منفاها ، وتنحرك مشاعر المركيز ويتأثر تأثرا مزدوجا فيعطى دى جرييه أربعة جنبيات ذهبيا ؛ مكنت الفارس من مصاحبة مانون إلى لويزيانا . ويراه المركيز في كاليه بعد ذلك بعامين ، ويأخذه إلى داره . أما بقية المجلد الصغير فهي رواية دى جرييه لقصة حبه .

وكان شابا نموذجيا كريم الخلد ، مبرزاً في كل شيء في الكلية في اميان ، وكان في عزم أبويه أن يلحقاه بطائفة الفرسان في مالطة . وفي غمرة آمالهما العريضة « جعلاني أضع الصليب » (٢١) . ولكن مانون مرت أممي ودخلت حياتي ، وتغير كل شيء . وكانت آنذاك في الخامسة عشرة وهو في السابعة عشرة ، « ولم تكن قد تنهت بعد إلى الفرق بين الجنسين » • وعجل هو هذا التطور المكبوت على الفور . وتبلغه مانون أنها أرسلت إلى اميان ضد رغبتها لتندمج في سلك الراهبات ، فيعرض عليها أن يخلصها من هذا ، ويهربان إلى باريس ، وبدا أن اعجابهما المتبادل كان عقداً وميثاقاً كافياً ، وتحللنا من مراسم الكنيسة ، ووجدنا أننا أصبحنا رجلا

وزوجة ، دون أن نفكر في هذا أو نتنبه له ، ويكشف أخوه أمره ويقبض عليه ويعيده إلى والده الذى يخبره بأن مانون أصبحت بالفعل خلية السيد « ب » أحد رجال المصارف . ويرى دى جرييه أن يذهب ليقتل السيد « ب » فيحبس الوالد ابنه ، ويأتى أحد الأصدقاء تيرج ، ويؤكد الزعم بأن مانون خلية السيد « ب » ويحث دى جرييه على الانتظام فى سلك الكهنوت ، ويلتحق الشاب بمعهد سان سلبيس اللاهوتى ، ويصبح راهبا . وظننت أنى تطهرت تماما من دنس الحب ، ويذهب بعد عامين لحضور إمتحان عام ومناظرة فى السوربون ، فيفاجأ بمانون بين الحاضرين ، وتشقى هى طريقها إليه ، وتتعرف بخيانتها ، ولكنها تقسم انها لم تقترف الخطيئة مع السيد « ب » إلا لتوفر المال لدى جرييه . ويهربان من جديد .

ويتخذ الحبيبان مسكنا فى ضاحية شبو ، ويعيشان حياة باذخة على مبلغ الستين ألف فرنك الذى حصلت عليه مانون من السيد « ب » . ويأمل دى جرييه بعد فصله من سلك الرهبنة وعودته إلى الفروسية ، أن يحصل من أبيه على الصفح والمال أو أن يرث مال أبيه بعد موته . ويسطو عليهما أحد اللصوص فيسلبهما مالهما . ويجدان أنهما أصبحا معدمين بين عشية وضحاها . وأدركت آنذاك أن الإنسان قد يحب المال دون أن يكون بخيلا . . . لقد عرفت مانون . . . ومهما كانت مخلصة وفيه مغرمة فى وقت الرخاء ، فلا يمكن الاعتماد عليها فى وقت الشدة . إنها اهتمت كثيرا بالمتعة والثروة لتضحى بهما من أجله (٢٢) . وهو يحبها أكثر من حبه للشرف . ويسمح لانخوتها أن يعلموه الغش فى لعب الورق فيكسب بعض المال ، ولكنه يتعرض للسرقة مرة أخرى . وتهجره مانون إلى رجل فاجر عجوز ثرى ، وتركت له رسالة تقول فيها « إنى أعمل لأجعل فارس غنيا سعيدا » . وينضم إليها فى مؤامرة لايتراز المال من هذا الرجل العجوز ، وينجحان ويختفيان ثم يقبض عليهما ، وتوضع هى فى الملاجأ العام باعتبارها بغيا ، ويرسل هو إلى الدير . ولكنه يهرب منه باطلاق النار على حارس البوابة : ويقترض نقودا ويرشو القائمين على الأمر فى الملاجأ ليسهلوا لمانون سبيل الهرب ، وتقطع على نفسها عهدا بحبه إلى الأبد .

ولما نفذ رصيدهما من المال ، أجازت لوريث غنى أن يتخذها خليعة ، ويقبض عليها ثانية ، ويقنع والد جرييه السلطات الرسمية بترحيلها ويحاول دى جرييه انقاذها في الطريق ، قلما عجز عن ذلك أبحر معها إلى نيو أورليانز ، وهناك تعلمت أن تحتل مرارة الفقر ، وأن تكون مخلصه كل الاخلاص لدى جرييه ، ويعودان إلى ممارسة الشعائر الدينية ، ولكن ابن حاكم المستعمرة يهيم بجبا . ولما كان مانون ودى جرييه قد أهملوا أن يعقدا عقدا شرعيا بالزواج ، فإن الحاكم مارس حقه في أن يزوجها من أى فرد في المستعمرة ، ومن ثم أمرها أن تقبل ابنه زوجا لها . وارى دى جرييه لابن قتيلا في مبارزة ، ويهرب الحبيبان إلى الفياي والققار سيرا على الأقدام . وبعد مسيرة عدة أميال مرهقة ، تسقط مغشيا عليها وتفارق الحياة ، «وقضيت يومين وليلتين لا تفارق شفتاي وجه عزيزتي مانون ويديها» . وحفر بيديه جدنا لها ويوارىها التراب ، ويرقد على القبر ليقضى نحبها هو الآخر . ولكن صديقه الطيب تيرج ، الذى قدم في نفس الوقت من فرنسا ، يعثر عليه ، ويصحبه ثانية إلى كاليه ، إلى المركز ليروى حكايته .

وأصبحت «مانون ليسكو» معنا لا ينضب لقصص حب مبلة بالدموع . فإن أية امرأة ، ولو لم تكن «محطمة القلب» تدرى الدمع على موت مانون وحزن دى جرييه ، مغتفرة لها حيلها المالية ، وله جرائمه الخسيسة . وضرب بريفوست على نعمة جديدة حين نسب إلى بطله وبطلته أخطاء كثيرة إلى هذا الحد ، وجعلها أخطاء حقيقية ، حين كشف عن حب مانون الطاغى للذة والمتعة ، وقدرة حبيبها على التطفل والغش والسرقة والقتل . وهى طراز عتيق للبطلة ، وهو بالتأكيد مثال جديد للبطل . وربما بلغ الكتاب قدرا أكبر من القوة لو أن دى جرييه ترك ليوت على قبر مانون ☺

وربما روى بريفوست القصة بمثل هذا الاحساس والعاطفة لأنه هو نفسه كان لديه الحماسة والغيرة اللتان تجلتا في دى جرييه . ومن ثم كانت

القصة سيرة حياته قبل أن تكون حادثا . ولم يكن تافها متطفلا ، ترجم إلى الفرنسية روايات ريتشاردسن الثلاث الضخمة ، وزادت تلك الترجمات من تهافت فرنسا على ريتشاردسن ، وهو تهافت كان له مظهر مختلف عند روسو وديدرو . وترجم كتاب مدلتون « حياة شيشرون » ، وكتاب هيوم « تاريخ إنجلترا » ، وكتب عدة قصص أقل شأنا ، وعدة مجلدات عن « التاريخ العام للرحلات » . وفي امسترا في ١٧٣٣ ، وقع في غرام عشيقه رجل آخر . ولما نعى إليه أن البندكتيين استصعدوا أمرا بسجنه ، هرب إلى إنجلترا مصطحبا هذه السيدة معه . وفي لندن كسب عيشه بإعطاء دروس خاصة . وفي ١٥ ديسمبر قبض عليه بتهمة قدمها ضده أحد تلاميذه بأنه زيف ورقة نقدية من ذات الخمسين جنيها - وهي جريمة عقوبتها القانونية الاعدام . وسرعان ما أطلق سراحه لأسباب مجهولة . وعاد إلى فرنسا (١٧٣٤) وانضم من جديد إلى طائفة البندكت . وفي ١٧٥٣ عين في دير سان جورج - دي جين .

وأدى موته بعد عشر سنين من ذلك إلى أسطورة ترونها حفيدته بييف لسانت بييف وكأنها حقيقة ، تلك هي أنه أصيب بالسكتة أثناء سيره في غابات شانتيلى ، وأن طبيبا ظن أنه مات فقام بتسريحه ليغف على سبب الوفاة ، وأن بريفوست كان لا يزال حيا ، ولكن فحص الجثة هو الذى أودى بحياته (٢٣) . هذه القصة مرفوضة اليوم بصفة عامة (٢٤) .

وكان تأثير بريفوست كبيرا . إنه أسهم في تشكيل رواية روسو « هلواز الجديدة » ، وحرك ديدرو الحاد الذهن الرقيق القلب ليكتب مسرحيات باكية عاطفية . كما اتخذ هذا التأثير انجها مثاليا في قصة « بول وفرجينى » للكاتب برناردين دي سانت بيير . وبرز التأثير من جديد في « غادة الكاميليا » لديماس الابن . ولعبت دورا في الحركة الرومانسية ، إلى أن قدم فلويرت « مدام بوفارى » (١٨٥٧) . ولا تزال مانون نجيا وتموت في الأوبرا .

٤ - حكام أقل شأنا

ونعود إلى الكلام عن راهب آخر ، وينبغي علينا في هذه المرة أن نوفيه حقه . فقد رأينا كيف أن شارل إيريني كاستل راهب سان بيير ، روع الدبلوماسيين في أوترخت بكتابه « مذكرة في حفظ السلام على الدوام » . (١٧١٢) . وهي التي أسرت لب روسو وكان كلاهما كما رأينا ، يعرض على نادى « أنترسول » خليطا من أفكار واصلاحات تقدمية إلى حد أن الكاردينال فليرى أحس بأنه مضطر إلى اغلاق النادى انقاداً للدولة (١٧٣١) . فلماذا كانت هذه الأفكار ؟

إن شارل هذا ، على غرار كثير من الثائرين المتمردين ، قد اكتسب ذهنه حدة ومضاء بفضل التعليم اليسوعى . إنه لم يطل به الوقت لي طرح العقيدة السائدة جانبا ، وعلى الرغم من إنه ظل يعلن اعتناقه الكتلركة ، فإنه ألحق بها أذى ماكرا في « مقالة ضد الإسلام » ، حيث أن ما أورد فيها من حجج - مثل فولتير في كتابه « محمد » - يمكن تطبيقه بسهولة على المسيحية التقليدية . وواضح أن « تفسيره المادى » للمعجزات المزعومة التي قال بها البروتستانت والمنشقون والمسلمون ، قصده به بالمثل التشكك في المعجزات الكاثوليكية .

وفى ١٧١٧ ثم فى ١٧٢٩ أعاد نشر « مشروع السلام الدائم » بعد التوسع فيه . وناشد ملوك أوروبا ، ومن بينهم سلطان تركيا ، أن يعقدوا ميثاقا مقدسا يمكن أن يكفل بالتبادل ممتلكاتهم الحالية ، وأن تنبذ الحرب وسيلة لتسوية الخلافات الدولية ، وأن يخضع هذه الخلافات لاتحاد أوربي تكون له قوة فرض قبول القرارات التي يصدرها . وصاغ نموذجا لدستور لهذا الاتحاد ، مع القواعد التي يمكن اتباعها في إجراءات اجتماعات هذا الاتحاد . وحدد الانصبه المالية التي تخصصها كل من الدول الأعضاء للاتحاد ، ولم يكن أحد ليتوقع تنبؤه بأن مؤتمر فيينا ١٨١٥ ، سيشكل ، على إهذه الأسس « حلقة مقدسا » للقاء دوما على النظم الملكية والاقطاعية ، وإخماد الحركات الثورية .

ولم يكن ثمة صعوبات يمكن أن تزعزع ثقة الراهب المرن السريع التكيف ، فأقر . في عبرة دينية الإيمان بالتقدم ، وفي كتابه « ملاحظات على التقدم المستمر في العقل العالمي » (١٧٣٧) أعلن ، قبل كوندوروسيه بزمن طويل ، إمكان بلوغ الجنس البشرى مرتبة الكمال غير المحدود بفضل قوة العقل في رجال العلم والحكومات . إنه فوق كل شيء قال وهو مستغرق في التفكير والتأمل ، بأن الجنس البشرى وفقاً لمراجع موثوقة ، لا يزيد عمره على سبعة أو ثمانية آلاف سنة ، ومن ثم فإنه لا يعدوا أن يكون في مرحلة « طفولة العقل » ، فما الذي لا نتوقعه منه في شبابه النشيط بعد ستة آلاف سنة ، وفي الازدهار الرائع في مرحلة نضج الجنس البشرى بعد مائة ألف عام من الآن ؟ (٢٩) .

إن سان بيير تنبأ بمشكلتنا الحديثة : تلك هي أنه بينما خطت العلوم والمعرفة خطوات واسعة في طريق التقدم ، لم يحدث في مجال الأخلاق أو السياسة تقدم متكافئ مع تلك الخطوات ، إن المعرفة تزود الرذيلة بالوسائل والأدوات بقدر ما تهذب الأخلاق وتعمل على تنويرها . وكيف ننحو بنمو المعرفة نحو تقويم أخلاق الأفراد والأمم ؟ وفي رسالته « مشروع لتحسين أوضاع حكومات الدول والبلوغ بها إلى درجة الكمال » (١٧٣٧) اقترح سان بيير تأسيس « أكاديمية سياسية » تتألف من أعظم الرجال عقلاً وحكمة في البلاد ، تكون بمثابة هيئة استشارية للوزراء في الدولة في كل ما يتعلق بالإصلاح الاجتماعي والخلقي . وقدم عدة اقتراحات محددة : تعليم عام تحت إشراف الحكومة (لا الكنيسة) ، تسامح ديني ، زواج رجال الدين ، توحيد القوانين الفرنسية ، قيام الدولة برعاية الصالح العام والنظام الاجتماعي ، وأخيراً زيادة الإيرادات القومية عن طريق الضرائب التصاعدية على الدخول والتركات (٣٠) . وفي ١٧٢٥ أضاف الراهب إلى اللغة الفرنسية لفظة « الإحسان أو عمل الخير » ليميز الروح الإنسانية التي آثرها على الصدقات التي تقترن بفكرة التنازل والتلطف في النظام القديم . ووضع قبل هلفشيوس وبنتمام بزمن طويل مبدأ المنفعة : ذلك « أن قيمة أى كتاب

أو قاعدة أو نظام أو عمل عام تقاس بعدد وعظمة الملدات والمتع الفعلية التي تحققها ، وما ينتظر أن تحققها في المستقبل ، لأكبر عدد من الناس (٢٧) .
وبدا معظم الأفكار الأساسية عند الفلاسفة استهلالاً أو مقدمة لسان بيير ، بل للأمل في ملك مستنير . كعامل من عوامل الإصلاح . وكان سان بيير بكل بساطته وسداجته واطنابه ، أحد الأذهان التي حملت بدور عصر الاستنارة .

ولا بد أن شارل بينو ديكلوس قد ازدري الراهب سالف الذكر لأنه خيالي وأهم لا يتفق مع ذهن واقعي . ولد في دينان بمقاطعة بريتانى ، واحتفظ حتى النهاية بالشخصية الجادة الحذرة العنيدة التي تميز بها البريتون . وكان ابناً لوالد برجوازي ميسور والدة ماتت في السنة الأولى بعد المائة ، فاستطاع أن يقضى شبابه الطائش في باريس في عهد الوصاية . وتلقى تعليمه العالى عند اليسوعيين وبنات الهوى ، وانغمس في حماقات الشباب أيما انغماس . وزاد من حدة ذكائه في المقاهى ، ومكنت له شهرته بسرعة البديهة من ارتياد المجتمع والصالونات ، وزاد من شهرته بقصة « تاريخ البارونة دى لوز » (١٧٤١) التي كادت أن تكون اتهاماً لله . إن البارونة تصد كل هجوم على أمانتها الزوجية ، ولكنها تستسلم لحاكم فاسق فاسد ، لتنفذ حياة زوجها المتورط في مؤامرة ضد الملك . وتغتصب البارونة مرتين . وفي سورة غضب جنونى تصرخ « أيها الرب القاسى ، كيف استمتع كراهيتك لى هل لأن الفضيلة كريهة لديك ؟ (٢٨) » .

وعلى الرغم من مغزى هذا الكتاب وما تضمنه من إثارة جنسية انتخب ديكلوس للأكاديمية (١٧٤٦) بفضل نفوذ مدام دى بمبادور . واشترك بحيوية ونشاط في أعمالها ، وأعاد تنظيمها ، وربط بينها وبين أدب العصر وفلسفته ربطاً بعث فيها الحياة . وفي ١٧٥١ خلف فولتير في وظيفة مؤرخ لملك وفي ١٧٥٤ سعى لانتخاب دالمبرت لعضوية الأكاديمية ، وفي ١٧٥٥ انتخب سكرتيراً دائماً لها ، وظل الروح المسيطرة عليها حتى وفاته . وكسب الأكاديمية إلى جانب الأفكار المتحررة . ولكنه رثى وأسف لتهور دى هولباخ

هلفشيوس وديدرو « إن هذه العصبية من الملحددين الصغار سوف تنتهى باقتيادى إلى كرسى الاعتراف » .

وإنا لنذكره بصفة خاصة من أجل كتابه « نظرات في الخير والشر في هذا القرن » (١٧٥٠) وهو يتضمن تحليلاً هادئاً دقيقاً مفصلاً عن الأخلاقيات والشخصية الفرنسية . وكتبه قبل أن يبلغ الخامسة والأربعين ، واستهله بوقار حكيم تحريف « لقد عشت ، وأود أن أعيش لأكون ذا نفع لمن سيعيشون » . ويأسف « لأن أعظم الشعوب حضارة ومدنية ليست كذلك أكثرها تمسكا بالفضيلة » : إن أسعد الفترات هى تلك التى لا تعتبر فيها الفضيلة حسنة أو ميزة ، وإذا بدأ اعتبارها كذلك ، فإن العادات بالفعل تتغير . وإذا أصبحت هدفاً للسخرية فتلك هى آخر مراحل الفساد^(٢٩) .

وفي رأيه أن « أكبر نقيصة فى الرجل الفرنسى ان له على الدوام شخصية شبابية ، ومن ثم فهو فى الغالب أنيس لطيف ، وقلما يكون راسخاً متزناً ، ويكاد لا يمر بسن النضج ، بل ينتقل من الشباب إلى عجز الشيخوخة فالرجل الفرنسى هو طفل أوروبا^(٣٠) - مثلما أن باريس هى ملعبها . ولا بتعاطف ديكلوس كل التعاطف مع عصر العقل الذى يحس أنه دوامة نعصف حوله » « لست متأكداً من إني أحسن الظن كثيراً بهذا القرن ، ولكن يبدو لى أن تخمراً معيناً فى العقل يتجه نحو التطور والنمو فى كل مكان^(٣١) » . إننا فى هذه الأيام ننتقد كثيراً فى عنف بالغ التحيز والتحامل وربما قضينا عليهما إلى حد كبير . إن التحيز ضرب من القانون العام السائد بين البشر . . . وفيما يتعلق بهذا الموضوع . لا أملك إلا أن أنحى بالألحمة على الكتاب الذين يريدون مهاجمة لخرافة (وقد يكون من البواعث النافعة الجلديرة بالثناء إذا تمت المناقشة على أساس

وأعقب هذا فى سنة ١٧٥١ « مذكرات لالقاء الضوء على النظرات » أما رسالة ديكلوس « مذكرات سرية عن حكم لويس الرابع عشر والخامس عشر لم تنشر إلا فى ١٧٩١ وترجم جزء منها إلى الإنجليزية تحت اسم مذكرات سرية عن عهد الوصاية .

فلسفى . فىقوضون أسس الأخلاق وىضعفون روابط المجتمع . . . والنتىجة المؤسسة لهذا على قرائهم ، هى أن ىصبح الشباب مواطنىن سىئىن ومجرمىن مخزىن ، وأن ىنتاب الشقاء الذىن ىتقدم بهم العمر (٣٢) .

وكان جرىم المراسل البارىسى للشخصىيات الأجنىبىة وواحدأ من كثرى ممن استاءوا من هذا التشهىر الرقىق بالفلسفة ، الصادر من رجل نهل من منابىع كثرىة « إذا كان المرء مجردأ من الشعور فاسد الذوق ، فلىس له أن ىتحدث عن الأخلاق ولا عن الفنون (٣٣) . ولكن جرىم كان ىزاحم دىكلوس فى الظفر بالخطوة لدى مدام دى اىبنائى ، وإن مذكرات هذه السىدة الرقىقة لتصور دىكلوس فظأ مستبدأ إذا تمكن ، شدىد التهور إذا غلب على أمره . ولكن جرىم هو الذى أعد هذه المذكرات للنشر . وإذا كان لنا أن نصدق هذه الصفحات العتىقة الباكىة فىن مدام اىبنائى طردت من بىتها هذا العربىد الخائىن . وهام رجل الأكادىمىة العلامة على وجهه بحثا عن مضامىع وأراض أخرى ، وأخىراً رحل عن هذا العالم وهو فى السابعة والستىن .

وكان لوك دى كلابىبر مركىز دى فوفىنارج أجدر بالحب . وفى سن الثامنة عشرة التحق بالجىش ثملا ىحب بلوتارك وبالطموح إلى ارتقاء مدارج المجد فى خدمة الملك . واشترك فى مغامرة المارىشال دى بل اىل المنكوبة فى حملة ىوهىا ١٧٤١ - ١٧٤٣ . وفى الانسحاب المهلك من براغ تجمدت رجلاه ، وحارب فى دتنجن ١٧٤٣ . ولكن اعتلت صحته إلى حد إنه ترك الجىش بعدها . وسعى إلى الحصول على منصب دىلوماسى ، وكاد أن ىظفر بىغىته بفضل مساعدة فولتير لولا أن مرض الجدرى شوه وجهه . وبدأ بعده ىضعف ، وانتابه سعال مزمن قتال أفعده عن ممارسة أى عمل .

وأصبحت السكتى مزاءه ، وشغله الشاغل . وكان ىقول « فوق كل شىء . إن أحسز الأءاء هى أكثرها شىوعا ، فىنك تستطىع أن تشترى من فولتير مقابل كرون واحد (٣٤) » وحذر من الحكم على الكتب بثقلها ، فىن ىحب المؤمن قد ىتحدثون أكثر مما ىنبغى وكثرى منهم غامضون

إلى حد يبعث السأم والضجر . والوضوح يزين التفكير العميق « (٣٥) . وكان مؤاذه الذى دفع به إلى المطبعة ١٧٤٦ يقع فى خمس وسبعين صفحة مقدمة فى التعرف على الروح الإنسانية » ، وأعقبه « ٦٠٧ من التأملات والحكم » فى ١١٥ صفحة . وبعد ذلك بعام واحد ، وفى فندق حقير فى باريس ، قضى نجه ، وهو فى الثانية والثلاثين ، وهو يمثل موزار وكيثس فى الفلسفة الفرنسية .

وقال فوفينارج « إن للفلسفة أمطاطها وأشكالها ، مثل الملابس والموسيقى والعمارة » (٣٦) « وقبل بضع سنين قليلة من اصفاء روسو المثالية على الطبيعة والمساواة ، صور فوفينارج « الطبيعة بأنها صراع وحشى من أجل الغلبة والسيطرة » ، و« المساواة » على أنها وهم وخداع : السائد بين الملوك ، وبين الشعوب ، وبين الأفراد ، أن الأقوى يرتب لنفسه حقوقا على الأضعف ، ونفس القاعدة متبعة بين الحيوانات والكائنات غير الحية ، وهكذا يجرى كل شىء فى الكون بالعنف . وهذا النظام الذى نعييه بشىء من شبهة العدل ، هو أعم وأثبت وأهم قانون فى الطبيعة (٣٧) .

إن كل الناس ولدوا غير أحرار وير مسويين .

ليس حقاً أن المساواة قانون من قوانين الطبيعة . إن الطبيعة لم تجعل الأشياء متساوية . إن قانونها الأساسى هو الاخضاع والتبعية ومن ولد ليطيع . فسوف يطيع حتى وهو متربع على العرش (٣٨) .

أما بالنسبة للارادة الحرة ، فهى أيضا أسطورة أو خرافة « فليست الارادة هى العلة الأولى لأى تصرف أو عمل ، بل إنها المنبع الأخير » . وإذا أوردنا المثل التقليدى على الارادة الحرة ، وهو أنك تستطيع أن تختار هذا أو ذلك أ أو ب « بمحض إرادتك » فإن فوفينارج يرد « لئى إذا اخترت ب فإن هذا بسبب أن الحاجة إلى الاختيار تقفز إلى تفكيرى فى اللحظة التى تجول ب بخاطرى فيها (٣٩) . والإيمان بالله أمر لا مفر منه ولاغنى عنه ، على أية حال . وأحس فوفينارج بأنه عن طريق هذا الإيمان وحده يمكن أن يكون للحياة وللتاريخ معنى غير الصراع الدائم والمزيممة فى النهاية (٤٠) .

وأبرز معالم فلسفة فوفينارج دفاعه عن العواطف ، ولا ينبغي القضاء عليها لأنها أصل الشخصية والعبقرية وكل قوة التفكير ونشاطه . « الذهن عين النفس المبصرة ، ولكن ليس قوتها ، لأن قوتها تكمن في القلب أى في العواطف . إن أكثر العقول استنارة لا يمدنا بالقوة على العمل والارادة^(٤١) والأفكار العظيمة تنبع من القلب وربما كنا مدينين للعواطف بأعظم منجزات العقل^(٤٢) . . . إن العقل والوجدان يستشير كل منهما الآخر ويكمله بالتناوب ، وهذا الذى يستشير أحدهما ويغفل الآخر ، إنما يحرم نفسه فى حمق وغباء من بعض الموارد التى منحنا إياها من أجل سلوكنا^(٤٣) .

وأقر فوفينارج أن حب الذات عام بين الناس ، ولكنه رفض اعتباره رذيلة ، حيث أنه الضرورة الأولى من ضرورات قانون الطبيعة الأول : حفظ الذات . كما أن الطموح ليس رذيلة ، بل إنه حافز « ان حب المجد والعظمة هو الذى يصنع ما تحرزه الأمم من تقدم ونجاح^(٤٤) . ويضيف أن المرء غير أهل للمجد والعظمة إذا لم يع قيمة الوقت^(٤٥) . ومهما يكن من أمر فإن هناك رذائل يجب أن تكبح جماحها القوانين والمبادئ الأخلاقية وإن فن الحكومة ليكمن فى توجيه هذه الرذائل إلى الخير العام^(٤٦) . وهناك أيضا فضائل حقيقية « إن أرلى أيام الربيع أقل روعة وفتنة من نمو الفضيحة فى الشباب^(٤٧) .

وعلى الرغم من تسليم فوفينارج بآراء هوبز ولاروشفوكو ، ومن تجربته للشر فى حياته ، فإنه احتفظ بإيمانه بالجنس البشرى . قال صديقه مارمونتل : « إنه عرف الحياة ولم يحتقرها . إنه ، وقد كان صديقا للناس ، اعتبر الرذيلة محنة وسوء حظ ، يبغى الناس بهما لا جريئة . وحلت الشفقة فى قلبه محل الاحتقار والبغض . . . إنه لم يذل إنسانا قط . . . إن هدوءاً لم يتبدل أخفى آلامه عن أعين أصدقائه . وما كنا فى حاجة لاحتمال المحنة ، إلا أن تكون لنا فيه أسوة حسنة ، فلنا ونحن نرى رباطة جأشه . ما كنا لنجرؤ على اظهار حزننا وشقائنا أمامه^(٤٨) .

ووصفه فولتير بأنه « أتمس الناس حظا وأكثرهم هدوءاً »^(٤٩) .

إن من أكرم مظاهر الأدب الفرنسي في القرون الثامن عشر . ذلك العطف
السايغ والعون الودى اللذين حبا بهما فولتير « نبي العقل » فوفينارج نصير
بسكال و « القلب » . إن الفيلسوف الشاب أعلن عن إعجابه « برجل يشرف
قرننا ، رجل لا يقل عظمة وشهرة عن أسلافه »^(٥١) . وكتب إليه الرجل
العجوز الأكبر منه سنا في لحظة من لحظات التواضع : « لو أنك كنت قد
رأيت التور قبل مولدك ببضع سنين ، فلربما اكتسبت كتاباتي قيمة أكبر^(٥١)
إن أفصح قطعة في مجلدات فولتير المائة هي ما قال في ثابن فوفينارج عند
تشريح جنازته^(٥٢) .

مونتسكيو ١٦٨٩ - ١٧٥٥

١ - الرسائل الفارسية :

وجد فولتير أنه من العسير عليه أن يحب مونتسكيو لأن مؤلفه « روح
القوانين » (١٧٤٨) اعتبر بصفة عامة أعظم إنتاج عقلي في هذا العصر .
وظهر الكتاب حين بلغ صاحبه التاسعة والخمسين ، وكان ثمره خمسين عاما
من التجربة والخبرة ، وأربعين عاما من الدرس والبحث وعشرين عام
قضاها في تأليفه .

ولد شارل لويس دى سيكوندا بارون دى لا بريد ودى مونتسكيو ،
في لا بريد بالقرب من بوردو وفي مقاطعة مونتاني ، في ١٨ يناير ١٦٨٩ .
وكان يفاخر مبهجا بأنه من سلالة هؤلاء القوط ، وهم الذين بعد أن غزوا
الامبراطورية الرومانية ، « أسسوا الملكيات وأقاموا صرح الحرية هنا
وهناك في كل مكان »^(٥٣) إنه انتسب على أية حال إلى « نبلاء السلاح
ونبلاء الرداء » كان أبوه كبير القضاة في جوين ، وكان الصداق التي قدمته
أمه قصر لا بريد وأرضها . وفي ساعة مولده تقدم إلى بوابة القصر رسائل
مسكين ، فأدخلوه وأطعموه وجعلوا منه عرابا للطفل (أى أباه في العباد) .
زعموا منهم بأن شارل لن ينسى الفقراء أبدا^(٥٤) . وترى طوال السنوات
الثلاث الأولى من عمره بين فلاحى القرية ، وأرسل في سن الحادية عشرة

إلى مدرسة طائفة الأورأتوريين في جويللي على بعد عشرين ميلا من باريس . . ثم عاد إلى بوردو في سن السادسة عشرة ليدرس القانون . وفي سن التاسعة عشرة حصل على درجته العلمية في القانون .

وفي ١٧١٣ مات أبوه ، وكان شارل آنذاك في الرابعة والعشرين من عمره ، تاركا له ممتلكات واسعة وثروة متوسطة . وكان يتحدث بصراحة عما « يملك من أرض وعن اتباعه » وسوف تراه تمسك بشسدة بالنظام الاقطاعي . وبعد ذلك بسنة دخل برلمان بوردو عضوا وقاضيا . وفي ١٧١٦ أوصى له عمه — الذي كان قد اشترى رئاسة البرلمان — بثروته ومنصبه ، وقد دافع مونتسكيو فيما بعد عن « بيع المناصب » باعتباره « عملا حسنا في الدول الملكية ، لأنه يجعل من واجب ابناء الأسرات العريقة أن ينهضوا بالمهام التي قد لا يحصلون عليها عن طريق الدوافع الزهية غير المغرضة وحدها^(٥٦) . وبينما كان يتولى رئاسة البرلمان قضى معظم وقته في الدرس والبحث ، فأجرى تجارب وقدم أبحاثا في الفيزياء والفسيولوجيا إلى أكاديمية بوردو ، وخطط « تاريخا جيولوجيا للأرض » لم يكتبه قط ولكن المادة التي جمعها له شقت طريقها إلى كتابه « روح القوانين » .

وكان في الثانية والثلاثين حين ملأ أبصار وأسماع باريس في عهد الوصاية بأروع كتبه . إنه أغفل ذكر اسمه على كتابه « الرسائل الفارسية » (١٧٢١) لأنه ضم بين دفتيه قطعا لا يليق صدورها عن قاض . وربما أخذ فكرته عن كتاب جيوفني مارانا « جاسوس السيد الكبير » (١٦٨٤) الذي نقل فيه جاسوس تركي وهمي للسلطان ، في براءة تلفت النظر ، عقائد المسيحيين الفاسدة وسلوكهم في أوروبا ، والمفارقات المضحكة أو القاتلة بين ما يعلنون وما يفعلون ، وثمة أسلوب شبيه بهذا في تصوير الحضارة الغربية كما يراها الشرقيون ، استخدمه اديسون في « سبكتاتور » . وكان شارل دفرسن في « تسليات جادة وهازلة » قد تصور تعليقات أحد أبناء سيام في باريس ، كما أن نيقولا جيودقيل كان قد أبرز العادات الفرنسية كما يراها أحد هنود أمريكا . وكانت ترجمة جالاند لكتاب « الف ليلة وليلة » (١٧٠٤ —

(١٧١٧) قد زادت من شغف الفرنسيين بالحياة الإسلامية ، كذلك فعلت المحاضرات المصورة عن رحلات سيرجون شاردان وجان تافرنيه . كما أنه من مارس إلى يولييه ١٧٢١ لفت السفير التركي أنظار باريس بفتنه زيه وأساليبه الغريبه . من أجل ذلك كله كانت فونسا مستعدة لتلقى « الرسائل الفارسية » . ويبيع من هذا الكتاب ثمان طبعات على مدى عام واحد .

وقدم مونتسكيو « الرسائل » على أنها مكتوبة بقلم ريكا وأوزبك ، وهما سائحان فارسيان في فرنسا . ومراسليهما في اصفهان . إن هذه الرسائل لم تعرض فقط نقاط الضعف والأهواء والتحيز عند الفرنسيين ، ولكنها كشفت أيضا عن حماقات السلوك والمعتقدات الشرقية من خلال الكتاب أنفسهم .

وحين يسخر القارئ من هذه العيوب والأخطاء ، فليس أمامه إلا أن يتقبل عن طيب خاطر السخرية من عيوبه وأخطائه هو . وقد مست هذه العيوب والأخطاء مسأ رقيقا . ومن ذا الذى يغضب لهذه الأفكار الساخرة غير المقصودة ، أو الطعنات بسيف مغلف بطريقة مهذبة ؟ وفوق ذلك تضمنت بعض الرسائل أسراراً أو رسائل شخصية سارة من حريم أوزبك في اصفهان . من ذلك أن زاكى أى محظيته ، تكذب لتبلة بما تعاني من آلام مبرحة لغيبابه عنها . كما أن ريكا تصف مفهوم سيده مسلمة عن اللجنة بأنها مكان يكون فيه لكل سيده فاضلة مجموعة من الرجال الواسمين المكتمل الرجولة ، وهنا يطلق مونتسكيو لقلمه العنان في سرد التفاصيل في أسلوب الطيش الذى اشتهر به عهد الوصاية .

وكان من غير المستطاع ، اللهم في فترة نخلو العرش هذه ، أن تتفادى الهرطقات السياسية والدينية في الرسائل عين الرقيب والمؤاخذه الرسمية . لقد قضى الملك القديم نجبه ، والملك الجديد ما زال صبيا ، والوصى رجل متسامح مرح مبهج . وعند ذلك استطاع مونتسكيو أن يجعل الفارسيين الذين أوردتهم في رسائله يسخرون من حاكم « ساحر » جعل الناس يعتقدون أن الورق نقود (كان نظام لو قد انهار .^(٥٧)) كما استطاع أن يفضح فساد

الحاشية ، ونحول النبلاء المبلدين وسوء إدارة أموال الدولة ، وأن يمتدح جمهوريات اليونان ورومة القديمة ، والجمهوريات الحديثة في هولنده وسويسرا . يقول أوزبك « أن الملكية نظام شاذ غير سوى ، ينزلق إلى حكم استبدادى مطلق » (٥٨) (انظر فيما بعد رأياً مخالفاً) .

وفي الرسائل من ١١ - ١٤ يوضح أوزبك طبيعة الإنسان ومشكلة الحكم بالتحديث عن سكان الكهوف (التروجلوديون) (٥) الذين يتمخيلهم عربا انحدروا من التروجلوديين الذين وصفهم هيرودوت (٥٩) وأرسطو (٦٠) بأنهم قبائل همجية عاشت في أفريقية (قبل التاريخ) . وكان تروجلوديو أوزبك يكرهون كل تدخل حكوى ، ومن ثم قتلوا كل حاكم مفكر ، وعاشوا في جنة من الحرية التامة « اتركه يعمل » واستغل كل بائع حاجة المستهلك ورفع سعر منتجاته . وإذا اغتصب رجل قوى زوجة رجل ضعيف ، فليس ثمة قانون أو حاكم يلجأ إليه . وأفلت القتل والاغتصاب والسلب والنهب دون عقاب ، اللهم إلا الاقتصاص الخاص بالعنف ، وإذا عانى سكان النجاد من الجفاف تركهم سكان الوهاد يموتون جوعاء ، وإذا عانى هؤلاء من الفيضان تركهم سكان النجاد يهلكون . ومن ثم فنيت القبيلة ، وبقي على قيد الحياة أسرتان بفضل الهجرة ، وتبادلنا العون ، ونشأتا أطفالهما على التمسك بالدين والفضيلة واعتبرتتا أنهما أسرة واحدة ، واختلطت قطعانها دائماً تقريباً . (٦١) ولما زاد عددهم وجدوا أن أعرافهم غير كافية - لحكمهم فاختروا ملكا وخضعوا للقوانين . وانتهى أوزبك إلى أن الحكومة ضرورية ولكنها تعجز عن تأدية مهمتها إذا لم تكن قائمة على الفضيلة في الحاكم والمحكومين . .

وكانت المرطقات الدينية في الرسائل أكثر ترويعا وتنفيرا من المرطقات السياسية . ويرى أوزبك أن الزوج يتصورون أن الاله أسود وأن الشيطان أبيض . ويوحى (مثل زينوفون) بأنه إذا كانت المثلثات تتحدث عن

(٥) قصد بهذه الكلمة في الأصل سكان الكهوف ، أى الذين يحفرون جحوراً ليقيموا فيها . مثل خصومنا السياسيين .

اللاهوت ، فلا بد أن للإله ثلاثة أضلاع وثلاث نقط حادة . ويعجب أوزبك من ساحر آخر يسمى البابا ، يحث الناس على الاعتقاد بأن الخبز ليس خبزاً وأن الخمر ليس خمرًا . وألف شيء من هذا الطراز .^(٦٢) ويسخر من الصراع بين اليسوعيين والجانسينيين . وأفزعته محاكم التفتيش في اسبانيا والبرتغال ، حيث « يتسبب الدومنيكان في إحراق الناس كما يحرق القش » .^(٦٣) ويسخر من المسابح وثياب الرهبان القمصاضة . وهو يتساءل كم تعمر البلاد الكاثوليكية في منافسة مع الشعوب البروتستانتية ، لأنه يرى أن تحريم الطلاق وعزوبة الراهبات والرهبان سوف يعوقان ازدياد السكان في فرنسا وإيطاليا واسبانيا (قارن إيرلنده في القرن العشرين) ويقدر أوزبك ، على هذا المعدل ، أن الكاثوليكية في أوروبا لن تعمر أكثر من ٥٠٠ سنة أخرى^(٦٤) (*) . أضف إلى هذا أن هؤلاء الرهبان الخاملين الذين يزعمون أنهم مستعصمون زاهدون يتولون على كل ثروة الدولة تقريباً ٥ لإنهم عصابة من البخلاء يأخذون دائماً ولا يعطون أبداً . إنهم باستمرار يكتزون دخولهم لتكون لهم مصدر قوة . وتصاب هذه الثروة بالشلل ، فلا تتداول ولا تستغل في التجارة أو الصناعة أو المصانع «^(٦٦) ويقلق أوزبك التفكير في أن كفار أوروبا الجهلة الذين يعبدون المسيح بدلا من عبادة الله والإيمان بحمده سيكون مصيرهم النار ، ولكن يراوده بعض الأمل في أنهم في النهاية سيعتقون الإسلام ويُنتقلون^(٦٧) .

وفي تخيل رمزي جليل يتأمل أوزبك في الإلغاء (١٦٨٥) مرسوم هنري الرابع للتسامح المعروف بمرسوم نانت .

أنت تعلم ياميزرا كيف أن بعض وزراء الشاه سليمان (لويس الرابع عشر) دبروا خطة لارغام الأرمن في فارس (الهيجونوت) على مغادرة المملكة أو الدخول في الإسلام (الكتلكه) ، اعتقادا منهم بأن امبراطوريتنا

(*) ذهب مونتسكيو في ١٧٢١ إلى أن عدد سكان أوروبا لا يكاد يبلغ عشر عدد سكانها في عهد الامبراطورية الرومانية^(٦٥) وأنه آخذ في التناقص ، وأن زواج أميركا سرعان ما يهلكون .

ستظل ملوثة مدنسة ما دامت تحتضن هؤلاء الكفار . . . إن اضطهاد مسلمينا الغيورين هؤلاء الكفار عبدة النار اضطهرهم إلى الفرار زرافات إلى الهند الشرقية ، وبذلك حرم فارس من هذا الشعب الجاد النشيط . ولم يبق أمام هذا التعصب الأعمى إلا شيء واحد هو تدمير الصناعة ، حتى تنهار لامبراطورية (فرنسا ١٧١٣) ، حاملة معها تلك الديانة التي أرادوا لها النهوض والتقدم .

وإذا كان الحوار الزيه غير المتحيز ممكنا ياميرزا ، فليست متأكدا من أنه من الخير للدولة أن يكون بها عدة ديانات مختلفة . . . والتاريخ زاخر بالحروب الدينية ، ولكن . . . ليس تعدد الديانات هو الذى أدى إلى الحروب ، بل روح التعصب الذى يشجع الديانة التى تعتقد أنها فى صعود (٦٨) .

إن الأفكار التى تضمنتها الرسائل الفارسية تبدو لنا الآن مبتدلة عتيقة . ولكنها كانت للمؤلف حين عبر عنها ، مسألة حياة أو موت ، وعلى الأقل مسألة سجن أو نفي . إنها الآن عتيقة لأننا كسبنا معركة الحرية فى التعبير عن الآراء . إن الرسائل الفارسية فتحت الطريق ، لهذا استطاع فولتير بعد ذلك بثلاث عشرة سنة أن يصدر « رسائل عن الانجليز » ويلقى ضوءا إنجليزيا على حطام فرنسا . وأعلن هذان الكتابان عن عصر الاستنارة . وعمر مونتسكيو وحريرته بعد كتابه ، لأنه كان من طبقة النبلاء ، ولأن الوصى على العرش كان متساعما ، كما ارتفعت بعض أصوات الاستنكار رسط التهليل والإعجاب ، ومع ذلك لم يجرؤ على الإفصاح عن اسمه وهو المؤلف . وذهب دارجنسون الذى انتقد هو نفسه الحكومة فيما بعد إلى أن « هذه تأملات وأفكار يستطيع أن يأتى بها رجل ذكى بسهولة ، ولكن ينبغى على الرجل الحصيف الخلد ألا يسمح بطبعها » . وأضاف ما ريفو الحريص « يجدر أن يضمن الإنسان بمجهوده فى مثل هذه الموضوعات » وقال مونتسكيو « عند ما حظيت إلى حد ما بتقدير الجمهور فقدت تقدير الطبقات الرسمية ، وواجهت ألفاً من ألوان الاستخفاف والاستهزاء » (٦٩)

وعلى الرغم من كل شيء قصد مونتسكيو إلى باريس ليرشف كؤوس

الشهرة في المجتمع وفي الصالونات . وفتحت له الأبواب مدام دي تنسان ومركزة لمبرت ومركيزة ديناند . ولما كان قد ترك زوجته وراعه في لا بريد فلم يكن من العسير أن يقع في شرك الغرام مع سيدات باريس . وتطلع إلى آفاق بعيدة ، فتاقت نفسه إلى ماري آن دي يوربون أخت الدوق دي بوربون الذي أصبح رئيسا للوزارة في ١٧٢٣ . ويروى من أنه ألف من أجلها شعراً منشوراً « معبد الحب » (١٧٢٥) عامراً بنشوة الوجد والهيام ، وخفف من وطأة خلاعة هذا الشعر بادعائه أن القصيدة مترجمة عن اليونانية ، ومن ثم حصل على ترخيص ملكي بطبعها . وبذلك المساعي وبخاصة عن طريق مدام دي رى ، لينضم إلى الأكاديمية ، فاعترض الملك بأنه غير مقيم في باريس . فأسرع إلى بوردو وتخلي عن رياسته لبرلمانها ، وانضم إلى مجمع الاربعين الخالدين (١٧٢٨) .

وفي أبريل قام برحلة استغرقت ثلاثة أعوام زار فيها بعض أجزاء إيطاليا والنمسا والجر وسويسرا وأراضى الراين وهولنده ، وإنجلترا . التي قضى فيها ثمانية عشر شهرا (نوفمبر ١٧٢٩ - أغسطس ١٧٣١) وهناك عقد أوامر الصداقة مع تشستر فيلد وغيره من وجوه القوم ، واختير عضوا في الجمعية الملكية في لندن ، وانضم إلى البنائين الأحرار (الماسونية) ، واستقبله الملك جورج الثاني والملكة كارولين ، وحضر جلسات البرلمان ، وأولع بما ظنه الدستور البريطاني . وعاد أدراجه إلى فرنسا شديد الإعجاب - مثل فواتير - بالحرية ، ولكن ما لمسه من مشاكل الحكومة زاد من رصانته واتزانه . وآوى إلى لا بريد ، وحول منزله إلى حديقة إنجليزية ، وتفرغ - فيما عدا زيارات طارئة إلى باريس - لأبحاثه وكتاباته التي شغلت بقية أيام حياته .

٢ - لماذا سقطت رومة

في ١٧٣٤ أصدر مونتسكيو ، دون توقيع ، ولكن معترف به عند الجمهور ، « نظرات في أسباب عظمة الرومان وسقوطهم » . وكان قد دفع بالخطوطة إلى عالم يسوعى ، ووافق على حذف ما يمكن أن يثير ريب الكنيسة . ولكن الكتاب لم يجد ، وما كان له أن يجد النجاح الذي صادفته

« الرسائل الفارسية » لأنه لم يتضمن أية بذاءات أو أية أشياء تجافى الاحتشام ، بل كان يعالج موضوعا قديما معقداً وكان محافظا نسبيا في سياسته ولاهوته . ولم يستنسخ المتطرفون (الراديكاليون) التوكيد على أن يكون الانحطاط الخلقي سببا للاضمحلال القوي ، ولم يكونوا مستعدين ليقدروا عمق التقدير الحكمة الرائعة في عبارات مثل « أن الذين لم يعودوا يرهبون القوة في مقدورهم أن يظلوا على احترامهم للسلطة » .^(٧٠) وتعتبر هذه الرسالة الصغيرة الآن محاولة رائدة في فلسفة التاريخ ، ورائعة من روائع النثر الفرنسي تعيد إلى الأذهان ذكرى بوسويه ولكنها تضيف الروعة إلى الوقار .

إن الموضوع جذب نظر المؤرخ الفيلسوف لأنه انتظم السلسلة الكاملة لحضارة عظيمة من الميلاد إلى الفناء ، وعرض في نظرة شاملة وتفصيل رائع لإحدى عمليات التاريخ الأساسية - وهي عملية الفناء أو الانحلال الذي يبدو أنه قدر محتوم أن يعقب كمال التطور في الأفراد والديانات والدول . وكان ثمة اشتباه في أن فرنسا بعد انقضاء القرن العظيم ، قد دخلت في فترة طويلة من الاضمحلال في الامبراطورية والأخلاق والأدب والفن . إن الثالوث المدنس : فولتير وديدرو وروسو - لم يكن قد بدأ بعد إنهم يتحدون التفوق الفكري والعقلي في القرن السابع عشر . ولكن جراءة العصر الجديد المتزايدة برزت في حقيقة أن مونتسكيو ، في ايضاحه وشرحه لجري التاريخ لم يدرس إلا الأسباب الأرضية ، وطرح جانبا في هدوء اللهم إلا لمحات من الإجلال الطارئ ، العناية الإلهية التي نجدها في كتاب بوسويه « بحث في تاريخ العالم » قد اتجهت بكل الأحداث إلى نتائج محتومة بقضاء هذه العناية الإلهية . ورأى مونتسكيو أن يفتش عن قوانين التاريخ ، مثلما كان نيوتن يبحث عنها في الفضاء : « ليس الحظ هو الذي يحكم العالم ، كما نرى من تاريخ الرومان . . . فثمة أسباب عامة معنوية أو مادية ، تعمل عملها في كل مملكة ، ترفعها أو تحافظ عليها أو تطيح بها ، وكل ما يحدث خاضع لهذه الأسباب . وإذا كان ثمة سبب خاص يعينه ، مثل النتيجة الطارئة لمعركة ما هو الذي قضى على دولة ما ، فهناك

سبب هام جعل سقوط هذه الدولة ينتج عن معركة واحدة . وصفوه القول إن الحركة العامة نجر معها كل الأحداث الخاصة غير المتوقعة^(٧١) .

وبناء على هذا اختزل مونتسكيو وهبط بدور الفرد في التاريخ . فالفرد مهما عظمت عبقريته لا يعدو أن يكون أداة « الحركة العامة » . ولا ترجع أهميته إلى قدرته الفائقة بقدر ما ترجع إلى التقائه مصادفة مع ما أسماه هيجل « روح العصر » فلو أن قيصر وبومبي فكرا مثل ما فكر كاتو (سعيًا في الإبقاء على سلطة السناتو الروماني) فربما انتهى آخرون غيرهما إلى نفس أفكارهما . وعند ذاك كانت الجمهورية التي كان مقدرًا عليها الفناء لأسباب داخلية ، تنساق إلى الانهيار على أيدي أخرى^(٧٢) .

ولكن « القدر » ليس توجيهها روحيا أو باطنيا ، وليس قوة ميتافيزيقية . انه مجموعة معقدة من عوامل تنتج « الحركة الرئيسية » . والمهمة الأساسية للمؤرخين الفلاسفة ، في رأي مونتسكيو ، هي الكشف عن كل عامل من هذه العوامل وتحليله وتبيان فعاليته وعلاقته . ومن ثم كان سقوط رومة (في نظره) يرجع أولا إلى التحول من جمهورية توفر لها توزيع السلطات وتوازنها ، إلى امبراطورية تصلح أكثر ما تصلح لحكم بلاد تابعة لها ، ولكنها تركز كل الحكم في مدينة واحدة في يد رجل واحد ، مما يدمر حرية ونشاط المواطنين والأقاليم . ويمر الزمان انضمت أسباب أخرى إلى هذا السبب الرئيسي : انتشار الخنوع والحمول بين الجماهير ، رغبة الفقراء في أن تعولم الدولة ، ضعف الأخلاق بسبب الثروة والثرف والفسق والفجور ، تدفق الغرياء الذين تشكلهم التقاليد الرومانية والذين كانوا مستعدين لبيع أصواتهم لمن يدفع أكبر ثمن ، فساد رجال الإدارة المركزيين والمحليين ، خفض قيمة العملة ، فداحة الضرائب ، هجر المزارع ، استنزاف الحيوية العسكرية بسبب الديانات الجديدة وطول أمد السلم ، وفشل النظام العسكري وسيطرة الجيش على الحكومة المدنية ، إثارة الجيش تنصيب الأباطرة أو خلعهم عن حمساية الحدود من هجمات المتبريرين ومن الجائز أن مونتسكيو — على عكس توكيد بوسويه

على العوامل الخارقة الطبيعية - لم يقيم كبير وزن لتغيير الديانات ، الذي أكده جييون سيبيا أساسيا لانهباء الامبراطورية .

ولسكن مونتسكيو كان دوما يعود إلى ما اعتبره العامل الرئيسي في اضمحلال رومه - وهو التحول من الجمهورية إلى الملكية . ذلك أن الرومان غزوا بفضل مبادئهم الجمهورية ، كثيراً من الشعوب ، ولكن في الوقت الذي حققوا فيه هذا ، لم تقو الجمهورية على الصمود ، وتسببت في الاضمحلال لمبادئ الحكم الجديد وهي مخالفة لمبادئ الجمهورية (٧٣) . ومهما يكن من شيء فأننا إذا عدنا إلى الفصل السادس لتفحص المبادئ الأساسية أو الوسائل التي قهرت بها الجمهورية الرومانية « كل الشعوب » نجد مجموعة متنوعة غريبة : الخداع ، نقض المعاهدات ، العنف والقوة ، العقوبات الصارمة ، بذر بذور الشقاق بين العدو ليسهل قهره تدريجاً ، (فرق تسد) ، نقل السكان من مكان إلى مكان بالقوة ، تعكير جو الحكومات المناهضة ومحاولة القضاء عليها بتقديم المساعدات للثورات الداخلية ورشوة القائمين بها . وغير ذلك من الاجراءات المألوفة لدى رجال الدولة . واستخدم الرومان حلفاءهم في القضاء على أعدائهم ، وسرعان ما استداروا ليدمروا هؤلاء الحلفاء (٧٤) وواضح - أن مونتسكيو - ناسباً هذا الوصف للمبادئ الجمهورية أو مزدرداً مكيفاً في جرعة واحدة - اعتبر في الفصل الثامن عشر ، الجمهورية مثلاً أعلى للعظمة ، ورثى الامبراطورية منزلقاً بهيجاً للانحلال . ومع ذلك اعترف بفساد السياسة في الجمهورية وبالعظمة السياسية للامبراطورية في ظل « حكمة نرفاء ، ومجد تراجان ، وبسالة هادريان وفضائل الاثنين الانطونيين » (٧٥) وهنا وجه مونتسكيو كلا من جييون ورينان إلى تسمية هذه الحقبة « أكرم وأسعد حقبة في تاريخ الحكومة » . ولدى هؤلاء الملوك الفلاسفة وجد مونتسكيو أيضاً أخلاق الرواقين التي فضلها بصراحة ووضوح على الأخلاق المسيحية ، وانتقل إعجاب مونتسكيو بالرومان في عهد الجمهورية إلى الفرنسيين المتحمسين للثورة ، وأسهم في تغيير الحكومة الفرنسية ، والنظم العسكرية والفنون في فرنسا .

ووقع في الكتاب بعض أخطاء في عمل علمي عجل به ضغط الوقت والرغبة في إنجاز مهمة أضخم . فلم يكن مونتسكيو في بعض الأحيان مدققا في استخدام النصوص القديمة . من ذلك ، على سبيل المثال أنه أخذ الفصول التي كتبها ليفي عن « نشأة رومه » على أنها تاريخ ، على حين أن فالالا وجلارونوس وفيكو رفضوا هذه الرواية على أنها أسطورة . ويبخس مونتسكيو من قيمة العوامل الاقتصادية وراء سياسة جراتشي وقيصر ، ولكن في مقابل مواطن الضعف هذه ، فإن نظرة أوسع لا بد أن تحيط ببلاغة الكتاب وقوته وتركيز أسلوبه ، ويعمق التفكير وأصالته ، ومحاولة المؤلف الجريئة في أن يرسم في صورة واحدة ارتفاع وسقوط حضارة كاملة ، ويرتفع بالتاريخ من مجرد سجل للتفاصيل إلى تحليل النظم ومنطق الأحداث . وهنا كان ثمة تحد للمؤرخين ، كان على فولتير وجيبون أن يسعيا لمواجهة ، كما كان هنا تلهف على فلسفة للتاريخ قد يحاول مونتسكيو نفسه ، بعد جيل من الكد والجد أن يتبعه بكتاب « روح القوانين » .

٣ - روح القوانين :

مضت أربعة عشر عاما بين ظهور كتاب « النظرات » وكتاب « روح القوانين » بدأ مونتسكيو أروع أعماله هذا حوالي ١٧٢٩ ، وهو في سن الأربعين . وكان موضوع رومه حصيلة جانبية أو ثانوية اعتراضية . وفي ١٧٤٧ حين بلغ السادسة والخمسين لقي من العمل نصبا وكان به ميلا إلى تركه ، « كثيرا ما شرعت في هذا الكتاب ، وكثيرا ما طرحته جانبا . وقلدت بالأوراق التي كتبتها ألف مرة . »^(٧٦) وأهاب بالموزيات ربات الفنون والعلوم أن يرعينه ويساعدنه : « إن الدرب طويل ، ولقد أضناني الأسى والارهاق ، أدخلن على قلبي البهجة والفتنة اللتين تدفعان بي إلى السير في الطريق ، لقد عرفتهما يوما ، ولكنهما الآن تخلتا عني أنتن لستن مقدسات مطلقا ، إلا حين تتولين قيادنا ، عن طريق اللذة والسرور ، إلى الحكمة والحق »^(٧٧) . ولا بد أن هؤلاء الربات استعجن لندائه ، لأنه واصل العمل . ولما انتهت المهمة في خاتمة المطاف اعترف بترده واعتداده بنفسه

وزهوه : لقد سلكت طريقى نحو الهدف دون إعداد خطة . ولم أعرف أية قاعدة ولا شواذ وما عثرت على الحقيقة إلا لافتقدها ثانية . ولكن عندما وقعت على الأصول والمبادئ ذات مرة واتانى كل ما كنت أفقش عنه ، وفى غضون عشرين عاما ، وجدت أن العمل قد بدأ وخطا خطوات ثم أشرف على الاكتمال ، حتى أنجز . . . وإذا صادف هذا العمل نجاحا ، فأنى سأكون مدينا به لعظمة الموضوع وجلاله . ومهما يكن من أمر ، فلست أظن أنى كنت مفتقرا إلى العبقرية كل الافتقار . ولما رأيت كم من عظماء الرجال فى فرنسا وألمانيا طرخوا هذا الموضوع قبلى ، تملكنتى الحيرة إعجابا بهم ، ولكن لم أفقد شجاعتي ولم يزايلنى الاقدام ، وقلت مع كوريجيو « وأنا أيضا رسام » (٧٨) .

وعرض المخطوطة على هلفشيوس وهبنولت وفونتيل ، ورأى هذا الأخير أن البحث يفتقر إلى طلاوة الأسلوب الفرنسى . (٧٩) وتوسل هلفشيوس إلى المؤلف ألا يسيء إلى سمعته الطيبة بوصفه متحررا بنشر كتاب يتساهل إلى هذا الحد مع كثير من المعتقدات المحافظة المتمسكة بالقديم (٨٠) . وقرر مونتسكيو أن هذه التحذيرات غير ذات موضوع ، وتقدم للطبع . ولما كان يخشى الرقابة الفرنسية فانه أرسل المخطوطة إلى جنيف ، وهناك صدر الكتاب ١٧٤٨ فى مجلدين ، دون ذكر اسمه . وحين كشف رجال الدين الفرنسيون عن هرطقاته شجبهه وصدر أمر الحكومة بمنع تداوله فى فرنسا . وفى ١٧٥٠ تولى ما لشرب - منقذ دائرة المعارف فيما بعد - شئون الرقابة ، رفع الحظر عن الكتاب ، وسرعان ما شق طريقه وصدرت منه اثنتان وعشرون طبعة فى عامين ، وسرعان ما ترجم إلى لغات أوروبا المسيحية .

وكانت العنونات على أيام مونتسكيو توضيحية حقا ، دقيقة غالبا . ولذا سمي كتابه « فى روح القوانين » أو « فى العلاقات التى يجب أن تقوم بين القوانين وبين دستور كل حكومة ، والعادات والمناخ والديانة والتجارة ، وغيرها » . وكان بحثا فى العلاقات بين القوى المادية والأنماط الاجتماعية، وفى

العلاقات المتبادلة بين مكونات الحضارة . وحاول أن يضع الأساس لما يمكن أن نسميه الآن علم الاجتماع العلمي » : أى - على غرار البحث في العلوم الطبيعية - التمكن من الوصول إلى نتائج محققة يمكن اثباتها ، تلقى الضوء على المجتمع الحاضر ، وإلى تنبؤات مشروطة للمستقبل . وكان عسرا بطبيعة الحال ، على رجل واحد أن يتمه مع قصر العمر ، والأوضاع الحالية للأنتولوجيا (علم الأعراق البشرية) والتشريع والتاريخ .

وبمعنى أدق ، كانت فكرة مونتسكيو أن روح القوانين « - أى أصلها وطبيعتها ونزعتها - إنما يحددها أولا مناخ البلد وتربته ، ثم فسيولوجية الشعب واقتصاده وحكومته ودينه وخلقه وعاداته . وبدأ بتعريف عريض : إن القوانين بأوسع معانيها وأكثرها تعميما هي العلاقات الضرورية التي تنشأ عن طبيعة الأشياء وواضح أنه أراد أن يأتي « بالقوانين الطبيعية » في العالم المادى ، والاطرادات القياسية في التاريخ ، تحت مفهوم عام واحد . وعلى غرار جروشيوس وبوفندورف وغيرهما ممن سبقوه ، ميز مونتسكيو بين عدة أنواع من القوانين : ١ - القانون الطبيعي ، الذى عرفه بأنه « عقل إنسانى ، بقدر ما يحكم شعوب الأرض بأسرها » ^(٨١) أى « الحقوق الطبيعية » لكل الناس بوصفهم كائنات وهبت عقلا . ٢ - قانون الأمم في علاقاتها بعضها ببعض . ٣ - قوانين سياسية تحكم العلاقات بين الفرد والدولة . ٤ - القانون المدنى لعلاقات الأفراد بعضهم ببعض .

وذهب مونتسكيو إلى أنه في الأطوار الأولى للمجتمع البشرى كان العامل الحاسم في القوانين هو التضاريس الأرضية : أهى غابة أم صحراء أم أرض منزوعة ؟ أهى أرض داخلية أم ساحلية ؟ أهى جبال أم سهول ؟ وما هو نوع التربة وطبيعة الغذاء الذى تنتجه ؟ وصفوة القول ان المناخ أول العوامل وبالدرجة الأولى أقوى العوامل في تحديد اقتصاد الشعب وقوانينه (وشخصيته القومية) . (إن بودين في القرن السادس عشر سبق مونتسكيو إلى هذا التوكيد الأولى كما تبعه فيه بكل في القرن التاسع عشر) . تأمل على سبيل المثال الفوارق المناخية ، ونتيجة لها الفوارق البشرية ، بين الشمال والجنوب :

إن الناس أكثر نشاطا وحيوية في الأجواء الباردة . . . وهذا التفوق في القوة لا بد أن ينتج آثاراً مختلفة : وعلى سبيل لمثال جرأة أكبر ، أى مزيداً من الشجاعة ، وشعوراً أكبر بالتفوق . أى رغبة أقل في الإنتقام ، وشعوراً أكبر بالأمن أى مزيداً من الصراحة وقدر أقل من الأرتياب ومن الدهاء السياسى والمكر . لقد شهدت الأوبرا في إنجلترا وفي إيطاليا حيث رأيت نفس الروايات ونفس الممثلين ، ومع ذلك فإن نفس الموسيقى حدثت آثاراً متباينة في كل من الأمتين ، فإحدهما فاترة رابطة الجأش ، والثانية نشيطة منتعشة مبتهجة . . . وإذا نحن سافرنا إلى الشمال لالتقينا بأناس قلت رذائلهم وكثرت فضائلهم . . . وإذا نحن اقربنا من الجنوب لتخيلنا أننا نبتعد كل الابتعاد عن حدود الأخلاق ، حيث تؤدي أقوى الانفعالات والأهواء إلى شتى أنواع الجرائم ، حيث يبذل كل إنسان أقصى الجهد ، إذا واثته الظروف ، أن يحقق رغباته الجائعة . . . » .

وفي البلاد الحارة نجد الماء الموجود في الدم يضيع إلى حد كبير بسبب العرق ، ومن ثم يجب تعويضه بسائل مماثل ، وللماء هناك فوائد جمّة ، وقد تعمل المشروبات القوية على تخثير كريات الدم الذى يتبقى بعد تبخر الرطوبة المسائية . أما في البلاد الباردة فالماء المختلط بالدم قليلا ما يفقد بالعرق ، ومن ثم يجدر أن يستفيدوا من المشروبات الروحية التى بدونها قد يتعثر الدم . . . ومن هنا نجد أن تحريم الشريعة الإسلامية للخمر يلائم بلاد العرب . والقانون الذى حرم على القرطاجيين شرب الخمر قانون مناخى . ومثل هذا القانون لا يصلح للبلاد الباردة حيث يبدو أن المناخ يفرض عليهم لونا من الإدمان على المسكرات بشكل عام . . . وينتشر شرب الخمر على قدر البرودة والرطوبة في الجو^(٨٢) . أو تأمل العلاقة بين المناخ والزواج : إن الإناث في البلاد الحارة يكن صالحات للزواج في سن الثامنة أو التاسعة أو العاشرة . . . ويهرمن في سن العشرين ، ومن ثم فإن عقلهن لا يقترن بجاهن . وإذا تطلب الجمال السيطرة والتسلط أفسد العقل هسدا المطلب . وإذا تحلين بالعقل تجردن من الجمال . . . ومن ثم ينبغى أن تكون

(م ١١ - قصة الحضارة)

هؤلاء السيدات في حالة من التبعية ، لأن العقل في الشيخوخة لا يمكن أن يوفر السيطرة التي لم يستطع حتى الشباب والجمال أن يحققها . ولهذا كان طبيعياً إلى أبعد الحدود في هذه البلاد ، إذا لم يكن ثمة قانون يمنع ، أن يترك الرجل زوجة ليتزوج بأخرى وأن يباح تعدد الزوجات .

وفي المناخ المعتدل . حيث تحتفظ النساء بمفاتنهن على أكمل وجه ، وحيث يتأخر بلوغهن سن النضج ، وينجبن في مرحلة متقدمة من الحياة ، نجد أن شيخوخة أزواجهن تتبع شيخوختهن إلى حد ما ، وحيث أنهم كن يتمتعن بقدر أكبر من العقل والمعرفة عند الزواج (أكبر من مثيلتهن في الأقاليم شبه المدارية) ، فإن هذا يستوجب وجود نوع من المساواة بين الجنسين ، وقانون الاقتصار على زوجة واحدة تبعاً لذلك . وهذا هو السبب في أن الإسلام (مع نظام تعدد الزوجات) دخل بسهولة واستقر في آسيا بقدر ما امتد بصعوبة إلى أوروبا ، وأن المسيحية استقرت في أوروبا وتحطمت في آسيا . وقصارى القول ، هذا هو السبب في أن الإسلام أحرز مثل هذا التقدم في الصين ، على حين لم تتقدم المسيحية إلا قليلاً (٨٣) .

وعند هذه النقطة يتبين مونتسكيو أنه أحل المناخ محل العناية الإلهية عند بوسويه ، ويسارع فيضيف أكراما للرب ، احتراماً منقاداً : إن عقول البشر على أية حال خاضعة للعلة الأسمى ، الله ، الذي يفعل ما يشاء ، ويخضع كل شيء لإرادته . وظن بعض اليسوعيين أن مونتسكيو قد عراه الخجل .

وسرعان ما تابع تعميماته الطائشة . ففي « الشرق » ، (تركيا وإيران والمهند والصين واليابان) يرغم المناخ على حجاب النساء وعزلتهن لأن (الهواء الحار يثير الشهوات) وقد يعرض تعدد الزوجات وأحاد به الزواج على حد سواء للخطر إذا أطلق اختلاط الجنسين كما هو الحال في (بلادنا في الشمال حيث عادات النساء فاضلة بطبيعتها وحيث العواطف هادئة ، وحيث يتسلط الحب على القلب تسلطاً وديعاً سوياً إلى حد أن أقل قدر من الحزم والحكمة يكفي لتوجيهه وقيادته) (٨٤) . إنها لمنفعة أبة متعة أن تعيش في مثل هذه

الأجواء التي تبيح الحديث وحيث الجنس اللطيف البالغ للفتنة يبدو أنه يزين المجتمع ، وحيث الزوجات اللاتي تقصر الواحدة منهن نفسها على إسعاد رجل واحد ، ويسهمن في إدخال السرور والهجة على الجميع (٨٥) .

والعادات والأعراف نتائج مباشرة للمناخ أكثر من القوانين ، لأن القوانين ينبغي أن تحاول في بعض الأحيان مقاومة آثار المناخ . وذلك أنه بتقدم الحضارة تتحكم الضوابط الأخلاقية أو للقانونية - وينبغي لها أن تتحكم - في العوامل المناخية ، مثال ذلك عزل المرأة وحجباها في الشرق . ويهدف أحكم المشرعين إلى موازنة (الأسباب الطبيعية) . والعادات والأعراف وظيفية الزمان والمكان ، وليس ثمة عادة أو عرف خطأ أو صواب أو أنه الأفضل في حد ذاته . والعرف - في الجملة خير قانون ، لأنه تكيف طبيعي بين الشخصية والموقف ، ويجدر بنا أن نتأني ونسير بخطى وثيدة في تغيير العادة والعرف . وتأني العادة أن تتبدل بالقانون عادة (٨٦) .

وحيث أن المواطن يحدد العادة التي تحدد بدورها الخلق القومي فإن شكل الحكومة لا بد أن يختلف من مكان إلى مكان تبعاً لهذا المركب الثلاثي . وهي تتوقف بصفة عامة على مدى سعة الرقعة الحكومية : فالجمهورية تنسجم مع رقعة صغيرة من الأرض ، يستطيع زعماء المواطنين فيها أن يجتمعوا للتشاور وللتداول أو العمل ، فإذا اتسعت الرقعة تطلبت مزيداً من الحروب ، وخضعت للحكم الملكي . وتتحول الملكية إلى استبدادية إذا حكمت رقعة شاسعة أكثر مما ينبغي لأن السلطة الاستبدادية وحدها هي التي تستطيع المحافظة على خضوع حكام المقاطعات لسلطانها (٨٧) . ويجدر أن تركز الملكية على (الشرف) ، أعني أنه يجب تصنيف سكانها في مراتب ، كما يجب أن يكون مواطنوها متحمسين غاية التحمس لألقاب الشرف والأوسمة وتفضيلهم أو ايثارهم بالحظوة . أما الجمهورية فيجدر أن تقوم على نشر (الفضيلة) على أوسع نطاق ، ويعرف مونتسكيو الفضيلة على طريقته الخاصة بأنها (حب الإنسان لبلده - أعني حب المساواة (٨٨) .

وقد تكون الجمهورية أرستقراطية أو ديمقراطية تبعاً لطريقة حكمها : هل يتولاه قسم من المواطنين أو كلهم . ويعجب مونتسكيو بفنيسيا (البندقية) كجمهورية أرستقراطية . وعمد الدول القديمة على أنها ديمقراطية وهو يعلم ولكن يتجاهل أن المواطنين المحررين ليسوا إلا أقلية . ويمتدح الحكم الذى أقامه وليم بن فى أمريكا . ويمتدح فى حاسة أكبر انشاء المناطق الشيوعية الدينية التى أسسها اليسوعيون فى باراجواى^(٨٩) . والحق يقال على أية حال إن الديمقراطية الآمنة الحقة لا بد أن تحقق المساواة الاقتصادية والسياسية معاً ، وأن تنظم الموارىث والمهور ، وتعمل على فرض الضريبة التصاعدية على الثروات^(٩٠) . أن خير تلك الديمقراطيات هى التى يعترف فيها مواطنوها بعجزهم عن تحديد السياسة التى تنتهجها بلدهم ، ومن ثم يقرون السياسة التى يحددها ممثلوهم الذين انتخبوهم . وينبغى على الدولة الديمقراطية أن تهدف إلى المساواة ولكن يمكن أن تدمرها روح المساواة المتطرفة ، حين يسعد كل مواطن أن يكون فى مستوى أولئك الذين اختارهم ليأتمر بأمرهم وإذا كان هذا هو الوضع فلن تقوم للفضيلة قائمة فى الجمهورية . فهنا يكون المواطنون راغبين كل الرغبة فى ممارسة مهام الحكام الذين لا يعود لهم أى توفير أو احترام . وهنا يكون الاستخفاف بمداولات السناتو ، ومن ثم لا يكون هناك احترام لأعضائه ، ولا احترام لكبر السن ، وإذا انعدم التقدير والاحترام لكبر السن انعدم تبعاً لذلك الإذعان للوالدين أو الأزواج والامثال للرؤساء .

وسرعان ما تتفشى هذه الظاهرة . إن الناس إذ يصابون بهذا البلاء محاولين التستر على فسادهم ، يسعون إلى افساد من وضعوا ثقتهم فيهم وعندئذ يقتسمون الأموال العامة فيما بينهم ، فإذا استأثروا بإدارة الأمور بالإضافة إلى تسكاسلهم وتراخيهم ، انصرفوا إلى مزج فقرهم بشيء من هو الترف^(٩١) .

وهكذا يقول البارون ، مردداً قول أفلاطون عبر ألفين من السنين :
تنقلب الديمقراطية إلى فوضى . ثم إلى دكتاتورية ، ثم تنهار .

وهناك في مونتسكيو أجزاء كثيرة تحبذ الجمهورية الأرستقراطية ، ولكنه خشي الاستبدادية التي ذهب إلى إمكان قيامها في الديمقراطية إلى حد أنه كان يريد الصبر عليها أو تحملها إذا كانت هذه الجمهورية تحكم وفقاً لقوانين راسخة . ويعالج أقصر فصول كتابه الحكم المطلق الاستبدادي وهو يتألف من ثلاث مقالات قصيرة : « إذا أراد متوحشو لوزيانا ثماراً قطعوا الشجرة من جذورها ليجمعوا الثمار ، وهذا رمز للحكومة الاستبدادية (٩٢) » أي أن الحاكم المستبد يستأصل أعظم الأسرار كفاية ومقدرة ليحمي قوته وسلطانه . وكانت الأمثلة التي أوردها لهذا شرعية بشكل يطمأن إليه ، ولكن كان من الواضح أنه يخشى نزوع ملكية البوربون إلى الاستبداد . حيث كان الكاردينال ريشيليو ولويس الرابع عشر قد دمرا قوة الأرستقراطية السياسية . وتحدث عن ريشيليو وكأنه « مأخوذ بحب السلطة المطلقة (٩٣) » . أنه كره أشد الكراهية بوصف كونه نبيلاً فرنسياً ، أن يهبطوا بمكانة طبقته إلى مجرد أفراد في الحاشية الملكية ، واعتقد أن بعض القوى المتوسطة الخاضعة التابعه ، ضرورة لحكومة صحيحة وكان يعنى بهذه القوى النبلاء مالكي الأرض والحكام الوراثةيين ، وكان ينتسب إلى كليهما . ومن ثم دافع عن النظام الإقطاعي بتفصيل شديد (١٧٥٣ صفحة) ، موضحياً بوحدة كتابه وتناسقه . إن مونتسكيو هو الوحيد من بين فلاسفة فرنسا في القرن الثامن عشر الذي امتدح نظام العصور الوسطى ، واتخذ من لفظة « قوطى » . تعبيراً عن الثناء والاطراء . وفي الصراع الذي استمر طوال حكم لويس الخامس عشر بين الملكية والبرلمانات اتخذ الحكام الذين يعدون للمعركة مصنعاً للحجج والأسانيد في « روح القوانين » .

إن نفور مونتسكيو من الحكومة المطلقة مطية للحكم المطلق أدى به إلى تحبيذه حكومة مختلطة : فيها ملكية وأرستقراطية وديموقراطية معاً - ملك ونبلاء وجمعية عامة . ومن هنا كان أشهر آرائه ، نظرية الفصل بين السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية في الحكومة (٩٤) . فالسلطة التشريعية تسن

القوانين لكن لا تتولى تنفيذها ، وتتولى السلطة التنفيذية القيام على تنفيذها ولكن لا تمنحها . وتقتصر السلطة القضائية على تفسيرها . « وتضم السلطة التشريعية مجلسين ، مجلس يمثل الطبقات العليا ، وآخر يمثل العامة . وهنا يتحدث البارون ثانية .

في مثل هذه الدولة يوجد دائماً أناس يتميزون بحكم مولدهم و ثروتهم وألقابهم ، فإذا تساوا و خلطوا بعامة الشعب ، فلا يكون لهم إلا صوت واحد مثل الباقين ، فإن الحرية العامة تكون بمثابة استرقاق لهم ، ومن ثم يفقدون اهتمامهم بمساندة الحكم ، وتكون معظم القرارات الشعبية في غير مصلحتهم . ويجدر أن يتناسب نصيبهم مع سائر امتيازاتهم في الدولة ، وهذا يحدث فقط حين يشكلون هيئة في الدولة يكون لها الحق في مقاومة إساءة استعمال الشعب للسلطة في الدولة ، كما يكون للشعب الحق في مقاومة أى اعتداء على حرية الشعب . ومن هنا تكون السلطة التشريعية في أيدي النبلاء وأيدي الذين ينتخبهم الشعب ، على أن يكون لكل هيئة اجتماعاتها ومداولاتها منفصلة عن الأخرى ، ولكل صلاحيتها وآراؤها (٩٥) .

وتكون كل من الهيئات الثلاث وكل من المجلسين رقيباً بعضهم على بعض ، وبهذه الطريقة المعقدة تلتئم حريات المواطن مع حكمة الحكومة وعدالتها ونشاطها :

وكانت هذه الأفكار عن الحكومة المختلطة قد انحدرت إلى مونتسكيو من دراسته هارنجتون وألجرونو وسيدنى ولوك ، ومن الخبرة التي اكتسبها في إنجلترا . إنه ذهب إلى أنه وجد هناك مثله الأعلى مهما كان منقوصاً ، في ملكية تكبح جماحها ديموقراطية في مجلس العموم ، كما يكبح جماح مجلس العموم الأرستقراطية في مجلس اللوردات . وظن أن الحاكم في إنجلترا هي بمثابة كايح مستقل لجماح البرلمان والملك وامتدح ما كان قد رأى في إنجلترا رقابة نشتر فيلد وغيره من النبلاء ولكنه مثل فولتير استخدم هذا الشكل المثالي حافزاً لفرنسا . ولا بد أنه عرف أن الحاكم الإنجليزية ليست مستقلة تمام الإستقلال عن البرلمان ، ولكنه ذهب إلى أنه من الخير لفرنسا أن

تفكر في الأخذ بحق المتهمين في إنجلترا تحقيق عاجل ، أو إطلاق سراحهم بكفالة ، ومحاكمتهم أمام محلفين من طبقتهم ، مع تحدى الاتهام ، وإعفائهم من التعذيب ، ولكنه رأى كذلك « ألا يدعى النبلاء للمثول أمام المحاكم العادية بل أمام قضاة من نفس طبقتهم في هيئتهم . « إنهم كذلك لهم الحق في محاكمتهم أمام نظرائهم »^(٩٦) .

إن مونتسكيو أصبح محافظاً أكثر فأكثر مع تقدمه في السن . إن روح المحافظة على القديم رسالة والزام في الشيخوخة ، كما أن الراديكالية ، (التطرف) رسالة نافعة في الشباب ، والاعتدال هبة وخدمة في أواسط العمر ، ومن ثم كان لنا دستور في ذهن أمة ، بما فيه من سلطات ذات قيود وضوابط متبادلة وعرف مونتسكيو الحرية مع كل تمجيد لها بوصفها الهدف الصحيح للحكومة . بأنها « حق كل إنسان في عمل ما تجيزه القوانين فإذا أتى مواطن شيئاً تحرمه القوانين ، فإنه لا يعود يتمتع بالحرية . لأن سائر المواطنين يمكن أن يكون لهم نفس الصلاحية^(٩٧) » . واتفق مع زميليه جاسكون ومونتاني ، على استنكار الثورات . « إذا ثبت شكل الحكومة واستقر منذ أمد بعيد ، وبلغت الأمور حداً معيناً من الثبات والاستقرار ، فإنه من الحكمة تقريباً أن تترك الأمور كما هي ، لأن الأسباب - هي غالباً معقدة أو غير معروفة - التي هيأت لها الصمود والثبات ، سوف تستمر في الإبقاء عليها (أي على هذه الحكومة^(٩٨)) .

ورفض فكرة المساواة في الملكية أو السلطة ولكنه فكر ، مثل جرانسى في تركيز ملكية الأرض : « من الأرض التي تكفي لتغذية أمة . . . لا تكاد تحصل عامة الشعب على ما يقوت أسرهم . . . فإن رجال الدين والأمير والمدن وعظماء الرجال وبعض البارزين من المواطنين يصبحون دون أن يحسوا ملاكاً لكل الأرض التي تبقى غير منزرعة . وتهجر الأسرات التي دمرت مزارعها ، والرجل الكادح معدم فقير . وفي هذا الوضع يجسدر بالهيئة الحاكمة أن توزع الأرض بين الأسرات المحتاجة وتوفر لها المواد والأدوات اللازمة لإصلاحها وزراعتها ، وينبغي أن يستمر التوزيع ما دام هناك من يتسلمها^(٩٩) .

واستنكر زراعة الأرض من أجل جباة الضرائب لحساب رجال المال
 الخصوصيين ، واستنكر الرق بشدة في حماسة أخلاقية وتهكم لاذع (١٠٠) .
 واعترف بالضرورة الطارئة للحرب ، وامتد بمفهوم الدفاع إلى إجازة -
 المسارعة إلى الاستيلاء على الأراضي : إن حق الدفاع الطبيعي قد ينطوي
 أحياناً بالنسبة للدولة ما على ضرورة الهجوم ، كما يرى بعضهم على سبيل
 المثال أن حفظ السلام قد يمكن دولة أخرى من تدمير هذا السلام ، وعندئذ
 يكون غزو هذه الأمة الأخيرة هو السبيل الوحيد للحيلولة بينها وبين تدمير
 السلام (١٠١) .

ولكنه استنكر سباق التسلح : ولقد ساد الاضطراب من جديد كل
 أوروبا ، فأصاب أمراءها وأغرامهم بحشد قوات هائلة ، ولهذا مضاعفاته ،
 ويصبح بالضرورة معدية ، فإنه إذا شرع ملك في زيادة قواته ، فإن الباقيين
 بطبيعة الحال يحلون حذوه . ومن ثم لانجني من هذا إلا الدمار الشامل (١٠٢) .

وعلى الرغم من أنه قدر الروح الوطنية أكبر تقدير إلى حد أنه سوى
 بينها وبين الفضيلة ، إلا أنه راوده في بعض الأحيان حلم مبادئ أخلاقية
 أرحب أفقاً : « إذا علمت أن ثمة شيئاً نافعاً لشخصي ولكنه يضر بأسرتي ،
 فينبغي على ألا أقدم عليه . وإذا علمت أن ثمة شيئاً نافعاً لشخصي . ولكنه
 يضر بأسرتي ، وليس لوطني ، فيجدد بي أن أحاول أن أنساه . وإذا رأيت
 أن شيئاً ذا فائدة لوطني ، ولكنه يضر بمصلحة أوروبا والجنس البشري
 فلا بد أن أعتبره جريمة رسمية (١٠٣) » .

إن غاية ما يصبو إليه من مبادئ أخلاقية وديانة خفية هو مذهب
 الرواقيين القدامى : « لم توجد قط مبادئ أكثر منها إلتئاماً مع الطبيعة
 البشرية ولا أقوم منها لبناء المواطن الصالح . . . وإذا استطعت أن أتخلى
 عن المسيحية لحظة لوصفت القضاء على مذهب زينون مؤسس مذهب
 الرواقيين محنة من بين المحن التي ابتلى بها الجنس البشري . . . إن هذا
 المذهب وحده هو الذي صنع المواطنين . وهو وحده الذي صنع عظماء
 الرجال وهو وحده الذي صنع الأباطرة وإذا نحينا جانباً الحقائق التي

كشفت عنها لحظة ، وفتشنا في الطبيعة كلها فإننا لن نجد شيئاً أسمى من الانطونيين ، حتى ولا جوليان نفسه (وهو إطرأ أنزاع منى أرجو ألا يجعلنى شريكاً في جريمة الردة) .

كلا ، لم يوجد قط منذ عهده أمير أجدر بحكم الجنس البشرى (١٠٤) وواضح أن مونتسكيو حرص في « روح القوانين » على مسألة المسيحية إنه اعترف بوجود الله — فأى حق أفضح من قضاء وقدر أعمى خلق كائنات ذكية (١٠٥) . ولكنه تصور هذا العقل الأسمى كما عبرت عنه قوانين الطبيعة ، وهو لا يتدخل فيها مطلقاً . قال فاجيه « إن الله بالنسبة لمونتسكيو هو روح القوانين (١٠٦) » ، وقبل المعتقدات الخارقة للطبيعة دعامة ضرورية لقانون أخلاقي لا يلتزم مع طبيعة الإنسان . « ومن الخير أن يكون هناك بعض كتب مقدسة لتسكون شريعة مثل القرآن عند المسلمين ، وكتب زردشت عند الفرس ، والفيديا عند الهنود ، والكتب القديمة عند الصينيين . إن الشرائع الدينية تكمل القوانين المدنية ، وتحدد مدى السيطرة الاستبدادية (١٠٧) » . وينبغي أن تكون الدولة والكنيسة رقية كل منهما على الأخرى ، كما ينبغي أن تظل كل منهما منفصلة عن الأخرى . وهذا التفريق الكبير بينهما هو أساس هدوء الأمم (١٠٨) . ودافع مونتسكيو عن الدين ضد بيل (١٠٩) . ولكنه أخضعه ، مثل أى شيء آخر لتأثير المناخ والخلق القومي : « إن حكومة معتدلة هي أصلح ما يكون للعالم المسيحي ، والحكومة المستبدية أصلح للعالم الإسلامي . وإذا اختيرت ديانة تلائم مناخ بلد ما ، تتعارض مع مناخ بلد آخر فإن هذه الديانة لن تقوم في هذا البلد الثاني ، وإذا أدخلت كان ما لها النبذ والرفض (١١٠) والمذهب الكاثوليكي أكثر ما يكون توافقاً مع الملكية ، والبروتستانتية مع الجمهورية وإذا انقسمت المسيحية لسوء الحظ إلى كتلكة وبروتستانتية ، فإن أهل الشمال يعتقدون البروتستانتية ، على حين يغفل أهل الجنوب متمسكين بالكاثوليكية والسبب واضح . فإن أهل الشمال يتمسكون ، وسيظلون يتمسكون إلى الأبد بروح الحرية والاستقلال ، وهذا ما لا يتمتع به أهل الجنوب . فإن الديانة التي لا يكون لها رئيس بارز هي أكثر ملاءمة لهم (١١١) .

وعلى حين سلم مونتسكيو بمزايا الدين إجمالاً فإننا نراه يسهب في نقده، واستنكر شراء رجال الدين في فرنسا (١١٢). ودون « أفطع احتجاج على محاكم التفتيش في اسبانيا والبرتغال ، لوقف احراق المهرطقين ، وحذرهم من أنه « إذا تجرأ أحد في الأجيال القادمة أن يثبت أن الناس في أوروبا في عصرنا كانوا متحضرين ، فإنه لابد أن يمثل أمام القضاء ليثبت أنهم كانوا متبربرين (١١٣) » وصخر بوصفه قوطياً محباً لوطنه ، من عصمة البابا من الخطأ وألح في أن تكون الكنيسة خاضعة للسلطة المدنية ، واتخذ بالنسبة للتسامح الديني موقفاً وسطاً : « إذا كان للدولة مطلق الحرية في اعتناق أو نبذ أى دين جديد ، فينبغي أن ترفضه ، فإذا اعتنقته وجب عليها أن تتسامح معه (١١٤) . ومع كل احترامه للرقيب ظل مونتسكيو عقلياً « فالعقل هو أكمل وأكرم وأجمل ملكاتنا (١١٥) » . وماذا يقدم عصر العقل شعاراً أفضل من هذا ؟ .

٤ - النتيجة :

ما أسرع ما اعترف الناس « بروح القوانين » حدثاً ضمخماً في الأدب الفرنسي ، ولكن النقاد تلقفوه عن اليمين وعن الشمال . فالجانسونيون واليسوعيون ، وهم على طرفي نقيض عادة ، اتفقوا على مهاجمته على أنه رفض ماكر خبيث للمسيحية . وقالت جريدة « أخبار الكنيسة » وهي لسان حال أتباع جانسن : « إن الجمل المعارضة التي يضعها المؤلف ليقول لنا إنه مسيحي تؤكد لنا توكيداً هزيباً أنه كاثوليكي ، وإن المؤلف ليسمخر من سداجتنا إذا حسبناه على غير ما هو عليه » . وختم المحرر حديثه بنداء وجهه إلى السلطات المدنية باتخاذ إجراء ضد الكتاب (١١٦) . وآتهم اليسوعيون مونتسكيو باتباعه فلسفة سبينوزا وهوبز ، بافراضه وجود قوانين في التاريخ مثلما هي في العلوم الطبيعية ، ولم يترك مجالاً لحرية الإرادة . ودافع الأب برتية في صحيفة « تريفو » اليسوعية عن أن الحق والعدل مطلقان ، وليسا نسبيين تبعاً للمكان والزمان ، وإن القوانين يجب أن تركز على مبادئ عامة من الله . لا على تنوعات المناخ والتربة والعرف والخلق القومي (١١٧)

ورأى مونتسكيو أنه من الحكمة أن يصدر في ١٧٥٠ * دفاعاً عن روح القوانين » ، تتصل فيه من الحاد والمادية والجبرية ، وأكد من جديد مسيحيته . ولكن رجال الدين ظلوا غير مقتنعين ٥

وكان الفلاسفة الناشئون في ذات الوقت مستائين ، حيث اعتبروا روح القوانين كتيباً في المحافظة على القديم ، واستاءوا من ورعه العارض وإعتدال إصلاحاته المقترحة ، ومفهومه الهزيل الفاتر عن التسامح المبني (١١٨) . وكتب هلفشيوس إلى مونتسكيو يعنفه على تركيزه الشديد على أخطار التغيير الاجتماعي والمصاعب التي تعترضه (١١٩) . أما فولتير الذي كان يعد كتابه عن فلسفة التاريخ في بحث « في الاعراف » ، فإنه لم يكن متحمساً لعمل مونتسكيو . ولم يكن قد نسى معارضة السيد الرئيس لإنضمامه إلى الأكاديمية بقوله : عار على الأكاديمية أن يكون فولتير عضواً فيها ، وسيكون العار عليه يوماً ما ألا يكون عضواً فيها (١٢٠) .

وتوقف نقد فولتير تحت ضغط الظروف ، وتحول إلى إطراء غير متحمس واعتراض بأن مونتسكيو كان مبالغاً في تأثير المناخ . ولاحظ أن المسيحية نشأت في أرض اليهود الحارة ، وأنها لا تزال مزدهرة في النرويج القارصة الباردة ، ورأى أنه من الأرجح أن انجلترا تحولت إلى البروتستانتية لأن آن بولين كانت جميلة ، لا لأن هنري الثامن كان فاتراً (١٢١) . وإذا كانت روح الحرية نشأت - كما ذهب إليه مونتسكيو ، في الأقاليم الجبلية ، فكيف تفسر قيام الجمهورية الهولندية القوية ، أو « حق اعتراض » ، اللوردات البولنديين (وفي القاموس الفلسفي) دون صفحات كثيرة تتضمن أمثلة تدل على أن للمناخ بعض الأثر ، ولكن للحكومة أثراً أكبر منه مائة مرة ولكن للديانة والحكومة معا ، أثراً أكبر من هذا بكثير (١٢٢) . إننا لنسأل الذين يؤمنون بأن المناخ يفعل كل شيء (لم يزعم مونتسكيو هذا) لماذا يقول الإمبراطور جوليان في رسائله إن الذي سره في الباريسيين هو خلقهم القور وعاداتهم الصارمة ، ولماذا نرى الباريسيين الآن ، دون أدنى تغيير في المناخ ، أطفالاً لعوبين هازلين ، وهو أمر تعاقبهم عليه الحكومة وتسخر

منهم من أجله ، في نفس الوقت ، كما أنهم هم أنفسهم يسخرون ، في لحظة تالية من سادتهم ويهجونهم هجاء لا ذعاً (١٢٣) .

ووجد فولتير الجواب :

إنه الانقباض أو الاكئاب ، وهو عكس ما يرددونه في كثير من الاستشهادات والحكم والأمثال ، ولكنه دائماً الحقيقة تقريباً . . . « فالناس في المناطق الحارة جنباء مثل العجائز ، أما في المناخ البارد فهم شجعان مثل الشبان » . « إننا يجدر بنا أن نكون على حذر من أن بعض القضايا العامة . تفلت منا ، وما كان في مقدور أحد أن يجعل من سكان لابلند أو الأسكيمو محاربين على حين أن العرب فتحوا في ثمانين عاما من الأقاليم ما فاق فتوحات الإمبراطورية الرومانية بأسرها (١٢٤) .

ثم يمتدح فولتير « روح القوانين » فيقول : « بعد أن أقتنعنا أنفسنا على هذا النحو بأن الأخطاء كثيرة في ، « روح القوانين . . . » وأن هذا العمل ينقصه النهج ، كما تعوزه خطة العمل والنظام ، فقد يليق بنا أن نتساءل ما الذي اضفى عليه هذه القيمة الكبيرة ، وأدى إلى شهرته العظيمة . إنه في المقام الأول . يكتب بذكاء عظيم ، على حين أن من ألفوا في هذا الموضوع كانت كتاباتهم مملّة تبعث على السأم والضجر . وعلى هذا الأساس رأيت إحدى السيدات (مدام دي ديفان) وهي تتمتع بذكاء مثل ذكاء مونتسكيو أن الكتاب هو « الذكاء في القوانين » ، وهو أصح تعريف له . وثمة سبب أقوى وهو أن الكتاب يعرض وجهات نظر أو آراء عظيمة ويهاجم الطغيان والخزافة والضرائب الفادحة . . . إن مونتسكيو كاد أن يكون على خلاف مع العلماء لأنه ليس عالماً ، ولكنه كان دائماً على حق تقريباً ضد المتعصبين ومتعهدي الرقيق . أن أوروبا مدينة له بالشكر والامتنان على الدوام (١٢٥) .

وأضاف في موضع آخر : « إن الإنسانية كانت قد ضيعت أعمالها المحيطة (من أجل الحرية) واستردها مونتسكيو (١٢٦) .

واتفق النقد المتأخر مع فولتير إلى حد كبير على حين اعترض تلي

مبالغاته (١٢٧) . حقاً إن أسلوب الكتاب كان ضعيفاً ، مع قليل من المنطق . في ترتيب الكتاب وتسلسل موضوعاته ونسيان للفكرة الأساسية التي تحكم الربط بين أجزائه . وفي تمحس مونتيكيو ليكون عالماً ، يجمع الحقائق ويفسرها ، لم يعد فناً . أنه ضيع الكل في الأجزاء ، بدلا من تنسيق الأجزاء في كل منسق . وكان قد قضى في جمع مادة الكتاب أكثر من نصف عمره ، وكتبه في نحو عشرين عاماً ، وأساء التأليف المتقطع إلى وحدة الكتاب ، وتسرع في الوصول إلى أحكام عامة من أمثلة قليلة ولم يفتش عن أمثلة تنقضها - مثال ذلك أيرلندا الكاثوليكية في الشمال البارد ومن ثم يجب أن تكون بروتستانتية وتخل من منهجه حين قال : « لقد وضعت المبادئ الأولى ووجدت أن الحالات الخاصة لا بد أن تكون صحيحة بالضرورة بشكل طبيعي ، وأن تاريخ كل الأمم ليس لإنتاج لهذه المبادئ » فهذا هو خطر تناول التاريخ بفلسفة يثبتها عن طريق هذا التاريخ وعند جمع مادة الكتاب قبل مونتيكيو كل بيانات السائحين دون تحقيق ولا تدقيق ، وفي بعض الأحيان أخذ الخرافات والأساطير على أنها تاريخ ، بل أن ملاحظاته المباشرة كان يمكن أن تكون خاطئة ، ومن ذلك أنه رأى « فصلا بين السلطات » في حكومة إنجلترا على حين أنه كان من الواضح أن السلطة التشريعية هناك كانت تغطي على السلطة التنفيذية .

وإلى جانب هذه الأخطاء لا بد أنه كان للكتاب مزايا أدت إلى الترحيب به وتأثيره . إن فولتير حدد أسلوبه بحق ، على أن الأسلوب أيضاً عانى من شطايا المعلومات لا المعلومات الكاملة المستوفاة . وأولع مونتيكيو بالفصول القصيرة وربما كان هذا وسيلة للتركيز ، مثال ذلك الفصل الذي كتبه عن الحكم الاستبدادي المطلق ، مما أدى إلى التقطع وعدم الترابط مما عوق تدفق الفكرة . وربما كان جزء من عدم استيفاء البحث راجعاً إلى تقادم ضعف بصره مما اضطره إلى الإملاء بدلا من الكتابة . وعندما كان يتمتع بكامل قوته وحيويته حقق في عبارات قوية واضحة بعضاً من الاشراف والروعة في الرسائل الفارسية . وپروى فولتير أن في « روح القوانين من العبارات الساخرة أكثر مما يليق بكتاب في القانون . يقول

مونتسكو « إن الناس في فينيسيا مقفرون غاية التقدير إلى حد أنه من أجل المومسات وحدهن يستطيع الرجال أن يغادروا البيت ومعهم نقود (١٢٨) » . وهذا ، على الرغم من كل شيء ، أسلوب وقدر معتدل هادىء وهو في بعض الأحيان غامض ولكنه يعوض عن حل الألغاز .

وكان مونتسكيو متواضعا كما كان مصيبا في أنه أرجع جزءا من قيمة الكتاب إلى موضوعه وهدفه . أنك لىكى تعثر على قوانين في القوانين ، وعلى نظام في تنوعها تبعا للمكان والزمان ، ولىكى تعمل على تنوير الحكام والمصلحين عن طريق دراسة مصادر التشريع وحدوده بالنسبة لطبيعة ومكان الدول والناس - فهذا عمل جليل ضخم تقتضى ضخامته وجلاله الصفح عن الزلات . وأخفق هربرت سينسر في نفس هذا العمل بعد ذلك بمائة وثمانية وأربعين عاما ، وعلى الرغم من عدد كبير من من المعاوين في البحث ، وبسبب نفس الرغبة في استخلاص أحكام عامة ، ولكن كلنا المحاولين كأننا زيادة في الحكمة . ولكن كتاب مونتسكيو كان أفضل وهناك أناس سبقوه ولم يكن هو البادىء (*) بالتأليف في هذا الموضوع ، ولكنه جعل بوضع المنهج التاريخى بقوة للدراسة المقارنة للنظم . ولقد سبق فواتير في وضع فلسفة للتاريخ مستقلة عن الأسباب الخارقة للطبيعة وبلغ آفاقا واسعة ونزاهة في الرأى لم يبلغها فولتير . إن بيرك أطلق على مونتسكيو « أعظم عبقرية نورت هذا العصر (١٣٠) » واعتبره بين تين أعقل وأحكم وأكثر الرجال اتزاناً في هذا العصر (١٣١) ورأى هوراس وولبول أن روح القوانين أحسن كتاب ظهر على الاطلاق (١٣٢) وقد لا يكون هذا صحيحا ولكنه أحسن كتاب ظهر في هذا الجيل .

لقد أنهك هذا الكتاب مؤافه . وكتب إلى أحد الأصدقاء : أعترف لك أن هذا الكتاب قتلنى . سأأخذ إلى الراحة ولن أعمل شيئا بعد الآن (١٣٣)

(٠) أبقرط : الهواء والماء والأماكن . ارستو : دساتير أثينا . ميكافيللى : المقالات . يودين منهج لتيسير بعض المعلومات التاريخية .

وعلى الرغم من ذلك استمر يدرس ويبحث . وكان يقول « الدراسة بالنسبة لي هي خير علاج لكل خيبة أمل في الحياة . ولم أجد ضيقا إلا فرج من كربته ساعة قضيتها في القراءة (١٣٤) .

وزار باريس من حين لآخر وسعد بشهرته هناك التي كانت تضارع شهرة فولتير آنذاك (١٧٤٨) . ويقول رينال لقد جذب كتاب روح القوانين انتباه كل الشعب الفرنسي . اثنا نجده في مكتبات علمائنا ودارسينا وعلى منضدة زينة سيداتنا وعند كل شباننا المتأنق (١٣٥) ورجبوا بالمؤلف من جديد في الصالونات واستقبلوه في البلاط الملكي ، ولكنه قضى معظم الوقت في لايريد حيث قنع بأن يكون سييدا عظيما . وسر الانجليز بالكتاب أيما سرور حتى أنهم طلبوا منه أعدادا وفيرة . وفي سنه الأخيرة كاد أن يصاب بالعمى ، وكان يقول « يبدو لي أن الأثر الخفيف من البصر الذي بقى لي ليس إلا فجر اليوم الذي تغلق فيه عيناى إلى الأبد (١٣٦) وفي ١٧٥٤ قصد إلى باريس لانتهاء إيجار بيته هناك ، ولكنه أثناء تلك الزيارة أصيب بالتهاب رئوى وقضى نحبه في ١٠ فبراير ١٧٥٥ وهو في السادسة والستين وتناول الأسرار المقدسة الكاثوليكية . وكان الأديب الوحيد للذي شيع جنازته هو ديدرو وهو من أتباع مذهب اللاأدرية (١٣٧) وذاع صيته وامتد أثره على مر القرون . وكتب جييون : « على مدى الأربعين عاما منذ صدور روح القوانين لم يقبل الناس على قراءة كتاب أو نقده أكثر منه . وليست روح البحث والتحقيق التي أثارها أقل مآثر الكاتب علينا (١٣٨) » وكان جييون وبلاكستون وييرك من بين من أفادوا من روح القوانين وعظمة الرومان واضمحلالهم وعده فودريك الأكبر أحسن كتاب بعد كتاب الامير ، ورأت كثيرين الكبرى أنه ينبغي أن يكون كتاب الصلوات اليومية لدى الملوك (١٣٩) واقتبست فقرات منه للرجال الذين عينتهم لمراجعة القوانين الروسية . ولم ينقل واضعوا مسودة الدستور الامريكى عن مونتسكيو نظرية فصل السلطات فحسب بل استبعاد أعضاء الوزارة من الكونجرس كذلك.

وتضمنت كتاباتهم كثيرا من الاقتباسات من الكتاب . وأصبح روح القوانين الكتاب المقدس عند الزعماء المعتدلين في الثورة الفرنسية تقريبا ونشأ عن كتاب عظمة الرومان واطمحلهم بعض أعجابهم بالجمهورية عند الرومان . ويقول فاجيه أن كل الأفكار الحديثة العظيمة بدأت بمونتسكيو^(١٤١) وعلى مدى جيل من الزمان كان مونتسكيو ، لا فولتير ، هو صوت العقل وبطله في فرنسا .

الفصل الحادى عشر

فولتير فى فرنسا

١ - فى باريس : ١٧٢٩ - ١٧٣٤

لدى عودة فولتير من إنجلترا فى أواخر عام ١٧٢٨ أو أوائل عام ١٧٢٩ اتخذ مسكنا مغمورا فى حى سان جرمان - ان لى - على بعد ١١ ميلا إلى الشمال الغربى من باريس ، وحشد أصدقاءه لينشروا أبناء غير رسمية عن إلغاء قرار نفيه من فرنسا ثم من العاصمة ، ونجحوا فى هذا ، بل فى استعادة معاشه الملكى كذلك . وما حل شهر أبريل حتى ظهر فجأة ، وأخذ يجول خلال العاصمة . وفى أحد الاجتماعات سمع أن العالم الرياضى كوندامين حسب أن من يشتري كل أوراق « اليانصيب » التى تصدرها باريس لا بد أن يحقق ثراء ، فأسرع فولتير واقترض نقودا من رجال المصارف من أصدقائه ، واشترى كل الأوراق ، فكان ما تنبأ به العالم الرياضى ، ولكن المراقب العام للحسابات رفض الدفع ، فرفع فولتير دعوى أمام القضاة وكسب القضية وتسلم المبلغ (١) وفى أخريات عام ١٧٢٩ قطع ١٥٠ ميلا فى ليلتين ونهار واحد من باريس إلى نانسى ليشتري أسهما فى مشروع دوق اللورين ، وعادت عليه هذه المغامرة بأرباح طائلة . وهكذا أعان فولتير مدير الأعمال المالية فولتير الشاعر الفيلسوف .

ونراه فى ١٧٣٠ مرة أخرى فى باريس مفتونا إلى حد الجنون بالمغامرات والمشروعات . وكان لديه عادة عدة أعمال أدبية قيد الانجاز فى وقت واحد ، يتنقل من واحد إلى الآخر ، ولذة الهوى فى التنقل ، دون أن يضيع وقتا . وكان آنذاك يكتب رسائل عن الانجلىز وتاريخ شارل الثانى عشر « موت الآنسة ليكوفريير » ، والصفحات الأولى فى العادة العذراء . وذات يوم ١٧٣٠ اقترح عليه زوار الدوق دى ريشيليو وهم (م ١٢ - قصة الحضارة)

يتحدثون عن جان دارك أن يكتب لها تاريخاً ، ولم يكونوا بعد في فرنسا قد اعترفوا بها قديسة حامية لفرنسا . وبدلاً للمفكر الحر فولتير أن العناصر الحارقة للطبيعة في أسطورة جان دارك تشد انتباهه إلى معالجة تاريخها معالجة فكاهية . فتحدها ريشيليو أن يحاول ذلك ، وكتب فولتير المقدمة في تلك الليلة ، ولم تكن مرثيته في ليكوفيرير قد نشرت بعد ، ولكن صديقه الأخرق نيقولا ثيوريو كان قد قرأها على المسأ على أوسع نطاق . وأستأنفت الأصوات اللاهوتية البغيضة طينها المزعج حول رأس فولتير .

وفي ١١ ديسمبر وكانما كان فولتير ظمناً إلى كسب الأعداء ، أخرج قصته لوسيووس جينيوس بروتوس الذي أطاح طبقاً لرواية ليفي بعرش الملك تاركينيوس وأسهم في إقامة الجمهورية الرومانية ، وأنكرت المسرحية على الملوك قدسيتهم وعدم جواز انتهاك حرمتهم ، ونادت بحق الشعب في تغير حكامه . وشكا الممثلون من أن الرواية خالية من فكرة الحب ووافقت باريس على أنها بدعة خرقاء سخيفة . وسميت المسرحية بعد عرضها ١٦ مرة . وبعد اثنين وستين عاماً أعيد تمثيلها من جديد ، لأن باريس كانت آنذاك تواقه إلى مشاهدة مقصلة لويس السادس عشر .

وفي نفس الوقت كان فولتير قد حصل على ترخيص ملكي بنشر « تاريخ شارل الثاني عشر ملك السويد » . وهنا كان الموضوع لا يكاد يسيء إلى لويس الخامس عشر أو الكنيسة ، كما يسر الملكة ، لأن الرواية تناولت موقف أيها ستانسلاس بشكل لائق كريم . وظهرت طبعة من ٢٦٠٠ نسخة في الوقت الذي ألغى فيه الترخيص الملكي دون سابق إنذار ، وصودرت كل النسخ فيما عدا واحدة احتفظ بها فولتير . واحتج فولتير لدى حامل الاختتام فأبلغ أنه قد حدث تغير في السياسة الخارجية مما كان لزاماً معه ارضاء غريم شارل الثاني عشر وضحيته ، وهو أوغسطس « القوى » الذي ما زال ملكاً على بولنده . وقرر فولتير أن يتجاهل أمر الحظر وانتقل متنكراً إلى روان وياشر طبع تاريخه سراً . وفي أكتوبر ١٧٣١ تداوله الناس في حرية مطلقة وأقبلوا على قراءته وكأنه قصص .

وذهب بعض النقاد إلى أنه محشو بالخيال ، وأسماء بعض المؤرخين الواسعي الاطلاع رومانسية « في أسلوب مشرق بارع في السرد القصصى ، ولكنه غير دقيق في التفاصيل^(١) ولكن فولتير كان قد أعد الكتاب على طريقة الباحث المدقق إنه لم يطالع على وثائق الدولة فحسب بل إنه كذلك توقف ليستقى المعلومات من مصادرها الأصلية : الملك السابق ستانلاس ، ماريشال دى ساكس دوقه مالبرو ، بولنجيروك ، آكل سبار (الذى اشترك فى معركة نارفا) فونسيكا (طيب برتغالى كان يعمل فى تركيا أثناء وجود شارل هناك) والبارون فابريس (سكرتير شارل سابقا) . وأكثر من هذا فإن فولتير كان قد أقام فترة مع البارون فون جورتر وزير شارل ذى الخطوة لديه . وربما حول إعدام البارون ١٧١٩ نظر فولتير إلى دراسة أسد الشمال « وفى ١٧٤٠ أشار جوران نورد برج الذى كان قسيس شارل إلى الأخطاء التى وقع فيها فولتير ، وقام فولتير بتصويب هذه الأخطاء فى الطبعات اللاحقة . وكانت هناك أخطاء أخرى وبخاصة فى الوصف التفصيلى للمعارك . وجادل النقاد المتأخرون^(٢) فى أن فولتير بالغ فى تقدير شارل على « إنه الرجل الأكثر استثناء وخرقا للعادة الذى ظهر على الأرض » وجمع فى شخصيته بين أعظم مناقب أسلافه . ولا عيب فيه ولا ينقص عليه حياته إلا أنه جمع بين هذه المناقب فى إفراط زائد^(٣) وربما تخفف الكلمة الأخيرة من حدة النقد ، فقد أوضح فولتير أن شارل جاوز الحد وأفرط فى التحلى بهذه المناقب البطولية حتى أصبحت عيوباً وعددها ، ومنها التبذير والثور والفسوة وعدم القدرة على المغفرة والصفح . كما أوضح كيف أن أخطاء الملك قد أضرت بالسويد . وانتهى إلى أن شارل « كان رجلاً شاذاً استثنائياً لا رجلاً عظيماً^(٤) » وعلى أية حال لم يكن الكتاب عملاً ثقافياً فحسب ، بل عملاً فنياً كذلك — من حيث التركيب والشكل والحيوية والأسلوب — وسرعان ما أقبل كل المهتمين فى أوروبا على قراءة شارل الثانى ملك السويد وذاعت شهرة فولتير إلى حد لم يسبق له مثيل .

وأصبح فولتير بعد عودته من روان (٥ أغسطس ١٧٣١) ضيفاً مقبياً

على الكونتيس دى فونتين مارتل فى قصرها بالقرب من « الباليه رويال » ، وقد وجدت فى رفقته سعادة بالغة حتى ظلت تؤويه وتطعمه حتى مايو ١٧٣٣ وترأس فى حيوية شديدة ولائم العشاء الأدبية التى كانت تقيمها ، ومثل المسرحيات وبخاصة مسرحياته هو على مسرحها الخاص . وفى أثناء إقامته هناك كتب نص « أوبرا شمشون » لرامو - وهو ملحن فرنسى فى القرن الثامن عشر (١٧٣٢) - ومن المحتمل أنه شهد من مقصورة الكونتيس فى « المسرح الفرنسى » سقوط روايته « اريفيل » (١٧٣٢) كما شهد النجاح الباهر الذى لقيته مأساة زائير (١٣ أغسطس ١٧٣٢) فكتب إلى صديق له : « ما مثلت رواية بمثل الروعة التى مثلت بها زائير فى عرضها الرابع . وكم وددت لو أنك كنت معى لتشهد أن الجمهور لم يسخط على صديقك ، وظهرت فى المقصورة ، واتجهت كل الأيدي بالتصفيق لى ، فأستحييت وخبأة نفسى . ولكنى أكون مرأياً إذا لم اعترف لك بأنى قد اهتزت مشاعرى وتأثرت كثيراً (٦) .

وظلت هذه المسرحية أحب مسرحياته إليه حتى النهاية . لأنها كلها ليس لها وجود الآن ، قضى عليها تغير الأذواق والأمزجة والأسلوب ، ولكننا يجدر بنا أن نبعث أحداها على الأقل من قبرها ، لأنها لعبت جيداً دوراً مثيراً كبيراً فى حياته . وزائير طفلة مسيحية أسرها المسلمون فى صباها فى الحروب الصليبية ، ونشأوا على العقيدة الإسلامية ، وهى لا تعرف إلا القليل عن فرنسا اللهم إلا أنها مسقط رأسها ، وهى الآن غادة فاتنة فى حريم السلطان أوروبمان فى بيت المقدس . وهام بها السلطان وهامت هى به حباً . وفى مستهل الرواية كانت على وشك أن تصبح زوجة له . وتؤنّبها أسيرة مسيحية أخرى اسمها فاتيا على نسيانها أنها كانت مسيحية . وفى رد زائير توضيح لأثر الجغرافيا فى تحديد العقيدة الدينية : « إن أفكارنا وعاداتنا وعقيدتنا الدينية إنما تشكلها الأعراف والتقاليد والنزعة القومية السائدة فى أيامنا الأولى . فإذا رأت النور على ضفاف نهر الكنج لعبدت أوثان الهند . وإذا ولدت فى باريس لكنت مسيحية . وأنا الآن مسلمة سعيدة . إننا لا نعرف إلا ما تلقناه إن أبدي الأبوين يتوليان تربيتنا

وتعلّمنا هي التي تنقش على قلوبنا الغضة تلك الأحرف التي ينقحها الزمن
ويصقلها . وتعمل القدرة على تثبيتها عميقة في عقولنا ، ولا يقدر على محوها
إلا الله (٧) .

ويصور فولتير أورو زمان رجلاً يتحلى بكل الفضائل بشكل واضح إلا
الصبر . إن المسيحيين ليصعقون ويلهلون إذ يرون مسلماً وقوراً مهذباً مثل
المسيحيين . وتتولى السلطان الدهشة إذ يرى مسيحية فاضلة ، ويرفض أن
يحتفظ بحريم ، ويعد بالاعتصار على زوجة واحدة . ولكن فولتير كان منصفاً
لشخصياته المسيحية كذلك ، فهو ينظم أبياتاً عامرة في جمال الحياة المسيحية
الحقة . وهناك أسير مسيحي آخر هو نير ستام ، وقع في الأسر في طفولته
كذلك ، ونشأ مع زائير ، وفك أساره حين تعهد بالرجوع ليفتدى بالمال
عشرة من الأسرى ، ويذهب ثم يعود ليدفع مبلغ الفدية المطلوب من ماله
الخاص . ويكافئه أورو زمان بإطلاق سراح مائة لا عشرة فقط من
المسيحيين . ولكن نير ستام يحزن لأن زائير ولوسنيان لم يكونا من بين من
أطلق سراحهم ، ومكان هذا ملك بيت المقدس (١١٨٦ - ١١٨٧) .
وتناشد زائير السلطان أورو زمان أن يطلق سراح لوسنيان ، فيجيبها إلى
طلبها . إن الملك العجوز يعتبر زائير في منزلة ابنته ونير ستام في منزلة ابنه .
إنها الآن موزعة بين حبا للسلطان الكريم ولولائها لأبيها وأخوها وعقيدتهما
المسيحية . ويهيب بها لوسنيان أن تتخلى عن السلطان والإسلام معاً : « أو اه
يا ابنتي ، فكري في الدم الزكي الذي يجري في عروقك ، دم عشرين ملكاً
كلهم مسيحيون مثلي ، دم الأبطال ، دم المدافعين عن العقيدة ، دم الشهداء
والقديسين . إنك لا تعرفين مصير أمك ، إنك لا تعرفين أنه في نفس اللحظة
التي ولدت فيها ذبحها أوائل المتبربرون الذي تعتنق دينهم البغيض على
مرأى مني . إن إخوتك والشهداء الأعزاء بمدون إليك أيديهم من السماء ،
يريدون أن يحتضنوا أختنا لهم . آه يا ابنتي ! تذكرهم ! إن الرب الذي
نحت عهدده . لفظ النفس الأخير من أجلنا ومن أجل البشر جميعاً .
انظري إلى الجبل المقدس الذي قتل عليه مخلصنا ، والمقبرة التي نهض منها
ظافراً منتصراً . في كل طريق تمشين فيه مسترين خطوات الرب ، هل

تتكريز حائلك ؟ زائير : . . . يا إلهي العظيم . . . تكلم يا أبتاه ماذا
أفعل ؟ لوسنيان : . . . أذهبي عنى العار والحزن بكلمة منك ، وقولى أنى
مسيحية . زائير : إذن يا إلهي ، أنا مسيحية

لوسنيان : أقسمى بأنك ستحفظين هذا السر الخطير .

زائير : أقسم لك على ذلك ^(٨) .

ولما علم نيرستام بإصرارها على الزواج من أوروزمان ، راوده التفكير
فى قتلها ، ولكن رقى قلبه ، وألح فى قبولها التعميد فوافقت ، وبعث إليها
برسالة يحدد فيها مكان وزمان الاحتفال بتعميدها ، وحسب أوروزمان
الذى لم يكن يدرى أن نيرستام أخوها ، إنها رسالة حب وغرام ، ويفاجئ
زائير فى الموعد المضروب ، ويطلبها . ثم يكتشف أن العشيقين المزعومين
ليسا إلا أختاً وأختاً ، فينتحر .

إن حبكة الرواية موضوعة بإراعاة ، مبسطة بطريقة مسرحية متماسكة
وهى تمثل فى شعر سلس موسيقى . وإننا لنذكر من خلال القطع العاطفية
التي تبدو الآن ثقيلة مبالغاً فيها ، والسبب فى أن باريس أغرمت بزائير
وأوروزمان ، وفى أن الملكة الضالحة الحزينة ذرفت الدموع عند تمثيل
المسرحية للحاشية فى فوتنبلو . وترجمت المسرحية إلى الإنجليزية ومثلت
بسرعة فى إنجلترا وإيطاليا وألمانيا ، ونودى آنذاك بفولتير أعظم شاعر على
قيد الحياة فى فرنسا ، وخلفاً صاملاً لكورنى وراسين . ولكن هذا لم
يرق فى عيني جان بابتيست روسو ، وهو شاعر فرنسى مقيم فى المنفى فى
بروكسل ، فحكم على زائير بأنها « مسرحية تافهة فائرة . . . مزيج كريبه
من التدين والفجور » . فرد عليه فولتير شعراً فى معبد الذوق « يشهر
فيه بروسو ويمجد مولير .

ويبلغ فولتير ذروة المجد وعائق النجوم ، ولكنه لم يكف عن العمل .
ففى شتاء ١٧٣٢ - ١٧٣٣ درس الرياضيات كما درس نيوتن ، مع ضحيته
مستقبلاً موبرتوي Moupertuis ، وأعاد كتابة « ايريفيل Eriphile »
وتفح زائير وشارل الثانى عشر ، وجمع مادة كتابه « قرن لويس الرابع

عشر « ووضع اللمسات الأخيرة على كتابه «رسائل عن الإنجليز» وأخرج مسرحية أخرى (أليد) كما كتب أشياء صغيرة لاتخصي : رسائل ، قصائد مدح ، اقتراحات ، بعض الحكم الساخرة ، بعض أغاني الحب - وكلها تنسم بالظرف في نظم رقيق مصقول . وعندما ماتت مضيفته السخية ، مدام دي فونتين سارتل ، انتقل إلى داره في شارع (لونج بزبان) واشتغل بتصدير القمح . ومد جمع بين التجارة والقصص ، فإنه التقى (١٧٣٢) بالسيدة جبريل اميلي لى تونلييه دي برتيل مركيزة دي شاتيليه ، وارتبطت حياته بحياة السيدة الفذة المغامرة حتى وافاه الأجل المحتوم .

وكانت آنذاك في السادسة والعشرين (وهو في الثامنة والثلاثين) ، وكانت حياتها بالفعل حافلة متعددة الجوانب فهي ابنة البارون دي برتيليه ، ولذلك تلقت تعليماً غير عادي . حتى أنها في سن الثانية عشر تعلمت اللاتينية والإيطالية وغنت غناء رخياً ، وعزفت على البيان الصغير ، وبدأت في سن الخامسة عشرة تترجم الإلياذة إلى الفرنسية شعراً ، وأضافت إلى هذا اللغة الإنجليزية ودرست الرياضيات على يدي مويرتوى . وفي التاسعة عشرة تزوجت الماركيز فلورنت كلود دي شاتيليه لومونت ، وكان في الثلاثين من العمر . وأنجبت له ثلاثة أطفال . ولكن فيما عدا هذا لم يكن للواحد منهما يرى الآخر إلا لماماً ، حيث كان هو عادة مشغولاً مع فرقته ، أما هي فبقيت قريبة من الحاشية وقامت بمسالف طائلة ، وجربت الحب . فلما هجرها عشيقها الأول تناولت سمّاً ، وأنقلوها على كره منها بواسطة عقار مقيء ، واحتملت في رباطة جأش جريبتها من قبل ، هجران عشيق ثان هو الدوق دي ريشيليو ، لأن كل فرنسا عرفت قصة قلبه بين النساء .

والتقى فولتير بالمركيزة على مائدة العشاء فلم ينزعج ، بل سرته قدرتها على التحدث في الرياضيات والفلك والشعر اللاتيني . ولم تكن مفاتها طاغية لا سبيل إلى مقاومة إغرائها ، ولكن سيدات أخريات أسرفن ، في وصفها ، استمع إلى مدام دي دفان وهي تقول : (امرأة ضخمة متحفظة لا أوراك لها ، صدرها هزيل ؛ . . . ذات ذراعين ضخمين ورجلين

كبيرين ، وقدمين ضخمتين ، ورأس صغير جداً ، وقسمات حادة ، وأنف محدد وعينين صغيرتين خضراوين تميلان إلى الزرقة . سمراء البشرة أسنانها رديئة ^(١٠) ، واتفقت معها المركيزة دى كريكي فقالت « إنها عملاقة - ماردة ، ذات قوة جبارة ، وكانت فضلا عن ذلك آية في القبح والبشاعة ، وكان جلدها في لون مبشرة جوزة الطيب الداكنة ، إنها تشبه في جملتها جندياً طويلاً القامة قبيح الصورة . ومع ذلك نتحدث فولتير عن جمالها ^(١١) » . أن سانت لامبرت الوسيم أحبها سرّاً عند ما كانت في الثانية والأربعين . وليس لنا أن ننق في رأى السيدات بعضهن في البعض الآخر . وقد يتبين من صورها الشخصية أن اميلي كانت طويلة القامة مسترجلة ، ذات جبهة مديدة ونظرة متعجرفة ، ولم تكن قسمات وجهها غير جذابة ، وقد نشعر بشيء من الاطمئنان إذا علمنا أن (لها صدرأ شهنائياً ولكنه راسخ ^(١٢)) .

ويمكن أن تكون اميلي قد كان فيها ما يكفى من الرجل ليكمل المرأة في فولتير . ومهما يكن من أمر فإنها لجأت إلى كل الحيل والوسائل الأنثوية لتصلح ما أفسد الدهر من جمالها - مستحضرات التجميل والعمطور والمجوهرات والحلى والخمرات . ويغر فولتير من ولعها بالتزين . ولكنه أعجب بتحمسها للعلوم والفلسفة . فهنا سيدة استطاعت حتى في غمرة الصخب والضوضاء في باريس وفرساي أن تنسحب من مائدة القمار ، لتدرس نيوتن ولوك ، إنها لم تقرأ نيوتن فحسب بل أنها استوعبته كذلك وهي التي ترجمت قوانين نيوتن إلى الفرنسية ، ووجد فولتير أنه من اللائق أن يتخذ من نفس المرأة رفيقة دراسة وعشيقة في وقت معاً . وفي ١٧٣٤ اعتبر نفسه بالفعل الرجل الذي ترضيه عشيقاً لها : (يا إلهي ! أية لذة ومتعة أجدها بين ذراعيك كم أنا سعيد بالإعجاب بالمرأة التي أحبها ^(١٣) !

٢ - رسائل عن الإنجليز

في عامي ١٧٣٣ و ١٧٣٤ نشر فولتير بعد عناء شديد أول إسهامه في عصر الاستنارة ، وكان عبارة عن ٢٤ رسالة موجهة من انجلترا إلى تييريو

وترجمت إلى الإنجليزية وصدرت في لندن (١٧٣٣) رسائل متعلقة بالأمة الإنجليزية . ولكن كان في طبع الأصول في فرنسا مغامرة بحرية المؤلف وصاحب المطبعة كليهما . وخفف فولتير من بعض الأجزاء ، وحاول أن يحصل على إذن من الحكومة بطبع البقية ، فرفضوا منحه الترخيص ، وهنا لجأ ثانية إلى نشرها سراً في روان . وحذر الناشر جور من تسرب أية نسخة للتداول لبعض الوقت على الأقل ، ولكن في أوائل ١٧٣٤ ، وصلت عدة نسخ إلى باريس تحت عنوان « رسائل فلسفية » . وحصل أحد قراصنة الناشرين على نسخة ، وأصدر منها طبعة كبيرة العدد دون علم فولتير . وفي نفس الوقت كان فولتير ومدام دي شاتيليه قد قصدا إلى قصر مونتجي بالقرب من أوتون على مسافة ١٩٠ ميلا من باريس ليحضرا حفل زفاف ريشيليو :

وبدأ الكتاب بأربع رسائل عن جماعة الكويكرز الإنجليزية ، وأوضح فولتير أن هؤلاء الكويكرز ليس لهم تنظيم كنسى ولا قساوسة ولا أسرار ولا قرابين مقدسة ، ومع ذلك مارسوا الشعائر المسيحية في إخلاص وإيمان أكثر من أى مسيحيين عرفهم . ووصف أو تخيل زيارة قام بها لواحد منهم وقال : « سألت واحداً منهم : سيدى العزيز ، هل عمدوك ؟ فأجاب « لا لم أعمد لا أنا ولا إخوتي » . وصححت في وجهه : عجباً كيف يكون هذا إذن أنتم لستم مسيحيين ! فأجاب في صوت هادىء خفيض يابى ، لا تقسم ، نحن مسيحيون » . ونحن نحاول أن نكون مسيحيين صالحين ، ولكننا لانرى أن المسيحية مجرد صب ماء بارد مع قليل من الملح على الرأس وعارضته . (يا إلهى ! لا تتحدث بهذا الضلال ! هل نسيت أن يوحنا عمد المسيح ؟) فرد قائلاً : يا صاحبي ، لا تقسم بعد ذلك ، إن يوحنا عمد المسيح ولكن المسيح لم يعمد أحداً . . . ونحن أتباع المسيح لا أتباع يوحنا فقلت له : (واحسرتاه أنها المسكين جزاؤك الحريق في بلاد محاكم التفتيش وسألنى (هل أجروا لك عملية الختان ؟) .

فأجبت (لم يكن لى شرف الختان) .

فقال : (حسناً ، أبت مسيحيّ دون ختان ، وأنا مسيحيّ دون تعميد)

وقال الكويكرز إن التعميد مثل الختان من العادات السابقة على المسيحية وقد أبطلها إنجيل السيد المسيح الجديد . ثم استطرد فولتير يتحدث عن الحرب (لن نذهب أبداً إلى الحرب ، لا لأننا نخشى الموت ، بل لأننا لسنا ذئاباً ولا نموراً ، ولا كلاباً نحن رجال مسيحيون . أن إلهنا الذي أمرنا نحن أعداءنا يقينا لا يريد منا أن نعبّر البحر لنقتل إخوة لنا ، مجرد أن السفاحين الذين يرتدون ثيابها في لون الدم وقبعات عالية ترتفع إلى قدمين يجندون المواطنين بينما يحدثون جلبة بائنتين من العصي ممدتين على جسم حمار . وبعد النصر تتألق لندن كلها في الأضواء وتلتهب سماؤها بالألعاب النارية وطلقات المدافع ، على حين نرثي في صمت للمذبحة التي أدت إلى مثل هذا الابتهاج العام^(١٣) .

لقد أوذيت فرنسا أيما إيلذاء ، وكادت أن تدمر نفسها لمحاولتها فرض عقيدة واحدة على جميع الفرنسيين . وأسهب فولتير في وصف التسامح بالنسبة للخلافات الدينية في إنجلترا . « هذه بلد الطوائف . والرجل الإنجليزي ، باعتباره حراً يسلك إلى السماء الطريق الذي يختاره .^(١٤) ووازن فولتير بين أخلاق رجال الدين الإنجليزي وأقرانهم الفرنسيين ، وهنا الإنجليزي بأنهم ليس لديهم رهبان . إن الإنجليزي ليحمدون الله ويشكرونه على أنهم بروتستانت حين يعلمون أن الشبان الفرنسيين المعروفين بفسقهم وفجورهم يرقون إلى مناصب الأساقفة والمطارنة بفعل الدسائس ، ويؤلفون الأخافى الرقيقة ويقيمون ولائم العشاء الباذخة كل يوم تقريباً ، ويطلقون على أنفسهم أنهم خلفاء الرسل .^(١٥) وفي الرسالة الثامنة أدار فولتير الخنجر إلى صدر الحكومة في فرنسا : « إن الأمة الإنجليزية وحدها هي التي عرفت كيف تحدد سلطة الملوك بوقوفها في وجههم . . . وأخيراً أقامت هذه الحكومة الرشيدة ، وفيها يتمتع الملك بكل القوة والسلطة في أن يفعل الخير ، على حين تغل يدها عن الإتيان بأي شر أو سوء . (وهنا يردد فولتير عبارة مشهورة مأثورة عن رواية فيليون « تلياك » . ان إقرار الحرية في إنجلترا تطلب ثمناً غالباً

ولا ريب ، فقد أغرق صنم الحكم الاستبدادى المطلق في بحر من الدماء ، ولكن الإنجليز لا يرون أنهم اشتروا القوانين العادلة الصالحة بثمن باهظ ، فهناك أمم أخرى مرت بمحن وأوقات عصيبة لا تقل عما عاناه الإنجليز ، ولكن الدماء التي أريقَت دفاعاً عن قضية الحرية لم تكن إلا ثميناً لعبوديتها^(١٦)

إن حق التحقيق في قانونية حبس التهم في إنجلترا يحرم السجن دون قضية محددة ، ويتطلب محاكمة علنية ، بواسطة المحلفين ، أما في فرنسا فهناك « الأوامر السرية المختومة » . وقبل مونتسكيو بأربعة عشر عاماً ، رأى فولتير « فصل السلطات في الحكومة الإنجليزية وامتدحه وبالغ فيه ، كما رأى تسويق العمل بين الملك ومجلس اللوردات ومجلس العهوم . وأشار فولتير إلى أنه لا يمكن فرض ضرائب إلا بموافقة البرلمان » « وأنه لا يعنى أحد من ضرائب معينة . . . لأنه نبيل أو كاهن . »^(١٧) وفي إنجلترا يشغل صغار أبناء النبلاء بالتجارة وبمختلف المهن ، أما في فرنسا فإن التاجر غالباً ما يسمعون يتحدثون عن مهنته في ازدراء واحتقار ، حتى يبلغ به الحمق إلى حد الشعور بالخزي والعار من الاشتغال بالتجارة . ولست أدري أيهما أنفع للدولة — نبيل متأنق يعرف بالضبط متى يصحو الملك من نومه أو يأوى إلى فراشه ، ويستشعر العظمة حين يقوم بدور العبد الرقيق . . . أو رجل أعمال (مثل فوكنر مضيف فولتير في لندن ، يثرى وطنه ويصدر الأوامر من مكتبه إلى سورات والقاهرة ، ويسهم في اسعاد العالم بأسره^(١٨)) وأخيراً في قطعة تضمنت برنامجاً لفرنسا ذهب فولتير إلى : « أن الدستور الإنجليزي بلغ قمة التفوق وكان من نتيجة ذلك أن كل الناس استعادوا حقوقهم الطبيعية ، على حين أنهم محرمون منها في سائر الملكيات تقريباً . وهذه الحقوق هي الحرية الكاملة في أشخاصهم وفي ممتلكاتهم : حرية الصحافة حق المحاكمة بناء على نص صريح في القانون ، وحق كل إنسان في اعتناق العقيدة التي يرتضيها دون إزعاج . »^(١٩)

ولا بد أن فولتير عرف أن فريقاً من الناس فقط هم الذين تمتعوا بهذه الحقوق الطبيعية ، وأن الحرية الشخصية لم تنحصر من خطر الرقابة الصحفية ،

وينصرفوا إلى دراسة نيوتن . إن حكم الرأي العام في إنجلترا على هذين المفكرين هو أن أولهما كان حالما والثاني حكيما . وقدر فولتير أعظم تقدير إضافات ديكارت إلى الهندسة ، ولكنه لم يستغ الدوامات الكونية عند ديكارت . إنه أقر بأن ثمة شيئا وهما غامضا ، أو على الأقل مخدرا في مقالات نيوتن عن الكرونولوجيا القديمة (تقسيم الزمن إلى فترات وتعيين تاريخ الأحداث) وسفر الرؤيا ، وأوحى فولتير بشكل لطيف بأن نيوتن كتب هذه المقالات ليعزى البشرية عن تفوقه البالغ عليها^(٢١) إنه وجد أن نيوتن ما زال عويصا يصعب فهمه ، ولكن اجتماع الرجال البارزين في الحكومة وفي ميدان العلوم لتشجيع جنازته ترك في نفسه أثرا عقد معه العزم على دراسة قوانين نيوتن ، وعلى أن يكون رسول نيوتن إلى فرنسا ، وهنا أيضا غرس فولتير بذور دائرة المعارف وعصر التنوير .

وأخيرا صدم فولتير الفكر الديني في فرنسا بنقد لاذع وجهه إلى آراء بسكال . إنه لم يقصد تضمين هذا في رسائله ، فليس لهذا علاقة بإنجلترا : ولكنه كان قد أرسله من إنجلترا إلى تيير ١٧٢٨ ، فألحقه الناشر اللص بالرسائل باسم الرسالة رقم ٢٥ ، وكانت النتيجة أن الجانسينيين - الذين قدسوا بسكال إلى حد العبادة ، وسيطروا على برلمان باريس - ، فاقوا الآن اليسوعيين (الذين لم يحبوا بسكال قط) في استنكار فولتير وشجبه وكان فولتير غير قابل أساساً للاتفاق مع بسكال حيث كان في هذه المرحلة (اللهم إلا في رواياته) عقلانيا متشدداً لم يكن قد وجد بعد مجالاً للوجدان في فلسفته . وكان لا يزال شابا ممتلئا حيوية ونشاطا ينعم بالحياة وسط محنة البطولية ، ومن ثم عارض التشاؤم الجزوع الكئيب عند بسكال « ولسوف أتجاسر فأقوم بدور الجنس البشري ضد هذا المبعض للبشر المهيب »^(٢٢) ورفض « رهان » بسكال (أى أنه من الأحكم أن نراهن على وجود الله لا العكس) باعتباره عملا صهيانيا يجافي الحشمة والوقار . . . إن اهتمامي بالاعتقاد بشيء ليس برهاناً على أن هذا الشيء موجود «^(٢٣) ولم يعرض بسكال الرهان (على أنه برهان) وسلم بأنه ليس في مقدورنا أن نفسر الكون أو نعرف قدر

وأنه كانت هناك حدود وقيود على حرية الكلام في الدين وفي السياسة ، وأن المنشقين والكاثوليك كانوا مستبعدين من الوظائف العامة . وأنه كان من الميسورة في إنجلترا رشوة القضاة ليتجاهلوا القانون . إن فولتير لم يدون وصفا نزيها لواقع إنجلترا . أنه كان يستخدم إنجلترا سوطا يحرك به الثورة في فرنسا ضد ظلم الدولة أو الكنيسة . أن كون كل هذه الحقوق تقريبا أصبحت الآن قضية مسلما بها في البلدان المتحضرة يضمنى على ما أنجزه القرن الثامن عشر روعة وجلالا .

ولا يقل عن هذا أهمية في أثره على الفكر الحديث امتداح فولتير لبيكون ولوك ونيوتن . إنه قال عن بيكون الذى أتهموه وجرحوه ما حكم به بولنجيزوك على مالبرو « إنه رجل بلغ من العظمة حدا لا أستطيع معه أن أتذكر هل كان له أخطاء أم لا » ^(٢٠) ثم أردف يقول « إن هذا الرجل العظيم بيكون هو أبو الفلسفة التجريبية لا من أجل التجارب التى قام بها ، بل بما وجه من نداءات قوية للهوض بالبحث العلمى . وتلك هى الفكرة التى حدث بديدرو ود المبرت إلى القول بأن بيكون هو أول من أوحى إليهم بدائرة المعارف التى وضعوها .

وخصص فولتير لجون لوك كل الفصل الثالث عشر تقريبا . إنه لم يجد فيه مجرد علم العقل بدلا من أسطورة النفس ، بل وجد فلسفة كاملة حتى انه بارجاعه كل المعرفة إلى الشعور ، حول الفكر الأوربي عن الإلهام الإلهى إلى الخبرة الإنسانية ، باعتبارها المصدر الوحيد للحقيقة وأساسها . ورحب برأى لوك فى انه يمكن تصور إن المادة يمكن تمكينها من التفكير وغصت بهذه العبارة بالذات حلوق رجال الرقابة الفرنسية ، وكان لها أثر كبير فى الحكم على الكتاب وادانته . ويبدو أنهم تذبأوا فيها بمادية لامترى وديدرو . ورفض فولتير ان يسلم نفسه إلى المادية ، ولكنه عدل عبارة ديكارت « أنا أفكر إذن أنا موجود » إلى « أنا جسم وأنا أفكر ولاشئ غير هذا » .

أشارت الرسالة لإداعة عشبة عالم الفرنسية، أن تخلصها من ديكارت

الإنسان ، ولكنه ارتاب في أننا نستطيع من هذا الجهل أن نستنتج صدق قانون الإيمان المسيحي الذي جاء به الرسل . كما أنه لم يحس في هذا العصر المرح المغم بالحوية بأى تعاطف مع تطلع بسكال إلى الراحة والدعة ، حيث نادى بأن الإنسان « خلق ليعمل . . . فعدم العمل وعدم الوجود سيان بالنسبة للإنسان (٢٤) » .

وليست « ملاحظات على أفكار بسكال » أفضل ما كان يمكن أن تجود به قريحة فولتير . إنه لم يكن قد أعد لها للنشر ، ولم يكن لديه الفرصة لمراجعتها وتنقيحها . وقضت الأحداث اللاحقة — مثل زلزال لشبونة — على نصارة تفاؤله الفتي . وعلى الرغم من هذا الملحق غير المدروس وغير الجدير بالاعتبار ، فإن « الرسائل الفلسفية » كانت أحد المعالم البارزة في الأدب الفرنسي والفكر الفرنسي . فهنا لأول مرة ظهرت الجمل الموجزة الدقيقة والوضوح المبين والذكاء المرح والتهكم اللاذع ، وأصبح كل هذا منذ الآن طابعا أدبيا يمزا يتجاوز ويتجاهل الحرص على إنكار اسم المؤلف . إن هذا الكتاب ، وكتاب الرسائل الفارسية حددا أسلوب النثر الفرنسي من عهد الوصاية إلى عصر الثورة . وفوق هذا فإنها أحكمت حلقة من أقوى الحلقات في الربط بين المفكرين الفرنسيين والإنجليز ، وهي كما قدر بكل « أهم حقيقة إلى حد بعيد في تاريخ القرن الثامن عشر » (٢٥) إنها كانت بمثابة إعلان حرب ومخطط شن حملة . وقال روسو عن هذه الرسائل انها قامت بدور كبير في إيقاظ عقله . ولا بد أن آلافا من شباب فرنسا دانوا لها بمثل هذا الفضل . وقال عنها لافاييت انها صيرته جمهوريا وهو في التاسعة من عمره . ورأى هين « إنه لم يكن لزاما على رقيب المطبوعات أن يصادر هذا الكتاب حيث كان لا بد من قراءته بغير هذا الإجراء » (٢٦)

وأحست الكنيسة والدولة والملك والبرلمان أنهم لم يعودوا يطيقون صبرا على مثل هذه الجراح الكثيرة في صمته ، فأرسل صاحب المطبعة إلى سجن الباستيل ، وصدر أمر سرى مختم بالقبض على فولتير أينما وجد . وفي ١١ مايو ١٧٣٤ ظهر أحد رجال الشرطة يحمل أمرا بالقبض عليه . ولكن من

المحتمل أن موبرتوى ودارجنتال كانا قد حللوا فولتير فغادر فرنسا قبل ذلك بخمسة أيام . وبناء على أمر من البرلمان في ١٠ يونيو أحرق كل ما وجد من نسخ الكتاب بيد مأمور التنفيذ العام في فناء قصر العدل باعتباره عملاً شائناً يناهى الدين والأخلاق القومية ويتعارض مع الاحترام الواجب للسلطات العامة .

وقبل معرفة المركيزة دى شاتيليه بوصول فولتير سالما إلى اللورين كتبت إلى صديق لها : « أنا لا أطيق صبراً على مجرد علمى بأنه في السجن وهو في مثل هذه الصحة والعافية وقوة الخيال . وأنا لا أحبذ ذلك مطلقاً » . وأجمعت هذه السيدة والدوقة دى بشيليو وغيرهما من السيدات ذوات المكانة الرفيعة أمرهن على العمل معاً للحصول على عفو عنه . ووافق حامل الاختام على إلغاء أمر القبض إذا أنكر فولتير تأليفه للكتاب . لكن تلك كانت خدعة لأنه علم علم اليقين أن فولتير هو المؤلف . وكان حامل الاختام هذا أحد موظفي الحكومة الذين لطفوا من حدة الرقابة من آخر بالأعضاء عما في الكتاب من مآخذ . ووافق فولتير فوراً على إنكار أنه المؤلف . وهذه كذبة يبضاه من الممكن الصفح عنها بسهولة . فضلاً عن أن الكتاب الذي برئ من تأليفه وزع دون موافقة . وكتب فولتير إلى الدوقة دى ايجويون :

يقولون إنه يجب على أن أراجع . . . بكل سرور . . . سأعلن أن بسكال على حق دائماً وأن القساوسة مهذبون وديعون منزهون عن الغرض « وإن الرهبان ليسوا متعاطسين ولا منصرفين إلى تدبير النساء ، ولا حقراء وأن محاكم التفتيش المقدسة هي انتصار للإنسانية والتسامح » (٢٧) .

وألغى أمر القبض على شرط أن يبقى فولتير بعيداً عن باريس . فنتقل من قصر إلى قصر قرب حدود المدينة ورحب به النبلاء الذين لم يتمسكوا كثيراً بأهداف الدين ، كما لم يميلوا مطلقاً إلى الحكومة الملكية المركزية المستبدة وتلقى دعوة بالإقامة في بلاط هولشتين مع معاش للدره عشرة آلاف فرنك سنوياً ولكنه رفض (٢٨) وفي يولييه أوى إلى قصر مدام دى شاتيليه في سبرى

في شبانيا . وهناك وهو الضيف الذي يتحمل نفقات عشيقته وروجها بدأ
أسعد سني حياته .

٣ - أنشودة الحب في سيرى ١٧٣٤ - ١٧٤٤

سيرى الآن قرية عدد سكانها ٢٥٠ شخصاً في مقاطعة المارن الأعلى في
شمال شرق فرنسا على بعد بضعة أميال من اللورين ، وصفتها مدام دنيس
ابنة أخي فولتير ١٧٣٨ بأنها منزلة موحشة على بعد أربعة فراسخ من
المران في منطقة لا يرى المرء فيها شيئاً غير الجبال والأرص غير المزروعة^(٢٩)
وربما أحبا فولتير لأنها بقعة هادئة حيث يستطيع أن يتفرغ فيها للدراسة
العلوم وكتابة التاريخ والفلسفة ، وتنساه الحكومة الفرنسية . أما إذا لاحقته
فإنه يستطيع الانطلاق منها هرباً إلى اللورين في ظرف ساعة واحدة .

وكان القصر طلالاً متهدماً من مخلفات القرن الثالث عشر . قلما أقام فيه
آل شاتليه ولم يكن يصلح للسكنى منذ أمد بعيد ، ولم يهتم الماركيز باصلاحه ،
أو لم يكن لديه المال لهذا الغرض ، فأقرضه فولتير ٤٠ ألف فرنك بفائدة
قدرها ٥ ٪ للقيام بالاصلاحات اللازمة ولم يطالب الماركيز قط بسداد هذا
القرض . وأعدت بعض غرف شغلها فولتير ، وأمر ببناء جناح جديد ،
وأشرف على ترميم بقية القصر . وفي نوفمبر وصلت الماركيزة ومعها مائتا
حقيبة من الأمتعة ، وعدلت من إصلاحات فولتير بما يتناسب مع ذوقها
الخاص ، وأقامت هناك - وهي التي كانت قضت معظم سني شبابها بين
الحاشية الملكية أو قريباً منها - منصرفة إلى الدراسة مع زوجها وعشيقتها
في وقف معا . وأقام الماركيز اللطيف معها ومع فولتير بين الحين والحين
حتى ١٧٤٠ ، محتفظاً لنفسه في لباقة بشقة خاصة به وبمواعيد خاصة لتناول
الطعام وحده . وبعد ذلك قضى معظم وقته مع كتيبته . وكانت دهشة فرنسا
وإعجابها بكياسة الزوج أقل منها باخلاص العشيقين .

وفي ديسمبر عادت مدام شاتليه إلى باريس وزارت الدوقة رويشيليو
في معتقلها ، وأقنعت الحكومة بإلغاء الأمر باقصاء فولتير عن العاصمة
(٢ مارس ١٧٣٥) فقصده إلى باريس وأقام فيها عدة أسابيع مع خليلته ،

ولكن ماضيه لاحقه . فإن أجزاء من شعره الفاجر كان يتناقلها الناس . ولم يتمالك هو نفسه قراءة بعض قطعه القوية على أصدقائه . كما نشر أحد الناشرين اللصوص « رسالة إلى أورانيا » . وكان فولتير قد كتبها قبل ذلك بخمس عشرة سنة . وقد هاجم فيها المسيحية ، فأنكر أنه مؤلفها بطبيعة الحال ولكنها كانت تحمل بصمات أسلوبه وفكره . ولم يصدق إنكاره أنه المؤلف ، فهرب ثانية إلى اللورين ، ومنها في حيلة وحذر إلى سبرى . وتلقى من الحكومة تأكيدات عن طريق غير مباشر بأنه إذا ظل هناك دون أن يرتكب أية مخالفة أخرى فلن يعكر صفوه أحد . رلحقت به مدام دى شاتيليه مع ابنتها وابنها ومعلمهما ، وكان طفلها الثالث قد مات . وهنا أخيراً بدأ شهر عمل فلسفى .

وكان لسلك من الفيلسوفين مجموعة غرف خاصة به على جانبي القصر . وكانت شقة فولتير تتكون من حجرة انتظار ومكتب ومكتبة وحجرة نوم وكسيت الجدران ينسجج من المعمل الأحمر المنقوش ، وازدانت باللوحات التي اقتنى منها فولتير مجموعة ثمينة منها لوحة من رسم تيشيان وعدة لوحات من رسم تنيير . كما كان هناك تماثيل فينوس وكويبيد وهركيوليز . ولوحة كبيرة لصديقها الجديد الأمير فرديك ولى عهد بروسيا . وعلى حد تعبير مدام جرافيني . كانت النظافة تامة في هذه الحجرات إلى حد « يمكن معه تقبيل الأرض » (٣١) أما جناح المراكيزة فكان مختلفاً عن هذا ذوقاً: اللون الأصفر الناتج واللون الأزرق الباهت مع لوحات من رسم فيرونيز وواتو ، وصورة السقف وارضيته من الرخام . ومائة من الصناديق والزجاجات الصغيرة والحواتم والمجوهرات وأدوات الزينة متناثرة هنا وهناك في حجرة ملابسها الصغيرة . وبين مجموعتي الغرف كانت هناك قاعة كبيرة أعدت لتكون معملاً للفيزياء والكيمياء . فيها مضمخات هواء ومقاييس حرارة وأفران وبوتقات ومنظار مقرب (تلسكوب) ومجهر (ميكروسكوب) ومنشورات وبوصلات وموازين . وكان هناك عدة غرف للزوار . لم تكن مؤثثة تأثيثاً جيداً . وعلى الرغم من القماش المنقوش على الجدران كانت رياح الغابات (م ١٣ - قصة الحضارة)

تتسأل إلى القصر من خلال الشقوق والنوافذ والأبواب . وكان لزاما لتدفئة هذا القصر إلى حد مقبول وجود ٣٦ مدفأة تستهلك في اليوم الواحد ستة (كوردات) من الخشب (الكورد = ٢٨ قدما مكعبا من الخشب) . ويمكن أن نتخيل عدد الخدم اللازمين له ، أضف إلى ذلك مسرحا لأن فولتير كان يجب أن يمثل وبخاصة في رواياته هو وإنه ليؤكد لنا أن المركيزة كانت ممثلة بارعة ، وكان الضيوف والمعلم والخدم يجيطون بشخصيات الرواية ، ويقتوا بالأوبرا ، أحيانا لأن المركيزة (كما يؤكد فولتير مرة أخرى) كان موتها ملائكيا . كما كان هناك عروض لمسرح العرائس وعروض بالقانوس السحري ، قرنها فولتير بتعليقات أغرقت الحاضرين في الضحك .

ولكن اللهو كان طارئا أما العمل فكان نظاما يوميا . وكان العاشقان عادة ، يعملان منفصلين كل في نطاقه ، ولو أنهما تعاونتا أحيانا في العمل ، وقلما كان الواحد منهما يرى الآخر في أثناء النهار إلا في وجبة الطعام الرئيسية عند الظهر تقريبا . وكان المركيز يترك المائدة قبل أن يبدأ الحديث . وغالبا ما انسل فولتير أيضا إلى مكتبه تاركا الآخرين يتسامرون . وكان له هناك أدوات مائدته الخاصة به لأنه يتناول طعامه وحده أحيانا . وأنا لمرى قبه بحق محدثا ممتعنا بالحوية ، ويمكن أن يكون محط الأنظار ومبعث الحياة في أى اجتماع يشهده ، ولكنه كان يكره الحديث التافه . وكان يقول « هذا الوقت الذى نقضيه في الحديث يزعجنى كثيرا ويجعل بنا ألى نضيع دقيقة واحدة ، إن أكثر ما نضيع هو الوقت ^(٣١) وكان يخرج أحيانا لصيد الغزال حبا في الرياضة .

وجدير بنا ألى تصور الرفيقين الفيلسوفين على أنهما ملاكان ، فيمكن أن تكون السيدة جافة مستبدة بل قاسية بخيلة بعض الشيء عنيفة مقترنة مع خدمها وكانت تمتع إذا تقدم فولتير أجراً أكبر ، ولم يكن بها استحياء من شيء في جسمها ، فلم تكن تأبه كثيرا بلطع ملابسها جميعا أمام سكرتيرها لو نجشامب ، أو تكليفه بصب الماء الساخن عليها وهى في الحمام . وكانت

تطلع خفية على الرسائل التي يكتبها ضيوفها أو ترد إليهم ، وليس لدينا دليل على هذا إلا شهادة سيدة أخرى ^{٣٣} أما فولتير فكان له مئات الأخطاء التي ستكشف في الوقت المناسب . كان شاعراً مزهواً وكان سريع الغضب والتجهم كأنه طفل ، وكثيراً ما هاجم عشيقته وتشاجر معها ، وما كان هذا الشجار على أية حال إلا سحب سيف تؤكد سادة أيامهما ، وسرعان ما كان فولتير يعود إلى هدوئه وابتسامته وابتهاجه . وما كان يمل الحديث عن سعادته وعن حبه لرفيقته بطريقته المأدبة . ونظم لها مائة قصيدة حب قصيرة كل منها تصوير بارع في فن محكم . وكانت إحدى هذه اللرر الأدبية مع خاتم من حجر كريم نقشت عليه صورته : « بنقش يبرز هله القسما ليقع عليها بصرك . أنظري إليها لتتري عينا بها . أما صورتك فهي منقوشة في أعماق قلبي بيد صناع أكثر حذقا وبراعة . » ^{٣٤} .

أما هي فقالت لا أطيق فراقه لمدة ساعتين دون أن يمزقني الألم ^{٣٥} . ومن بين العشيقين الفيلسوفين كانت هي أكثر انصرافاً إلى العلم وانكباباً عليه منه . ونفذت قانون سيادة المرأة غير المسطور في إخفاء مخطوطة كتاب فولتير « قرن لويس الرابع عشر » الذي لم يكمل بعد ، ووجهته بشدة إلى دراسة العلوم بوصفها الدراسة الحققة لرجل العصر الحديث . ووصفتها مدام دي جرانيبي ، وكانت ضيفاً عليها في ١٧٣٨ ، بأنها أكثر مثابرة على أبحاثها العلمية من فولتير ، حيث كانت تقضي معظم النهار وجزءاً كبيراً من الليل في مكتبها . وفي بعض الأحيان حتى الساعة الخامسة أو السابعة صباحاً ^{٣٦} . وكان موبرتوى يأتي من حين لآخر إلى سيري ليتابع دووسه لها في الرياضيات والفيزياء . وربما كانت هذه الزيارات بالإضافة إلى إهجاب المركيزة السافر بسعة علم موبرتوى ، هي التي أثارت الغيرة في قلب فولتير الشديد الحساسية ، فأدت إلى الملائكة والشجار بينهما في برلين .

وهل كانت دي شاتيليه عالمة باحثة حقاً ، أم أنها اتخذت من العلم ميلاً للأناقة ومجارة مقتضيات العصر . ورأت مدام دي ديفان وبعض سيدات أخريات أن دراستها وأبحاثها كانت مجرد مظهر كاذب ، وزعمت المركيزة

دى كريكى « أن الجبر والهندسة اقتربا بها من حافة الجنون ، على حين أن تحذلقها وكلفها الشديد بموضوع دراستها جعلها لا تحتمل . والواقع أن ذهنها ثشوش بكل ما تعلمته أو عرفتته (٣٧) ولكن استمع إلى مدام دى جرافيني وهي تصف لنا جلسة في سيري .

« في هذا الصباح قرأت علينا ربة البيت عملية هندسية لمؤلف إنجليزي حالم . . . وكان الكتاب باللغة اللاتينية ؛ وقرأته علينا بالفرنسية ، وترددت لحظة عند كل عبارة ، وكأني بها تفهم العمليات الهندسية ، ولكن لا ، لأنها تراجعت بسهولة المصطلحات الهندسية والأرقام والألفاظ الغريبة ، ولم تتوقف في شيء . ألا يثير هذا الدهشة حقاً ؟ (٣٨) .

وأكد فولتير لتيريوي أن مدام دى شاتيليه كانت تعرف الإنجليزية جيداً ، وأنها عرفت كل مؤلفات شيشرون الفلسفية ، وكانت مولعة جداً بالرياضيات والميتافيزيقا (٣٩) . وذات مرة بزت العالم الفيزيائي وعضو الأكاديمية دى ميران في مناقشة عن الطاقة الحركية (٤٠) وقرأت شيشرون وفرجيل في الأصل اللاتيني وأريستو وتاسو بالإيطالية ، ونيوتن بالإنجليزية ، وعندما زار الجاروتي سيري تحدثت معه بالإيطالية . وكتبت ولكن لم تنشر كتابا من ستة مجلدات عن دراسة « سفر التكوين » ، مبنية على أعمال الربوبيين الإنجليزي عرضت فيه للمتناقضات والأشياء البعيدة الاحتمال والأعمال غير الأخلاقية والأفعال الظالمة في الكتاب المقدس . وكانت رسالتها عن السعادة بحثاً أصيلاً عن أسس السعادة ، حيث رأت أن هذه الأسس هي الصحة والحب والفضيلة والانفاس الداعي العقلاني ، ثم طلب العلم والمعرفة . وترجمت قوانين نيوتن من اللاتينية إلى الفرنسية ، وأشرف على طبعها كليرو ، ونشرت بعد وفاتها بست سنوات (١٧٥٦) . وألفت عرضاً موجزاً لنظام العالم نشر في ١٧٥٩ وأعلن فولتير ربما من قبيل الشهامة والود ، أنه يفوق كتابه « مبادئ فلسفة نيوتن » (١٧٣٨) (٤١) وعندما أعلنت أكاديمية العلوم (١٧٣٨) عن جائزة لأحسن بحث عن طبيعة النار وانتشارها ، ودخل فولتير المسابقة كتبت هي مرا البحث وقدمته دون ذكر اسمها، وكتبته في الليل لتخفيه عن فولتير (حيث أتى في بحثي عارضت كل آرائه تقريباً (٤٢)) ولم يفز أي منهما بالجائزة التي حصل

أولر . ولسكن الأكاديمية طبعت مقاليلهما ، وامتدح كل منهما مقال الآخر في نشوة الحب العقلي .

ومن أجل موضوعه هو . قام بعدة تجارب بعضها في معمله وبعضها في مسبك في شومون المجاورة ^(٤٣) ودرس فولتير التكلس وكان قلاب قوسين أو أدنى من اكتشاف الأوكسجين ^(٤٤) . ونراه في مايو ١٧٣٧ يكتب إلى الراهب موسينو في باريس يطلب إليه كيميائيا للحضور إلى سيرى لقاء مائة جنيه سنويا مع الإقامة الكاملة . ولسكن كان على هذا الكيميائي أيضا أن يتلو القداس في أيام الآحاد والعطلات في كنيسة القصر ^(٤٥) . أنه من جانبه آمن الآن بالعلم وحده . وكتب في ١٧٤١ ينبغي أن نعتقد في صحة ما تكشف عنه لنا عيوننا وما تكشف عنه الرياضيات . أما فيما عدا هذا فيجدر أن نكتفى بالقول بأننا لا نعرف ^(٤٦) . فالفلسفة كانت تعنى عنده آنذاك خلاصة العلم :

وبهذا المعنى استخدم فولتير هذا الاصطلاح في مؤلفه « مبادئ فلسفة نيوتن أملأ في الترخيص الملسكى بنشره ، ولكنه لم يجب إلى طلبه ، وظهرت منه طبعة في أستر دام (١٧٣٨) دون موافقته . وصدرت طبعته هو هناك في عام ١٧٤١ ، وكانت عبارة عن مجلد ضخيم يضم ٤٤٠ صفحة ، نموذجاً رائعاً لنا يسميه الفرنسيون «دون تعمد الانتقاض من قدره» تبسيطاً ، أى محاولة لتيسير فهم العويص الصعب منه إلى أكبر حد ممكن . وأضاف المشرف على الطبع عنواناً فرعياً وضع ليكون في معناول الجميع . وغير الراهب ديفوتين هذا العنوان الفرعى في نقد غير ودى إلى « عويص على ككل الناس » وعلى النقيض من ذلك امتدح الجميع الكتاب بل أن اليسوعيين تقبلوه بقبول حسن في صحيفة تريفو ^(٤٧) . وهنا طردت الجاذبية التكونية التي كشفها نيوتن دوامات هيكرت من أذهان الفرنسيين . وشمل كتاب فولتير عرضاً لبصريات نيوتن ، وتحقق من التجارب في معمله الخاص ، وحاول لإجراء تجارب أخرى من عندياته ، وحاد عن طريقه قليلاً ، ليؤكد اتساق فلسفة

نيوتن مع الإيمان بالله . وفي نفس الوقت أكد شمولية التمانون في العالم المادى .

وعلى الرغم من كل هذه الجهود لم يكن لفولتير روح رجل العلم ولا تحديداته وقيل أنه أخفق في أن يكون رجل علم . وينبغى بنا أن نرجح القول بأنه كان شخصاً ثرياً متعدد الجوانب إلى حد لا يستطيع معه أن ينصرف إلى العلم كلى الانصراف بصفة نهائية . أنه استخدم العلم وسيلة لتحرير العقل ، حتى إذا تم له ما أراد انصرف إلى الشعر والمسرحية والفلسفة بأوسع معانيها ، والانهما كات الانسانية في الشؤون الأساسية في عصره «يجب أن نهيء الطريق في حياتنا لكل أساليب المعرفة والوجدان ونفتح أمامها الأبواب لتنفذ إلى نفوسنا، فإذا لم تبدد هذه شذو مندر فإن هناك مكاناً فسيحاً لكل شيء»^{٤٨} وهكذا كتب في ذلك الوقت (١٧٣٤) بحث في الانسان ردد فيه إلى حد كبير آراء بوب في نفس الموضوع ، حتى إلى درجة أجازة فكرة غير فولتيرية «كل شيء صواب»^{٤٩} . ونظم في هذه السنوات معظم غادة أورليان (جان دارك) . وربما كان هذا انتجاعاً لبعض الراحة من عناء نيوتن . وشرح فلسفته في رسالة في الميتافيزيقا ، وقد رأى من الحكمة أن يحجم عن نشرها .

وكانت رسالة فذة مثل سائر انتاجه ، وبدأها بأن تخيل نفسه زائراً وافداً من كوكب المشتري إلى كوكب المريخ ، ومن ثم رأى أنه لا يتوقع منه أن يوفق بين آرائه وبين ما جاء به الكتاب المقدس . وحط رحاله بين كفار جنوب أفريقية . وينتهى إلى أن الانسان حيوان أسود الجلد شعره شبيه بالصوف ، ثم يتقل إلى الهند ليجد أناساً صفر اللون ذوى شعر بسيط غير مجعد ، فيستنتج أن الانسان جنس يتألف من عدة أنواع متميزة لا تنحلر كلها من أصل أو سلف واحد^{٥٠} ويحكم من مظاهر النظام في العالم ومن التركيب المادى ذى المعنى في أعضاء الحيوان بأن هناك رباً ذكياً يصمم أو يركب صور الجميع . ولا يرى دليلاً على وجود نفس خالدة غير فانية

في الانسان ، ولكنه يشعر بأن ارادته حرة . وقبل ميوم وآدم سميت يزمن طويل نرى فولتير يستمد روح الأخلاق من التعاطف بين الناس بعضهم مع بعض ، وقبل هلفشيوس وبنتام بزمن طويل أيضا نرى فولتير يحدد الفضيلة والرذيلة بما هو مفيد وغير ضار بالمجتمع ^(١) وسنعود إلى هذه الرسالة فيما بعد .

وكم اختلفت هذه الرسالة عن الشعر المرح الذي نظمه فولتير في تاريخ جان دارك وأنا إذا فتحنا هذه الملحمة الساخرة اليوم فلا بد لنا أن يقفز إلى ذاكرتنا أن الكلام الفرنسي والأدب الفرنسي كانا أكثر تحررا آنذاك منهما في النصف الأول من القرن العشرين . ولقد رأينا نموذجا في الرسائل الفارسية للحاكم مونتسكيو ، بل أن ديدرو كان أكثر حرية لا في الجواهر المنظومة فحسب ، بل في جاك المؤمن بالقضاء والقدر كذلك . فإذا قورنت جان دارك بهذين الكتابين كما نشرها أخيرا فولتير في ١٧٥٦ ، لوجدناها معتدلة بشكل محمود . ومن المحتمل أن الأصل الذي جرى تداوله سرا كان أقرب إلى أسلوب رابيليه ، ودافع كوندروسيه الوقور الرزين عن القصيدية وروى أن مالشرب وهو أحد كبار موظفي الحكومة الفرنسية حفظها عن ظهر قلب ^(٢) ، ووجد في القسم الحادى والعشرين من القصيدة بعد بحث مجهد ، بعض أبيات معتدلة في فسقها وشهوانيتها يمكن التجاوز عنها مثل الصور الشبيهة بها عند آريوستو ، وقد عوض عنها بقطع كثيرة تقدم وصفا رائعا وسردا بارعا ، وكان فولتير مثل كثير من الفرنسيين في زمانه يرى في جان دارك بتنا فلاحه بريئة ساذجة ، وربما كانت ابنة غير شرعية استسلمت للخراقات واعتادت سماع (الأصوات) ، وارتاب في أن فرنسا كان لا بد أن تنقذ من الغزو الانجليزي حتى ولو لم تولد هي قط . وفيه عدا هذا ومع التسامح في بعض الأخطاء التاريخية ، فإنه روى القصة بأمانة مع تمليحها ببعض الدعايب ومال الملك برأسه نحو جان الباسلة التي لا تهاب شيئا ، وقال في صوت مهيب يرهبه الجميع إلا هي وحدها ، أنصتني إلى يا جان ، إذا كنت عذراء حقا فأقسمي اليمين ، فأجابت : مولاي العظيم ،

أصدر أوامرك الآن إلى الأطباء الحكماء الخبيرين بأسرار النساء ونظاراتهم على أنوفهم ، ورجال الدين والصيادلة وكبيرات المرضعات الخبيرات ليجتمعوا على الفور للفصل في الأمر ، فليدققوا النظر ويروا ومن هذا الجواب الحكيم عرف شارل أنها لا بد أنها ملهمة تلتقت وحيا ، وأنها تتمتع بنعمة العذوية . للمقدمة المباركة ، ثم قال الملك حسنا يا ابنة السماء ، ما دمت تعرفين كل شيء فأخبريني ماذا حدث بيني وبين زوجتي في الفراش في الليلة الماضية؟ توصل إليك تحذير بصراحة ، فقالت جان لالم يحدث شيء . فدهش الملك وركع وصاح بصوت عال : أنها معجزة ، ثم رسم علامة الصليب وانحنى احتراما واجلالا (٥٣) .

وقرأ فولتير على ضيوفه مقطعاً أو مقطعين من جان دارك رغبة في تسليتهم ، وليبعث الدفء في أمنيات الشتاء الباردة . وكانت مدام دي شاتليه تحتفظ بالمخطوطة الضمخة في خرز أمين ، وسمح فولتير في استخفاف وإهمال بتداول بعض الأجزاء بين أصدقائه ونسخ بعضها وتناقلها المجتمع غير المهذب على نطاق أوسع مما كان من الحكمة أن يكون . وكان الخوف من أن تقاضيه الحكومة الفرنسية - لا بسبب فحش القصيدة بل بسبب الهجاء اللاذع في بعض أجزاءها للرهبان واليسوعيين والأساقفة والبابوات ومحاكم التفتيش - من بواعث القلق والهموم التي أقضت مضجعه وعكرت عليه صفو حياته .

وكان فولتير أكثر جدية ووقارا في الزير Aizre ، التي بدىء بعرضها بشكل يدعو إلى السعادة والابتهاج على المسرح الفرنسي في ٢٧ يناير ١٧٣٦ . وحققت التاريخ المسرحي بارتداء الممثلين الثياب التي كانت سائدة في الزمان والمكان المحددين لأحداث الرواية - الغزو الأسباني لدولة بيرو وسلبها ونهبها . ويتوغل الفاريت الحاكم الأسباني للبلد المغلوب على أمره إلى المنتصرين أن يضعوا حداً لقسوتهم وجشعهم فيقول « نحن سوط العذاب الذي انصب على هذه الدنيا الجديدة ، نحن عابثون جشعون ظالمون . . . نحن المتبربرون وحدثنا هنا أما المتوحشون السذج البسطاء ، ولو أنهم عنيقون

بطبيعتهم . فانهم شجعان بوسائل مثلنا ، ولكنهم يفوقوننا في الميل إلى الخير وطيبة النفس ^(٥٤) . وصفقت باريس لهذه الرواية لمدة عشرين ليلة متوالية ودفعت ٥٣٦٤٠ جنيتها . وتنازل فولتير عن نصيبه من دخل الرواية للممثلين .

وفي ٨ أغسطس ١٧٣٦ تلقى فولتير أول رسالة من فرديريك ملك بروسيا ، ومن هنا بدأت مراسلات مشهورة وصداقة فاجعة . وفي نفس العام نشر قصيدة « الرجل الدينوى » وكأنما كانت ردأً مسبقاً على رسالة روسو « بحث في الفنون والعلوم » (١٧٥١) أن فولتير ضاق ذرعاً بالخالطين الواهين الذين يصفون المثالية على الإنسان البدائي غير المتمدن الودود الصاعد « أو يحبذون الرجوع إلى الطبيعة » هرباً من الانفعال وتوتر الأعصاب والنفاق والخداع في الحياة الحديثة . إنه هو نفسه كان مستريحاً وسط ما يعاني من بلايا ومحن ، ورأى أنه كان لزاماً عليه أن يقول كلمة طيبة في المدنية انصافاً لها . إنه لم يجد أية فضيلة أو ميزة في الفقر ، أو أي انسجام بين الجرائم والحب وربما كان البدائيون شيوعيين ، وهذا فقط لأنهم لم يكونوا يملكون شيئاً . وإذا اتسموا بالاعتدال والقصد والرزانة فما ذاك إلا لأنهم لم يكن لديهم نمور » وأنا من بجانب أحمد للطبيعة الحكيمة أنها من أجل سعادتي أنجبتني في هذا العصر الذي يحبط من قدره نقادنا الذين تعرفهم الكتابة والانقباض . إن هذا الزمن الدنس ملائم كلياً للملاءمة لحياتي فأنا أحب الترف والبدخ بل الحياة الناعمة وكل الملذات والفنون على اختلاف أنواعها ، والنظافة والدوق والزينة والزخرفة وبدا له كل هذا مفضلاً لديه بشكل واضح على جنات عدن « أبي العزيز آدم ، اعترف أنك ومدام حواء كانت لكما أظفار طويلة سوداء بما فيها من أقدار ، وان شعره كما كان أشعث أغبر إلى حد ما وعبثا حاول العلماء أن يعينوا مكان جنة عدن . . . إن جنة الأرض هي التي أعيش فيها أنا الآن .

ولم ترق في أعين رجال الدين الصورة التي رسمها فولتير لآدم وحواء ، وأصروا على أن سفر التكوين تاريخ صحيح ، ولم يقروا فولتير على ما جاء

به عن أظافر آدم وشعر حواء ، وتعالى الأصوات مطالبة بالقبض على
 شيطان سيرى الكافر . وحذره الأصدقاء مرة ثانية ، فاعتزم الرحيل .
 وفى ٢١ ديسمبر ١٧٣٦ غادر سيرى وامبلى ، قاصدا بروكسل متنكرا فى زى
 التاجر ريفول . وسخر المعجبون به هناك من تنكره ومثلوا مسرحية آلزير
 تكريماً له . وحذر جان بابتيست أهل بروكسل من أن فولتير جاء إليهم
 ليشر بالإلحاد ، فانتقل إلى ليدن حيث احتشدت الجماهير لرؤيته ، ثم إلى
 امستردام حيث أشرف على طبع كتابه عن نيوتن ، وساور المريضة آنذاك
 الخوف من أنه لن يعود إليها مطلقاً ، فكتبته إلى دار جنتال : « منذ أسبوعين
 فقط كنت أعذب لعدم رؤيته لمدة ساعتين الفتين ، وكنت أكتب إليه من
 غرفتي إلى غرفته ، ومضى الآن أسبوعان لا أعرف أين هو ولا أعرف
 ماذا يفعل . . . أنا فى حالة يرثى لها ٢٥٠ ، وأخيراً عاد (مارس ١٧٣٧)
 وهو يقسم أنه لولا حبه لها لما أقام فى فرنسا إلى تلاحقه وتطارده على
 هذا النحو .

وفى مايو ١٧٣٩ عاد العشيقان إلى بروكسل حيث استخدم فولتير كل
 مواهبه القانونية وغيرها فى قضية تتعلق بممتلكات المريضة . ثم قصد هو
 وزوجها إلى باريس حيث قدم فولتير روايتى محمد وميروب إلى مسرح
 الكوميدي فرانسيز ، وحيث رأت السيدة شاتيليه فى المطبعة مجلداتها الثلاثة
 عن « قوانين الفيزياء » وفى هذه الدروس « تهربت من فولتير ونيوتن
 كليهما مؤثرة عناصر الوجود الأولية فى فلسفة لينتيز . وفى سبتمبر عادوا
 إلى سيرى ، ثم فصلوا بعدها إلى بروكسل لاقامة طويلة ، ومنها فى سبتمبر
 ١٧٤٠ أسرع فولتير إلى كليف Cleves لأول لقاء له مع فردريك ، وكان
 قد أصبح ملكاً ، ورفض أن يدعو إمبلى معه . وفى نوفمبر قطع مسافة
 ١٥٠ ميلاً مرهقة قاصداً برلين ليقوم بمهمة دبلوماسية للكاردينال فليرى ،
 وستعود إلى تفصيل هذه المهمة فيما بعد . وذهبت امبلى فى نفس الوقت
 إلى فونتنبلو حيث بذلت جهداً كبيراً فى الحصول على إذن لفولتير بالإقامة
 فى باريس ، وواضح أن سيرى أصبحت عبئاً لا يطاق . وفى ٢٣ نوفمبر

كثبت إلى دارجتال : لقد لقيت جزاء صنار على كل ما فعلت في فوتنبلو ، لقد ذلت كل العقبات ، وحصلت لفولتير على حق العودة إلى بلده دون قيد أو شرط ، ووفقت بينه وبين الوزارة ، ومهدت الطريق لقبوله في الأكاديمية ، وصفوة القول أني في ثلاثة أسابيع أستطعت أن أعيد إليه كل ما فقدته في ستة أعوام . فهل تعلم كيف كافاني على مثل هذا الاخلاص والغيرة ؟ أنه أبلغني في رسالة جافة أنه قصد إلى برلين ، وهو يعلم علم اليقين أنه يحطم قلبي ويعذبني عذابا لا يوصف ... لقد انتابني الحمى . . . وآمل أن أفارق الحياة وشيكا ... وهل تصدق أن الفكرة التي تستبد بعقلي حين أحس بأن الحزن سيقطنني ، هي فكرة الأمل العميق الذي ينتاب فولتير لموتى ؟ ... أني لا أطيق أن أفكر في أن ذكرى سوف تسبب له يوما الشقاء والألم ، ويجدر بكل الذين أحبوه أن يكفوا عن لومه .

وانتزع فولتير نفسه من جو النفاق الملصق ليلحق بعشيقته ، وفي طريق عودته بعث إلى فردريك برسالة يوضح فيها وجهة نظره في الموضوع :

« إنني أترك ملكا عظيما بكرم ويشجع فنا أعجب به إلى حد التأليه ، لألحق بسيدة لا تقرأ شيئا إلا ميتا فزيقا وولف المسيحي (شارح لينتز) . أني أنتزع نفسي من أعظم حاشية أمتاعا وليناسا في أوروبا من أجل قضية قانونية . أني لم أترك حاشيتك الفاتنة الجديرة بالحب لأتهد وأقاوه مثل أحق معنوه بين يدي امرأة ، ولكن هذه المرأة يا مولاي هجرت من أجل كل شيء ، مما يتخلى سائر النساء عن أصدقائهن من أجله . أنني أسير فضلها في كل شيء أن الحب غالبا ما يكون سخيفا مضحكا ، ولكن الصداقة الخالصة والود الصافي لهما حقوق يرتبط المرء أكثر مما يرتبط بأوامر الملك (٥٦) .

والتقى ثانيا باميلي في بروكسل التي أصبحت بلدهما الثاني بسبب طول الاجراءات في قضيتها . وفي مايو ١٧٤١ شهدا العرض الأول لرواية محمد في ليل ، ولقيا ترحيبا حماسيا . وعادا إلى بروكسل مزهوين مبهجين ، ولكن عكس صفوهما شعور بأن جنوة الغرام قد بدأت تنظفي . وكان حبا

لا يزال قويا . ولو أن جوهر هذا الحب كان الرغبة في التسلط والسيطرة . ولكن شعلة الحب عند فولتير بدأت تتحول إلى قلمه . وفي يولية ١٧٤١ اعتذر لها عن غيرته التي أخذت تزدوى وتذبل : « إذا وددت أن أستمر على الحب فعليك أن تغيدى إلى مسافات من زمان الحبيين ، أعيدى إلى إذا كان في مقدورك ، فاجر الحياة ، وهي في غسق المساء ، نحن نموت مرتين ، وأنا الحظ هذا جيدا . إنه موت لا يطاق أن نتوقف عن الحب ونحن جديران به ، أما توقف الحياة نفسها فهو أمر تافه لا قيمة له » .

وفي أغسطس ١٧٤٢ قصدا إلى باريس ليشهدا العرض الأول لرواية « محمد » في المسرح الفرنسي . وكان فولتير قد سعى للحصول على إذن رسمي من الكاردينال فلبري بتمثيلها ، فأجابه إلى طلبه .. وكان هذا العرض الأول (١٩ أغسطس) الحدث الأدبي لذاك العام ، وشهده كثير من الحكام ورجال الدين والشعراء بالإضافة إلى الجمهور الذي اكتظ به المكان . وبدا أن الجميع راضون عن المسرحية باستثناء نفر من رجال الدين الذين زعموا أن الرواية ليست إلا « هجوما عنيفا على المسيحية » وانضم فريرون وديفونتين وغيرهم إلى هذه الشكوى . وعلى الرغم من أن الكاردينال أحس بأن هؤلاء النقاد يسيئون إلى قضيتهم ، فإنه بعث إلى فولتير برسالة سرية ينصحه فيها بسحب الرواية ، وتم هذا بعد العرض الرابع من إقبال شديد على الرواية . وعاد فولتير واميل أدراجهما إلى بروكسل ، وقد استبد بهما الغضب لحيية أملهما .

وهل كانت رواية « محمد » هجوما على المسيحية ؟ ليس الأمر إلى هذا الحد . أنها كانت تهاجم التعصب الأعمى والتزمت ولكنها صورت الرسول في صورة غير ودية ربما أثلجت صدور المسيحين الأبرياء من التاريخ ومن سوء النية فيه . أنه صور الرسول محادعا تعمد أن يدرس دينه الجديد إلى عقول قوم سذج ويستغل أيمانهم في استئثارهمهم في القتال ، ويغزو مكة ، بإصدار أمره إلى نصيره المتعصب سعيد بقتل الشيخ زبير الذي يقاوم هذا الغزو وعندما يتردد سعيد يؤوبه محمد في عبارات بدت

لبعض المستمعين وكأنها تعريض برجال الدين المسيحيين : فهو يقول :
 «وأنت أيضاً تتردد ؟ أنها الشباب الحرى ، إنه لما يتناقى مع الدين أن
 تتردد ؛ إن الذين يستخدمون عقولهم لا يميلون إلى الأيمان . بمحمد ، إن عليك
 أن تمتثل . إن إرادة الله تقضى بذلك . ألا تعلمون أن إبراهيم الخليل ولد
 هنا وأن جثمانه الطاهر يرقد هنا ، وهو الذى امتثل لصوت الله وأحمد
 صيحات الطبيعة بن جنبيه ، وتخلّى عن ولده العزيز !! أن الله العلى القدير
 نفسه هو الذى يطلب إليكم أن تضحوا ، ويهيب بكم أن تنفروا إلى القتال ،
 ومن ذا الذى يتجرأ فيتردد في تنفيذ أمر الله إذا دعاكم إلى القتال ؟ فاضربوا
 إذن فوق الأعناق . أن دم الشيخ زبير يخلوكم النعيم المقيم في الدار
 الآخرة^(٥٨) (*) .

ويقتل سعيد الشيخ العجوز الذى يتبين وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة
 أن القاتل ابنه . وهذا بطبيعة الحال هجوم من فولتير على استخدام الدين
 ذريعة لسفك الدماء واشعال نار الحرب . وهذا ما قصد إليه فولتير .
 وفي رسالة إلى فردريك ضرب أمثلة لجرائم ارتكبت بأسم الدين ، منها
 قتل وليم أورانج وهنرى الثالث وهنرى الرابع ملكى فرنسا . ولكنه أنكر
 أن المشرحة هجوم على الدين ، بل أنها دعوة إلى استمساك المسيحيين
 بمبادئ المسيحية الحقّة .

وفي سبتمبر ١٧٤٢ واساه الكردينال فليرى بإيفاده إلى فردريك ليحاول
 توجيه سياسته إلى الصداقة مع فرنسا . وقصد فولتير زهوا بدبلوماسيته
 لزيارة الملك في آخن . وتبين الملك أهدافه ومراميه ، فرد على حديثه
 السياسى شعرا ، وأعاد فولتير إلى باريس مع عشيقته أميلى والمسرحية .
 وفي ٢٠ فبراير ١٧٤٣ أخرجت على الكوميدى فرانسيز أعظم رواياته ميروب
 حيث لاقت نجاحا أحرس السنة أعدائه بعض الوقت .

(١) أثبتنا هنا ما ورد في الأصل الانجليزى من رواية فولتير . وواضح أنه أهدأ
 ما يكون عن جوهر الإسلام وتاريخه الصحيح ومشروعية القتال . ولكننا حرصنا على الأمانة
 في النقل . (المترجم)

وكانت عدة مسرحيات قد كتبت بالفعل في نفس الموضوع ، منها مسرحية يوربيدس التي لم يبق منها إلا شذرات قليلة وفي خطاب تمهيدى أقر فولتير بالفضل والعرفان لمركيز فرانشسكو مبيون دى ماني (وهو من فيرونا) الذي كان قد أخرج ميروب في ١٧١٣ . وكانت هذه المسرحيات تتميز بتحويل الاهتمام فيها إلى حب الوالدين لا إلى الحب الجنسي ويروون أن معظم الحاضرين سالت دموعهم في المشهد الأخير . ولأول مرة في تاريخ المسرح الفرنسي تعالت الأصوات تنادى بظهور المؤلف على خشبة المسرح ، وقيل إنه وافق وبذلك أوجد سابقة أسف لها لسنج أشد الأسف . وطبقاً لبعض المصادر الأخرى يقال أن فولتير رفض الظهور على المسرح على الرغم من حث الدوقتين اللتين جلس في مقصورتها ، وكل ما فعله أنه نهض واقفاً في مكانه لحظة رداً على التحية^(٥٩) ، وحكم فردريك بأن هذه المسألة من أحسن ما كتب من مسرحيات^(٦٠) . وذهب جييون إلى أن الفصل الأخير يضارع أى فصل في مسرحيات راسين^(٦١) .

وقال من قيمة نجاح « ميروب » اخفاق فولتير في الفوز بمقعد في الأكاديمية الفرنسية . إنه سعى له سعياً متواصلاً إلى حد أنه أعلن نفسه كاثوليكياً حقاً ومؤلف عدة أبحاث أقرتها الكنيسة^{٦٢} . وأيده اويس الخامس عشر في بداية الأمر ولكن وقف في طريقه وزيره الجلديد مورياس الذي احتج بأنه لا يليق أن تشغل نفس شريفة دنسة المقعد الذي خلا بوفاة الكاردينال فليري . وشغل المقعد أسقف ميروا . واستحث فردريك فولتير أن يترك البلد الذي لا يلقى فيه عباقرته سوى هذا القدر الضئيل من التكريم . ويحضر ليقم معه في بوتسدام . فاعترضت مدام دى شاتيليه وأشارت عليه الحكومة الفرنسية بقبول الدعوى لبعض الوقت والقيام بعملية التجسس في برلين . وهفت نفسه إلى الاشتغال بالسياسة ، فقيل الدعوى وقام ثانية بالرحلة المرهقة راكبا عبر فرنسا وبلجيكا وألمانيا ، وقضى في هذه المغامرة ستة أسابيع (٣٠ أغسطس - ١٢ أكتوبر ١٧٤٣) ومرة أخرى سخر فردريك من سياسته وامتدح شعره ، وعاد فولتير إلى امبلي

في بروكسل . وفي أبريل ١٧٤٤ استأنفا مقامهما في سبى محاولين بعث
غرامهما الميت إلى الحياة من جديد .

وفي «رسالة السعادة» كانت المركبة ترى أن الرغبة في المعرفة هي إحدى
الرغبات التي تسهم أكبر اسهام في سعادة الإنسان لأنها تجعلنا أقل اعتمادا
بعضنا على بعض ومع ذلك تقول عن الحب : « إنه أعظم الأشياء الطبيعية
التي هي في متناول أيدينا ، وهي الشيء الوحيد الذي نضحى من أجله بلذة
الدرس والتحصيل . والمثل الأعلى في هذا المجال شخصان يفتن الواحد
منهما بالآخر إلى حد لا تفر مع عواطفهما ولا تصاب بالثخمة أبدا ،
ولكن لا يمكن لإنسان أن يأمل في مثل هذا التآلف والانسجام بين
شخصين ، لأن هذا شيء يفوق حد الكمال . فالقلب الأهل لمثل هذا
الحب والنفس الوقية بالحببة إلى هذا الحد يجوز أن تخلق مرة واحدة كل
قرن من الزمان (٦٣) .

وفي رسالة مؤثرة نلخصت نخلها عن هذا الأمل :

« قضيت عشرة أعوام سعدت فيها بحب الرجل الذي غزا قلبي . وقضيت
هذه الأعوام العشرة في ارتباط وثيق به . . . وعندما انتقص امتداد العمر
والمرض من تعلقه بي لم ألحظ هذا إلا بعد مرور فترة طويلة . إنني أحببته
لسببين ، قضيت حياتي كلها معه واستمتع قلبي الائق بنشوة الحب ،
بالإضافة إلى توهمي أنني أيضا جدبيرة بالحب ، وأظلت من يدي هذا
الظرف السعيد (٦٤) .

وماذا حول فولتير من الحب والهيام إلى هذا الوفاء المتقطع ؟ ويبدو
أنه كان صادقا في التدرج باعتلال صحته . ولكننا سنجد في بحر عام واحد
يتأوه ويتهدد كالمحتوه بين يدي امرأة « والحق أنه كان قد استنزف جانبا
من حياته واهتمامه — مدام دي شاتيليه والعلم . إن العزلة في سبى ربما
أورثت السأم والملل بسرعة ذهنا يافعا . ولم تكن نعمة وبركة إلا عند
ملاحظة الشرطة له ؛ وعندما كان يدعو العلم إلى التفرغ له ، ولكنه كان
آنذاك قد تدوق ثمانية ملذات باريس ومباهجها ، واستمتع بمشاهدة افتتاح

مسرحياته . بل كان يلعب دورا في السياسة القومية ، وأحس بسحر الحاشية ولو من بعيد . وأصبح صديقه المركيز دارجنسون الوزير الأول ، كما أصبح صديقه ومدينه اللدوق دي ريشيليو الأمين الأول للملك . وكان لويس قد رق له ولأن جانبه . وفي ١٧٤٥ كان اللدوفين على وشك أن يتزوج من الأميرة الأسبانية ماريا تيريرا رافاييلا ، ولا بد أن تقام احتفالات ضخمة لهذا الغرض ، فكلف ريشيليو فولتير بكتابة مسرحية لهذه المناسبة . وكان على رامو أن يكتب الموسيقى ، فيتعاون الملحن والشاعر في العمل معا ، وكان لزاما أن يحضر فولتير إلى باريس ، وفي سبتمبر ١٧٤٤ ودع العاشقان سيرى وانتقلا إلى العاصمة .

٤ - رجل البلاط : ١٧٤٥ - ١٧٥٨

بلغ فولتير آنذاك سن الخمسين وكان لوقت غير قصير يحتضر في كل عام مرة . وكتب إلى تيريو في ١٧٣٥ « من المؤكد أنه ليس أمانى إلا سنوات قليلة أعيشها ^(٦٥) . وكان قد بلغ آنذاك الحادية والأربعين ، وكان أمامه ثلاث وأربعين سنة أخرى ، فكيف تسنى له هذا ؟ عندما انتابته علة خطيرة في شالون في أعلى المارن (١٧٤٨) ، ووصف له أحد الأطباء بعض الأدوية ، قال فولتير ، كما يروى سكرتيره ، إنه لن يتبع شيئا من هذه التلميحات ، لأنه يعرف كيف يعالج نفسه في أيام الصحة والمرض على حد سواء . وسيظل طبيب نفسه كما كان دائما . وفي مثل هذه الأوقات كان فولتير يصوم لبعض الوقت ، ثم يأكل قليلا من الحساء الرقيق والخبز المحمص والشاي الخفيف والشعير والماء . ويستطرد سكرتيره لو نجشامب فيقول : « تلك هي الطريقة التي عالج بها فولتير نفسه فبريء من سقمة الذى ربما أدى به إلى نتائج خطيرة لو أنه أسلم نفسه إلى أطباء شالون . كان مبدؤه أن صحتنا تتوقف علينا نحن ، وركائزها الثلاث هي التقصد في الطعام والشراب وضبط النفس والاعتدال في كل شيء ، والتمرينات والرياضية البسيطة ، ففي كل الأمراض التي لا تكون نتيجة لأحداث خطيرة أو تكون لخلل أسامى في أعضاء الجسم الداخلية ، يكفى أن تساعد الطبيعة التي

تسمى جاهدة في شفائنا ، وأن نلتزم في الغذاء بنظام دقيق لفته طويلا إلى حد ما ، فتغذى على السوائل المناسبة والأغذية الخفيفة الأخرى . ورأيت أنه دائما يلتزم بهذه القاعدة طيلة وجودي معه^(٦٦) .

وكان بارعا مثل رجال المصارف في إدارة أماله واستثمارها . وكان مستوردا وشاعرا ومقاولا وكتبا مسرحيا ورأساليا وفيلسوبا ومقرضا للنقود وصاحب معاش ووارثا . وساعده صديقه دارخسون على جمع ثروة من تموين الجيش^(٦٧) ، وكان قد ورث جزءا من ثروة أبيه وترك له موت أخيه أرمان (١٧٤٥) دخل بقعة أملاك أبيه . وأقرض الدوق ريشليو ودوق دي فلبار والأميردي جيزوسيرهم مبالغ كبيرة ، ووجد عناء كبيرا في استرداد الديون ، ولكنه عوض عنها بالأرباح^(٦٨) . وفي ١٧٣٥ كان ريشليو لدينا له بمبلغ ٤١٧ ٤٦٦ من الجنيهات دفع عنه الدوق أرباحا سنوية قدرها ٤٠٠٠^(٦٩) جنيه « وفي حالة مسيودي بريزي غير الموثوق به كان فولتير يطلب فائدة قدرها ١٠ / ، واستثمر فولتير أكثر أمواله في سندات مدينة باريس التي تدر ربحا قدره ٥ / أو ٦ / ، وكثيرا ما أعطى تعليماته إلى وكيله للالحاح على مدينيه بالسداد : « أنه من الضروري يا صديقي أن تطالب مرة ومرتين وتلح وتراقب وتلحف في الطلب— ولكن لا تعذب المدينين من أجل إيرادى السنوى ومتأخراتى^(٧٠) » وفي ١٩٧٩ قدر سكرتير فولتير أن دخله السنوى بلغ ٨٠ ألف جنيه^(٧١) . ولم يكن فولتير ينبش الأرض بحثا عن المال ، ولم يكن بخيلا مقترا ، وكثيرا ما منح الأموال وقدم سائر المساعدات لشباب الطلبة ومد يد المعونة قولاً أو فعلاً إلى فوفينارج ومارمونتيل ولا هارب . وقد رأيناه يتنازل عن عائدات رواياته للممثلين ، وعند ما ضاع عليه أربعون ألف جنيه بسبب افلاس ملتزم عام كان قد أقرضه المبلغ واجه الأمر في هدوء ، ولم يثر أو يغضب . وذكر العبارات التي تعلمها في صغره « أعطانا الله ، وأخذ الله فليتقدس اسم الله » .

ولو أن فولتير أوتي مالا أقل ليستغله ويعنى به ، وكان أكثر بدانة أو اكتنز لحما أكثر فوق عظامه ، فلربما كان أثل حساسية وعصبية وأقل نزقا

وانفعالا . وكان كريما حذرا حريصا على مشاعر الناس وحقوقهم . وكان عادة مرحا ودودا طلق المحيا مفعماً بالحوية والنشاط ، وكان أهلا للصدقة الحميمة الوثيقة . وما أسرع ما كان يغتفر أية اساءة لا تجرح كبريائه ، ولكنه لم يكن يحتمل في صبر أى نقد أو عمل عدائى (وكان يقول أتى أحسد الحيوانات على شيئين ، جهلها بما قد ينتابها من مصائب بما يقال عنها^(٧٧)) وأثار ذكاؤه الحاد حفيظة كثير من الأعداء ، فحمل عليه فريرون وبيرون وديفونتين وهاجموا آراءه في عنف أشد من عنف رجال الدين في مهاجمته . ولسوف نسمع منهم شيئا فشيئا . ورد عليهم فولتير الضربات بمثلها على الرغم من نصيح مدام شاتيليه له بالآزام الصمت ، ووجه إليهم أقذع السباب والشتائم، وجند أصدقاءه لشن الحملات عليهم . وكم وجدت المركيزه مشقة في منعه من الذهاب إلى باريس ليعنف ديفونتين أو يتحداه ، بل أنه فكر في مناقشة الرقابة أن يحظر نشر ما يكتبه ألد أعدائه . لقد كان في فولتير كل شوائب مناقبة ومزيد من الشوائب .

ووجد فولتير في رامو (الموسيقار) شخصا نزقا مزهوا سريع الغضب مثله . وكان تعاونهما في العمل امتحانا قاسيا لكل منهما : ولكن أخيرا اكتمل نص الأوبرا والموسيقى وقام الممثلون والموسيقيون بعمل تجربة للرواية . و ٢٣ فبراير ١٧٣٥ عرضت « أميرة نافار » - واقيت ما كان مقدرها لها من نجاح . وبعد ذلك بشهر خصصت لفولتير حجرة في فرساي تقارب ما وصفه في رسائله الخاصة بأنها « أقدر حجرة في فرساي » وتبوات مركيزة شاتيليه من جديد في الحاشية مكانها الذي كانت قد ضحت به من أجل فولتير . وحصلت آنذاك على الامتياز المذهل وهو الجلوس في حضرة الملكة . وكان في صعود نجم مدام دى بمبادور تدعيم لمركز فولتير فقد تعرف عليها حين كانت مدام دتوال ، وزارها في دارها ، وكتب في مديحتها شعرا تافها ، وبناء على الحاح منها عينه الملك (أول ابريل) مؤرخ الملك برائب قدره ألفى جنبيه في العام .

وسرعان ما اقتضت الظروف أن يثبت جدارته ووجوده . ذلك أنه في ١١ مايو ١٧٤٥ هزم الفرنسيون الانجليز في فونتنوى فطلب دار جنسون قصيدة

غنائية تخلد هذا الانتصار . ونظم فولتير ٣٥٠ بيتا من الشعر في ثلاثة أيام طبعت خمس طبعات على مدى أسبوعين . وأحب الملك فولتير افئرة وجيزة ، وأصبح فولتير شاعر حرب . وزيادة في تحليل ذكرى النصر كلف فولتير ورامو باعداد أوبرا المهرجان . وأبرزت أوبرا « معبد المجد العظيم » أى تراجان - أى لويس الخامس عشر - عائدا من المعركة ظافرا منتصرا ، وخصص لفولتير في تلك الأمسية مكان على مائدة الملك ، وأكلا معا طعاما شهيا ، ولكن فولتير سأل ريشيليو في لهفة : هل تراجان راض ؟ ولكن الملك سمعه مصادفة ورأى أنه وقح جرىء بعض الشيء فلم ينبس إليه ببنت شفه .

وتمل فولتير بمزيج من الشهرة والانتساب إلى الحاشية الملكية ، فبدأ حملة جديدة للانضمام إلى مجمع الخالدين (الأكاديمية الفرنسية) ولم يأل أى جهد في تحقيق مأربه . وفي ١٧ أغسطس ١٧٤٥ أرسل نسخة من رواية « محمد » إلى البابا بندكت الرابع عشر ، يسأله أن يهديها إليه . وفي ١٩ سبتمبر رد البابا اللطيف : سعدت الليلة الماضية بروايتك « محمد » التي قرأتها بشغف وسرور عظيم . وإني لأقدر مواهبك أكبر التقدير ، وهذا أمر يعترف به الجميع ... وأنى لأكبر كل الأكار فبلك وإخلاصك .. وإني هنا أمنحك بركتى الرسولية (٧٣) .

واغتبط فولتير بهذا الوسام أيما اغتباط حتى أنه كتب إلى البابا تقديرا حارا ختمه بقوله : بكل اجلال وتقدير واحترام أقبل قدميك المقدستين (٧٤) وأعلن إلى باريس تمسكه بالمذهب الكاثوليكي وإعجابه باليسوعيين ، وأطنب في مدائحه لمدام بمبادور والملك . وتوسلت بمبادور إلى الملك وقبل الملك رجاءها . وأخيرا في ٩ مايو ١٧٤٦ وافقت الأكاديمية على انضمام أمير الشعراء في هذا العصر والكتاب المسرحيين فيه إليها . وزيادة في تكريمه وتدعيم مركزه عين في ٢٢ ديسمبر موظفا في الحاشية الملكية مخصصا للقيام على شئون الملك .

وربما تسنى له في أيام النجاشي والعيش الرخيد هتله أن يكتب رواية «بابوك أو الدنيا كما هي» وبابوك رجل من سكيزيا (إقليم قديم في جنوب شرقى أوربا. وجنوب غربى آسيا). يجول ليرى الدنيا، وبخاصة كيف تسير الأمور في فارس (أى فرنسا) وأصابه الدهول والفرح لما رأى من الحروب والفساد السياسى. وشراء الوظائف وجباية الضرائب وثراء رجال الدين. ولكن ترحب به سيطة (مدام دى بمبادور) استماله جمالها وثقافتها وكياستها إلى «المدنية» ويرى بابوك هنا وهناك بعض مظاهر الكرم ونماذج للأمانة. ثم يزور رئيس الوزراء (تذكيرا بالكاردينال فليرى) ويجده يعمل جاهدا لانقاذ فارس من الفوضى والمزائم، ويخلص إلى أن الأمور تسير سيرا حسنا بقدر ما تسمح به الظروف الراهنة للطبيعة البشرية للتعليم، وأن الدنيا بوضعها الحاضر لا تستحق التدمير بعد، وأن الإصلاح خير من الثورة، أما بالنسبة لشخصه هو على أية حال فإنه سيقلد الحكماء الحقيقيين الذين يعيشون بينهم وبين أنفسهم في عزلة وهدوء^(٧٥). فهل شعر بالوحشة والشوق إلى سيرى فعلا؟

إنه على أية حال لم يكن لائقاً ليعمل في البلاط. فإنه بطريقة تعوزها اللباقة إلى حد لا يصدق احتفل بانتصار الفرنسيين في برجن آوب زوم بقصيدة صور فيها الملك لويس الخامس عشر طائراً من ميدان المعركة إلى أحضان بمبادور، وعهد إليهما معا بمهمة الاحتفاظ بالفتوحات واستبد الغضب بالملكة وبأبنائها، واستنكر نصف أفراد البلاط وقاحة الشاعر، وفي الوقت عينه كانت دى شاتيليه قد انغمست في لعب الميسر، وفي ليلة واحدة خسرت ٨٤ ألف فرنك، وأنلرها فولتير بالإنجليزية وهو واقف إلى جوارها بأنها تغش في اللعب. وفهم بعض اللاعبين ذلك واحتجوا وترامت أبناء هذه الصراحة المخزية إلى أفراد الحاشية، فلم تترك للشاعر صديقاً في فرساي أو فونتنبلو، وهرب فولتير واميل إلى سكو (١٧٤٧) ليقمها لدى الدوقة دى مين التي ما زالت على قيد الحياة، وهناك بقى لمدة شهرين في جناح منفرد (منعزل) بعيد عن أنظار الناس، وهناك حاول أن ينسى ورطته

ومحتته بالانصراف إلى كتابة بعض القصص الرومانسية المرححة التي ساعدت على أن يجعل منه أعظم المؤلفين شعبية في الأدب الفرنسي . وواضح أنه قرأها ذات يوم على الضيوف المقربين الذين تألفت منهم حاشية اللوحة الخاصة . ومن هنا كان إنجاز هذه القصص وما فيها من هجاء مرح وسخرية لطيفة .

وأطول هذه القصص التي كتبت فيما بين عامي ١٧٤٦ ، ١٧٥٠ هي « زاديج أو سر القدر » وزاديج شاب بابلي لطيف غنى تلقى أحسن تعليم ، عاقل قدر ما يمكن أن يكون الإنسان عاقلا واسع الاطلاع على علوم قدامى الكلدانيين . فهم أصول ومبادئ الفلسفة الطبيعية ، وعرف من الميتافيزيقا ما يمكن أن يعرف في أي عصر ، أى القليل منها أو لا شيء على الاطلاق (٧٦) . وكان على وشك أن يزوج من سمينا الجميلة حين هاجمه بعض قطاع الطرق ، وأصابوه بجرح تحول إلى خراج في عينه اليسرى ، واستدعى هرمز الطبيب المشهور من ممفيس وفحص الجرح ، ثم أعلن أن زاديج لا بد أن يفقد عينه ، ولو أنه في العين اليمنى لأمكن علاجه بسهولة ، ولكن الجروح في العين اليسرى غير قابلة للشفاء . وأعلنت سمينا أنها تنفر نفورا لا سبيل إلى مقاومته من الرجال ذوى العين الواحدة ، ومن ثم هجرت زاديج وتزوجت من غريمه . وفى ظرف يومين التأم الجرح من تلقاء نفسه وشفيت العين تماما ، ويؤلف الطبيب هرمز كتابا يثبت فيه أن هذا مستحيل ، ويدخل زاديج السرور على قلب الملك موبدار بنصائحه الغالية ، وعلى قلب الملكة آستارت بنظراته الحانية فتقع في شرك غرامه ، ويهرب زاديج إلى مدينة نائية . وفى الطريق يرى رجلا يضرب امرأة ، ويستجيب في شجاعة لصرخاتها طلبا للمساعدة ، فيتدخل بينهما ويهاجم الرجل بعنف ولكنه يرد به قتيلا . وتسبه المرأة بألفاظ جارحة لأنه قتل عشيقها . ويمضى زاديج في طريقه ويؤخذ ويبيع ويسع الرقيق . عندئذ تصور زاديج « الناس كما هم في حقيقة أمرهم حشرات يفتك بعضها ببعض من أجل قطرة من طين » .

وقص « ممنون الفيلسوف » حكاية رجل اعتنق يوماً الفكرة الجنونية بأنه متعقل كل التعقل ولكنه وجد نفسه قاصراً قصوراً يائساً عاجزاً يواجه مئات الكوارث ، فيقرر أن الأرض مستشفي كبير للأمراض العقلية تقوم الكواكب الأخرى بترحيل المجانين فيها إليه ^(٧٧) .

أما رحلات سكارميتادو فهي تطوف بشاب من كريت من بلد إلى بلد حيث يتكشف له في كل يوم مشاهد جديدة من التعصب أو الخلداع أو القسوة أو الجهل . ففي فرنسا تجتاح الحروب الدينية المقاطعات ، وفي إنجلترا تحرق الملكة ماري نسمائة من البروتستانت ، وفي اسبانيا ينشق الشعب في لذة رائحة المهترقين الذين ألقى بهم في النار ، وفي تركيا ينجو سكارميتادو من الختان بأعجوبة ، وفي فارس يتورط في الصراع بين طائفتي السنة والشيعة من المسلمين ، وفي الصين يتهمه اليسوعيون بأنه شخصية بارزة من طائفة الدومنيكان ، وأخيراً يعود إلى كريت « ومد رأيت الآن كل ما هو نادر أو خبير أو جميل على الأرض ، فقد وطدت العزم على ألا أرى في المستقبل شيئاً غير بلدي ، وتزوجت وسرعان ما داخلني الشك في نخيانية زوجتي ، ولكنني على الرغم من هذا الشك وجدت أن هذه هي أسعد ظروف الحياة ^(٧٨) » ،

وتوسع ميكرو ميغاس في أفكار النسبية التي استخدمها سويفت في رحلات جليفر . والسيد ميكروميغاس رجل يصلح للاقامة في نجم الشعرى اليمانية ، وطوله ١٢٠ ألف قدم وعرض صدره خمسون ألفاً ، وطول أنفه ٦,٣٣٣ قدماً . وعند ما بلغ ٦٧٠ عاماً من العمر ذهب ليستزيد من التعليم . وبينما هو يحوم في الفضاء هبط على كوكب زحل فسخر من الأفزاق هناك ، حيث بلغ طول الناس هناك ستة آلاف قدم أو نحوها ، وتعجب كيف يتسنى لسكان زحل المعدمين هؤلاء الذين ليس لهم إلا ٧٢ حاسة فقط أن يعرفوا الحقيقة وسأل أحد السكان إلى أي حد من العمر تعيشون ؟ فصاح ساكن زحل واحسرتاه ! قليل جداً منا يعيشون لأكثر من ٥٠٠ دورة حول الشمس (وهي بحسابنا نحن تصل إلى نحو ١٥ ألف سنة) وهكذا ترى أننا بشكل ما نموت في اللحظة التي نولد فيها . . . وما أقل ما نتعلمه

حين ينزل بنا الموت قبل أن نستفيد من خبرتنا^(٧٩) . ويدعو ساكن الشعري
 اليمانية ساكن زحل إلى مصاحبته لزيارة كواكب أخرى ، فتتعرأ أقدامهما
 على كوكب الأرض ، وتبتل قدما ساكن الشعري ، ويكاد ساكن زحل
 يغرق وهما يسيران فوق البحر المتوسط . فلما وصلا إلى البر رأيا حشودا
 من الأهالى صغار الأجسام يتمركزون هنا وهناك فى احتياج شديد ،
 وعندما يتضح لساكن الشعري اليمانية أن مائة ألف من سكان الأرض هؤلاء
 يلبسون القبعات وعددا مساويا يضعون العمام ، يقتلون ويطيح بعضهم برؤوس
 بعض فى صراع (الحروب الصليبية) حول ركام من التراب (فلسطين)
 لا يكاد يعلو على عقبيه يصبح ساخطا . مستاءا : أيها الكفار الأوغاد . . .
 قلبى يحدثنى أن أتقدم بخطوتين أو ثلاثا لأسحق تحت قدمى وكر السفاحين
 الحمقى بأمره^(٨٠) .

وكل هذا كان عاما سارا بهيجا ، وكان يمكن أن يمر دون أن يحرك
 أحد ساكنا . ولكن فولتير فى ١٧٤٨ عكر صفو باريس بنشرة صغيرة
 « صوت الحكماء وصوت الشعب » هاجم فيها كنيسة فرنسا فى نقطة حساسة ،
 تلك هى « أملاك الكنيسة فى فرنسا » ، حيث ينمو العقل ويتطور يوما
 بعد يوم ، فإن العقل يعلمنا انه يجدر بالكنيسة أن تسهم فى نفقات الأمة
 بنسبة مواردها ، وأن الهيئة التى نصبت نفسها لتلقي مبادئ العدالة يجدر
 بها أن تبدأ بنفسها لتكون قدوة للعدالة ونموذجا لها ورغم أن الأديار تضيع
 أقوات الشعب وموارد الأرض فى نحول عقيم ، واتهم « الخزافة » بقتل
 الحكام وارقة بحور من الدماء فى الاضطهادات والحروب ، وذكر الملوك
 بأن أحدا من الفلاسفة لم تمتد يده على ملكه ، وإذا اتحد الملوك مع العقل
 وجردوا أنفسهم من الخرافة فكم يكون الناس أسعد وأهنا بالا^(٨١) . وقل
 أن أثار رسالة موجزة مثل هذه العاصفة الهوجاء . ونشرت خمس عشرة
 رسالة مضادة للرد على رسالة « صوت الحكماء وصوت الشعب » التى
 لم يذكر اسم مؤلفها .

وأثناء إقامة فولتير فى فصل الشتاء فى سكو سددت مدام دى شاتيليه

ديون القمار ، وهذأت من روع الراجحين . وخففت من استيائهم لما نعتهم به فولتير ، وأعادته إلى باريس حيث أشرف على نشر قصصه الصغيرة ، ووجد من الحكمة على الرغم من المشقة والتعب أن يلبي دعوة ستانلاس لركزنسكى لزيارة بلاطه في لوفنيل - على بعد نحو ١٨ ميلا من نانسى عاصمة اللورين . وبعد رحلة مرهقة وصل الحبيبان إلى لوفنيل (١٧٤٨) ولكن بعد أسبوعين وصل كتاب من دارجتال ينجي فيه فولتير بأن ممثلى الكوميدي فرانسيز على استعداد لتجربة روايته سميراميس ، وأنهم فى حاجة إليه لمعاونتهم فى تفسير أبياتها . وكانت هذه الرواية تعنى الشئ الكثير لديه ، وكانت بمبادور من طيبة نفسها الآثمة قد أعادت إلى المسرح كريبون (الأب) الفقير المعدم وهيات له سبل النجاح . وكان ماريغو قد نجاسرفا عتبر مسروحيات الشيخ الهرم أعلى مرتبة من مسرحيات فولتير . وكان الشاعر النجيل الجسم قد اعتزم أن يثبت تفوقه بكتابة روايات فى نفس الموضوعات التى كان كريبون قد طرقتها . ومن ثم أسرع فولتير إلى باريس تاركا امبلى فى حرية مهلكة فى لوفنيل . وفى ٢٩ أغسطس ١٧٤٨ عرضت سميراميس لأول مرة عرضا ناجحا . وبعد العرض الثانى أسرع متنكرا إلى مقهى بروكوب واستمع إلى تعليقات من شهود المسرحية . وكانت ثمة تعليقات امتدحت للرواية وأطرتها ، تقبها فولتير على أنها من حقها ، وثمة آراء أخرى انتقصت من قدرها وهاجتها . وقد آلمته هذه أيما آلام ، حيث كان عليه أن يحتملها صامتا ، ولكنه استفاد مما وجه إلى المدرحية من نقد ، فنقحها واستمر عرضها طويلا . وهى تعد الآن من أحسن مسرحياته .

وأسرع ثانية فى جو سبتمبر العاصف عبر فرنسا إلى لوفنيل ، وكاد يموت فى الطريق عند شالون ، ولما استحثه فرديك الأكبر على المضى إلى بوتسدام اعتبر بأن المرض أفقده نصف سمعه وعدة أسنان من أسنانه . إلى حد أنه لن يكون إلا مجرد هيكل فى برلين . فأجاب « تعال بلا أسنان وبلا أذنين . إذا لم يكن بد من الحضور على هذه الصورة ، ما دام أن هذا الشئ الذى يتعذر تعريفه ، والذى يمكنك من التفكير ، والذى يوحى بكل ما جميل ، سيحضر معك » (٨٢) ولكن فولتير أثر المقام مع إمبلى .

٥ - موت الحبيسة

أحب الملك الصالح ستانيسلاس الأدب ، وكان قد قرأ فولتير وأصابته عدوى عصر الاستنارة ، وفي ١٧٤٩ كان الملك بصدد نشر بيانه « الفيلسوف المسيحي » الذي كانت ابنته ملكة فرنسا قد قرأته في استيلاء حزين . وحذرتة من أن آراءه يشتم منها أنها نابعة من آراء فولتير إلى حد كبير . ولكن الشيخ الهرم استساغ آراء فولتير كما أعجب بذكائه . وكما أنه كان له أيضا محظية (هي المرకిزة دي بوفلرز) فإنه لم يجسد تناقضا في أن يتخذ من الشاعر محظيا له في بلاطه . كما عين . فوق ذلك ، زوج اميلي المتحرر الواسع الأفق كبير مديري قصره براثب قدره ألفا كراون سنويا .

وكان ثمة موظف آخر في بلاط ستانيسلاس ، هو المركيز جان فرنسوا دي سانت لامبرت ، قائد الحرس . وكانت مدام دي شاتيليه قد التقت به لأول مرة في ١٧٤٧ ، وكان هو في الحادية والثلاثين وهي « في الحادية والأربعين . وكانت تلك من خطيرة لامرأة لم يعد عشيقها إلا مجرد صديق حميم . وفي ربيع ١٧٤٨ بدأت تكتب للضابط الوسيم رسائل غرام تكاد تسم بهجاسة البنات الضغيرات ونخلاعتن : « نعال إلى بمجرد أن ترتدى ملابسك » سأطير إليك بعد أن أتناول العشاء . « وأستجاب سانت لامبرت مغازلا مترددا . وذات مرة في أكتوبر فاجأها فولتير في خلوة مظلمة يتبادلان أحاديث الحب والهيام . إن أعظم الفلاسفة هو وحده الذي يتقبل هذه الفعلة المكراء ، الخيانة . في هدوء وتسامح . ولم يتر فولتير لهذا الوضع على الفور . وأنبها في شيء من الهدر والمزاج ، ولكنه أوى إلى غرفته حين عرض سانت لامبرت تسوية الأمر معه - أي يقتله عند الفجر . وقصدت اميلي إلى فولتير في الثانية صباحا ، وأكدت له حبها الخالد ، ولكنها ذكرتة في رفق « بأنك لزم من طويل شكوت . . . من قواك أن تنهار . . . فهل يسيء إليك أن يجعل أحد أصدقائك محلك ؟ » وعانفته ولاطفته ودلته بأسماء الدلال التي كانت تناديه بها ، فخفضت سورة غضبه وقال « آه أنت على حق دائما ياسيدتي . ولكن طالما كان لزاما أن تجرى الأمور على هذا النحو فلا

أقل من ألا تجرى تحت سمى وبصرى « وفي الليلة التالية قصد سانت لامبرت إلى فولتير واعتذر له عن تحديه . وعانقه فولتير وقال له « أى بنى ، لقد نسيت كل شيء . إني أنا المخطئ ، أنت فى زهرة عمر الشباب والحب والمتعة ، فاستمتع بهذه اللحظات ، فانها قصيرة . إن هذا العاجز المريض مثل لا يصلح لهذه الملدات » وفى الليلة التالية تناول ثلاثتهم العشاء معا (٨٣) .

واستمر هذا الثلاثى « حتى ديسمبر حين اعترمت السيدة دى شاتيليه الذهاب إلى سرى لتدبير شؤونها المالية . وصحبها فولتير ، وجدد فرديريك دهوثة . وكان فولتير يميل الآن إلى تلييتها . ولكن المركيزة فور وصولها إلى سبرى أسرت إليه بأنها حامل ، وأنها فى مثل هذه السن وكانت آنذاك فى الثالثة والأربعين ، لا تتوقع أن تعيش بعد الولادة . وكتب فولتير إلى الملك فرديريك ألا ينتظر قدومه . كما طلب إلى سانت لامبرت أن يحضر إلى سبرى . وهناك اتفق العشاق الثلاثة على خطة لتأمين شرعية الطفل واستحثت السيدة زوجها على القدوم إلى سبرى للتسجيل بانجاز بعض المهام . ولم ينزعج الزوج لوجود عاشقين آخرين إلى جانب زوجته يكملان شخصه ، بل سعد كل المعادة حين استقبلوه بالترحيب وأكرموا وفادته . وازدانت المركيزة بأبهى زينة وأزهى خلة ، ولاطفته أعظم ملاحظة ، وشرب وتمل حتى كان ما كان (مما لست أذكره) وبعد بضعة أسابيع أبلغته أنها قد ظهرت عليها أعراض الحمل . واحتضنها فى زهو وفرح . وأعلن عن الحادث السعيد المرتقب إلى كل الناس ، وتقدم إليه الجميع بالتهنئة . ولكن فولتير وسانت لامبرت أتمقا على « أن يعد الطفل من بين أعمال مدام شاتيليه المتنوعة » (٨٤) وعاد المركيز (الزوج) وسانت لامبرت إلى عملهما .

وفى فبراير ١٧٤٩ عادت امبلى وفولتير إلى باريس وانصرفت هى إلى ترجمة قوانين نيوتن بمعاونة كليرو . وثمة رسالتان إلى سانت لامبرت (١٨ ، ٢٠ مايو) تكشفان عن شخصيتها : « كلا : إنه ليس فى مقدورى أن أعبر عن تقديسى وحبى لك حب عبادة . لا تأمنى على نيوتن . ويكفىنى

عدائي بسببه . وما ضحيت قط بشيء قدر تضحيتي للعقل ببقائي هنا لانجازة . .
 أنا استيقظ في التاسعة . وأحياناً في الثامنة صباحاً . وأتناول القهوة ، واستأنف
 العمل في الرابعة ، وأتوقف عنه في العاشرة وأتجاذب أطراف الحديث
 مع فولتير حتى منتصف الليل وهو يتناول معي العشاء . وفي منتصف الليل
 أعود إلى العمل في نيوتن واستمر حتى الخامسة صباحاً . إنى أنجز هذا الكتاب
 من أجل العقل والشرف ولكني أحبك أنت وحدك » (٨٥) .

وفي ١٠ يونيو جدد فردريك بسرعة دعوة فولتير إلى الحضور إلى
 بوتسدام ظناً من الملك أن سانت لامبرت قد أعفى فولتير من أية مسئوليات
 أخرى يلتزم بها تجاه دي شاتيليه ، فأجاب فولتير « حتى فردريك الأكبر
 نفسه لا يستطيع أن يحول بيني وبين القيام بواجب لا يمكن أن يحلني منه
 أى شيء لن أتخل عن سيدة قد تعاجلها المنية في سبتمبر . والأرجح
 أن عملية الموضوع ستكون خطيرة جداً عليها ، ولكن إذا كتبت لها النجاة ،
 فإني أعدك يا مولاي أى أحضر في أكتوبر وأقدم ولائي لجلالتكم » (٨٦) .

وفي يولييه صحبها إلى لونغفيل لتكون تحت رعاية طبية خاصة . إن خوف
 الموت أزعجها كل الأزعاج - يخطفها الموت في الوقت الذي وجدت فيه
 الحب من جديد ، وفي الوقت الذي كانت فيه سنى دراستها وبحبها على وشك
 أن تتوج بنشر كتابها . وفي ١٠ سبتمبر أنجبت طفلة . وفي اليوم العاشر من
 سبتمبر فارقت الحياة بعد أن عانت كثيراً . واستبد الحزن والأسى بفولتير
 فزلت قدمه وهو يغادر غرفتها وسقط على الأرض ، وظل فاقد الوعي
 فترة من الوقت . وساعده سانت لامبرت على الافاقة من غشيته . وقال
 فولتير عندئذ : « آه يا صديقي أنت الذى قتلها يا إلهي ! ما الذى
 أغراك بأن تصل بها إلى هذه الحالة ؟ ! » وبعد ذلك بثلاثة أيام طلب فولتير
 من لونغشامب الخاتم الذى خلعه من يد السيدة المتوفاة . وكانت صورته
 منقوشة عليه يوماً ما ووجدته السكرتير في يد لامبرت ، وتعجب فولتير قائلاً :
 « هكذا النساء . لقد خلعت صورة ريشيليو من هذا الخاتم ، ثم جاء سانت
 لامبرت فطردنى هذا هو نظام الطبيعة . . شخص ينزع مكان آخر .

وهكذا تير الأمور في هذه الدنيا (٨٧) . ووريت مدام دي شاتيليه التراب في لوتفيل في أزوع مظاهر المهابة والجلال في بلاط ستانسلاس ، وسرعان ما تبعها طفلتها .

وعاد المركيز وفولتير إلى سيرى ومن هناك رد على بعض رسائل التعزية التي تلقاها من باريس : « أنتم عزائي ، يا ملائكة الرحمة أنتم تجعلونني أحب بقية أيامى التعسة . إننى أعترف لكم أن البيت الذى أظلمها على الرغم مما يثير في نفسى من أشجان ، ليس كريها عندي . . . أنا لا أهرب من أى شىء يحدثنى عنها ويذكرنى بها . إنى أحب سيرى . . . والأماكن التي زانتها عزيزة على أنا لم أفقد سيدة ، بل فقدت نصف نفسى . فقدت نفسا خلقت لها نفسى ، فقدت صديقة عشرين عاما ، عرفتيا في طفولتها . إن أكثر الآباء عطفًا وحنانًا لا يحب ابنه الوحيدة إلا كما أحببت أنا هذه السيدة . وبودى أن أجد في كل مكان ما يذكرنى بها . وأحب أن أتحدث مع زوجها ومع ابنها (٨٨) .

ومع ذلك أدرك فولتير أنه سيذبل ويذوى إذا هو بقى مترملا في سيرى الموحشة المنزلة . وأرسل كتبه وأجهزته العلمية ومجموعته الفنية إلى باريس ، وسافر في أثرها في ٢٥ سبتمبر ١٧٤٩ . وفي ١٢ أكتوبر استقر به المقام في العيصمة ، في قصر واسع الأرجاء في شارع ترافرسبير .

٦ - مدام دنيس

كان من اليسير على فولتير أن يقنع ابنة اخته بالحضور لتكون ربة البيت حيث كانت لفترة من الوقت خليلته .

ولدت ماري لويز مجنو Mignot (١٧١٢) وهى ابنة كاترين أخت فولتير . وعند ما توفيت كاترين (١٧٢٦) تكفل فولتير برعاية أولادها . وفي ١٧٣٧ . عند ما بلغت ماري السادسة والعشرين ، دفع لها خالها صداقا محترما حيث تزوجت من الكابتن نقولا شارل دنيس ، وكان موظفا صغيراً في الحكومة .

وتوفى الزوج بعد ست سنوات من زواجه . فى نفس الوقت الذى انتقل فيه فولتير والمركيزة دى شاتيليه إلى باريس . والتمست الأرملة بعض السلوى والعزاء بين ذراعى فولتير ، ووجد هو بعض الحرارة والدفء بين ذراعىها . وواضح أن حب الخلال سرعان ما تحول إلى شئ غير مشروع . وفى رسالة مؤرخة فى ٢٣ مارس ١٧٤٥ خاطب فولتير ابنة أخته بقوله « محبوبتى ، عزيزتى »^(٨٩) (*) وقد تكون هذه عبارة حب برئ ، ولكن فى ديسمبر ، أى قبل عامين من لقاء المركيزة بسانت لامبرت كتب فولتير إلى الأرملة الطروب رسالة يجسدر اقتباسها حرفياً حتى يمكن تصديقها : « أقبلك ألف قبلة . روحى تقبل روحك ، إن قلبى مفتون بك . أقبلى كل شئ فىك »^(٩٠) .

وحذفت مدام دنييس بعض الألفاظ تواضعاً وتحجلاً ، ولكن المفروض أنها أجابت برسالة غرامية ، لأن فولتير كتب لها من فرساي فى ٢٧ ديسمبر ١٧٤٥ : « عزيزتى ، تقولين إن كتابى إليك بعث السرور والنشوة حتى فى حواسك كلها . وأنا مثلك تماماً . فلم أكد أقرأ العبارات الممتعة التى جاءت فى كتابك حتى التهبت مشاعرى من الأعماق . وأوليت كتابك كل الإجلال الذى أحب أن أوليه لشخصك كله ، سأحبك حتى الممات »^(٩١) . وفى ثلاث رسائل بعث بها إليها فى ١٧٤٦ « إنى أقبلك ألف قبلة »^(٩٢) . بودى أن أعيش عند قلمميك وأموت بين ذراعىك . .^(٩٤) « متى يكون فى مقدورى أن أعيش إلى جوارك وينسأنى العالم بأسره ؟ »^(٩٥) وفى ٢٧

(٥) هذه العبارة والمقتطفات التالية مأخوذة عن رسائل خطية اكتشفها تيودور بسترمان فى ١٩٥٧ ، واشترتها مكتبة بيربوننت مورجان فى نيويورك من أعقاب السيدة دنييس . ونشر الدكتور بسترمان ، مدير معهد ومتحف فولتير فى لى دليس فى جنيف ، النص الأصل ، مع ترجمة فرنسية تحت عنوان « رسائل غرامية من فولتير إلى ابنة أخته (باريس ١٩٥٧) وترجمة إنجليزية (لندن ١٩٥٨) . وكل الرسائل ، فيما عدا أربعة من بين ١٤٢ رسالة بخط فولتير ، وبعضها مكتوب بالاطالية التى كالت مدام دنييس ملمة بها . وكتبت هذه الرسائل فيما بين عامى ١٧٤٢ - ١٧٤٥ . وثلاث منها مؤرخة على وجه التحديد . ومن ثم لا يمكن أن يكون تسلسلها التاريخى مؤكداً . والتواريخ التى أوردناها هنا هى التى حددها دكتور بسترمان .

يوليه ١٧٤٨ كتب يقول : « سأحضر إلى باريس من أجلك أنت إذا سمحت ظروفي السيئة . وسألقى بنفسى عند قدميك ، وأقبل كل مفاتنك . وفي نفس الوقت أطبع ألف قبلة على كل موضع في جسمك الذى غمرنى بفيض من اللذة والبهجة » (٩٧) .

في عمر الرجال ، مثلما هو في عمر النساء ، فترة خطيرة ، وهمى عندهم أطول ، ويرتكبون فيها حماقات لا تصدق . وكان فولتير ألمع شخصية في القرن الذى عاش فيه ، ولكن لا يجدر بنا أن نعدده من بين الغضلاء الحكماء ، فكثيراً ما اقرتف هذه السخافات والأعمال الطائشة وتردى في هذه التصرفات المتطرفة ونوبات الغضب الصببانية ، مما سر أعداءه وأزعج أصدقائه . إنه وضع نفسه تحت رحمة ابنة أخته التى كان واضحاً أنها مغرمة به ، ولكنها أحببت نقوده حبا متزايدا . إننا نجدتها تستغل سيطرتها عليه لتزيد من ثروتها ، حتى يوم وفاته . إنها لم تكن امرأة رديئة بمقاييس العصر . ولكنها ربما تجاوزت حدود عمرها باتخاذها سلسلة من العشاق — باكولار دارنو ، مارمونتيل ، مركزى دى اكسيمين — لتستكمل رعاية خالها . (٩٨) ووصفها مارمونتيل مادحا في ١٧٤٧ « إن هذه السيدة مقبولة بكل ما فيها من قبح . إن شخصيتها البسيطة غير المتكلفة تشربت مسحة من شخصية خالها . وكان فيها كثير من ذوقه ومن مرحه وأدبه الجلم ، ومن هنا كان السعى إلى الاجتماع بها والتودد إليها » (٩٩) .

وفي يوم وفاة مدام دى شاتيليه كتب فولتير إلى ابنة أخته :

« ابنتى العزيزة ، فقدت اليوم صديقة عشرين عاما . ولوقت غير قصير — كما تعرفين . لم أكن أنظر إلى مدام دى شاتيليه على أنها امرأة (هكذا) . وأنا واثق أنك ستشاطريننى الحزن الشديد عليها . إنه من المؤسف حقاً أن أراها تفارق الحياة في مثل هذه الظروف ولمثل هذا السبب ، وأنا لا أنجلي عن المركزى دى شاتيليه في هذه المحنة المتبادلة سأحضر من سيرى إلى باريس لأحتضنك بين ذراعى ، والتمس فيك عزائى وأملى الوحيد في الحياة (١٠٠) .

وطوال الشهور الثمانية التي قضهاها في العاصمة ، تلقى فولتير من فرردريك الأكبر رسائل كثيرة يستحثه فيها على الحضور ، وكان هو يميل إلى قبول الدعوة . وعرض عليه فرردريك أن يشغل وظيفة كبيرة في البلاط ، مع دار خاصة بالمجان براتب قدره ٥٠٠٠ تالر في العام .^(١٠١) ولكن فولتير الذي كان من رجال المال مثلما كان فيلسوفا ، طلب إلى ملك بروسيا أن يقرضه بعض المال لتسديد نفقات الرحلة : ووافق الملك في تأنيب ماكر ، حيث شبه الشاعر بهوراس الذي رأى من الحكمة أن يمزج النافع بالمقبول^(١٠٢) . وطلب فولتير الاذن بالرحيل من ملك فرنسا ، ووافق لويس على الفور ، قائلا لخلصائه المقرين : « هذا سيزيد من جنون رجل مجنون في بلاط بروسيا وسيخفف من جنون رجل في فرساي^(١٠٣) . وفي ١٠ يونيو ١٧٥٠ غادر فولتير باريس إلى برلين .

المراجع

- CHAPTER VII
1. Sée, H., *Economic and Social Conditions in France during the 18th Century*, 87.
 2. *Ibid.*, 84.
 3. Sumner, W. G., *Folkways*, 165.
 4. Sée, 104; Goodwin, A., *The European Nobility in the 18th Century*, 36.
 5. Tocqueville, *L'Ancien Régime*, 107.
 6. Ducros, L., *French Society in the 18th Century*, 158, 207; Wolf, A., *History of Science . . . and Philosophy in the 18th Century*, 558.
 7. Palmer, R. R., *Catholics and Unbelievers in 18th-Century France*, 13n.
 8. Lacroix, P., *Eighteenth Century*, 138.
 9. *Camb. Mod. History*, VIII, 53.
 10. Lacroix, 138.
 11. Ducros, 24; Herbert, S., *Fall of Feudalism in France*, xvii.
 12. Taine, *Ancient Regime*, 130.
 13. Goodwin, *European Nobility*, 31.
 14. Jaurès, *Histoire socialiste*, I, 32.
 15. Sée, 61.
 16. Taine, *Ancient Regime*, 20, 41.
 17. Tocqueville, 34.
 18. Taine, 15.
 19. *Camb. Mod. History*, VIII, 53.
 20. *Ibid.*, 52, Sée, 3.
 21. Palmer, R. R., 25; Lacroix, 157.
 22. Taine, 42 f.
 23. Voltaire, *Works*, XVIa, 261.
 24. Martin, H., XV, 439.
 25. *Ibid.*, 439-40.
 26. Lacroix, 157.
 27. *Ibid.*, 269.
 28. Taine, 34.
 29. *Ibid.*, 110-20.
 30. Goncourts, *Woman of the 18th Century*, 10, 15, Montalembert, *Monks of the West*, II, 86.
 31. Martin, Kingsley, *Rise of French Liberal Thought*, 70.
 32. Taine, 62, Michelet, *Histoire de France*, V, 288.
 33. Martin, H., XV, 441.
 34. *Ibid.*, 442.
 35. Taine, 63.
 36. Lecky, *History of England*, V, 329.
 37. Desnoiresterres, VIII, 248.
 38. Lacroix, 270.
 39. Guizot, *History of France*, V, 48.
 40. Sée, 4.
 41. Herbert, *Fall of Feudalism*, 56.
 42. Taine, 23-24, Ducros, 256-57.
 43. Herbert, 37.
 44. See, 15.
 45. Herbert, 4-5.
 46. Sée, 28.
 47. Montagu, Lady Mary W., *Letters*, I, 305 (Oct. 10, 1718).
 48. Taine, 330.
 49. Martin, H., XV, 216.
 50. Sée, 38.
 51. Voltaire, *Works*, XIXa, 94.
 52. *Philosophical Dictionary*, article "Lent."
 53. Cobban, *History of Modern France*, 42.
 54. Sée, 182.
 55. Renard and Weulersee, *Life and Work in Modern Europe*, 193.
 56. Mantoux, *Industrial Revolution*, 409.
 57. Sée, 165.
 58. Taine, 334.
 59. Morner, *Origines intellectuelles de la Révolution française*, 28.
 60. Paron, II, 184.
 61. Lacroix, 228.
 62. *Ibid.*, 311.
 63. Nussbaum, *History of the Economic Institutions of Modern Europe*, 124.
 64. Jaurès, *Histoire socialiste*, I, 67.
 65. Sée, 151-53.
 66. Martin, H., XV, 213.
 67. *Ibid.*, 305.
 68. Sée, 93.
 69. Ducros, 160.
 70. Toth, *Woman and Rococo in France*, 179.
 71. Lacroix, 206.
 72. *Ibid.*

73. Goncourts. *Madame de Pompadour*, 5-7.
 74. Desnoiresterres, III, 24.
 75. Grimm. *Correspondance*, VIII, 131-33, in Buckle, I, 339.
 76. Saint-Simon in Lacroix, 302.
 77. Lacroix, 199.
 78. Ducros, 53.
 79. Stryjenski. *Eighteenth Century*, 57.
 80. Lanfrev. *L'Eglise et les philosophes au dix-huitième siècle*, 129.
 81. Michelet, V, 277, Sainte-Beuve. *Portraits of the 18th Century*, I, 445.
 82. Voltaire. *Works*, XVIa, 157.
 83. Stryjenski, 79.
 84. *Works*, XVIa, 158.
 85. Martin, H., XV, 156n.
 86. Stryjenski, 85.
 87. Desnoiresterres, II, 336.
 88. Martin, H., XV, 251.
 89. Saint-Simon. *Memoirs*, III, 283.
 90. Michelet, V, 248.
 91. Martin, H., XV, 116n., Ercole. *Gay Court Life*, 88.
 92. Bearn. *Court Painter*, 85.
 93. Guizot. *History of France*, V, 78.
 94. Goncourts. *Pompadour*, 9.
 95. Michelet, V, 325.
 96. Ercole, 167.
 97. Lewis, D B Wyndham. *Four Favorites*, 42.
 98. Stryjenski, 130-31.
 99. *Historic Biographical Dictionary*, 833.
 100. Brandes, I, 224.
 101. Voltaire. *Works*, XVIIb, 224.
 102. Carlyle, Thos. *History of Friedrich II*, IV, 438, *Enc Brit.*, IX, 454a.
 103. Voltaire, XVIIb, 238, Martin, H., XV, 282, Stryjenski, 148.
 104. Voltaire, XVIIb, 239.
 105. Stryjenski, 149.
 106. Martin, H., XV, 411n.
 107. Lichtenberger in Martin, K., *Rise of French Liberal Thought*, 238.
 108. Martin, H., XV, 356-58.
 109. Lecky. *England*, V, 327.
 110. Goncourts. *Pompadour*, 12.
 111. Michelet, V, 349.
 112. Ercole, 197.
 113. Goncourts, 117.
 114. Ercole, 203.
 115. Lewis. *Four Favorites*, 48.
 116. Taine. *Ancient Regime*, 82.
 117. Goncourts, 71.
 118. *Ibid.*, 348.
 119. Sainte-Beuve, I, 450.
 120. *Ibid.*, 451.
 121. Michelet, V, 354.
 122. Martin, H., XV, 416.
 123. Goncourts, 131.
 124. Lewis, 50.

125. Ercole, 209.
 126. Toth, 165.
 127. Goncourts, 127.
 128. Du Hausset, Mme., *Memoirs of Mme de Pompadour*, 65.
 129. Ercole, 220.
 130. Goncourts. *Woman of the 18th Century*, 149.

CHAPTER VIII

1. See. *Economic and Social Conditions*, 38 f.
 2. Funck-Brentano. *L'Ancien Régime*, 422.
 3. La Fontainerie. *French Liberalism and Education*, 6.
 4. Lacroix, 252.
 5. *Ibid.*, 151.
 6. 242.
 7. 244.
 8. Desnoiresterres, III, 133.
 9. Gréqui, *Souvenirs*, 57, 121.
 10. Ducros. *French Society*, 83.
 11. Chesterfield. *Letters*, I, 348.
 12. Brandes, I, 137.
 13. *Ibid.*, 141.
 14. Goncourts. *Woman of the 18th Century*, 187.
 15. *Ibid.*, 188.
 16. Morner. *Origines intellectuelles de la Révolution française*, 53.
 17. Funck-Brentano, 50.
 18. Ducros, 61.
 19. Quoted in Funck-Brentano, 60.
 20. Taine. *Ancient Regime*, 134.
 21. Walpole. *Letters*, I, 309 (Oct. 28, 1752).
 22. Toth, 135.
 23. Frederick the Great. *Memoirs*, I, 25.
 24. D'Argenson. *Mémoires*, in Martin, H., XV, 341.
 25. Ducros, 342.
 26. Mossner. *Hume*, 92.
 27. Kohler, Carl. *History of Costume*, 340.
 28. Gréqui, 123.
 29. Lacroix, 370.
 30. Ducros, 35.
 31. *Philosophical Dictionary*, art. "Lent," in *Works*, VIa, 108.
 32. Mousnier and Labrousse. *Dix-huitième Siècle*, 166.
 33. Michelet, V, 189.
 34. Ling, P. H., *Music in Western Civilization*, 441.
 35. Burney, C., *General History of Music*, II, 965, 969.
 36. *Grove's Dictionary of Music and Musicians*, IV, 320d.
 37. Burney, II, 970.
 38. Diderot. *Le Neveu de Rameau*.
 39. Ducros, C., *Considérations sur les moeurs*, 13.

40. Goldsmith, O., *Miscellaneous Works*, 430.
41. Mme. Vigée-Lebrun, *Mémoires*, I, 156, in Taine, *Ancient Regime*, 141n.
42. Goncourts, *Woman*, 317.
43. Marmontel, *Mémoires*, I, 181.
44. Batffol, *Great Literary Salons*, 131.
45. Walpole to Gray, Jan 25, 1766.
46. Batffol, 208.
47. Kavanagh, *Woman in France during the 18th Century*, I, 168.
48. Diderot, "On Women," in *Dialogues*, 196.

CHAPTER IX

1. Faniel, S., *French Art of the 18th Century*, 36.
2. *Ibid.*, 91.
3. Funck-Brentano, 180.
4. Louvre.
5. See the great commode in the Wallace Collection.
6. Dilke, Lady E., *French Architects and Sculptors of the 18th Century*, 77.
7. *Ibid.*, 81.
8. Louvre.
9. Turner and Baker, *Stories of the French Artists*, 181.
10. Dijon Museum.
11. Versailles Museum.
12. Louvre.
13. Boirre, *Court Painter*, 164.
14. Diderot, *Salons*, I, 9, 114-19.
15. Bearne, 43.
16. Turner, 193.
17. Goncourts, *French 18th-Century Painters*, 61.
18. Turner, 197.
19. Louvre.
20. Block, *François Boucher and the Beauvais Tapestries*, 26.
21. Goncourts, *French Painters*, 69. Seven are in the Huntington Library and Gallery at San Marino, Calif.
22. *Ibid.*
23. Wallace Collection.
24. Goncourts, *French Painters*, 91.
25. *Ibid.*, 84.
26. Block, 21.
27. Ridder, *Chardin & Goncourts, French Painters*, 117.
28. Louvre.
29. Louvre.
30. Louvre.
31. Louvre.
32. Goncourts, 141-42. Havens, *Age of Ideas*, 321.
33. Diderot, *Salons*, III, 4.
34. Goncourts, 177n.
35. *Ibid.*
36. *Ibid.*

37. *Ibid.*, 164n.
38. Louvre.
39. St.-Quentin Museum.
40. Dresden.
41. St.-Quentin.

CHAPTER X

1. Ducloux, *Considérations*, 217.
2. Grimm, *Correspondance*, III, 73.
3. Paron, I, 509.
4. Voltaire, essay "Ancient and Modern Tragedy," in *Works*, XIXa, 134.
5. "Discourse on Tragedy," in *Works*, XIXb, 181 f.
6. Paron, II, 325.
7. Brandes, I, 72.
8. Edwards, H. S., *Idols of the French Stage*, 83; Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, I, 170.
9. Michelet, V, 303.
10. Sainte-Beuve, I, 180.
11. Michelet, V, 304.
12. Mitford, N., *Madame de Pompadour*, 126.
13. Hazard, *European Thought in the 18th Century*, 260.
14. Marivaux, *Vie de Marianne*, 3.
15. Crebillon fils, *Le Sopha*, introd.
16. *Le Sopha*, 65.
17. Palache, *Four Novelists of the Old Regime*, 4, 49.
18. Crebillon, *Le Sopha*, introd.
19. Saintsbury, G., introd. to Prévost's *Manon Lescaut*, cliii.
20. *Manon Lescaut*, 220.
21. *Ibid.*, 10.
22. 57.
23. Faguet, E., *Literary History of France*, 489.
24. Saintsbury, introd. to *Manon Lescaut*, 11-211.
25. Burv, J.; *History of the Idea of Progress*, 115-16; Martin, K., 280.
26. Lichtenberger, A., *Le Socialisme et la Révolution Française*, 73; Martin, H., XV, 335; Martin, K., 62; Hazard, 197.
27. In Martin, K., 61.
28. In Crocker, *Age of Crisis*, 426-29.
29. Ducloux, *Considérations*, 11-12.
30. *Ibid.*, 17, 21.
31. 27.
32. 25.
33. Forth, 38.
34. La Bruyère and Vauvenargues, *Selections* 189.
35. Vauvenargues *Oeuvres choisies*, cxv.
36. La Bruyère and Vauvenargues, 179.
37. Vauvenargues, CLXXXVII.
38. *Ibid.*, CLXXXII.

39. Crocker, *Age of Crisis*, 138-39.
40. *Ibid.*, 30.
41. Vauvenargues, CLXX.
42. La Bruyère and Vauvenargues, 173.
43. Vauvenargues, CL.
44. *Ibid.*, LVII.
45. CLXXX.
46. CLVII.
47. P. 158.
48. P. 173.
49. *Ibid.*
50. 310.
51. Voltaire, letter of Apr. 4, 1744, in Martin, H., XV, 407n.
52. Voltaire, XIXa, 43
53. Sorel, A., *Montesquieu*, 125
54. *Ibid.*, 9.
55. 23
56. Montesquieu, *Spirit of Laws*, Book V Ch. xix.
57. *Persian Letters*, cxv.
58. In Sorel, 43
59. Herodotus, *History*, IV, 183.
60. Aristotle, *Historia animalium*, VIII, 12
61. *Persian Letters*, vii
62. Letter XLIV
63. xcix.
64. cxviii.
65. cxviii.
66. cxviii.
67. xxxv.
68. LXXXVI.
69. Sorel, 49
70. *Grandeur et décadence des Romains*, introd., vi.
71. *Ibid.*, Ch. xviii.
72. Ch. xii.
73. Ch. xviii.
74. Ch. vi.
75. Ch. xv.
76. Quoted in Faguet, *Dix-huitième Siècle*, 195.
77. *Spirit of Laws*, preface.
78. *Ibid.*
79. Palache, 35.
80. Martin, K., 151.
81. *Spirit of Laws*, Book I, Ch. iii.
82. *Ibid.*, XIV, i-x.
83. XVI, i-iii.
84. *Ibid.*, x
85. *Ibid.*
86. XIV, v.
87. VIII, xvi-xix.
88. Explanatory notes prefixed by Montesquieu to the second edition.
89. IV, vi.
90. In Séc, H., *Idées politiques en France au XVIII^e siècle*, 46.
91. *Spirit of Laws*, VIII, ii.
92. V, xiii.
93. V, x.
94. XI, vi
95. *Ibid.*
96. *Ibid.*
97. XI, iii.
98. *Grandeur et décadence*, Ch. vii.
99. *Spirit of Laws*, XXIII, xxvii.
100. XV, v.
101. X, ii.
102. XIII, xvii.
103. *Pensées diverses*, in Hearnshaw, *Great Thinkers of the Age of Reason*, 116.
104. Faguet, *Dix-huitième Siècle*, 173.
105. *Spirit of Laws*, XXIV, x.
106. I, i.
107. XII, cxix
108. In Havens, *Age of Ideas*, 121
109. *Spirit of Laws*, XXIV, ii.
110. *Ibid.*, iii and xxvi.
111. XXIV, v.
112. XXV, v
113. *Ibid.*, xiii.
114. *Ibid.*, x.
115. Quoted in Faguet, 195.
116. Sorel, 166.
117. Pappas, *Berthier's Journal de Trévoux*, 78 f., Martin, K., 153
118. Sorel, 163.
119. Martin, K., 168.
120. Sorel,
121. Voltau IXa, 238-39
122. *Philosophical Dictionary*, art. "Climate," in *Works*, IVa, 204-9.
123. *Ibid.*
124. Art. "Laws," in *Works*, VIa, 104.
125. Art. "Laws, Spirit of," in *Works*, VIa, 106-8.
126. Morley, *Life of Voltaire*, 9.
127. Cf. Macaulay, *Critical Essays and Poems*, I, 126, Dunning, *History of Political Theories*, III, 428-31, Flint, *History of the Philosophy of History*, 272-76, Brunetière, 301, Stephen, L., *English Thought in the 18th Century*, II, 188, Sorel, 139-41.
128. *Spirit of Laws*, VII, iii.
129. Spencer, *Principles of Sociology* (3v., London, 1876-96).
130. Laski, H., *Political Thought in England*, 109,
131. Taine, *Ancient Regime*, 213.
132. Walpole, *Letters*, II, 187 (Jan. 10, 1750)
133. Sainte-Beuve, *Portraits*, I, 146.
134. Hearnshaw, *French Thinkers of the Age of Reason*, 116.
135. Havens, *Age of Ideas*, 127.
136. Sorel, 169.
137. Grimm, *Correspondance*, II, 491.
138. Gibbon, E., *Decline and Fall of the Roman Empire* (1779 ed.), II, 142.
139. Waliszewski, *Romance of an Empress*, 91.

140. Sorel, 171.
141. Faguer, *Dix-huitième Siècle*, 188.

CHAPTER XI

- 1 Desnoisterres, I, 410.
2 Bain, R. N., in Voltaire, *Charles XII*, introd. xxii.
3. E.g. Buckle, I, 577
4. Voltaire, *Charles XII*, p 11
5. *Ibid.*, 334.
6. Letter of Aug 25, 1732. in *Works*, XXIa, 216
7. *Zaire*, I, 1, in *Works*, Xa, 27
8 *Zaire*, II, iii
9. Desnoisterres, II, 2
10. Créqui, *Souvenirs*, 35.
11 Brandes, I, 256.
12. *Ibid.*, 347.
13. *Letters on the English*, Letter 1, in *Works*, XIXb, 193-98.
14 Letter v.
15 *Ibid.*
16 Letter viii, translation in Havens, *Age of Ideas*, 168.
17 *Ibid.*, 169.
18 Letter x.
19. Letter viii, Heronshaw, *French Thinkers of the Age of Reason*, 151
20. *Works*, XIXb, 29.
21. Brandes, I, 203
22 Voltaire, XIb, 212
23. *Ibid.*, 219.
24 235
24. Buckle, I, 517.
26 Parton, I, 225
27. *Ibid.*, 303.
28 343.
29 Desnoisterres, II, 139.
30. Parton, I, 384.
31. Desnoisterres, II, 239.
32. *Ibid.*, III, 113-15.
33. Françoise de Graffigny, *Vie privée de Voltaire et Mme du Châtelet à Crey* (Paris, 1820), in Brandes, I, 400.
34. Brandes, I, 354.
35 Pomeau, *La Religion de Voltaire*, 190
36 Parton, I, 391
37 Créqui, 35.
38 Parton, I, 389.
39 Wade, Ira, *Voltaire and Mme. du Châtelet*, 14
40 *Ibid.*
41 37.
42 Brandes, I, 188.
43 Voltaire, XXIa, 197-201.
44 Desnoisterres, III, 330.
45 Voltaire, XXIa, 193, 209.
46 Letter of Apr. 15, 1741, in Gay, *Voltaire's Politics*, 26.
47 Brandes, I, 365, Desnoisterres, II, 53
48 Voltaire, XXIIb, 107.
49. Ia, 299
50 Voltaire, *Traité de métaphysique (Oeuvres complètes, XLIII)*, end of Ch. I.
51. *Ibid.*, p 187.
52 Taine, *Ancient Regime*, 298.
53 *La Pucelle*, Canto II, in *Works*, XXa, 83 f.
54. Voltaire, *Alzire*, I, 1
55. Brandes, I, 361
56 Parton, I, 445.
57 Fellows and Torrey, *Age of Enlightenment*, 474
58 *Mahomet*, III, vi, in *Works*, VIIIb, 55
59 Brandes, II, 8
60 Voltaire and Frederick the Great. *Letters*, p 102
61 Gibbon, E., *Journal*, 130.
62. Parton, I, 462.
63 Brandes, I, 405.
64 *Ibid.*
65. Mitford, N., *Voltaire in Love*, 75.
66. Parton, I, 542-45.
67. Martin, H., XV, 402.
68. Voltaire, XXIb, 98
69. XXIa, 190, 193.
70 *Ibid.*, 195.
71 Parton, I, 575.
72 *Ibid.*, 352.
73. Voltaire, VIIIb, 12.
74. *Ibid.*, 14.
75. Voltaire, IIa, 282
76. *Ib.*, 61
77 *Ib.*, 41
78 IIa, 63.
79. IIa, 26.
80 IIa, 44-45
81 Parton, I, 581-82.
82 Voltaire and Frederick, *Letters*, 138, 191
83. Longchamp in Parton, I, 553 f.
84 Longchamp in Desnoisterres, III, 246 and Parton, I, 556.
85 Parton, I, 562.
86. Voltaire and Frederick, *Letters*, 197
87 Desnoisterres, III, 390.
88 Parton, I, 571.
89. Voltaire-Frederick *Letters*, 33.
90 Voltaire, *Lettres d'amour à sa nièce*, 53
91 Voltaire, *Love Letters to His Niece*, 46
Dr. Besterman translates *cazzo* as "prick."
92 *Lettres d'amour*, 57, *Love Letters*, 48
93. *Lettres d'amour*, 69, *Love Letters*, 54
94 *Lettres d'amour*, 77 *Love Letters*, 57
95 *Lettres d'amour*, 77, *Love Letters*, 58
96 *Lettres d'amour*, 146
97. *Love Letters*, 103
98 *Lettres d'amour*, 15.
99 Marmontel, *Mémoires*, I, 121
100 Mitford, N., *Voltaire in Love*, 303

01. Nicolson, *Age of Reason*, 110.
02. Voltaire-Frederick *Letters*, 212; Gay, *Voltaire's Politics*, 150
03. Gay, 151.

CHAPTER XII

1. Mossner, *Hume*, 110.
2. Richard, E., *History of German Civilization*, 326, de Tocqueville, *L'Ancien Régime*, 27. Thompson, J. W., *Economic and Social History of the Later Middle Ages*, 483
3. Taine, *Ancient Régime*, 28
4. See Muhlhausen as described in Spitta *J. S. Bach*, I, 344
5. Lang, *Music in Western Civilization*, 608
6. Montagu, Lady Mary W., *Letters*, I, 255 (Nov 21; 1716).
7. *Tierze Treasures of the Great National Galleries*, 137.
8. Burney, C., *General History of Music*, II, 943
9. Desnoiresterres, IV, 160.
10. In Cassirer, *Philosophy of the Enlightenment*, 334.
11. Francke, *History of German Literature*, 223.
12. Ausubel, *Superman: The Life of Frederick the Great*, 756.
13. Wolf, *History of Science . . . and Philosophy*, 77B.
14. Hazard, *European Thought in the 18th Century*, 20.
15. Lovejoy, *Essays in the History of Ideas*, 108
16. *Enc. Brit.*, XXIII, 697c.
17. *Enc. of Religion and Ethics*, VIII, 838b.
18. Schoenfeld, *W'omen of the Teutonic Nations*, 283.
19. *Ibid.*, 298
20. Text in Smith, P., *History of Modern Culture* II, 601.
21. Chesterfield, *Letters*, Sept. 5, 1748
22. Goldsmith, O., *Inquiry into the Present State of Polite Learning in Europe*, in *Miscellaneous Works*, 426.
23. Frederick the Great, *Mémoires*, I, 63
24. Montagu, Lady Mary, letter of Dec. 17, 1716
25. Dillon, F., *Glass*, 5.
26. Boeck, E., *Geschichte der Graphischen Kunst*, 477-84.
27. Berlin
28. Barockmuseum, Vienna.
29. Strwell, S., *German Baroque Art*, 94.
30. *Oxford History of Music*, IV, 4.
31. Lang, 450
32. Spitta, *ibid.*, II, 46. *Enc Brit.*, XVII, 896b.
33. Spitta, III, 18
34. Rolland, *Musical Tour*, 84
35. *Ibid.*, 211.
36. 207-8.
37. *Grove's Dictionary of Music*, II, 556.
38. Rolland, 211n
39. *Grove's*, V, 297.
40. Ebeling in Rolland, 119.
41. Eg. Concerto in D for trumpet, Suite in A Minor for flute, Don Quixote Suite.
42. Schweitzer, A., *J. S. Bach*, I, 103-4.
43. Spitta, I, 373.
44. *Grove's*, I, 158 On the Vivaldi transcriptions, see Pincherle, Marc, *Vivaldi*, 230-31.
45. Spitta, II, 147
46. Lang, 493.
47. *Grove's*, I, 161.
48. Schweitzer, I, 115.
49. Spitta, III, 161-64.
50. *Grove's*, I, 165.
51. Pratt, *History of Music*, 257.
52. Schweitzer, I, 338.
53. *Ibid.*, 321.
54. Spitta, II, 55.
55. Forkel in Schweitzer, I, 323
56. *Ibid.*, 404.
57. 292.
58. Lang, 499.
59. Davison, A., *Bach and Handel*, 56.
60. Schweitzer, I, 180.
61. Spitta, III, 252.
62. *Ibid.*
63. 263.
64. Weinstock, *Handel*, 4.
65. *Grove's*, I, 167
66. Rolland, 71
67. Spitta, II, 147.
68. McKinney and Anderson, *Music in History*, 407.
69. Words of the preacher at Bach's funeral, Spitta, III, 275
70. Letter of Karl Zelter in Schweitzer, I, 231
71. *Ibid.*, 230. Rolland, 219; Davison, 11.
72. Schweitzer, I, 238.
73. *Ibid.*, 242
74. 234

CHAPTER XIII

1. Carlyle, T., *Friedrich the Second*, IV, 171
2. Goodwin, *European Nobility*, 129.
3. Montagu, Lady Mary, *Letters*, I, 245.
4. Goodwin, 112
5. Mowat, R. B., *Age of Reason*, 264. *New Canb Mod History* VII, 402.
6. In 1714-14.
7. 1726-33.

8. 1715-56
9. 1722-32.
10. 1729-32.
11. Nawrath, *Austria*, 15. The church was built in 1733.
12. Sitwell, *German Baroque Art*, 37; cf. Baedeker, *Austria*, 46.
13. Barockmuseum, Vienna.
14. *Ibid.*
15. Montagu, Lady M., I, 238.
16. Burney, C., II, 942.
17. Garnett, R., *History of Italian Literature*, 315.
18. Frederick, *Mémoires*, I, 14.
19. *Enc. Brit.*, X, 274b.
20. Coxe, Wm., *History of the House of Austria*, III, 241.
21. *Ibid.*, 242.
22. *New Camb. Mod. History*, VII, 407.
23. Monroe, Paul, *History of Education*, 435.
24. Macaulay, *Essays*, II, 121; Acton, *Lectures on Modern History*, 288.
25. *Camb. Mod. History*, VI, 210.
26. *Ibid.*, 213.
27. 214.
28. Carlyle, *Friedrich*, I, 335.
29. Wilhelm, Margravine, *Memoirs*, 31, 34, 52, 204.
30. *Ibid.*, 13, 63.
31. Carlyle, I, 377.
32. Wilhelmine, 91.
33. *Ibid.*, 84, 91.
34. Carlyle, II, 95.
35. *Camb. Mod. History*, VI, 211.
36. Wilhelmine, 109.
37. *Ibid.*, 164.
38. Carlyle, II, 317.
39. *Ibid.*, 339.
40. 349.
41. Wilhelmine, 230.
42. Carlyle, III, 64-66.
43. *Ibid.*, 66-68.
44. Voltaire-Frederick *Letters*, Nov. 4, 1736.
45. Apr. 7, 1737.
46. Jan. 20, 1737.
47. Frederick to Voltaire, Nov. 4, 1736, Feb. 8, 1737.
48. Dec. 3, 1736.
49. Dec. 25, 1737.
50. June, 1738.
51. Dec. 25, 1737.
52. Mar 28, 1738.
53. Carlyle, III, 98.
54. Parton, I, 240.
55. Frederick, quoted in Villari, P., *Life and Times of Niccolò Machiavelli*, II, 201.
56. In Francke, *History of German Literature*, 230.
57. Carlyle, III, 142.
58. Valori in Ausubel, 435.
59. Frederick to Voltaire, June 6, 1740.
60. June 27, 1740.
61. Lea, H. C., *Superstition and Force*, 575.
62. Carlyle, III, 161
63. *Ibid.*, 163.
64. Smith, P., *History of Modern Culture*, II, 571
65. Carlyle, III, 175.
66. Goldsmith, O., *Miscellaneous Works*, 427.
67. Carlyle, III, 233.
68. *Ibid.*; Desnoiresterres, II, 290.
69. Voltaire-Frederick *Letters*, 143.
70. Fleury to Voltaire, Nov. 14, 1740, in Parton, I, 438.
71. *Ibid.*
72. Carlyle, III, 278.
73. Ausubel, 443.
74. Lutzow, Count von, *Bobemia*, 317.
75. Frederick, *Mémoires*, I, 94.
76. *Ibid.*, 103.
77. Coxe, *House of Austria*, III, 270; Macaulay, *Essays*, II, 126.
78. *Enc. Brit.*, XIV, 881d.
79. Carlyle, IV, 70.
80. Còve, III, 309.
81. Carlyle, V, 36.
82. Voltaire to Frederick, March, 1742, in Voltaire-Frederick *Letters*, 159.
83. Frederick to Voltaire, Feb. 12, 1742.
84. Frederick, *Mémoires*, I, 5.
85. *Enc. Brit.*, IX, 718c.
86. In Robertson, J. M., *Short History of Freethought*, II, 313.
87. Carlyle, V, 201.
88. *Ibid.*, III, 160.
89. Carlyle, V, 197, hody repudiates any sodomitic implications.
90. *Enc. Brit.*, IX, 718c.
91. Carlyle, V, 65.
92. *Ibid.*, VII, 462; Mowat, *Age of Reason*, 101.
93. Letter of Aug. 31, 1750, in Parton, I, 611.
94. Desnoiresterres, IV, 108.
95. Taine, *Ancient Regime*, 281n.
96. Voltaire, *Works*, XX1a, 221.
97. Parton, I, 610.
98. *Ibid.*
99. Carlyle, V, 137.
100. *Ibid.*, 146.
101. Gay, *Voltaire's Politics*, 154.
102. Voltaire, XX1a, 213.
103. Lanson, *Voltaire*, 112-13.
104. Chester, I, 340.
105. Chesterfield, letter of Apr. 13, 1752.
106. Parton, II, 59.
107. *Ibid.*, 59-60, Desnoiresterres, IV, 106.
108. Morley, *Life of Voltaire*, 184.
109. Carlyle, V, 182.
110. *Ibid.*, 180.
111. 209.

112. 213.
113. 214. Strachey. *Books and Characters*, 191.
4. Voltaire, XIXa, 184f.
115. *Ibid.*
116. Parton, II, 126.
117. *Ibid.*, 103.
118. Carlyle, V, 223.
119. Parton, II, 108.
120. *Ibid.*, 138.
121. Voltaire, *Lettres d'Alsace*, 135-36 (Dec. 14, 1751).
122. Parton, II, 167-69.
123. Montesquieu, letter of Sept. 28, 1753, in Lafont, *L'Eglise et les philosophes*, 162.
124. *Philosophical Dictionary*, article "Quakers."
125. Bertrand, J. *D'Alembert*, 91.

CHAPTER XIV

1. Letter of May 27, 1756, in Chaponnière, *Voltaire chez les Calvinistes*, 18.
2. Epinay, Mme. d', *Memoirs and Correspondence*, III, 178.
3. Marmontel, *Memoirs*, I, 317.
4. Morley, *Life of Voltaire*, 200.
5. Boswell, *Life of Samuel Johnson*, 87.
6. Oechsli, W., *History of Switzerland*, 260.
7. *Ibid.*, 272.
8. In Herold, *The Swiss without Halos*, 161.
9. Oechsli, 264.
10. Coxe, *Travels in Switzerland*, II, 225.
11. *Ibid.*, 179.
12. Oechsli, 265.
13. Coxe, *Travels*, I, 304.
14. Oechsli, 243.
15. *Ibid.*, 245.
16. Coxe, II, 262.
17. Casanova, *Memoirs*, I, 392, 407.
18. Coxe, II, 292.
19. *Ibid.*
20. Francke, *History of German Literature*, 220.
21. Lough, J., *The Encyclopédie*, 50.
22. Epinay, *Memoirs*, III, 199.
23. Coxe, II, 357.
24. Epinay, III, 173-75.
25. Masson, P., *La Religion de Rousseau*, I, 10-11.
26. In Naves, *Voltaire et l'Encyclopédie*, 148.
27. *Ibid.*, 39.
28. 40.
29. Lough, 94.
30. Desnoiresterres, V, 179-81.
31. Lough, 92.
32. Geneva, *Musée d'Art et d'Histoire*.
33. Jean Gaberel in Parton, II, 128.

34. Voltaire, *Essai sur les moeurs*, Ch. lxviii.
35. Morley, 184.
36. *Ibid.*, 290.
37. Flint, *History of the Philosophy of History*, 254.
38. Letter to Thieriot, Oct. 31, 1738.
39. Buckle, I, 465.
40. Parton, I, 580.
41. *Phil. Dict.*, art. "History," in *Works*, Vb, 64.
42. *Ibid.*
43. Voltaire, *Works*, XVIa, 137.
44. XIVa, 230.
45. *Essai sur les moeurs*, Ch. xx.
46. *Ibid.*, Ch. cxxxix.
47. Lanson, *Voltaire*, 123-24.
48. Robertson, Wm., *History of the Reign of Charles V*, I, 290.
49. "Observations on History," in *Works*, XIXa, 269.
50. *Essai*, Ch. cxcvii.
51. Ch. lxviii.
52. *Works*, XVIa, 133-36, 144.
53. Chateaubriand, *The Genius of Christianity*, III, iii, 6, p. 430.
54. Voltaire, XVIa, 250-51.
55. Michelet, V, 274.

CHAPTER XV

1. Goncourts, *Woman of the 18th Century*, 307 f.
2. Smith, P., *Modern Culture*, II, 543; Nicolson, *Age of Reason*, 294.
3. Frederick to Voltaire, June 29, 1771.
4. Voltaire, *Works*, VIIb, 143.
5. Lecky, *History of Rationalism*, 145.
6. Blackstone, *Commentaries* (Oxford, 1725), IV, 60, in Lea, H. C., *History of the Inquisition in Spain*, IV, 247.
7. Clark, G. N., *The 17th Century*, 246.
8. Voltaire's estimate, in *Works*, XXIa, 250.
9. Mark xvi, 26.
10. Smith, P., *Modern Culture*, II, 553.
11. *Ibid.*, 556.
12. 550.
13. Putnam, G. H., *Censorship of the Church of Rome*, II, 255.
14. Wilson, A., *Diderot*, 121-22.
15. Brandes, II, 107.
16. Bertrand, *D'Alembert*, 92.
17. Brandes, II, 50.
18. Vernet, *Origines intellectuelles de la Révolution française*, 258.
19. Cf. *Catholic Enc.*, III, 189.
20. Voltaire, *Notebooks*, II, 351.
21. Faguet, *Literary History of France*, 361.
22. 516.
23. Smith, P., II, 268.

23. Schweitzer, A., *Quest of the Historical Jesus*, 23.
24. Quoted in Lovejoy, *Essays in the History of Ideas*, 103.
25. *Ibid.*, 103 f.
26. Hsin-hai Chang, in private correspondence with the authors.
27. In Lovejoy, *Essays*, 105.
28. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 455.
29. In Lovejoy, 105-6.
30. Maverick, L. A., *China, a Model for Europe*, 126.
31. Fulop-Miller, R., *Power and Secret of the Jesuits*, 485.
32. Reichwim, A., *China and Europe*, 124.
33. Voltaire, *Works*, Villa, 176.
34. Pinot, V., *La Chine et la formation de l'esprit philosophique en France*, 425
35. *Ibid.*, 315, 281.
36. Maverick, 242.
37. *Ibid.*, 113.
38. *Philosophical Dictionary*, art. "Glory," in *Works*, Va, 208.
39. *Works*, XVIa, 119; XVIIIfb, 278.
40. XIIIa, 29.
41. Montesquieu, *Persian Letters*, XLVI.
28. *Enc. Brit.*, XX, 62c.
29. *Ibid.*, 62h.
30. Moore, F. J., *History of Chemistry*, 37-38.
31. French, S. J., *Torch and Crucible: The Life and Death of Antoine Lavoisier*, 80.
32. In Wolf, 353.
33. Moore, 44.
34. *Ibid.*, 42.
35. Huxley, T. H., *Science and Education*, 23.
36. In Willey, *Eighteenth-Century Background*, 177.
37. Priestley, Joz., *Essay on the First Principles of Government*, in Willey, 195.
38. Priestley, *History of the Corruptions of Christianity*, in Willey, 170.
39. *Essay on the First Principles of Government*, in Willey, 197.
40. *Ibid.*, in Willey, 197.
41. Schuster, M. Lincoln, *Treasury of the World's Great Letters*, 187.
42. French, S. J., 215.
43. Dakin, *Turgot and the Ancien Régime in France*, 166.
44. Moore, 49.
45. McKie, *Antoine Lavoisier*, 215.
46. *Ibid.*, 293.
47. 325.
48. 319.
49. 412 f.
50. 404.
51. 407.
52. French, 267.
53. Williams, III, 11.
54. Langer, W. L., *Encyclopedia of World History*, 435.
55. Berry, *Short History of Astronomy*, 325.
56. Burney, Fanny, *Diary*, 161 (Dec. 30, 1786).
57. Williams, III, 21.
58. *Enc. Brit.*, XI, 510d.
59. Bertrand, *D'Alembert*, 45.
60. Marten, H., XV, 397.
61. Bell, *Men of Mathematics*, 173.
62. *Ibid.*
63. 172.
64. Laplace, *Système du monde*, V, vi, in Berry, 322.
65. Laplace, *Théorie analytique des probabilités*, preface, in Nagel, *Structure of Science*, 282.
66. Quoted by Cajon in Newton, *Mathematical Principles of Natural Philosophy*, 677.
67. Sedgwick and Tyler, *Short History of Science*, 332.
68. Mousnier and Labrousse, *Dix-huitième Siècle*, 31.

CHAPTER XVI

1. Buckle, I, 66on.
2. Fuss, N., in Smith, D. E., *History of Mathematics*, I, 522.
3. Bell, E. T., *Men of Mathematics* 148.
4. *Ibid.*, 156.
5. 159.
6. Wolf, *History of Science*, 70.
7. Whitehead, A. N., *Science and the Modern World*, 91.
8. Bell, 170.
9. *Ibid.*
10. 171.
11. 185.
12. Whitehead, 90.
13. In Crocker, *Age of Crisis*, 8.
14. Bertrand, *D'Alembert*, 32.
15. Morley, J., *Diderot*, I, 123.
16. Bertrand, 143, 153, 164, Ségur, *Julie de Lespasse*, 113-14.
17. Wolf, 217.
18. Williams, *History of Science*, II, 275.
19. Smith, P., *Modern Culture*, II, 73.
20. Williams, II, 286.
21. *Ibid.*, 289.
22. 290.
23. 295, Wolf, 232.
24. Gibbon, *Essai sur l'étude de la littérature*, in *Miscellaneous Writings*, 2.
25. Williams, IV, 11.
26. Scheele, *Treatise on Fire and Air*, in Wolf, 358.
27. *Ibid.*, 350.

69 In Bell, 182.
 70 Berry, 307.
 71. Wolf, 199.
 72. Buffon, *Oeuvres*, IX, 455.
 73 *Ibid.*, 388.
 74. XI, 454.
 75. Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, II, 269
 76 Buffon, *Oeuvres*, IX, 454.
 77 Trittnet, *Architects of Ideas*, 66.
 78. Gourlie, *Prince of Rotanists: Carl Linnaeus*, 3.
 79. *Ibid.*, 34.
 80. In Hazard, *European Thought in the 18th Century*, 354.
 81 Locy, *Biology and Its Makers*, 122.
 82. Sainte-Beuve, II, 263
 83. Lecky, *History of . . . Rationalism*, II, 16
 84 Osborn, H. F., *From the Greeks to Darwin*, 7, 130
 85 Beattie, *A Court Painter and his Circle*, 272
 86 Rousseau, letter of Sept. 21, 1771.
 87 Gourlie, 270
 88 Wolf, 455
 89 *Ibid.*, 456
 90 457.
 91 *Enc Brit.*, XVIII, 3a.
 92 Locy, 199
 93 Wolf, 349
 94 *Ibid.*, 450
 95 Jardine, Wm., *The Naturalist's Library*, 24
 96 *Ibid.*, 331
 97 Sainte-Beuve II, 264
 98 Osborn 136
 99 In Butterfield, *Origins of Modern Science*, 175
 100 Buffon, *Discours sur la nature des animaux*, in Martin, II, XVI, 37.
 101 Goncourts, *Madame de Pompadour*, 145
 102 Osborn, H. F., *Men of the Old Stone Age* 3.
 103 Osborn, *From the Greeks to Darwin*, 134, and Martin, K., *Rise of French Liberal Thought*, 99-100.
 104 In Sn 1th, P, II, 518.
 105 In Buffon, *Oeuvres complètes*, I, introd 221.
 106. Rousseau, letter of Nov 4, 1764.
 107. Sainte-Beuve, II, 208.
 108 Buffon, I, introd., 22111.
 109. *Ibid.*, XII, 324-30
 110. *Ibid.* 3247
 111. Hazard, 134
 112. Voltaire, letter to Helvetius, Oct. 27, 1740
 113. Sainte-Beuve, II, 254

114 Jardine, 32.
 115. *Ibid.*, 29.
 116. In Fellows and Torrey, *Age of Enlightenment*, 588n.
 117. Garrison, F., *History of Medicine*, 334.
 118. Lovejoy, A., *The Great Chain of Being*, 233.
 119. Réaumur, *Mémoires*, in Smith, P., *Modern Culture*, II, 101.
 120. Vartanian, A., *Diderot and Descartes*, 176.
 121. Osborn, *From the Greeks to Darwin*, 118.
 122. Maupertuis in Crocker, *Age of Crisis* 81.
 123. Osborn, 114-15.
 124. *Ibid.*, 122.
 125. Lovejoy, *Essays in the History of Ideas*, 147.
 126. Turberville, A. S., ed., *Johnson's England*, II, 245.
 127. Osborn, 119.
 128. *Ibid.*, 145.
 129. 146
 130. *Ibid.*
 131 149.
 132 Brett, G. S., *History of Psychology* 423.
 133. Condillac, *Traité des sensations*, 38
 134. *Ibid.*
 135. *Ibid.*, 70.
 136. Wolf, 689.

CHAPTER XVII

1. Osler, *Evolution of Modern Medicine*, 187
 2. Sigerist, *Great Doctors*, 135.
 3 Castiglioni, A., *History of Medicine*, 602
 4. Williams, H S., *History of Science* IV, 78.
 5 Garrison, *History of Medicine*, 346.
 6. *Ibid.*
 7 Vartanian, *Diderot and Descartes*, 270.
 8 Wolf, 263.
 9 Locy, *Growth of Biology*, 443.
 10. Castiglioni, 613.
 11. Voltaire, *Philosophical Dictionary*, art. "Godd.".
 12. Garrison, 402.
 13 Besant. *London*, 380.
 14. Himes, *Medical History of Contraception*, 187.
 15. *Ibid.*, 191
 16 198.
 17. Chesterfield, *Letters*, Feb. 5, 1750.
 18 Voltaire, *Works*, XIXb, 24.
 19. Goncourts, *The Woman of the 18th Century*, 11.

20. Sée, *Economic and Social Conditions in France in the 18th Century*, 42.
21. Garrison, 321.
22. Traill, *Social England*, V, 425.
23. Chamouset in Lacroix, *Eighteenth Century in France*, 272.
24. *Ibid.*
25. Garrison, 400.
26. *Ibid.*
27. Castiglioni, 657.
28. Ducros, *French Society in the 18th Century*, 179.
29. Ercole, *Gay Court Life*, 421.
30. Harding, T. S., *Fads, Frauds, and Physicians*, 151.
31. Castiglioni, 641.
32. Traill, V, 51.
33. Montagu, Lady Mary W., *Letters*, I, 308.
34. Halsband, *Life of Lady Mary Wortley Montagu*, 111.
35. White, A. D., *Warfare of Science with Theology*, II, 55.
36. *Ibid.*, 57; Garrison, 373.
37. Voltaire, *Works*, XIXb, 20.
38. Garrison, 351.
39. Besant, 377-78.
40. Garrison, 343.
41. *Ibid.*, 110.
42. La Mettrie, *Man a Machine*, dedication.
43. *Phil. Dict.*, art. "Physicians."
44. Ford, Boris, ed., *From Dryden to Johnson*, 211.
45. Havens, *The Age of Ideas*, 345.
46. Garrison, 353; Sigerist, 237.
47. Aldis, *Madame Geoffrin*, 191; Herold, *The Swiss without Hats*, 85.
48. Brandes, *Voltaire*, II, 111.
49. Mme. d'Épinay, *Memoirs*, III, 200.

